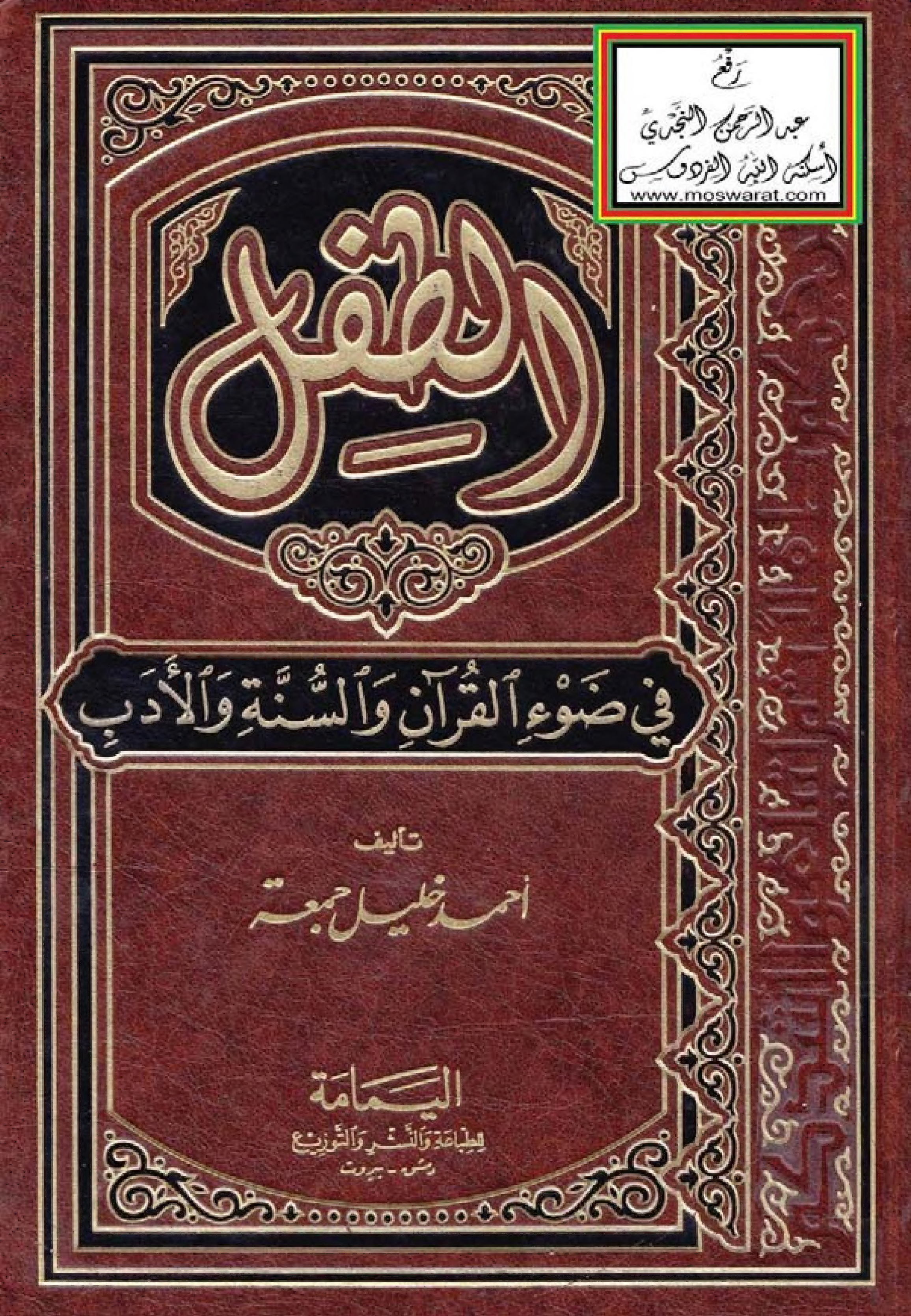

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
الطفل
في ضوء القرآن والسنة والأدب
تأليف
أحمد خليل جمعة
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الطِّفلُ

في ضَوْءِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ وَالأَدَبِ

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - برج أبو حيدر - خلف دبوس الأصلي ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ هاتف: ٧٠٢٩٥٩

الطِّفلُ

في ضوءِ القرآنِ والسُّنَّةِ والأدبِ

تأليف
أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطّباعة والنّشر والتّوزيع
دمشق - بيروت





وَأَقُولُ

رَبِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا



بين يدي الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد،

أطفال اليوم.. هم رجال المستقبل وأمهات الغد، بسواعدهم الفتية ستستمر الأمة في نهضتها، وتواصل تقدمها، وهم الثروة الأغلى التي نرعاها وننميها أملاً في الحاضر، وذخراً للمستقبل.

ولا غرو أن يزداد الاهتمام بالطفل وأن ترتبط تربيته بالعقيدة الإسلامية، لأن سلطانها أقوم وقدرتها على غرس الفضيلة أقوى.

ولا عجب أن تحظى الطفولة وخصائصها النوعية بالعديد من البحوث والدراسات، وأن ينال الأطفال الرعاية والاهتمام وأن تفتح أمامهم آفاق جديدة للتعليم والإبداع. تستهويهم وتثيرهم وتذكي في نفوسهم روح الفضول العلمي.

ولنا في القرآن الكريم منارات هداية لوسائل تربية الطفل، وفي السنة النبوية أمثلة رائعة للعناية به.

ولقد أحسن الأستاذ أحمد خليل جمعة باختيار موضوع «الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب» ليخرج بهذا المؤلف الجديد ليضاف إلى سلسلة مؤلفاته القيمة التي سبق أن اضطلع بنشرها، وتزخر بها المكتبة العربية وفي هذا الكتاب تتجلى مثابرته في تقصي المعلومة، وتتضح جهوده المخلصة بين صفحاته، وقد بين مدى اهتمام الإسلام بالطفل، تنشئة، وتربية وتعليماً، وقدم أمثلة رائدة لنماذج رفيعة متميزة من طفولة الأنبياء عليهم السلام للاستنارة بها، كما أفرد باباً عن النبي القدوة صلوات الله وسلامه عليه في تربية الطفل وتعليمه، واستعرض صوراً طيبة لنهج السلف في التربية، وزين ختام كتابه بقطوف أدبية مختارة للطفل.

ولا يسعني إلا أن أعبر عن سعادتي واعتزازي بأن الأستاذ المؤلف يشارك بجهوده التربوية والتعليمية في مدارس الرياض وهي من صروح العلم المتميزة في المملكة العربية السعودية.

بارك الله جهودنا جميعاً في تربية أطفالنا التربية الإسلامية القويمة، ونحن نستعد بهم لمواجهة المستقبل المشرق بكل الخير إن شاء الله.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

عبد الرحمن بن سعود العجاجي
مدير عام مدارس الرياض
٢٧/١١/١٤١٨هـ



همسات الطفل

يا بني، لوالديك عليك حق كبير، فقد طوقاك حباً وحناناً ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ (الإسراء: ٢٣)

كم ليلة سهرا معك إلى الفجر، وإذا مرضت أجريا دمعاً لم يجر، وتالله لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريرا ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ (الإسراء: ٢٤)

كم جرعاك حلواً وجرعتهما مريراً، وقد راعياك طويلاً فارعهما قصيراً، واذكر لطفهما بك أولاً وأخيراً ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ (الإسراء: ٢٤)

أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ ذي النِّعمِ السَّابِغَةِ ، والمنَنِ البالِغَةِ ، خلَقَ الإنْسَانَ في أحْسَنِ تقويم ، وحَبَاهُ العَقْلَ ليسْلُكَ الصِّراطَ المُستَقيم ، وَأمدَّهُ بأنواعِ العنَايةِ والتكْريم ، منذُ أنْ كانَ في المهدِ صبيّاً ، إلىٰ أنْ صارَ رجلاً سويّاً ، وإلىٰ يومِ وفاتهِ ، وانقضاءِ أيّام حياته.

* اللهمّ أَلْهِمنا كثرةَ الذِّكْر ، واجْعَلْنَا منْ أَهْلِ الشُّكْر ، واحْشُرنا تحتَ لِواءِ خاتَمِ النَّبيين ، وتجاوزْ عنّا برحمتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمين.

* والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ نبيِّ الرَّحمةِ ، وسيِّدِ الأُمَّةِ ، محمّدٍ الذي أرسَلَهُ اللهُ ﴿ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]؛ فكَانَ للإيمانِ مُنادياً ، وإلىٰ صِراطِ العَزيزِ الحميدِ هادياً ، ودعَا بحكمتهِ النِّساء والرِّجال ، وبلغَتْ دعوتُهُ أسْماعَ الأطْفَال ، فاسْتَجابَ منهمْ أصحابُ الكَمَال ، وسبَّحُوا معَهُ بالغُدوِّ والآصَال ، فَحظُوا بالسَّعادةِ وحُسْنِ المَآل. وبعْدُ:

سِفْرٌ كَأَنَّ كَلامَهُ ... أَنْسَامُ كَافُورٍ عَلَيْلَه
وَكَأَنَّ زَهْرَ رِيَاضِهِ ... هَمسَاتُ أَنغَامِ الطُّفُولَه

وَ:

بِـالطِّفْـلِ يُـوصِينَـا الإلـهُ المنْعِـمُ ... وَيعِـزُّ جـانِبَـهُ النَّبـيُّ الأكْـرَمُ
فَصَـلاحُـهُ سَعْـدٌ ونُـورٌ للـورَىٰ ... وفَسَـادُه يَـدَعُ الظَّـلامَ يُخَيِّـمُ
وَالسِّفْـرُ هَـذا منْهَـجٌ مُتكَـامِـلٌ ... يَسعـىٰ إليـهِ مُـؤَدِّبٌ ومُعَلِّـمُ
مِنْ مُحْكَمِ الآياتِ أو سُنَنِ الهُدىٰ ... قَبَسـاتُـه بِمُـرادِهَـا تَتكَلَّـمُ

* نعم أَحِبَّائي القُرّاء ، فَهذا السِّفْرُ دَوحٌ فَيْنَانٌ ، ذُلِّلَتْ قطوفُ معَارِفِهِ تذليلاً ، بعْدَ أنْ اجْتَهدنَا في جَمْعِ مادَّتهِ وتنسيقِهِ ، حيثُ إنَّ الكتابةَ عنِ الطِّفلِ ، أو للطِّفْلِ ليسَتْ أمْراً سَهْلاً ميسُوراً ، لا سيّما أنَّنا أصبحْنَا في زمَنٍ لمْ يَعُدِ الطِّفْلُ مُلْكَ أُسرتِهِ مُلْكاً كامِلاً ، إذْ تَتَناوشُهُ الجَواذِبُ المتنوّعةُ منْ هُنا وهنَاكَ ، وفي مقدّمتها: وسَائِلُ الإعْلام المختلفَةِ ، وبريقُ المدَنيّةِ ، ثمَّ المدرسةُ ، فالمجتمعُ ، فالشَّارعُ ، وما أدراكَ مَا الشَّارع؟! . .

* ومنذُ أنْ راوَدَتْني فِكْرةُ الكتابةِ عنِ الطِّفْلِ ـ منْذُ سَنَوات ـ راحتْ أسئلةٌ كثيرةٌ تنثالُ عليَّ: مَاذا عنِ الطِّفْل؟ ومَاذا نقدِّمُ للطِّفل؟ بلْ مَاذا نقدِّمُ للأسرةِ المسْؤُولَة عنِ الطِّفل؟! . .

* وكانَتِ الإجاباتُ غيرَ شافيةٍ ، وكلّما حاولتُ أنْ أسُدَّ ثغرةً ، انفتحتْ أمَامي ثَغَراتٌ ، وكلّما هَمَمْتُ بكتابةِ شيءٍ منْ هذا الكِتَاب تهيّبْتُ ، واضْطَربَ القَلمُ في يَدي ، وتلاشَتِ الأفكارُ منْ ذهْني . . .

* وتمْضِي الأيّامُ . . . . . وكنتُ خلالَها أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُسَهِّلَ عليَّ الطَّريقَ ، ويفتحَ لي هَذا المَجالَ المفيدَ ، إلىٰ أنْ يَسَّرَ اللهُ ذَلكَ ، واسْتَوَتْ فكرةُ الكِتابِ عَلىٰ سُوقِها ، وانْشَرحَ صَدْري ، وتلاشَتْ هيبةُ الموضُوعِ منْ أَمامِي ، وغَدَوتُ أشْعُرُ بأهميّةِ موضُوعِ «الطِّفْل» وتلهُّفِ النّاسِ لمعرِفةِ أحْوَالهِ في ضَوءِ القُرآن والسُّنَّةِ والأَدَب.

* لذلكَ أخذتُ أعملُ لإغاثَةِ اللَّهْفَان منْ مَصَايدِ الحِيْرَةِ ، وبدأتُ في صِياغَةِ الكتَاب ، ورسْمِ أقْسَامِهِ وأبوابِه وفُصُولِه ، ورحتُ أقْرأُ ، وَأقْرأُ ،

وَأَقْرأُ ، وأَصِلُ الليلَ بالنَّهار ، والغدوَّ بالآصَال ، والعَشِيَّ بالإبْكار ، لأُقدِّمَ شيئاً ينْتَفعُ بهِ الأطفَال ومؤدّبُو الأوْلاد ، إذِ الأطفالُ أَمَلُ المُسْتَقبلِ ومُسْتَقبلُ الأمَلِ ، فهُمُ الـذيـنَ سيتَسَلَّمُـونَ دفّـةَ الحيَـاةِ ، وسَيكـونُ منهـمُ العَـالِـمُ والأَديبُ ، والمُعلِّمُ والطَّبيبُ ، والعَامِلُ والقَائدُ ، والفَلاحُ والمجاهِدُ ، وسائرُ طبَقاتِ المُجتَمع .

* ولذلكَ حاولتُ ـ مُستمدّاً العَوْنَ منَ اللهِ ـ مدَّ مائدةٍ منْ مَوائدِ الإنْعَام الإلهيّ لحبّاتِ القُلوب ، فهُمْ حياةُ الأَرْواحِ والقُلوب ، ولتمتدَّ هذه المائدةُ وتعمَّ بفائدتها الآباءَ والأُمّهاتِ والمربّين ، وتستفيدَ منْها الأُسرةُ ، وكلّ مَنْ يودُّ الحياةَ السَّعيدةَ للطِّفلِ في أفياءِ القُرآن والسُّنَّةِ ونعيْمِهما ، بعيداً عَنْ آراءِ «المُستغربيْنَ» قَبْل المُستشرقينَ الذين جعلُوا نظريّاتِهم ـ بزعْمِهم ـ شيئاً مذكوراً يفيدُ الطِّفْلَ في تربيتِهِ ، وَأَتوا بالعَجبِ العُجاب ، وقَدْ تَناسوا المنْهج الرَّبانيَّ والنَّبويّ في تربيةِ الطِّفلِ بجميعِ شُؤونه ، بلْ وشَأْنِ الأُسرةِ كلِّها .

* ومنْ هَذا المُنْطَلقِ ، رجَعْتُ إلىٰ القُرآنِ الكريم ، فاتّخذتُه ـ أوّلاً ـ المنْهجَ الأَقْومَ الذي أرسُمُ كِتَابي وَفْقَ هديهِ في تربيةِ الطِّفل؛ ورحتُ أسجِّلُ كلَّ ما أقرأُ فيهِ عن الطِّفلِ والطُّفولة ، إلىٰ أَنِ انتظمَ لديَّ القسمُ الأوَّلُ منَ الكتابِ علىٰ الصُّورةِ التي يَراهَا القارىءُ في ثَنايَاه .

* فَفِي القُرآنِ الكريمِ وقفَاتٌ لطيفةٌ غنيةٌ ببدائعِ الفوائدِ ، وفيهِ توجيهاتٌ كثيرةٌ للطّفلِ ، ولهذهِ التَّوجيهات أثرٌ كبيرٌ في النَّفسِ ، حيثُ تجعلُ الإنسانَ أكثرَ شفافيةً إذَا مَا تدبَّرَ كلامَ الله ، ووعَاه ، وعملَ وَفْقَ مضمونهِ ، وسَارَ على نهْجهِ ، ومَنْ أَحْسَنُ قولاً منَ اللهِ؟! لهذا جعلتُ صَدْرَ الكتَابِ مزيّناً به :

وَضُمِّـنَ صَـدْرُهُ مَـا لَـمْ تُضَمَّـنْ ... صُـدورُ الغَـانِيـاتِ مِـنِ الحُلـيِّ

* ثمّ إنّي اتّخذتُ السُّنَّةَ النَّبويَّةَ وَالهديَ المحمديَّ ـ ثانياً ـ الصَّديقَ الحميمَ الذي يفيدُ في جميعِ الأحوالِ ، ففي الهديِ النَّبويِّ مَا يَشْفيْ الغَليل

ويَـرْوي الصَّادي ، ويزيدُ الحُسْـنَ بَهاءً وجَمـالاً ، فالسُّـنَّـةُ المُطهَّرةُ رديفُ القُرآنِ العَظيم ، وهي مفْـتَاحُ السَّعادةِ ، وفيْهَا ما فيْهَا منْ خيرٍ ومن حِكَم صَدَرتْ عن نبيّنا محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ.

* فالرّسولُ الكريمُ ﷺ هوَ المعلِّمُ والمربي ، وهوَ الذي صُنِعَ علىٰ عَيْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الذي قدَّمَ للطِّفلِ ألوانَ السَّعادةِ التي تجعلُه منَ الفَائزين.

ورسُولُ اللهِ ﷺ هو الذي نَظَمَ أشْتَاتَ الفَضَائلِ ، وأشرفَ الخَصَائِلِ ، وقدَّمَها للرِّجالِ والنِّساءِ ، والأطفَالِ ليتمثَّلُوها ، ويَسْتَنيروا بهَدْيها.

* لذَا فما عَسَاي أنْ أقولَ فيمَنْ جَمَعَ أطرافَ المَحاسنِ والمنَاقبِ ، وأخذَ بأهْدَابِ المحامِدِ والمكَارمِ؟! فإذا ذُكِرَ تحلَّتِ الأفواهُ بهِ ، وتعطَّرتِ الأنفاسُ بِنَداه ، وازدانتِ المجالسُ باسْمِهِ وَذِكْرِه؛ ويكفيهِ منَ الفَضْلِ يكفيهِ أنْ حظيَ بالثَّناء عليْهِ منْ ربِّهِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]..

* وقد جَعَلْتُ القِسْمَ الثَّاني من الكتَابِ حافلاً بألوانِ التَّربيةِ النَّبويّةِ في معامَلةِ الطِّفلِ وتهذيْبهِ ، وتحدّثْتُ عن أطفالٍ عاشُوا في رحَابِ النَّبيِّ ﷺ فأصبحُوا سَادةَ الدُّنيا في دُنيا السِّيادةِ.

* ولنْ أحدثَكَ ـ عَزيزي القَارىء ـ عمّا يحتويهِ هذا القسْمُ منْ نَفَائِسَ ومكَارمَ لئلا أذهبَ بِبَهاءِ رونَقِهِ وحُسْنِهِ ، بل أَدَعكَ وحْدَكَ تستخرجُ جواهِرَه ، ودُرَرَه ، ولآلِئَه:

وَأَشْهىٰ في القُلُوبِ منَ الأَماني وأَحْلَـى فـي العُيـونِ مـنَ الهُجُـوعِ

* وأمّا القسمُ الثّالثُ منَ الكتابِ ، فقد كانتِ الرّحلةُ ممتعةً معَهُ ، وطفقْتُ أقدِّمُ من خِلالهِ مَوائدَ شهيّةً من ألوانِ الآدابِ ، لِنُشْرِبَ الطِّفْلَ سلْسَالَ لُبابِ الألْباب ، وقد صَيَّرْتُ المطَالعةَ لي سميراً ، ووَرَدْتُ منَ الأدابِ ماءً نميراً ، لأقدِّمَ للطِّفلِ ـ بإذنِ اللهِ ـ خيرَاً كثيراً؛ وتاللهِ لَقَدْ حَاولْتُ أنْ أنْتَقيَ وأضعَ منْ كُلِّ شيءٍ أحْسَنَه ، ليكونَ الكتابُ حلْيَةً للنُّفوسِ ، ونزهة

للمَجالِس ، وربيعاً للأَحباب ، وأُنْساً للمُتعلّمين ، وخُصُوصاً الأَطْفَال ، لأنّهم أمَلُ الدُّنيا ، ودُنيا الأَمل ، وروحُ الحيَاةِ ، وحيَاةُ الرُّوح ، وتاللهِ لقد حاولتُ ـ قَـدْر الاستطاعةِ ـ أنْ أجمعَ في هـذا الكتابِ المتْعَـةَ والفائدةَ ، لترتاحَ بقراءتِه القُلوب ، حيثُ سَلكْتُ في ترتيبه أحْسنَ أُسْلُوب :

كَـلاَمٌ كَـالجَـواهِـرِ حيْـنَ يَبْـدو   وَكَـــالنَّـــدِّ المُعَنْبَـــرِ إذْ يَفُـــوحُ

لَـهُ فـيْ ظَـاهِـرِ الأَلْفـاظِ جسْـمٌ   وَلكـــنَّ المَعَـــانـــي فِيْـــهِ رُوْحُ

* وقَدْ رجعْتُ في كِتَابةِ هذا الموضُوعِ إلىٰ مئاتٍ مِنَ المصَادرِ والمَراجعِ والدَّواوين والكُتُبِ المتنوِّعةِ ، واللهُ وحْدَه يَعْلَمُ كمْ كلَّفَني ذلكَ منَ الوقْتِ والجهْدِ والمَالِ ، وسَهَر الليالي الطِّوال ، وأنَا دائِمُ البَحْثِ عنْ فائدةٍ ، أو مَسْألةٍ ، أو حكْمةٍ ، ليَخْرجَ الكتابُ إلىٰ النَّاسِ يحملُ في أرْدَانِه ما أصْبُو إليه منْ فائدةٍ عميمةٍ ، وللهِ الحمدُ والمنّةُ والنِّعمةُ. و﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النَّمل : ٤٠].

* وقبلَ أنْ أتركَكُمْ معَ رياضِ الكِتابِ تَهْصُرونَ أغْصَانَه وتَقْطفونَ أَزْهَاره ، أودُّ أنْ أشيرَ إلىٰ حسْنِ حَظّي فيهِ ، فقد تَفَضَّلَ الأسْتَاذُ الكريمُ عبدُ الرّحمنِ بنُ سُعود العَجَاجيّ(١) بِقِرَاءةِ هذا الكِتَاب ، وأَبْدىٰ بعضَ الملاحَظاتِ المُهمّة ، والتّوجيْهَات القيّمة ، وخَطَّ بيَراعِه كلمةً جميلةً رقيقةً تُداعِبُ المشَاعر ، فَهُوَ مُربٍّ وَأَبٌ ، وأَديبٌ ذوّاقَةٌ ، وَحَصِيْفٌ لمّاحٌ ـ وَلا أزكي علىٰ اللهِ أحَداً ـ ولكنّي أقُولُ فيهِ مَا رأيتُ مِنْ أعمالِهِ النَّافِعَةِ ، وَمَا لَمسْتُ منْ حِرصِهِ علىٰ التَّربيةِ القويمةِ تربيَةَ البَصيْر ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤].

* وممّا أكرمَني اللهُ ووفَّقني بهِ أيضاً في هذا الكتَابِ ، أنْ مَشَقَ خُطَوطَه

---

(١) الأستاذُ عبد الرحمن العجاجي هو مديرُ عام مدارس الرّياض بمدينةِ الرّياض في المملكةِ العربيّةِ السّعودية ، وهذه المدارسُ صرحٌ علميٌّ وتربوي متميز.

رائِدانِ منْ عمالقَةِ الخطِّ العربيِّ في سُورية ومِصْرَ ، وهذانِ الخطَّاطانِ منْ أسَاطينِ هذا الفَنّ في عَصْرِنا الحاضِر ، وخطوطُهما تدلُّ علىٰ مقدرتِهمَا ورهَافَةِ حِسِّهما وذوقِهما .

* أمّا أحدهُما فهوَ أميرُ الخَطِّ ، الخطّاطُ المِفَنّ الذي مَالَهُ منْ ثَان : محمّد غياثِ الدِّين الكَيْلاني ـ مِنْ دمشقَ ـ ، الذي خَطَّ عنوانَ الكِتَابِ ، فجاءَ آيةً في الإبْداع والانسِيابِ ، وأضفىٰ عليهِ منْ رُوحهِ الشَّفَّافةِ ، ما جَعَلَه لوحةً فنيّةً راقيةً في غَايةِ اللّطَافةِ .

* وأمّا الآخرُ ، فهوَ باحِثُ وفنَّانُ الخَطِّ العربيِّ ، ذو الخُلُقِ النَّبيل ، الأَديْبُ والصَّديقُ الأَصيْلُ : محمّد محمُود رُطَيْل ـ منَ الإسكندريّة ـ ، الذي أبدعَتْ أنامِلُهُ كِتابةَ الأبوابِ والفُصولِ ، فجاءتْ خطوطُه ميّاسَةً نَشْوىٰ تترنّمُ ، وتكادُ منْ حُسْنِها تختالُ وتتكلَّم .

* ثمَّ إنّني أتوجَّه بالشُّكرِ لكلّ العاملينَ في دارِ اليمامة ، ولكلّ مَنْ ساهمَ في إخْراجِ هذا الكتَاب للنَّاس .

* وأرجو منَ القارىءِ الكريمِ أنْ يخصَّني بدعوةٍ منه في ظَهْرِ الغيبِ ، وأنْ يَسُدَّ الخَللَ ـ إنْ وَجَدَه ـ فَجَلَّ مَنْ لا يُخْطِىء ، والكَمالُ للهِ وَحْدَه .

* اللهمّ انفَعْنا بما علّمْتنَا ، وزِدْنَا عِلْماً يا ربَّ العالَمين .

اللهمّ أكْرِمْنا بنورِ العِلْمِ ، وادفعْ عنّا ظُلماتِ الوَهْم .

اللهمّ وفْقنا لِما تحبُّ وترضىٰ في القَولِ والعَمل .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

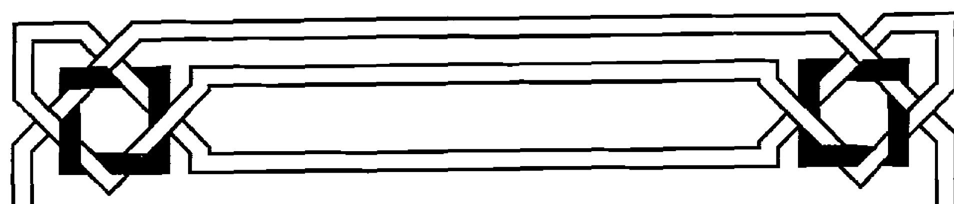
وكتَب

أحمدُ بن خليل جُمعة



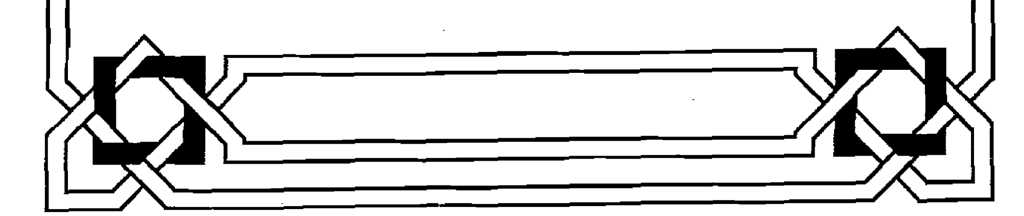
القسم الأول

الطفل والطفولة في القرآن الكريم



الباب الأول

صدى الطفل في القرآن



الفصل الأوّل

الطُّفولةُ ومراحلُ الحيَاة

* الطُّفولةُ الإنسانيّةُ تبدأُ بُعَيْدَ الولادةِ من ضَعْفٍ ، وهذا الضَّعْفُ فطريٌّ جعلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الطِّفل ، ليبدأَ رحلةَ الحياةِ بالتَّدريج منَ الضَّعْفِ والعجزِ إلى مراحلِ الاستواء.

* ومن رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالطِّفْلِ أنْ غرسَ فيهِ فطرةَ التَّعلُّم ، وقابليةَ التّربيةِ والمرونةِ التي تصاحبُـهُ في سِنيِّهِ القادمات ، وإذْ ذاك تتفتَّحُ فيه كوامنُ المواهبِ ، ليصيرَ من ذلك الطِّفْلِ الضَّعيف رجلَ الخيرِ إنْ بُذِرَتْ فيه بذورُه ، ومن ثَمَّ رُعيَ غايةَ الرِّعايةِ ، وهناك تؤتي ثمارهُ أُكُلها ، فيُعطي ويُعطي ، ويستمرُّ في العطاءِ إلى النِّهايةِ.

* هذا هو الطِّفلُ في مراحلِ الحياة ، وهي حقيقةٌ تكوينيّةٌ نعرفُها جميعاً ؛ إذ كلُّ واحدٍ منّا يمرُّ بأطوارٍ ومراحلَ تبدأُ بِخَلْق آدمَ منْ تُراب ، ثمَّ خلق الله عزَّ وجلَّ ذرية آدمَ من النُّطفة ، ثمَّ منَ العَلَقَة؛ كما ذكرَ ربُّنا عـزَّ وجـلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فهذا ابتداءُ خلْقِ سائِرِ النَّوع الإنسانيّ ما دامَ في بطنِ أُمِّـه ، فنبَّـه اللهُ عزَّ وجلَّ بالابتداءِ على بقيّـةِ الأطوار: من نطفَـة ، فالمُضْغـة ، فالعِظام ، فَنَـفْخ الرُّوح.

* ثمَّ بعد هذهِ الأطوار التي يتنقلُ فيها الإنسانُ في الخلْقَة الإلهيّةِ ، تأتي

مرحلةُ انفصالِ الجنينِ منْ بطنِ الأُمّ ليكونَ طفْلاً ، ثمَّ يبلغُ كمالَه في القُوَّةِ والعَقْلِ والبدنِ وجميعِ قواهُ الظَّاهرة والباطنة ، ويُعتقدُ أنَّ هذا يكونُ في سِنِّ الأربعين ، وبعد تلك الأطوارِ المقدَّرةِ يصبحُ في سنِّ الشَّيخوخةِ ، وتنتهي رِحْلةُ الحياةِ بانقضاءِ الأعمار ، بإذنِ العزيز القهَّار ، الذي ذكرَ ذَلك فقال: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

* هذه صورةٌ ربّانيّةٌ ذكرهَا اللهُ عزَّ وجلَّ ، حيث يخاطب عبادَه ليعقلُوا أحوالَهم ، ويعلموا أنَّ المُطوِّر لهم في هذه الأطوار ، كاملُ الاقْتِدار ، وأنَّه الذي لا تنبغي العبادةُ إلاّ له ، ففكروا في بدايةِ هذه الأطوار ، وهي مرحلةُ الضَّعف في بدايةِ الخَلْق.

* قال الإمامُ فخر الدِّين الرّازي - رحمه الله -: رتَّبَ تعالى عُمْرَ الإنسانِ على ثلاثِ مراتب: الطُّفولة ، وبلوغ الأشدّ ، والشَّيخوخة. وهذا ترتيبٌ مطابقٌ للعقلِ ، فإنَّ الإنسانَ في أوّلِ عمرهِ يكون في النَّماء والنُّشوء ، وهو المسمّى بالطُّفولة ، إلى أنْ يبلغَ كمال النُّشوء من غير أنْ يحصلَ له ضَعْف ، وهذا بلوغُ الأشدّ ، ثمّ يبدأُ بالتَّراجع ، ويبدأُ فيه الضَّعفُ والنَّقص ، وهذه مرتبةُ الشَّيخوخة[١].

* وفي موضعٍ آخرَ ذكرَ ربُّنا عزَّ وجلَّ خَلْقَ الإنسانِ من البدايةِ إلى النّهايةِ بعلْمِهِ وقدرته فقالَ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

* فلاحِظْ أنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ يخبرُ عن سَعَةِ عِلْمهِ ، وعظيمِ اقتداره ، وكمالِ حكمتهِ ، وينبِّهُ على تنقُّلِ الإنسان في أطوارِ الخلْقِ حالاً بعد حال ،

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٧/ ٨٥).

إذْ ابتدأَ خَلْقَ الآدميّين منْ ضَعْف ، هذا الضَّعفُ يبدأُ بالأطوارِ الأولى من خَلْقهِ من نطفةٍ إلى علَقةٍ ، ثمّ إلىٰ مضغةٍ ، إلى أنْ صارَ مخلوقاً في الأرحام، ويصيرُ عظاماً، ثم يُكْسى لحماً ، ويُنْفَخُ فيه الرُّوح ، ثم يُولَدُ من بطْنِ أُمّه واهِنَ القوىٰ وهو في سنِّ الطُّفوليّة ، وهو إذْ ذاك في غايةِ الضَّعف، وعدم القُوّةِ والقُدرة، ثمَّ يزيدُ اللهُ في قوَّتهِ شيئاً فشيئاً، فيشبُّ قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثمّ حَدَثاً ، ثمّ مراهقاً ، ثمّ يبلغُ مبلغَ الشَّباب ، وتستوي قوّته وتكملُ قواه بعد الضّعف ، ثم يشرعُ في النَّقص ، فيرجعُ إلى الشَّيخوخةِ والشَّيبةِ والهرمِ وهو الضَّعفُ بعد القوّة، فتضعفُ الهمَّةُ والحركةُ والبطشُ، وتشيبُ لمّته، وتتغيَّرُ فيه الصِّفاتُ الظَّاهرةُ والباطنة.

قال أبو حيّان ـ رحمه الله ـ: وجعلَ الخلْقَ من ضَعفٍ لكثرةِ ضعفِ الإنسان أو نشأتِه وطفولتِهِ ، ثمّ حال الشَّيخوخة والهرم ، والتّرداد في هذه الهيئاتِ شاهدٌ بقدرةِ الصَّانعِ وعلمِه[1].

* ولعلَّ من حكمةِ الله عزَّ وجلَّ أنْ يرىٰ الإنسانُ ضعفَ نفسِه ، وأنَّ قوتَه التي يفخرُ بها محفوفةٌ بضعفَيْن ، بل محاطةٌ بسياجٍ منَ الضَّعف ، وأنَّه ليس له من نفسه إلا النَّقص ، ولولا تقويةُ اللهِ له ، لما وصلَ إلى قوّةٍ وقدرة ، ومن الحكمةِ الإلهيّةِ أنْ أحاطَ هذه القوّة بضعفَيْن شديدَيْن ، إذ لو استمرَّت قوّةُ الإنسانِ في الزِّيادة لطغىٰ وبغىٰ وعتا ، وسلكَ سبُلَ الفتْكِ والفسادِ والإفسادِ ، فاللهُ هو مدبِّرُ الأمور وهو العلمُ الخبير.

* إنَّ مراحلَ حياةِ الإنسان إلى أنْ يكونَ طفلاً حياةٌ مكرّمةٌ ، محاطةٌ بالعنايةِ وأشدِّ التّكريم ، لأنَّها أساسُ الحياةِ ، ولحمتُها وسداها ، وجسْرها.

* * *

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٨٠).

الفصل الثَّاني
همَساتٌ من حبِّ الطِّفل في القُرآن

* القرآنُ الكريمُ لم يغادرْ صغيرةً ولا كبيرةً في هذه الحياةِ إلا أشارَ إليها وتحدَّثَ عنها ، فالقرآنُ الكريمُ كلامُ اللهِ ، وفيه الخيرُ كلّ الخير لصالحِ البشريةِ جميعاً إنْ همُ اتّبعوا رشدَه وهدْيَه.

والمتأمِّلُ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ يجدُ ما تشتهيهِ الأنفسُ وتلذُّ الأعين ، ويشعرُ بالأمنِ والأمانِ والطُّمأنينةِ ، وهو يجولُ في رحابه يقلِّبُ النَّظر والفِكْر بين آياته ، وينَدّي روحَه بسلسبيله العذب.

* وأحدِّثُكم عن نفسي في هذا المجال ، فقد كنْتُ أظنُّ أنَّ أمْرَ الكتابةِ في موضوع الطِّفل ومفهومه قليلُ الأدلّة والشّواهد في القُرآن الكريم ، وكنتُ أقول : كيف أبحثُ عن هذا الموضوع؟! بل كيف أقدِّمُ لقرّائي الأحبّاء الأعزّاء مائدةً شهيّةً غنيّةً تحفَلُ بألوانِ الأطايبِ ، وأنواعِ المشهّيات من مائدةِ القرآنِ الكريم؟!.

* ولما استخرتُ الله عزَّ وجلَّ ألفيتُ الأمورَ ميسَّرة ، إذِ القرآنُ الكريمُ قد تحدَّثَ عن الطِّفلِ والأطفالِ في عددٍ من آياتهِ ، وأشارَ مرّاتٍ ومراتٍ إلىٰ الطُّفولة والأولادِ والذُّريّة ، وتحدَّثَ عن طفولةِ بعضِ الأنبياء تعليماً وتفهيماً للنَّاس ، ومن ذلك طفولةِ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويوسُف ، وموسى ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمّد عليهم الصَّلاة والسَّلام.

* كما تحدَّث القُرآن الكريم عن حبِّ الطُّفولة ، وأنَّه من الميولِ الفطريّةِ الموجودةِ مع الإنسان ، ولئن أشارَ القرآنُ إلى محبّةِ الطِّفل ، لقد تحدَّثَ عنها بأنَّها من نعم الحياةِ وزينتها وبهجتها ، فقال: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

* لقد كانَ النَّاس يتنافسون في الأموالِ والأولادِ منذ القديم ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [سبأ: ٣٥].

* ومن الهمساتِ الحُلوة اللطيفةِ أنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ يذكرُ البنين ، ويعدُّهم من الشَّهوات التي زُيِّن للنّاس حبُّها فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤].

* إنَّ الأنسامَ القرآنيّة تهبُّ على الأسماع لتتحفنا بكثيرٍ منَ الرَّقائق بحبِّ الطِّفْل ، ومنها ما مَنَّ اللهُ على عباده من النِّعم ، ومنها الأطفالُ والبنون ، قال تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٦]؛ وقال أيضاً: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٣٣] ، وقال: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [نوح: ١٢].

* وهذه التَّوقيعاتُ الرَّبانيّةُ على أوتارِ القُلوب الإنسانيّة ، تدلُّ على تلكم الهمساتِ المعطار من حبِّ النَّاس للأطفالِ ، وأنَّهم موضعُ الفخرِ والفخارِ ، وموضعُ الاعتزازِ والكثرة والقوة.

* بيد أنَّنا نلمحُ من ناحيةٍ أخرى ، أنَّ الأطفالَ قد يكونوا من النِّقم على الأهلِ إنْ لم يحسنُوا التَّربية ، أو انحرفوا بهم عن جادَّة الصِّراط السَّوي: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التغابن: ١٥].

* وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى قضيّةٍ مهمّةٍ في حياةِ الآباءِ والأمّهات مع الأطفالِ ، وهي ما نلاحظُه ويلاحظُه كلُّ حريصٍ على تربيةِ الطِّفل تربيةً سليمةً ، من أنَّ كثيراً من الآباءِ والأمّهات تنقلبُ محبَّتُهم لأطفالِهم إلى

السَّلْب ، حيثُ يعجزُ هؤلاء عن مخالفةِ كثيرٍ من مطالبِ وأهواءِ الطِّفل ، ولو كانت مخالفةً للأخلاق ، وبالتّالي تصبحُ التَّربيةُ في غايةِ الميوعةِ والدّلال الزّائد ، ويصبحُ الطِّفل وبالاً على أبويه ، ومصدرَ شرٍّ وإزعاجٍ لهما ، وهذا ما تجنيه أعمالُهما ، ويصيرُ الطِّفل عدوّاً لهما؛ أليسَ ربُّنا قد قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]؟! فالحذر الحذر من طغيان عاطفة الحبّ المشُوبِ بخطأ العواطفِ والميولِ للطِّفل من قِبَلِ الأبويْن ، وحذار من طغيان عاطفة الأبّوةِ على تصرّفات الطِّفل لئلا يحصد الآباءُ النَّدم ، ولاتَ ساعة مَنْدَم.

* إنَّ الهمساتِ القرآنيّة التي تشيدُ بحبِّ الطِّفل أكثرُ من تلكم التي تحذِّرُ من اجتياحِ العواطفِ على العقلِ والتَّصرُّفات ، وبالتَّالي نجدُ كثيراً منَ الإشاراتِ الرَّبانيّة تملأُ الوجدان ، وتهدي العقول إلى سُبلِ الرَّشاد.

* ومنَ الهمساتِ الرّقيقةِ في حبِّ الطُّفولة ، والتي تحدَّثَ عنها القرآنُ الكريم في أكثر من سُورة ، وأكثر من موضع ، تلكم الهمساتُ الدّافقاتُ بتحقيقِ الأبوّة المثمرةِ ، أبوة نبيّ الله زكريا ـ عليه السّلام ـ الذي تقرَّبَ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ داعياً إيّاه أنْ يهبَه ذريةً طيّبةً ، علماً بأنَّ زكريا كان قد بلغَ من الكبرِ عتياً ، وعلاوة على ذلك كانت زوجُه عاقراً في حالِ صِباها ، وهي الآن عجوزٌ عقيم؟!.

* ولكنَّ نبيَّ اللهِ زكريا ـ عليه السَّلام ـ رأىٰ لمّا كفلَ مريم ابنة عمران من البرِّ واللطفِ الإلهيّ بها، ما ذكَّرَهُ ودعاه أنْ يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ الطِّفل ، على حين اليأسِ منه ، ودعا زكريا ربّه في ضراعةٍ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، واستجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ لزكريا ذلك ، فأكرمه وبشَّره بيحيى السَّيِّدِ الحصُورِ ، فكان نبيّاً من الصَّالحين.

* ومنَ المثيرِ حقّاً أنْ نجدَ رغبةَ الأنبياء وأزواجهم في الطِّفل ، ومنْ

لطائفِ الإكرامِ الإلهيّ أنْ جعلَ الطِّفل سبباً لكثيرٍ من البشارات في حياةِ الأنبياء ، وحياة نسائهم ، وهذا ما حدثَ مع نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومع زوجهِ التي بشَّرتها الملائكة بالطِّفل ـ على الرّغم من أنَّها عجوزٌ وبعلُها شيخٌ كبير ـ وكان الطِّفل إسحاق ـ عليه السّلام ـ ولَداً ذكراً لها ، ويكون له ولَدٌ وعقب ونَسْل ، فيأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ، وكانت البشارةُ بالولد منسوبةً لها ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ، ويظهرُ أنَّ البشارة لها كانت أكثرَ شوقاً إلىٰ الولَد من زوجِها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأنَّه وُلدَ له من قبل ابنه إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ من هاجر المصرية[1] .

* إنَّ حبَّ الطُّفولة في كتابِ الله قد تجاوز مفهوم الفردية ، وتخطّاها إلى الدّعوة الجماعيّة ، فالمؤمنون القانتون عبادُ الرحمن ، يبتهلون إلى الله عزَّ وجلَّ في دعائِهم وفي صلواتهم قائلين: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

* إنَّ المؤمنينَ يطلبون الذُّرِيّة الطَّيبة لتكون هذه الذّريةُ ذات نفْعٍ لهم وللعباد، فالطِّفلُ الصَّالح يكون قرة عينٍ لأبويه ، ينفعُهم في الحياةِ وبعد المماتِ.

* وفي كتابِ الله مواقفُ آسرةٌ تشيدُ بحبِّ الطُّفولة ، وتشيرُ إلى مكانتها العظمى في شؤونِ الحياةِ لجميع النَّاس علىٰ مختلفِ ألوانهم وأشكالهم.

*

* * *

---

(١) اقرأ سيرة هاجر زوج النبي إبراهيم في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة» (ص ٢٢٩ ـ ٢٦٢) طبعة دار ابن كثير الثانية بدمشق ١٩٩٨ م.

الفصلُ الثَّالث
من حقوقِ الطِّفْل في القُرآن

* تستمرُّ حياتُنا مع كتابِ الله عزَّ وجلَّ ، وتستمرُّ رحلتنا اللطيفةُ السَّاحرةُ الآسرةُ ، ونحنُ نحيا ونعيشُ هذه الأويقاتِ العطراتِ في رحابِ القرآنِ الكريم ، نتعرّفُ أحوالَ الطِّفل وحقوقَه خلالها ، ونَغْترفُ من بحارِ أنواره قبساتٍ نستضيءُ بها في درب الحياة التي نسلكُها ـ بإذن الله ـ على هدىً من اللهِ ، لنكون من السُّعداء المرضيين.

* إنَّ حياةَ الطِّفل مرعيةُ الجانب في منهجِ القرآن العظيم ، حتى عندما يكونُ جنيناً في بطنِ أُمِّه ، فلا يحقُّ لأحدٍ أن يعتديَ علىٰ حياته ، إذ إنَّ الحياة يهبُها اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهو وحده تعالى بيدِهِ الحياةُ والموت ، فمثلاً لا يجوزُ قَتْل الطِّفل خيفةً الفَقْر والإملاق ، حيث ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ، فقد كان أهلُ الجاهليةِ يئدون البنات مخافةَ الفَقْر أو العار ، فنهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ ، وضمنَ أرزاقَهم ، وجاء النَّهيُ بصيغةِ الأمْر الجماعيّ بألّا يقتلوا أولادهم فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فاللهُ جَلَّ وعلا أرحمُ بالأطفالِ من آبائهم ، فهو الذي تكفَّلَ برزقِ الأطفالِ وأهلهم ، وأخبرهم بأنَّ قَتْلَ هؤلاء الأبرياء من أعظمِ الذُّنوب ، وأي ذنبٍ أعظم من زوالِ الرّحمة من القلوب؟! وأي قلوب؟ قَلْب الوالدَيْن اللذين يُقْدِمان على إعدامِ طفلهما ، والتجرؤ على قَتْله وهو لم يذنبْ ولم يعصِ ، بل ليس بيده

شيءٌ من وسائلِ الدّفاع عن نفسه ، إذ ما يزالُ في طور الضَّعف الذي فطرَه اللهُ عليه ! ! .

* إنَّ في هذا لبلاغاً إلىٰ الدنيا بأَسْرها ، بأنَّ القرآن الكريم أوّلُ مَنْ أعلنَ حقَّ الطِّفل في هذهِ الحياة ، ورعى حقَّه فيها حقّ الرِّعاية ، فالرِّزق[1] بيده عزَّ وجلَّ في السَّماء ، وكلُّ ما في الأرض من خيراتٍ تكفي بني الإنسان كما قدَّر اللهُ ذلك ، فلماذا العِنادُ ولماذا قَتْلُ الأطفال خيفةَ الفَقْر ، ولماذا حَمْلُ الهمومِ والأثقالِ ، ما دامت الأمورُ والأرزاق بيد الكبيرِ المتعال ، خالقِ السَّماء ومرسي الجبال ، ومنشيء السَّحاب الثِّقال؟! و . . .

مَـــنْ حَـــطَّ ثقْـــلَ حُمـــولِـــهِ فـــي بـــابِ مَـــالِكِـــهِ اسْتَـــراحَـــا
إنَّ السَّـــــلامَـــــةَ كُلَّهـــــا حَصَلَـــتْ لمـــنْ ألقَـــىٰ السِّـــلاحَـــا

* إنَّ حقَّ الطِّفْل في غايةِ الصَّون والحفاظ ، ولعلَّ قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] ، هو من بابِ الخطابِ للأغنياءِ البخلاء ، بدليلِ قوله عزَّ وجلّ مباشرةً: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي مخافة وقوعِ الفقر بكم ، فاستدركَ وذكَّرهم بأنَّه يرزقُ الأولادَ قبلهم ثمّ يرزقهم[2] .

* إنَّ قَتْل الأطفالِ إنْ كان لخوفِ الفقْر ، فهو من سوءِ الظَّنّ بالله عزَّ وجلَّ ، وسوءِ التَّصوُّر في موضوعِ الرّزق ، وإن كانَ من أجلِ الغيرة على البناتِ ـ كما زعم الجاهليون ـ فهو سعيٌ في تخريبِ العالم ، وهتْكِ

---

(١) اقرأ كتابنا «الرزق» من سلسلة مفاهيم إسلامية التي تصدرها دار اليمامة بدمشق.

(٢) لعلّه منَ المفيد أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ ربّنا عزَّ وجلَّ قد نهىٰ في سورةِ الأنعام أولئك المعْسرين عن قَتْل أولادهم بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الأسراء: ٣١] ، فقدم ذكّرهم وخصّهم بالرّزق قبلَ أولادهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ، فقدَّمَ الخطاب للآباء ليكون بشارة لهم بزوالِ ما هم فيه من الإملاق ، وهذه الآية تفيدُ نَهْي الآباء عن قتل الأطفال وإن كانوا متلبّسين بالفقر ، ضيّقين بالرّزق ، فقد تكفّل اللهُ الخالقُ البارىءُ برزقِ الآباء والأبناء وجميع الخلقِ ، فليس الآباء هم الذين يرزقون أولادهم ، ولا أنفسهم ، بل لا يملكون من هذا الأمْر شيئاً.

نظامه ، وبعثرة أُلْفَته ، فالأوَّل : ضد التّعظيم لأمْرِ الله؛ والثّاني : ضد الشَّفقة على خلْقِ الله ، وكلا الأمرَيْن مذمومٌ فيه فسادٌ وإفْسَاد ، وفيه تَـعَدٍّ على حقّ الطِّفل في الحياةِ ، وإنّما نتابعُ المسيرَ في هذه المرحلةِ الميمونةِ النَّقيّةِ ، فنجدُ القرآنَ الكريم يحثُّ علىٰ العنايةِ بالطِّفلِ ، وعلىٰ الحفاظِ على حقوقهِ؛ فقد دعا إلى حفْظِ حقوقِ الأيتام في كثيرٍ منَ الآيات من أوَّله إلى آخره ، وها نحنُ أولاء نقرأُ في مطلعِ سورة النِّساء قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النّساء : ٢] ، وهذا أوّل ما أوصى به القرآنُ من حقوقِ الخلق ، وهم اليتامى الذين فَقَدوا آباءهم الكافلين لهم وهم صغارٌ ضعاف ، لا يقومون بمصالِحهم ، ولذلك أمَرَ الرّؤوفُ الرّحيمُ عبادَه أنْ يحسنوا إليهم ، وألّا يقربُوا أموالَهم ، وأنْ يؤتوهم إيّاها كاملةً إذا بلغوا ورشدوا .

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ كلمةَ اليتامى تُطْلَقُ ـ على الأغلب ـ على الأطفالِ الذين لم يبلغوا الرُّشد ، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافلٍ وقائمٍ عليهم زالَ عنهم هذا الاسْمُ ، وعندها لا تجري عليهم أحكام الأطفال .

* وفي السُّورة نفسها نجدُ ضرورةَ الإسراع بإعطاء الأيتام أموالَهم حينما يبلغون سنّ الرّشد ، ويقدرون على التّصرّف في المالِ ، قال تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ [النِّساء : ٦] ، والابتلاء معناه : الاختبار والامتحان ، وذلك بأنْ يدفعَ لليتيم المقارب للرّشد شيئاً من ماله ، ويتصرّفَ فيه التَّصرُّفَ اللائق بحاله ، فيتبين بذلك رشْده من سفهه ، فإن استمرّ غير محسن للتصرّف ، لم يدفعْ إليه مالَه ، ولو بلغَ عمراً كثيراً .

* فإنْ تبيّنَ رشْدَه وصلاحَه في ماله وبلغَ النّكاح ، يُعطى ماله كاملاً موفوراً ، ولا يجوزُ أكْل ماله في حالِ صغره ، حينما لا يمكن للطّفْل أخْذ

ماله من كافِله ، وهذا الحال من الأمورِ الواقعةِ من كثيرٍ من الأولياء الذين ليس عندهم خـوفٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ ، وليس عندهم رحمةٌ أو محبّةٌ لليتيم ، فيرون هذه الحال فرصةً لهم فيغتنمونها ، لذا فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ قد نهىٰ عن هذا التَّصرّف الشّائن في حالـةِ ضعفِ اليتيم ، ولهـذا وجَّـه اللهُ هـذا الخطاب للأوليـاءِ ، وأفهمهم بأنَّ الاختبارَ واجبٌ علىٰ الولي في شروعِ وقت تسليمِ أموالِ اليتامى ، وتجريبهم ليعرفوا الحليمَ من السَّفيه منهم .

* وفي مجالِ حفظِ حقّ اليتيم وحسنِ معاملته نجدُ الأمْرَ الإلهيَّ يؤكِّدُ علىٰ حفظ حقّه ، وعدمِ التَّعدّي علىٰ مالِهِ ، قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحى : ٩] ، والمعنى : لا تسيءْ معاملةَ اليتيم ، ولا يَضِقْ صدركَ عليه ، ولا تنهرْهُ ، بل أكرمْهُ وأعطِه ما تيسَّر ، واصنعْ به كما تحبُّ أن يُصنعَ بولدكَ من بعدك .

* قال مجاهدٌ في تفسير هذه الآية : لا تحتقر اليتيمَ فقد كنتَ يتيماً .

* وقال سُفيان : لا تظلمه بتضييعِ ماله .

* والمعنى : كُنْ لليتيم كالأبِ الرَّحيم .

* وقال الفرّاء : لا تقهرْهُ علىٰ مالِهِ فتذهبَ بحقِّه لضعفه ، كما كانتِ العربُ تفعل في أموالِ اليتامى ، تأخذُ أموالَهم ، وتظلمُهم حقوقَهم ، وروي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : «خيرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحْسَنُ إليه ، وشر بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُسَاء إليه ، ثمّ قال بأصبعه : أنا وكافلُ اليتيم في الجنَّة هكذا ، وهو يشيرُ بأصبعيه»[1] .

* ومن الحقوقِ المهمّة التي رعاها القرآنُ للطِّفل اليتيم ، والاهتمام بشؤونـه ، ما جاء في قوله عزَّ شأنه : ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰضُّونَ

(١) انظر : الفتوحات الرّبانية (٨/ ٣٦٦) .

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٧ ـ ١٩]؛ والمعنى: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أكرم هؤلاء بالغِنى، ولكنَّهم لا يكرمون اليتيم الذي فَقَدَ أباه وكاسِبَه، واحتاجَ إلى جَبْر خاطره، والإحسانِ إليه، فهؤلاء لا يكرمونَه، بل يهينونه، وهذا يشيرُ إلى عدم وجودِ الرّحمة في قلوبهم، وعدم الرغبةِ في الخير، ويُضاف إلى ذلك أنّهم لا يحضُّ بعضُهم بعضاً على إطعامِ المحاويجِ من الفقراء والمساكين، وذلك لأجلِ الشُّح على الدّنيا، ومحبتها الشَّديدة المتمكنة من القلوب، وهذا من أبلغ الذّم لهؤلاء الذين يأكلون التّراث أي المال أكْلاً ذريعاً لا يبقون منه على شيء.

* وهذه وقفةٌ رائعةٌ مع المحافظةِ على حقّ اليتيم في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]، ونلمحُ الاهتمامَ العظيمَ والكبيرَ بحقّ الطّفل اليتيم، حيث تبدأ السُّورةُ بالاستفهام والتّشويقِ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟! والجزاءُ والحسابُ يكون في الآخرة.

* ونلحظُ غيرَ المتوقَّع في الجوابِ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فهذا الذي يكذّب بالدّين هو نفسُه الذي يدفعُ اليتيم دفْعاً قبيحاً بعنفٍ، بجفوةٍ وغلظةٍ، ويهينُه ويؤذيه، ولا يعطيه حقّه، ولا يحسنُ إليه ويرعاه ولا يوصي برعايته، ولو كان مصدقاً بالدّين ما ترك اليتيم، وما قعدَ عن الحثّ علىٰ إطعامِ المسكين.

* قال أبو حيّان ـ رحمه الله ـ: وفي قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ إشارةً إلى أنّه هو لا يُطعم إذا قدر، وهذا من بابِ الأوْلَى، لأنّه إذا لم يحضَّ غيره بخلاً، فلأن يترك هو ذلك فعلاً أَوْلى وأحرى[1].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٨/ ٥١٧).

* وللرّازي ـ رحمه الله ـ وقفةٌ رائعةٌ هنا تدلُّ على الحقّ العظيمِ للطِّفلِ الذي ذكَره الله هنا ، يقولُ الرّازي : فإنْ قيل : لِمَ قال : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولم يقُل : ولا يطعم المسكين؟ !

* فالجواب أنَّه إذا منعَ اليتيم حقّه ، فكيف يطعمُ المسكين من مالِ نفسه؟ بل هو بخيلٌ من مالِ غيره ، وهذا هو النّهاية في الخسَّة ، ويدلّ على نهايةِ بخله ، وقساوةِ قلبِه ، وخساسةِ طبعه[1] .

* ومن حقوقِ الطِّفل التي تعرَّضَ لها القرآن الكريم ، الدّفاع عن الأطفالِ ، ووجوب نصرتِهم وتخليصهم منَ الاضطهادِ ومن الظُّلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النّساء : ٧٥] ، وهذا حثٌّ من اللهِ عزَّ وجلَّ لعبادهِ المؤمنين على القتال في سبيله ، لأنَّ المستضعفينَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ الذين لا يستطيعون حيلةً ، ولا يهتدون سبيلاً ، لأنَّ هؤلاء قد نالهم الظُّلم من أعدائهم ، وقد بلغَ من ظلمِ الكفّار من أهل مكةَ للمؤمنين شيئاً عظيماً حتى بلغ أذاهم وظلمهم الأطفالَ غير المكلّفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائِهم استنزالاً لرحمة الله بدعاءِ صغارهم الذين لم يذنبوا ، قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ : «كنتُ أنا وأمّي من المستضعفين من النّساء والولْدان» .

* * *

---

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٦٢) .

الفصل الرابع

الرَّعايةُ القُرآنيّةُ للطّفْل

* مما لا شكَّ فيهِ أنَّ القرآنَ الكريمَ قد عُنيَ عنايةً كاملةً بالطِّفلِ ، ولم يتركْ صغيرةً ولا كبيرةً في رعايةِ الطّفْلِ إلا أشارَ إليها ، وتحدَّثَ عنها ، وأرشدَ المربّين إلى ظلالها وثمارها .

* فقد عنيتِ الرّعايةُ القُرآنيةُ بالطّفْل قبلَ ولادته ، وتابعتْ مسيرةَ العنايةِ والرّعايةِ له وهو ما يزالُ في بطنِ أمّه ، وعزّزتْ هذه الرِّعايةُ بعْدَ مولده ، حيث رسمتْ له النَّهجَ القويمَ ، والمنهجَ المستقيمَ الذي يكْفُلُ له الحياةَ السَّعيدة الكريمةَ ، خصوصاً إذا استطاعَ الآباءُ والمربُّون أنْ يسيروا وفْقَ المنهجِ القُرآني القويم .

* فمن ألوانِ الرّعايةِ التي نوَّه بها القُرآنُ ، وأمرَ بها ، لكي يكونَ الطّفْلُ ذا شأْنٍ ومكانةٍ في أسرتِه ؛ رعايةُ حقّهِ في النَّسب حتى لا يضيعَ ويصبح هَمَلاً لا قيمةَ له في المجتمع ، وحتّى لا يذهبَ حقُّه منَ الإرثِ سُدىً ، ولذا فإنّنا نجد أنَّ القرآنَ الكريمَ قد أمرَ بالمحافظةِ على هذه النّاحية المهمّة ، وخاطبَ الجماعةَ المسلمةَ بهذا الأمْرِ فقال : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ . . . ﴾ [الأحزاب : ٥] .

* والمعنى : انسبُوا أولئك الذين تبنّيْتُموهم وألحقتم نسبَهم بكم إلى آبائِهم الحقيقيين ، فذلك أعدلُ في حُكْمِ اللهِ وشرعه ، وأصوبُ من نسبةِ الابن لغيرِ أبيه .

* ومن هنا نتبيّن الرّعايةَ القرآنيةَ الحقَّة للطّفل ، حيث إنَّ التَّبنّي حرامٌ في الإسلام؛ لأنَّه يصادمُ الحقيقة ، ولا يضعُ الأمورَ في موازينها الصَّحيحة ، ولذا فإنَّه منَ الأَوْلى والأعْدلِ أنْ يُنْسَبَ الرّجلُ إلى أبيه نَسَباً ، ويحرمُ على الإنسان أن يتعمَّدَ دعوة الولدِ لغير أبيه ، على النّحو الذي كان في عَصْر الجاهلية .

* ومن هذا المنطلقِ ، فلا يجوزُ انتساب الشَّخص إلى غيرِ أبيه ، وهو يعلم أنَّه غيرُ أبيه ، بل هو من الكبائر إذا كان على النّحو الجاهلي ، إذ كانَ الرجلُ منهم أحياناً ينتسبُ إلى غيرِ أبيهِ وعشيرته .

* وقد حذّرتِ السُّنَّة النَّبوية تحذيراً شديداً من التّلاعبِ بالنسبِ ، وجاء الوعيدُ الشَّديدُ لمن ينتسبُ إلى غيرِ أبيهِ وعشيرتهِ ، أو يغيّر نسبَه الحقيقي ، فعن سعدِ بنِ أبي وقّاص وأبي بكرة ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنِ ادَّعىٰ إلى غيرِ أبيه ، وهو يعلمُ أنَّه غيرُ أبيه ، فالجنّةُ عليه حَرام»[1] .

* بل إنَّ رسول الله ﷺ جعلَ الانتسابَ المزيّفَ كُفْراً فقال: «لا ترغَبُوا عن آبائِكم ، فمن رغبَ عن أبيهِ فهو كفرٌ»[2] .

* وقال ﷺ: «من ادّعىٰ إلى غيرِ أبيهِ أو انتمى إلى غيرِ مواليه ، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعين ، لا يقبلُ اللهُ منْه صَرْفاً ولا عَدْلاً»[3] .

* فانتماءُ الطّفلِ إلى الأبِ ، يحفظُه منَ الضَّياع ، ويحميه من التّشرُّد؛ ووجودُ ولدٍ بلا أَبٍ ينتسبُ إليه يعرضُ المجتمعَ إلى أذىً كثيرٍ ، وربّما يؤدّي إلى شرٍّ مستطير ، كما أنَّه قد يكونُ سبباً في تعييرِ الطّفل بكونه ولد زنى .

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود .
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٧٠) طبعه الحلبي بمصر .
(٣) أخرجه الشيخان .

* ومن ألوانِ الرّعايةِ القُرآنيةِ للطّفل حقّه في الرّضاع حيث أفاضَ بالحديثِ عن هذا المجالِ ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

* إنَّ الطِّفلَ في بدايةِ حياتِه وبُعَيْدَ ولادتِه ، لا يمكنُه أنْ يتغذّىٰ الغذاءَ الذي يحفظُ عليه حياتَه ، ويجعلَه يأخذُ في النّموّ ، إلا عن طريقِ رضاعِ لبنِ الأمّ أو المُرضع .

* ومنَ اللطائفِ الإلهيّةِ ، والإنعاماتِ الرّحمانيةِ على الطّفْلِ ، أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يمدُّ المرأةَ إذا ولدتْ باللبنِ الكافي لتغذيةِ المولود ، وأضافَ إلى هذا بأنْ أودعَ في قلبِها منَ الشَّفقةِ والحنَانِ والعطفِ والحنوِ ما يحملُها علىٰ المواظبةِ على إرضاعِهِ ، وعدمِ التّقزُّزِ منه؛ ومع هذا فقد أوجبَ اللهُ على المرأةِ إرضاعَ الطّفل ، ولم يتركْها فيهِ لفطرتها وعاطفتها التي قد تفسدُها الخلافات الزّوجيّة ، فيقعُ الضَّررُ على هذا الطّفل الصَّغير .

* لذا فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يفرضُ للمولودِ على أمِّه أنْ ترضعَه حولَيْن كاملَيْن ، لأنَّه سبحانه وتعالى يعلمُ أنَّ هذه المدّة هي المُثْلى من جميعِ الوجوهِ الصَّحية والنّفسيّة للطِّفلِ . ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

* إنَّ الأطباءَ المتخصّصين اليوم ، قد أثبتُوا في بحوثهم الطّبيّة في هذا المجال ، بأنَّ مدّة عامَيْن هي مدّةٌ ضروريّةٌ لنموّ الطّفْلِ نمواً سليماً من النَّاحيتَيْن البدنيّة والنّفسية ، بيد أنَّ نعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على النَّاس لمْ تنتظرْ بهم حتى يعرفوا هذا مِنْ تجاربِهم ، حيث إنَّ رحمةَ الله بعباده أوسعُ منْ تجاربِهم ، وخاصةً الرّحمة الرّبانية لهؤلاءِ الأطفال الصّغار الضّعاف الذين لا يملكونَ حيلةً ولا وسيلةً لنموهم ، والذين هم في أشدِّ الحاجةِ إلى الرّعايةِ وإلى العطفِ والحنان .

* وتمتدُّ يَـدُ الرّعايةِ القرآنيةِ للطّفل إلى أوسع من هذا ، فلقد منحتِ المرضعُ الحقَّ في الفطْرِ في شهرِ رمضانَ ، كما أنَّها أوجبتْ عليها تناول

الغذاء الذي يؤدّي إلى إدرارِ اللبنِ الذي يحفظُ الطّفل ، ويحصلُ به نموه[1].

* وعلى هذا ، فقد ذهبَ فريقٌ منَ الفقهاءِ إلى أنَّ الرَّضاعَ واجبٌ على الأُمّ ديانةً وقضاءً؛ ومعنى وجوبه ديانة ، أنَّها تأثمُ فيما بينها وبينَ اللهِ إنْ تركَتْ إرضاعَ ولدها من غيرِ عذْرٍ مسوّغ لذلك ، وتُجْبَرُ الأمُّ علىٰ إرضاع ولدها قضاءً عند الضَّرورة ، بأنْ كان الولدُ لا يقبلُ إلا ثديَها ، أو لم توجدْ مرضعٌ سواها ، أو كان الأبُ والوالدُ في عسرة لا يستطيعان دفْعَ أجرةِ امرأةٍ ترضعُه؛ ففي هذه الأحوال تُجْبَرُ الأمّ قضاءً علىٰ الإرضاع ، لأنَّها إنْ لم تُجْبَرْ تعرّضَ الولدَ إلىٰ الهلاكِ. وعلى هذا فهي تجبَرُ علَىٰ إرضاعهِ إذا امتنعتْ عنه لقولهِ تعالى: ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والآيةُ مقصودٌ بها الأمْر ، وإنْ جاءَت بصيغةِ الخبر.

* وإذا كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد أوجبَ على الأمِّ إرضاعَ الطِّفْلِ ، فإنّه قد جعلَ لها في مقابلِ ذلك حقّاً على والدِه ، وهو أنْ يرزقَها ويكسوها بالمعروفِ ، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

* إذاً ، فكلٌّ منَ الأبِ والأمّ مسؤولٌ تجاهَ هذا الطّفلِ الرضيعِ ، وكل منهما يؤدّي واجبَه في حدودِ طاقته ، محافظةً على مصلحةِ الرّضيع ورعايته وحمايته.

* وممّا نجدُهُ منْ ألوانِ الرّعايةِ والعنايةِ القُرآنية أن اهتمَّ باسْمِ الطّفل ، وجعلَه حقّاً منْ حقوقِ الطِّفل ، لأنَّ الاسمَ علامةُ الشَّيء ، لذا فإنَّ الإسلامَ قد أشارَ إلى حسنِ رعايةِ الطّفل في اختيارِ الاسمِ الحسنِ له ، وحثّ الوالدَيْن كذلك على اختيارِ الاسم ذي المعنى المحمود ، أو صفته الطّيّبة

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٥/ ٣٦٩) والمجموع شرح المهذب (٦/ ٢٩٣) بتصرف.

التي يرتاحُ لها القلبُ وتطمئنُ لها النَّفس ، أو يبعثُ على الأملِ والفأْل الحسنِ ، أو يدلُّ على الشَّجاعةِ والنشاطِ والهمّة.

* ولقد تحدَّث القُرآنُ الكريمُ عن هذهِ النَّاحيةِ في قصّة زكريا ويحيىٰ عليهما السَّلام ، حيث قالَ تعالى: ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]؛ وفي هذا دليلٌ على اختيارِ الاسمِ الحسنِ الجميلِ النّابهِ اللطيف ، الذي لم يُسَمَّ أحدٌ قبلَه بهذا الاسم.

* ولذا فمن حين ولادةِ الطّفل؛ علىٰ الوالدين اختيارُ اسْمٍ له ، وأمامهم فرصةٌ للتّفكير في تحديدِ الاسمِ لطفلهما ، وذلك حتّى اليوم السّابع لميلاده ، وقد جاءتِ الشّريعةُ الغرّاءُ بهذا الهَدْي ، فقد رُوىٰ أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الغلامُ يُعَقُّ عنه يوم السّابع ، ويسمّى ، ويُماطُ عنْه الأذَى».

* وقد روىٰ عمرو بنُ شُعيب عن أبيه عن جدِّه: أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ حين سابعِ المولودِ بتسميته وعقيقته ، ووضْعِ الأذىٰ عنه[1].

* ونلحظُ أنَّ الهديَ القُرآنيَ والـنَّبويَّ يرعيان الطّفْل في كلّ ما يهمُّه ، ويجعلُه إنساناً سوياً نافعاً لدِيْنِه ولمجتمعِه ، كما أنّنا نلحظُ توجيهَ الشَّريعة وأمْرَهَا إلى اختيارِ الاسمِ الحَسنِ ، لقولِ الرسول ﷺ: «إنّكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائِكم وأسماءِ آبائكم ، فأحسِنُوا أسماءَكم»[2].

* وقالَ ﷺ مُبَيّـنـاً لما يُسْتَحْسَنُ ويُستحلىٰ منَ الأسماء: «تسمّوا بأسماءِ الأنبياء»[3] ، و«أحبُّ الأسماءِ إلى الله عبدُ الله وعبدُ الرّحمن ، وأصدقُها حارثٌ وهُمام»[4]؛ وعنِ ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال

---

(١) تحفة المودود (ص ٦٠).
(٢) المصدر السابق (ص ٦٦).
(٣) سنن أبي داود (٤/ ٣٩٤) ، طبعة الحلبي عام ١٣٧١هـ.
(٤) انظر: مشكاة المصابيح (٣/ ٥٧٠).

رسولُ الله ﷺ: «أحبُّ أسمائِكم إليَّ عبد الله وعبد الرحمن»[1].

* وإذا كانتِ الشّريعةُ قد عُنيتْ بتسميةِ الطّفل ، فحثَّتِ الآباءَ على حُسْنِ انتقاءِ الأسماءِ ، فإنّها قد منعَتْ أيضاً التَّسمّي بأسماء مغايرة للنَّهج السَّليم ، فحرَّمَتْ من الأسماءِ كلّ اسمٍ مُعبّد لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ من مثل : عبد الكعبة ، وعبد النّبي ، وعبد الحَسَن ، وعبد الحسين ، وعبد الحَجر ؛ فقد روي أنَّ جماعةً منَ النَّاس وفدوا على النَّبيّ ﷺ ، فسمعَهم يسمّون : عبْدَ الحجَر ، فقال له : «ما اسمُك ؟» . فقال : عبدُ الحجَر ، فقال له رسولُ الله ﷺ : «إنَّما أنْتَ عبدُ اللهِ» .

* ومنَ الأسماءِ غيرِ المستحبّة ، تلك التي لها معان تشمئزُّ منها النُّفوس ، وتنفرُ منها الطّباعُ من مثل : مرّة ، وكَلْب ، وحيّة ، وحَرْب ، وما شَابَه ذلك . فقد جاءَ عن يعيش الغِفْاري ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا بناقةٍ ـ أو شاة ـ ، فقال : «مَنْ يحلبُها»؟

فقامَ رجلٌ فقال : أنَا .

فقال : «ما اسمُكَ»؟

قال : مُرّة .

قال : «اقْعُدْ» .

ثمَّ قامَ آخر ، فقال : «ما اسمُك»؟

قال : جَمْرة .

قال : «اقعُدْ» .

ثمَّ قام رجلٌ آخر ، فقال : «ما اسمُك»؟

قال : «يعيش» .

---

(١) أخرجه مسلم ، وانظر : مشكاة المصابيح (٢/ ٥٦٥) .

فقال: «احلبْهَا»[1].

* وقد ثبتَ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه أمرَ بتغيير الاسمِ القبيحِ أو المخالفِ للشَّريعة إلىٰ اسمٍ يحملُ معنىً سامياً، فقد غيَّر ﷺ اسمَ عاصية وقال: «أنتِ جَميلة»[2]؛ وكان اسمُ جُويرية: برّة فغيّره رسولُ الله ﷺ باسمِ جُويرية[3]، وقالت زينبُ بنتُ أمِّ سلمة: نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يسمّى بهذا الاسم فقال: «لا تُزكُّوا أنفُسَكم، اللهُ أعلمُ بأهلِ البرِّ منكم»[4].

* والحكمةُ التي دعَتْ إليها الشّريعةُ في تحسينِ الأسماءِ، ألاّ يشمئزَّ الطِّفلُ من اسمهِ، ولا يشعرَ بنفورِ النّاسِ منه، فيدعوه ذلك إلى كراهةِ المجتمعِ حولَه، وربما أدّى به ذلك إلى أنْ يعتزلَ النّاس.

* قال ابنُ قيم الجوزية في تعليلِ تحسين الأسماء: لمّا كانتِ الأسماءُ قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها، اقتضتِ الحكمةُ أنْ يكونَ بينها ارتباطٌ وتناسبٌ، وألا يكون المعنى معها بمنزلةِ الأجنبي المحضِ الذي لا تعلق له بها، فإنّ حكمة الحكيمِ تأبىٰ ذلك، والواقعُ يشهدُ بخلافِه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسمّيات، وللمسمّيات تأثر عن أسمائِها في الحُسْنِ والقبْح، والخفّة والثقل واللطافة والكثافة كما قيل:

وقَـلَّ إنْ أبصـرَتْ عينَـاكَ ذَا لَقَـبٍ ... إلاّ ومعنـاهُ إنْ فكَّـرْتَ فـي لَقَبِـهِ

* ويقولُ: وتأمّل كيفَ اشتقَّ للنّبي ﷺ من وصفِه، اسمان مُطابقان لمعناه وهما: أحْمَد ومُحمّد، فهو لكثرةِ ما فيهِ من الصِّفات المحمودة:

---

(1) انظر: تحفة المودود (ص ٧٠)، ومفتاح دار السعادة (ص ٥٩٥) وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على كراهةِ النبي ﷺ لمثلِ هذه الأسماء، فمنعَ مَنْ تسمّى بها مِنْ مباشرةِ عملٍ له.
(2) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود من حديث ابن عمر أنها كانت تحت عمر.
(3) أخرجه مسلم وأبو داود.
(4) أخرجه أبو داود.

محمّد ، ولشرفها وفضْلِها على صفاتِ غيره: أحمد ، فارتبط الاسمُ بالمسمّى ارتباط الرّوح بالجسَدِ[1] .

* ومن ألوانِ الرّعايةِ للطّفلِ: العقيقةُ ، وهي الذَّبيحةُ التي تذبحُ عن المولودِ يوم سبوعهِ عند حَلْق شَعْرِه .

* فالشريعةُ الغَرّاءُ تدعو إلى بذْلِ المالِ تعبيراً عن السُّرور والابتهاج بمقْدَمِ الطّفل ، فتدعو إلى تقديم الفدى عنه ، فحدَّد شاةً عن البنْتِ ، وشاتَيْن عن الغُلام ، فعن أمّنا عائشةَ بنتِ الصِّدّيق ـ رضي الله عنهما ـ أنّها قالَتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ «عن الغلامِ شاتان مكافئتان ، وعن الجاريةِ شَاة» .

* ولما كانتِ العقيقةُ ذاتَ أهمّيةٍ كبيرةٍ للطِّفْل ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد فَعَلَ ذلك في حفيدَيْهِ الحَسنِ والحُسين ـ رضي الله عنهما ـ .

* قالت أمُّنا عائشةُ ـ رضوان الله عليها ـ: عقَّ رسولُ اللهِ ﷺ عن الحسن والحُسين يومَ السَّابع ، وسمّاهما وأمرَ أنْ يُماطَ عن رؤوسِهما الأذى[2] .

* ومنَ الألوانِ المهمّة في رعايةِ الطّفْلِ والتي أشارَ لها القرآنُ الكريمُ والشَّريعةُ الغرّاء: النَّظافة ، فنحنُ نعلمُ أنَّ النظافةَ روحُ الحياةِ ، وأنَّ نظافَةَ الطّفْلِ والعنايةَ به تجعلُه يشعرُ بروحِ الحياةِ وجمالِها .

* ومنَ الأمورِ التي تتعلّقُ بنظافةِ الطّفلِ والعناية به: الخِتَانُ ، وحَلْقُ

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ١٧) وما بعدها باختصار. طبعة مصر.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب (٨/٣٤٣). والمستحبُّ في العقيقة أنْ يفصل الإنسانُ أعضاءها ، ولا يكسرَ عظامها ، تفاؤلاً بسلامةِ المولود ، ويستحبّ أنْ تطبخ بحلو تفاؤلاً بحلاوةِ أخلاقِ المولود ، واستحباب جَعْلِ الحلو مع لحم العقيقة ، هو لأن النبيَّ ﷺ كان يحبُّ الحلوىٰ ، وقد ثبت في الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يحبُّ الحلوىٰ والعَسَل. ويستحبّ أنْ يأكلَ منها ، ويهدي ، ويتصدق ، لأنه إراقةُ دمٍ مستحبّ ، فكان حكمُها كالأضحية .

الرّأسِ ، وبذْلُ الوسعِ في العنايةِ التّامةِ بنظافةِ بدنِه وثوبِه ، وقد جاءَ في الحديث : «إنَّ الله نظيفٌ يحبُّ النَّظافَةَ»[1] .

* والختانُ من محاسنِ الشَّرائع التي شَرعَها اللهُ عزَّ وجلَّ للعبادِ ، فهو مكمّلُ الفطرةِ التي فطَرهم عليها ، بل إنَّ الختانَ من الفطرةِ ، فقد روىٰ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنَّه قال : «الفطرةُ خمسٌ : الختانُ ، والاستحدادُ ، ونَتْفُ الإبط ، وقصُّ الشَّارب ، وتقليم الأظافر»[2] فجعلَ الختانَ رأسَ خصالِ الفطرةِ التي فطرَ اللهُ النّاس عليها ، وهذا يتَّفقُ مع تأويلِ مَنْ تأوَّلَ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] ، على الخِتانِ .

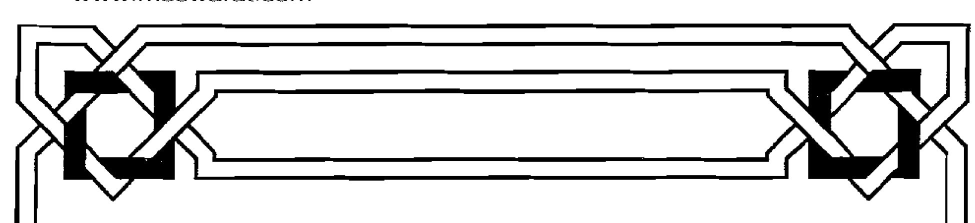
* قال ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ : إنَّ النَّصارى كان إذا وُلِدَ لأحدهم ولَدٌ ، فأتى عليه سبعةُ أيّام ، صبغوه في ماءٍ لهم ، يُقال له : المعمودي ، ليطهّروهُ بذلك ، ويقولون : هذا طهورٌ ، مكانَ الخِتان ، فإذا فعلُوا ذلك صار نَصْرانياً حقّاً ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية[3] .

* وللختانِ فوائدُ عظيمة ذكرتْها كتبُ الفقْه ، كما أشارت إليها كتبُ الطّبّ الحديثةِ المتخصّصة .

* * *

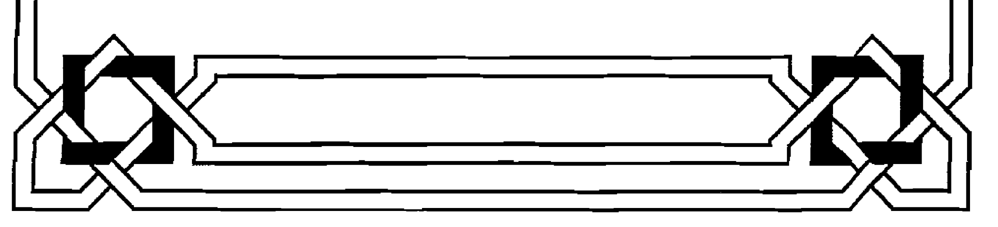
---

(١) أخرجه الترمذي ، انظر : عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٤٠) .
(٢) فتح الباري (١١/ ٨٨) .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (٢/ ١٤٤) والكشاف (١/ ٢٤١) ، وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٢) .



الباب الثاني

اهتمام القرآن بالطفل وتأديبه



الفصل الأوّل
من معَاني كلمةِ الطِّفْل في القُرآن

* وردت كلمةُ الطِّفل واشتقاقاتها أربعَ مرّات في القُرآن الكريم على النّحو التّالي: (الطِّفل ـ طفْلاً ـ مرتان ـ الأطفال).

* وقد جاءت هذه الكلمةُ واشتقاقاتُها في ثلاثِ سُور من القرآن الكريم، وليس معنى هذا أنَّ القرآنَ لم يهتمَّ بمسألةِ الطِّفل، بل هناك آياتٌ كثيرةٌ تشيرُ إلى الأطفالِ، ولكنْ بألفاظٍ أخرىٰ، من مثلِ لفظة [فتى ـ فتية ـ صبياً ـ غلام ـ وَلَد ـ أولاد ـ صغيراً ـ بنيّ. . .] وما شابَه ذلك، ولكلٍّ كلمةٍ أو لفظةٍ مدلولُها حسب ما تَرِدُ في آياتِ القرآن الكريم.

* ففي سورةِ النّور نَجدُ لفظةَ (الطِّفل) في قولهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]، والمقصودُ بالطِّفل هنا: الأطفال الذين هم دون سنِّ التّمييز، فإنّه يجوزُ نظرهم للنّساء الأجانب، وقد علل اللهُ ذلك بأنّهم لم يظهروا على عوراتِ النِّساء، أي ليس لهم علمٌ بذلك، ولا وُجدت فيهم الشَّهوة بعد، ودلّ هذا أنَّ المميزَ تستترُ منه المرأةُ، لأنَّه يظهرُ على عورات النِّساء.

* وجاء في تفسيرِ البيضاوي لهذهِ الآيةِ قوله عن الأطفالِ: لم يظهروا على عوراتِ النِّساء لعدم تمييزهم من الظُّهور بمعنى الاطلاع، أو لعدمِ

بلوغهم حدَّ الشَّهْوة من الظُّهور بمعنى الغَلَبة .

* وفي كتابِ الرَّوضة : وجعل الإمامُ أمْرَ الصَّبي ثلاثَ درجات :

إحداها : أنْ لا يبلغَ أنْ يحكيَ ما رأى .

والثّانية : أنْ يبلغَه ولا يكون فيه ثوران شهوة .

والثالثة : أن يكونَ فيه ذلك .

فالأوّلُ : حضورُه كغيبتهِ ، ويجوزُ التّكشّفُ له من كلّ وجْه .

والثّاني : كالمحرِم .

والثَّالث : كالبالغ .

واعلمْ أنَّ الصَّبيَّ لا تكليفَ عليه ، وإذا جعلناه كالبالغ فمعناه أنّه يلزمُ المنظورَ إليها الاحتجاب منه ، كما أنَّه يلزمها الاحتجاب من المجنونِ قَطْعاً .

* وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية نفسها : إنَّ الأطفالَ لصغرهم لا يفهمونَ أحوالَ النِّساء وعوراتهنّ؛ من كلامهنّ الرّخيم ، وتعطفهنّ في المِشْيةِ وحركاتهنّ وسكناتهنّ ، فإذا كان الطّفلُ صغيراً لا يفهمُ ذلك فلا بأْسَ بدخوله علىٰ النِّساء ، فأمّا إنْ كانَ مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرفُ ذلك ويدريه ، ويفرّق بين الشَّوهاء والحسناء ، فلا يُمَكَّنُ من الدّخول على النّساء[1] .

* ووردتْ لفظةُ (الأطفال) في سورةِ النُّور في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [النور : ٥٩] . في هذه الآيةِ الكريمةِ إشارةٌ إلىٰ الأطفال ، وإلىٰ تعليمهم الأدبَ في الاستئذانِ ، وتعليمهم العِلْمَ والآدابَ الشَّرعيّة التي تغرسُ السَّعادةَ في المجتمعات ، لأنَّ تعليم الأطفال

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٦) طبعة دار ابن كثير الأولى بدمشق عام ١٩٩٤ م .

الأدبَ السَّامي في أنْ يستأذنوا في كلّ الأوقات كما يستأذن الرّجال دليلٌ على الاهتمام بهم ، وتعليمهم شَرْعَ اللهِ؛ قال البيضاوي: كرّره تأكيداً ومبالغةً في الأمر بالاستئذانِ[1] .

* ووردت لفظةُ (طفْلًا) في موضعَيْن:

الأوّلُ: في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

والثّاني: في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

* ويمكن أن نوجزَ معنى الآيتين بما يلي فنقول: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبقي في الأرحام منَ الحملِ الذي لم تقذفْهُ الأرحامُ ما يشاءُ إبقاءَه إلى أجلٍ مسمّى وهو مدّة الحمل ، ثم يخرجُ الحملَ طفْلاً من بطونِ الأمّهات ، لا يعلم هذا الطّفل شيئاً ، وليس له قُدرة ، وسخّر له أمّه ، وأجرى له في ثديها الرّزق ، حتى ينتقل طوراً بعد طور ، فمن نطفةٍ إلى علقةٍ ثم مضغة ، ثم بقية الأطوار ، حتى يخرجَ إلى الحياة ، ويصبح كامل العَقْل والقوّة.

* إنَّ القُرآن العظيمَ جاء بهذِهِ الآداب كيما يرسخها الآباءُ في الأبناءِ ، وذلك امتثالاً لأمْرِ الله عزَّ وجلَّ ، ولا يخفىٰ ما في هذه اللفتاتِ القرآنيّة ، منَ الاهتمامِ العظيمِ بتربيةِ الأطفال تربيةً سليمة ، على قواعدَ متينةٍ ، ذات أساس من الأخلاقِ الفاضلةِ ، والآداب السُّلوكيّة في الحياةِ الاجتماعيّةِ ، ومنها أدبُ الاستئذان[2] .

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

(٢) يبيّنُ القرآنُ الكريمُ آدابَ الاستئذانِ للصّغار علىٰ أهليهم حينما يكونون في سِنّ ما قبل البلوغ ، ويجعلُ هذا الاستئذان في ثلاثة أحوال:
١ ـ مِنْ قبل صلاةِ الفجر لأنَّ النّاسَ عند ذلك يكونون نياماً.
٢ ـ وقتَ الظّهيرة لأنّ الإنسانَ قد يضعُ ثيابَه في تلك الحالِ مع أهله. =

* إنَّ القرآنَ الكريمَ عندما تعرَّض لموضوع الطِّفل في هذه الآدابِ ، لَيشيرُ إلى أنَّه قد اهتمّ في تنشئَة الطِّفلِ على السُّلوكِ الواضحِ الطَّاهر الممزوجِ بالحياءِ والمحمود الممدوحِ ، حتى إذا بلغَ أشدّه واستوىٰ كان خيّراً كريمَ الأخلاق ، حميدَ الفعال.

* ولعلَّ مفهومَ الاستئذان في شريعةِ الإسلام من أرفعِ الآداب ، إذ هو أدبٌ وذوقٌ ، وعلينا أنْ نغرسَ في نفوسِ الأطفالِ هذا المفهوم ، ونعلّمهم ألا يلجَ الطِّفلُ بيتَ قومٍ حتى يؤذن له في الدُّخول ، ولا يرسل بصره إلى ذلك البيتِ من خلال فجواتِ الجدار ، أو الباب ، أو النَّوافذ ، وألا يقفَ أمام الباب حتى لا يرىٰ مَنْ بداخله ، بل يقفُ على جانب ويستأذن ، ويكون في استئذانه مؤدّباً فلا يطرقُ البابَ طرقاً عنيفاً قوياً متواصلاً حتى لا يزعجَ مَنْ في المنزلِ ، ولا يلحُّ في طلبِ الإذن ، بل يستأذنُ ثلاثَ مرّات ، فإنْ أُذِنَ له دخلَ ، وإلاّ رجع.

* ويجبُ أنْ نُعلِّم الطِّفل أنْ يذكرَ اسْمَه عند الاستئذان حتى يعرفَه صاحبُ المنزلِ ولا يقول أنا ، وإذا أَذِنَ له بالدّخول ، فليدخل بأدبٍ ، ويسلّم بقوله: السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته.

* وهكذا ينبغي علينا أنْ نربيَ الأطفالَ على هذا الأدبِ الرّفيع ، في ضوءِ القرآنِ الكريمِ ، الذي تُتْلى آياتُه في المحاريبِ ، تُذكِّرُ بالاستئذانِ والآدابِ العامّة[1].

= ٣ ـ منْ بعد صلاةِ العشاء لأنَّ الوقتَ وقتُ راحةٍ ونوم.
ولا يخفىٰ ما في هذا الاستئذان في هذه الأوقات الثّلاثة من تعليمِ الطِّفْل أصولَ الأدب مع أهلهِ ، كيلا يرى إذا دخلَ ما لا تُحمدُ عقْباه ، أمّا إذا بلغَ الأطفالُ سنّ الرُّشد ، فيجبُ عليهم أنْ يستأذنوا في كلِّ الأوقاتِ امتثالاً لأمْر العزيز العليم.

(١) سنتحدث عن أدب الاستئذان والتربية القرآنية له في فصل خاص من ثنايا هذا الكتاب بإذن الله.

* وأودُّ أنْ أشيرَ إلى أدبٍ آخر أصبحَ الآن من ضروراتِ الحياة ، وهو أدبُ الحديثِ علىٰ الهاتفِ «التّليفون» ، حيثُ أضحىٰ الهاتفُ في زماننا وسيلةَ اتّصالٍ واستئذان ، لذلك يجبُ أنْ نعلِّم الأطفالَ آدابَه وفْقَ الأوقاتِ التي يكونُ الاتصالُ فيها صالحاً ، وننهاهم عنِ الاتصالِ في الأوقاتِ الحرجة ، فمثلاً عند النّوم في الليلِ ، أو عند القيلولةِ من الظَّهيرة ، أو قبل صلاةِ الفجر.

* كما يجبُ علينا أنْ نُعلّمَ الطِّفلَ كيف يتحدَّثُ في الهاتفِ ، ونعلِّمَه أنْ يختصرَ الوقْتَ فلا يطيل الحديثَ ، وألا يكون في فَمه طعام ، وألّا يتحدثَ في مواضيعَ فرعيةٍ ليس لها علاقةٌ بصلبِ الموضوع ، وأنْ يبدأَ اتصاله بالسَّلام والتّعريف باسمهِ وطلبهِ ومَنْ يطلب ، فإذا أغْفلنا ذلك أصبحَ الهاتفُ وسيلةَ خسارةٍ وإزعاجٍ ، ومصيبةً صامتةً متكلّمةً في آنٍ واحد.

* إنَّ الإنسانَ الموفَّقَ النَّاجحَ هو الذي يجتهدُ في تعليمِ الأطفالِ الآدابَ القُرآنية ، ويحضُّ الأطفالَ على أدبِ الاستئذان وأدبِ الحديث ، والحوارِ مع الآخرين ، لتنمو في أخلاقهِ مكارمُ الفضائل وفضائلُ المكارم ، ويكون من أصحابِ الخُلُق الحسَنِ والسُّلوك السَّويّ ، فهل منْ مجيب؟! . .

* * *

الفصل الثّاني
منَ الطُّفولةِ إلى الأشدّ

* في هذا الفصلِ نقفُ وقفةً علميةً عند قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [غافر: ٦٧]، فنحنُ نعلم أنَّ الطِّفلَ في لحظةِ خروجه من بطنِ أمّه، وبمجرد ملامسته للهواء، يشهقُ ومن ثمَّ يصرخُ، وهذه اللحظة تُعتبرُ عادةً بدايةَ العمرِ الزَّمنيّ للإنسان، لكنَّ الطّفلَ في الحقيقةِ قد عاشَ قبلها تسعةَ أشهرٍ في بطنِ أُمّه، قال الشّاعر:

وَلَـدتْـكَ أمُّـكَ يـا بْـنَ آدمَ بـاكيـاً ... وَالنَّاسُ حولَكَ يضْحكونَ سُرورا
فاعْمَلْ لِنَفْسِك أنْ تكونَ إذا بكوا ... في يومِ مَوتكَ ضَاحِكاً مَسْرورا

* وهكذا يخرجُ الطِّفلُ إلى الدنيا ضعيفاً عاجزاً، ويمتدُّ به هذا العجزُ مدّةً طويلةً يحتاجُ فيها إلى عنايةٍ كبيرة ورعايةٍ فائقة، كما يحتاجُ فيها إلى أنفاسٍ حانياتٍ ومشاعرَ لطيفات، ولهذا تعتبرُ طفولةُ الإنسانِ أطول طفولةٍ بين المخلوقاتِ الأخرى التي تحملُ وتضعُ بطريقةٍ مشابهة.

* إنَّ ما نفهمُه من ذكْرِ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ يشيرُ إلى أنَّ مرحلةَ الطُّفولةِ مرحلةٌ مستقلّةٌ، ومن ثم جاءَ العطفُ علىٰ مرحلةٍ أخرى هي مرحلةِ الأشدّ بحرف العطفِ (ثُمَّ)، وهذا ممّا يفيدُ طول المدّة التي تستغرقُها الطّفولةُ، وبين الخروج طفلاً وبلوغِ الأشدّ مراحل من النمو، نعم مراحل عديدة وبطيئة من النّمو، ولا ندري ما السِّرُّ الإلهيّ الذي جعلَ الإنسان يولدُ هكذا، ولا يولدُ الطّفلُ حركيّاً كالحيواناتِ! والذي يبدو منْ

هذا ـ والله أعلم ـ أنَّ حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ قد اقتضتْ أنْ يُمْضِيَ الإنسانُ فترةً طويلةً منَ الحضانةِ كيما تكون فرصةً كافيةً لتربيةٍ عقليّة ، حيث إنَّ السَّلوكَ الإنسانيَّ هو سلوكٌ إرادي ، يتعلّمه منَ البيئةِ التي ينشأُ فيها ، وليس سلوكاً غريزياً موروثاً يناسبُ البيئةَ ، كالحيوانات مثلاً التي تولد وتمشي فوراً .

* وعلى الرّغم من الضَّعف الذي يكونُ عليه الطِّفل بعد ولادته ، إلا أنَّ جسمَه الضَّعيفَ العاجزَ يكون مزوّداً بقدرةٍ جبّارة على تجاوزِ هذا الضَّعفِ شيئاً فشيئاً ، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ [الروم : ٥٤] .

* وممّا يساعدُ الطِّفْل علىٰ ذلك أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد جعلَ خلقتَه الإنسانيةَ تامّة قبل ولادته ، وأنَّ النّمو الذي سيتمُّ في مرحلةِ الطُّفولة إنّما هو كِبرٌ في الحجْمِ ، وقوةٌ في الأعضاء ، ومزايا جديدةٌ ضمنَ الخلْقِ الآخرِ على المستوى الجسميّ والنَّفسيّ والعقليّ .

* ولعلَّ من أهمِّ الخصائصِ الإنسانيّة التي يكتسبُها الطِّفل في هذهِ المرحلةِ هي المشيُ على رجليهِ ، واستعمالُ لغةِ الخطاب .

* ومن العجيبِ حقّاً أنَّ الطِّفل يختصرُ تعلُّم المشي واللغةِ في مدّةٍ قصيرة ، وذلكَ لحاجتهِ إليهما بصورة عاجلةٍ مُلحّةٍ ، فهو يحتاجُ إلىٰ عمليةِ المشي ، وإلى اللغةِ في قضاءِ حاجاتهِ والتَّعبير عنها .

* يقولُ العُلماء والأطبّاء : إنَّ عمليةَ المشي عمليةٌ معقّدةٌ ، يتدخَّلُ فيها الدِّماغُ ، والعضَلاتُ الإراديّة كلُّها ، ولكنَّ اكتسابَ اللغةِ عمليةٌ أشدُّ تعقيداً من عمليةِ المشي ، حيثُ إنَّ المعجمَ اللغويَّ والتَّراكيبَ والمفرداتِ اللغويةَ التي يتعلّمُها الطِّفلُ في هذه المدّةِ الوجيزةِ بالغةَ التَّعقيد ، وهذا ما دعا المدرسة التّوليديّة التّحويليّة في علْمِ اللغة أنْ تقولَ بوجودِ استعداد سبقَ لتعلّم الطِّفل اللغة ، وتتصدَّر هذه النّظريّة الدّراسات اللسانيّة الحديثة .

* ومنَ الحكمِ الإلهيّةِ العظيمةِ الدَّقيقةِ ، أنْ يُولدَ الطِّفْلُ باستعداد فكري

لتعلُّم اللغةِ ، وذلك دون أنْ يُولدَ متعلِّماً لغةً معيّنةً ، وهذا من رحمةِ اللهِ وبديعِ صُنْعه ، لكي يكتسبَ الوليدُ بعد الولادةِ لغةَ بيئتهِ التي سيحتاجُ إلى استعمالها .

* ومنَ الملفتِ للنَّظر أنَّ الطِّفْل يتغلَّبُ على كلّ المعوقاتِ أثناءَ اكتسابِ اللغةِ والمشي ، وذلك بشكلٍ أدْهشَ المتخصصين في دراسةِ نمو الطِّفل ، حيث إنَّ الطِّفْل الأصمَّ أو الأبكمَ يتعلّمُ اللغةَ المكتوبةَ ، كما يتعلَّمُ الطِّفْل الأعمىٰ اللغةَ الشَّفوية بالسَّماعِ من غيرِ رؤيةِ صورةِ الحروفِ والمسميَات .

* وعلى الأغلبِ يكونُ الطِّفل ماهراً في اللغةِ والتَّعبيرِ والكلامِ بُعَيد السَّنَةِ الثَّالثةِ أو الرَّابعة ، أمّا المهارةُ في المشي فيمكنُ أنْ تتكامَلَ قُبيل السَّنة ، والأطفالُ ليسوا على درجةٍ واحدةٍ في هذا ، وإنّما نتحدَّثُ عن الأشياءِ المتقاربةِ والمتعارفِ عليها .

* * *

الفصلُ الثَّالث
منْ صُوَر تأديبِ الطِّفْل في القُرآن

* من الصُّورِ الواضحةِ في تأديبِ الطِّفل في القرآنِ الكريم ، صورةُ تأديبِ لقمانَ لابنه ، وتلكم الصُّور من أكْملِ الصُّورِ الشَّاملةِ في تبيانِ الآدابِ العامّة للطفْل .

* وحِكَمُ لقمانَ وتأديبه لابنه ثابتةُ الأصولِ في منابتِ التَّربيةِ ، لها قيمتُها الإنسانيّةُ والاجتماعيّةُ والأدبيّةُ ، بل والنّفسيّةُ والجسميّةُ ، فهي تخاطبُ النَّفسَ البشريّة خطاباً رقيقاً كخطابِ الطَّبيب الذي يعرفُ الدَّاء والدَّواء .

* وربما يعظُ المربّونَ ويرشدون إلىٰ طرقِ الخير ، وربما يكون إرشادهم بإخلاصٍ تام ، إلا أنّهم يكونون لأطفالهم أكثرَ إخلاصاً ، وأكثرَ حبّاً .

* ونحنُ نرى أنَّ لقمانَ الأبَ الحكيم ، ينظرُ إلى ابنهِ نظرةً ملؤها المحبّة والرّحمة ، وحتى لا يضلَّ يضعُ له قانوناً رائعاً في التّأديبِ والوعظِ ، ويعطيه عصارةَ ما أدَّبه به الدَّهْر ، لكي يساعده علىٰ متابعة حياته ، ولكي يكون إنساناً سوياً في كلّ شيءٍ في ديْنِه ، وأفعالِه ، وأقوالِه .

* ولقد صاغَ القرآنُ الكريمُ صورَ هذا التّأديب في إحدى عشرةَ موعظةً ، وخلَّدَ وصاياه الرَّائعة التي تشملُ أصولَ العقيدةِ والعبادةِ والأخلاقِ الكريمةِ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ

ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٨].

* فقد اشتملتِ الآياتُ السَّابقة على رقائقَ تأديبيّة ، حيثُ نلاحظُ أنَّ لقمانَ يؤدِّبُ ولدَه ويعظُه ، فيأمره بتوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ونبذِ الشِّرك ، لأنَّ الشِّركَ جريمةٌ كبرى وظلمٌ عظيم ، بل إنَّ الشِّرك أقبحُ الذّنوب وأعظم الجرائم عند اللهِ عزَّ وجلَّ ، لأنَّ الشِّرك ظلمٌ صارخٌ ، إذ إنَّه وضْعٌ للشّيء في غير موضعِه ، فمن سوّىٰ بينَ الخالقِ والمخلوقِ ، وبينَ الإلهِ والصَّنم ، فهو بلا شكّ أحمقُ النَّاس وأبعدهم عن منطقِ الحكمةِ ، وحريٌّ به أنْ يُوصفَ بالظُّلم ، ويُجْعَل في عدادِ البهائم.

* ويأتي برّ الوالدَيْن والإحسان إليهما بالقولِ والفعلِ ، والنّواحي الماديّة والمعنويّة بلطفِ الكلام والنَّظر إليهما بتقديرٍ واحترام ، والمصاحبة لهما في الدّنيا بالمعروف بإكرامهما وإطعامهما وكسوتهما وملاطفتهما ، وسماع كلمتهما بالحقّ والمعروفِ ، ورفضِ شيءٍ واحدٍ لو طلباه من الولد ، هو الدَّعوةُ إلى الشِّرْكِ بالله ، أو عصيانُ الله عزَّ وجلَّ.

* ويركِّـزُ القرآنُ على تَعب الأمّ وما تلاقيه من وهْنٍ علىٰ وهْنٍ من حين الحمْلِ إلى حين الولادة ، ثم تأتي مرحلةُ الرَّضاع والفطام ، فيكون فِطامه في تمامِ عامَيْن ، وفي كلّ هذه الفترة تعاني الأمُّ من تربيةِ طفلها ، وهي مع

هذا سعيدةٌ به ، مسرورةٌ بوجوده ، ولا يمكن أنْ يُردَّ إليها الجميل مهما قدَّم لها الابن.

* جاء عندَ البزّار في مسندهِ ، حيثُ أخرجَ بإسنادهِ عن بريدةَ عن أبيهِ أنَّ رجلاً في الطّوافِ حاملاً أُمَّه يطوفُ بها ، فسألَ النّبي ﷺ: هل أدّيتُ حقَّها؟ قال: «لا ولا بزفْرةٍ واحدة».

* وروي أنَّ رجلاً قال: يا رسول اللهِ ، إنَّ أمّي هرمَتْ ، فأطعمُها بيدي وأسقيها وأوضّئُها وأحملُها على عاتقي فهلْ جازيتُها حقَّها؟!

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لا ولا واحدةٍ من مئة».

قال: ولِمَ يا رسول الله؟

قال: «لأنَّها خدمتْكَ في وقتِ ضعْفِك مريدةً حياتك ، وأنت تخدمُها مريداً مماتها ، ولكنّك أحسنتَ ، واللهُ يثيبُك على القليلِ كثيراً»[1].

* وما أعذبَ الشِّعْر الآن!! بل ما أجملَ قولَ مَنْ نظم ما تلاقيه الأمُّ من مشقّة وغصص لتهديَ ما عندها إلى طفْلِها فيقول:

لأمِّـكَ حـقٌّ لـو علمـتَ كثيـرُ ... كثيـرُكَ يـا هـذا لَـدَيْـه يَسيـرُ
فكـمْ ليلـةٍ بـاتَـتْ بثقْلِـكَ تشتكـي ... لهـا مـنْ جَـرَاهـا أنَّـةٌ وزَفيـرُ
وفي الوضْعِ لو تَدْري عليها مشقَّةٌ ... فَمِـنْ غَصَـصٍ لَهـا الفـؤادُ يطيـرُ
وكَم غَسلَتْ عنْك الأذىٰ بيمينها ... ومـا حجْـرُهـا إلا لـديـكَ سـريـرُ
وتَفْـديـكَ ممّـا تشتكيـهِ بنفسِهـا ... ومـن ثَـديِّهـا شُـرْبٌ لَـديْـكَ نميـرُ
وكم مرَّةٍ جاعَتْ وأعْطَتْكَ قوتَها ... حُنـوّاً وإشْفـاقـاً وأنـتَ صغيـرُ
فـآهـاً لـذي عَقْـل ويتّبـعُ الهـوىٰ ... وآهـاً لأعمـى القَلْـبِ وهـو بصيـرُ
فدونَكَ فارغبْ في عميمِ دعائِها ... فـأنـتَ لمـا تـدعـو بـه لفقيـرُ[2]

(١) انظر: روح البيان (٣/ ٥٢).
(٢) انظر تفسير: روح المعاني (٢١/ ٨٦).

* ويتابعُ لقمان تأديبَه ووصاياه لابنه ، فيأمرُهُ بالحرصِ على طاعةِ اللهِ ومراقبتِه حقّ المراقبةِ ، والحذرِ من التَّفريطِ بعملِ أيّ سيّئةٍ مهما صغرتْ ، وفي أيّ مكانٍ كانت ، في جوفِ صخرةٍ صمّاء ، أو في أعلى السَّماء ، أو في الأرض ، فإنَّ الله يحضرهُا ، وهو لا يغيبُ عنه شيءٌ في مكان ، ولا تخفىٰ عليه خافيةٌ من أعمالِ العباد .

* ومن صورِ تأديبِ لقمانَ لابنه : إقامةُ الصَّلاة بتمامِ أركانِها وشروطها وآدابِها ، وخشوعِ القلبِ فيها ، لتكونَ عوناً على الاستقامةِ ، والبعدِ عن المعصية .

* ثمَّ يوصيه بالأَمْرِ بالمعروفِ ، والنَّهي عن المنكَر ، والصَّبر على المصيبةِ ، والتَّواضعِ وتجنُّب الكِبرِ بالإقبالِ على الآخرين بالوجهِ في الخطاب ، وليس بالجانبِ والنَّاحية ، وتركِ الاختيالِ والتَّبختُرِ في المشي ، حتى لا يتَشبَّه بالجبارين المتكبّرين الذين يبغون في الأرضِ الفساد ، فإنَّ اللهَ لا يحبُّ المختالَ المعجبَ بنفسه .

* ويوصي لقمانُ ابنَه بالمشي المقتصد غير البطيء ولا السَّريع ، واعتدالِ الصَّوت دون رفعه(١) ، لأنَّ ذلك أكثر وقاراً للمتكلّم ، وأدلّ على احترامِ الآخرين وارتياحهم وفهمهم .

---

(١) ذكر الجمل في «فتوحاته» نقلاً عن الخطيب قال : فإنْ قيلَ : لِمَ ذكرَ المانع من رفعِ الصّوتِ ، ولم يذكر المانع من سرعةِ المشي؟! أجيب : بأنَّ رفعَ الصّوت يؤذي السّامع ، ويقرع الصّماخ بقوته ، وربّما يخرقُ الغشاء الذي في داخل الأذن ، وأمّا سرعة المشي فلا تؤذي ، وإنْ آذتْ فلا تؤذي غيرَ مَنْ في طريقه ، والصّوت يبلغُ مَنْ علىٰ اليمين وعلى اليسار ، ولأنَّ المشيَ يؤذي آلةَ المشي ، والصّوت يؤذي آلة السَّمع ، وآلة السّمع علىٰ باب القلب ، فإنَّ الكلامَ ينقل من الفم إلى القلب ، ولا كذلك المشي ، وأيضاً فلأن قبيحَ القول أقبحُ من قبيح الفعل ، وحسنُه أحسن ، لأنَّ اللسانَ ترجمان القلب ، ولما كان رفعُ الصّوت فوقَ الحاجة منكراً ، كما أنّ خفْضَه دونها تماوتاً وتكبراً . (الفتوحات الإلهية ٦/ ١٢٨) .

* تلكم صورةٌ جميلةٌ مجملةٌ عن صور تأديبِ الطّفل من منظورِ القرآن ، كما جاء في سُورة لقمان ، لأنَّ هذا التّأديبِ فيه ضمانٌ لسعادةِ الأطفال ، وسعادة الكبار معهم ، والملاحظ أنَّ صور هذا التّأديب قد شملتْ نواحي الحياةِ الدنيا ، وأرشدت إلى السَّعادةِ الحقيقيةِ في الآخرة ، إذا طبَّق هذه التّوجيهات في حياته الدُّنيا.

* * *



الفصل الرابع

الطِّفْلُ ودعَاءُ الأنبيَاءِ

* في رحابِ القُرآنِ الكريم وقفاتٌ جميلةٌ مع الأنبياءِ الكرامِ في طلبِهم للطِّفل ودعائِهم له ، ومن هذه الوقفات الحلوةِ طلبُ نبيّ اللهِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ للطِّفلِ من ربِّه ، ففي همسةٍ قرآنيةٍ نستمعُ إلى هذا الدُّعاءِ الرَّطبِ النَّدي الجميلِ من إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصَّافات: ١٠٠ ـ ١٠١]. فقد طالَ الأمدُ بإبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ ولمّا يُرزَقْ ولداً يملأُ عليهِ دنيا البهجَةِ والزّينةِ ، إذ البنون منْ زينةِ الحياةِ الدنيا ، وتطلَّعَتْ نفسُ إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ لأنْ يكونَ له ابنٌ صالحٌ يحملُ أمانتَه ، ويبشّرُ بدعوتِه ، ويسير على محجّتهِ ، فدعا اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يهبَه طفلاً يكونُ من الصَّالحين.

* وكان إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ عندما عادَ من مصرَ يحملُ أموالاً جزيلةً ومعه كثيرٌ منَ الأنعامِ والعبيدِ ، وكان معهم هاجرُ تلك الجاريةُ التي أهداها فرعون مصرَ إلى سارة زوجِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

* وظلَّ إبراهيمُ مقيماً ببيتِ المقدس ، وزادَ شوقُه إلى طفْلٍ يرِثُهُ ، فكبرتْ سِنُّه ، وعقمتْ زوجُه سارة ولم يُرزَقِ الولدَ ، ولما مضى عليه في هذهِ البلاد قرابةَ عشرين سنَة رقَّتْ له زوجُهُ سارة ، وحزنتْ كثيراً أنْ لم

يرزقُهُ الله ولَداً ، فقالت له: إنَّ الرَّبَّ قد أحْرمَني الولدَ ، فادْخُلْ على أَمَتِي هذه لعلَّ اللهَ يرزقني منها وَلداً[1] .

* قال ابنُ جرير الطّبريّ: وكانتْ هاجرُ جاريةً ذات هيئةٍ ، فوهبتْها سارة لإبراهيمَ ، وقالتْ: إنِّي أراهَا امرأةً وضيئةً فخذْهَا ، لعلَّ الله يرزقك منها وَلَداً[2] .

* ووهبتْ سارةُ هاجرَ لإبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ فدخَلَ بها ، فحملتْ بطفلٍ طالما انتظره إبراهيم ، وطالما أكثر الدّعاء في جنْحِ الليالي وهو يناجي العليم الحكيم ، وممّا جعلَ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ يزدادُ يقيناً وبشارةً أنْ جاءَ هاجر مَلَك من الملائكة ـ لما كانت حاملاً ـ وقال لها: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جاعلٌ منْ هذا الغلام الذي حملتْ به خيراً ، وبشّرها بأنّها ستلدُ طفْلاً وتسميه إسماعيل[3] .

* ورجعتْ هاجرُ بهذهِ البشارةِ السَّعيدةِ ، وهي على يقينٍ من أنَّها ستلدُ هذا المولودَ المباركَ ، ولما بلغ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ ستاً وثمانينَ سنة ، ولدتْ هاجرُ إسماعيل ـ عليه السلام ـ وبعد ولادةِ إسماعيلَ أوحى اللهُ إلى إبراهيمَ يبشّره بإسحاقَ أيضاً ، فخرَّ إبراهيمُ ساجِداً لله عزَّ وجلَّ ، وهكذا استجابَ اللهُ دعاءَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ورزقَه طفْلاً حليماً. ولعلَّه دعا ربَّه أنْ يحفظَ له هذا الغلامَ ، ويعيذَهُ وذريَّتَه من الشَّيطانِ الرجيم .

* وتمضي رحلةُ الدُّعاءِ الإبراهيميّ مع اللهِ ، وعندما أوحى اللهُ إلى إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ أنْ يذهبَ بهاجرَ وإسماعيلَ إلى مكة ، دعا للطفل أيضاً ، حيث كانتْ مكّةُ يومذاك لا نَبْتَ فيها ولا ماء ، وصَدَعَ إبراهيمُ لأمْرِ الله ، فأخذَ هاجر والطّفل إسماعيل ، وأنزلهما في مكّةَ قربَ زمزم ، ومضى

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٥٣).
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢٤٧).
(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٦٥) بشيء من الاختصار والتصرف.

كما أمرهُ اللهُ ، فنادتْه هاجرُ: آللهُ أمَركَ بهذا أنْ تتركَنا بأرضٍ ليس فيها زرعٌ ولا ضرعٌ ولا ماءٌ ولا زادٌ ولا أنيسٌ؟

قال: ربّي أمَرَني.

قالت: فإنَّه لنْ يضيِّعَنا.

* وانطلقَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ ولما صار عند الثَّنيّةِ بحيثُ لا تراه هاجَرُ أو طفْلُهُ الأثيرُ إسماعيلُ ، استقبلَ البيتَ بوجههِ ، ثمّ دعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لطفلِه دعاءً خالداً ما دامتِ الحياةُ فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* واستجابَ اللهُ دعاءَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ونبضَ الوادي المجدبُ بالحياةِ ، وفجَّرَ اللهُ ماءَ زمزمَ ، وشبَّ الطفْلُ إسماعيلُ وصار نبيّاً منْ أنبياءِ الله عزَّ وجلّ[1].

* ونقفُ وقفةً أخرى مع الطّفلِ ودعاءِ الأنبياءِ في القرآن الكريم ، حيثُ الهمساتُ الدّافئاتُ في المناجاةِ الإلهيّة للطّفْل وطلَب الولد؛ وهذه الوقفة النّديّة مع نبيّ اللهِ زكريا ـ عليه السَّلام ـ.

* فقد كانَ نبيَّ الله زكريّا ـ عليه السَّلام ـ قد وهَنَ العظم منه ، وبلغَ سنّاً عاليةً ، وذكرَ بعضُ العُلماء أنَّه بلغ (٧٧ عاماً) ، وقال آخرون: كان عمرُه (٩٢ عاماً)؛ وقال غيرهم: كان عمرُه (١٢٠ سنة) ، وكانت زوجُه ابنة (٩٨ سنة) ، بَيْدَ أنَّه كان يدعو الله أنْ يهبَه طفلاً رغم كلّ العوائق ومنها أنَّ زوجَه كانت عاقراً ، إلاّ أنَّ رحمةَ اللهِ وفضلَه أوسعُ من كلِّ شيء.

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٥٦) بتصرف ، وانظر: تفسير الرازي (١٩/ ١٠٧ و١٠٨) وتفسير القرطبي (٩/ ٣٦٨ و٣٦٩) والبداية والنهاية (١/ ١٥٤) ومصادر أخرى كثيرة.

* وفي أوقاتِ الصَّفـاء ، وأويقاتِ النَّقاء كان زكريّا ـ عليه السَّلام ـ يقفُ بين يدي الله عزَّ وجلَّ يدعوه أنْ يهب له طفْلاً ، وألا يذره فَرْداً: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، والمعنى: يا ربّ لا تتركني بلا ولَدٍ ولا وارث يقومُ في النَّاس بعد ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ، وهذا دعاءٌ وثناءٌ مناسبٌ للمسألة ذاتها[1] .

* ويتكرّرُ الدّعاءُ لطلب الطّفل ، و﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]. ويستجيبُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ دعاء زكريا ، وتحملُ زوجه بطفلٍ ذكرٍ سمّاه الله ـ عزّ وجل ـ يحيىٰ ، ولم يُسَمَّ بهذا الاسم أحدٌ قبلَه ، وفي إجابة دعاء زكريا يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧][2] .

---

(١) انظر في هذا تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنبياء في التفاسير المتنوعة .

(٢) رغّبَ الإسلامُ الحنيفُ أبناءَه في اختيارِ الأسماءِ الحسَنَة للأطفالِ ، وحضَّ الآباءَ على أنْ يختاروا لأطفالِهم منَ الذّكورِ والإناثِ أفضلَ الأسماءِ ، فقد كانَ سيّدنا وحبيبُنا رسول الله ﷺ يستحبُّ الاسمَ الحسنَ ويتفاءل بهِ لما فيه من الصِّفاتِ المحمودةِ ، وقد تحقَّقَت هذه الأسماء للنّبي الكريم ﷺ حينَ ولادته ، وذلك في الوالدةِ آمنة ، وفي القابلة الشّفّاء ، والحاضنةِ والمرضع حليمة ، وينبغي على الآباء أنْ يتجنّبوا التسميةَ بمايلي:

أ ـ الأسماءُ المعبّدة لغيرِ الله عزّ وجلّ ، كعبدِ اللات ، وعبدِ العزى ، وعبدِ الكعبة ، وعبدِ النّبي ، وعبدِ الحسَن ، وعبد الزهراء ، وما شابه ذلك ، فإنّها محرمة التسمية بها بالاتّفاق .

ب ـ الأسماءُ المختصّة باللهِ عزّ وجل فلا يجوزُ التّسمية بالخالقِ ، ولا بالهادي ، ولا بالصّمد ، ولا بالعليمِ ولا بغيرها .

ج ـ الاسمُ البشعُ القبيحُ الذي يمسُّ الكرامةَ الإنسانيةَ ، ويكونُ مدعاةً للهزء والاستهزاء والسّخرية ، وقد ثبتَ عن النّبي ﷺ أنّه كان يغيّر الاسم القبيح باسمٍ له معنى سامٍ جميل .

=

* وسُرّ زكريا ـ عليه السَّلام ـ بإجابةِ اللهِ لدعائهِ ، كما سُرّ بالطّفل يحيى السّيدِ الحصورِ والنّبيّ الكريمِ الذي جعلَه اللهُ منَ الصّالحين .

وأودُّ ها هنا أنْ أشيرَ إلىٰ الدُّعاءِ والتّضرُّع إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ اللجوءَ إليهِ سبحانه له أثرٌ جليلٌ في صَلاحِ الأطفالِ وفلاحِهم ، واستقامتِهم على نَهجِ التّربيةِ القرآنيّةِ المباركةِ ، ودربِ الهدايةِ النّبوية .

* ومن المُسَلَّم بهِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو مالكُ المُلكِ ذُو الجلالِ والإكْرام ، بيدِه مقاليدُ الأُمورِ جميعها ، وأقدارُ الخلْقِ بين يديْهِ يصرّفُها كيفَ يشاء ، وهو صاحبُ الشَّأنِ ، وإليه يرجعُ الأمْرُ كلُّه ، ولهذا فمنَ الطَّبيعي والضَّروري أنْ يُطْلَب الدّعاء منه وأن يُتضرَّعَ إليه ، فالابتهالُ والالتجاءُ إليهِ وحده ، والدّعاءُ بأنْ يصلحَ الذّريّة ويجعلَها خيّرةً مستقيمةً نافعةً ، فإنّه لا يوجدُ في الدّنيا شيءٌ أقرَّ لعينِ المؤمنِ ، وأهنأَ لقلبهِ ، من صلاحِ أهْله ، وولدِه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. فالدّعاءُ ذو شأْن عظيمٍ ، وهو أكرمُ شيءٍ علىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهو أشرفُ العباداتِ ، بل هو العبادةُ نفْسُها ، وقد وردَ في السُّنَن أنَّ دعوةَ الأب لِولدهِ مستجابةٌ ، فليحرصِ الطّفلُ على هذا الكَنْز ، وليحرصْ علىٰ بركةِ دعاءِ والدِه[1] ، وكذلك ما أجملَ وأحسنَ أنْ يستغلَّ الأبُ المربّي الصّالحُ هذه المنزلة وهذه الكرامةَ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ يدعو لأطفالهِ وذريّته ، ويرجو اللهَ أنْ يصلَحهم وأن يهديَهم

= د ـ الأسماءُ التي لها اشتقاقٌ من كلماتٍ فيها تشاؤم حتى يسلَّم الأطفالُ من شؤمِ هـذه التّسمية ومصيبتِها .

هـ ـ وكذلك مما لا ينبغي التّسميةُ به الأسماء التي فيها تمييعٌ ، لأنّها تفقدُ صاحبَها الهيبةَ عند الكبر ، وهذا هو هدي النّبيّ ﷺ.

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع بتوسّع في ثنايا هذا الكتاب فليراجع .

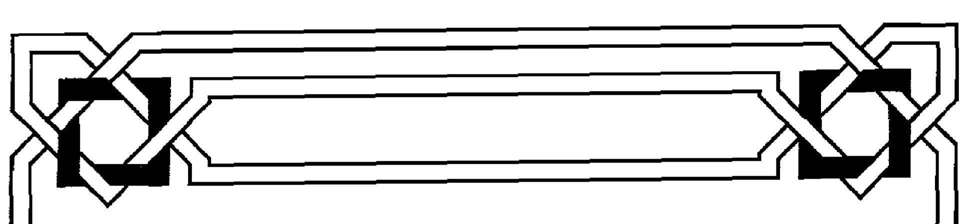
(١) انظر: سنن الترمذي في الدعوات برقم (٣٤٤٨).

سواءَ السَّبيل ، فيكونَ بذلك قد اقتدى بالأنبياءِ الكرامِ ـ عليهم السَّلام ـ؛ فقد كانُوا أكثرَ النّاس دعاءً إلىٰ اللهِ ، والتجاءً إليه ، ومعرفةً به ، وطلباً منه إصلاحَ أولادِهم. فقد جاءَتْ دعواتٌ وتضرُّعاتٌ في القرآنِ الكريمِ لعددٍ من أنبياءِ اللهِ ، ومنها دعوةُ نبيّ الله إبراهيمَ ـ عليه السّلام ـ أنْ يجنّبَه وذرّيتَه عبادةَ الأصنام ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ، وكذلك نجدُ نبيَّ اللهِ زكريا عليه السَّلام يدعو ربّه طالباً الذّرية الطّيبة كما مرَّ معنا آنفاً ، وهكذا أنبياءُ اللهِ جميعُهم ـ عليهم السّلام ـ كانوا يتضرّعونَ إليهِ راغبينَ خائفينَ ، كما وصفَ اللهُ حالَهم فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* وعلى المربّي الحصيفِ أنْ يجعلَ الدَّعاء ورداً له ، ولا يقصّر في التّضرُّع إلى اللهِ ، وليتذكرْ دائماً أنَّ المؤمنَ مأمورٌ بالدُّعاءِ لقولهِ تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ، وقوله: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

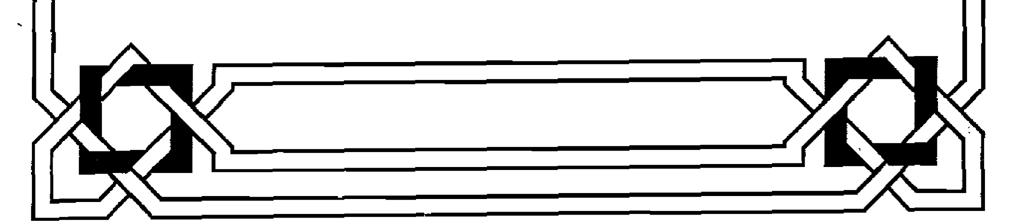
* وعلى المربّي أنْ يتعوَّد الدّعاء لطفلهِ وأولادِه ، وليحذرْ كلَّ الحذر أنْ يدعوَ عليهم بشرّ ، فإنَّ دعوته مستجابةٌ ، ولا يحاول إذا أغضَبه ابنه أنْ يلجأَ إلىٰ اللهِ بالدُّعاء عليه ، ولكن يدعو له بالهدايةِ ، ويتذكرُ دائماً أنَّ الأنبياءَ دعوا لذريّتهم بخيرٍ وهم قدوةٌ للبشرية ، فليَقْتَدِ بهم ، ويجعلْ دعاءَه في طلب الصَّلاح لذريته ، فإنَّ ذلك أهدىٰ وأقوم ، وليستعنْ باللهِ في ذلك ، ويعلِّم أطفالَه أنَّ الدعاء مخُّ العبادة؛ فما أجملَ الدّعاء!!.

* * *



الباب الثالث

أضواء من طفولة الأنبياء في القرآن



الفصل الأوّل

قَصَصُ طفولةِ الأنبياءِ وأهميّتُها

* أعتقدُ أنَّ هذا الفصلَ بِكْرٌ في موضوعهِ ، فلم أجدْ ـ فيما وقع تحتَ يدي من مصادرَ ومراجعَ ـ مَنْ خصَّ هذا الجانبَ بحديثٍ مفصّلٍ مع استخلاص العبرِ والفوائد منه ، لأنَّ الحديثَ عن طفولةِ الأنبياءِ يحتاجُ إلى نَفَسٍ خاص ، وإلى نفسيّةٍ ممزوجة بالألطافِ الرَّبانيّة ليخرجَ هذا الفصْلُ للناسْ نديّاً شهيّاً زاكياً يستفيدُ منه الخاص والعام.

* ولقد لاحظتُ اليومَ ضرورةَ الحديثِ عن طفولةِ بعضِ الأنبياءِ ، ومن ثمَّ عرضها بأسلوبٍ قَصصي بسيطٍ لطيفٍ رقيقٍ مختومٍ برحيقِ العِظَةِ والعبرةِ والقدوةِ ، ليجدَ الآباءُ زاداً وفيراً لأطفالهم ، فيغذونَهم على محبّةِ أنبياءِ اللهِ بما يُلقُونه عليهم منَ القَصصِ المفيد عن طفولتهم ، عسىٰ أن يستفيدَ هؤلاء الأطفال بذلك ، وينتفعوا بما نعرضُه عليهم من طرائفِ الأخبارِ ولطائفِ طفولةِ الأنبياءِ ، كما تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ عنها.

* إنَّ القصةَ للأطفال. . وخصوصاً قَصص الطُّفولةِ النَّافعةِ بأنواعها ، ذاتُ أثرٍ فعَّال إذا أحسنَ الإنسانُ استعمالَها ، استطاعَ أنْ يحقِّقَ كثيراً من الخيرِ والإصلاح ، لأنَّ نفوسَ الأطفالِ خاصَّة ترتاحُ لسماعِ القصّة ، وتستمتعُ بها ، وتتأثّر بالمغزىٰ الذي تحتويه.

* إنَّ قصصَ طفولةِ الأنبياء وسيلةٌ من وسائِل الخيرِ وتهذيبِ نفوس

أطفالنا ، ولذلك قال بعضُ أهلِ العلم : القَصصُ جندٌ من جنودِ الله .

* من أجلِ ذلك نجدُ أنَّ القرآنَ الكريمَ يقصُّ علينا أخبارَ الأنبياءِ ، وأخبارَ الأمم السَّابقةِ ، وكثيراً من الأخبار المهمّةِ في السُّلوك الإنسانيّ ؛ قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

* إنَّ الإنسانَ ميّالٌ بفطرتهِ إلى القصّة لما يرى في سماعِها منَ الأُنْسِ والمُتعة ، فإذا استطاعَ الآباء أنْ يجعلوا من قَصص الأنبياءِ والقصّة القرآنيّة مادّة طيّبة لأطفالِهم ، كان ذلك القصصُ محموداً طيِّبَ الأَثَر .

* ولقد جرَّبْتُ هذا الأسلوبَ القَصصيَّ في حكاياتٍ جميلةٍ عن طفولةِ الأنبياءِ ، وقصَصْتُها في أكثرَ من مكانٍ ، في أكثرَ من بلدٍ ، وأكثرَ من عاصمةٍ عربيةٍ ، فألفيتُ الأطفالَ قد أصاخُوا سمعَهم وهم متلهِّفُونَ للمزيدِ من أخبارِ الأنبياءِ أو سِيَرِ الصَّالحين ، بل وجدتُ في أيّام قادمة كثيراً من الأطفالِ يعيدُ القصّة كأنَّه سمعها قَبْلَ قليل ، ويطلبُ قَصَصاً أخرى يتزوَّدُ بها ليقصّها على لِدَّاتِه في البيتِ ، أو في مكانٍ تواجده .

* لقد احتفىٰ القرآنُ الكريمُ بقصصِ طفولةِ الأنبياءِ ، وبالقصّة عامّة ، وجعلَها باعثاً على التّفكير والتّدبّر ، لأنّها واقعةٌ حيّة ، صادقةُ التَّعبير ، قويّةُ التَّأثير ، عظيمةُ المقصد ، فهي مأخوذةٌ منَ الحياةِ المتحرّكةِ المتفاعلةِ ، لذا فإنّها تشدُّ الانتباه ، وتحرّكُ المشاعر لدىٰ الأطفالِ وغيرهم ، ويشعر الطِّفلُ ـ وهو تُروى عليه القصّة ـ بأنَّه يعيشُ الحدَثَ ، ويتمثّلُه ، وقد يتّخذُ موقفاً مفيداً ، وسلوكاً طيّباً من خلالِ تأثُّرِه بالقصّة .

* وأستطيعُ أنْ أقولَ الآن : إنَّ القصَّةَ القرآنيّةَ تتميَّزُ عمّا سواها بثبوتِ الوقائع المسرودةِ ، وعظمةِ الأداء المعجز ، والأسلوبِ الذي لا يُبارىٰ ، فالمتلقِّي يفهمُ الهدفَ وحده ، وربّما يستنتجُ الطّفلُ ما يتوافقُ مع مزاجه ، وبالتّالي يشعرُ بالمتعةِ والفائدة .

* إنَّ نظرةً فاحصةً إلى الآدابِ العالميّةِ ، وخصوصاً الآداب الحديثة

منها ، تجعلُنا نتمسَّك بقصصِ القُرآن ، ونجعلُها هدفاً نبيلاً في تربيةِ الأطفال ، حيث اكتظَّتْ بعضُ القصصِ الأجنبيّة بألوانٍ منَ الخرافاتِ والعاداتِ السَّلبيّة التي تؤذي سلوكَ الطِّفْل ، ولا أريدُ أنْ أضربَ أمثلةً على ذلك ، لكنّي أوردُ مثالاً علىٰ واحدةٍ من تلكم القَصصِ التي قرأتُها ، وتتلخَّصُ في بطولةِ كلْبٍ مما يجعلُ الطِّفْلَ يقبّلُه ويتّخذُه رمزاً له . أو نجدُ قصّةً أخرىٰ تجعلُ الطِّفل يحلِّقُ في خيالٍ لا أصْلَ له ، كطيرانِ الإنسانِ ، وكم طفلٍ قرأَ قصصاً من هذا النّوعِ أمثال قصص «سوبرمان» و«الرّجل الوطواط» وما شابَه ذلك ، وجرَّب الطَّيران فسقطَ فمات .

* ولعلَّ قصصَ الخرافات قد ساهمتْ أيضاً بسلسلةٍ من المخاطرِ على حياةِ الطِّفل ، وتشويهِ تفكيره الصَّافي ، حيث أدخل القصَّاصون في حكاياتِهم قوىً خارقةً غير مرئية ، كالعفاريتِ والجان والكائناتِ المسحورةِ ، وجعلوها محورَ وعمود القصّة ، وتساهم بعضُ أفلام الرّسوم المتحرّكة (الكرتون) في تجسيدِ الخُرافاتِ بنفسِ الطِّفل ، ونرىٰ جميعاً كيف أنَّ الأطفالَ يكونوا مشدودينَ إلى مثلِ هذه الأفلام ، وكم منْ طفلٍ استيقظَ في الليل ، وأيقظَ مَنْ حوله صارخاً مستغيثاً: من عفريتٍ أو جان أو رسْمٍ مشوَّهٍ رآهُ في الأفلام ، وتخيَّل أنَّه قد داهمَه في نومه .

* ومن المثير والمؤلم أنْ نجدَ أنَّ شخصيّات الخرافات تختفي فيها الأبعادُ الزَّمانيّة ، فقد يعيشُ بطل القصّة في الماضي السَّحيق ، ويواصلُ حياتَه في الحاضرِ والمستقبلِ ، وقد لا يموتُ أو يتعبُ أو ينهزم!! ولهذا نجدُ أنّ كثيراً من قصصِ الخرافاتِ هذه عسيرة الفَهْم علىٰ الأطفال ، وربّما يسألُ الطِّفلُ أبويه عن تحليلِ حَدَثٍ ما رآه في تلكم الخرافات أو قرأه بين دفتَي كتاب ، وهنا يَحَارُ الأبوان ولا يجدان ما يقولان له ، فيبقىٰ ضائعاً بين حيرةِ أبويه وخرافةِ ما رآه وما قرأه .

* إذاً ، فالقصصُ القرآنيُّ هو الذِّروةُ لتكاملِهِ وسلامتهِ من الخرافاتِ

والتَّحريفِ والتَّزييفِ والأوهام ، ولتضمينه الحكمةَ الواضحةَ ، أو العبرة الصَّريحة.

* إنَّ من الأمورِ التي تُدخلُ السُّرورَ إلىٰ النَّفْس ، أنّنا نجدُ كثيراً من الأمّهاتِ والجدّاتِ في دنيا الإسلام ، يروينَ للأطفالِ الصِّغار بعضَ قَصصِ القُرآن ، من مثل: قصّة نبي الله يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ ، وقصّة نبي الله موسى ـ عليه السّلام ـ أو قصّة أصحاب الكهف؛ وكنتُ وأنا صغيرٌ أستمعُ من جدّتي إلى قصّة نبي الله يُوسُف ، وقصّة هجرة أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ وهي ترويها باللهجةِ العاميّةِ البسيطة المعبّرة الآسرة التي ما يزالُ طعمها طيّب العبير إلى الآن. وإنْ كنتُ أنسىٰ فلا أنسىٰ تلكم القصصَ والحكاياتِ والمواعظَ التي كانت ترويها أمّي لي ولإخوتي. وكذلك قصص أبي النّافعة ذات الأثر الكبير والمغزىٰ العظيم في دنيا النَّصائح ، فرحمهم الله جميعاً وأجزلَ مثوبتَهم وأحسنَ إليهم وتولاهم برحمته.

* والآن يمكننا أنْ نطرحَ السُّؤال الآتي: ما القَصصُ النَّافع للطِّفل؟!

* والحقيقةُ فهذا سؤالٌ يحتاجُ إلى إجابةٍ واضحةٍ دقيقة ، لأنّنا نحدِّدُ أو نرسمُ أو نعطي الوجبات الغذائية لتفكيرِ الأطفالِ ، كي تنموَ قدراتهم علىٰ التّفكير المستقيم ، وعلىٰ التصوّر الصَّحيح الذي لا تشوبه أكْدارٌ وأوضار.

* وكما نعلمُ الآن كم تجابه الأطفالَ تياراتٌ قصصيّة ، ومرغّباتٌ ومشهّياتٌ متنوعةٌ ليتلقّفَ ما تقذفهُ المطابعُ من قصصٍ وخرافاتٍ ما أنزلَ الله بها من سُلطان ، فكيف نواجِهُ هذه المشهّيات؟! وكيف نأخذُ بأيدي الأطفالِ نحو الطّريق الحقّ في هذا المجال؟.

* قد يثورُ تساؤلُ كثيرٍ منَ النَّاس فيقولون: كيفَ نمنعُ الأطفالَ من مسايرةِ التّيارات العالميّة في أدبِ الأطفال؟ بل إنَّ بعضَ النّاس يقول: دعِ الطِّفلِ يتّسع أُفُقَه فيما يشاهده من أفلام خياليّة.

* الحقيقةُ إنَّ مائدةَ القرآنِ الكريم القصصيّة فيها ما لذَّ وطابَ للأطفالِ ،

ونستطيعُ أنْ نعيشَ في جميع الأجواء ، ونحنُ نروي للطِّفل ما جاءَ من قَصصٍ متنوّعٍ في القُرآن الكريم ، وأضربُ على ذلك أمثلةً كيما تعمّ الفائدة بإذن الله .

* فمثلاً إنَّ قصصَ الحيوانِ كثيرةٌ في القُرآنِ الكريم ، بل إنَّ هناك بعض السُّورِ قد حملت اسم الحيوانِ من مثل: سورة البقرة ، الأنعام ، النَّحل ، النَّمل ، الفيل؛ ونرى القرآنَ العظيمَ يعرضُ لذكْرِ الحيوانات ، والحشرات ، والطُّيور ، من مثل: هُدهد نبيّ الله سُليمان الذي جاءه من سبأ بخبرٍ ملكتها ذاتِ العرشِ العظيم ، والتي كانت تسجدُ للشَّمس من دونِ الله ربِّ العالمين ، وهناك النَّملةُ الحصيفةُ التي قالت ونبيُّ الله سُليمانَ يسمعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٨ ـ ١٩] ، ويمكنُ لنا أنْ نستغلَّ مثل هذه القَصص ، ونستخدمها كرمزٍ في الفضائِل: كالصَّبرِ وحبِّ العمل للنَّمل والنَّحل ، والهدهد في تصَيُّد الأخبار المفيدة ، والبقرة في العَطاء ، والإبل في كثيرٍ من الفوائد.

* بيد أنّنا لا ننسىٰ أنْ نعزِّزَ ثقافةَ الطِّفل ومعارفه بأخبارِ أنبياءِ اللهِ ورسله ، ونروي لهم ما حدثَ معهم بأسلوبٍ يتناسبُ مع أعمارهم ، ونستخلصُ لهم بعضَ الدروس والعبر المستفادة من طفولتهم ، كالطَّاعةِ مثلاً ، وحبِّ الخير للنّاس وما شَابَه ذلك.

* إنّنا إذا فعلنا ذلك ، وكانَ أساسُ الطِّفل متيناً قوياً ، لم نعدْ نخشىٰ شيئاً على تفكيرِ الطِّفل بشرط أنْ يظلَّ تحتَ المراقبةِ والتّوجيه السَّليم ، ولابأس أنْ نطلعَه على بعضِ الآدابِ النّافعة والقَصص المفيدة[1] ، بعد أن

---

(١) أودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى كتاب «كليلة ودمنة» منَ الأدبِ القديم في العصر العبّاسي ، وهذا الكتابُ قد حذا مجال التّوجيه الهادف ، إذ أجرى الحكمةَ على لسانِ الحيوانات ، وأعتقدُ أنَّ كثيراً منَ الآدابِ العالميّة في المشرقِ والمغربِ قد تأثّرت =

نكونَ قد تثبَّتْنا من بنائِه بناءً سليماً على قواعدَ صحيحةٍ مستقاةٍ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ وسنّةِ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، وقصص طفولةِ الأنبياء كما سنقرأُ في الفصول الآتية .

* * *

= بهذا الكتاب ، ونسجَ كثيرون على منواله ، ولعلّ كثيراً من الشّعراء العربِ في السَّابق قد شُغِفوا بهذا الكتاب ، ومنهم «أبان اللاحقي» الذي عاشَ طفولته في البصرةِ ، ثم انتقلَ إلى بغداد ، ونظمَ كتاب كليلة ودمنة في أربعةَ عشرَ ألف بيتٍ جاءَ في مطلعها :

هــذا كتــابُ أدبٍ ومحنــة وهــو الــذي يُــدعىٰ كليلــة ودمنــة
فيــه احتيــالاتٌ وفيــه رشــدُ وهــو كتــابُ وضعَتْــه الهنــدُ
فــوصفــوا آدابَ كــلِّ عــالــم حكــايــةً عــن ألســنِ البهــائــم
والحكمــاءُ يعــرفــون فضْلَــه والسّخفــاء يشتهــون هــزلــه

وفي عصرنا الحديث يأتي أحمد شوقي الذي عُني بقصصِ الحيوانات ونظمَ مقطوعات جميلة عن الحيواناتِ ذات أهداف حلوةٍ تثيرُ الطفل ، وقد بلغتْ أكثر من خمسين مقطوعة منها : «الثّعلب والديك ، وسليمان والهدهد ، واليمامة والصّياد ، والنّعجة وأولادها ، والذّئبُ في السّفينة» وغيرها ، وقد وجَّهها شوقي للأطفال .
إذاً فقصصُ الحيوانِ لا مانع من رواياتها للأطفال بشرط أنْ تُوضِّح العبرة والفائدة منها ، فقد يسألُ الطّفل مثلاً : هل النّملة تتكلم ، وهل الهدهد يتكلم أيضاً؟ ولكيلا نقْفِلَ باب الخيال أمام الطّفل نجيبه عن تساؤلاتِه بما وردَ في القرآنِ الكريم بما يتناسبُ مع سنّه وتفكيره .

الفصل الثّاني
طفولةُ نبيِّ اللهِ إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ

* نبيُّ اللهِ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ هو أبو الأنبياء ، وهو أحدُ أولي العزمِ منَ الرُّسل الذين وردَ ذِكْرهم كثيراً في القرآنِ الكريم ، فقد كانَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يسألُ ربَّه دائماً أنْ يهبَه الذُّريَّة الطَّيِّبة ، وكان يدعو ربّه سرّاً وعلانيةً أنْ يهبَ له منَ الصَّالحين ، فقد امتدَّ به العمرُ ، وبلغَ من الكبرِ عتياً .

* وكانَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ قد أقامَ بالأرض المقدّسة ما شاءَ اللهُ أنْ يقيمَ ، وكانت زوجُه سارّة[1] قد كبرت أيضاً ، وأيستْ من الولدِ ، خصوصاً بعد عودتهما من مصرَ ، بعد أنْ أعطىٰ ملكها إبراهيم أموالاً وماشيةً وجواري وعبيداً ، وكان قد أهدىٰ سارّة جاريةً اسمُها هَاجر .

* وكانَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ قد أقامَ في مصرَ مدّةً من الزَّمن وادعَ النّفس ، مطمئنَّ البالِ ، ثم جفَاهُ أهلُها وهمّوا بإيذائِهِ ، فعادَ مع زوجِه سارّة وجاريتها هاجر إلىٰ الأرضِ المقدّسة التي اتّخذَها قبل موطناً ، وكانتْ سارّةُ في مصرَ ابنة سبعين سنة وربّما أكثر ، وكانت عقيماً لا تَلِدُ ، وخافتْ من انقطاعِ نَسْل زوجها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ .

---

(١) اقرأ سيرة سارة زوج النبي إبراهيم عليه السلام في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة» (٢٠٥ ـ ٢٢٨) طبعة دار ابن كثير الثانية بدمشق.

* وكانتْ سارّة تعرفُ ما يكنّه زوجُها إبراهيمُ من تطلُّعٍ إلى النَّسل والذّرية ، وما كان يناجي به ربّه ، ولاحت في ذهنِها بارقةُ أَملٍ ، وخاطبت نفسها قائلةً: ماذا لو تزوَّجَ إبراهيمُ جاريتي هاجر؟ وقوي في نفسِها هذا الخاطرُ ، وربما تراءت أمامها صورةُ طفْل بين يدي إبراهيم وهو قريرُ العين ، مسرورُ النَّفس ، رضيُّ القلب .

* وبهمسِ العابداتِ القانتاتِ توجَّهتْ إلىٰ إبراهيم وقالتْ بلسانِ التَّسليم والرِّضا: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حرمني الولد ، وهذه هاجر قد وهبتُها لك ، فخذْها لعلَّ اللهَ يرزقنا منها الولد .

* ولما وهبَتْها لإبراهيم دخَل بها ، وحملتْ بإسماعيل ، ولما اكتمل حَمْله ، وضعتْه هاجر غلاماً زكيّاً سويّاً هو إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ. وسُرَّ إبراهيم بابنهِ إسماعيل وخرَّ ساجداً لله عزّ وجلّ وهو يقول: ربّ إنّي أعيذُه بك وذريته من الشَّيطان الرّجيم .

* ونشأَ إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ نشأةً كريمةً ، وكان طفلاً جميلاً حليماً ، يحبُّه كلُّ مَنْ يراه ، وتعلَّقَتْ به سارّة ، وأحبَّته حبّاً شديداً .

* ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كان له إرادةٌ في هذا الطِّفلِ الحليم ، وكانت حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ تصاحبُه ، فجاءت سارّة ذات يومٍ ، وتمنَّت علىٰ زوجها إبراهيم أنْ يذهبَ بهاجرَ وطفلها بعيداً عنها وقالَت: يا نبيّ الله ، إنّي لا أحبُّ أنْ تكونَ هاجر معي في الدَّار ، فحوّلْها حيثُ شئت[1] .

* وأوحىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ إبراهيمَ عليه السَّلام أنْ ينقلَ طفْلَه الأثيرَ وأمّه هاجر إلى الحرمِ ، فسارَ إبراهيمُ مع هاجرَ وطفلها إلى مكةَ المكرمةِ ، حتى وقفَ عند مكانَ البيتِ ـ الكعبة المشرّفة ـ فأنزلَ هاجر وطفْلَها في ذلك المكانِ المقدّس .

---

(١) انظر: نهاية الأرب (١٣/ ١١٦).

* ثمّ إنّ إبراهيمَ غادرَ مكَّة بإلهامٍ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ودعا إبراهيمُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يحفظَ هاجر وطفْله إسماعيل ، وأن يحوطهما بعنايتِهِ ورعايتهِ ويقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* وهناك ظلّت هاجرُ وطفلها وحيدَيْن في وادٍ غير ذي زرع ، فلا طعامٌ، ولا ماءٌ، ولا أنيسٌ ، ولا حركة ، ولكنَّ قلبَ هاجر قد تنزَّلَتْ فيه سكينةُ الاطمئنانِ ، وغلَّفَتْه أضواءُ الإيمان ، فلعلَّ اللهَ قد أرادَ بهذا الطِّفل شيئاً ما ، وكأَنَّ برداً وسلاماً قد استقرّ بقلبِها ليقول: إنَّ اللهَ يريدُ أنْ يتمَّ نعمته عليها وعلىٰ طفلها في هذه الأوقات ، وأنَّ اللهَ لن يضيّعهما ، وأنّه هو ثالثهما في ذلك المكان.

* ولما علا النَّهار ، وسارتِ الشمسُ من الأفق الشّرقي في رحلتِها اليوميّة المنتظمة بأمرِ الله ، اشتدَّ الحرُّ ، ونفدَ الماءُ من عندها ، وعطشَ الطِّفلُ الجميلُ إسماعيل ، وعطشتْ هاجرُ أيضاً ، فقامتْ وأخذتْ تعدو يميناً وشمالاً تتردَّدُ بين الصَّفا والمروة في طلب الماءِ فلم تجدْه ، فعادتْ إلى طفلِها ، فرأته يحفِرُ الأرض برجله ، أو بأصابعه ، فانبجسَ الماءُ من تحتِ قدميه ، وكان ذلك أوّل تفجُّرِ نَبْعِ ماء زمزم ، فخرَّتْ عندها ساجدةً لله الكريم الحليم ، وعلمتْ أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يتركْها وطفلَها ، فشربتْ وارتوتْ وسقَتْ طفلَها.

* وفي تلكِ البقعةِ المباركةِ عند البيت المحرّم ، دبّتِ الحياةُ ، واستُجيبتْ دعوةُ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وأصبحتْ أفئدةُ النَّاس تهوي إليها ، حيثُ أقبل ركبٌ من قبيلة جرهم ، ورأوا هاجرَ وطفلها إسماعيل ، فاستأذنوها في الماءِ ، فأذنتْ لهم قائلةً: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخرجَه لي ولولدي ، وإنَّه لله يشربه خَلْق الله؛ واستقرَّ بنو جرهم بالحَرمِ ، وصاروا

للطِّفل إسماعيل وأمّهٰ أُنْساً وجيراناً[1]. وامتلأَ قلبُ هاجرَ سروراً وفرحاً، وعلمت أنَّ الله قد جعلَ لها من بعد الشِّدَّة فرجاً، ومن بعدِ ذلك الضِّيق مخرجاً.

* بعد أنْ تركَ إبراهيم طفْلَه إسماعيل، وأمَّه هاجر عند البيتِ المحرّم، أحبَّ أنْ يزورهما ليطمئن عَليهما، ولما اقتربَ منِ البيت المحرّم، رأى الحياةَ قائمةً على قدمٍ وساق، والماءُ يجري من زمزمَ رقراقاً عذباً فراتاً، وألفىٰ الحركةَ والذَّهابَ والمجيءَ والنّاسُ يسقون ويستقون، فانشرحَ صدرُه، واطمأن قلبُه، إنّها رحمةُ اللهِ وبركاتُه قد أسبغَها على طفلهِ الذي بُشِّر به من قَبْل.

* والتقىٰ إبراهيمُ طفْلَه الأثيرَ الحبيبَ إسماعيل؛ ذلك الذي بدتْ عليه أماراتُ الحلْم والعِلْم، والذي أراده الله لينشأَ قربَ بيتهِ المحرم، وليكون حبيبنا ونبيّنا وسيّدنا محمّد بن عبد الله ﷺ من ذريّته.

* وسُرَّ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ بابنهِ إسماعيل، الذي ما يزالُ طفلاً جميلاً هادئاً، وأَنِسَ به، ولما أيفعَ إسماعيل، رأىٰ إبراهيمُ في نومه أنَّه يُؤمر بذبحِ طفلهِ وحبيبه الوحيد إسماعيل، و«رؤيا الأنبياء وحي»[2]، نعم إنَّ رؤيا الأنبياء حقّ، وإنَّ هذه الرُّؤيا[3] ابتلاءٌ لهذَيْن النَّبيَّيْن الكريمَيْن الحليمَيْن[4]، وعرضَ الأبُ الرّحيمُ الحليمُ الخليلُ إبراهيم رؤياه على ابنه التَّقي الحليمِ البارّ المطيع، وقال له: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصَّافات: ١٠٢].

---

(١) انظر: نهاية الأرب (١٣/ ١١٧) بتصرف، وللحديث أصل في صحيح البخاري برقم (٣٣٦٤) وانظر: شفاء الغرام (٢/ ٥ ـ ٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٧ و٤٨).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٨) و(٨٥٩).

(٣) اقرأ كتابنا «الأحلام» في سلسلة مفاهيم إسلامية التي تصدرها دار اليمامة بدمشق.

(٤) اقرأ كتابنا «الحلم» في سلسلة آداب إسلامية.

* وأعلنَ الغلامُ التّقي الطّاعة الكاملةَ والاستسلامَ والتّسليم للهِ العزيز العليم ، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصّافات : ١٠٢].

* اللهُ أكبر ، إنّها لحظاتٌ مملوءة برذاذِ الإيمان والتّسليم والانقيادِ لله عزَّ وجلَّ ، وفيها ألوانٌ من جميلِ الصّبر ، وجميلِ الفضائل ، وبدأ النّبيّان الكريمان في تنفيذِ الأمْرِ الإلهيّ ، وأخذا ينفّذانه بكلِّ مقوماته ، فلم يعُدْ إلا الذّبحُ وإلا الدمُ. . و. . . . و. . ولكنَّ رحمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ توَّجت تلك الطّاعة العظمى بالتّوفيق ، وكان الابتلاءُ قد تمَّ ، وظهرت شواهدُ الامتحانِ نديّة العبقاتِ تشهدُ لهما بالنّجاح ، وجاء الفداءُ العظيمُ ، جاء به الملَكُ الرُّوحُ الأمينُ جبريلُ مع النّداء الذي يحمل أنداءَ البشارة الرّبانية العظيمة: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصّافات : ١٠٤ ـ ١٠٧].

* وصاغَ هذه الحادثة شعراً الشَّيخ عبد الغني النّابلسي في قصيدةٍ طويلة منها:

وجاءَ الوحيُ في الرُّؤيا ... إليهِ بذبحِ ابنٍ له شَهْمٍ نبيلِ
فأتْكاهُ ليذبحَه امتثالاً ... لأمْرِ المالكِ الحقِّ الكفيلِ
وَلم تقطعْ به السِّكّينُ حتى ... فداهُ اللهُ بالكبشِ الجليلِ

* تلكم هي همسَاتٌ دافئات من قصّةِ طفولةِ نبيّ الله إسماعيل ـ عليه السّلام ـ ، ويستطيعُ المربّي أنْ يرويها للطّفل بعدّة أساليب ، بشرط ألاّ تخالفَ سياق القُرآن الكريم ، وله أيضاً أنْ يقسِّمَ القصَّة إلى قَصصٍ ، فيروي مثلاً قصّة حمل إسماعيل وولادته ، ثم يروي قصّة إسماعيل وأمّه وهما في مكةَ المكرمةِ ، وله أنْ يرويَ أيضاً قصّة الرّؤيا وحدها ، ويستخدمَ أسلوبَ التّشويق والإثارة والأسئلة والحوار ، ليكون وقْعُ القصّة أعمقَ في نفس الطِّفل ، ثم يذكرُ بعضَ العبر والدُّروس المستقاة من هذه القصّة ،

كالطّاعة ، والحلْمِ ، والإخلاص ، والصَّبر على المكاره ، والتّسليم والاستسلام لأمْرِ الله ، وطاعةِ الابن لأبيه ، مع ذكْرِ الآيات التي تؤيد ذلك .

* والآن ما رأيكم في أنْ نستمعَ إلى هذه القصيدةِ الجميلةِ التي تحكي قصَّة إسماعيل مع أبيه إبراهيم ـ عليهما السّلام ـ؟! حسناً فلنرهف السَّمْع إذاً ، ولنقرأها أمامَ أطفالنا الأعزاء كيما يحفظوها ويردّدوها ، ولتكون لهم شعاراً في الطّاعة والصّبر؛ وهذه القصيدة وافاني بها أحدُ الأساتذةِ الأفاضل فجزاه الله خيراً ، وأجزل له المثوبة ، والقصيدة الجميلة هي :

فَاضَتْ بالعبرةِ عيناهُ ... أَضْناهُ الحِلْم وأشْقاهُ
شيخٌ تتمزَّقُ مهجتُه ... تتندّىٰ بالدَّمع لحاهُ
ينتزعُ الخطوةَ مهموماً ... والكونُ يناشدُ مسراهُ
وغلامٌ جاءَ على كِبَرٍ ... يتعقَّبُ في السَّيرِ أباهُ
والحيرةُ تثقلُ كاهلَهُ ... وتُبعْثِرُ في الدَّربِ خطاهُ
ويهمُّ الشَّيخُ لغايتهِ ... ويشدُّ الابنَ بيمناهُ
بلغَا في السَّعي نهايتَه ... والشَّيخُ يكابدُ بلْوَاهُ
لكنَّ الرُّؤيا لنبيٍّ ... صدْقٌ وقرارٌ يرضاهُ
والمشهدُ يبلغُ ذِروتَه ... وأشدَّ الأمْرِ وأقساهُ
إذْ تمرُقُ كلماتٌ عَجْلىٰ ... ويقصُّ الوالدُ رؤْياهُ
وأُمِرْتُ بذبحكَ يا ولدي ... فانظرْ في الأمرِ وعقْباهُ
ويجيبُ الابن بلا فزع ... افعلْ ما تُؤمَرْ أبتاهُ
لنْ أعصيَ لإلهي أمْراً ... مَنْ يعصي يوماً مولاهُ؟!
واستلَّ الوالدُ سكيّناً ... واستسلمَ ابنٌ لِردَاهُ
ألقاهُ برفقٍ لجبينٍ ... كي لا تتلقّىٰ عيناهُ
أرأيتم قَلباً نبويّاً ... يتقبّلُ أمْراً يا أبتاهُ؟!
أرأيتمْ ابناً يتلقّى ... أمْراً بالذَّبحِ ويرضاهُ
وتهزُّ الكونَ ضراعاتٌ ... ودعاءٌ يقْبلُهُ اللهُ

تتــــوسّــــــلُ للمـــــلأ الأعلـــىٰ أرضٌ وسمـــــــــاءٌ وميـــــــــاهُ
ويقـــــولُ الحـــــقُّ ورحمتُـــــه سبقــــتْ فــــي الفضْــل عطــايــاهُ
صـــدَّقْـــتَ الـــرُّؤيــا لا تحـــزنْ يــــا إبـــــراهيـــــمُ فــــدينـــــاهُ

* * *

الفصلُ الثّالث

طفولةُ نبي الله يوسُف ـ عليه السَّلام ـ

* من ذريةِ الأسرةِ الإبراهميّةِ الكريمةِ نلتقي اليومَ قصَّة طفْلٍ هو «الكريمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[1].

* ويوسُف هذا، أحدُ أنبياءِ الله الذين وردَ ذكْرهم مراراً في القُرآن الكريم، وقد وردتْ قصّة طفولته مفصَّلةً جميلةً ساحرةً آسرةً في سورة يُوسُف نفسها.

* فقد كان ليوسفَ ـ عليه السَّلام ـ أحدَ عشَر أخاً ذَكَراً، وكانَ يُوسُف جميلَ الصُّورة كالقَمر عند ليلةِ البدر، وكان أثيراً عند أبيهِ يعقوب حيث يخصُّه بمحبّةٍ خاصّةٍ خالصةٍ من بين إخوته، وكانت هذه المحبَّةُ سبباً في تحريك حَسَدِ إخوته وكيدهم له ولأبيهم.

* كان يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ طفلاً بريئاً، صافي النَّفس، نقي السّريرة، صادقَ اللهجة، أليفاً، يذكرُ الله دائماً، مِطواعاً له، حسنَ الخُلُق والخِلْقة، وذات يومٍ رأى يُوسُف ـ وهو طفل صغير ـ رؤيا عجيبة،

(١) هذا نص حديث جاء في الصّحيحَيْن، أخرجه البخاري في الأنبياء برقم (٣٣٧٤)، وفي التفسير برقم (٤٦٨٩)، ومسلم في الفضائل برقم (٢٣٧٨).

فقصَّها على أبيهِ يعقوب ، ومفادها: أنَّه رأىٰ أحدَ عشرَ كوكباً والشَّمسَ والقمر يسجدون له؛ وهناك عرفَ يعقوب وأدرك أنَّ هذه الرّؤيا العظيمة تتضمّنُ خيراً لهذا الطِّفلِ الجميلِ الصَّافي ، وتجعلُ أبويه وإخوته يخضعون لسلطانِه ، وفَهِمَ من تلك الرُّؤيا أيضاً أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيبلِّغُ يُوسفَ مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنّبوة ، وينعمُ عليه بشرف الدَّارَيْن ، وخشي يعقوب أنْ يخبرَ يوسُف أحداً من إخوته ، فيحسدونه على ذلك الفَضْل الذي اختصَّه اللهُ به من دونهم ، وخافَ عليه من حَسَدهم له ، فيبغون له الغوائِل نتيجةَ حسدهم ، ونهاه أنْ يقصَّ رؤياه عليهم قائلاً: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٥].

* واغتاظَ أولادُ يعقوبَ من إيثارِ أبيهم ليوسف ، وحسدوه على ولوع أبيهم به ، وإيثاره عليهم ، فتآمروا فيما بينهم على أنْ يقتلوه ، أو أنْ يجعلوه في أرض بعيدة ، فيلقونه في الجُبّ ، وبعد أنْ أبرموا بينهم أمرهم هذا قالوا لأبيهم: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٢].

* أوجسَ يعقوبُ خيفةً من طلبِهم هذا ، وأحسَّ بما يبيتونه من الشَّرِّ لطفلهِ الأثيرِ الحبيب يوسف ، ولكنّه لم يعلمْهم ولم يخبرهم بمخاوفهِ وقال لهم: أخافُ عليه الذّئب؛ فأجابوه إجابةً مقنعةً في الظَّاهر: كيف يأكلُه الذّئب ونحنُ أولو قوّة ، وأولو بأسٍ شديد؟! لئن حدثَ هذا ـ ونحنُ عصبة ـ إنا إذاً عاجزون هالكون!!.

* ولم يزالُوا بأبيهم يحاورونه حتى بعثَه معهم ، فما كان إلا أنْ غابوا عن عينيه ، حتى جعلُوا يشتمونه ويهينونَه بالفعالِ والمقالِ ، ويسخرون من حُلِمه الذي رآه ، ثمّ أجمعوا علىٰ إلقائهِ في قَعْر الجبّ ، فألقوهُ فيه طفلاً صغيراً ، ولكنَّ الرحيمَ الرحمنَ أوحىٰ إليه: أنّه لا بدَّ لك من فَرجٍ ومخرجٍ من هذه الشِّدَّة التي أنتَ فيها ، ولسوف تخبرُ إخوتَك بما فعلوه في حالٍ

تكون فيها عزيزَ الجانب ، وهم محتاجونَ إليك ، خائفون منك ، طالبون رِفْدَك وعطاءَك[1] .

* وعاد إخوةُ يوسفَ في مساءِ ذلك اليوم الرَّهيبِ ، يوم المؤامرةِ والمكيدةِ والحَسَدِ ، عادوا إلى أبيهم يحملون نبأً كاذباً ، وكانتِ الدُّموعُ المصطنعَةُ تغرقُ أعينَهم ، وقد لوّثُوا قميصَ يوسف بدمٍ كذبٍ ، وادّعوا أنَّ الذئبَ قد أكلَ يوسف ، وهذا قميصُه يشهدُ بذلك ، وقد جلّتِ المصيبةُ وعظمت الرّزيةُ ، ولستَ بمصدقنا ولو كُنّا صادقين ، فأنتَ معذورٌ بذلك .

* ولكنَّ يعقوبَ ـ عليه السَّلام ـ أدركَ وعرفَ مؤامرتهم ، ولم يخفَ عليه شأنُهم ، وأخذ القميص ، ونظرَ فيه ، فلم يرَ فيه أثرَ خَدْشٍ ، فقال لهم متهكماً سَاخِراً : ما أشدَّ حلمَ هذا الذّئب الذي أكلَ يوسف ، ولم يمزقْ عليه قميصه ؛ ثم قال لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] .

* ومن محاسنِ المصادفات ، ومن لطائفِ رحماتِ الله عزَّ وجلَّ ، أنَّ البئرَ التي ألقوا فيها أخاهم يوسفَ كانت قليلةَ الماء ، وكان يُوسف جالساً فيها ينتظرُ فَرجَ الله ولطفه به ، إلى أنْ جاءت بشاراتُ الفَرجِ ، فقدمتْ قافلةٌ قاصدةٌ مصرَ ، فأرسلوا واردَهم إلىٰ البئر طلباً للماء ، فأدلىٰ دلوه في تلك البئر ، فتعلَّق به يوسُف ، فاستبشرَ به الرَّجل وقال : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ [يوسف : ١٩] .

* واتَّفقت جماعةُ القافلةِ على أنْ يتّخذوا هذا الطِّفل عبداً يبيعونه في مصر ، فأخذوه عبداً رقيقاً ، وأوهموا أنَّ معهم غُلاماً من جملةِ متجرهم ، وظلّوا كذلك حتى وردوا مصر ، وعرضوه للبيعِ في سوقِ الرّقيق ، وهو الحرُّ الأبيُّ الكريمُ ، وهناك باعوه بثمن بخسٍ كما ذكرَ الله عزَّ وجلَّ :

---

(١) عن قصص الأنبياء (ص ٢٤٩) بتصرف .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠].

* واشتراهُ عزيزُ مصرَ رئيس الشّرطة والوزير الأكبر ، فتوسَّمَ فيه خيراً ، واحتلَّ عنده مكاناً عليّاً ، اكتسبه بحسنِ دِينه وخلقِه وصدقه وأمانته وعبقريته ، لذا فإنَّه قد أوصىٰ امرأتَه قائلاً : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

* ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمَ نبيّه يوسف بأشياء كثيرةٍ أوردها في سورةِ يوسف مفصّلة ، وهي مثالٌ فريدٌ من روائعِ القَصصِ الإنسانيّة الهاديّة المرشدة. ولكنَّ الذي يهمّنا ما أوردناه من طفولته ـ عليه السَّلام ـ ، وكذلك الدّروس المُستفادَة ومنها: تاجُ الفضَائل الذي توّج اللهُ به هذا النّبي وأولها صبره على كيدِ إخوته ، وعلى العبوديةِ والغربةِ في مصرَ. ومنها أيضاً ثقته العظيمة بالله عزّ وجلّ ، وهدوء نفسه وهو في قَعْر الجبّ ، ثمّ الإحسان والوفاء الذي فُطرَ عليه منذ ولادتهِ حتى وفاته ـ عليه السَّلام ـ؛ فهو الكريم الذي نشأَ على مائدة التّقوى ، وتغذّىٰ بالأخلاقِ النَّبويةِ من الأسرةِ اليعقوبيّةِ فالإبراهميّة الخليليّة الطَّاهرة ، وكان لهذهِ الأخلاق أثرها في نفسه ، إذ آتتْ ثمارها في جوانب حياته ، فكان صالحَ النّشأة ، متينَ الفضيلة ، أصيلَ المحتِد ، علَّمهُ الله التّأويل ، وأسبغَ عليه نعمَه ظاهرةً وباطنة.

* والآن ، يمكنُ للمربي أنْ يتّخذَ من هذه القصّة موادَّ نافعةً مفيدةً يغذي بها الطِّفل ، ويرشده إلىٰ مواطن الفضيلة فيها.

* * *

الفصل الرّابع
طفولةُ نبي الله موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ

* موسى بنُ عمران أحدُ أنبياءِ الله عزَّ وجلَّ الذين صوَّر القرآنُ الكريمُ طفولتَهم بشكلٍ واضحٍ ، وذكر كثيراً من جوانب حياتهِ الطُّفولية ، وما خالَطها من ألطافٍ وعناياتٍ ودروس وفوائد وعبر.

* وكان قبل مولدِ موسى يحكمُ مصرَ رجل استخفَّ قومَه فأطاعوه ، هذا الرَّجل يُدعى فرعون ، وكانَ من أَغْلظِ وأقسىٰ مَنْ عرف النَّاس في تلك الأَعْصارِ والأمصار ، فقد وردَ أنَّه رأىٰ في منامه أنَّ ملكَه سيزولُ على يَدِ طفلٍ يُولدُ في بني إسرائيل ، وسيخلّصُ النَّاس منَ الطُّغيان والظُّلم ، وسيكونُ هلاكُ فرعون نفسه على يدهِ ، وكذلك هلاك قوم فرعون أيضاً.

* وطار قلبُ فرعون شعاعاً لهذه الرُّؤيا ، واضطربَ وخافَ ، وقصَّ فرعونَ رؤياه على العرافين والمعبّرين فقالوا: هذه أضغاثُ أحلامٍ ، ويكتمونه ما تدلُّ عليه(١).

* واستشارَ فرعونُ وزراءهَ وأهلَ مملكته في رؤياه وأحلامِهِ المتكرّرة التي تحكي قصّة الطِّفل الذي سيكون هلاكُه وزوال ملكِه على يدهِ ، فأشاروا عليه بقَتْلِ كلّ من يُولدُ من الذّكور لبني إسرائيل ، ويبقي الحياة للبنات ،

(١) انظر: نهاية الأرب (١٣/ ١٧٨).

وأطلقَ جنودَه في البلادِ يقتلون الأطفالَ حتى يُقال إنَّه قتلَ سبعين ألفاً منهم[1].

* وهكذا أصابَ بني إسرائيل اضطهادٌ عظيمٌ من فرعونَ وعمله في أرضِ مصر ، وبلغَ الاضطهادُ ذِروته حينما أصدرَ ذلك الأمرَ القاسي بقتل كلّ مولودٍ ذَكَرٍ لهم ، فأذلّهم ، وعلا في الأرضِ ، كما ذكرَ ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

* واحترزَ فرعونُ كلَّ الاحترازِ ألّا يُوجَد هذا الطِّفل ، حتى جعلَ رجالاً يدورون على الحبالىٰ والحوامل ، ويعلمونَ ميقات ولادتهنّ ، فكانت لا تلدُ امرأة ولداً ذكراً إلا ذَبحه أولئك الذبّاحون من ساعته[1].

* ولكنَّ القدرَ كان لهذا العاتي بالمرصادِ ، وكأنَّه يقول له: يا أيهذا الملكُ الجبّار المغرورُ بكثرةِ جنوده ، وسلطةِ بأسه ، واتساعِ سلطانه ، قد حكمَ العظيمُ الذي لا يُغالبُ ولا يُمانعُ ، ولا تُخالَفُ أقدارُه ، أنَّ هذا المولودَ الذي تحترزُ منه ، وقد قتلتَ بسببهِ من النُّفوس ما لا يُعَدُّ ولا يحصىٰ ، ولا يكون مرباه إلا في دارِك ، وعلى فراشِك ولا يغذّى إلا بطعامِكَ وشرابِكَ في منزلك ، وأنتَ الذي تتبنَّاهُ وتربّيه وتتفدّاه ، ولا تطّلعُ على سرِّ معناه ، ثم يكون هلاكُكَ في دنياك وأخراك على يديهِ ، لمخالفتكَ ما جاءكَ به من الحقّ المبين ، وتكذيبك ما أوحي إليه ، لتعلمَ أنتَ وسائر الخلق ، أنَّ ربَّ السَّمواتِ هو الفعّال لما يريد ، وأنَّه هو القوي الشَّديد ، ذو البأسِ العظيم ، والحَولِ والقوّة ، والمشيئة التي لا مردَّ لها[2].

---

(١) انظر: قصص الأنبياء (ص ٣١٠) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق نفسه.

* وفي هـذه الفترةِ العصيبة الرَّهيبـة من البـلاءِ والاضطهاد وإذلالِ العباد بقتـلِ الأطفالِ الذّكور ، واستحياء النِّسـاء ، حملت أمُّ موسى به ، ولم يعلم بها الجلاوِزَة القُساة العُـتاة البُـغاة الطُـغاة ، ولما جاءهـا الطَّلق ، ولدتـه في نصفِ الليل ، وليسَ عندها إلا ابنتها ، فوضعَـتْه ، ووجهُـه يتلألأُ نوراً[1] .

* وأصبحتْ أمُّ موسى وهي شديدةُ الفرحِ به ، والخوف عليه ، وحرصتْ على حياته أشدَّ الحرص ، وأرضعتْه قرابةَ ثلاثة شهور ، وهي بين الخوفِ والرُّعبِ من فرعونَ وعمله ، ثم إنّها خافت من افتضاحِ أمرها ، والعِلْم بسرّها ، وخشيتْ على طِفلها من جنودِ فرعون المكلفين بالبحث عن أطفالِ الإسرائيليين الذّكور ، ألهمها الله عزَّ وجلَّ أنْ تتخّذ له تابوتاً ، وتلقيه في اليّم ، وألقى في روعها وخلدها ألاّ تخافي وألاّ تحزني ، فإنَّ طفلَك موسى إنْ ذهبَ مع الماء فإنَّ الله سيردّه إليك ، وإنَّ اللهَ سيجعلُه نبيّاً مرسلاً ، ويعلي كلمته في الدّنيا والآخرة .

* وعملت أمُّ موسى ما أُلقي في خلدها ، وصنعَتْ لموسى صندوقاً يحمله في الماءِ ، وألقته في اليمّ ـ وهو نهر النّيل ـ وساقَ الماءُ الصُّندوق حتى دنا من قَصْر فرعون المشرف على النّيل ، وكانتْ مريمُ أخت موسى تراقبُه عن بعد ، وتتّبعُ أثره ، حتى هيّأ اللهُ للطِّفل الرّضيع مَنْ يلتقطه من نساء القَصْر الفرعوني ، التقطته ابنةُ فرعون وأحبَّته ، وأدخلته البلاطَ الفرعونيَّ ، وعلموا أنَّه من بني إسرائيل ، وأنَّه محكومٌ عليه بالقَتْل ، بموجب الأمْرِ الفرعوني العام في مصر .

* واشتدَّ هلع أختِ موسى حينما حُمِلَ أخوها إلى فرعون ، ولكنَّ اللهَ ربَّ العالمين هو المتصرّفُ ، وهو العليمُ الخبيرُ ، فَمِنْ أسهلِ المواقفِ

---

(1) نهاية الأرب (١٣/ ١٧٩) بتصرف يسير .

وألينها دخلَ موسى القصر الفرعوني ، واحتلَّ قلوب جميع مَنْ شاهده ، إذ ألقى الله عليه محبّة منه[1] ، فقد رأتْه آسيةُ امرأة فرعون ، فقذفَ الله محبّته في فؤادها ، وكانت امرأةً مؤمنةً جاء ذكْرها في سورةِ التّحريم ، فطلبت من فرعونَ أنْ يبقيَه لها على قيدِ الحياة ، ليكون قرّة عينٍ لها وله ، وقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص : ٩] ثم أسموه موسى.

* ونجا الطِّفل موسى منَ القتل ، ولكن ما حال أمِّه التي أصبحَ فؤادها فارغاً من أمورِ الدّنيا إلاّ من موسى ، وأصبحَ فارغاً أيضاً من الهمِّ والقلقِ ، لمّا علمتْ نجاةَ ولدها ، وتبنّي القَصْر الفرعوني له ، كما روت ابنتُها لها ذلك.

* وأخذ نسوةُ القصرِ الفرعوني يبحثْنَ عن مرضع للطّفل المحبوبِ ، فكانوا كلّما جاؤوا بمرضعٍ له ، رفضَ ثديها ، بل لَم يقبلْ ثدي امرأةٍ ، ولا أخذَ طعاماً ، وحاروا في أمْرِهِ ، واجتهدوا على تغذيته بكلِّ ممكنٍ فلم يفلحوا ، ولم يفعلْ ما أرادوا ، كما قال ربّنا عزّ وجلّ في صفةِ ذلك: ﴿ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص : ١٢].

* لقد حرّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ المراضعَ على موسىٰ ، وألهمَه رفْض ثُديهن ، وذلك ليعيده إلى أمّه ، وتقرّ به عينها ، ولما رأتْ أخته أنّهم أحبّوا أخاها واستحيوه فلم يقتلوه ، وهم الآنَ يبحثون له عن مرضعٍ ، قالت لهم: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢] ، فوافقوا على ذلك وهم في شوقٍ شديد ، وهم أشدُّ شوقاً لهذا الأمْرِ الذي نزل بهم ، ولم يعرفوا الحلّ له.

* وأسرعتِ الفتاةُ إلى أمّها ، ودعَتْها إلى عند امرأة فرعون ، وعرضتْ

---

(١) ولله در من قال:

وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبدَهُ ... ألقىٰ عليه محبّةً للنَّاس

عليه ثديها ، فامتصّه بنهمٍ وشوق ، فاستأجروها لإرضاعهِ وكفالته مع الأجرِ والنّفقات والهِبات ، ورجعت به تحوزُه إلى رحلها ، وقد جمعَ الله شَمْله بشملها .

* وبذلك ردَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الطِّفل موسىٰ إلى أمّه كي تقرّ عينها به ، ولا تحزن على فراقهِ ، ولتعلمَ أنَّ وعْدَ اللهِ حق ، إذا ردَّه إليها كما أوحىٰ إليها ذلك من قبل .

* وتمَّتْ مدّة رضاع موسى عليه السَّلام وكفالته على يدي مرضعتهِ كما ظنَّ أهلُ البيتِ الفرعوني ، وهو في يدي أمّه في الحقيقة ، ثم أُعيد إلى قَصْر الملك ، فنَشأَ وتربّى فيه ، حتى بلغَ أشدّه واستوى ، وآتاه الله صحّةً وعقلاً وجمالاً وقوة وبأساً ، وحكماً وعلماً وكان من الرُّسل أولي العزم ، وبقية قصّته مشهورة معروفة في القُرآن الكريم حيث ذكرت في أكثر من ثلاثين سورة .

* ويمكن للمربيّ أن يستغلَّ قصّة موسى في تربية الطِّفل ، فينمي في نفسهِ جوانبَ العطفِ والرّحمة والرّأفة ، ويذكّره بعنايةِ الله بموسى ، وكيف هيّأ الأسبابَ لإرضاعه ، وردّهِ ونجاتِه من القتل ، وكيف ألقىٰ اللهُ محبّة هذا الطّفل في قلبَ امرأة فرعون المؤمنةِ التي رضيتْ باللهِ ربّاً ، ولم تتأثرْ بضلالِ وتضليل فرعون .

* ويمكن للمربي أيضاً أنْ يرويَ قصَصاً حلوةً مفيدةً عن رضاعِ الأولاد ، ويحدّثهم عن إرضاع حليمة السَّعدية لسيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ . ولا مانع أنْ يتحدَّث المربّي عن طفولةِ نبيّ الله عيسى ـ عليه السَّلام ـ وكذلك طفولة نبيّ الله يحيى ـ عليه السَّلام ـ ، وله أيضاً أنْ يستخدمَ أسلوب التّكرار والتّشويق في قصّةِ طفولةِ موسى ، حتى يحفظها الطّفل ، ويدركَ الألطافَ الرّبانية في حفظِ الأطفالِ ورعايتهم .

* * *

الفصل الخامس

طفولةُ نبيّ الله محمّد ﷺ

* شاءتْ رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يبعثَ محمّداً ﷺ بآخرِ رسالاتِ السَّماء إلى الأرضِ.

* وجاءَ النّبيُّ محمّد ﷺ استجابة لدعوةِ نبيّ الله إبراهيم خليلِ الله ـ عليه السَّلام ـ وجاءَ تصديقاً لبشرىٰ نبيّ الله عيسى ـ عليه السَّلام ـ.

* اللهُ عزّ وجلّ يصلّي عليهِ رحمةً وبركةً، وتصلّي عليه الملائكةُ ثناءً واستغفاراً، ويصلّي عليه المؤمنون تكريماً وتعظيماً واستجابةً لأمْرِ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

* ومن قبل محمّد ﷺ أرسلَ الله عزَّ وجلَّ أنبياءَه رحمةً لقومهم، ولزمانِهم، ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أرسلَه رحمةً للعالَمين، لقومِه ولزمانِه، ولمن يأتي بعدهم منَ النَّاس والأقوام إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها؛ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* وفي كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علينا أحسنَ القَصص، وذكرَ طفولةَ بعضِ الأنبياء والرّسل، مثل: نبيّ اللهِ إبراهيم، وإسماعيل، ويوسُف، وموسىٰ، ويحيىٰ، وعيسى ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ وقد

ذكرنا في الفصولِ السَّابقات طفولةَ بعضِهم ليستفيدَ من عبرِهَا الصِّغار ، والكبار ، وكافّة النّاس .

* فلقد قصَّ القرآنُ الكريمُ أخبارَ طفولةِ بعضِ الأنبياءِ ، لتكونَ زاداً وغذاءً للأمّةِ المحمّديّة ، فيعرفوا قصصَ الأنبياءِ وطفولتهم ، ويربّوا أطفالَهم عليها ، ويعلّموهم ما ورَدَ فيها من عِظاتٍ وعبر ، لأنَّ تربيةَ الطفلِ على مائدةِ القَصص القُرآني ، وعلى طفولةِ بعضِ الأنبياء والرسل ، يزيدُ من الرّصيد الإيماني والحرارةِ الإيمانيّة لدىٰ الطفل ، ويجعلُه يتّخذُ هؤلاء الأنبياء نبراساً له ، ويحبُّهم ويقلِّدهم ، ومن ثم يحبّ النبي محمّداً ﷺ الذي أُنزِل عليه القرآن الكريم وأخبرَ أمّتَه بأحوالِهم ، وقصَّ عليهم قَصَصَهم .

* وطفولةُ نبيّ الله محمد ﷺ متعالَمةٌ لدى الأمّةِ الإسلاميةِ بكلّ تفاصيلِها ودقائِقها ، وقد تعرّض القرآن الكريمُ لبعضِها في بعضِ آياته وسُورِه ، ولم يَرِدْ ذكرُ طفولتِه إلا بتلميح بسيط ، بيد أنَّ طفولته محفوظةٌ في الصُّدورِ والمصادرِ ، وقد حفظَها اللهُ بحفظِه للقُرآن الكريم .

* وعلىٰ المربّي أنْ يعلِّم الطفلَ بأنَّ طفولَةَ الحبيبِ المربّي الأعظم ﷺ طفولةٌ متفرّدةٌ ، فهي في غايةِ الصَّفاءِ والاستقامةِ ، وهي في ذِروةِ العلوّ وفضائلِ المكارم. وقد عُرِفَ في طفولتِهِ بصفةٍ عظيمةٍ هي: «الصَّادق الأمين» وأيّ شيءٍ أعظم منَ الصّدق ومنَ الأمانةِ؟!

* ومن واجباتِ المربّي النّاجح أنْ يعلِّم الطفلَ نسبَ النّبي ﷺ حتى يحفظَه بدقّة ، فهو محمدُ بنُ عبد الله بنِ عبد المطلب بنِ هاشم بنِ عبد مناف بن قُصي بن كلاب بنِ مُرَّة بنِ كعب بن لؤي بنِ غالب بنِ فِهْر بنِ مالك بنِ النَّضْر بنِ كنانة بنِ خزيمة بن مدركةَ بنِ إلياس بنِ مُضَر بنِ نزارِ بنِ مَعدّ بنِ عدنان[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ، وانظر: السيرة النبوية (١/١) ، وطبقات ابن سعد (١/ ٥٥).

* وأمُّه: آمنةُ بنتُ وهب[1] بنِ عبد مناف بن زُهرةَ بنِ كلاب بن مُرّة بنِ كعب بنِ لُؤي بنِ غالب بن فِهْر بنِ مالك بنِ النَّضر بنِ كنانة.

* وأخرجَ مسلمٌ في صحيحهِ عن واثلةَ بنِ الأسقع قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ اصطفىٰ كنانةَ منْ ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قُريشاً من كنانةَ، واصطفى منْ قريش بني هاشم، واصْطفَاني مِنْ بني هاشم»، ولله درُّ البُوصيري حيثُ قال:

لَمْ تَزلْ في ضَمائرِ الكونِ تُختَا ... رُ لَكَ الأمَّهاتُ والآباءُ

* وهكذا كانَ محمدٌ ﷺ أنْفَسَ النَّاس نسباً، وأزكاهم حَسَباً، وأطيبهم أصْلاً:

نَسَبٌ تَحْسَبُ العُلا بحُلاه ... قلَّدتْه نجومَهَا الجَوْزَاءُ

حبَّذَا عِقْدُ سُؤدُدٍ وفَخَارٍ ... أَنْتَ فيْهِ اليتيْمةُ العَصْماءُ

* وعلى المربّي والأسرة جميعِها أنْ تربّي الطّفل على معرفةِ سائرِ أحوالِ طفولةِ النّبي محمّد ﷺ، فيروي بأسلوبٍ حلوٍ جميل كيفَ حملَتْ به أمُّه آمنة بنت وهب، وكيف لاحظتْ وهي حاملٌ به ما يعتادُها من أنوارٍ وبُشريات، وبركات.

* ولا مانعَ أنْ يذكرَ المربّي للطّفل بعضَ الأقوالِ في حمْلِ وولادةِ النّبي ﷺ بالطّريقةِ التي يَراها مناسبةً.

* فقد أوردتِ المصادرُ، أنَّ آمنةَ بنتَ وهب حملَتْ برسولِ اللهِ ﷺ تسعةَ أشهر كوامل، لا تشكو وجَعاً ولا مغصاً، ولا ما يعرضُ لذواتِ الحملِ من النّساء. وكانتِ السَّيدةُ آمنةُ تقولُ أثناء حملِها: واللهِ ما رأيتُ من

---

(١) اقرأ سيرة السيدة آمنة بنت وهب في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ١٧ ـ ٧٢) فسيرتها إمتاع للأسماع.

حملٍ هو أخفّ منه ، ولا أعظم بركةً منه . وما وجدتُ له مشقّة حتى وضعتُه .

* ولما اقتربتْ ولادةُ النّبيّ ﷺ أحسَّتْ آمنةُ بذلك ، فاستعدّت ، ولما كانَ اليومُ الثّاني عشر من شهر ربيعِ الأوّل من عامِ الفيل ، كان القمرُ في سماءِ مكّة يوشكُ أنْ يكونَ بدراً ، وقد نشَرَ نوره الفضّي على بطاحِ مكّةَ والبيتِ العتيق .

* وفي ليلةِ ذلكَ اليوم الجميلِ ، بدتِ السَّماءُ صافيةً باسمةً للنّجوم التي تتلألأُ في الفضاء ، وكانتْ أنسامٌ حانياتٌ لطيفاتٌ تهبُّ بين الفينةِ والأخرى وتداعبُ الكونَ بلمساتِها السَّاحرة ، في تلكَ اللحظاتِ الهادئةِ كانتِ الشَّفّاءُ بنتُ عوف القابلة قربَ آمنةَ بنتِ وهب ، تنتظرُ ولادتها ، إلى أنْ أذنَ اللهُ بولادَتِه ، فاستقبلتْه الشّفّاءَ على يديها ، ورأتْ منَ الأنوارِ والبركاتِ شيئاً جعلَها ـ فيما بعد ـ منْ أوّلِ النَّاسِ إسلاماً ، تقولُ الشّفَّاء : لما ولدَتْ آمنةُ محمّداً ﷺ وقعَ على يديَّ ، فاسْتَهَلَّ ، فسمعتُ قائِلاً يقولُ : رحمكَ ربُّك ، فأَضَاءَ لي ما بينَ المشرقِ والمغربِ حتى نظرتُ إلى بعضِ قُصور الشَّام ، ثمّ ألسبتُه وأضجعتُه ، فلم أنشبْ أنْ غشيتنِي ظلمةٌ ورعبٌ وقشعريرةٌ ، ثم أُسْفِرَ عن يميني ، فسمعتُ قائلاً يقولُ : أينَ ذهبتَ به؟

قال : إلى المشرقِ ، ولن يعودَ أبداً .

فلم يزلِ الحديثُ منّي علىٰ بالٍ حتّى ابتعثَ اللهُ رسولَه ، فكنتُ في أوّل النَّاسِ إسلاماً[1] .

* وفي لمسةِ حنانٍ وحنوٍّ ، حملتِ الشَّفَّاء الوليدَ الميمونَ ، ووضعتْه في جوارِ أُمّه التي أخذَتْها سِنَةٌ من النَّوم ، وقد ارتسمتْ علىٰ وجهِها ابتسامَة

(١) انظر : دلائل النبوة للأصفهاني (١/ ١٦٩ و١٧٠) . وإلى قولِ الشّفّاء أشارَ البُوصيري ـ رحمه الله ـ في همزيته الشّهيرة الجميلة :
شَمّتَتْـــه الأمـــلاكُ إذْ وضعَتْـــه وشَفتنـــا بقـــولِهـــا الشَّفَّـــاءُ

الرّضا ، أمّا الطّفلُ الحبيبُ فكانَ وجهُه يتألّقُ نوراً وجَلالاً وجَمالاً ، وكم تمنَّتْ آمنةُ لو كان أبوهُ عبد الله حيّاً فيرى هذا الطفل الجميلَ ذا الجبينِ الأَزْهر ، والوجهِ الوضيء .

* وتنفَّسَ صبحُ تلكم الليلة ، وآذنَ الليلُ بالرَّحيل ، وأرسلتِ الشّمسُ أشعّتَها الذَّهبية علىٰ الدنيا وهي باسمةٌ مسرورةٌ بالوليدِ الذي أضاءتْ ولادتُه الدّنيا ، ونُمي الخبرُ إلىٰ عبد المطلب جدِّ النَّبيّ ﷺ بأنَّ آمنَة قد وَلَدت غُلاماً زكيّاً ، فاستبشرَ بهِ وسُرَّ سُروراً عظيماً ، وسمّاه محمّداً ، وكانَ هذا الاسمُ غيرَ شائع إذ ذاك بينَ العرب ، ولا تسمّى به سوى بضعةِ أشخاصٍ ، بيد أنَّ أمرَ اللهِ كانَ قَدَراً مقدوراً ، فقد بشرتْ بهِ الأنبياءُ من قبل ولله در البُوصيري إذ قال :

مَا مَضَتْ فَتْرةٌ منَ الرُّسلِ إلاّ بَشَّرَتْ قَومَها بكَ الأنبياءُ

* وتباشرَ الوجودُ بطلعةِ خيرِ البريّة ، ولعلَّ الدنيا غرّدت بأعذبِ الكلمات ؛ فقد أشرقتِ الأرضُ ، وضاءتْ بنورِه الآفاق :

تجلّىٰ مولدُ الهادي وعمَّتْ بشائرُهُ البوادي والقِصَابا
وأَسْدَتْ للبريةِ بنْتُ وهْبٍ يَداً بيضاءَ طوَّقتِ الرّقابَا
لقد ولدتْهُ وهّاجاً منيراً كما تلدُ السّمواتُ الشّهابا
فقامَ على سماءِ البيتِ نُوراً يضيءُ جبالَ مكّةَ والنّقابا

* وكانَ مولدُ الحبيبِ المصطفى ﷺ بدايةَ حقّ لإحقاقِ حقِّ الأطفالِ ؛ وكلّ حقوقِ الإنسانيّة ، وإزالةِ عثراتِ البشرية :

لمّا أرادَ اللهُ جلَّ جلالَه أنْ يخرجَ الدّنيا منَ العَثَراتِ
أهداكَ ربُّكَ للورىٰ يا سيدي فيضاً منَ الخيراتِ والنَّفحاتِ

* لقد ولدتْ آمنةُ بنتُ وهْب خيرَ النَّاس ، وكانَ مولُده ﷺ إيذاناً بإشراقِ نورِ الهدايةِ في الدنيا ، فقد سعدتْ به الأزمانُ ، وتعطّرتْ بشذا عبيرِه

الأكوانُ ، وأتمَّ حُسنَ صفاتِه الرّبُّ الرّحمنُ ، فصلى الله عليه وسلم وأكرمنا بحبّه ، وحشرنا تحت لوائه.

ومضتْ بضعةُ أيّامٍ على مولدِه الشّريف ، وأخذَ جدُّه عبدُ المطّلب يلتمسُ له المَراضع ، حيثُ كان أهلُ مكّة وأهل المُدن يسترضعونَ أطفالَهم في الباديةِ ، هَرباً من وخامةِ المدنِ ، وحبّاً في الفَصاحةِ واللّسَنِ ، وكُرهاً في الهُجْنَةِ والعُجْمة ، وطَلباً لجوّ الباديةِ النّقي.

* وكانتْ مرضعاتُ الباديةِ يَجُلْنَ في مكّةَ في المواسم ، وهنَّ يلتمسْنَ الأطفال للرّضاعة ، وكان منْ بينهنَّ امرأةٌ من بني سَعد ، نظرتْ إليها العنايةُ الرّبانية ولاحظتْها ، فكانت سعيدة لأنّها حظيتْ وتشرّفَتْ بحضَانةِ ورضَاعِ سيّدنا وحبيبنا ونبيّنا محمّد ﷺ.

* ومنَ العجيبِ أنَّ باديةَ بني سعد كانت في ذلكم العَام جَرْداء يشكو أهلُها جفافَ الضَّرع. ويُبْسَ الزَّرع ، ولما أنْ حلَّ الطّفل محمّدٌ ﷺ في منزلِ حليمةَ السَّعديّة حلَّ الخيرُ عندها ، فعادتْ منازلُها خُضْراً ، وأغنامُها ممتلئة الضَّرع ، وحلّتِ السَّعادة بها منْ كُلّ جانبٍ ، ومَنْ ذا الذي لا يسعدُ بحلولِ محمّد ﷺ عنده؟!

وإذَا سَخَّرَ اللهُ أناساً لِسَعيدٍ فإنّهم سُعَداءُ

* وطفولةُ نبيِّ اللهِ محمّد ﷺ عذبةٌ نديةٌ لطيفةٌ كأنفاس الرّبى ، وأزهار الرَّبيع ، وأخبار رضاعَتِهِ حلوةٌ تصقلُ النُّفوسَ ، وتجلو القُلوب ، فقد حدثَتْ معجزاتٌ رائعاتٌ في رضاعِهِ ، وقد لخَّصَها البُوصِيْري في همزيّته فقال:

وبَدَتْ في رضاعِهِ معْجِزاتٌ ليسَ فيها عنِ العُيونِ خَفَاءُ
إذْ أتَتْه ليُتْمِهِ مرضعاتٌ قُلْنَ ما في اليتيمِ عنّا غَنَاءُ
فأتَتْهُ منْ آلِ سَعْدٍ فتَاةٌ قد أبَتْها لفَقْرِهَا الرُّضَعَاءُ
أرضَعَتْه لبَانَهَا فَسَقَتْها وبَنيْها ألْبَانَهُنَّ الشَّاءُ
أخصبَ العيشُ عنْدهَا بَعْد مَحْلٍ إذْ غَدا للنَّبيّ مِنْها غِذَاءُ

* وتسردُ حليمةُ السّعديّةُ رواية إرضاعِها للطّفْلِ الكريمِ محمّد ﷺ ، ومفادُ هذهِ الرّواية وملخّصها: أنَّ حليمةَ قدمتْ مكّة في نسوةٍ منْ قومِها على أتانٍ عجْفَاءَ ، وفي مكَّةَ عُرِضَ الطّفْلُ اليتيمُ محمّدٌ ﷺ عليهنَّ فأبيْنَه لِيُتْمِهِ ، إلا أنَّ حليمة شاورت زوجَها فيهِ فقال: خُذيهِ وأرضعيهِ ، لعلَّ الله أنْ يجعلَ لنا فيهِ بركةً وخيراً ، فأخذَتْه حليمة فأرضعتْه وامتلأَ ثديَاها باللبنِ ، وأرضعتْ ولدَها معه ، حتّى إنَّ ناقتها قد امتلأ ضرعُها باللبن فحلبَ زوجُها وشربَ وشربَتْ حتّى ارتويَا ، وباتَا وهما على خَيرٍ وبركةٍ وحُسْنِ حالٍ ، مما جعلَ زوجها يقولُ عندما انبلجَ الصُّبح بنورِه: يا حليمةُ ، واللهِ إنّي لأراكِ قد أخذتِ طفْلاً مُباركاً ، أَلَمْ تَرَي مابتْنا بهِ الليلة منَ الخيرِ والبركةِ حينَ أخذْنَاه؟!

* ورجعتْ حليمةُ إلىٰ باديتها ، وكلُّ شيءٍ قد زادَ خيراً ، فحفلتْ ضروعُ أغنامِها باللبن ، وكثُرَ الخيرُ عندها ، ولم تزلْ على هذهِ الحال قرابةَ سَنَتَيْن ، حتّى غَدا محمد ﷺ طفْلاً وسيماً جميلاً ، فقدمتْ بهِ على أمِّهِ آمنةَ بنتِ وهب ، وهيَ أضَنُّ شَيءٍ بهِ ممّا رأَتْ من بركاتِه ﷺ[1] .

* وتروي كتُب السّيرةِ جوانبَ جميلةً من طفولةِ نبيّ اللهِ محمّد ﷺ ، ومنها أنَّ حليمةَ قد رجعتْ بهِ ثانيَةً إلىٰ باديتها ، وفؤادُها ذَربٌ يخفقُ بكلِّ الحُبّ لهذا الطّفْلِ الميمونِ الذي أرضعَتْه وحضنَتْهُ ، فتدفَّقَتْ عليها البركاتُ ، وزادَ عندها القُوتُ ، وقد عبَّر عن هذا الشَّيخ يوسُف النَّبهاني في مَوْلدٍ نَظَمه ومنْه:

وأرضعَتْــه ذاتُ حــظٍّ وافِــرِ ... حليمــةٌ مــنْ غُــرَرِ العَشَــائـرِ
كـانَ لـديْهَـا القُـوتُ غيـرَ يـاسـرِ ... فـأصبَحَـتْ أيْسَـرَ أهـلِ الحـاضـرِ
سَعْيدةٌ قد سَعِدَتْ بِسَعْدِ

---

(١) انظر الرواية بتفاصيلها في السيرة النبوية (١/ ١٦٢ و١٦٣) ، وانظر: البداية والنّهاية (٣/ ٢٥٥) ودلائل النّبوة للأصبهاني (١/ ١٩٨) وغيرها كثيرٌ من المصادر المتنوّعة .

* ولم تزلْ حليمةُ تتعرّفُ السّعدَ والخيرَ والسَّعادة ، وتفوزُ منه ﷺ بالحُسنى والبركةِ وزيادة ، فلّله درُّها منْ بركةٍ كثُرَتْ بها مواشي حَليمة ونَمتْ ، وارتفعَ قدْرُهَا به وسَمَتْ ، وبلغَتْ فيه بالرّتبة العُليا ما بلغَتْ:

لَقَدْ بلَغَتْ بالهاشميّ حليمةٌ مقَاماً عَلا في ذرْوَةِ العزِّ والمجدِ
وزادَتْ مَواشيْها وأخْصَبَ ربعُها وقَد عمَّ هذا السَّعْدُ كلَّ بني سَعْدِ

* وعلى أرضِ بني سعد درجَ محمّدٌ ﷺ ، وكانتْ أختُه منَ الرَّضاعة الشَّيماءُ بنتُ حليمةَ تسعدُ به وتناغيه وترقصه؛ وفي كتُبِ السِّيرةِ النّبويّة ، وكُتبِ الأنسابِ والتَّراجمِ رواياتٌ كثيرةٌ لأبياتٍ زعموا أنَّ حليمةَ السَّعديّة وابنتَها الشّيماء كانتا ترقِّصَان بها النّبيَّ ﷺ عندما كانَ طفلاً ، وتدعُوانِ له اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يبقيهِ ويُعْليهِ ويعزَّه ويكبتَ أعداءَه وحُسَّادَه.

* جاءَ في «الإصابة» لابنِ حجر ، و«أنسابِ الأشْرافِ» ، للبلاذري ، أنَّ حليمةَ كانتْ تُعْنىٰ بالطّفلِ محمّد ﷺ ، وتحبُّه حبّاً جمّاً ، وكانتْ ترقِّصُه وتناغيه كما تفعلُ الأمّهاتُ معَ أطفالهنَّ ، وتقُول:

يـا ربِّ إذْ أعْطَيْتَهُ فأَبْقِهِ وأَعْلِهِ إلىٰ العُلا وَرَقِّهِ
وادحَضْ أباطيْلَ العِدَا بحَقِّهِ[1]

* وفي «السِّيرةِ الحلبيّةِ» لعليِ بنِ برهانِ الدِّين الحلبيّ ، و«السِّيرة النَّبويّةِ» لأحمد زيني دُحْلان ، أنَّ الشَّيماءَ بنةَ حليمة ، وأختَه في الرَّضاعةِ كانت تشفقُ عليه وتُعْنىٰ بهِ، وتحتضنُه مع أمِّها ، وكانتْ ترقِّصُه وهو طفْلٌ وتقولُ:

هـذا أخٌ لـي لـمْ تلـدْهُ أمّـي وليـسَ مـنْ نَسْـلِ أبـي وعمّـي
فَـديْتُـه مـنْ مُخْـولٍ مُعِمّـي فـأَنْمِـه اللهـمّ فيمـا تنْمـي[2]

---

(١) انظر: الإصابة (٨/ ٥٢ و٥٣) وأنساب الأشراف (١/ ٩٥) ، وانظر في هذا المجال بتوسع: أغاني ترقيص الأطفال (ص ٦٥ و٦٦) لأحمد أبو سعد ، طبعة دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى ـ شباط ـ ١٩٧٤م.

(٢) انظر: السيرة الحلبية (١/ ١٢٦) والسيرة النبوية لأحمد زيني دحلان نقلاً عن السيرة=

* وفي كتابِ «الإصَابةِ» أنَّ الشَّيماء كانتْ ترقّصُ النَّبيَّ ﷺ ، وهو صغيرٌ ، وتُغَنّي لَهُ:

يَــا رَبَّنــا أَبــقِ لَنَــا مُحَمَّــدا ... حتّــى أرَاهُ يــافِعَــاً وأَمْــرَدَا

ثُــمَّ أرَاهُ سيّــداً مُسَــوّدَا ... وأكْبِـتْ أعـاديْـهِ معـاً والحُسَّـدا

وأعْطِهِ عِزّاً يَدُومُ أَبَدَا[1]

* وتروي المصادرُ من حديثِ ابن عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما : كان أوّل

= الحلبية. ومعنى «معمي» كريم الأخوال والأعمام. و«أنمه»: زِدْه.

(١) انظر: الإصابة (١/ ١٢٣ و١٢٤) وكانَ أبو عُروةَ الأزدي إذا أنشدَ هذا التَّرقيص، قالَ: ما أحسنَ ما أجابَ اللهُ دُعَاءَهَا. (نساء من عصر النبوة ٢/ ١٢٧).

ـ في الحقيقة يصعُبُ على الباحثِ الاطمئنانُ إلىٰ صحّةِ هذهِ الأغَاني والتَّرقيصات، كما يصعُب عليهِ كذلكِ أنْ يطمئنَّ إلى صحّةِ ما رُوي عن عبدِ المطلبِ جدّ النّبي ﷺ من أنّه أخذَ النَّبيَّ ﷺ بعدَ ولادتِه، وحملَه إلىٰ البيتِ، وأخذَ يطوفُ به، وأحاطَ به بنوه وهو يقولُ:

الحمــدُ للهِ الــذي أعطــانــي ... هــذا الغَــلامَ الطّيّــب الأرْدانِ

قـد سـادَ فـي المهـدِ علـى الغِلْمـانِ ... أعيــذُه بــالبيــتِ ذي الأركــانِ

حتــى أراهُ بــالــغَ البنيــانِ ... أعيــذُه مــن شــرّ ذي شنَــانِ

من حاسدٍ مضطرب العنانِ

ـ ووردَ في كتاب «أبناء نُجباء الأبناء» أنَّ جدَّه حملَه، وانطلَق به، فطافَ به أسبوعاً، ثم قام عند الملتزم ـ ما بينَ الحجرِ الأسودِ والبابِ ـ وجعل يقول:

يــا ربّ كــلِّ طــائــفٍ وهــاجــدِ ... وربَّ كــلّ غــائــبٍ وشــاهــدِ

أدعــوكَ بــالليــلِ الطفــوحِ الـرّاكـدِ ... لا هــمَّ فـاصـرفْ عنـه كيـدَ الكـائـدِ

واحطــمْ بــهِ كــلّ عنـودٍ ضــاهــدِ ... وأنشئْــه يــا مخلّــد الأوابــدِ

في سؤددٍ راسٍ وجدٍ صاعدِ

ـ ووردَ في «أنساب الأشراف» أنه حمله على عاتقه، وطاف به في الكعبة قائلاً:

أعيــذُه بــالله بــاريء النَّســم ... مِـن كـلّ مَـنْ يسعـىٰ بسـاقٍ وقَـدَمْ

وقصفـهِ الحجّـاجَ فـي الشّهـر الأصـمّ ... حتــى أراه فــي ذُرا صَعْــب أشــمْ

ثم يكونُ ربّ غير مهتضم

(أغاني ترقيص الأطفال ص ٦٦ ـ ٦٨) بتصرف.

كلام تكلَّمَ به ﷺ حينَ فطَمَتْه: اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكْرةً وأصيلاً.

* وظلَّ الطفلُ محمّد ﷺ عند حليمةَ حتى كانتْ حادثةُ شقّ الصَّدْرِ المشهورة التي وردَتْ في المصادرِ الحديثيّة وكتُبِ السّيرةِ والطَّبقات ، فرجعَتْ به إلى آمنة وهو مايزالُ في سنّ الطّفولةِ العذبةِ ، وركنَ إلى أمّه ، وسكنَ إلى رفقاتِ قلبها ، وهمسَات حنانِها ، وكان جدُّه عبد المطلب يحنو عليه حنوَّ المُرضعاتِ على الفَطيم ، وكثيراً ما كان يبوحُ لمن حولَه منْ أولادِه وعشيرته وهو يحدّثهم عن الطّفلِ الحبيبِ الغالي محمد ﷺ: دعوا ابني فو اللهِ إنَّ له لشَأْناً.

* وتصدُقُ فِراسةُ عبد المطلب ، وتتحقَّقُ فيما بعد ، فقد كان يرىٰ منَ الأحوالِ الشَّريفة للطّفل محمّد ﷺ ما يجعلُه يتكلّم بمثلِ هذا الكلام ، فقد كان يجلُسه بجانبهِ في ظلّ الكعبةِ ، ويمسحُ رأْسَه وظهرَه بيدِه ، ويكرمه ويحنو عليه ، ويؤنسُه ويفيضُ عليه من حبّه وعطفِهِ.

* وتظلُّ حياةُ الطُّفولةِ مندّاةً بنعيم أُمّه آمنةَ التي رأتْ فيهِ كلَّ الوجودِ ، فهو ريحانتُها ، وزهرةُ حياتِها ، ووردةُ نعيمِها ، ورحيقُ رُوحِها ، ونسيمُ دنياها ، تتنسّمُ من أزاهرِه العَطِرةِ شَذا الوجودِ ، وتحلّقُ في محبّتِهِ بفضاءٍ ليس له حُدود ، فقد كان ينبعثُ منه ﷺ أريجٌ أطيبَ منَ المسْكِ ، وأندىٰ من كلّ عطْرٍ في الدّنيا.

* ولما بلغَ الطّفْلُ الجميلُ الحبيبُ محمّد ﷺ منَ العمرِ ستّ سنين ، وكانتْ سِماناً مُفعمةً بالبركاتِ في ظلالِ أمّه الرّؤوم ، خرجَتْ بهِ إلى المدينةِ كيما تزورهم به ، وكان بصحبتها أمّ أيمن تحضنُه ، وهم على بعيريْن ، فنزلَتْ به في دارِ النَّابغة ، وأقامتْ عندهم شهراً ، وزاروا قبرَ عبدِ اللهِ والدِه هناك ، وكانَ النّبيّ ﷺ يذكرُ أموراً كانتْ في مقامِه بالمدينةِ ـ وذلك بعد الهجرة ـ ولما نظرَ إلى دارِ بني النّجّار قال: «كنْتُ ألاعب أنيسة جارية من

الأنصار على هذا الأُطُم ، وكنت مع غلمانٍ من أخْوالي نُطَيِّرُ طائِراً كان يقعُ عليه». ونظرَ إلى الدَّارِ فقال: «ها هنا نزلَتْ بي أمّي ، وفي هذه الدار قُبِرَ أبي عبد الله بنُ عبد المطلب ، وأحسنْتُ العَوْمَ ـ السِّباحةَ ـ في بئرِ بني عديّ بنِ النَّجَّار»؛ وكانَ قومٌ منَ اليهودِ يختلفونَ ـ يأتي واحدُهم تلوَ الآخر ـ ينظرونَ إليه؛ فقالتْ أمُّ أيمنَ: فسمعتُ أحدهم يقول: هو نبيُّ هذه الأُمّة ، وهذهِ دارُ هجرتِه ، فوعيتُ ذلك كلّه من كلامه[1].

* وفي المدينةِ قضى الرّكبُ الصَّغيرُ كلَّ حاجةٍ ، ثمّ رجعُوا إلى مكّةَ ، فلما كانُوا بقريةٍ تسمّى «الأبواء» ، داهمَ الموتُ أُمَّه آمنةَ بنتَ وهْبٍ فقبرُها هناك ، ثمَّ رجعَتْ به أمُّ أيمنَ على البعيرَيْن إلى مكّة ، وقد فَقَدَ أُمَّه وهو في سنّ الطّفولةِ الغضَّةِ ، وفي ربيعهِ السَّادس تقريباً ، فعاشَ قرابة سنتين في كفالةِ جدّه عبدِ المطلب ، ولما بلغَ ﷺ ثمانية أعوامٍ ماتَ جدّه ، فكفله عمّه أبو طالب ، وعاش حتى بلغَ سنّ الرّجولةِ وتزوّج من خديجةَ بنتِ خويلد ـ رضي الله عنها ـ ولما بلغَ الأربعينَ اختصّه اللهُ بالرّسالة ، ونزلَ عليه الوحيُ ، وكانت رسالتُه خاتَم الرّسالاتِ ، وهو خاتمُ الأنبياء والمرسلين ﷺ.

* ويجدر بنا ونحنُ في رحابِ هذه الرّحلة الشَّائقةِ مع طفولةِ الأنبياءِ الكرام ، وفي روضِ طفولةِ حبيبنا ورسولنا محمّد ﷺ ، أنْ نشيرَ إلى أسمائِه الكريمةِ التي سمّاه اللهُ تعالى بها في القُرآن الكريم ، ومنها: محمّد وقد وردَ في أربعةِ مواضع ، وأحمدُ ، وعبدُ الله ، ورسولٌ ، ونبيٌّ ، وأمّيٌ ، وشاهدٌ ، ومبشّرٌ ، ونذيرٌ ، وسراج منير ، ورؤوفٌ رحيم ، ونذيرٌ مبين ، ومذكّرٌ ، وعبدٌ ، وشهيد ، ومصدّقٌ ، ونورٌ ، وقد عدَّ بعضُ العُلماء مئات الأسماء له ﷺ في القُرآن والسُّنَّة.

---

(١) انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٠٤) وشرح المواهب اللدنية (١/ ١٦٧ و١٦٨) مع الجمع والتصرف.

* وممّا جاءَ من أسمائِه في السُّنة ما جَاءَ في الصَّحيح عن جُبير بنِ مُطْعِم ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمّدُ، وأحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَرُ النّاسُ على قدمي، وأنا العاقب»[1].

* وفي الصَّحيح أيضاً عن أبي موسى الأشعري[2] ـ رضي الله عنه ـ قال: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُسمّي لنا نفْسَه أسماءً فقالَ: «أنا محمّدٌ، وأحمدُ، والمقَفّي، والحاشرُ، ونبيّ التّوبة، ونبيّ الرّحمة»[3].

* وقد تعرَّض القرآنُ الكريمُ لإشاراتٍ وومضاتٍ جميلةٍ لطفولةِ نبيّ اللهِ محمّد ﷺ، ومنها ما نلمسُه في سورةِ «الضّحى» التي نلمحُ من خلالها أنسامُ الرّحمات الرّبانيّة، ولمساتَ الحنَان الإلهيّة، تلمسُ بودٍّ ولطفٍ الطّفْلَ اليتيمَ الحبيبَ الذي صُنِعَ على عينِ اللهِ محمّد ﷺ، وكذلكَ في سورة «الشَّرح» وغيرِ ذلك كثير من سورِ القرآنِ التي لا تكادُ تخلو من تلميح لسيرتهِ وذكْرِه ﷺ، والمتبحّر في قراءةِ القرآنِ الكريمِ وعلومِه يدركُ ما قُلناه، حيثُ لا تكادُ تمرّ بصفحةٍ من صفحاتِه إلا تجدُ فيها إشارةً إلى حياتِه الشّريفةِ ﷺ.

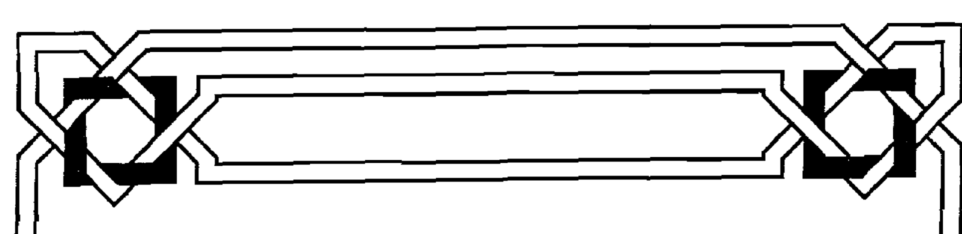
* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ومالك في الموطأ.

(٢) اقرأ سيرته بتوسع في كتابنا «علماء الصحابة» حيث تجد خيراً كثيراً بإذن الله.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٩٥) ومسلم (١٢٦/٢٣٥٥).



الباب الرابع

من وسائل تربية الطفل في ضوء القرآن

الفصل الأول : مرحلة الطفولة بين الفطرة والتربية

الفصل الثاني : الطّفل وتربية الغرائز والحواس

الفصل الثالث : الطّفل وتربية المهارات الرّوحية والعقلية والجسميّة

الفصل الرابع : الطّفل وحبّ القرآن

الفصل الأوّل
مرحلةُ الطّفولةِ بين الفطرة والتّربيَةِ

* منذ أنْ فطرَ اللهُ النَّاس ، غرسَ في نفوسِهم محبَّة الطّفْل ، فقد كانت كلُّ أسرةٍ منذُ القديم تحرصُ على بناءِ شخصيّةِ الطّفلِ حسبَ الحياةِ الاجتماعيّةِ التي يعيشُ خلالَها .

* ومن المتعارفِ عليهِ أنَّ الحياةَ كانت بسيطةً هادئةً في السَّابق ، ولا تعقيدَ فيها ، ولكنْ بمرورِ الزَّمن تطوَّرتِ الحياةُ ، وظهرتْ نظرياتٌ تربويَّةٌ متنوّعةٌ من كثيرين في الشَّرقِ والغربِ ، منها ما هو غثٌّ فاسدٌ ، ومنها ما هو سمينٌ صحيحٌ ، والإنسانُ العاقلُ يستطيعُ أنْ يعرفَ الصَّواب ، ويدركُ صحّةَ المبادىءِ التّربويّةِ التي تنسجمُ مع الفطرةِ السَّليمةِ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم : ٣٠] .

* وفي الفطرةِ تفسيران ، فقيل : المرادُ بها قابليّةُ الدِّينِ الحقّ والتَّهيّؤ له .

وقيل : المرادُ بها دِينُ الإسلام .

* قال الإمامُ الخازن في تفسيره : فِطْرة اللهِ ، هي الحنيفيّةُ التي وُضعَتِ الخِلْقَة عليها ، وإنْ عُبِدَ غيرُ الله ، ولكنْ لا اعتبارَ بالإيمانِ الشَّرعيّ المكتسب بالإرادةِ والقَلم .

* وقال القُرطبيُّ : اختلفَ العلماءُ في معنىٰ الفِطرة في الكتابِ والسُّنَّةِ

على أقوالٍ منها: الإسلامُ؛ قاله أبو هُريرة ، وابن شهاب وغيرهما. قالوا: وهو المعروفُ عند عامَّةِ المسلمين من أهل التَّأْويل ، وعلى هذا يكونُ المعنى أنَّ الطِّفلَ خُلِق سليماً من الكفْرِ على الميثاقِ الذي أخذَه اللهُ على ذريّةِ آدم حين أخرجَهم من صُلبهِ ، وأنّهم إذا ماتوا قبل أنْ يدركوا يكونون في الجنَّةِ سواء كانوا أولاد مسلمين ، أو أولاد كفَّار.

* وقال آخرون: الفطرةُ هي البدأةُ التي ابتدأهم اللهُ عليها ، أي على ما فطرَ اللهُ عليهِ خلْقَه من أنَّه ابتدأهم للحياةِ والموتِ والسَّعادةِ والشَّقاوة ، وإلىٰ ما يصيرون إليه عند البلوغ.

* قالوا: والفطرةُ في كلامِ العرب: البدأةُ ، والفاطِر: المبتدىء.

* وقالت طائفةٌ من أهل الفقْه والنَّظر: الفطرةُ هي الخلقة التي خُلقَ عليها المولودُ في المعرفةِ ، فكأنَّه قال: كلُّ مولود يُولد خلقة يعرفُ بها ربّه.

* وقال ابنُ عطيّة: والذي يُعتمدُ عليه في تفسير هذه اللفظة أنّها الخلقةُ والهيئةُ التي في نفسِ الطِّفل التي هي مُعَدّةٌ ومهيّأةٌ لأنْ يميّز بها مصنوعات الله ، ويستدلّ بها على ربِّه ، ويعرف شرائعه ، ويؤمن به ، ومنه قوله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه»[١].

* ومن خلال التّجارِبِ والتَّطوُّراتِ التي مرَّتْ بها المجتمعات البشريّة ، رأىٰ المربّون أنَّ مرحلةَ الطُّفولة هي من أهمِّ مراحل عمر الإنسان ، لأنَّها بمثابةِ الأساسِ الذي يقومُ عليه بناء شخصيّته من جميعِ نواحيها العقليّة والدّينيّة والاجتماعيّة والجسميّة.

* ومن المعروفِ أنَّ كلمةَ الطُّفولة تُطلقُ على الكائنات الحيّةِ فقط ، وأنَّ طفولةَ الإنسانِ أطولُ من طفولةِ الكائناتِ الأخرى ، ومعنى هذا أنَّ

---

(١) انظر تفسير القرطبي للآية (٣٠) من سورة الروم ، وهذا الحديث أخرجه الشيخان.

الطِّفْلَ الإنسانيَّ عند الولادةِ أعجزُ من أيِّ طفلٍ كائن حيٍّ آخرَ ، ولذلك تتطلَّبُ تربيتُه والعنايةُ به جُهوداً كبيرةً .

* واقتضتْ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يعيشَ الطِّفلُ مرحلةً زمنيّةً تقتربُ من سنة ، ثم يُولد لأبويهِ طفْلٌ آخر ، ولهذا فإنَّ طولَ طفولةِ الإنسان مرتبطٌ برقيّهِ ، لأنَّ فترةَ الطُّفولة هي فترةُ تعلُّم وتدرُّبٍ على أمورِ الحياة المختلفة ، ولعلَّ طفولةَ الإنسان في المجتمعاتِ البسيطةِ أَقْصرُ من طفولتِه في المجتمعاتِ المُتَحضّرة ، لأنَّ الطِّفلَ يظلُّ معتمداً في حياتهِ على الكبارِ ، وهذا يعني أنَّه يحتاجُ إلىٰ تربيةٍ أقوم ، لأنّه يحدثُ فيها النّمو الجسميّ والعَقْليّ والوجدانيّ الذي يُعدُّ أساساً لكلّ ما يلي من حياةِ الطِّفل .

* إنَّ معرفةَ أسرارِ الطّفولةِ أمْرٌ تربويٌّ ضروريٌّ ، حيثُ تقعُ مسؤوليّةُ هذه التَّربية على عاتِقِ الأبوين في الأسرة ، وقد حدَّدَ الإسلامُ هذه المسؤوليّة ، وجعلَ الأثَرَ الأوّلَ للأبوين ، إذ المولودُ يُولد علىٰ الفطرة الإلهيّة ، والتّربيةِ القويمةِ تبدأُ مع الطّفولةِ ومنَ الطُّفولة ، ولهذا أخذَ كثيرٌ منَ المربّين بوضعِ النَّظرياتِ والقوانين التي تختصّ بالطِّفْل ، وقد شرَّقَ بعضُهم وغرَّبَ ، وابتعدَ عن جادَّة الصِّراط ، وخصوصاً بعض تلك النّظريات الغربيّة التي لا تنسجمُ مع واقع أطفالِنا الذين لهم زادٌ عظيم من التربية ، جاء ممثلاً في القرآن الكريم ، والهدي النّبوي القويم .

* * *

الفصل الثّاني

الطِّفلُ وتربيةُ الغرائزِ والحَواسِّ

* ما منْ شكٍّ في أنَّ الطِّفلَ يحتاجُ إلى تربيةٍ ، وإلى توجيهاتٍ لغرائزهِ وحواسّه كيما يكون من أُولي الفَضْل والمكارمِ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ قد جعلَ التكوين البشريَّ متناسقاً بين الكيان والمشَاعر.

* وما من شكّ في أنَّ الطِّفل له غرائز وحواس تصاحبُه منذ ولادتهِ ، ولكنّها غيرُ واضحةِ المعَالمِ تماماً ، إلا أنّنا نلمحُ فيها منَ الغرائز: غريزة الحُبِّ والكراهيَةِ؛ والخوفِ والرّجاءِ ، والإيجابية والسّلبية ، وغيرها. . . . فهذه الثُّنائيّاتُ المجتمعةُ في النَّفس ، المختلفةُ في الاتجاه ، تحتاجُ إلى تدريبٍ وتربيةٍ تجعلُها متوازنةً في نفس الطِّفل ، تهبهُ سلوكاً قويماً ، وفكْراً سليماً ، وطبعاً أليفاً يدخلُ به إلى الحياةِ الاجتماعيةِ العريضةِ الواسعةِ.

* فكيف نربّي هذه الأشياء عند الطّفل؟!

* هناك أشياءُ كثيرةٌ تحتاجُ إلى تربيةٍ وعلاج ، والكتابُ الآن لا يتّسعُ لاستعراضِها جميعاً ، لأنّها قد تستوعبُ أكثر من نصفِه ، ولكنّا سنوجزُ بعضَ تلكم الغرائز الموجودة في النَّفسِ البشريّة ، وفي نفس الطِّفل ، ونتعرضُ للحديث عن تهذيبها وتربيتها في ضوءِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ ، ومرضاةِ الحبيبِ الأعظم حبيبنا وسيّدنا محمّد رسول الله ﷺ. وسنتعرضُ لتربيةِ غريزة الحبِّ والكراهيةِ ، والخوفِ والرّجاء مثالاً على ما نقول.

أوّلاً: الحبُّ والكراهيةُ:

* منَ الواضحِ لكلّ ذي عقل أنَّ غريزةَ الحبّ والكراهية تحتلان مساحةً واسعةً من نفسِ الطّفل ، وقد نجدُ أنَّ الطِّفل يحبُّ نفسه ، وربما نلمحُ جانبَ الأنانية ضخماً في نفس الطّفل وكيانه.

* ونجدُ كذلك أنَّ الكراهيةَ موجودةٌ في نفسه ، وربما تظهرُ من خلالِ بعض المواقف ، أو تظهرُ من خلال أحداث مرَّت أمامه ، أو مرّت به.

* وعلينا أن نحدّدَ مساحاتِ الحبِّ في نفسِ الطِّفل ، فنعلّمه ماذا يحبُّ ، ومَنْ يحبُّ ، وكيفَ يحبُّ ، ضمنَ ضوابطَ تتناسَبُ مع سِنّه وتفكيرِه ، وذلك بالإحسانِ إليه ، وترغيبه في محبّة الفضائل مثلاً ، أو محبّة النَّظافة أيضاً ، أو ما شابه ذلك ، ونكونَ أمامَه خير قدوةٍ في تمثُّلِ ذلك ، فنوضّح جانبَ الفضيلةِ وفائدتَها وثوابَها ، كما نأخذ بيد الطِّفلِ بشكل ملموس ، فنعرّفَه قيمةَ النَّظافة وفوائدها ، والأضرارَ النّاجمةَ عن تركها ، وذلك بأنْ نعرضَ صُوراً للقَذارة وأضرارِها ، أو صورةَ طفْل مريضٍ لم يأْبه للنَّظافة ولم يتعلَّمِ الطَّهارة ، أو ما شابهَ ذلك.

* إنَّ الإسلامَ أوضحَ طرقَ المحبَّةِ للطِّفل ، فيجبُ أنْ نرسمَ له طريقَ محبَّة الله عزَّ وجلَّ ، ومحبَّةِ رسولهِ الكريم ﷺ ، إذ الله عزّ وجلّ هو الواهبُ المنعمُ الذي وهبَ الحياةَ لنبي الإنسان ، وخلق كلّ شيء من أجلِ سعادته ، وخلقَ هذا الإنسان في أحسنِ تقويم ، فجعلَ له عينَيْن يبصرُ بهما ، ولساناً يعبِّرُ به عمّا يختلجُ بداخله ، وسخَّر له كل شيءٍ في الأرض في برّها وبحرِها ، ومع هذا فاللهُ رؤوفٌ رحيمٌ بعباده ، أرسلَ لهم نبيَّ الرّحمةِ ، ليخرجَهم من الظُّلمات إلى النُّور ، وعلَّمهم ما يفيدهم ويسعدهم في الدّنيا وفي الآخرة.

* وهكذا نظلُّ نوقّعُ على مثل هذه النَّغمة ، ونرسمُ الخطوطَ الواضحةَ الجميلةَ المتناسقَةَ في نفْسِ الطِّفل ، ونتوّجها بكيفيّة حبِّ الله عزَّ وجلَّ ،

وحبِّ ما يُفيدُ ، ثم نأخذُ بيده إلى تمثُّل هذه الفضيلة الكريمة في حياتِه العمليّة التَّطبيقيّة ، بما يمرُّ أمامه من مواقفَ نربطُ بينها وبين مفهومِ الحُبّ ، وبهذا تنمو هذه الغريزةُ في نفس الطِّفل ، وتجعلُ منه عنصراً مفيداً في المجتمع .

* والكراهيةُ طبيعةٌ في نفسِ الطِّفل أيضاً ، وعلينا أن نستفيدَ من هذه الخلَّة ، ونوجِّههُ توجيهاً مفيداً للتكيّفِ معها ، فلا يجوزُ أنْ يكْرَهَ الطِّفل خالقَه عزَّ وجلَّ ، وأنْ يكرهَ الرّسول ﷺ ، أو الملائكة ، أو أنْ يكْره الرّسلَ والحياةَ ، أو الأطفال أمثاله ، أو الناس .

* بمثل هذه التوجيهات المباركة ، نأخذ بيد الطفل إلى جادة الصواب ، ولكنْ يحقُّ لنا أنْ نعلمَه كيف يكره الشَّرَّ والأشرارَ ، والكذبَ والكذّابين ، والأنانيةَ والأنانيين ، والسَّرقةَ والسَّارقين ، ومثل هذه الأشياء التي يدركها الطِّفل عموماً .

* ثم إنّه لا مانع أنْ نعرفَ الطِّفل بألاعيب الشّيطان ، وخبثهِ ، وأنَّه رأسُ الشَّرِّ ، بل هو الشَّرُّ كلُّه ، وهو يدعو إلى كلّ شَرّ ، ولا مانعَ من أنْ نحدِّثَه عن خديعةِ إبليس ومكْره بأبينا آدم ـ عليه السّلام ـ وهو في الجنَّة ، أو نحدّثَه عن بعضِ الأحداثِ التي يكون الشَّيطان سببُها ، من مثل : عقوق الوالدَيْن ، أو الاعتداء على الجار ، أو العبث بالمرافق العامّة كالحدائق والمدارس وما شابه ذلك .

* وبهذا نعملُ على التَّوازن والتّهذيب لغريزة الحبّ والكراهية في نفسِ الطِّفل ، ونجعلُ منه عنصراً يسلكُ طريقَ الحياةِ بثقةِ نَفْس وعزمٍ وإرادة .

ثانياً : الخوفُ والرَّجَاءُ :

* من الغرائزِ المهمّة التي يجبُ تهذيبها وتجبُ تربيتها في شخصيّة الطِّفل غريزةُ الخوف والرّجاء؛ ولعلَّ هذه الغريزة من أخطرِ الغرائزِ المتأصّلة

بالنَّفس ، إذا لم تُؤخذْ بعين الرّعاية والدّراية ، إذ النَّفس بطبيعتها تخافُ وترجو ، هكذا رُكِّبَ في فطرتها.

* إنَّ الطِّفلَ يُولد وفيه هاتان الغريزتان متجاورتان متلازمتان؛ فالطّفلُ مثلاً يخافُ من الظَّلام ، ويخافُ من الوحدةِ ، ويخافُ من السُّقوط ، ومن السُّخرية ، وربّما يخافُ من الأشخاصِ الذين لم يألفْهم ، وقد نرىٰ هذه الظَّاهرة واضحةَ المعالم في دخولِ الطّفل المدرسة للمرّة الأولىٰ في حياتهِ ، حيث يخافُ ـ أحياناً ـ ممن حولَه ، وقد يخافُ من أستاذِه ، أو من بعضِ لدّاته.

* والطّفلُ كذلك يرجو الدّفءَ في حضنِ أمّه وهو في سنِّ الرّضاع ، ويرجو تلبيةَ رغباتهِ أيضاً كالأمانِ والرَّاحة والطَّعام والشَّراب ، وبعد هذه الفترة يرجو العطفَ في حِجْرِ أبيه ، بل وفي أيدي مَنْ يرتاحُ إليهم ممن حوله.

* ويكبر الطّفلُ ، وتنمو معه هاتان الغريزتان المُتقابلتان المتوازيتان ، وقد تتنوَّعُ المخاوف ، ويتنوع الرّجاء ، وبالتّالي تحدّد هذه الغريزةُ للطّفل مشاعر الحياة واتّجاهاتها.

* فمثلاً قد يخافُ الخزي والألمَ ، والفشَل ، والسُّخرية به والاستهزاء من شكْلِه؛ وقد يرجو الاستقرارَ والنَّجاح ، والمكانةَ بين زملائه كالتّفوُّق مثلاً.

* والآن؛ كيف نربّي هاتَيْن الغريزتَيْن في الطِّفل ، ونهذّبهما ليكون سوياً في تصرّفاته ، لا تعتورُهُ الأوهامُ والاضطرابات؟!

* إنَّ الإسلامَ قد اهتمَّ بالطِّفل وبغرائزه كلِّها ، وعمد إلى تعليمِ الطِّفل التَّصرُّفاتِ السَّليمةَ ، وأوعزَ إلى الآباء أنْ يتفهَّموا ذلك ، ويرشدوا ويهذّبوا ليحفظوا الأطفال من متاهاتِ الغرائز الضَّائعة.

* فيجبُ علينا أنْ نعلِّمه ممن يخاف ، وكيفَ يخاف ، فلا يكذبُ

مثلاً ، ولا يمدُّ يده ليسرقَ ، أو يعبثَ أو يضرّ أحداً ، نعلّمه أنَّ الخوفَ ينبغي أنْ يكونَ من اللهِ ، ومما يخوِّف به الله. فالله يخوّفنا من الشّيطان ، ومن العصيان ، وأشياء كثيرة جدّاً نستطيع أنْ نصوغَها بأسلوبٍ يتوافق مع نفسيّةِ وسنِّ الطّفل ، وحياتهِ الاجتماعيّة. ويمكن أنْ نعرضَ له قصّةً توضّح مفهومَ الخوف ، فنحكي له مثلاً قصّةً عن عقوقِ الوالدَيْن ، وما أعدَّ اللهُ للعاقّ من عقابٍ بشيءٍ من التّخويف حتى يدركَ الطّفْل خطأَ العُقوق ، وبهذا نهذّبُ هذا الجانبَ المهمَّ في نفسِ الطِّفل ، ونغرسُ فيه ما يصلحُه ويسعده.

* أمّا الرّجاء ، فنعلّم الطِّفل ألا يتعودَ على الآمال الكاذبة ، وألاّ يحلم بالمستحيلات ، وذلك من خلالِ توجيههِ إلى القِيمِ الحقيقيّة في الحياة. فالطِّفل قد يرجو التَّسلُّط والقوّة والأنانية ، ولكنْ علينا أنْ نُفْهِمَه أنَّ هذا الرَّجاءَ كاذبٌ وضارٌّ ، ونأخذَ بتفكيرهِ إلى المكارمِ والفضائلِ ، ولا مانع أنْ نغرسَ في نفسِ الطِّفل الطُّمأنينة ، وذلك بالعملِ على مرضاةِ اللهِ ، كأداءِ الصَّلاة ، ومساعدة المحتاجين ، وقولِ الصِّدق ، ثم نظلّ نسير في هذا الطَّريق حتى يغدو الرَّجاءُ عنده خُلُقاً وسجيّةً ، وبالتَّالي تتحرَّرُ نفسُه من الخوفِ الضَّارّ ، وتنعم بالرَّجاء الحقيقي.

* * *



الفصل الثّالث

الطّفلُ وتربية المهارات الرُّوحيةِ والعقليةِ والجسميةِ

* هناك أنواعٌ عديدة ووسائلُ كثيرة لتربية الطّفل في ضوءِ القرآنِ الكريم ، وضوءِ المفاهيم الإسلاميّة ، وتنشئته تنشئةً صالحةً من خلالِ الأخذ بيده نحو الأفضل ، ونحو الأقْومِ ، فالإسلام مفعمٌ بوسائلِ التّربية للقاعدة الكبرىٰ في الحياةِ ، ألا وهي الأطفال؛ إذِ الأطفالُ يعدّون العددَ الأكبرَ في تاريخِ الشُّعوب في كلِّ الأمصار ، ولعلَّ بعضَ الأُسر تَجِدُ فيها أكثر من خمسين بالمئة من الأطفال .

* لذلك ألفينا أنَّ الإسلام قد هيّأ الوسائلَ التَّربويّةَ للطِّفل ، إذ يربّي روحَه بالموعظةِ الحسنةِ والفضائلِ الخلقيّة؛ ويربّي ملكاتهِ العقليّة بالقدوة الصَّالحة وبالقصّة المفيدة والموقفِ الهادف ، ويربي جسمه بالعادات الصَّالحةِ ، وبالعقوبةِ الهادفةِ أحياناً .

* إنَّ كلَّ لونٍ من هذه الألوانِ التّربوية يؤثِّر في نفسِ الطِّفل ، وتجعله ينقادُ نحو مجمعِ الفضائل ، ويغدو واحداً من أعضائِها ، حيث إنَّ الهدفَ منذ البدايةِ هدفٌ نبيلٌ ، يجذبُ القلوبَ الصَّغيرة إلى ساحتهِ ، ويعقدُ تاجَ الفضيلةِ على رؤوس هذه الأمانةِ التي وهبَها اللهُ للآباء ، فهل نحسنُ ذلك الأسلوب ، وذلك اللون من التَّربية؟ .

* إذاً ، فلنبدأ رحلة تربية ملكات الطّفل بالتّربية الرّوحية.

أولاً: التَّربيـةُ الـرّوحيّـةُ:

* لا نستطيـعُ أنْ نضـعَ قـانـونـاً محـدّداً للتّـربيـة الرّوحيـة للطّفـل ، فالمجتمعاتُ تختلفُ من بلد لآخر ، لكنّها الرّوحُ الإسلاميّةُ توحِّدُ بينها ، فهي تعتصمُ بحبل واحد هو حبلُ الفضائلِ والمكارمِ والأخلاق ، وهذه القيمُ العظيمةُ تسري في كلّ المجتمعات؛ فالصِّدقُ مثلاً ، والإيثارُ ، وإغاثةُ الملهوف فضيلة عند الجميع ، ولا يستطيع مجتمعٌ أنْ يقرَّ بعضها وينكر بعضها الآخر.

* لذلك تبدأُ التَّربيةُ الرُّوحيّة للطِّفل من هذه النّقطة المهمّة ، لأنَّ في نفسِ الطّفل مساحةً واسعةً لاستقبالِ الفضيلة بأسلوبٍ مبسَّط مؤثّر ، وقد تكون الموعظةُ من أنجحِ الوسائل التي تنفذُ إلى أعماق الطِّفل ، فقد يكون عنده من الاستعدادِ لتقبّلها والعمل بها ما دامت تفيده في سلوكه ، وما دام يدركُ فائدتها. فالموعظةُ المؤثّرة قد تفتحُ طريقَها إلى نفس الطِّفل وتثيرُ كوامنَه ، ومن ثم تترك رواسبَها الطّيّبة في أعماقه ، لا سيما إذا كانت القدوةُ الصَّحيحةُ موجودةً كالأبِ أو الأمِّ أو الأقاربِ الأدنَون ، وعندها تكونُ الموعظةُ ذاتَ أثرٍ بالغ في نفس الطِّفل.

* فقد يكذبُ الطِّفلُ ، وقد يسرقُ ، وقد يؤذي بعضَ الحيوانات الأليفةِ ، وقد يكسرُ بعضَ الأشياء في البيت ، في حين يكون الأبوان لا يكذبان ، ولا يسرقان ، ولا يؤذيان أحداً ، إذاً ماذا نتصرّف حينئذ؟!

* هنا تبرزُ أهميّة التّربيةِ بالموعظةِ ، وأيّ موعظة؟ الموعظةُ اللطيفةُ الهادفةُ المؤثّرةُ في سلوكِ الطِّفل وعاطفتهِ ، فتردّه إلىٰ الصَّواب ، وتعوّده على مكارمِ الأخلاق ، فالتَّعوّدُ على الفضائل ، والتّأكيد عليها بالموعظة ، يهذّب سلوكَ الطّفل ، ويهديه إلى النَّقاء:

تعــوَّدْ صــالــحَ الأَعْمــالِ إنّــي رأَيــتُ المــرءَ يلــزمُ مــا اسْتَعَــادا

* ولعلَّ أعظمَ مثَلٍ في الموعظةِ الهادفةِ ما نقرؤه في كتابِ الله عزَّ وجلَّ؛ ومن تلكم المواعظ ما جاءَ في موعظةِ لقمانَ لابنه في سورةِ لقمان نفسها ـ كما مرَّ معنا ـ ، ومن المواعظِ المهمّة: عدم الشّرك بالله ، وطاعة الوالدَيْن وحسنِ صحبتهما ، والمداومةِ على الصَّلاة ، والأمْرِ بالمعروف والإقلاع عن المنكرِ ، والصَّبر ، والتَّواضع ، وغضّ الصّوت .

* وهذه المواعظُ من لقمانَ لابنه تفيد الطِّفل ، وتغرس فيه شتّى ألوان الفضائل ، خصوصاً إذا وجَدَ أمامه مَنْ يقودُه إليها ، ويلقّنه إياها ، ويردّدها أمامه باستمرار حتى تغدو من سجاياه ومن طبعه وسلوكه .

* إنَّ القرآنَ الكريم قد رسمَ طريقَ التّربية الرّوحيّة للطّفل ، وفي آياته كثيرٌ من هذه الطّرق التي تذلّل المصاعب أمامَ من يدّعُون بعقم التّربية الرّوحية .

ثانياً: التّربيةُ العقليّةُ:

* للتَّربيةِ العقليّة أثرُها الكبيرُ في الطِّفل ، ومنْ أبرزِ معالمِ هذه النَّاحية ، وجودُ القدوةِ الحسنةِ التي تجعلُ الطّفلَ مشدوداً نحوها يقلّدُها ويتّبعُ هداها؛ والطِّفلُ مغروسٌ بنفسه حبّ التَّقليد ، فإذا كانتِ القدوةُ صالحةً أمامَه ، أثّرتْ فيه ، وحرّكتْ كوامنَ الخيرِ بداخله ، ويمضي في التَّقليد دون قَصْدٍ بادىءَ الأمْر ، بل يغدو ذلك الخلُق من أبرزِ مزاياه ، وربّما يتفتّق ذهنُه عن أشياءَ مفيدةٍ ، كأنْ يتصرّف أمام زملائه بهذا التّصرّف الحَسنِ ، وبالتَّالي يشجّعُهم ذلك التَّصرُّف منه على تقليدهِ ، وبالتّالي تحقّقُ القدوة الصَّالحةُ هدفَها ، وتؤتي ثمارها فتكونَ دانيةَ القُطوف .

* وما أجملَ أنْ نجعلَ من سيرةِ النَّبيّ ﷺ قدوةً للطّفل ، وكذلك أصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، ولا نعرضُ عليهم هذه القدوة للإعجابِ فقط ، وإنّما ليتمثّلوها في أنفسِهم ، وفي سلوكهم ضمنَ ملكاتِهم العقليّة ، ويمكنُ أن نعرضَ بعضَ المواقفِ الجميلةِ من طفولتهِ ﷺ

ليحقّقها الأطفالُ في دخائِل أنفسهم ، لتكونَ حياتُهم حيّـةً دافقةً بكلّ مفيد .

* إنَّ القدوةَ الطّيِّبة من أعظمِ وسائلِ تربية الطِّفل ، ولا بدَّ للطّفلِ من قدوةٍ صالحةٍ في أسرته ووالديه ، كيما يتشرَّبَ منذ نعومةِ أظفارِه المبادىءَ السَّليمةَ ، وينهجَ على نهجها القويم .

* إنَّ الطّفل عندما يرى والده يكذبُ ، ويدركُ سوءَ الكذب ، لا يمكنُ له أنْ يتعلَّم الصِّدقَ ، فوالدهُ قدوةٌ له في الكذب ، وعندما يقسو عليه والدهُ لا يمكن أنْ يتعلَّمَ الرّحمة والحنان .

* وعندما يرىٰ الطِّفل أنَّ أمّه تكذبُ على أبيه ، أو تغشّه أو تغشّ أخاه أو أخته أو هو نفسه ، فلا يمكن أنْ يتعلّمَ الاستقامة .

* والطّفل حينما يرى أمّه مستهترةً لا تأْبه لمكرمة ، لا يمكنُ أنْ يتعلَّم الفضيلة ، وأنّى له ذلك والقدوةُ مهزوزةٌ متلاشيةٌ ، وربّما ينشأُ هزيلَ العواطفِ ، مريضَ الإحساسِ ، مضطربَ التّفكير فلا يفْلح .

* إذاً ، فالأسرةُ الصَّالحة هي الأساسُ الذي يبذرُ في نفس الطِّفل وعقلِه القدوةَ؛ وعندها ينشأُ الطِّفل وهو يحقّق المُثُلَ العُليا التي استقاها منذ البداية .

* وقد يكون للتّربيةِ العقليةِ أثرٌ كبيرٌ من خلال التَّربيةِ بالقَصصِ المفيدةِ التي تنمّي العَقْل ، وتوسّع مداركَه ، وتغذّيه بألوانِ المعرفةِ والعلوم .

* فللقصّة سِحرٌ يُؤْثر ويُـؤَثِّـر بدخائلِ النُّـفوس ، ويثيرُ فيها المعرفةَ والحبَّ والانفعالَ في الأحداثِ التي تُعْرَضُ على الطّفل .

* إنَّ أثرَ القصّةِ وسحرَها بنفسِ الطّفل قديمٌ منذ قدم البشريّة ، وسيبقى سحرُها يؤثِّـرُ ويُـؤْثَـر ، ما دامتْ على هذه الأرضِ حيَاة .

* إنَّ الإسلامَ يدركُ ميلَ الطِّفل إلى القصّة ، ويدركُ سحرها على نفوسِ الأطفال ، فاستغلّها أهلُ الفضل لتكونَ وسيلةً ناجعةً من وسائل التَّربية

العقليّة ، ومن وسائلِ تقويم سلوكِ الأطفال .

* وها نحنُ أولاء نقفُ أمامَ القَصص الحقّ ، قصص القرآنِ العظيم ، فتأسرنا أحداثُها ومعانيها وعظاتُها ، فكيف بالطِّفل الذي تشغَلُ القصّة معظمَ اهتماماتِه الثّقافيّة؟! .

* يمكنُ أنْ نقولَ: إنَّ القرآنَ العظيمَ قد استخدم القصَّة لجميع ألوانِ التّربية ، وفي مقدمتها التّربية الرّوحية ، والعقليّة ، وحتى الجسميّة التي تفيدُ الطّفل ، كما تفيدُ النّاس على اختلاف أعمارِهم وألوانِهم وهواياتهم .

* ما أجملَ أنْ نربي الطِّفل على القصّةِ الهادفةِ! وأنْ نغذّي عقْله بألوانِ القصصِ الذي يهدفُ إلى غرسِ المُثُل والفضائل في نفوسِ الأطفال! ولابأس أنْ نستخدمَ القصّةَ الهادفةَ التي تعطي الطّفل أثراً تربويّاً مقصوداً ، وتكون القصّةُ مشوّقةً للطّفل ومناسبةً لكلّ عُمرٍ ، ومصوغةً في القالب الذي ينفذُ إلى حسّه بسهولة .

* إنَّ الكتابةَ للأطفال ، وتأليفَ القصصِ لهم تحتاجُ إلى موهبةٍ خاصّة لا يُؤْتاها كلُّ إنسان ، بالإضافة إلى خبرةٍ تعينُ الموهبةَ ، وتوجّهها إلى الصَّواب ، فالمتخصّصون في فنّ الطّفولة قلائلُ في العالم ، على الرّغم من الثَّراء الذي يحفلُ به التّاريخ الإسلاميّ ، والذي لم يستخدمْه أحدٌ استخداماً مفيداً للطّفل ، إلا في ضآلة لا تَسدُّ فراغاً ، ولكن لو عقدَ أصحابُ المواهبِ العزمَ على إخراج أعمالٍ مفيدة للأطفالِ لأفلحوا ، ولوجدوا في القُرآن ضالّتهم المنشودة التي تزيّنُ أعمالَهم .

ثالثاً: التّربيةُ الجسميّةُ:

* من ألوانِ التَّربيةِ النَّاجحة للطّفل التّربية الجسميّة ، وذلك أنْ نربّيهِ بالعادة ، فالعادَةُ تؤدّي مهمّةً جيّدة في توجيهِ الطِّفل ، خصوصاً إذا أثّرنا به ، وعلّمناه العاداتِ الحسنةَ ، ولعلَّ العادَةَ موهبةٌ أودعها اللهُ في بني البشر ، لذا يجب أنْ تُسْتَغلَّ العادة كوسيلةٍ من وسائل تربية الطّفل .

* ونبدأ معه في هذه المهمّةِ الخطيرةِ بإزالة العادات غيرِ الجيدة من نفسه بالتّدريج وبالتّلميح والتّصريح ، وخصوصاً العادات التي تخالفُ الآدابَ الإسلاميّة ، أو العادات التي تخالفُ الجانبَ الأخلاقي من خداعٍ وكذبٍ وسخرية .

* ثم نخطو خطوةً أخرى في بذْرِ العاداتِ الصَّالحة التي تفيدُه في الحياةِ الاجتماعيّة ، ومنها العطفُ على غيرِهِ ، ومساعدةُ الآخرين ، وكذلك العادات النّفسيّة من صدقٍ ، ووفاءٍ ، ومحبّة ، وإيثار ؛ ومن ثم تغدو هذه الأشياء سلوكاً طيباً يتمثّلُه الطّفل ، ويصحبه في حياته .

* وقد يسألُ سائلٌ أو مربٍّ : ماذا نفعلُ حينما لا تجدي الوسائلُ التّربوية مع الطِّفل من تعويده العادات الطّيّبة ، والقدوة الحسنة ، والموعظة؟!

* نقولُ لهذا السّائل : لا بدّ من علاجٍ حاسمٍ يضعُ الأمورَ في وضعها الصَّحيح ، ولعلَّ العلاجَ السَّليم هو التّربيةُ بالعقوبة .

* إنَّ بعضَ الاتجاهات في التّربية الحديثة المحليّة والمستوردة من أوربة تنفِّرُ من العقوبةِ ، بل لا تودُّ ذِكرها على اللسان ، وتشدَّدَ بعضُهم فقال : يجبُ ألا يُشَار إليها إشارة . ! ! .

* إنَّ العقوبةَ ليست لكلّ طفْل ، فقد يستفيدُ بعضُهم بالموعظةِ أو العادة ، ولكن هناك عقوبات ذات لمساتٍ حانية لطيفة ؛ نعم ، إنَّ التَّربية الرّقيقةَ الهادفةَ تفلحُ في تربيةِ الأطفال بشرط ألا ينشأَ عن الرّقَّةِ واللطف ضررٌ ، فلا بدَّ منَ الحزمِ في تربيتهم لأنَّهم لا يدركون صالِحهم ، ومن الحزمِ استخدامُ العقوبة الهادفة باستخدامها في بعض الأحيان.

* فمن وسائل العقوبةِ المفيدةِ ، أن نعفوَ عن الطِّفل الذي يقعُ في خطأ ما ـ بعد أنْ نوضِّحَ له الخطأَ وضررَه ـ لأنَّ العفوَ وسيلةٌ إلى غايةٍ عُليا ، هي اجتذابُ قلوبِ هؤلاء الأبرياء إلى ساحةِ الصَّفاء والنَّقاء ، فإذا سبقَ العفو العقابَ البدني ، كان عنوانُ النَّجاح مضموناً في التَّربية .

* وقد أخذَ أبو الحسن عليُّ بنُ محمد القابسيّ بهذه القاعدة اللطيفة ، فأمرَ المعلّمين والمربّين بالرّفقِ مع الأطفالِ ، وإذا كان العفو مع المذنبين منَ الكبار محبوباً ، أغرى بهِ اللهُ وحثَّ عليه ، فهو مع الأطفالِ والصِّبيان واجبٌ لصغَر سنّهم ، وطيشِ أعمالهم ، وضيقِ عقولهم ، وقلّةِ مداركهم ، وعلى المعلّم أنْ يلجأَ مع الأطفالِ الذين يرتكبون الذّنوبَ إلى الرّفق ، كما جاءَ في وصيّته للمعلّم قائلاً : ومن حسنِ رعايته لهم أنْ يكونَ بهم رفيقاً.

* ويعتمدُ القابسيّ في هذه النَّصيحة التَّربوية على المأثور من سيرةِ الحبيبِ الأعظم ﷺ ، وعلى الحديثِ النّبوي الشَّريف القائل : «إنَّ اللهَ يحبُّ الرّفق في الأمْر كلّه ، وإنّما يرحمُ اللهُ من عباده الرّحماء». والأطفال يدخلُون في هذه الوصية المتقدّمة.

* إنَّ القابسيَّ ـ كما نلاحظ ـ يرى أنَّ الرّفقَ هو حبُّ السّياسة ، ونفع الرّياضة مع الأطفال ، ونظرته العميقة هذه صحيحة تلائمُ نفوسَ الأطفالِ وتصرّفاتهم ، لأنَّ الطّفْل لا يملك من أمْرِه شيئاً ، ولهذا رُفعَ التّكليفُ عن الصَّغير دون البلوغ ، والعلّة في ذلك ظاهرةٌ ، وهي نقص الإدراك والعَقْل عند الطِّفْل.

* إنَّ الطفل كلّما أخطأَ يجبُ أنْ نروّضَه ونبيّن له السَّبيل التي ينبغي سلوكها ، وأوّل السُّبل الإفهام والتّنبيه ، لأنَّ الطِّفل مهما يكن من شيءٍ فهو عاقلٌ ، يمتازُ عن الحيوانِ بالإدراك ، وبالنُّطق ، وبمعرفة الأسباب والعلل ، ولو أنَّ إدراكَه لا يزالُ قاصراً لا يصلُ إلى حدِّ الكمال.

* ولعلَّ هذه السّياسةَ القائمةَ علىٰ الرّفق في المعاملةِ ، دون العقوبة البدنيّة أو الكلاميّة ، والعناية ببيان أسبابِ السّلوك وإفهامه للأطفال ، من شأنِها أنْ تجعلَ الطّفل يكبرُ على العملِ الصَّالح من تلقاءِ نفسه ، دون حاجة إلى عصا تسوقُه ، فتثمر الرّياضةُ التّربويةُ في نفسه ثمرة صالحة ، ثم إنَّ الشِّدَّة الدَّائمة من المربّين ، كالعبوس ، تكون منَ الفظاظةِ الممقوتةِ منَ

الأطفال ، وربّما يتعوّدُ الأطفال على هذه الفظاظَة ، ويستأنسون بها ، ومن ثمَّ يجترئونَ على المربّي ، وتنعدمُ هيبتُه من قلوبهم ، ولذلك جاءَ في وصيّة سحنون الفقيه لمعلّم ابنه: لا تؤدّبه إلا بالمدحِ ولطيفِ الكلام ، وليس هو ممن يُؤَدَّب بالضَّرب والتَّعنيف.

* ومن الرّفقِ ألا نبادر إلى العقابِ ، ولو استحقَّ الطِّفلُ ذلك ، وإنّما نُنبِّه الطِّفل مرَّةً بعد مرّة بعد مرّة ، فإذا لم يستمعْ لهذا التَّنبيه ، يلجأُ إلى وسائلِ العقاب المنصوص عليها ، والنّاجعة والنّاجحة في الأسلوب التّربوي ، لا إلى وسائلَ ضارّة مؤذية.

* نعلمُ جميعاً أنَّ حرمانَ الأطفالِ من الطَّعام والشَّراب عقوبةٌ معروفةٌ مشهورة ، وهي عقوبةٌ شديدةُ الأثرِ في نفسِ الطّفل ، لأنَّ همّه في الحياةِ تناول الطّعام واللعب ، ولا صَبْر له على الجوعِ حتى يشبعَ ، فإذا شبعَ لعبَ ، ولا زاجرَ له عن اللعب حتى يتحرّك.

* وحرمانُ الطَّعام واللعب عقوبتان معيبتان ، وحرمان الطّعام أشدّ عيباً ، لأنَّ في ذلك ضرراً بصحّة الطِّفل ، وكبتاً لأقوى غريزة وأوّلها عند الإنسان ، فينشأ الطِّفل على الشَّرَهِ في مستقبلِ حياته ، وقد تمتدُّ يده إلى السَّرقة لإشباع حاجة نفسه مما يحرّمه عليه أهله.

* إذاً إنَّ رياضةَ الأطفالِ ، والصَّبرَ عليهم وعقابَهم العقاب غير الضّار هو الأساسُ في هذا اللونِ من ألوان التّربية التي تدلُّ على أنَّ من ثمارها التّهذيب.

* * *

الفَصْلُ الرّابع
الطِّفلُ وحُبُّ القُرْآن

* مهمّةُ المربّي في ترسيخِ معَاني القُرآنِ الكريم في الطّفلِ مهمّةٌ دقيقةٌ ، لأنَّ ربطَهُ بالقرآنِ ربطاً صحيحاً يجعلُ العقيدةَ الإسلاميّةَ راسخةً في نفسهِ ، كما أنَّ تعليمَ الطّفلِ التّحاكم في جميعِ الأمورِ إلىٰ القرآنِ يبني عنده الفكْرَ السَّليمَ الذي يساعدُه على معرفةِ الحقّ من الباطل ، والخير منَ الشَّر ، والكفْر من الإيمان .

* فالقرآنُ الكريمُ هو مصدرُ العقيدةِ الإسلاميّةِ منذُ نزولهِ على سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ إلىٰ ما شاء اللهُ عزَّ وجلَّ ، فإذا ربطَ المربّي قلْبَ الطّفْلِ به وغذّاه بمعانيهِ ، وصبّحَهُ به ومَسّاهُ ، فإنّه يحبُّه ، ويزدادُ به تمسّكاً وتعلّقاً .

* ومهمّةُ تحبيبِ القرآنِ الكريمِ إلى الطفلِ تبدأُ منذ مرحلةٍ مبكّرة جدّاً ، وعلى المربّي الحصيف أنْ يعيَ هذا الأمرَ ويسعىٰ إليه بكلِّ ما يستطيعُ إلى ذلك سبيلاً ، يقولُ ابنُ سينا : فإذا تَهيّأَ الصَّبيُّ للتّلقينِ ووعي سمعه ، أُخِذَ في تعليم القرآن ، وصُوّرتْ له حروفُ الهِجاء ، ولُقِّنَ معالَم الدِّين .

* وفي هذا المجالِ نجدُ السّيوطيَّ ـ رحمه الله ـ يؤكّدُ على تنشئةِ الطفلِ على تعليمِ القُرآنِ الكريمِ فيقول : تعليمُ الصِّبيانِ القرآنَ أصلٌ منْ أصولِ الإسلام ، فينشؤونَ على الفطْرةِ ، ويسبقُ إلى قلوبهم أنوارُ الحكمةِ قبل تمكُّنِ الأهواءِ منها ، وسوادها بأكْدارِ المعصيةِ والضَّلال .

* وقد تنبَّه ابنُ خلدون قبل السّيوطي إلى هذه النَّاحيةِ وأكَّدَ مفهومَ تربيةِ الطفل على حُبّ القُرآنِ الكريمِ لأنَّه أصلُ التَّعليمِ فيقول: تعليمُ الوالدَيْن للقرآنِ شعارٌ من شعائرِ الدّين؛ أخذَ بهِ أهلُ المِلّة ، ودرجُوا عليه في جميعِ أمصارهم ، لما يسبقُ إلى القلُوبِ من رسوخِ الإيمانِ وعقائدِه ، بسبب آياتِ القُرآن ، ومتونِ الأحاديث ، وصارَ القُرآن أصْلُ التَّعليم الذي ينبني عليه ، ما يحصلُ بعدُ منَ المَلكات(١) .

* وقد درجَ العلماءُ والحفّاظُ علىٰ هذا المبدأ ، فتواصوا بتحفيظِ وتحبيبِ القُرآنِ الكريمِ للطّفلِ الصَّغيرِ ، ومن هؤلاء العُلماء الشَّيخ عبد الله سراج الدِّين الذي أبَانَ للمربّي وولي الأمْر كيفَ يربّي الطّفْلَ على محبّةِ القُرآنِ الكريمِ فقال: ينبغي لولي الصَّغيرِ والصَّغيرةِ أنْ يبدأَ بتعليمهما القرآنَ منذ الصِّغر ، وذلك ليَتَوَجَّهَا إلىٰ اعتقادِ أنَّ اللهَ تعالى هو ربُّهم ، وأنَّ هذا كلامُه تعالى ، وتسري روحُ القرآنِ في قلوبهم ، ونورُهُ في أفكارِهم ، ومداركهم ، وحواسهم ، وليتلقَّيَا عقائدَ القُرآن منذُ الصِّغر ، وأنْ ينْشَأا ، ويشبَّا على محبّةِ القُرآن ، والتعلُّق به ، والائتمارِ بأوامره ، والانتهاءِ عن مناهيهِ ، والتعلُّق بأخلاقهِ ، والسَّير على منهاجهِ(٢) .

* وكانَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ يربُّون أطفالَهم على حبّ القُرآنِ الكريم وتلاوته؛ فقد وردَ أنَّ ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال لرجلٍ: ألا أتحفُكَ بحديثٍ تفرحُ به؟

قال: بلىٰ.

قال: اقرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ . . .﴾ [الملك: ١] ، وعلّمْها أهلَك ، وجميعَ ولدِك ، وصبيان بيتِكَ ، وجيرانك فإنّها المنجيةُ ،

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ٣٩٧).
(٢) انظر كتاب: تلاوة القرآن المجيد.

والمجادلةُ ، تجادلُ أو تخاصمُ يومَ القيامةِ عند ربِّها لقارئها ، وتطلبُ له أنْ ينجيَه منْ عذابِ النَّار ، وينجو بها صاحبُها من عذابِ القبر ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لوددْتُ أنَّها في قلْبِ كُلّ إنسان من أمّتي»[1] .

* ويوصي عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص ـ أحدُ العبادلة الأربعة ، وأحدُ عُلماء الصَّحابة ـ بتعلّم القُرآن وتعليمه للأطفالِ فيقول: عليكم بالقُرآن ، فتعلّموه وعلِّموه أبناءَكم ، فإنّكم عنه تُسْأَلون ، وبه تُجْزَون ، وكفىٰ به واعظاً لمن عقَل[2] .

* وعلى المربّي أن يكثرَ منْ قراءةِ القُرآن أمامَ الأطفال ، فإنَّ الطفْلَ إذا شاهدَ والديه وإخوته الكبار يقرؤون القرآنَ قلَّدهم ، وشارَكهم ، وربّما يحفظُ معهم ، فإنَّ كثيراً منَ الأطفالِ الصِّغار يحفظُ سورةَ الفاتحةِ وقصار السُّور من سماعه لها ، ومن قراءةِ أبيه لها في الصَّلوات الجهريّة؛ وعلى هذه الأخلاق الجميلة ، ينشأُ الطّفل على حبّ كتابِ الله عزَّ وجلَّ وقراءته وسماعِهِ وحفظِه .

* وقد حرصَ الصَّحابةُ الكرامُ ـ رضوان الله عليهم ـ على تحبيبِ أطفالِهم بالقُرآنِ الكريم ، وربطهم بمعانيهِ ، واختيارِ الأوقاتِ المناسبة ليرىٰ الأطفالُ عظمةَ القرآنِ وجمالَه ، فقد كان سيّدنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ إذا ختمَ القُرآنَ ، جمعَ أهْلَه ، وولدَه ، فدعَا لهم[3] .

* وأمّا حبْرُ الأمّةِ وبحرُهَا ، عبدُ الله بنُ عبَّاس ـ رضي الله عنه ـ فكانَ يفخرُ بأنَّه قرأَ المحكمَ ، وهو طفلٌ صغيرٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ ، وفي هذا يقولُ: توفيَ رسولُ الله ﷺ وأنا ابنُ عشْر سنين ، وقد قرأت المحكم .

* فتعليمُ القُرآنِ للأطفال ، وتحبيبُهم لتلاوتهِ تربيةٌ نبويّةٌ سلكَها

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة الملك .

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد بن سلام (ص ٥٣) .

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٧/ ١٧٢) ، والحديث رجاله ثقات .

النَّبيُّ ﷺ في تربيةِ أطفالِ الصَّحابةِ وأولادهم ، ومن ثمَّ نهجَ هذا السَّبيل الخلفاءُ الرّاشدون والصَّحابةِ الكرام والسَّلف الصَّالح وعلماء المسلمين ومحبّي القُرآن الكريم إلى أيّامِنا هذه ، حيثُ نجدُ كثيراً منْ محبّي القُرآن في كثيرٍ من بلادِنا يعْملُون مسابقاتٍ عالميةً لتحفيظِ القُرآنِ الكريمِ للأطفالِ ، وهذا شيءٌ حسَنٌ وممتازٌ ، وهنالك بعضُ المسؤولين في بعضِ البُلدان الإسلاميّة يكافىءُ علىٰ الحفظِ بأموالٍ جزيلةٍ ، وشهاداتٍ عالمية ، فجزىٰ اللهُ كلَّ مَنْ عملَ خيراً لصالحِ الأطفالِ وسائرِ المُسلمين.

* وعلى المربّي أنْ يَعْلَمَ بأنَّ قراءةَ الأطفالِ للقُرآن الكريم سببٌ في رفع البلاءِ والعذاب عن النَّاسِ ، ولذا يسارع إلى تعليمِ الطّفل القُرآنَ الكريم وتحبيبه بتلاوتهِ آناءَ الليل وأطرافَ النَّهار ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ القومَ ليبعثُ اللهُ عليهم العذاب حكْماً مقضياً ، فيقرأُ الصَّبيَّ من صبيانهم في المكتبِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، فيسمعُه الله تعالى ، فيرفَعُ عنهم بسببِه العذابَ أربعينَ سنَة»[1].

* وكان علماءُ السَّلف ينهجونَ على هذا النَّهج النّبوي ، فيدْعُون أطفالَهم ويعلمونَهم القُرآنَ ، وكان القاضي الورعُ عيسى بنُ مسكين يُقرىء بناتِه وحفيداتِه؛ ويقولُ عنهُ القاضي عياض: فإذا كان بَعْدَ العَصْرِ دعا ابنتَيْه وبناتِ أخيهِ ليعلّمهنَّ القُرآنَ والعِلْمَ ، وكذلك يفعلُ قَبْلَه فاتحُ صقليَة ـ أسدُ بنُ الفُرات ـ بابنتهِ أسماءَ من العلم درجة كبيرة[2].

* ومع تعليمِ المربّي الطِّفلَ للقُرآن الكريم ، لا بدَّ لهُ من تحبيبهِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ من خلالِ توجيهاتِ القُرآن الكريم ، ومن خلالِ أحكامِه ، وقَصَصهِ ، لأنَّ ذلكَ يؤثّرُ في الطّفلِ تأثيراً مُباشراً ، ويوضّحُ له كثيراً منَ المفاهيمِ الغامضةِ ، وعند ذلك يصبحُ الطّفلُ قادراً على تمثُّلِ معاني القرآن

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١/١٧٨).

(٢) انظر: تربية الأولاد (٢/١٦٧) بتصرف يسير جداً.

وفهمه ، وبالتّالي فإنّه يحبُّه ويكثرُ من قراءته .

* فالمربّي عندما يقرأُ الطفلُ آياتٍ منَ القُرآن الكريمِ ، يهتمُّ بما يقرأُ ، ويحاولُ أنْ يشرحَ له شرحاً موجزاً حولَ ما تحملُه الآياتُ من معانٍ ، لكي يتفتَّحَ قلبُ الصَّغيرِ وعقله ، فإذا فهمَ المعاني وعقلَها أبدعَ في شبابهِ وكبَرِه ، وهذا ما وردَ عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ حيثُ قال : سَلُوني عن سورةِ النِّساء ، فإنّي قرأتُ وأنا صغير[1] .

* وكانتْ أمُّنا الصِّدِّيقةُ عائشة بنتُ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ تشرحُ لابنِ أختها عروةَ بنِ الزُّبير بعضَ آياتٍ منَ القرآنِ العظيمِ ، فقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِهِ خبراً عنْ عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي اللهُ عنها ـ أنّها قالتْ لابنِ أختها عروةَ بنِ الزُّبير وهو يسألُها عن قولِ اللهِ عزَّ وجل : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ [يوسف : ١١٠] ، قال : قلتُ : أكذبوا أمْ كُذِبُوا؟

قالت عائشةُ : كُذِبُوا

قلتُ : قد استيقنوا أنَّ قومَهم كذبوهم ، فما هو بالظَّن؟

قالت : أجلْ لعمريْ لقد استيقنُوا بذلك .

فقلتُ لها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

قالت : معاذَ الله ، لم تكنِ الرُّسلُ تظنُّ ذلك بربِّها .

قلت : فما هذه الآية؟

قالت : هم أتباعُ الرُّسلِ الذين آمنوا بربّهم ، وصدقوهم ، فطالَ عليهم البلاءُ ، واستأخرَ عنهم النَّصر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ممن كذّبهم من

---

(١) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

قومهم، وظنَّتِ الرُّسلُ أنَّ أتباعَهم قد كذبوهم جاءهم نصرُ اللهِ عند ذلك[1].

* وبهذه الطَّريقة الجميلة يؤثِّر المربيّ بالطّفْلِ، ويجعلُ من معاني الآياتِ ربيعاً لقلبهِ الصَّغير، حيث إنَّ للقُرآن الكريم تأثيراً كبيراً في النَّفسِ البشريةِ بعامّة فهو يهزُّها ويجذبُها إلى رياضِهِ وحياضِهِ، ويضربُ على أوتارِ القُلوب بعَذْبِ بيانِه ومورِدِ بلاغتِه، وكلّما كانتِ النَّفسُ أكثرَ صفاءً، كلما ازدادتْ تأثّراً بالقرآن العظيم.

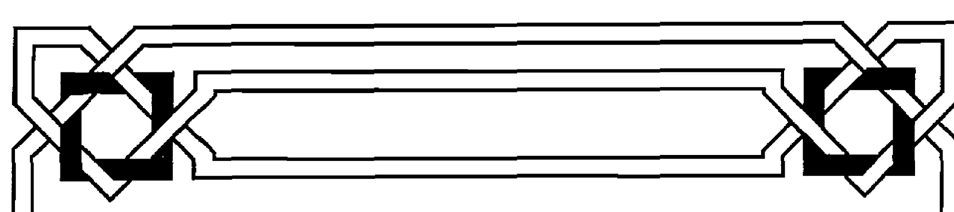
* ومن المُسَلَّم به أنَّ الطِّفْلَ أكثر صفاءً من الكبير، وما تزالُ فِطرتُه أكثرَ نقاءً، وبالتّالي يستطيعُ المربّي أنْ يزرعَ في نفسه محبّةَ القُرآن الكريم بطريقةٍ تتناسَبُ مع سِنّهِ وتُناسِبُ ميولَه، فيبدأُ في تحبيبه بالسُّور القصيرةِ التي تستوعبُها ذاكرتُه، فإذا ما حفظَها واستظهرها، رغَّبَه المربّي في غيرِها، ووجدَ له خصائصَ تعينُه على الحفْظِ، وشجَّعه على ذلك، فإذا تمَّ له هذا، حفظَ الطفلُ سُوراً أكثر، وأحبَّ القرآن وتأثّر به، وتفاعلَ معه، وأصبحَ خلقه القرآن. وفي تاريخنا الأغرّ نماذجُ عظيمةٌ لأطفالٍ حفظوا القرآن كاملاً وهم دونَ العاشرة ومنهم الإمام الشَّافعي، وسهل بن عبد الله التُّستري، وابن سينا، وغيرهم.

* وفي عصرِنا الحاضر نرىٰ ونسمعُ عن أطفالٍ حفظوا القرآنَ الكريم، وأكثرُ ما نرى هذا في المُسَابقات العالمية التي تُقام في مكةَ المكرمةِ كلَّ عام، وفي غيرِها منَ العواصِم العربيةِ والإسلاميّة؛ وعندما يرىٰ الطفلُ هذه المشاهدَ فإنّه يحبُّ القرآنَ ويحفظُه خصوصاً إذا اهتمَّ به المربّي، ودفعَهُ إلىٰ ذلك وشجَّعه، ورغَّبه وأحضرَ له الوسائلَ المعينةَ من مثلِ القرآن المسجَّلِ علىٰ الأشرطةِ ومختلفِ آلاتِ التَّسجيل وغيرها منَ الأشياءِ المعينةِ علىٰ الحفظ.

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير.





الباب الخامس

ألوان من التربية القرآنية لأخلاق الطفل

الفصل الأول : الطّفل وأخلاق القرآن

الفصل الثاني : الطّفل والتّربية الخُلقية مع الله والرّسول

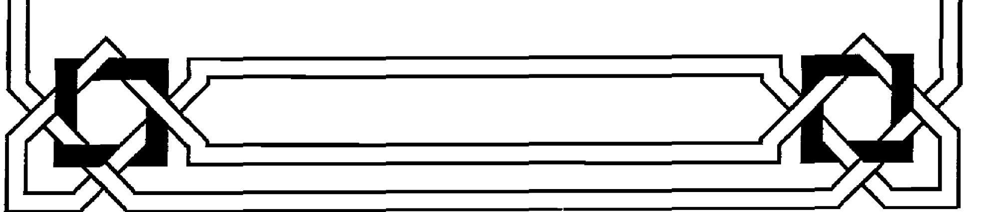
الفصل الثالث : الطّفل والتربية الخُلقية مع المسلمين وغيرهم

الفصل الرابع : الطّفل والتّربية الخُلقية في الطّعام والشّراب

الفصل الخامس : الطفل والتربية الخُلقية في النظافة

الفصل السادس : الطّفل والتربية الخُلقية في النّوم

الفصل السابع : الطّفل وآداب تربوية قرآنية متنوّعة



الفَصْلُ الأوّلُ

الطِّفْلُ وأخْلاَقُ القُرْآنِ

* إنَّ منْ ينظرْ في أدبِ القُرآنِ الكريمِ ، ويقرأُ التّربيةَ وألوانَها ، يجدْ قسماً كبيراً منه قد أَوْلىٰ الطِّفلَ عنايةً خاصّةً بالتّهذيب والتَّربية .

* وقد تضمَّنَ القُرآنُ الكريمُ دستوراً للأخلاقِ والآدابِ في جميعِ مجالاتِ ونشاطاتِ الإنسانِ في جميعِ مراحلِ الحياةِ ، فلم يتركْ جانباً منها إلاّ كان له فيه توجيهٌ وإرشاد .

* ومن هذهِ التَّوجيهاتِ الأخلاقيّةِ العظيمةِ المباركة التي نربّي عليها أطفالَنا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . . . ﴾ [لقمان : ١٣] إلى قوله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] وقد مرّت معنا في فَصْل سابق .

* فهذهِ الآياتُ الكريماتُ قد تضمَّنَتْ دستوراً كاملاً شامِلاً منَ الأخلاقِ الرَّفيعةِ الكريمةِ ، إذ نلحظُ أنَّها بدأَتْ أوّلاً بأهمّ ما نغرسُ من خُلُقٍ قويم وعقيدةٍ صحيحةٍ في نَفْسِ الطِّفْل ، وهو حقُّ اللهِ عزَّ وجلَّ لأنَّه أعظمُ الحقوقِ وأجلُّها ، وهو مفتاحُ الخيرِ بل كل خير ، فأمرت بإخلاصِ العبادةِ لله عزَّ وجلَّ ، والنَّهي عن الشِّرك الذي هو أعظمُ الذُّنوبِ وأكبرُها ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ به ، ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء .

* ثمّ تضعُ هذه الآياتُ الكريماتُ الطِّفْلَ والولدَ في مجالٍ منَ المراقبةِ

الهادفةِ الكاملةِ علىٰ جميعِ تحرّكاتِهِ ونشاطاتِهِ ، وتوجّهُ الآيات الطِّفْلَ إلىٰ الدَّعوةِ من خلالِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر ، والصَّبرِ على تبعاتِ ذلك ، وعدم الكبْرِ ، واحتقارِ النَّاس؛ كما توجّه الطفْلَ إلىٰ التَّواضعِ وخفْضِ الجناح ، والتأدُّب في محادثة النَّاس ومخاطبتهم.

* وهكذا ، فالقرآنُ الكريمُ يضَعُ في آياتٍ قليلةٍ دستوراً متكامِلاً منَ الأخلاقِ أو الآدابِ الاجتماعيّة والفرديّة مع اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومع كلّ ذي حقّ منَ النّاس ، فيعيشُ الطّفلِ في هذه الحياةِ وقد تبيَّن له الصَّواب الصَّحيح من الخطأ الصَّريح ، فيعرفُ الهدفَ منَ الحياةِ فلا يكونُ ضائِعاً بلا نظامٍ يقودُه ، ويقوِّمُ سلُوكَه.

* وجاءتِ السُّنَّةُ المطهَّرةُ بمثلِ ما جاءَ به القُرآن الكريمُ من توجيهٍ نحو التزامِ الأخلاقِ الحَسَنَةِ ، ونبذِ الأخلاق السَّيئةِ ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الله كريمٌ يحبُّ الكرمَ ومعالي الأخلاقِ ، ويبغَضُ سفْسَافَها»[1].

* إنَّ الأخلاقَ القرآنيَّة العظيمةَ أخلاقٌ ثابتةٌ لا تتغيّرُ ، ولا تتطوّرُ ، ومنَ المُحال أنْ يصبَح الكذِبُ في يومٍ منَ الأيّام منَ الفضَائِل ، أو يصبَح الصِّدقُ من الغباء ، أو الشَّتمِ وبذاءةِ اللّسانِ منَ الأدبِ ، بل إنَّ ما ذَمَّه القُرآن فهو مذمومٌ إلى يومِ القيامةِ ، وما جاء بمدحهِ فهو حَسَنٌ ممدوحٌ إلىٰ أنْ يرِثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها.

* وفي العموم ، فإنَّ جميعَ ما جاءتْ به الشَّريعةُ الإسلاميّةُ منْ أخلاقٍ ، فإنّها لصالحِ الإنسانِ ولنَفْعهِ ، وهي مدعّمةٌ بالحجّةِ والبُرهانِ ، حيثُ تهدفُ التّربيةُ القرآنية إلى مرامٍ ساميةٍ ترفعُ منْ شأنِ الطّفل ، وذلك من خلال تطبيقها وممارستِها في واقعِ الحياة ، ومن هذه الأهدافِ التي يجبُ أنْ نحلّي بها نفوسَ الأطفَال:

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي. فيض القدير (٢/ ٢٩٥).

* إرضاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ والتزامُ أمْرِهِ ومعرفةُ أوامرِه ونواهيه.

* اكتسابُ العاداتِ الحسنةِ النَّافعةِ، وتعريفُ الطِّفْلِ بنتائجها وثمارِها.

* غرسُ روحِ الخيرِ والفضيلةِ بنفسِ الطِّفلِ، وانتزاعُ روحِ الشَّرِّ عنده.

* تهذيبُ الغرائزِ من خلالِ التَّوجيه السَّليم.

* تنميةُ العواطفِ النَّبيلةِ الشَّريفةِ في نفسِ الطِّفْل.

* ولتحقيقِ هذه الأهداف النَّبيلة عند الطِّفل، نقومُ بغرسِها وتعليمِها منذ صغَر سِنّ الولدِ، لأنَّ ذلك يسهلُ على الأبِ وعلى المربّي، ويكادُ يتّفقُ علماءُ النَّفسِ والاجتماعِ والمتخصّصون في التَّربيةِ على أنَّ شخصيّةَ الطِّفلِ وما سوف يؤولُ إليهِ من اتّجاهاتٍ انفعاليّةٍ ومزاجيةٍ تتحدّدُ في السَّنواتِ الأولى من عمره، ولهذا كان استغلالُ هذه الفترة المبكّرة من عمرِ الطِّفل في توجيهه نحو الخيرِ ونحو الفضيلةِ ومكارمِ الأخلاقِ، وكذلك تركيزُ المعاني الحسنةِ في نفسه وعقْلهِ، لأنَّ ذلك له الأثرُ الأكبرُ في استقامتِه وصلاحِهِ عند كبرِه واشتداد عُوده.

* وقد أشارَ علماءُ المسلمين من قبل إلى ذلك، فقال الماورديُّ مؤكّداً على أهميّةِ فترةِ الطِّفولة في توجيهِ الطِّفْلِ وتأديبهِ بالأخلاقِ والآداب: فأمّا التَّأديبُ اللازمُ للأبِ، فهو أنْ يأخذَ ولَده بمبادىءِ الآدابِ ليأنسَ بها، وينشأَ عليها، فيسهلَ عليه قبولُها عند الكِبَرِ، لاستئناسهِ بمبادئها في الصِّغر، لأنَّ نشأةَ الصَّغير على شيءٍ، تجعله متطبّعاً به، ومَنْ أُغْفِلَ في الصِّغَر، كان تأديبُه في الكِبَرِ عسيراً[1].

* ولله درُّ مَنْ قال:

قَدْ يَنْفَعُ الإصْلاَحُ والتَّهـ ـذيبُ في عَهْدِ الصِّغَر
وَالنَّشْءُ إنْ أهملْتَه طِفْلاً تَعثَّرَ في الكِبَر

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٢٢٨) بتحقيق مصطفى السقا.

* ويؤكّدُ العُلماءُ بأنَّ الطّفلَ بطبيعته لا يحبُّ التّقليد والتكلُّف ، بل يهوىٰ الحريّةَ والانفلات والانطلاق من كلّ قيدٍ ورباطٍ ، وكلّ ما يحجزُ حرّيته ، وقد تنبّه إلىٰ هذه النّاحيةِ مسْكَوَيْـهِ في كتابه «تهذيب الأخلاق» وأشارَ إلى لزومِ تأديب الطّفلِ وتهذيبهِ فقال: إنَّ الصَّبيّ في ابتداء نشوئِهِ ، يكونُ على الأكثر قبيح الأفعالِ ، إمّا كلّها وإمّا أكثرها ، ثمّ لا يزالُ به التّأديب والسنن والتّجارب حتى ينتقلَ في أحوالٍ بعْدَ أحوال.

* إنَّ الأبَ أو المربّي عندما يدركُ أبعادَ المهمّة التّربوية التي يمارسُها في تهذيبِ الطّفل ، عليه أنْ يستعدَّ ويصبرَ لمشقّةِ التربيةِ والتّوجيه ، وأنْ يصبرَ على غرسِ الأخلاق في الطّفلِ ، ويجهدَ ويجتهدَ ويجاهدَ في تحسينِ الخلق ، وفي استبدالِ القبيح منه بالحسن ، وذلك في التَّدريب والمجاهدةِ والمصابرةِ والمتابعةِ.

* ترى ما الأخلاقُ القُرآنيّةُ التي نزرعُها في نفسِ الطّفْل؟! وما مهمّةُ الأبِ أو الأسرة أو المربّي في تبيانِ هذه الأخلاقِ للطّفل؟! هذا ما ستجلوه الصَّفَحات التَّوالي إنْ شاء الله. . .

* * *

الفَصْلُ الثَّاني
الطِّفْلُ والتَّربيةُ الخُلُقيّةُ مَعَ اللهِ والرَّسُولِ

* ما المقصودُ بالأخلاقِ معَ الله عزَّ وجلَّ؟! ومعَ رسولِ اللهِ ﷺ؟!

* يُقْصَدُ بالأخلاقِ مع اللهِ عزَّ وجلَّ ذلك السُّلوك الذي يقومُ بهِ الإنسانُ تجاه ربّـه . . وكذلك تجاهَ رسولهِ ﷺ وسنبدأُ أوّلاً بالحديث عن الأخلاقِ مع الله.

* فالخُلُقُ القويمُ مع اللهِ عزَّ وجلَّ هو أعظمُ الأخلاقِ وأوجبُها علىٰ الإنسانِ ، وعلى الأبِ أو المربّي أنْ يبدأ في تربيةِ ولده أو الطِّفل وهو يركّزُ على هذا الجانبِ المهمّ ، وأنْ يعمّقَ الصِّلةَ بينَ الطّفلِ واللهِ ، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو صاحبُ الفضلِ والمنَّةِ ، وهو الخالقُ البارىءُ المنعمُ الرّزَّاق ذو القوة المتين ، وهو المستحقُّ للحُبّ والعبادة.

* لذا فعلينا أنْ نعلِّمَ الطّفل حُسْنَ التَّعامُلِ مع اللهِ عزَّ وجلّ من خلالِ نقاط مهمّة منها:

١ ـ **إيقاظ الفطرة وتوجيهها**: تعدَّدَتْ أقوالُ العُلماء في معنى الفِطرة ، فمنهم مَنْ رأىٰ أنّها الإسلامُ ، ومنهم مَنْ رأى أنّها الإقرار بمعرفةِ اللهِ سبحانه وتعالى ، ومنهم مَنْ رأى أنَّها الإيمانُ ، وقد جاءَ ذكْرُ الفطْرةِ في القُرآنِ العظيمِ يحملُ تلك المعاني السَّابقة ، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [الروم: ٣٠] ،

والفطرةُ التي فطرَ اللهُ النّاسَ عليها هيَ الإسلامُ.

* وجاء في الحديثِ النَّبويِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواهُ يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه...»[1].

* ومن خلالِ هذا المفهوم نعمّقُ الصِّلةَ بينَ الطِّفْلِ وربّه، ولكنْ لا تقتصرُ الفطرةُ علىٰ الإقرارِ والإيمان باللهِ فحسْب، بل تميلُ بطبعِها إلى الخيرِ وتحبّه، وتبغضُ الشّرّ وترفُضه، وإذا كان الأمرُ على هذه الشّاكلة، فإنّه من السَّهلِ توجيهُ الطّفْل، وتركيزُ وتأصيلُ ذلك المفهومِ الحسنِ في نفسه، فيتأكّدُ عنده بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي خلقَنا، ورزقَنا، ووهبَ لنا هذا الخيرَ والوجود، وغير ذلك منْ فضائِلَ ونعَمٍ لا تُحْصَى.

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الطّفلَ يكونُ مُستجيباً بدافع فطرتِه إلى كلّ هذه المعاني الحَسَنَة، وعندها يعملُ الأبُ على تركيزِها في نفسه، وربطِها في واقعِ حياته.

* وعلى المربّي الواعي، والأبِ الحصيفِ أنْ يستغلَّ الأويقاتِ المناسبةَ، والخلواتِ الطّيّبة مع الطّفل، فيعلِّمُ الطّفْلَ ما ينفعُه، وما يربطُه بربِّه، ونلمحُ هذه الأخلاقيّة الجميلةَ في تعليمِ رسولِ الله ﷺ ابنَ عبّاسٍ عندما كان رديفه على الدَّابَّة، حيثُ علَّمه معانيَ منَ الأخلاقِ معَ الله عزَّ وجلَّ، ومراقبتَه، وحُسْنَ التّوكّل عليه، فقال له: «يا غلامُ - أو يا غُليّم -، ألا أعلمُكَ كلماتٍ ينفعُك اللهُ بهنَّ»؟

فقلتُ: بلى.

فقال: «احفظِ الله يحفظْكَ، احفظ اللهَ تجدْهُ أمامَك، تعرّفْ إليه في الرَّخَاء يعرفْكَ في الشِّدَّة، وإذا سألْتَ فاسألِ الله وإذا استعنْتَ فاستعنْ بالله، قد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنَّ الخلقَ كلّهم جميعاً أرادوا أنْ

---

(1) أخرجه البخاري (٢/ ١٢٥).

ينفعوك بشيءٍ لم يكتبْه اللهُ عليك لم يقْدروا عليه ، وإنْ أرادوا أنْ يضرّوك بشيءٍ لم يكتبْه اللهُ عليك لم يقدروا عليه»[1] .

* وبهذا الأسلوب التّربويّ الأخلاقيّ ، يتعلّقَ الطّفْلُ باللهِ عزّ وجلّ ، ويقطعُ جميعَ العلائقِ دونَ اللهِ ، فلا يرجو إلّا الله ، ولا يخافُ إلّا الله ، ولا يسألُ إلّا الله ، فيحفظُ اللهَ في خلواتِهِ ، وعند قوّته بتمامِ الاستقامةِ على منهجِهِ ، فيكونُ دائم المراقبةِ لله في الرّخاء والشّدّة .

* ويمكنُ للأبِ والمربّي أنْ يوجّهَ نَظَرَ الطِّفْل إلىٰ مخلوقاتِ الله ، فيوجِّهُ نظرَهُ إلى السَّماءِ الجميلةِ ذات البروج ، وإلى النُّجومِ المضيئةِ اللامعة ، وإلىٰ الأرضِ المُزهرةِ والماء ، وإلى الشّمسِ والقمرِ والجبالِ ، ثمّ يسأله : مَنْ خَلقَ هذا؟ ومَنْ نظّمَ هذا الكون الجميل؟! ثمّ يغرسُ الإجاباتِ الدقيقة والصّحيحة في نفسِ الطّفل .

* وهناك بعضُ الأطفال الأذكياء الذين يندفعون في بعضِ الأوقات بطرحِ الأسئلة علىٰ أهلِهم أو معلميهم ، فربّما يسألُ الولدُ عن خالقِ الكونِ وموجده ، وقد يسألُ عن طبيعةِ الأشياء ، ولمَ وُجِدَتْ على هذهِ الصُّورة ، وهذه الهيئة ، ويجيبُ الأبُ : اللهُ . . . ويعني أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي أعطىٰ هذه المخلوقات تلك الصِّفات والهيئات .

* ولا ينبغي للأبِ أنْ يهملَ أسئلةَ الطِّفلِ وهو يظنُّ بأنَّه صغيرٌ لا يعقلُ ، أو لا يدركُ هذه المعاني العُليا ، لأنَّ الفطرةَ تتيقَّظُ لخالِقها في مرحلةٍ مبكّرة من عمُرِ الطّفل .

٢ ـ مُرَاقَبَـةُ الله عزَّ وجلّ سرّاً وعَلانيةً : وهذه نقطةٌ مهمةٌ جدّاً في التَّربيةِ الخلقيّةِ معَ الله عزَّ وجلَّ ، وهي جانبٌ مهمٌّ منْ جوانبِ التَّربيةِ الإسلاميّة ، إذْ مراقبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، واستشعارُ معيَّتِهِ ، وإحاطتُه بالإنسانِ وأعمالُه ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧).

هي ثَمرةٌ منْ ثمراتِ التَّربيةِ الأخلاقيّةِ الحقّةِ.

* ولقد ركّزَ القُرآنُ الكريمُ ومنهجُ الإسلامِ في التَّربيةِ على إثراء جانب مراقبةِ الله عزَّ وجلَّ في النَّفْس الإنسانية، وخُصوصاً في نفسِ الطّفل، ليكونَ فَرْداً نافعاً لآخرتِه ودنياه، ولأُسْرتِه ومجتمعه.

* وقد تضمَّنَ القُرآن الكريمُ كثيراً منَ الآياتِ الكريمةِ التي تشيرُ إلى هذه المعاني، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فنُعلِّمُ الطّفْلَ أنَّ الخواطرَ، وأنَّ الخطراتِ التي تَرِدُ على النَّفسِ يعلمُها اللهُ عزَّ وجلَّ، ويحيطُ بها علماً، ويقولُ ربّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فاللهُ عزَّ وجلَّ مع الإنسانِ أينما كان بعلمِهِ الواسعِ الذي لا يحيطُ به أحدٌ إلّا بما شاء.

* وفي التَّربيةِ النَّبويةِ للطّفْل مناهجُ جميلةٌ تعطي صورةً طيّبةً لتنشئةِ الطّفل على العلاقةِ السَّليمةِ مع الله عزَّ وجلَّ، وتجعلُهُ منْ صفوةِ النَّاس وإنْ كان صغيراً، لأنَّ التوجيهَ سليمٌ وهادفٌ.

* والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ، فقد آمنَ عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ باللهِ تعالى وهو ابنُ عَشْر سنين، وعرفَ الحقَّ معرفةً صحيحةً، ونبذَ الباطلَ، فغدا منْ أعلياءِ رجالِ الدّنيا.

* وهؤلاء أبطالٌ صغارٌ حلّقوا في سماءِ الفضيلة في عصر النّبوة، ومنهم: أسامةُ بنُ زيد، وأسيدُ بنُ ظهير، والبراءُ بنُ عازب، وزيدُ بنُ أرقم، وغيرهم كثيرٌ، يعرضون أنفسَهم على النّبيّ المربّي ﷺ وهم يرجُون أنْ يسمحَ لهم بالمشاركةِ في قتالِ الكُفّار في غزاةِ أُحُدٍ، بَيْدَ أنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ يردُّهم لِصِغَرِ سِنّهم وقربِ عَهْدهم منْ سنِّ الطّفولةِ.

* وفي يوم منَ الأيّام، تلا رسولُ اللهِ ﷺ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ...﴾ [التّحريم: ٦]،

فإذا بفتىً يسقط مغشيّاً عليهِ من وقْع التّلاوةِ على قلبهِ ، فيضعُ رسولُ اللهِ ﷺ يَدهُ الشَّريفة علىٰ صدرِهِ ويقول: «يا فتى قُلْ لا إلهَ إلاّ الله» فقالها ، فبشّره بالجنّةِ[1]؛ وصبيانٌ آخرونَ في سنّ السّابعةِ تقريباً يأْتونَ رسولَ اللهِ ﷺ يبايعونَه مع الكبار ، فيبسطُ يدَه ويبايعُهم[2].

* وهنا نلحظُ كيفَ نعمّقُ شعورَ المراقبةِ للهِ في نفوس هؤلاء الصِّغار ، ممّا دفَعهُم إلىٰ التّضحيةِ بنفوسهم في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* إنَّ هذه الأنواعَ المباركةَ منَ المشاعرِ الطَّيِّبة مطالبٌ بها الأب لكي يغرسَها في نَفْسِ طفْلهِ أو أبنائِه الصِّغار ، ويربّيهم عليها ، حتّى تتعلقَ قلوبُهم وأرواحُهم بالله عزَّ وجلَّ ، فتكون جميعُ حركاتِهم وسكناتِهم موافقةً لمنهجِ الله سبحانه وتعالى.

* ومن أهمّ العواملِ على تنميةِ هذه المشاعرِ عند الطّفل ، إشعارُهُ بالانتماءِ إلى اللهِ ورسولهِ ، فالأطفالُ يميلون بفطرتهم إلىٰ هذهِ المشاعرِ ، ويرغَبُون في شيءٍ يعتقدونَه ويعملون منْ أجلهِ ليشعروا بمعنىٰ الحياةِ وقيمتها.

* فالأبُ النَّاجحُ في تربيتِه لأطفالِه يسعىٰ دائماً بإشعارِ الطّفلِ بمراقبةِ اللهِ له في جميعِ الأحيانِ والأحوال ، ويوقظُ عنده المسؤولية أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويشعرُهُ بواجبهِ تجاهه ، وهذا ليس بعسيرٍ ، ويمكنُ تحقّقه مع الطّفل في بدايةِ سنّ التّمييز ، إذ يمكنُه أنْ يفكّرَ بصورةٍ مجرّدة ، ويفهمُ ويدركُ تلكَ المعاني.

* وينهجُ الأبُ مع طفلهِ أسلوبَ التّذكيرِ الدَّائمِ برقابةِ اللهِ عزَّ وجلَّ له ، وعلْمهِ بجميعِ أقوالهِ وأفعالِه ، وذلك باستخدامِ الطُّرق المتنوّعة ، فيشجعُه

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٥١).

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٥٦٦ و٥٦٧).

علىٰ الصِّدق إذا تحدَّثَ ، ويرغّبُه في ثوابِهِ ، وإذا تركَه في غُرفةٍ وحدَهُ ، أو في مكانٍ ما بعيداً عنْ مراقبةِ الأهلِ والأبِ ، ذكّرَهُ بمراقبةِ اللهِ له ، كأنْ يقولُ له : إنَّ اللهَ يراكَ في جميعِ أحوالِكَ ، فهل تعلمُ ذلك؟! وبالطّبعِ سيقول الطّفلُ : نعم ، وعندها يوجِّهُه الأبُ بألّا يفعل شيئاً يغْضِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ .

* ويستخدمُ الأبُ مع الطِّفْل أسلوبَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، كيما ينمّي في طفلهِ الحبَّ لله عزَّ وجلَّ ، والخوف منه ، فيعيشُ الطّفل بين الخوفِ والرَّجاء .

* ومن الجديرِ بالذّكْر أنَّ الإكثارَ من تخويفِ الطِّفل وتذكيره بعذابِ اللهِ يولِّد عنده عقْدةَ الخوفِ ، وربّما تؤثّرُ على سلوكِه فيما بعد ، والأجدرُ أنْ يركّزَ الأبُ أو المربّي على أسلوبِ التّرغيب ، ويعلّق قلبه على الرّجاء ، إذ إنَّ الطّفْل أكثرُ حاجةً إليه ، وأرغبُ فيه .

* وفي ميدانِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ يمكنُ للأبِ أنْ يعرضَ الآياتِ القُرآنيةِ في وصْفِ الجنَّةِ ، وفي ذكْر النّار ، ففيها العبرةُ كلّها ، والموعظةُ البالغةُ ، ومن ثمّ يشرحُ معاني الآياتِ بعباراتٍ بسيطةٍ موجزة ، ولا بأْس أنْ يشفعَها بالقَصَص الهادفِ المناسبِ ، والمواعظِ النّافعةِ ، وخصوصاً عندما يكونُ الطّفْلُ فارغَ الذّهْنِ من اللعبِ والطّيْشِ والمُلْهياتِ المتنوّعةِ .

* وبأمثالِ هذه الطَّرائقِ الملوّنة من التّذكير الدّائمِ بالله ، وبالتّرغيبِ المدروس والتّرهيبِ المفيد ، تحصلُ لنفسِ الطّفلِ حساسيةٌ مرهفةٌ ، وشفافيةٌ جميلةٌ تغلِّفُ قلْبَه ، وتجعلُهُ يستحضرُ خشيةَ اللهِ كلّما ذُكرَ اللهُ ، أو سَمِعَ بآياتِهِ ، وقد وصفَ ربّنا عزَّ وجلَّ هذا الصِّنْفَ من النّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

* وعلى الأب أنْ يكونَ قدوةً لطفْلهِ في هذا المجالِ الأخلاقي والسّلوكي ، فيقرأُ كتابَ اللهِ بحزنٍ ، ويستشعرُ عظمةَ اللهِ في نفْسهِ عند

التّلاوة ، فإنَّ أثرَ ذلك يكونُ عظيماً عند الطّفل ، ولا بأسَ أنْ يُحَسِّنَ الأبُ صوتَه بالتّلاوةِ في خشوعٍ وبُكاءٍ؛ فقد رُوي عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنّه قال: «إنَّ هذا القُرآنَ نزلَ بحزن؛ فإذا قرأتموهُ فابكُوا ، فإنْ لم تبكُوا فتباكُوا»[1] .

* وجاء عن عبد اللهِ بنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وهو حَبْر الأمّة وبَحْرُ العِلْم؛ أنّه قال: اقرؤوا القُرآنَ وحرّكُوا به القُلوب[2] .

* ومنَ الواضح أنَّ الطِّفْلَ الذي يشاهد مربّيه وهو متأثّرٌ هذا التّأثُّرَ الكبيرَ لا شكَّ في أنّه سيتأثّرُ ، وقد يتساءلُ عن سببِ الخشيةِ ويعرفُ أنَّ هذا الأمْرَ الذي يبكي منْ أجلهِ المربّي هو أمرٌ جَللٌ عظيمٌ ، وإذ ذاك سترتسمُ علاماتُ الخشوع بحقّ في نفسه الصَّغيرة الصَّافيةِ ، وستبقى في مخيّلته آثارُ ذلكم الخوف والخشوع حتى يكبرَ ويشبَّ عن الطَّوقِ ، ويغدو رجلاً سوياً ، وعندها يتذوّقُ حلاوةَ الإيمانِ الحقيقيّة ، ولذّة الخُشوعِ ، ويعلمُ تماماً ثمرات مراقبةِ الله عزَّ وجلَّ ، ويجني قطوفَ التَّربية السَّليمة التي جعلتْهُ يسلكُ الطَّريقَ المستقيمَ.

٣ ـ **معرفَـةُ نِعَـمِ اللهِ وشُـكْـرُهَا:** من ألوانِ التَّربيةِ الخلقيةِ مع الله عزَّ وجلَّ معرفةُ آلائِهِ ونعمِه الظَّاهرةِ والباطنةِ ، وتجدرُ الإشارةُ دائماً ـ ونحنُ في مرحَلَة تربية الطِّفْل ـ إلى التَّعريف بنعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ الإنسانِ ، وما حبَاه من الفضائِلِ وأنواعِ الطّيّبات ، وذلك ليقعَ في نفْسِ الطّفْل تعظيم اللهِ عزَّ وجلَّ من خلالِ الشّعور بالتقصير تجـاه شكْره على نعمِه الكثيـرةِ التي لا تُحْصى.

* والنّفسُ البشريةُ ميّالةٌ بطبعِها ومحبّةٌ لمن يكرمُها ، ويحسنُ إليها ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٣٣٧) ، وفي الحديثِ رجلٌ متروك.

(٢) إنَّ المقصودَ هنا هو إظهارُ الخُشُوعِ والحُزنِ والبكاءِ عند التّلاوة ليكونَ وقعُها علىٰ النّفس أشدَّ ، فتتأثّر وتنصدع ، وقدَ كانَ العلاّمة ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ عندما كان صغيراً يتأثّرُ ببكاءِ بعضِ شيوخِه أكثر من تأثّره بعلْمهم. (صيد الخاطر ص ١٤٠).

وتحسُّ نحوه بواجبِ الشّكرِ والاعترافِ بالجميلِ ، وقديماً تنبّه الشّاعر إلىٰ هذا فقال :

أَحْسِنْ إلىٰ النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهمُ فَطَالَما اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ

* فإذا كان هذا حاصلاً مع النَّاس ، فكيف بربِّ الناسِ وخالِقِهم ، وهو الذي سخّرهم لنفعِهِ وعونه وإسداءِ المعروف له؟

* إنَّ الإنسانَ إذا عرفَ نعمَ اللهِ عليه ، وأدرك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أسبغَ عليه كَرَمَه وإنعامَه ، فإنَّه يحسُّ بالحياءِ منَ اللهِ لما يراه في نفْسهِ منَ التّقصير في حقّه سبحانه وتعالى. وها هنا يستطيعُ الأبُ أنْ يستغل هذه الطّبيعة البشريّة ، فيبيّن فَضْلَ اللهِ ونعمه على الطّفْل ، وما سخّره له من طعامٍ وشراب ، ومركبٍ وملبسٍ ومسْكنٍ ، وما وهبَهُ اللهُ عزَّ وجل من نعمةِ السَّمْعِ والبصرِ وسائرِ الحواس؛ ومن ثمّ يحدِّثُ الطّفل عن فوائدِ هذه النّعم ، ويقرّبُ إلى تصوّره الصُّعوبة والشَّقاء الذي يمكنُ أنْ يحدثَ إذا ما فُقِدَتْ نعمةٌ أو أكثرُ من هذه النِّعم ، ويمكن أنْ نلفتَ نظرَ الطفلِ إلى فقدانِ الطَّعام أو الشَّراب ، وما ينتجَ عن ذلك من مجاعاتٍ ودمارٍ وهلاك.

* ويجِدُ المربّي مجالاتٍ خصبةً للطّفلِ وهو يذكّره بنعم اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويربطُه به ، وينمّي بداخلهِ الشّكر ، لعظيم إحسانِه وفضْلهِ ، ويذكّره بقولِ أحدِ العُلماء: ففي كُلّ ما خلقَه اللهُ إحسانٌ إلىٰ عبادِه ، يحمدُ عليه حمْدَ شكْرٍ ، وله فيه حكمةٌ تعودُ إليه ، يستحقّ لأجلها أن يحمدَ عليه حَمداً يستحقُّه لذاته. . .

* والطّفلُ قد لا يدركُ الأمورَ المتعلِّقة بالدّين بمعانيها المجرّدة ، لذا فإنَّ فكرَهُ مرتبطٌ بما حوله في بيئته التي يعيشُ فيها ، وهنا يستلزمُ منَ المربّي أنْ يلفتَ نظرَ الطّفل إلى البيئةِ من حوله ، فينظرَ إلىٰ الطّبيعةِ بأشجارِها ، وزهْرِها ، وجبالِها ، وسهولها ، ثمّ إلىٰ السَّماء وغيرِها مما حولَه من أمورِ البيئة ، فيدرك الطّفل جمالَ ما حوله منَ الطّبيعةِ ، وعندها يحسُّ بآثار طيّبةٍ

تتوضَّعُ في نفسهِ ، فتدفعه لمزيدٍ منَ الشّكرِ للواهبِ المنعِم ، الله ربّ العالمين ، الذي أحسنَ كلّ شيءٍ خلقَه .

* وبعد هذا نسمعُه آياتٍ منَ الذكْرِ الحكيم من مثلِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣] ، وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] وقال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] ، كما أننا نقرأُ له كثيراً من الآياتِ التي تتحدّثُ عن النّعم الرّبانية والمنحِ الإلهيّة التي أوجدها اللهُ عزَّ وجلَّ للإنسانِ في هذهِ الحياة.

* ومن خلالِ عَرْضِ تلكم الآيات القُرآنية نتخيَّرُ لها الشَّرحَ الوافي المعبِّر ، والذي يناسبُ سنّ الطّفل ، ومن ثم نستغلُّ معانيها ونختارُ ألصقَ النّعم وأهمّها عند الطّفل ، ونوضّحُ من خلالها فَضْل الله عزَّ وجلَّ عليه ، ويمكنُ لنا أنْ نوضّحَ له نعمة الأبوّةِ وحنَان الأُم ، كما نوضح له نعمةَ البصر مثلاً ، حيث إنَّ الطّفْلَ يدركُ أهميّة النّظر وفضْلهِ ، ويعرفُ أبعادَه ، ونبيّن له فَضْل اللهِ وكرمه بذلك ، ومن ثم نوجّهه لِشُكرِها ، وحَمْدِ الله علىٰ هذه النعمة. وكذلك نلفتُ نظرَ الطّفْل إلىٰ نواحٍ أخرىٰ تتناسَبُ مع فكْرِه وسنّهِ واستيعابه ، ونربطُ بين هذه الأشياء وبينَ الجانب الأخلاقي مع اللهِ ، وفضْلِه على الصِّغار وعلى الكبار.

٤ ـ **الصَّلاةُ وأهَمّيتُها**: من المُسَلَّم به أنَّ نُعلِّمَ الطِّفْل أركانَ الإسلام الخمسة ، ونشيرَ إلىٰ أهميتها كلّها ، ونركّزَ على الجانبِ الأخلاقي منها وهو الصَّلاة.

* فالصَّلاةُ هي الرّكنُ الثّاني من أركانِ الإسلام ، وهي عمودُه ، بل هي ألصقُ شَعيرة دينيّةٍ تلازمُ الإنسانَ ما دام حيّاً مُكَلّفاً ، وهي تربطُه بخالقهِ ارتباطاً وثيقاً.

* ولأهميتها أوصىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمين بأنْ يحافِظُوا عليها ، وجاءتِ الوصيّة الرَّبانية بصيغةِ الأمْرِ للجماعةِ فقال تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

* ولأهميتها أيضاً حذَّر الله عزَّ وجلَّ من تهاون في أدائها فقال : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٤ و٥] .

* وفي السُّنَّةِ تحذيرٌ أيضاً لمن تركَ الصَّلاة أو تكاسَلَ في أدائها ، فقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تركَ الصَّلاة متعمّداً ، فقد حَبِطَ عملُه»[١] .

* ومن خلالِ الصَّلاةِ نعلِّمُ الطّفلَ فوائدَها العظيمةَ في مجالِ الأخلاق ، وتهذيبِ النفس ، وصقْلِ الطّباع؛ فهي صِلَةٌ مباشرةٌ ومناجاةٌ مع الله عزَّ وجلَّ ، وهذه الصِّلة توقع الخشيةَ والرَّهبة في نفْسِ الطّفل ، وتشعره بتمامِ المراقبة لله عزَّ وجلَّ .

* ويشرحُ المربّي أو الأبُ ما يجنيهِ المسلمُ في حياته من ثمارِ الصَّلاة ، وما تورثه من أخلاقٍ وآدابٍ وتربيةٍ للنفس ، ويقرأُ المربّي قولَ اللهِ تعالى بصوتٍ خاشع : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، ولا بأْسَ أنْ يشرحَ معنى هذه الآية ، أو أنْ يقرأَ له تفسيرها من أحَدِ المصادر المعتمدةِ ، ويذلّلَ له المعاني حتى تستقرَّ في نفسه؛ فيقرأ له مثلاً شَرْحَها من تفسير القُرطبيّ عندما يقول : والصّلاةُ تشغلُ كلَّ بَدَنِ المصلّي ، فإذا دخل في محرابِهِ ، وخشعَ وأخْبَتَ لربه ، وادّكر أنَّه واقفٌ بينَ يديه ، وأنَّه مطّلعٌ عليهِ ويراه ، صلُحَتْ لذلك نفْسُه وتذلّلت ، وخامرَها ارتقابُ اللهِ تعالى ، وظهرتْ علىٰ جوارحِه هيبتُها[٢] .

---

(١) انظر : مجمع الزوائد (١/ ٣٠٠) ، ورجال الحديث رجال الصحيح . وإحباطُ العملِ لا يكونُ في العادة إلاّ لاقتراف أمْرٍ عظيم شنيع .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١٣/ ٣٤٨) .

* ويتابعُ المربّي جنيَ رحيقِ وثمارِ الصَّلاة من خلالِ حديثِه للطِّفل عن فوائدها ، ويذكّرُهُ بأنَّ الصَّلاةَ سببٌ لتكفيرِ المعاصي والذّنوب التي يرتكبُها الإنسانُ ، ويشرحُ له قولَ رسول الله ﷺ: «الصَّلواتُ الخمسُ والجُمعةُ إلى الجُمعةِ كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ الكبائر»[1] .

* وبأسلوبٍ شائقٍ تربوي يحدّثُ المربّي الطِّفْلَ عن جماليّةِ الانضباطِ وجمالِ النّظام ، وكمالِ السَّكينةِ ، وأنَّ الصَّلاةَ تدرّبه على كلّ هذا ، وتعوّدُه على احترامِ الوقْتِ ، والاستفادةِ الكاملةِ منه ، بالإضافةِ إلى آدابها المفيدة في جميعِ المجالات .

* ويأخذُ المربّي بيدِ الطِّفل إلى تعليمهِ الصَّلاة ، ويبدأُ بتعليمه الوضوء والطَّهارة ، ويرشدُه إلى الجانبِ المعنوي فيه ، كأنْ يسمعه قولَ رسولِ الله ﷺ في محاسن الوضوء: «إذا توضّأَ الرّجُل المسلمُ خرجَتْ ذنوبُه من سمعهِ وبصره ويَديْه ورجلَيْه ، فإن قَعَدَ قعدَ مغفُوراً له»[2] .

* وكما يعلِّمُ المربّي الطِّفْلَ الوضوءَ والطَّهارةَ نظريّاً وعمليّاً ، فكذلك يعلّمه الصَّلاة ، ويدرّبه على أدائِها كاملةً حسنةً ، ويلجأُ في ذلك إلى عدّةِ أساليبَ منها ما هو عن طريقِ المُشَاهَدة والتّقليدِ ، ويكونُ هذا الأسلوبُ في سِنّ الطّفولةِ المبكّرة ، حيثُ يشاهِدُ الأطفالُ والديْهم والكبارَ في أُسَرِهم يُصلُّون فيقلدونهم ، ثم إنّهم يتعوّدون رؤيةَ المصلِّي ، ويتعرّفُون كذلك أعمال الصَّلاة من تكبيرٍ وركوعٍ ، وقيام وسُجود .

* وكثيراً ما نلاحظُ أنَّ الطِّفلَ الصَّغير يندفعُ برغبة بريئةٍ كيما يقلّدَ أباه أو أمّه أو أخاه الكبير ، فيقفُ في جوارِه يقلِّدُه في قيامِه وركوعِهِ وسائر أعمالِ الصَّلاة ، دون إدراكٍ منه أو وعي لما يقومُ به ، وغالباً ما يؤدّي الطّفْلُ هذه

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٤) ، والحديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٥٣) .

الشَّعائرَ وهذا التَّقليدَ وهو في غاية السُّرور والزَّهْو ، لأنَّه استطاعَ أنْ يحاكي الكبار في حركاتِهم وفي سكَناتِهم؛ ولا شكَّ في أنَّ تكرارَ هذا المشهدِ يوميّاً أمامَ الطّفل يجعلُ الصَّلاَة عنده أمراً سَهْلاً ، ثم يؤدّيها فيما بعد برغبةٍ وحبٍّ وخشوعٍ.

* وتبدأُ الأوامرُ الفعليّةُ للصَّلاةِ وأداءِ الفُروضِ الخمسةِ حينما يكْمِلُ الطّفل ربيعَه السَّابعَ من عمره ، ويبدأُ الأبُ أو المربّي بترغيبِ الطّفلِ فيها ، والصّبر عليه في أدائها ، وهو يمتثلُ أمْرَ الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ، فالصَّلاةُ تحتاجُ منَ المربّي والأبِ إلى نَفَسٍ طويلٍ ، وهمّةٍ عاليةٍ ، واصطبارٍ ، حتى يستطيعَ الطّفلُ أنْ يؤدّيها دونَ أمْرٍ ودونَ متابعةٍ ، وقد علّمنا رسولُ اللهِ ﷺ كيفَ نأمرُ الطّفْلَ بالصَّلاة وكيفَ ومتى نعلّمُه فقال: «علّموا الصَّبي الصَّلاة ابنَ سبع سنين ، واضربُوه عليها ابن عشر»[١].

* وهكذا فتعليمُ الطّفْلِ الصَّلاة من واجباتِ الأبِ وولي الأمْرِ ، وليس منَ المستحبَّاتِ ، ففي «المُغْني» نقل ابنُ قدامةَ المقدسيّ عن بعضِ العُلماء ما مفادُه بأنَّ وليَّ الصَّبي يجبُ عليه أنْ يعلّمه الطّهارة والصَّلاة إذا بلغَ سبْعَ سنين ويأمرُه بها[٢]؛ ولذا فلا بدّ للأبِ والمربّي أنْ يدركَ هذا الجانبَ الأخلاقي مع الله عزّ وجلّ ، ويعرفَ واجباتِهِ الشّرعية في هذا الجانبِ ، ولا يهملَ الطّفل ، أو يتهاونَ في أمْرِ الصَّلاةِ معه.

* ويستلزمُ علىٰ الأبِ وهو في رحلةِ تعليمِ الطّفل أمورَ الصَّلاة ، أنْ يعلمَه الطّهارة ، وسَتْرَ العورةِ ، والخشوعَ بين يدي الله عزَّ وجلَّ ، وأنْ يتابعَه ولا يغْفُلَ عنه ، ويكررَ عليه الأمْرَ مراراً ومرات ، ويذكّره فيها دائماً ويرغّبَه بشتّى وسائلِ التّرغيب من هدايا وتشجيعٍ وما شابهَ ذلك ، حتى

---

(١) المستدرك (١/ ٢٥٨) والحديث صحيح.

(٢) انظر: المغني (١/ ٦٤٧) بتصرف يسير جداً.

لا يتهاونَ الطّفلُ في أمرها بعد أنْ يشتدَّ عودُه ، وتصْلُبَ قناتُه ، ويبلغَ سنّ البلوغِ والتّمييز ، وعندها يصعُبَ التّقويم والإصلاحُ والتّهذيب.

* وفي ديوانِ وصايا الصَّحابةِ الكرام ـ رضي الله عنهم ـ يطلعُ علينا سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، وهو العالمُ الحبْرُ بهذه الوصيّة النّافعة للآباء والمربّين ، ويحضُّهم على تعويدِ الأطفالِ الصَّلاة والمحافظةِ عليها فيقول: حافظوا على أبنائِكم في الصَّلاة ، وعودوهم الخير ، فإنَّ الخيرَ عادةٌ.

* وقد يحدثُ تقصيرٌ منَ الطّفْلِ في أداءِ الصَّلوات المفروضةِ نتيجةَ كَسَلٍ ، أو لهوٍ ، أو لعبٍ ، وهنا يجبُ على الأب أنْ يعظَه وعظاً جميلاً ، وأنْ يذكّره بها ، وأنْ يحدّثَه عن الجانبِ الأخلاقي ، ويذكّره بالوفاءِ في أداءِ الفرضِ ، حتى يعودَ الطِّفْلُ إلى رشْدِه ، ويتابعَ الصَّلاة في فروضها وسُنَنِها. فإنْ لمْ يستجبِ الطّفلُ إلى ذلك فَعَلَ معه بعضَ العقوباتِ التي تردعُه ، وتردُّه إلى جادّة الصَّوابِ ، ويشترطُ بهذه العقوبات ألاّ تكونَ مُنفّرةً منَ الصَّلاة وأن تكبحَ جماحَ الطّفل ، وذلك بأنْ لا يضرِبَه الأبُ ضَرباً مبرحاً.

* ومن مرغّباتِ متابعة الصَّلاة تعويدُ الطّفلِ على أدائِها جماعةً في المسجدِ ، لأنَّ الصَّلاةَ مع الجماعةِ تربطُ الطّفلَ بمن حولَه من المصلّين ، كما يمكنُ للأبِ أنْ يشرحَ للطّفْلِ محاسنَ صلاةِ الجماعةِ وثوابها الذي يفضُلُ على صلاة الرّجل وحْدَه بسبعٍ وعشرينَ درجةً.

* وقد أثنى اللهُ عزّ وجلَّ على عُمَّارِ المسَاجد ، ووصفَهم بالإيمانِ فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [التَّوبة: ١٨] ، وفي رحلةِ تعليم الطفل أمورَ الصَّلاة يشرحُ له المربّي معنى هذه الآية ، وفضْلَ عمارةِ المساجد بالإيمانِ وإقامةِ الصَّلوات المكتوبة فيها.

* وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يأتي المسجدَ وهو يحملُ الحَسَنَ أو

الحُسَينَ ، وربّما أطالَ صلاته بسببِ صُعود أحدهما على ظَهْرِه الشَّريف[١] .

* وقد وصفَ أبو مالك الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ صفوفَ مسجدِ رسولِ الله ﷺ فقالَ: ويجعلُ الرّجالَ قدّام الغِلْمان ، والغِلْمَانَ خلفَهم ، والنِّساءَ خَلْفَ الغِلْمان[٢] . أي: كان للأطفالِ مكانٌ معروفٌ في المسجدِ ، ولعلَّ في هذا تعويدهم علىٰ صلاةِ الجماعةِ .

وأودُّ أنْ أشيرَ إلى نقطةٍ مهمّةٍ جدّاً في حضورِ الطّفلِ صلاةَ الجماعةِ ، وهي عدمُ الإطالةِ في الصَّلاة لئلا ينفُرَ الطّفلُ منَ الصَّلاةِ في المسجدِ ، بل ينفُر منَ المسجدِ ، وإذا كان إمامُ المسجدِ ممّن يطيلُ في الصَّلاة بشكل ملفِتٍ للنَّظرِ ويخالفُ السُّنَّة ، وجَبَ على المربّي والأبِ أن ينبّهَه إلى ذلك ، ويرشدَه إلى الاعتدالِ والتوسّط ، والأخذِ بالسُّنَّة المطهّرة والهديَ النَّبويَّ ، وأنْ يذكّرَهُ بقولِ الحبيبِ الأعظم والمربّي الكريم محمّد ﷺ: «يا أيّها النّاسُ إنَّ منكُم منفّرينَ ، فمن أمَّ النَّاس فليوجزْ فإنَّ خلْفَه الضَّعيفَ والكبيرَ وذا الحاجَةِ»[٣] .

* وفي روايةٍ أخرى في السُّنَن: «تجاوز في الصَّلاة واقدر النّاس بأضعفِهم ، فإنَّ فيهم الكبيرَ والصَّغير والسَّقيمَ والبعيدَ وذا الحاجةِ»[٤] . فقد ذكرَ الحبيبُ الأعظمُ حالَ الطِّفلِ ومراعاتِه لئلا ينفُرَ وينفلتَ منَ الصَّلاة .

* وهناك ناحيةٌ مهمةٌ أخرىٰ ترغّبُ الطّفْلَ في حضورِ الجماعةِ ، كما ترغّبُ الكبيرَ أيضاً ـ وقد لمستُ هذا بنفسي ـ وهذه النَّاحيةُ ذات أثرٍ طيّبٍ كريمٍ في النّفس ، إذ على المربّي أنْ يختارَ الإمام ذا الصَّوتِ الحَسنِ ، لأنَّ الصَّوتَ الحسنَ ينفذُ إلى القُلوبِ والنّفوسِ ، ويدعو إلى الخشوعِ

(١) المستدرك (٣/ ١٦٥ و١٦٦).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٣٤).
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (١/ ١٨٠).
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٩٨٧).

وتذوّقِ القرآن ، فإذا كان الإمامُ صحيحَ القراءةِ حسنَ الصَّوت ، اجتهدَ الأبُ أو المربّي في الصَّلاةِ خلفَه ، وربطَ الطفْل بين جمالِ الصَّوتِ وحُسْنِ الأداء ليألفَ الطفلُ ذلك ، وليرتادَ المسجد برغبةٍ ، ويرتبطَ بصلاةِ الجماعةِ ، وبمن يصلُّون من أطفال الحيّ الذين هم في مثلِ سنّه وعمره ، ويتعرفُ بعضَ النّشاطاتِ المفيدةِ التي يقومونَ بها من مثلِ حفْظِ القرآن الكريم ، أو قراءة بعضِ الكتُب المفيدةِ النّافعة ، أو ماشابه ذلك.

* ومن خلالِ رحلةِ الأخلاقِ مع الله عزَّ وجلَّ نربطُ الطّفل بصلاةِ الجمعَةِ ، ونعودُّه عليها ، ومنَ المعروفِ عند العُلماء والفقهاء بأنها غير واجبة على الأطفال الصغار شرعاً ، بيد أن تعويد الطفل عليها ليس ممنوعاً ، وعلى الأبِ أنْ يسلكَ مع طفلِه أسلوبَ التّشويق والتّرغيب ليحضر الجمعة ، ويعلّمه ما وردَ في فضلِ يوم الجمعة وصلاةِ الجمعةِ من أحاديث وآثار ، إذ يومُ الجمعةِ يومٌ كريمٌ ، وهو أفضل أيّامِ الأسبوع ، فرسولُ اللهِ ﷺ يقولُ فيه وفي فضْله: «خيرُ يومٍ طلعتْ عليه الشّمسُ يوم الجمعة ، فيه خُلِقَ آدم ، وفيه أدخلَ الجنّة ، وفيه أُخرِجَ منها»(١).

* ويستطيعُ الأبُ من خلالِ حصافَته أنْ يتخيّر من المساجدِ أفضلها وأحسنها لحضورِ الجمعة مع أطفالِهِ ، وعليه أنْ يختارَ أيضاً أفضلَ الخُطباء وأعلمهم بالقرآنِ والسُّنّة ، وأكثرهم رقّةً وخشوعاً ، حيث إنَّ للخطبةِ عظيمَ الأثرِ في أخلاقِ الأطفال ، وخصوصاً إذا فهموها أو عقلوا شيئاً منها؛ وربّما تؤثّرُ انفعالاتُ الخطيبِ ، ونبراتُ صوتِه ، وصدقُ كلامه في المصلّين وفيهم الأطفالُ ذوي النُّفوس الغضَّة ، والأحاسيس المرهفَة ، وقد يتأثّر الطّفْلُ بحركاتِ الخطيب ، فيقلده ويصبحُ فيما بعد منَ الخُطَباء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧) في فضل يوم الجمعة (٢/ ٥٨٥).

* ولتمام الفائدةِ من حضورِ الطّفل صلاة الجمعة ، يحاولُ الأب الحصيف ، أن يلفتَ نظَرَ أطفالِهِ إلى محاسنِ الخطبةِ ، وإلى أهمّ النّقاط فيها ، وأبرزِ الأفكارِ في محتواها ، ولا مانع من أنْ يسألَ أطفاله عن موضوعها ، وعمّا استخلصُوه من فوائِدها ، وبهذا يكون قد علّمهم أدبَ الإنصات إلى الخطيبِ ، وكذلك يلفتُ نظرهم إلى مواضيعِ الخطبِ القادَمةِ ، وبالتّالي تعمُّ الفائدة ، ويكونُ قد حقّقَ المرادَ في التّربيةِ الأخلاقيةِ مع اللهِ عزَّ وجلَّ في هذا المضمار المبارك المهمّ.

* وهناك نقاطٌ أخرىٰ للأخلاقِ مع الله عزَّ وجلَّ يستغلُّها الأبُ مع طفله ، ويركّز عليها ، كالصِّدقِ ، والصَّبرِ ، والثَّوابِ ، وما شابه ذلك ، وينمّي في نفسه كلّ هذه الأشياء ليكونَ طفله من رجالِ الغد الصَّالحين بإذنِ الله.

* وهكذا تنتهي رحلةُ التّربيةِ الخُلقيةِ للطّفْلِ مع اللهِ عزّ وجلّ؛ وسنقومُ ثانياً برحلةِ الأخلاقِ مع الرّسولِ ﷺ ، وكيف يفهمُها الطِّفلُ ، وكيف نعملُ على توضيحِ مكانةِ الرّسلِ والأنبياء عنده.

* إنَّ الأخلاقَ مع الرَّسولِ ﷺ ومع سائرِ الرّسل ـ عليهم السَّلام ـ تحتاجُ إلى وقفاتٍ هادفةٍ ، يستطيعُ الأبُ أو المربّي من خلالها توضيح مكانتهم بين البَشَر ، ثم يشرحُ كيفيةَ الإيمانِ بهم من خلالِ نقاطٍ منها:

١ ـ **مكَانَةُ الرّسولِ والأنبياء**: منْ أعظمِ ألوانِ التَّربيةِ الخُلقيّةِ للطّفْلِ أنْ نربطَه بمحبّةِ الرَّسولِ ﷺ وسائر الأنبياء ، وعلى الأبِ أو المربّي أنْ يعرفَ جانباً من حياةِ الرُّسل ، ويغرسَ محبّتهم في نفوسِ أطفالِه.

* فرسولُ اللهِ محمّدٌ ﷺ والأنبياءُ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم صفوةُ خَلْقِ الله ، وهم أولياؤُه وخيرتُه وخاصّتُه منْ خلقه ، اختارهم واصطفاهُم من بينِ جميعِ خلْقِه ، وجعلَهم رسُلاً فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥]؛ وهؤلاء الرّسلُ

حبُّهم منْ أعظمِ القُرباتِ إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعلىٰ الأبِ أنْ يعملَ على تركيزِ حبِّهم وموالاتِهم في صدورِ أطفاله ، وأنْ يستغلَّ بعضَ المناسباتِ ، فيبيّنُ فضْلَهم ومنزلتَهم وكمالهم ، فتتعلّقُ قلوبُ الأطفال بهم حبّاً.

* فالأبُ أو المربّي يبدأُ فيعرّفُ أطفالَه بسيرةِ رسولِ الله ﷺ ، وسيرةِ الرّسلِ في القرآن الكريم ، ومن ثمّ يعرفُهم بمهامّ الرّسل وطبيعةِ شخصياتهم ، وأنّهم أكملُ النّاس خُلُقاً وخَلْقاً وكَمالاً وجَمالاً وطيْباً ، ويعرضُ بعضَ قَصصِهم مع أقوامِهم ، وكيفَ لاقُوا المصاعبَ. ويختارُ المربّي الأسلوبَ الجذّابَ الشَّائِقَ الذي يناسبُ سنّ طفْله ، ويبيّن خصائص كلّ نبي ، فيبرزُ صفةَ الكرمِ ـ مثلاً ـ في شخصيّة نبي اللهِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ، كما يبرزُ صفةَ الطَّاعةِ والامتثالِ في شخصيّة نبيّ الله إسماعيل ـ عليه السّلام ـ ، وصفة الصَّبر في شخصيّة نُوحٍ ـ عليه السَّلام ـ.

* ولكي يكتملَ عقْدُ الأخلاقِ النَّفيس مع الطّفْل ، يخصُّ الأبُ أو المربّي سيرةَ الرّسولِ الكريم ﷺ بالنَّصيبِ الأوفىٰ والاهتمامِ الأكْبر ، إذ إنَّ الحاجة لمعرفةِ أحداثِ السِّيرةِ النَّبويّة ، وأحوالِ الدَّعوةِ المحمديّةِ أعظمُ منَ الحاجةِ لمعرفةِ غيرِها من الأحداثِ والسِّير ، لأنَّ النّاس مكلّفونَ بالاقتداءِ به ، واتّباعه وطاعَته ، وهذا لا يتمُّ بشكْلٍ واضحٍ إلاّ من خلالِ معرفةِ ودراسةِ سيرتهِ الشَّريفةِ وأحوالِه اللطيفةِ ﷺ.

* فالطِّفْلُ يجبُ أنْ يتعلَّمَ بأنَّ محمّداً ﷺ هو أفضلُ الرّسل ، وأحبّهم إلىٰ اللهِ ، وشريعته أكمل الشّرائع؛ أخرجَ اللهُ به النّاس منَ الظُّلماتِ إلىٰ النّور ، وكان بالمؤمنين رحيماً.

* وكانت بعثتُه ﷺ رحمةً للعالمين ، ومنّةً منَ الخالقِ الباري على النَّاس ، ولهذا فحبُّه وطاعتُه والأدبُ والتّأدّبُ معه من أهمّ القَضَايا والأمورِ التي يجبُ علىٰ المربّي أنْ يهتمَّ بها ، وأنْ يغرسَها بنفوس الأطفال.

٢ ـ الـرسولُ ﷺ وطاعتُـه والاقـتـداءُ بِـهِ :

* وتثمرُ محبّةُ رسولِ اللهِ ﷺ في تعليمِ الطّفل طاعته في أوامرِه ، واتّباع نهجهِ وهديهِ وسنّته اقتداءً به ، فهو ﷺ القدوةُ الكاملةُ ، وهو أكملُ البشَر ، به يتأسّى العارفون ، ومنْ نبعِهِ يشربُ المحبّون ، وطاعتُه من طاعةِ الله عزَّ وجلَّ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] ، وقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] ، ولأنّه الأسوةُ الحسنة فاتّباعه منجاةٌ ومخالفتُه مَهْواة ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* وفي طاعةِ رسولِ الله ﷺ فوائدُ كثيرةٌ ومهمةٌ في حياةِ الطّفل إذا استطاعَ المربّي أنْ يعلّمها للطّفل بطريقةٍ صحيحةٍ بسيطةٍ ، فعندما يقومُ الإنسانُ بعبادةٍ يقولُ للطّفْل: هكذا كانَ يفعلُ الرّسولُ ﷺ ، وإذا حدث أمْرٌ مخالفٌ للسُّـنَّـة ينبّـهُ الطّفْل عليهِ ، وبالتّـالي يشعرُ الطّفْل بأهميةِ هذه الأفعال ، فيأخذ بالصّالح منها ، ويترك الطّالحَ منها ، وتبقىٰ شخصيّة الرّسولِ ﷺ هي الأسوةُ الحسَنةُ والقدوةُ الطيّبة عند الطّفل.

* وهناك ناحيةٌ مهمّة جدّاً يجبُ على المربّي أنْ ينتبهَ لها ، وينبّهَ عليها ، وهي محبّةُ بعضِ الأطفالِ لشخصيّات مهزوزةٍ منَ الفنّانين أو الرّياضيين ، أو غيرهم ، فيقتدي بهم ويقلّدهم أحياناً ، أو يلبسُ ثياباً عليها صورهم ، وهنا يجبُ التّنبيهُ علىٰ ذلك ، وإظهارُ خَطَر هذه القُدوة غيرِ المُثْلى ، لأنّها تضعفُ حبَّ الرّسولِ ﷺ في نفوسِ بعضِ الأطفال ، وبالتّالي تتفتّحُ أعينُهم على عاداتٍ غيرِ مرغوبٍ فيها ، وتتلاشىٰ في قلوبهم القدوة الصّحيحة ويكونون أداةً غير صالحةٍ في المجتمع المسلم.

* ولذا فعلىٰ المربّي أنْ يدلَّ الطِّفل على الصَّواب ، ويهديه إلى

الرّشاد ، ويحبّبَ إليه ما يصلح ، ويبغِّضَ إليه ما يفسدُ ، ويقبّحَ عنده سفْساف الأمور ، ويأخذَ بيده كلما عثر ، ويشغلَه بالفضَائل دائماً ليؤتي ثمرة التّربية الحقّة في ضوء القُرآن والسُّنَّة .

* * *

الفصل الثالث
الطّفلُ والتَّربيةُ الخُلقيّةُ معَ المُسلمينَ وغيرِهم

* هذا فصْلٌ مهمٌّ جدّاً فهو روحُ هذا الباب وريحانُه ، لأنَّه يعرِّفُ الطّفلَ علىٰ الأخلاقِ الحقيقيّةِ التي توصلُه إلى السّعادة في الدَّارَيْن .

* وإذا كانتْ مادّةُ الأخلاقِ هي حُسْنُ التَّعاملِ مع النَّاس ، فإنَّ نجاحَ الطِّفْل في حياتِهِ العمليّةِ تكونُ من حسنِ توجيهِ مُربّيه له في هذا المضْمَار ، ولفتِ نظرِهِ إلىٰ مَنْ يعيشون حولَه ، فيعاملُ كلّ فئةٍ بأخلاقٍ تجعلُه موفّقاً في حياتِهِ ، فمعاملةُ الوالدَيْن تختلفُ عن معاملةِ العُلماء ، وتختلفُ عن معاملةِ الأقاربِ والأصدقاءِ ، وعن معاملةِ الإخوة والأخواتِ ، وهكذا . .

* وفي رحلةِ الأخلاقِ الشَّائقةِ والتَّربية الخُلقيّةِ مع المسلمين، نتوقّفُ مع الطّفلِ في محطّاتٍ أخلاقيةٍ مع أبويهِ ، وأساتذتِه ، وإخوتِه ، وأقاربِه وبعضِ الفئاتِ الأخرىٰ في المجتمع ، ثمّ نشيرُ إلى التّربيةِ القويمةِ التي يجبُ على المربّي أنْ ينهجَ سبيلَها ويقرّبَها للطّفل ، ليكونَ عنصراً مُفيداً في هذا المجتمع .

* وفي الفقراتِ التَّالياتِ نُلقي الضّوءَ علىٰ الأخلاقِ العامّةِ مع المسلمين ، ثمّ باقي النَّاس ، ونتحدَّثُ بشيءٍ منَ التَّفصيلِ والوضوحِ ليكونَ الطّفلُ ذا تربيةٍ خُلقيّةٍ طيّبة مع عناصرِ المجتمع ، وليكونَ لدينا أطفال يعرفونَ مالَهم وما عَليْهم في حياتنا المُعَاصرة اليوم ، والمُسْتمدّة من حياةِ المسلمين بالماضي. وها نحنُ أولاء نبدأُ بالتَّربيةِ الخلقيةِ مع الوالدَيْن ، ثمّ

الإخوة ، ثمّ الأقارب ، ثمّ الأصدقاء ، ثمّ المعلمين والعُلماء .

١ ـ التَّربيَةُ الخُلقيَّة للطّفلِ مَعَ الوَالدَيْن :

* في القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ تدعو الطِّفلَ والولدَ إلىٰ البِرِّ بأبويهِ ، وأنْ يستوصي بهما خيراً ، فهما سِرُّ وجُودِه ، وهما اللذان قدَّما كلَّ ما يملِكان من ألوانِ السَّعادةِ في سبيلِ سعادةِ الأطفالِ ، فكم مرَّتِ الليالي الطّوال وهما ساهرانِ لِسَهْرِ الطّفل في مرضهِ ، يتألمان لألمه ، ويتوجّعان لوجعِهِ ، ولا تقرُّ أعينُهما إلاّ في سعادتِهِ وراحتِهِ ، ولو أصابتِ الطّفلَ شوكةٌ تمنّيا أنّها فيهما وليستْ فيه ، لهذا فإنَّ حقَّهما عليه عظيم ، ولا يمكنُ للأطفالِ والأبناءِ بعامّةٍ أنْ يُجازُوا الأبوَيْن مهما حاولوا ، ومهما قدَّمُوا ، ولقد أشارَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلى هذا فقال: «لا يجْزي وَلَـدٌ وَالداً إلاّ أنْ يجدهُ مملوكاً ، فيشتريه فيعتقه»[1] ، وهذا من شبْهِ المستحيل في الحياةِ ، فأنّىٰ وأينَ وكيفَ للابن أنْ يجِدَ أباه مملوكاً فيشتريه ويعتقه ، والتّاريخُ لم يسجلْ لنا مثلَ هذه الحالات في صفَحاتِهِ التي لا تُحصى .

* إنَّ جميعَ الخدماتِ والأعمالِ التي يمكنُ للطّفل أو الابن أنْ يقدِّمَها لوالدِه ، لا تكون جزاءً يكافىء ما قدَّم الأبُ منْ تضحيات ، وكذلك البنتُ مهما قدَّمت من تضحياتٍ وخدماتٍ فلا يمكنُ لها أنْ تكافىءَ أمّها بجزء ممّا قدَّمَتْه لها .

* وأستطيعُ أنْ أضربَ مثلاً يعيشُه معظم النّاس ويلمسونه في حياتِهم اليوميّة ، فقد يمرضُ الأبُ أو الأمّ مرضَ الكِبَر والشَّيخوخةِ ، فيقومُ الأولادُ علىٰ خدمتهما ، وقد يتأفّفُ بعضُ الأولادِ من الخدمةِ ، وقد يتذمرُ لكثرةِ أسئلتِهما ، فالكبيرُ عندما يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمرِ يصبحُ تماماً كالصَّغير يحبُّ السُّؤالَ عن كلّ شيءٍ ، وهُنَا يظهرُ البِرُّ بهما ، والرّفقُ بهما ، والردُّ عليهما

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥) في كتاب العتق.

بأدبٍ ولطْفٍ ورقّةٍ ، فهما قد ربيَّا الطِّفْل ليغدوَ كبيراً ، وهو ـ أو بعضهم ـ يخدمهما ليتخلَّصَ منْ خدمتهما ويتمنّى أنْ يموتَا ، وكم من ابنٍ تركَ أبوَيْه أو أحدهما وهُما بأشدِّ الحاجةِ إليه؛ ولم يأْبَهْ لهما ، ولم يتذكرْ عطفَهما ورحمتَهما به وهو صغيرٌ بحاجةٍ لعطفِهما ورعايتِهما؟!

* لذا فحقُّ الوالدَيْن عظيمٌ عظيمٌ ، وكبيرٌ كبيرٌ ، وقد سُئِلَ سيّدنا معاذُ بنُ جَبَل ـ رضي الله عنه ـ عن حقِّ الوالدين على الابنِ ، فقال: لو خرجْتَ من أهلِكَ ومالِكَ ما أدّيْتَ حقَّهما[1] .

* لذلك جاءتِ الوصيّةُ الإلهيّةُ عامّةً وخاصةً للأبناءِ برعايةِ الوالدَيْن ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا . . . ﴾ [النّساء: ٣٦] ، وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴾ [العنكبوت: ٨].

* ومن بينِ الآياتِ الكريمةِ الشّهيرة في مجالِ التَّربيةِ الخُلقيّةِ للطّفْل ، وتنميةِ حُبّهِ لأبويه ومعرفةِ قدرهما ، نقرأُ عليه قولَ الله عزَّ وجلَّ الذي أمرَ بطاعتهما وبرهما في جميع أطوارِ الحياةِ وخُصوصاً عند الكِبَرِ ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ و٢٤].

* ولعظمةِ حقوقِ الوالدَيْن جاء التّحذيرُ الشَّديد من عقوقهما وإغضابهما ، لأنَّ في هذا حرمَانٌ منَ الجنَّةِ ، يقول النّبي ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّة: العاقّ بوالديهِ ، والدّيّوث ، ورَجِلَةُ النِّساء»[2] .

* ومن هنا كان لزاماً علىٰ الأبِ وعلى المُربّي أنْ يأخذَ بيد الطفلِ

---

(١) انظر: كتاب الورع للإمام أحمد (ص ١٠٥ و١٠٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٢) ، والحديث صحيح.

ليخرجَه من ظُلمات الوهمِ والعقوقِ للأبوين ، وأنْ يربيه التربيةَ الخُلقية الحسنَة ، فيعرفَهُ حدودَ اللهِ ، وأسبابَ مرضاتِه وغضبِه ، ويساعده على برّ والديه ، ليحظىٰ بمرضاةِ الله .

* وعلى الأبِ والمُربّي أنْ يكونَ حصيفاً ولَبِقاً في تربيةِ الطّفلِ ، فلا يختبره بالأعمال الشَّاقَّة ، ولا يعاقبهُ على أمورٍ نَسِيَها أو واجباتٍ قَصَّرَ فيها عن غيرِ قصْدٍ ، بل يسدّدُ ويقارِبُ ، ويعظُ ويعلِّمُ ، ويصبرُ ويُصَابرُ ، حتى يحقّقَ التَّربيةَ الخُلقيّة الصَّحيحةَ في طاعةِ الأبَويْن .

* وقد كان بعضُ علماءِ السَّلف ينهجُ هذا النَّهج في تربيةِ طفْلِه ، ويسوقُه إلى البرِّ بلطفٍ ورفقٍ ، وذلك في فِقْهٍ وعلْمٍ وتجربةٍ ، قال الوصّابي نَقْلاً عن أبي الليث في وصْفِ حال بعضِ السَّلف في رحمتهم بأولادِهم وحمايتهم من العقوقِ : كان بعضُ الصَّالحينَ لا يأمرُ ولَده بأمرٍ مخافةَ أنْ يعصيَه في ذلك فيستوجبُ النَّار[1] . وهذا خارجةُ بنُ مُصْعَبَ ينصحُ الأبَ أنْ يرشدَ طفْلَه إرشاداً لطيفاً ويسوقَه إلى البّرِ برفقٍ فيقول : يُعطيهِ ويحسنُ إليهِ حتى يبرَّهُ[1] .

* إنَّ مثلَ هذه التّصرّفاتِ الجميلةِ منَ السَّلفِ ، تدلُّ على فقْهِ هؤلاءِ الرِّجالِ ، إذ إنَّ نظرهم أبعدُ من حدودِ هذه الدنيا ، وحبُّهم لأولادهم وإشفاقُهم عليهم يتطلَّبُ مساعدتهم وعونهم على النَّجاةِ في الآخرة قبل كلّ شيءٍ ، فلا يكلّفوهم ما لا يطيقون منَ الأوامرِ ، بل يفكّرُ أحدهم قبل الأمر : هل سيطيقُ الولدُ ذلك أمْ يعجزُ عنه فأسوقُه بنفسي إلى التهلُكَة؟ وبقَدْرِ ما يجاهدُ الوالدُ نفْسَه في مساعدةِ أولادِه وتوفيقهم إلى البِرّ ، بقَدْرِ ما يجني في المستقبلِ من إحسانِهم له وبرهم به[2] .

* ويستطيعُ الأبُ الحصيفُ أنْ يكسبَ طاعةَ طفلهِ وأولادِه بالتَّطبيقِ

---

(١) انظر : البركة في السَّعْي والحركةِ (ص ٩٧) .
(٢) انظر : مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد (ص ٢١١) بتصرف يسير .

العملي أمامَهم ، فالأبُ الذي يحترمُ والدَيْه ويقبّلُ أيدَيهما ورأْسَهما أمامَ نَظَر طفْلِه ، فإنّه يعلّمُ طفْلَه هذا العمل ويدرِّبَه عليه عمليّاً ، وتنتقلُ هذه المظاهر إلى نَفْسِ الطّفلِ بالتّدريج والأُلْفَة .

* والواجبُ علىٰ الأبِ أيضاً أنْ يُحييَ في نَفْسِ الطّفل خشيةَ اللهِ ، وذلك من خلالِ تعريفِ الابنِ بحقّ والديه ، والمحافظةِ على رضاهُما لأنَّ رضاهُما من رضا اللهِ عزَّ وجلَّ ، وغضبَهُما من غضَبِهِ سبحانه ، ومع هذه الخشيةِ يلوّحُ الأبُ للطّفل على الأجْرِ الكريمِ في برّ الوالدَيْنِ ، وعلى المنزلةِ الكبيرةِ عند الله عزَّ وجلَّ ، وأنّ جزاء كلّ هذا الجنَّة التي تجري منْ تحتِها الأنهارُ .

* ويَحْسُنُ منَ الأبِ أو المربّي أنْ يذكُرَ للطّفل عظيمَ الجُهدِ الذي يلاقيه الأبَوان وهُما في رحلةِ تربيةِ الطّفل ، وما قدَّماهُ منْ رعايةٍ له عندما كانَ صغيراً في المهدِ لا يعقلُ ولا يعرفُ إلاّ البكاء والصُّراخ ، ويذكرُ له أيضاً المعاناة في الرّضاع ، والسَّهْر في جنْحِ الليالي لكي تطعمَه الأمُّ وترضعَه وتنظّفَه ، أو يصحبانِه إلى المستشفى إنْ مرضَ ، وهذه الأشياء تؤثّر في نفسِ الطّفل المميز ، ويدركُ منْ خلالها عِظَمَ حقّ الوالدَيْن ، فيشعرُ نوعاً ما بشيءٍ منَ الواجبِ في شكر وتقديرِ هذه الفضائلِ الأبويّة الكريمةِ ، وينمو في داخلهِ شعورٌ أخلاقيٌّ في برهما ورعايتهما وطلبِ مرضاتهما .

* ومما يحسنُ أيضاً في رحلة التّربية الخُلقية مع الوالدين أن يختارَ الأبُ والمربّي بعضَ القصصِ والأحداثِ الجميلةِ الهادفةِ التي تحكي برّ الوالدَيْن ، فإنَّ ذلك مما يشدُّ الطّفل ، ويستأثرُ بعاطفتِه ، ويمكِنُ للمربّي أنْ يحسنَ سردَ بعضِ القَصصِ الجميلةِ بنبرةٍ ملوّنةٍ ، ومحاكاةٍ لبعضِ الأصواتِ ليجذبَ طفلَه إلى القصّة ، وإلى هدفها ، ولا مانع أنْ يجعلَ بطلَها طفْلاً بارّاً بوالدَيْه ، ليقعَ في نفسِه حبُّ البرّ وطاعةُ الوالدَيْن؛ ولا ينسى المربّي في هذه الأثناء أن يلفتَ نظرَ الطّفلِ إلى حقّ الأمّ ومنزلتها التي تفوقُ أحياناً منزلةَ الأب؛ ومن ذلك أنْ يأمرَهُ باحترامها ، وأنْ يقبّل يَدَها ورأْسَها في كلّ

صباحٍ ، وخصوصاً عند ذهابهِ إلى المدرسةِ ، وألّا يعصيَها أو يرفعَ صوته فوقَ صوتها أو ينهرها ، لأنّ كثيراً منَ الأطفالِ لا يهابون أمّهاتِهم مثل هيبتهم لآبائهم ، وقد ينفرطُ عقْد طاعتِهم لأمّهاتهم ، فيحدثُ إذ ذاك عقوقهنّ ، وتنقصُ منزلتهنّ عند الطّفل ، لذا فيجبُ الانتباه إلى هذا الأمْرِ وحسْمِه منذ الصّغر ؛ وأنْ تَتَعاملَ الأمُّ بوضوحٍ مع زوجها للقَضاءِ على مثل هذهِ التَّصرُّفات غير اللائقة من الطّفل ، وبهذا تحصلُ المهابةُ للوالدين في نفس الطّفل .

٢ ـ التّربيةُ الخُلقيّةُ للطِّفْلِ معَ إخْوتهِ :

* الأبُ النَّاجحُ والمربّي الفاضِلُ هو الذي يستمدُّ نجاحَه التَّربويَّ لأطفالِه من حُسْنِ التّعاملِ معهم ، وربْطِ أواصر المحبةِ والأُلْفةِ فيما بينهم ، وذلك بإرساءِ قواعدِ العدلِ والمساواةِ والحُبّ ، ورفْضِ كلّ ما يدعو إلى التَّنافُرِ والغيْرةِ والحَسَدِ بين الأطفالِ في الأسرةِ التي تستظلّ تحتَ سقْفٍ واحد ، وتأكلُ منْ طعامٍ واحد ، وتشربُ منْ شرابٍ واحد .

* والأسرةُ مجتمعٌ صغيرٌ يتخرّج فيهِ الأطفالُ ، ومن ثم يعيشونَ في المجتمعِ الكبيرِ الذي يضمُّ أنماطاً مختلفةً من البشرِ ، لهم عاداتٌ وممارساتٌ وأنشطةٌ متنوعةٌ ، فإذا استطاعَ الأطفالُ أنْ يعيشوا بسَلامٍ في مجتمعِهم الكبيرِ كانت تربيةُ والديهم لهم ناجحة .

* وعلى الأبِ أنْ يزيلَ الفوارق من بينِ أولاده ، وأنْ يقضيَ على الحَسَد خاصّةً ، لأنَّه صفةٌ مذمومةٌ ، وداء خطيرٌ ، ذو شرٍّ مستطير؛ والغيرةُ والحَسَدُ منَ الأمراضِ التي تكونُ موجودةً في أعماقِ النَّفس ، ولا يمكنُ استئصالُها تماماً من الإنسانِ ، بل يستطيعُ المربي أنْ يخفّفَ من حدّتها ، إذا أخذَ بالأساليبِ التَّربويّةِ القُرآنيّةِ في ذلك ، وإذا استطاعَ أنْ يطبّقَ المنهجَ الإسلاميَّ في التّربيةِ الخُلقيّةِ الهادفَة .

* ومنَ الأمثلةِ العَمَليّةِ التي نرىٰ فيها الحَسَدَ يتضخّمُ ويتمدَّدُ في الأسرةِ الواحدةِ ، ما يلجأُ إليه الأبوان في محبّةِ طفلٍ أكثر من الآخر ، وبالتّالي تبدأُ

بذرةُ الحَسَدِ بين الإخوة بالنّمو ، ويغارُ الأخُ منْ أخيهِ أو أخته ، وربما يلجأُ إلى أنْ يضرَّه ، أو أن يضرَّ نفسه ليجذب انتباهَ أبويْهِ إليه ، ولذا فيجبُ على المربّي أنْ ينتبهَ إلى مثلِ هذه النَّواحي ، ويشعرَ الأطفالَ بأنَّ محبَّتَهم واحدةٌ ، ولا يفضِّلُ أحدهم علىٰ الآخر.

* إنَّ الطّفلَ يريدُ ـ قبل كلّ شيء ـ العطْفَ ، ومن ثمّ يريدُ اللعبَ ، والاهتمامَ ، فإذا أحسَّ بأنَّ بعض العطف انصرفَ إلى غيرِه من إخوتهِ غَضِبَ ، وتأجَّجَتْ نيرانُ الغيرة في جوفِه ، وهنا تظهرُ حصافَةُ الأبِ في حلّ مثل هذه المُشكلة ، فيشعره بالاهتمامِ وبالمساواة مع إخوته ، وبالتَّالي يمتصُّ غضبَه ومشاغبتَه ، ويعيدُه إلىٰ سيرتِه وحياتِهِ الطَّبيعيّةِ.

* وفي سنِّ الطُّفولةِ الغضَّةِ قُبيل الخامِسَة ، تكون الغيرةُ قائمةً على سُوقها بينَ الإخوة ، وذلك لأنَّ الطفلَ في ذلك السِّنّ ما يزالُ محتاجاً إلىٰ الأبوين ، أمّا بعدَ هذا السِّنّ ، فإنَّ الطّفلَ يكونُ أقدرُ قليلاً على فَهْمِ معاني الأخوَّةِ ، وصلَةِ الرّحم.

* وعندما يبلغُ الطِّفْلُ مرحلةَ التّمييز يعملُ الأبُ والمربّي على توضيحِ معاني الأخوّة في الله عزَّ وجلَّ ، والحبّ فيه ، إلى جانبِ الأخوّة بين إخوتِهِ وأشقّائِهِ في أسرتهِ ، فيعلّمه التأدّبَ مع إخوتِه ، واحترام الأخ الكبير أو الأخت الكبيرة ، ويعلّمه إفشاء السّلام لأنّه يزيدُ في الحُبّ ويوصلُ إلى الجنّة ، ويسمعُه قولَ الرسولِ ﷺ في فضْل السَّلام : «لا تدخلون الجنَّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أَوَلا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتُم ، أفشوا السَّلام بينكم»[1].

* وإذا كان المربّي حريصاً على تعليمِ الطّفلِ السَّلام والكلام الطّيِّب ، فعليهِ أيضاً أنْ يحذّرَه من الغيبةِ ومن النَّميمةِ ، فكثيراً ما يلجأُ بعضُ الأطفالِ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٩٣).

فيذمّون بعضَهم بعضاً عند الوالدَيْن ، ويفسدُ بعضُهم علىٰ بعض ، ويهوّل الأمرَ كي ينتقمَ الأبوانِ منَ المجْنِي عليه ، وبذلك تُشْبَعُ رغبةُ الطفلِ النَّمام ، وهنا يمسكُ الأبُ بالعصَا من وسْطِها ، ويسدّدُ ويقاربُ ، فلا يستمعُ إلى النَّميمةِ والغيبة ، ويشرحُ للطّفلِ مساوىءَ الغيبةِ ومخاطرَهَا ، ويعرّفُه مقْتَ القرآن العظيم لهذه العادةِ الذَّميمة القبيحةِ ، والتي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَه بتركها فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وهذا الأمرُ الرّبانيُّ من أعظمِ الزَّجرِ عن هذه الخصلةِ الممجوجة ، والسّلوك المنحرفِ القبيح.

* ويعزّزُ المربّي الآيةَ الكريمةَ بحديثٍ شريف حولَ ذمّ الغيبةِ والنّميمة ، ويشرحُ ما تتضمّنه الآيةُ والأحاديث من معاني غير مستحسنة للغيبةِ والنّميمة ، وعاقبة أهل النّميمة ، حيث قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّة نمّام» وإذا ما اغتابَ الطفْلُ بعدَها إخوته ، أو ذكرهم بسُوء ، زجرَهُ وأمرَهُ بأنْ يعتذرَ ويتأسّفَ لما بدرَ منه ، وأنْ يستغفرَ اللهَ ، ومن ثمّ يحلُّ الوئامُ وتتلاشىٰ براثنُ الغيبةِ والنَّميمةِ من قلبهِ وصدرِه؛ ولا بأس أنْ يشجّعَ المربّي الطّفل على الاعتذار عن الخطأ ، لأنَّ ذلك يخفّفُ من الأحقادِ المتراكمة في النُّفوس. كما يجبُ عليه أنْ يكونَ قدوة للطّفْل ، فلا يسمع منه غيبة أو نميمة ، أو ذكراً بسوءٍ لأحدٍ منَ الأنام.

* ولكي يقطعَ المربّي أو الأبُ دابرَ النَّميمة والغيبة من نفس الأطفالِ ، عليه ألاّ يبقيهم فترةً طويلةً مع بعضِهم ، بل يفرقُهم ويشغلُهم بما ينفعُهم ، أو يصطحبُ بعضهم دونَ بعضٍ إلى زيـارةِ أحدِ الأقاربِ ، أو شراء حاجة منَ السّوق ، وبالتّالي اشتاقوا لبعضِهم ، وتبدّدَ الخلافُ بينهم ، ولذا فقد كان سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ يسلكُ هذا الطَّريق السَّهْلَ المفيدَ مع أولادِه وأطفالِهِ ويقولُ لهم: «إذا أصبحتُم فتبدّدوا ولا تجتمعوا

في دارٍ واحدة ، فإنّي أخافُ عليكم أنْ تقاطعوا ، أو يكونَ بينكم شَرٌّ»[1] وهذا من حصافَةِ وفقْهِ سيّدنا عمر ـ رضوان الله عليه ـ ، ومعرفتِهِ الواسعةِ لما يعتادُ نفوسَ الأطفالِ من التّناحرِ والتّقاطعِ في بقائِهم في مكانٍ واحدٍ أو دارٍ واحدةٍ ، لذا فقد أمرهم بعدمِ الاجتماع الدّائم وبالتّبدد لأنَّ ذلك يمحو من بينهم الخِصَامَ والإحَنَ ، ويحلُّ مكانَه الوئامُ والحبُّ. وما أحْرانَا اليوم أنْ نطبّقَ هذه الوصيّة العمريّة النّافعة على أطفالنا لنضمنَ لهم حياةً هادئةً سعيدةً بعيدةً عن الخلاف والشّجار!!.

٣ ـ التّربيَةُ الخُلقيّةُ للطّفْل مَعَ الأقَارِب :

* إنَّ تنميةَ التّربيةِ الخلقيةِ عند الطّفل في احترامِهِ للأقاربِ ، منْ أفضلِ ما يقدّمه المربّي للطّفل وخصوصاً في هذه الأيّام التي غدا فيها كثيرٌ منَ الأطفالِ لا يعرفون معظمَ أقربائِهم ، أو عدداً ممن تربطُهم بهم صلة رحمٍ وقربى وقرابة.

* إنَّ للأقارب حقوقاً كثيرةً ، منها حقّ صِلَة الرّحم ، وهم كالإخوةِ والأخواتِ ممن يُعدّون من الرّحم الواجبِ صِلَتها ، والإحسان إليها ، وعلى المربّي تنميةُ الأخلاقِ الكريمةِ التّربويّةِ في نفسِ الطّفل ، وحثّه على صِلَةِ الرّحم للأقارب ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أمرَ بذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النّساء: ١] ، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

* وكما أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالإحسانِ لذي القُربى ، وحذَّر من أذاهم ، أمرتِ السُّنَّة بذلك ، وزجرتْ قاطعَ الرّحم الذي يسيءُ للأقرباء ، ويصدّ عنهم صدودَ الجفاء ، ولهذا يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يدخل الجنّة

---

(١) انظر: كنز العمال للهندي (١٦/ ٥٨٣) حديث رقم (٤٥٩٤٨).

قاطِع»[١] وقال: «الرحمُ معلّقةٌ بالعرشِ تقول: مَنْ وصَلني وصَلَه اللهُ، ومَنْ قطَعني قطَعَه الله»[١].

* ومن هذهِ المعاني الوجدانية العظيمةِ يستغلُّ الأبُ أو المربّي ما تحملُه من آدابٍ تربويةٍ، وينمّيها في نفسِ الطّفل، وبالتّالي تنمو صلةُ الرّحم عنده، وتتأصّل هذه النّاحية في نفسهِ خصوصاً عندما يكبر، وتتوثّقُ عُرى المحبّة بينه وبين أقاربهِ. ومن الوسائلِ المُعينَةِ على ذلك أن يختارَ الأبُ لطفْلهِ الوقتَ المناسب لزياراتِ الأقاربِ، وخصوصاً الجدّ، والجدّة، والعمّ، والعمّة، ويحاول أنْ يشوِّقَ الطفل لذلك، ويذكّره بفضلِ هذه الزّيارات، ومالها منْ عظيمِ الأجرِ عند الله عز وجل، وكبيرِ الأثرِ عنْد الأقْرباء.

* وفي رأيي يجبُ على الأبِ ألاّ يجبر طفلَه على زياراتِ الأقاربِ إجباراً فيه قسوة، لأنَّ من عادة الأطفالِ المَلَل من مثلِ هذه الزّيارات، ولكنْ يرغّبُهم، ويكافِئُهم على الزّيارة وصلةِ الرّحمِ بما يراهُ مناسباً لميولهم، كأنْ يصحبَهم في نزهةٍ ممتعةٍ إلى بعضِ البساتين أو أماكنِ التّرفيه العامّة والحدائق.

* وفي عصرِنا كثُرتْ مشاغِلُ الآباء والأمّهات، وربما تشاغَلَ بعضُهم عن أطفالِه، وبخَسَهُم حقَّ صلةِ الرّحم مع الأقارب، لذا فالمربّي الواعي ينّظم هذه الزّيارات تنظيماً يتناسبُ مع ظَرفهِ وظروفِ الآخرين، كأن يجتمعَ مع أقاربه في كل أُسبوعين مرّة، أو كلّ شهرٍ على الأقلّ، ويتعارف أطفالُ الأُسَر على بعضِهم من خلالِ هذه اللقاءات وهذه الزّيارات، ويقضون مع بعضهم أوقاتاً ممتعةً تصحبُهم ذكرياتُها إلى سنِّ شبابِهم وشيبتهم.

* ومن الجديرِ بالذّكْرِ هنا، أنّه لا تقتصرُ الزّيارات على صلةِ الأرحامِ

---

(١) الحديثان أخرجهما مسلم في كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨١).

بينَ الأقارب فقط ، بل يستطيعُ المربّي أنْ يساعدَ الأقاربَ بمالٍ أو هديةٍ أمامَ مرأى طفلهِ ، لتكون صِلَةُ الرّحم قد آتتْ أكلها ، وعمّتْ فائدتها ، وبالتّالي يشبُّ الطفلُ على مكارمِ الأخلاق ، والبرّ بالأقرباءِ ، ومساعدةِ مَنْ بحاجةٍ إلى المساعدة ، وبذا يحصلُ النّفعُ الكبيرُ من صِلَةِ الرّحم ويرضىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الطّفلِ وأهلِه الذين تولوا غرسَ هذه التّربية الخُلقيةِ العاليةِ في وجدانهِ منذ نعومة أظفاره.

٤ ـ التَّربيةُ الخُلقيّة للطّفْلِ مَعَ الأصْدِقاءِ والأَصْحابِ:

* الإنسانُ جزءٌ لا يتجزّأُ منَ المجتمع ، ولَبِنةٌ من لَبناته ، فهو يتأثّرُ ـ رجلًا كان أو طفلًا أو طفلةً ـ بالأصحابِ والقُرناء والأصدقاء والأتْراب ، ويتوضَّحُ سلوكه من خلالِ أصدقائِه وأصحابه ورفاقه ، فإنْ كانوا منَ الأخيار نشأَ مثلَهم ، وإن كانوا منَ الأشرارِ تأثَّر بهم. وقد أشار الغزالي ـ رحمه الله ـ في «الإحياء» إلى أنَّ تكوينَ التَّربيةِ الخُلقيةِ للطفلِ ، وأنَّ اكتسابَ الأخلاقِ الحسنةِ يمكنُ أنْ تكونَ عن طريقِ مصاحبةِ الأخيارِ والصَّالحين ، وكذلك الأخلاق غير الحسَنة ، قال الغزالي: الطّبعُ يسرقُ منَ الطّبع الشّرَّ والخيرَ جميعاً[(١)].

* ويبدو أنَّ الغزالي كان من علماءِ النَّفس الماهرين ، وممن سبَروا نفسيّة الطّفل ، وعرفُوا شفافيتها وتأثّرها بمن حولَها ، لذا فقد نبّه ألّا يخالطَ الطفلُ ذو الحياةِ العاديّة الأطفالَ الذين يرفُلُون في نعيمِ النّعمةِ فقال: ويُحْفظُ الصَّبيُّ منَ الصِّبيانِ الذين عُوِّدوا التَّنعّم والرّفاهية ، ولبس الثّياب الفاخرة[(٢)].

* وقد نبّه العُلماء والفُقهاء من قبلِ الغزالي إلى تأثّر الطفل بغيرِه سَلباً أو

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٥٨).
(٢) المصدر السابق عينه (٣/ ٧٠).

إيجاباً ، فقال إبراهيم الحربيّ ـ رحمه الله ـ: أوّلُ فسادِ الصّبيان بعضُهم منْ بعض[1]. وقال ابنُ الجوزي عن تأثّر الطفل بغيره: وليُحْمَلْ على صحبةِ الأشرافِ والعُلماء ، وليحذَّرْ من مصاحبةِ الجهّال والسّفهاء ، فإنَّ الطّبعَ لصٌّ[2].

* إنَّه لا يُقْصَدُ من تحذيرِ العُلماء للطّفل عن أقرانِه ، وعن أترابِه عَزْلُه وحَجْرُه للمحافظةِ على أخلاقه وسلوكِه ، وإنّما يحسُنُ اختيار الرّفْقَةِ الطَّيّبةِ والقدوة الحسنةِ له ، لأنَّه يتعلَّم منهم كيف يعاملُ غيره ، وكيف ينجحُ في حياته العمليّة في المجتمع .

* ويسعى الأبُ والمربّي في جِدٍّ لمصلحةِ الطّفل ومَنْ يلوذُ به ، فيعملُ على تكوينِ مجتمعٍ صغيرٍ صالحٍ منْ أقربائِه وجيرانه وأصدقائِه الطّيّبين ، ويحاولُ أنْ يوطّدَ العلاقاتِ فيما بينهم ، وأن يكثرَ من الزّياراتِ واللقاءاتِ المنظّمة ، ولتكن أسبوعيّة بعيداً عن ضغطِ الحياةِ والكبارِ ، فيعيشون بعضَ الوقتِ في جوٍّ من الحريّةِ الموجَّهة المدروسَةِ .

* ويستطيعُ الأبُ النّاجح في تربيةِ أطفالهِ أنْ ينسّق مع أصدقائِه منَ الآباء لقاءاتٍ تربويةً ثقافيةً ، وأن يُعِدّوا للأطفالِ برنامجاً ثقافياً معرفياً يخدمُ ملكات الطّفل ، وينمّي معارفَه العامّة ، وفي مقدمتها علوم القُرآن والحديث الشّريف والسّيرة العطرة ، ثم التّاريخ الإسلامي ، والمعارف العامّة المفيدة من سائرِ المواد التي يمكنُ أنْ يدركَها الأطفالُ ، ولا ننسى أنَّ مثلَ هذه البرامج تغرسُ روحَ التّنافسِ المحمودِ بين الأطفال ، وربّما تدفعُ بعضهم إلى البحثِ والحفْظِ لكثيرٍ من الآياتِ القُرآنيّة ، والأحاديثِ النّبويةِ الشّريفةِ ، والأناشيدِ الجميلةِ الهادفة ، والقصائدِ التي تزيدُ من ثروتِه اللغوية .

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص ٩٧).

(٢) صيد الخاطر (ص٢٢٠).

* وفي سبيلِ تقويةِ أواصرِ الأُلْفَةِ والمحبّةِ بين الأطفالِ ، وأصدقائهم منَ الصّالحين والمؤدّبين ، يلجأُ الأبُ والمربّي إلىٰ أسلوبٍ لطيفٍ ، فيحثُّ أطفالَه على دعوة أترابهم إلى المنزلِ في بعضِ الأحيان لتناولِ الطّعام ، ويظهرُ البهجةَ بمقدمهم ، ولا يكثرُ الجلوسَ معهم لئلا يحجزَ حرّيتهم ، ويحثّهم على أنْ ينهلُوا من زادِ المعرفةِ ، وأن يستغلّوا وقتَهم فيما هو نافعٌ ومفيد.

* وبمثلِ هذه التّربية الخُلقيةِ الهادفةِ للطفل ، يجعل الأبُ من أطفالِه عناصرَ نافعةً في المجتمعِ يفيدون ويستفيدون ويكونون رجالَ الغدِ الذين تُعْقَدُ عليهم الآمالُ.

٥ ـ التّربيةُ الخُلقيّةُ للطّفْل معَ العُلَماءِ والمُعَلِّمين:

* لو قلتُ إنَّ هذه الفقْرةَ من أهمّ فقْراتِ هذا الفصل لما كنتُ مُغالياً ، لأنَّ الطفلَ إذا تربّى تربيةً قويمةً على احترامِ العلْمِ والعُلماء والمعلّمين لحصل لدينا خيرٌ كثير ، ولكانتِ الدنيا بألفِ خير ، لأنَّ العلمَ نورٌ يضيءُ النَّفسَ والطَّريقَ ، وهو سعادة في الدُّنيا والآخرة.

* فالعلماءُ والمعلّمون هم أولياءُ اللهِ وأحبابُه ، وهم أعلمُ النَّاس به ، وهم أهلُ خشيته ، وإنَّ منْ زادَ علمُه باللهِ عزَّ وجل ، وعرفَ عظمتَه وقَدْره ، وقعتْ في نفسهِ الخشية منه ، وقد وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ العلماءَ العالمين به بالخشيةِ فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ وفي السُّنَّةِ المطهَّرة يبيّنُ رسولُ اللهِ ﷺ فَضْل العُلماء والفقهاء على غيرِهم من سائرِ الناس ، وكيف أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أرادَ لهم الخير والفضْل ، فيقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيراً يفقّهُ في الدِّين»[١] فالعلماءُ والمعلّمون لدينِ الله هم موقعُ رحمةِ الله وفضْلِه ، وهم أهلُ المنزلةِ الرّفيعةِ ، والقَدرِ

(١) أخرجه الترمذي في العلم برقم (٢٦٤٥) والحديث حسن صحيح.

الكريمِ ، قال ابنُ رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ: إنْ لم يكنِ العلماءُ والفقهاءُ أولياءَ الله فليسَ لله وليّ.

* ولمّا كانَ العلماءُ والمعلِّمون بهذا القَدْر وهذه المكانة الفريدةِ ، فإنَّه تقعُ على المربّي مسؤوليةُ تربيةِ الطفلِ على احترامِهم وتوقيرهم ، وعلى حبِّهم وطاعتِهم ، وقد أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بتعظيم حقّ العالمِ ، ومعرفةِ منزلته فقال: «ليس منّا مَنْ لم يجلّ كبيرنَا ويرحمَ صغيرنا ويعرفَ لعالمنا»[1] أي يعرفُ قَدْرَ وفضْلَ العالم. ولذلك أشارَ سهلُ بنُ عبد الله التّستري ـ رحمه الله ـ إلى أنَّ صلاحَ الدنيا والآخرةِ في تعظيم السّلطان والعلمِ فيقول: لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما عظّموا السَّلطانَ والعُلماء ، فإذا عظّموا هذَيْن أصلحَ اللهُ دنياهم وأُخْراهم ، وإذا استخفّوا بهذين أفسدَ دنياهم وأخراهم[2].

* وعلى المربّي أن يلفتَ نظرَ الطّفلِ ويربّيه على حبّ العُلماء والفُقهاء والمعلمين ، فيذكر فضائِلهم عند اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومحاسنَ أفعالِهم ، وأفعالَهم الحسنة ، حتى يقعَ في نفسِ الطّفل حبَّهم وتوقيرهم ، ولا مانع من أن يذكر أسماءهم ليحفظوها ، كأن يشير إلى علماء الصحابة ، وإلى العبادلة الأربعة ، وإلى فقهاء المدينة السبعة ، وإلى الأئمة الأربعة ، وغير هؤلاء من العلماء الذين عملوا لنشر العلم في الدنيا.

* ويرسم المربي في نفس الطفل صورة العلماء ، ويعمل على إبراز أهم سماتهم ، ويوقع مهابتهم في قلبه ، فينشأ محباً لهم؛ يقدرهم ويحترمهم ، وخصوصاً إذا حضر الطفل مجالس العلماء ، ورأى احترام الناس لهم ، لما يقدمونه من زاد معرفي وعلم ومواعظ؛ ويشرح المربي للطفل فوائد المجالس العلمية ، ويشير إليه بأن ملازمة أهل العلم والفقه ، ومزاحمتهم

---

(١) المستدرك على الصحيحين (١/ ١٢٢).
(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٥٩ و٢٦٠).

هي إحدى نصائح لقمان لابنه ، فقد ورد أن لقمان قال لابنه : يا بنيّ جالسِ العُلماءَ وزاحِمْهم بركبتَيْكَ ، فإنَّ الله يُحيي القُلوبَ بالحكمةِ كما يحيي الأرضَ الميتةَ بوابلِ المطَر[1] .

٦ ـ التَّربيّةُ الخُلقيّةُ للطِّفْل مع غَيْر المُسْلِمِيْن :

* الإسلامُ دينُ الفطرةِ ، والإسلامُ هو الدِّيْنُ الذي ارتضاهُ اللهُ لخلْقِهِ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ؛ وقد نظَّمَ هذا الإسلامُ حياةَ المسلمِ في جميعِ شؤونِه ، وحدَّدَ له طبيعة السُّلوكِ الذي ينتهجُه مع غيرِه منَ النَّاس ، وكما أنَّه وضعَ له التَّربيةَ الخلقيّةَ في تعاملهِ مع المسلمين بكافَّةِ طبقاتِهم ، فقد وضعَ له كذلك نهجاً وتربيةً وأُسلوباً في تعاملهِ مع غيرِ المسلمين من مختلفِ المِلَلِ والنِّحل؛ وعرَّفَ الأبَ والمربي بالسُّلوكيّاتِ التي ينبغي له أنْ يبثَّها في نَفْسِ الطِّفل ، ليعرفَ كيف يعاملُ غيرَ المسلمين في الحدودِ التي شرعَها الإسلام .

* وعلى المربّي الواعي أنْ يعرفَ الطّفلُ مَنْ يحبُّ ومَنْ يكْرهُ ، من خلالِ ما وردَ في القرآن الكريمِ ، والسُّنَّة المطهّرة ، كأنْ يشرحَ له حقيقةَ الكُفَّار وأحوالَهم ، وخطَر أعداءِ الإسلام الذين يعبدونَ مع الله آلهةً غيره ، وينسبون له الولدَ والشَّريك ، ويكذبون ويلوّثون الحقائق بالتَّزوير ، لذا فلا تجوزُ موالاتُهم ، وقد أمرَ اللهُ المؤمنينَ بعدم اتّخاذِهم أولياءَ فقال : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ . . . ﴾ [المائدة : ٥١] .

* ويحاولُ الأبُ والمربّي تعريفَ الطّفلِ بمظاهرِ انحرافِ الكفَّارِ والمشركين في الأخلاقِ ، والآدابِ العامّةِ ، والسُّلوك الملتوي من انتشارِ الفواحشِ بينهم ، وعدم وجودِ الوازع الدِّيني أو الأخلاقي عندهم ؛ وحبّهم

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١) .

للعداوةِ والعدوانِ ، ويذكُرُ المربّي للطّفل سلسلةً من قَصصِ السِّيرةِ النَّبوية ممّا وردَ من غَدرِ اليهودِ لرسولِ الله ﷺ ، وكيفَ تآمروا على قَتْلهِ ، وكيف آذوه ، ونقضُوا العهودَ والمواثيق معه ﷺ ، لأنَّ ذلك طبعهم ، ولأنَّ الغدرَ من طبيعةِ نفوسهم.

* ويجدرُ من الأبِ أنْ يعرّفَ الطّفْلَ ببُغْضِ الله عزَّ وجلَّ لليهود ، وأنَّهم أعداؤُهُ ، وأنَّ أولياءَه هم المتّقون ، ولذا فيركّزُ الأبُ في نفسهِ حبَّ الخيرِ وأهله ، وبغْضَ الشَّرِّ وأهله ، مستغلاًّ ما جاء في القُرآن الكريمِ في هذا المجال؛ ومركزاً على عدمِ الاختلاطِ بهم ، ورؤيتهم الدّائمة ، حتى لا تصبحَ رؤيتُهم أمْراً طبيعيّاً ، ولا يستنكر ما يقومون به من القبائحِ والمخالفاتِ.

* ويجبُ على المربّي أيضاً أنْ يعلِّمَ الطّفلَ ويربّيه على ما وردَ في السُّنَّة في معاملتِهم والسَّلام عليهم ، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «لا تبدؤُوا اليهودَ والنَّصارى بالسَّلامِ ، وإذا لقيتُم أحدهم في الطَّريقِ فاضطروهم إلى أضيقهِ»[1] ، وإذا اضطر المسلمُ إلى ابتدائهم بالتَّحيّةِ فيقول: أنعمَ اللهُ صباحَك ، أو نحو ذلك[2]. أمّا اسمُ السَّلام الذي هو اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ الحُسنى ، فلا يكونُ لهم ، بل للمسلمين. ويجتهدُ الأبُ أو المربّي في اختيارِ الأسلوبِ المناسبِ الذي يحقّقُ فيه الفكرةَ السَّابقةَ ، ولا يكنْ فظّاً مع الطِّفْل في تطبيقها لئلا تنعكسَ الصُّورةُ في نفسِ الطّفلِ؛ لأنَّ بعضَ الأُسَر تصحبُ أطفالَها إلى البلادِ الأجنبيّة ، وتخالطُ الكفَّار لمصالحَ خاصّة من عملٍ أو وظيفة أو ما شابَه ذلك ، وقد يرى الطّفل هناك بعضَ مظاهرِ جمالِ الحضَارة من مَسْكنٍ ، ومركَبٍ ، وقد يرىٰ على وجوهِ القومِ الابتساماتِ المرتسمةِ ، واللطافة المُصطنعة ، والتّعامل اللين مع غيرهم ، ويكمُنُ وراءَ

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٦٠٢).
(٢) انظر كتاب: البركة في فضل السعي والحركة (ص ١٩٤).

هذا التّعامُلِ المَكْرُ والدّهاءُ ، وكلّ هذه الأشياء قد تخدعُ الكبير فما بالك بالطِّفلِ الوديع؟! لذا فالأبُ الواعي يتجنَّبُ الوقوعَ في شَرَكِ هذه المصَايدِ ، ويُجنّبَ أطْفَالَه ذلك بتوضيحِ صورة الكفّار ، وهدفهم من هدمِ القيمِ الأخلاقيّة.

* وهناك ناحيةٌ مهمّةٌ وخطرة ، وهي التَّشبُّه بالكفّار ، وينبغي على المربّي أنْ ينتبهَ لذلك الخَطر الذي يدهمُ العالَمَ الآن ، وخصوصاً في وسائلِ الإعلامِ المتنوّعة والمتطوّرة ، والتي تعرضُ العجائبَ والغرائبَ وربّما يتأثَّرُ الأطفالَ بها بعضَ التّأثير بما يرى ويسمع ، وقد يتشبّه ببعضِ الشّخصيّات السَّاقطةِ إذا لم يجدْ مَنْ يحذّره مِنْ ذلك ، وقد تنبّه ابنُ خلدون إلىٰ هذا الخطرِ قديماً ، ولفَتَ النَّظَر إلى خطرِ التشبّه بالقوي الغالب فقال: ترىٰ المغلوبَ يتشبّه أبداً بالغالبِ في ملبسهِ ومركبهِ وسلاحهِ ، وفي اتّخاذها وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله[1].

* وهناك قضايا كثيرة في هذا المجالِ يمكنُ للأبِ أنْ يشرحَ مخاطرهَا للطّفلِ ، حتى لا ينزلقَ في مخاطرِ الكفّار ، أو يقعَ في مصايدهم.

* ولكن هناك فكرة مهمّة يحسنُ بالمربي أنْ يعرضَها على الطّفل عند الحاجةِ ، إذ ينبغي عليه أنْ يفهمَه أنَّ التّعاملَ مع الكفّارِ أو أهل الكتاب الذين يعيشون في بلادِ المسلمين لهم حقٌّ أنْ يعامَلُوا بحكمةٍ ورويّة ، وأنْ يُجادَلوا بالتي هي أحسَن ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وإذا لم يكنْ أولئكَ الكفَّارُ وأهلُ الكتاب منَ الظَّالمين أو المحاربين المعتدين تَحْسنُ دعوتهم إلى اللهِ بالحكمةِ الهادئةِ الهادفةِ ، والموعظةِ

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ١٠٢).

الحسنةِ المؤثرة ، من دون خشونةٍ أو غلظةٍ أو فَظاظةٍ ، مع إقامةِ الحجّة عليهم ، فلعلَّهم ينظرون إلى ما هم فيه من الضَّلال والانحراف ، فيسلمُوا ويكونوا مؤمنين بفضلِ الله ثمّ بالحكمة والموعظة الحسَنَةِ ، وقد أجمعتِ الأمّةُ على جوازِ معاملة الكافرِ المستأمنِ معاملةً حسَنةً بقَصْدِ هدايتهم إلىٰ الخيرِ ، ويدخل في هذا عيادة مرضاهم ، وقبول هداياهم ، وزيارتهم في منازلهم ، ونحو ذلك.

* وعلى الأبِ أنْ يذكّرَ الطّفلَ والابنَ دائماً بهذه الأمورِ ، وألا يملَّ ، وأنْ يشرحَ له قولَ الله عزَّ وجلَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلَت: ٣٣]. ولا مانعَ أنْ يقرأَ عليه عدداً من الأحاديثِ النّبويةِ الشَّريفةِ التي تتحدَّثُ عن هذا المجالِ ومنها ما جاء في الصَّحيح قوله ﷺ: «فو اللهِ لأنْ يهديَ اللهُ بك رجلاً خيرٌ لك من أنْ تكون لك حمر النّعم»(١)؛ ولكي يكملَ العقد اللطيف مع الطّفلِ في هذا الميدانِ يروي له قصصَ بعض الصَّحابة الأخيار ، من مثلِ مصعبَ بنِ عُمير رضي الله عنه في دعوتِه أهل المدينة إلى الله ، وقبلَه يروي له دعوة صِدّيق الأمّة وشيخِ الصَّحابة سيّدنا أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ وغيرهما من الصَّحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦).

الفصلُ الرّابع
الطِّفْلُ والتَّربيَةُ الخُلقيّةُ في الطَّعَامِ والشَّرابِ

* لعلَّ سَائِلاً يسألُ: ما علاقةُ الطّعامِ والشَّرابِ بالتّربيةِ الخُلقيّةِ للطِّفلِ؟!

* وللجوابِ عن هذا السُّؤالِ وأمثاله نقولُ: إنَّ الحياةَ السَّعيدةَ للطّفلِ مكتملةُ النَّواحي، والطّعام والشَّراب من الأشياءِ الكثيرة في حياةِ الطّفلِ اليوميّة، بل حياة الإنسان والبشريّة جميعاً، وعلى الطّفلِ أنْ يعرفَ أدبَ وخلقَ الطّعام والشّراب في ضوءِ القرآنِ والسُّنَّة ليدركَ اهتمام الإسلام بصحّتهِ وجسمهِ، وعنايته بكافّة أحواله.

* إنَّ الإنسانَ المسلمَ مسؤولٌ عن أطفالِهِ، وعن رعايتهم، وتوخّي الحلال من الطّعامِ والشَّراب، لينبتَ أطفالَه نباتاً حسَناً مباركاً، لأنَّ الحلالَ الطيّبَ منَ الرّزق شرطٌ رئيسي لتمام تحقُّقِ الفائدةِ من المأكلِ والمشربِ في الحياةِ الدنيا، وفي الآخرة، وقد أشارَ النّبيّ ﷺ إلى أنَّ مَنْ أكلَ الحرامَ لن يدخلَ الجنَّة فقال: «لا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ نبت لحمُه من سحتٍ، النّار أولى به»[1]. إذاً، فتحرّي الأب للحلالِ في مأكلِ ومشرب أطفالِهِ وأهلِه، هو إنقاذٌ له ولهم من غضَبِ اللهِ ونارِه، كما أنّه إنقاذٌ لهم منَ الضّلالِ والهلاكِ، لأنَّ ما يتناولَهُ الإنسانُ من طعامٍ وشرابٍ له تأثيرٌ على جسمهِ وروحهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٩٩).

* وقد ثبتَ في الصَّحيح أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رأى حفيدَهُ الحسنَ بنَ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ قد وضع في فمهِ تمرةً من تمرِ الصَّدقة ، فزجره قائلاً : «كخ كخ ، أمَا تعرفُ أنَّا لا نأكلُ الصَّدقة»[1]؟! .

* وفي الذّكْرِ الحكيمِ يأمرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين أنْ يحرصوا على الرِّزقِ الطَّيِّبِ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

* ومن خلالِ هذه النُّصوص يقومُ الأبُ والمربّي بشَرْحِ التَّربيةِ الخُلقيّةِ في أدبِ الطَّعامِ والشَّراب للطّفل ، ويحكي له قصصَ بعض الصَّحابة الذين كانوا يتحرّون الحلالَ من الطَّعامِ ، ويحرصون غايةَ الحرصِ عليه ، لئلا يدخلَ جوفَهم شيءٌ منَ الحرام .

* ومنَ خلالِ رحلةِ التَّربيةِ الخلقيّةِ مع الطَّعام والشَّراب ، يبثُّ المربّي الهديَ النَّبويَّ بذلك ، ويشرحُ للطّفل الآدابَ المحمديّةَ والتّوجيهاتِ النّبوية ، كالاجتماعِ على الطّعام وذِكْر اسم الله ، ومعرفةِ هيئة الجلوس ، فلا يجلسُ الطّفلُ متّكئاً ، لأنَّ الهديَ المحمديَّ منعَ ذلك ، فقد جاء في الصَّحيح أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : «لا آكلُ متكئاً»[2] ، ويحذّرُ المربّي الطّفل من تناولِ الطّعام قائماً أو منبطحاً على وجهه ، فقد وردَ النّهيُ بشدّةٍ عن ذلك ، كما جاءَ في الصَّحيح[3] والسُّنن[4] .

* ويكونُ الأبُ أو المربّي قدوةً في تربيةِ الطّفْلِ في الجلوسِ للأكلِ ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٩٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ، باب الأكل متكئاً (٧/ ٩٣) .
(٣) انظر مثلاً : صحيح مسلم ، كتاب الأشربة ، باب كراهية الشرب قائماً حديث رقم (١١٣) .
(٤) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب النهي عن الأكل منبطحاً ، حديث رقم (٣٣٧٠) .

فيغسلُ جميعهم أيديهم قُبيل تناولِ الطّعام ، ثم يذكرونَ اسمَ الله عزّ وجلّ بقولهم: بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا مانعَ من تعليمِ الطّفلِ بعض أدعيةِ الذّكْر قبل الطَّعام ، من مثلِ ما وردَ في السُّنَن: «اللهم باركْ لنا فيه وأطعمْنَا خيراً منه»[1] ، كما يعلّمه أن يأكلَ بيده اليُمنى ، ولا يأكلَ بيدهِ الشّمال ، لأنَّ الأكلَ بالشّمال منهيٌّ عنه ، لما وردَ في الصَّحيحِ عنه ﷺ: «لا تأكلُوا بالشّمال ، فإنَّ الشَّيطانَ يأكل بشماله»[2] ، وهذه التّربيةُ العظيمةُ ترجعُ إلى الأخلاقِ الإسلاميّةِ التي تجعلُ من الإنسانِ فرداً صالحاً في جميعِ ما يتصرّف به من أعمال ، لأنّه وردَ أنَّ لليَديْن أنواعاً من المهمّات ، فالأعمالُ الحسَنَةُ الخيرةُ تختصُّ بها اليد اليُمنى ، والأعمال المتّصلة بالقَذاراتِ وما أشْبه ذلك فتختصُّ بها اليدُ اليسرى؛ ولا يستخفُّ الإنسان بتعويد طفله على ذلك ويقولُ إنَّ هذه الأعمالَ لا قيمة لها ، بل يسعى جاهداً على تطبيقِ ما جاء في الصَّحيح في هذا المجال ، لأنَّ ما جاءَ به الصَّحيح هو الصَّحيح؛ وهو ذِروةُ التّربية ورأسُ الأخلاق.

* وقد نجدُ أحياناً بعضَ الأطفالِ يعبثون على الطَّعام ، أو نجد طفلاً لا ينضبطُ أثناءَ الأكل ، ويشاغبُ على من حولِ المائدة ، وتطيشُ يده ذات اليمين وذاتَ الشّمال ، وهنا يسمعُه المربّي حديثَ النّبي ﷺ في تربيةِ عمر بن أبي سلمةَ ـ رضي الله عنهما ـ الذي تربّى في حجْرِ النّبي ﷺ ، وكانت يدُهُ تطيشُ في الصَّحْفَةِ ، فقال له: «يا غلام ، سَمِّ الله ، وكُلْ بيمينك ، وكُلْ ممّا يليك»[3].

* ومن ألوانِ التّربيةِ العظيمةِ للطّفلِ أنْ يحذّرَه المربّي من أنْ يعيبَ طعاماً ، أو يقول: لا أحبُّ هذا النّوع منَ الأكلِ ، بل يعلّمه السُّنَّة بذلك

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٥٥)؛ والحديث حسن.
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة برقم (١٠٤).
(٣) أخرجه مسلم في الأشربة برقم (١٠٨).

وبأنَّ النَّبيَّ ﷺ ما عابَ طعاماً قطّ ، إن اشتهاهُ أكَلَه ، وإنْ كرهه تركَه[1].
كما يعلّمه أنْ يحمدَ الله إذا انتهى منَ الطَّعام ، ويستنَّ بسنّةِ النّبي ﷺ فيقول مثله ويدعو بدعائه: «الحمدُ للهِ الذي أطعمَنا وسقَانا وجعلَنا مسلمين»[2].

* وتؤتي التربيةُ الخلقيةُ للطّفل أُكلها إذا اتَّبع المربّي التّربيةَ الإلهيّةَ في مجالِ الطَّعام والشَّرابِ ، فلا يتركُ الطّفل يأكلُ دون وعيٍ ودون انتباه ، ولا ينبغي للطّفل أنْ يتعوّد على الإكثارِ من الطَّعام ، لأنَّ الأكْلَ الكثيرَ يثبّطُ الهمّة ، ويسبّبُ البلادةَ ، ولا يساعدُ على التّفكيرِ الصَّحيحِ ، ويجلبُ الخمولَ ، ويحبّبُ إلى صاحبه النومَ والكسَل؛ كما أنَّ الإفراطَ في تناولِ الطَّعام والشّره في الأكلِ والشُّربِ ، وعدمِ النّظامِ والانضباطِ في ذلك ، يسبّبُ السُّمنةَ غير العادية وزيادة الوزن والتّرهّل ، ويقولُ الأطبّاء المتخصّصون: إنَّ السُّمنةَ إذا زادتْ عن الحدِّ المعقولِ في الطّفلِ ، فإنّها خطرٌ على صحّتِه وحياتِه ، وتجعلُ جسمَه معرّضاً لشتّى ألوانِ الأمراضِ وأنواعها ، وهي ظاهرةٌ غير حضاريّة.

* وممّا تسبّبه السُّمنةُ للطّفل ، أنّها تجعلُه في معزلٍ عن أترابهِ ، فلا يستطيعُ أنْ يشاركَهم في ألعابِهم التي تعتمدُ على الحركةِ والخفّةِ ، وإذا مارسَ بعضَ الألعابِ معهم فإنّه ينهارُ ويتعبُ ، يُضافُ إلى ذلك أنّه يصبحُ ألعوبةً وسخريةً عند زملائهِ ، وقد يُطلقون عليهِ بعضَ الألقابِ غير المستحبّة مثل: دبّ ، فِيْل ، حُوت ، أو ما شابَه ذلك ، وهذا بالتّالي يسبّبُ عند الطّفل السَّمين الانزواءَ والإحباطَ النّفسي أحياناً ، وعلى المربّي[3] أنْ ينتبهَ إلى هذه الظَّاهرةِ خصوصاً إذا كان في ميدانِ التَّعليم أو التَّربية ، فإنّه يستطيعُ أنْ يوجّهَ الطّفل توجيهاً سليماً من خلالِ القَصَصِ الهادفةِ والوسائلِ المعينة

---

(١) انظر في هذا صحيح البخاري (٧/ ٩٦).
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات برقم (٣٤٥٧).
(٣) نقصد بالمربي: الرجل الأب والمرأة الأم لأنَّهما مسؤولان عن تربية الطفل.

وقراءة بعض الآياتِ القرآنيةِ التي تأمرُ بعدم الإسرافِ كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ويذكّره هنا بأهميّة التّسمية قبل الأكلِ، وهناك توجيهاتٌ أخرى يمكنُ علاج الطّفل السّمين من خلالها، وهي تحديدُ كميّة من الطَّعام له، وتعريفه بأنَّ الطَّعامَ يؤكلُ لدفْعِ عضّة الجوع لا للتّلذذ دائماً، فهو كالدّواء لدفع ألَمِ الجوع.

* وكما أنَّ المربّي يؤدّي واجباتِهِ التَّربوية والخُلقيّة في تعليم الطّفل آدابَ الطَّعام، كذلك يفعلُ في الشّرب، كأنْ يربّيه على أنْ يبدأَ بالبسملةِ عند الشّرب، وألا يشربَ قائماً، وألّا يتنفَّسَ في الإناء ـ ونحنُ نرى كثيراً منَ الأطفالِ يفعلون ذلك ـ وهنا يذكرُ له المربّي الهديَ النَّبويَّ في ذلك: «إذا شربَ أحدُكم فلا يتنفَّس في الإناء»[1] كما يدلّه على أنَّ الشُّربَ على ثلاثِ دفَعَات هو من السُّنَّةِ النّبويّة، ويكونُ المربّي قدوةً صادقةً للطّفل بذلك.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة (٧/ ١٤٦).

الفصْلُ الخامسُ
الطِّفْلُ والتَّربيَةُ الخُلقيّة في النَّظافَةِ

* وجَّهَ الإسلامُ عنايةً متميزةً للنَّظافةِ الظَّاهرة والباطنةِ ، إذ هي الأساسُ لكلّ زينةٍ حسنةٍ ، ومظهرٍ جميل.

* والمسلمُ مأمورٌ بالنَّظافةِ بعامّة وبالنَّظافة الجسميّة لأداءِ الواجباتِ الدّينية كالصَّلاةِ ، وليس هذا عجَباً في دينٍ جعَلَ النَّظافةَ والطَّهارةَ مفتاحاً لأُوْلى عباداتِهِ وهي الصَّلاةُ ، إذ لا تُقْبَلُ صلاةٌ من مسلمٍ طفلاً كان أو رجلاً حتى يكون جسدُه طاهراً ، وثوبُه نظيفاً ، والمكان الذي يصلّي فيه كذلك.

* ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ النَّظافةَ نوعان: نظافةٌ مادّيّة ، ونظافةٌ معنويّة.

* فالنَّظافةُ الماديةُ: هي أنْ يحرصَ الإنسانُ حرصاً شديداً على نظافةِ بدنِه ، وملبسِهِ ، وطعامِه ، وشَرابه ، وسائرِ حاجاتِهِ الأخرى منَ الأقذارِ والأوساخِ والنَّجاسات.

* والنَّظافةُ المعنويّةُ: هي سلامةُ القلبِ ونقاؤُه ، وصفاء النّفسِ منَ الأخلاقِ المذمومةِ والدّنايا كالحَسَدِ ، والبُخل ، والرّياء ، والأنانيّة ، وسوء الظَّنّ ، وفسادِ النّية ، وما شابه ذلك.

* وقد اهتمَّ الإسلامُ بالإنسانِ وصحّته ، ودعا القرآنُ الكريمُ إلى الأخذِ بالتّدابير العمليّة للوقايةِ منَ المرضِ ، وحفظ صحّة الإنسان ،

ودعا إلى تنظيفِ الجسم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ . . .﴾ [المائدة: ٦].

* فالصّلاةُ تعتمدُ على القواعدِ الصّحيّة في أدائها، وفي مقدّمتها النَّظافة، حيث إنَّ المسلمَ مُطَالبٌ بأداءِ خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، وهذه الصَّلوات الخمس لا تصحُّ إلا بالوضوء، والوضوء نظافةٌ وطهارةٌ، ومع الوضوء يستخدمُ المسلمُ السِّواك، لأنَّه يحافظُ على الأسنانِ واللَّثَة، ويقاومُ المرضَ، ويزيلُ الجراثيمَ، ويقطعُ الرّوائحَ الكريهةَ المنفّرة، ويزيلُ أيضاً الفضلاتِ الموجودة عقبَ الطَّعام.

* وفي الاستنشاقِ والاستنثارِ تنظيفٌ لمسالكِ الدَّورةِ الهوائية، وغسْل الوجْهِ ثلاث مرّات يجعلُه نظيفاً من الغبار والأقذار، وكذلك غسْل اليدَيْن والرّأس؛ وفي غسْلِ الرّجليْن إلى الكعبين نظافةٌ أيضاً، لما قد تتعرضان له من ملامستِهما للتُّراب والغبار والأذى والرّائحة التي قد تعلقُ بهما، ولا تزولُ إلا بالغسْلِ والنَّظافة.

* والطِّفلُ الصغيرُ لا يمكنُ أنْ يعيَ هذه القضايا وهذه المعاني الكريمة في النَّظافة والطَّهارة؛ ومربّيه هو المسؤولُ عن رعايته، وعن نظافتِه، وتعليمِهِ وتوجيهه إلى ذلك حتى ينشأَ على ما تعوّدَ؛ ويتكلَّفَ ذلك بنفسه.

* وعلى المربّي تقعُ المسؤوليّة في تربيةِ الطّفل على النَّظافةِ والطَّهارة، فيبيّن له اعتناءَ الإسلامِ بالطَّهارة وبنظافةِ الجسدِ في شتّى المجالاتِ، حتى في الموتِ، فإنَّ غسلَ الميّتِ كرامةٌ له، ليلقىٰ المؤمنُ اللهَ عزَّ وجلَّ، نظيفاً طاهراً، مطيَّباً.

* ومن ألوانِ النَّظافةِ ومظاهرها التي ينبغي للمربّي أن يذكرَها للطّفْلِ؛ الاهتمامُ بمنظر الإنسان، وتحسين مظهره، وملبسهِ في البيتِ والمجتمعِ وفي الجمعة والعيدين.

* وفي السُّطور التَّاليات سنقف وقفات لطيفة مع التّربية الخلقية للطِّفل في تعليمه أنواع النَّظافة.

١ ـ الطِّفلُ ونظافَةُ الجَسَد والملبس:

* لا شكَّ في أنَّ الماءَ الطَّهورَ أساسُ النَّظافةِ، قال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]؛ ويتطهّرُ الإنسانُ بالماءِ من جميعِ ما يلمُّ به من أدرانٍ وأوساخٍ، تصيبُ بدنَه أو ثوبَه أو مسْكنَه، وعلى المربّي الحصيف أنْ يوجّهَ الطِّفلَ إلى هذه الأمورِ، وأنْ يذكّرَه دائماً بالأسوةِ الحسنَةِ والقدوةِ الرّفيعةِ، سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ الذي كانَ أنظفُ البشر وأطيبُهم ريحاً وأكثرهُم محافظةً على الكمال في كلّ كمال، فصلّى الله عليه وسلم وحشَرنا في معيّته.

* فرسولُ اللهِ ﷺ هو القدوةُ الحسنةُ للمسلمين رجالاً وأطفالاً، وعلىٰ المربّي أنْ يغرسَ هذا المفهومَ بنفسِ الطّفل تربيةً وسُلوكاً وعملاً، ويعرّفه بأنّه ﷺ كان القدوة في كمالِ هيئته، وفي نظافةِ جسمه، وملابسه، فهو ﷺ أكملُ بشَرٍ خلقه اللهُ عز وجل، وبعثَه للنَّاس إماماً، ورحمةً، وقدوةً في جميع الأمور، ولذا فقد قالَ ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ في ذكرِ نظافَتِه وطيْبِه: كانَ النّبيُّ ﷺ أنظفَ الناسِ، وأطيبَ الناس، وفي الحديث عنه ﷺ يرفعُ يديه، حتى تبينَ عفرةُ إبطيه.....، وكان لا يفارقُه السِّواك، وكان يكره أنْ تُشَمَّ منه ريحٌ ليستْ طيّبة[١].

* ويذكر المربّي أيضاً للطِّفْل أنَّ النّبيَّ ﷺ كان بالإضافةِ إلى نظافتِهِ، يوجّهُ غيره إليها، وينكرُ على من أهملَ النَّظافة في بدنِه وشعره ولباسه؛ فقد رأى ذات مرّةٍ رجلاً وسخَ الثّياب فقال: «أمَا يملكُ هذا أنْ يغسلَ ثيابه»[٢]؟!

---

(١) انظر: صيد الخاطر (ص ١٠١) بتصرف يسير.

(٢) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (ص ٣٤٨).

ورأىٰ رجُلاً لم يعتَنِ بشعره حيث كان ثائر الرأْس فقال: «لِمَ يُشوِّهُ أحدكم نفْسَه»[1]؟! . بل حضَّ ﷺ على النَّظافةِ المنظّمة ، وجعل غسْلَ يومِ الجمعة واجباً على مَنْ تعدّى سِنّ الطُّفولة فقال: «الغسلُ يوم الجمعةِ واجبٌ على كُلّ محتلم»[2]؛ وأشارَ ﷺ إلىٰ النظافةِ والاغتسال مرّةً على الأقل في كلّ أسبوعٍ ، فقد جاءَ في الصَّحيح أنَّه قال: «لله تعالى على كلّ مسلمٍ حقّ أنْ يغتسلَ في كلّ سبعةِ أيّام يوماً»[3].

* إنَّ هذه الأدلّة والنّصوص يستغلُّها المربّي ، ويعلّمُ الأطفالَ على سلوكها ، وهي وإن كانت لا تعمُّ الأطفالَ إلاّ أنّه يُستحبُ الغسلَ لمن أتىٰ الجمعة منَ الصِّبيان وغيرِهم ممن لا تجبُ عليهم[4]. والمربي مسؤولٌ عن إحياءِ هذه التّربيةِ العظيمةِ في نفوسِ الأطفال ، فيعودهم غسْلَ يوم الجمعة ، ولبْسَ أنظفِ الثّياب وأحسنِها ، حتى تكونَ النَّظافةُ ديدنَه وشعاره؛ ولا يكتفي الأبُ أو المربّي بنظافةِ الطّفل الأسبوعيّة ، بل يعلّمه ويعوّده على كثرةِ الاغتسالِ وحبّ النَّظافةِ من غيرِ إسرافٍ أو وسوسة ، بل يسلكُ في ذلك التّوسُّط بين النَّقيضَيْن ، ويحافظُ على الطِّفلِ من الإفراطِ أو التَّفريط ، خشية أنْ يُصابَ بالوسوسة.

* ومع الاهتمامِ بنظافةِ الجسم يعوِّدُ المربي الطّفْل على الاهتمام بنظافةِ الثّوب ، والملابس ، ليكونَ حَسَنَ الهيئةِ في البيتِ والمدرسةِ والأماكن العامّة ، ولا مانعَ من أنْ يحتفظَ الطفلُ بمنديلٍ في جيبهِ ، كي يتنظَّفَ به عند الضَّرورة ، فلا يلوّثُ يدَه أو ثيابَه ، ويعلِّم المربّي الطِّفْلَ أنْ يستخدمَ يدَه

---

(١) مجمع الزوائد (٥/ ١٦٧) والحديث ضعيف.
(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢١٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٦ و٧).
(٤) انظر: المغني لابن قدامة (٢/ ٢٠٢) بشيء من التصرف.

اليُسرى في إزالةِ الأذى منْ أنفِهِ ، لأنَّ اليدَ اليمنى تُسْتَعملُ في الأمور الشَّريفةِ.

* ولعلَّه منَ المستحسنِ أنْ يتولّى المربّي تنظيفَ طفله بنفسِه ، وإزالَة الأذى عن وجههِ ، تأسياً بالحبيب الأعظمِ محمدٍ ﷺ الذي كان يهتمُّ بالحِبِّ ابنِ الحِبِّ أسامةَ بنِ زيدٍ ـ رضي الله عنهما ـ عندما كان طفْلاً صَغيراً ، فتعالوا أحبائي نستمعْ إلى أمِّنا عائشةَ بنتِ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ قالت: أرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ ينحيَ مخاطَ أسامةَ. قالت عائشةُ: دعني حتى أكونَ أنا الذي أفعلُ. قال: «يا عائشةُ أحبّيه ، فإنّي أحبُّه»(١).

* وتروي أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قصّة أخرى لأسامة ـ رضي الله عنه ـ توضّحُ مدىٰ اهتمامِ حبيبنا رسول الله ﷺ بأحبابنا الأطفال الصّغار ، فقالت: إنَّ أسامةَ عثرَ بعتبةِ البابِ فَدُمي ، قالت: فجعلَ النَّبيُّ ﷺ يمصُّه ويقولُ: «لو كانَ أسامةُ جاريةً لحلّيتها ولكسوتُها حتى أنفقَها»(٢).

* وهذا الاهتمامُ النّبويُّ بالطّفل يدلُّ على تأسّي النّاسِ به ، ولا يترفّعوا عن القيامِ بمثل هذا الأمرِ في نظافةِ الطّفل ورعايته.

٢ ـ الطِّفْلُ ونظافَةُ اليدَيْن:

* من كمالِ خلقِ اللهِ للإنسان ، أنْ جعلَه في أحسنِ صورةٍ ، وأحسنِ تقويم ، فخلقَ له عينَيْن ، ولساناً وشفَتيْن ، كما خلقَ له يَديْن يذودُ بهما عن نفسِهِ ما يتعرّضُ له ، ويتقوّى بهما على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لذا فالمؤمنُ مُطَالبٌ بالمحافظةِ على نظافتِهما الدّائمة ، لأنَّ اليدين تُعْتَبران من أكثرِ أعضاءِ الجسم والجوارحِ تعرّضاً للأقذارِ ، والاتّساخِ ، والجراثيمِ ، ومن ثمّ فإهمالُ نظافتهما وعدمُ العناية بهما يعرضُ الإنسان إلى الإصابةِ

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٨١٨).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٣٩).

بالأمراضِ المختلفةِ. وعلى المربّي أنْ يعلِّم الطّفلَ بأنَّ اليديْنِ تتعرّضان للأوساخِ ، فكلٌّ واحدٍ من النّاسِ يمسكُ الأشياءَ بيديه ، ويصافحُ النَّاسَ ، ويشتري الملابسَ ، ويمسّ الخضار عند شرائها ، وسائر الأغراضِ المتنوّعةِ ، وإذا لم ينظفِ الطّفلُ أو الإنسانُ يديْه ، ويسعىٰ لإزالةِ ما علَق عليهما منْ أوضارٍ ، فإنَّ المرضَ سيلازمُه ، ويجني على نفسهِ ، ومن ثمّ يظلُّ الضَّررُ قائماً ، وقد يصبحُ الإنسانُ طريحَ الفراش ، فتضطربُ الأسرةُ ، وتتعطّلُ الأعمالُ والمصَالح.

* وعلى المربّي أنْ يذكرَ للطّفلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ربّى أصحابَه وأمّتَه على النَّظافةِ الدَّائمة للوقايةِ منَ الأمراضِ ، كيما يظلَّ المسلمُ نظيفاً طاهراً ، نشيطاً قويّاً ، وفي هذا المضمار يحدثنا سيّدنا وحبيبُنا رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ منَ المؤمن الضَّعيف»[1].

* ونعوّدُ الطّفلَ بالتّعليم والتّدريبِ والمتابعة المستمرة على غسلِ يديه كلّ يومٍ مراراً ، وعند كلّ وضوء بالماء الطّهور ، وتنقيتهما من العَوالقِ الضَّارّة ، ولا نتساهلُ معه أبداً إذا أهملَ غَسْلَ يديه ، ونفهمُه بأنَّه يخسرُ صحّتَه وراحتَه ، كما يخسرُ الأبُ معه مالَه ووقْتَه.

* وليس منَ الصَّعب أنْ يبيِّنَ المربّي أنَّ الإسلامَ يسعىٰ إلى نظافةِ اليَديْن ، ويهتمُّ بهما اهتماماً بالغاً ، فهو يدعو النّاس إلىٰ اتّباع قواعدِ الصّحة العامّة ، وعلى الطّفل المسلم أنْ يكثرَ من تنظيفِ يديه وغسلهما ، مع ملاحظةِ التَّعاريج بهما والأظفارِ ، وراحَةِ الكفّ.

* وعلى المربّي الحصيف ألا يستهينَ بتقليم الأظفار ، أو نظافةِ الأصابع ، ويزعُمُ بأنَّ هذه أشياء لا قيمة لها ، بل يركّزُ على تربيةِ الطّفل ، ويذكّرهُ بأنَّ تقليمَ الأظفارِ سُنَّةٌ من سُنَنِ الفطرةِ التي سنَّها للأمّةِ المحمدية

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٦) ، ومسلم برقم (٢٦٦٤) ، وابن ماجه برقم (٦٧).

رسولُ الله ﷺ ، حتى لا تتراكمَ الأوساخُ تحتها ، وتكونَ مكاناً لنمّوِ وتكاثرِ الجراثيم الضّارّة بجلدِ وجسمِ الإنسان ، وفي قصّ الأظفار فوائدُ جليلة من أهمّها فائدتان اثنتان(١) :

أولاهما : تحسينُ الهيئةِ والزّينة .

الثّانية : أنّه أقربُ إلى تحصيلِ الطّهارة الشّرعيّة على أكملِ الوجوه ، لما عساه أنْ يحصل تحتها منَ الوسخِ المانعِ من وصولِ الماءِ إلى البشرة .

* ويُعلَّمُ الطّفل والطفلةُ خصوصاً بألّا يتركَ تقليمَ الأظفارِ أكثرَ من أربعينَ ليلة ، لأنّه جاءَ في الصَّحيح النَّهي عن ذلك؛ قال أنسُ بنُ مالك - رضي الله عنه -: وُقِّتَ لنا في قصِّ الشَّارب ، وتقليمِ الأظفار ، ونتفِ الإبط ، وحلْقِ العانة؛ ألا تترك أكثر منْ أربعينَ ليلة(٢) .

* ويجبُ أنْ يلفتَ المربّي نظرَ الطّفل إلى أنَّ طولَ الأظفار قبيحٌ ، وهو منَ المناظرِ المؤذية التي تقزّزُ النّفْسَ ، وأنَّ مَنْ يفعله جاهلٌ ، ولا يعودُ بفائدةٍ على الإنسان ، بل إنَّ في إطالةِ الأظفار هُبوطاً إلى دركاتِ بعضِ البهائمِ التي تستعينُ بمخالبها كي تدافعَ عن نفسِها ، والإنسان كريمٌ على اللهِ الذي خلقه فسوّاه فعدلَه ، فلا يقلدُ فصيلةَ الحيوانات ، لأنَّ الكريمَ كرّمَه فقالَ تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ . . . ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

* ولا يملُّ المربي من أمْرِ الطّفْلِ بغسل يديه دائماً ، وقبل عمل أي شيء ، وخُصوصاً بُعَيْدَ الاستيقاظِ منَ النّوم ، فمن السُّنَّةِ أنْ يغسلَ المستيقظُ من نومه يدَيْه قبلَ كلّ شيءٍ ، فلا يمسكُ بهما شيئاً حتى يغسلهما لئلا يؤذي نفسه وغيره ، وقد جاء في الصَّحيح عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال : «إذا استيقظَ

(١) انظر : الأحكام النبوية في الصناعة الطبية (٢/ ١٥٤) .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٨) .

أحدُكم من نومِه ، فلا يدخلَ يده في الإناءِ حتى يغسلَها ثلاثَ مرّات ، فإنَّ أحدكم لا يدري أين كانت تطوفُ يده»[1] ، فربّما لامسَتْ يدهُ عورتَه ، أو موضعَ داءٍ جلدي.

* ويزكي المربّي في نفسِ الطّفل هذه العادةَ الجميلةَ ، والتَّربية النّبويّةَ في غَسْل اليدَيْن ، ويشدُّ على يده إنْ مارسها دائماً ، ولا مانع من أن يكافئه على ذلك ، ويذكره أيضاً بأن رسول الله ﷺ قد شجَّع ورغَّب في غسل اليدين قبل الطَّعام فقال: «بركةُ الطّعام: الوضوءُ قبله ، والوضوءُ بعده»[2] فلا بدّ إذاً من غَسْل اليدين قبلَ تناولِ الطَّعام لإزالةِ ما علقَ عليهما من آثارِ العملِ ، وكذلك غسلهما بعد الطَّعام من أجْلِ إزالةِ آثار الطَّعام من علىٰ الأصابعِ ، ولا سيما عند الأطفالِ ، ونذكّرُ الطّفْلَ بأنَّ غسلَهما ـ وإن لم يتلوّثَا ـ سنّةٌ ، ونظافةٌ ، وأخْذٌ بالأحوَطِ ، وبركةٌ ، وراحةُ نفْسٍ. ولا يصحّ أنْ ينامَ الإنسانُ ويداه تحملان آثارَ الدَّسم منَ اللحم وغيره لئلا يُصابَ بأذى ، وعلى المربّي أنْ ينتبه تماماً لهذه النّاحية ، ويراقبَ الطّفل بعد تناوُلِ الطّعام وخصوصاً طعام العشَاء ، وليحذّره إذا لم يغسلْ يديه وفمَه ، وليشدَّ على يديه ولا يدعْه ينام إلا بعد أنْ يتأكّد منْ تنظيفِ يديه.

* ويدخلُ في باب نظافةِ اليدين تعليم الطّفل النَّظافة التّامّة عقبَ دخولِ بيت الخلاء ، ويتولّى المربّي توجيه الطّفل إلى إزالةِ النَّجاسات بالطّريقةِ التي يراها مناسبةً شريطة ألاّ تخالفَ الشَّريعة الإسلاميّة ، وينْصَحَه باستخدامِ الماءِ للنَّظافة بعد الانتهاءِ من التّبوُّلِ والتّبرّزِ ، ولا يكفي المسحُ بالمناديلِ الورقيّة التي قد تزيدُ الطّيْنَ بلّة ، وتعرّضُ الإنسان إلى أنْ يلوّث يدَيْه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٦٢) ، ومسلم برقم (٢٧٨).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٧٦١) ، والترمذي برقم (١٨٤٧) ، والمقصود بالوضوء في هذا الحديث: الوضوءُ اللغويّ لا الشّرعي ، ألا وهو غسْل اليَديْن إلى الرسغين.

٣ ـ الطّفْلُ ونَظَافَةُ الفَم والأسْنَان :

* منَ الجوانبِ المهمّة في حياةِ الطّفل أنْ يهتمّ المربّي بنظافَةِ فمِ الطّفلِ وأسنانِه ، وهذا الجانبُ منَ الأمورِ الفطريّة التي يميلُ الإنسانُ بطبعهِ إليها ، ذلك أنَّ الإنسانَ يأكلُ مختلفَ الأطعمةِ والمشروباتِ ، وبالتّالي يكون الفمُ والأسنانُ مأوى لكثيرٍ من الجراثيم ، التي تدخلُ مع الهواءِ والغذاءِ ، فيسيءُ ذلك إلى رائحةِ الفم ، ويضرُّ بصحّةِ اللّثةِ ، ويؤدّي إلى نَخْرِ الأسنانِ وتسوسِها .

* وفي عصرِنا الحاضر ابتُلي كثيرٌ من الأطفالِ بتلفِ الأسنانِ المبكّر ، الذي يؤثّر على الهضْم ، إلى جانبِ الآلام التي يحدثُها تسوّسُ الأسنان لهم ، وتعودُ معظمُ أسبابِ ذلك إلى إهمالِ النّظافة والعنايةِ بها ، بالإضافة إلى كثرةِ أكلِهم الحلوىٰ والسُّكريّات .

* لذا فمن بابِ النّظافة التي حرصَ عليها الإسلام ودعا إليها ، وحثَّ على متابعتها ، كان لا بدَّ من تنظيفِ الفمِ والأسنان ، واستعمالِ السِّواك ، أو الفرشاةِ والمواد الطبيّة المُنظّفة ، وتعويد الطّفل على استعمالِ الفرشاة ، وخصوصاً قبل النّوم ، إذ إنَّ بقاءَ بعضِ آثار الأطعمةِ والحلوى على الأسنانِ أثناءَ النّوم تسبّبُ تلفَها السّريع .

* وعلى المربّي أنْ يصرَّ على الطِّفلِ في استعمالِ الفرشاة ، ولا ينبغي مجاملته في ذلكَ ، ولا يجوزُ تركه أبداً ، وإنّما يُعَوَّدُ استعمالها بعد كلّ طعام ، وفي كلّ وقتٍ ، حتى لا تظهرَ منه رائحةٌ كريهةٌ ، أو تبدو أسنانُه صُفْراً قد اتّشحت بسوادٍ ومواد متراكمةٍ بينها ، ويعلّمه المربّي أنّه قد جاءَ النّبيَّ ﷺ قومٌ والقَلَحُ[1] يمتدُّ على أسنانِهم ، فاستنكرَ ﷺ ما فعلُوا

(١) «القَلَح»: صُفْرةٌ أو خُضْرة تعلو الأسنانَ ، ومواد الطّعام الصّلبة المتجمّعة بين الأسنان من طولِ تركِ السّواك.

بأنفسِهم ، فأرشدهم إلى ما يصلحُ شأْنَهم ، فقد أخرجَ الإمام أحمد عن تمام بنِ قثم ، عن أبيه قال: أتينا النَّبيَّ ﷺ فقال: «ما بالكم تأتوني قُلُحاً لا تسوكون؟! لولا أنْ أشقَّ على أمّتي لفرضتُ عليهم السِّواك ، كما فرضتُ عليهم الوضوء»(١) .

* ويجبُ أنْ يلفتَ المربّي نظرَ الطّفـلِ إلىٰ أولئك الجَهلةِ بأسبابِ النَّظافةِ الأوّليّةِ ، والذين يأتونَ المساجدَ لصلاةِ الجمعةِ أو الجماعةِ ، ورائحة أفواهِهم تنفِّرُ النَّاسَ ، كما يلفتُ نظرَهُ إلى مَنْ يأكلُ الثّومَ أو البَصَل ويأتـي المسجدَ أو المجتمعاتِ ولا يزيلُ تلك الرّائحةَ المنفّـرةَ ، بسببِ كسلٍ أو إهمال ، وبسببِ كثرةِ الأكْلِ وعدم تنظيفِ الفم ، وبالتَّالي يؤذي مَنْ حوله ، وخصوصاً عندما يتجشَّأ ، وقد وجَّه النَّبيُّ ﷺ هذا الصِّنف منَ النَّاس إلى عـدمِ الإفراطِ في الطَّعام وإلى تنظيفِ الفم ، فعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ قال: تـجشَّأَ رجلٌ عند النَّبيّ ﷺ فقال: «كُفَّ عنا جُشَاءك ، فإن أكثرهم شِبَعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»(٢) .

* ويذكُرُ المربّي للطّفلِ بأنَّ المسلم نظيفٌ بطبعهِ ، ميّالٌ إلى إزالةِ ما علقَ بفمِهِ من آثارِ الطّعام والشَّراب ، وأنَّه حريصٌ على عدمِ إيذاءِ الآخرين ، فالإيذاءُ ذنبٌ عظيمٌ ، ومخالفةٌ كبيرةٌ ، لا بدَّ من تركها ، والمداومةُ على نظافةِ الفم والأسنان ، ليكونَ مرغوباً فيهِ في المجتمعاتِ ، يألفُ لنظافَتِه ويُؤْلف .

* ويجبُ على المربّي ـ وعلى أربابِ الأُسَر ـ الانتباه إلى الطّفلِ ، فيُحْفظُ منْ تناولِ المشروبِ الباردِ بعد المشروبِ السَّاخن ، أو العكْس ، لأنَّ هذا العملَ من أعظمِ أسباب تلف الأسنان ، كما ينتبهُ الأبوان إلى الطّفل إذا ما حاولَ أنْ يكسرَ شيئاً قاسياً بينَ أسنانِه ، لئلا تتلفَ وتصابَ بالأذى ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٤٢) .
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٧٨) ، وابن ماجه برقم (٣٣٥٠) .

أو تُجْرحَ اللَّثةُ أو اللسان ، أو يؤذي الفكّ ، وبالتّالي تتطوَّرُ الأمورُ إلى ما لا تُحمد عُقباه.

* ومن أساليبِ التّربية الخُلقيّة في النّظافةِ ، وإحياء الهدي النّبوي في نفسِ الطّفل ، أنْ يعوّدَهُ المربّي على استعمالِ السِّواك ، ولا مانع منْ أنْ يذكُرَ له فوائده[1] ، حيثُ إنَّ السِّواك خصلةٌ كريمةٌ من خصالِ الفطرة التي يميلُ إليها الإنسانُ بطبعـهِ ، فالسّواكُ وسَاطةٌ طيّبة لنظافةِ الفم ، وإزالةُ القَلَحِ والأوضَـار عن الأسنانِ ، وتدليك اللِّثَـة للمحافظةِ على صحتها؛ فقد رَغَّب رسولُ اللهِ ﷺ فيه وحثَّ عليه ، واستعمله ، وبيَّنَ أنَّه طِيْبٌ للفَمِ ، وطـاعـةٌ لله عـزَّ وجـلَّ فقـال: «السِّـواكُ مطْهـرةٌ للفـم ، مـرضـاةٌ للرّب»[2] ، وذلك أنَّ الفمَ محلُّ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ ، ومناجاته ، فالسّواك سببٌ لرضا اللهِ ، لأنَّ الله نظيفٌ يحبُّ النّظافة ، والسّواكُ ينظّفُ الفمَ ، ويطيِّبُ رائحته.

* ويركّزُ المربّي على الطِّفلِ بتكرار استعمالِ السِّواك لما وردَ في فضلهِ من أحـاديـثَ وآثـار وفـوائـد طبّيّة ، فقـد جـاءَ فـي الصَّحيـحِ وغيـرِه أنَّ رسولَ الله ﷺ كاد أنْ يأمرَ به ، ويوجبه على المسلمين ، لِعِظَم فائدته ومنفعته ، لكنّه ندبَ إلى استخدامِه ، فقال: «لولا أنْ أشقَّ على أمّتي لأمرتهم بالسّواك عند كلّ صلاة»[3] وكان ﷺ إذا دخلَ بيته يبدأُ بالسِّواك[4] ،

---

(١) راجع كتب الطب النبوي في فوائد السواك ، وانظر: الطب النبوي لابن قيم الجوزية (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٧) ، والنسائي (١/ ١٠) ، والدارمي (١/ ١٧٤) ، وانظر: صحيح ابن خزيمة (١/ ٧٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٨٨٧) ، ومسلم برقم (٢٥٢) ، وأحمد (٢/ ٣٩٩).

(٤) انظر في هذا: المسند للإمام أحمد (٦/ ٤١) ، وصحيح مسلم برقم (٢٥٣) ، وسنن أبي داود برقم (٥١).

وإذا قامَ من الليل يشوصُ فاه بالسّواك[1]. وقد أدْلَتْ الأبحاثُ العلميّةُ مؤخّراً دلَوها في ميدان البحثِ عن فوائد السِّواك ، ومن ثَمّ خرجت بنتائج كثيرة منها أنَّ في المسواك أملاحاً معدنيةً ، وموادَّ عضوية ، ومضادات حيوية تطهِّرُ الأسنانَ ، وموادَّ أخرى تقوّي جدارَ اللِّثة .

* ويمكنُ للمربي أنْ يعوِّدَ الطفل على استعمالِ المسواكِ ، من خلالِ القُدوةِ أولاً ، ثمَّ عن طريقِ التّوجيه المباشر ، وإعطاءِ السّواك للطّفل وحثّه على استعماله في كلّ وقت ، ويُستحسن أنْ يقرأَ له من كتاب «زاد المعاد» أوقات استخدام السِّواك ، حيث قال ابنُ قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ: يُسْتَحبُّ السِّواكُ كلَّ وقتٍ ، ويتأكّدُ عند الصَّلاةِ ، والوضوءِ ، والانتباهِ من النَّوم ، وتغيير رائحةِ الفم ، ويُستحبُّ للمُفْطرِ والصَّائمِ في كلّ وقت ، لعمومِ الأحاديثِ فيه ، ولحاجةِ الصّائم إليه ، ولأنَّه مرضاةٌ للرّب ، ومرضَاتُه مطلوبةٌ في الصّوم أشدَّ من طلبها في الفِطر ، ولأنَّه مطهرةٌ للفم ، والطّهور للصّائم من أفضلِ أعماله[2].

* فالسّواك إذاً مستحبٌّ في كلّ وقتٍ ، لقوله ﷺ: «السّواكُ سُنّةٌ ، فاستاكوا أيَّ وقتٍ شئتم»[3] ويعلِّمُ المربّي الطّفْلَ طريقة استخدام السّواك ، فيذكرُ له بأنَّ الإنسان يبدأ الاستياك بجانب فمهِ الأيمنِ ، ويستاك عرضاً في ظاهرِ الأسنانِ وباطنِها ، ويمرُّ بالسّواك على أطراف أسنانِه ، وكراسي أضراسِه ، وسقف حلْقِه إمراراً خفيفاً .

* هذا ويجبُ على المربّي أنْ يربّي الطّفْلَ على الآدابِ الإسلاميّة والذّوقيّة في استخدامِ السّواك ، فلا يُستعملُ في المجتمعاتِ العامّة ، وأمامَ

---

(١) انظر في هذا أيضاً: المسند (٥/ ٤٠٧) ، وصحيح البخاري برقم (٢٤٥) ، ومسلم برقم (٢٥٥) .
(٢) انظر: زاد المعاد (٣٢٣) .
(٣) رواه أبو نعيم والديلمي ، كما في فيض القدير (٤/ ١٤٩) .

النَّاس ، لما في ذلك من إساءةٍ للآخرين ، إذ إنَّ عمليّة التَّنظيفِ تستدعي إخراجَ رذاذٍ وبقايا من الفَم ، وبالتّالي يتقزَّزُ النّاس من ذلك ، وقد ذكر الإمامُ أبو العبّاس القُرطبي في «مُفْهِمِه» بعض الآدابِ التّربوية في استخدامِ السّواك فقال: يُتجنَّبُ استعمالُ السّواك في المساجدِ ، والمحافلِ ، وحضرة الناس ولم يُرْوَ عنه ﷺ أنّه تسوّكَ في المسجدِ ، ولا في محفلٍ من النَّاس؛ لأنَّه من بابِ إزالةِ القَذَرِ والوسخِ ، ولا يليقُ بالمساجدِ ولا محاضر النّاس ، ولا يليقُ بذوي المروءات فعل ذلك في الملأ من النَّاس[١].

* وبهذهِ التَّربيةِ الخلقيّة الكريمةِ للطّفل ، يجعلُ المربّي منه رجلاً صالحاً في المجتمعِ ، ويحيي بتعليمه كثيراً منَ الآداب النّبوية.

٤ ـ الطِّفْلُ وآدابُ قَضاءِ الحَاجَةِ:

* من الآدابِ التي يجبُ أنْ يتربّى عليها الطِّفْلُ منذ نعومةِ أظفاره: أدبُ قضاءِ الحاجةِ ، والتّخلُّصُ من الفَضلات. وعلى المربّي أنْ يعوّدَ الطّفل من سنٍّ مبكّرةٍ جداً على حبّ الاستتارِ عن أعينِ النّاس عند قضاءِ الحاجة ، وألّا يَرَىٰ أحدٌ عورتَه ولو كان صغيراً ، كما يجبُ على المربّي أنْ يعوِّدَ الطّفل على هذا الأدبِ لينشأَ وينشأَ معه الاحتشامُ والحياءُ المُسْتَحبُّ.

* ويجبُ أنْ يهتمَّ المربّي بهذا اهتماماً بالغاً ، لأنَّ قضاء الحاجةِ للإنسان منَ الأشياءِ التي يفعلُها مِراراً في اليومِ الواحدِ ، فلا يُهمِلُ شأن الطّفل في ذلك أبداً ، بل عليه أنْ يعلّمه دونَ حياء كيفيّة قضاء الحاجةِ ، فيعلِّم الطّفل أنَّ استعمالَ اليد اليُمنى في الاستنجاءِ لا يجوزُ ، وإنّما يستعملُ بذلك اليدَ اليسرى ، ويذكر له في هذا المجال قولَ الحبيب المربّي محمّد ﷺ: «لا يمسّ أحدكم ذكَره بيمينِه ولا يستنجي بيمينه»[٢] ، ولا مانعَ

---

(١) المفهم في شرح ما أشكل من صحيح مسلم (١/ ١٢٣).
(٢) انظر: سنن الدارمي (١/ ١٧٢).

من أن يقرأَ له بعضَ الأحاديث التّربوية في هذا المجال ، والتي تعلِّم الأدبَ في قضاءِ الحاجةِ ، كالنَّهي عن استقبالِ القِبْلَة أو استدْبَارِها عند البولِ والتّغوّط ، فقد وردَ في السُّنَن وغيرِها أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّما أنا لكم مثلُ الوالدِ أعلّمُكم: إذا أتيتمُ الغائطَ فلا تستقبلُوا القبلةَ ، ولا تستدبروها ، ولا يستنجِ أحدكم بيمينِه»(١) . وكان ﷺ يستعملُ الماءَ في استنجائِه(٢) ولقد أثنى اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على الأنصارِ إذ كانوا يستنجون بالماءِ ، فقال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التَّوبة: ٨].

* ومنَ النَّظافة والذَّوقِ والأدبِ ألا يتعوّدَ الطّفلُ على أنْ يتبوّلَ في الطُّرقاتِ ، أو الأماكنِ التي يرتادُهَا النّاس ، حيثُ يؤذيهم بالأقْذار ، والرّوائحِ الكريهةِ ، وانتشارِ الجراثيم والأوبئةِ ، ممّا يجعلُ البيئةَ ملوّثةً ، وينبّهُ المربّي للطّفلِ كي يتنظَّفَ تماماً منَ البولِ ، والتّطهّر التّامِ من آثاره ، فقد حضَّنـا النّبيُّ ﷺ على التّنزُّهِ منَ البولِ حيث قال: «عامّةُ عذابِ القبر من البولِ ، فاستنزهُوا منَ البول»(٣)؛ ولا يهملُ المربّي هذا الأمْر ، أو يتوانَ فيه ، لأنَّ ذنْبَ ذلك عظيمٌ ، وهو دليلُ القَذارةِ والتخلُّف ، وهو مجلبةٌ لغضبِ اللهِ وعذابِ القبر ثم جهنّم وعذابها في الآخرة؛ وقد جاءَ مصداقُ هذا في الصّحيح عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مرَّ بقبرَيْن فقال: «إنَّهما يعذّبان ، وما يعذّبان في كبير؛ بل إنّه كبير ، أمّا أحدُهما فكان يمشي بالنّميمةِ ، وأمّا الآخر فكان لا يستنزهُ من بولِه»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٧) ، وأبو داود برقم (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) وابن ماجه برقم (٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٣) ، والبخاري برقم (١٥١) ، ومسلم برقم (٢٧١).

(٣) كشف الأستار برقم (٢٤٣) ، وانظر: الحاكم (١/ ١٨٤) ، والدارقطني (١/ ١٢٨). ومعنى «استنزهوا»: تطهروا ، واستبرئوا منه.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢١٨) ، ومسلم برقم (٢٩٢).

* ويجبُ أنْ يعلِّمَ المربّي الطّفل بعضَ الآدابِ في هذا المجال ، فينهاهُ عن التَّبوُّلِ في الماءِ ، كما جاءَ في الصَّحيح؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يبولَنَّ أحدُكم في الماءِ الدّائم ، ثم يتوضأُ منه»[1]؛ وعن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يبولنَّ أحدكم في الماءِ الدّائم الذي لا يجري ، ثم يغتسلُ منه»[2].

* وبعد أنْ يُعلَّمَ الطّفلُ النّظافةَ والتّطهُّرَ منَ الاستنجاءِ ، يُدَرَّبُ على استعمالِ الحمّامِ ، ويُكلّفُ بتنظيفِ نفسه متى عرفَ الطّريقَة ، وتمكّنَ منَ الجلوسِ لقضاءِ حاجته.

* ويُعلِّمُ المربي الطّفلَ دعاءَ دخولِ الحمّام ، وهو ما كان يقولُه ﷺ عند دخولهِ الخلاء: «اللهمّ إنّي أعوذُ بك منَ الخبثِ والخبائث»[3] ولا مانعَ منْ أنْ يبين له معنى هذا الدعاء التَّربوي ، وأنّه التجاءٌ إلى الله عزَّ وجلَّ من شرّ الشّياطين الذين يحبّون هذه الأماكن القذرة التي توافقُ أحوالَهم القذرةَ الخبيثةَ.

* ومع تعليم الطّفل ما مضىٰ من آدابٍ عامة ، يعلّمُ المربّي الطّفل الدّعاءَ المأثورَ عند الخروجِ منَ الحمّام بعد قضاءِ الحاجة ، حيثُ روت أمُّنا عائشةُ ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أنَّ رسول الله ﷺ: كانَ إذا خرجَ من الغائطِ قال: «غُفْرانك»[4] ، ولا مانع أنْ يتابعَ المربّي الطّفل دائماً ويسألَه عند دخولِهِ الحمّامَ وعند خروجهِ ماذا يقولُ ، ويكرّرُ ذلك حتى يتعوَّدَ الطّفلُ ذلك ولا يهملَ هذه الآداب التّربويّة التي تجعلُه نظيفاً طاهراً ، راضياً مرضياً متأسيّاً بالمربّي الأكْبر والحبيبِ الأعظمِ محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٢) ، والبخاري برقم (٢٣٨) ، ومسلم برقم (٢٨٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٤) ، والنسائي (١/ ١٢٥).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٩٩).
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٥).

* ومنَ الواجبِ على المربّي في هذا المضمار ، أنْ يلاحظَ الطّفل بعينِ رعايتهِ ، وإذا ما لمسَ إهمالَ الطّفلِ في تنظيفِ نفسه وتطهيرِها ، فإنّه يوجّهُه ويعظُه ، ولا يمنعُ أنْ يشعرَهُ بشيءٍ منَ القَسْوةِ ، إذ إنَّ الطَّهارةَ ، وإزالةَ النّجاسةِ من القضايا المهمّة المصيريّة ، وفيها جنَّة أو نار ، ولأنَّه يترتّبُ عليها كثيرٌ من العبادات عندما يبلغُ الطّفل سنّ التّكليف ، ولا تتمُّ تلك العبادات إلاّ بالطهارة والنَّظافة الكاملة؛ ومن ناحيةٍ فإنَّ الطّفل سائرٌ إلى سنِّ التّكليف ، وإذا لم يتعوّدْ إجادةَ النَّظافة والطّهارة منذ الصِّغر ، فإنَّه ربَّما أهملَها في كِبرِه ، وقد جاءَ التّحذير والوعيد في السُّنَّة المطهّرة في إهمالِ هذا الأمر ، فلنسمعْ إلى سيّدنا رسولِ الله ﷺ حيثُ قال : «أكثرُ عذابِ القبر في البولِ»[1] ، أي في إهمالِ التّطهُّر والتّنزّه منه ، لذا يُـنَـبَّـهُ الطِّفلُ ويُحَذَّرُ بمثل هذه الأحاديث ليتعوَّد ويتنظّفَ ويتطهّرَ؛ وبالتّالي نكونُ قد عملنا على تربيتهِ تربيةً صالحةً كريمةً نظيفةً تدعو إلىٰ الفَخار ، وتجعل الطفلَ ممن يدعو في شبابه إلى اتّباع الهدي النّبوي .

٥ ـ الـطِّـفْـلُ ونَـظَـافَـةُ البـيـئَـةِ :

* اهتمَّ الإسلامُ بالنَّظافةِ الفرديّةِ لكلّ مسلم ، وبالنَّظافةِ العامّة في البيئةِ والمجتمعِ ، ودعا النَّاس إلى الالتزامِ بالطَّهارة ، وإزالةِ الأقذار ، والعناية بكلّ مكانٍ ينزلُ فيه الإنسان ، وذلكَ أنَّ الدِّين بُنِيَ على النَّظافة ، وهو منسجمٌ مع مفهومِ الطَّهارة .

* وفي ثنايا القُرآن الكريمِ والهدي النّبوي دعواتٌ تَترىٰ إلى النَّظافةِ العامّة، ومنها: نظافةُ البدن، والثّياب، والمَسْكن ، والطّريق ، وغير ذلك .

* وفي القرآنِ الكريم دعوةٌ واضحةٌ للطّهارة ، حيث إنَّ النظافةَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٥٥) .

مطلوبةٌ، قال تعالى: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

* وفي الأحاديثِ النبويةِ مواقفُ جميلةٌ تدعو إلىٰ نظافةِ البيئةِ بكافّةِ أشكالِها، ومنها ما جاءَ عن أمِّنا عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الإسلام نظيفٌ فتنظّفُوا، فإنّه لا يدخلُ الجنَّة إلا نظيف»[١]، وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ طيّبٌ يحبُّ الطِّيبَ، نظيفٌ يحبُّ النَّظافة، كريمٌ يحبُّ الكرمَ، جوادٌ يحبُّ الجود، فنظفُوا أفنيتكم»[٢].

* قال المنَاوي: كانَ المُصطفى ﷺ، وأكابرُ صَحْبِهِ منَ الحرصِ على النَّظافة الحسيّة والمعنويّة ما لا يُوصَفُ، وكان عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ إذا قدمَ مكَّةَ يطوفُ في سِكَكِها فيقولُ: قُمُّوا فناءَكم[٣].

* ويقومُ المربّي بتبيان ما نهىٰ عنه النّبيّ ﷺ ويشرحُ للطّفلِ أنواعَ نظافةِ البيئةِ، وأنَّ هذه النَّظافة تبدأُ من نظافةِ المسجدِ، والمسكنِ، والمدرسةِ والطّريق، ومكان العمل، والمرافقِ العامّة؛ ومن الجديرِ بالذّكْر أنَّ الحديثَ عن نظافةِ البيئةِ وتعويدِ الطّفل على ذلك، يجعلُ من البيئةِ مظهراً حضاريّاً لائقاً، يشبُّ الطّفلُ فيه على الطّهارةِ والنَّظافةِ، خصوصاً إذا بيَّنَ المربّي للطّفلِ فائدةَ النّظافة ورغّبَه بها، وبدأَ بالأماكنِ التي يرتادها، فيعرّفه ويربّيه على احترامِ المسجدِ ونظافَتِهِ، لأنَّ المسجد بيتُ اللهِ في الأرض، وهو معقلُ العِلْم، ومأوى كُلِّ فضيلة، ومنه يصعدُ الكَلِمُ الطّيِّبُ، ويرتفعُ ذكْرُ اللهِ تعالى، لذا فمنَ الواجبِ العنايةُ بتنظيفه منَ الأوساخِ والغُبار، ولا مانع من ذكْرِ بعضِ الأحاديث في هذا المضمار من

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٣٢): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه نعيم ابن مورع، وهو ضعيف.
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٩٩) وقال: حديث غريب.
(٣) انظر: فيض القدير (٣/ ١٨٠).

مثلِ حديث أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً ـ أو امرأة ـ كان يقمُّ المسجدَ ، فماتَ ، فسألَ النّبيّ ﷺ عنه ، فقالُوا : ماتَ . قال : «أفلا كُنتم آذنتموني به؟! دلّوني على قبرِه» أو قال : «قبرها» فأتى قبْرَه فصلّى عليه[1] .

* ويُعلِّمُ المربّي الطّفلَ احترام المسجدِ وتنظيفه والمحافظة على بقائِه ، فلا يصحّ أنْ يخلعَ الإنسانُ نعلَيْه ويحملهما ويمشي فوقَ فُرُشِ المسجدِ والأوساخُ تتناثرُ منهما هنا وهناك ، فلا يراعي حرمةَ المسجدِ ولا يصونه ، ومن المُستحسن أنْ يضعهمَا في كيسٍ صغير ، فإنْ فعلَ ذلك كان أحْسَن وأفْضل .

* وبالإضافةِ إلى تعليمِ الطّفل نظافةَ المساجدِ ، يُعَلَّم ويربّى على الاهتمامِ بنظافة المنزلِ ، والعناية بأثاثِه ، ليكونَ في منتهى الجَمال ، وأنْ يُعلَّمَ أنْ يضعَ القُمامةَ والأوساخَ في أكياسٍ معدّة لذلك ، وأنْ يضعَها في مواضِعها المخصّصة لها ، ولا يلقيها على قارعةِ الطريق ، فربّما تنبعثُ منها الرَّوائحُ الكريهةُ ، وتنتشرُ الجراثيمُ والأوبئةُ خصوصَاً إذا كان الجوُّ حارّاً؛ ويذكرُ المربّي للطفل أنَّ بيوتَ المسلمينَ ومساكنَهُم في عَصْر السَّلفِ كانَتْ نظيفة تنبعثُ فيها رائحةُ الطِّيْب ، وكانتْ فيها حدائقُ جميلة ، وفيها من مختلفِ ألوانِ الأشجار والورد .

* ويربّى الطّفل منذ البدايةِ على احترامِ نظافة الطّريق أيضاً ، فإنَّ نظافة المرافقِ العامّة دليلٌ على الرّقي ، وحرصٌ على الطّهارة والجمالِ ، ومراعاة مشاعر الآخرين ، وقد رغَّب الإسلامُ في إزالةِ الأذى عن الطَّريق لمنعِ وقوع الإيذاء للنّاس ، وقد رغَّب الحبيبُ الأعظمُ بهذا العمل ، وجعله مقروناً بثوابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقال كما جاءَ في الصَّحيح : «الإيمانُ بضعٌ وستونَ شعبة ـ أو بضعٌ وسبعون شعبة ـ فأرفعُها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطةُ

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٨) .

الأذى عن الطّريق»[1] بل إنَّ رسولَ الله ﷺ جعلَ نظافةَ الطّريق صدقةً فقال: «ويميطُ الأذى عن الطّريق صدقة»[2].

* ويوجّهُ المربّي الطّفلَ على الاقتداءِ بالقُرآن الكريم والهدي النّبوي في مجالِ النَّظافة، ولا مانعَ أنْ يذكرَ له بعضَ الأحاديثِ في هذا المضمار، وأنَّ إزالَة ما يؤذي المسلمين في طريقهم منَ الأعمالِ الصَّالحة، فقد سألَ أبو برزة الأسلميّ ـ رضي الله عنه ـ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: دُلّني على عملٍ أنتفعُ به، قال ﷺ: «اعزلِ الأذى عن طريقِ المسلمين»[3]، ويذكر المربّي للطفلِ أنّ إزالةَ الأذى من طريقِ المسلمين يُدْخِلُ الجنّة، ويقرأُ عليه هذا الحديث الذي قالَه رسول الله ﷺ: «مرَّ رجلٌ بغُصنِ شجرة على ظهرِ طريقٍ، فقال: واللهِ لأنحِيَنَّ هذا عن المسلمين، لا يُؤذيهم، فأُدْخِل الجنَّة»[4].

* ومع هذا الثَّواب يبيّنُ المربّي للطّفلِ عقابَ مَنْ يعملُ على طرحِ الأوساخِ والأذى في الطّريق بأيّ شكْل من الأشكال، ويذكّره بأنَّ الإسلامَ قد حثَّ على حمايةِ الطّريق وإعطائِهِ حقّه، كما يوصيه المربّي بأنْ يحافظَ على جمالِ الشَّوارع والطُّرق ونظافتِها وصونها عمّا يُؤذي المسلمين، كما يُوصيه بالمحافظةِ على أشجارِه، فلا يعبثُ بها، لأنَّها مظهرٌ حضاري ومنظر جميلٌ أمرتِ السُّنَّة بالمحافظةِ عليها، ورعايتها وصونها.

* ولا يمكنُ للمربّي وهو في رحلةِ نظافةِ البيئة أنْ يتركَ توصيةَ الطّفل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٤)، ومسلم برقم (٣٥) و(٥٨)، وأبو داود برقم (٤٦٧٦) والنسائي (٨/ ١١٠)، وابن ماجه برقم (٥٧).
(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢/٣١٦)، والبخاري برقم (٢٧٠٧)، ومسلم برقم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦١٨)، وابن ماجه برقم (٣٦٨١).
(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

بالمحافظةِ على نظافةِ المدرسةِ التي منها ينبعثُ نورُ العِلْم ، وفيها يتخرّجُ العلماءُ والأدباءُ ، والأطبّاءُ والمخترعون ، ويذكّرُ المربّي والمعلم الطّفل بالمحافظةِ على أثاثِ المدرسةِ ، وعدم إيذاءِ زملائه ، وأنْ يكونَ مع صَديقه كريماً ، ذا سيرةٍ حَسَنَةٍ ، وقدوةٍ صالحة ، ولا يتكلّمُ بكلماتٍ خارجة عن الآدابِ العامّة ، وينصحه بالجِدّ والاجتهاد ليحصّلَ الدّرجاتِ العالية والتّفوق المحمود ، لينفَع أهلَه ووطنَه والنَّاس أجمعين .



الفصلُ السّادس
الطّفلُ والتّربيَةُ الخُلقيّةُ في النَّومِ

* النَّومُ منَ الأشياءِ التي فطرَ اللهُ النَّاس عليها ، ولا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يعيشَ دون أنْ ينامَ؛ ولذا فإنّ للنّوم بعامّةٍ ، وعند الطّفل خاصّة تربية عظيمة على المربّي ألا يُغفلَها ، ولا يتهاونَ في شأنها.

* وللنّوم تربيةٌ وآداب يحرصُ المربّي - أو الأسرة - بتعويد الأطفالِ عليها وفْقَ هدي القُرآن الكريم والسُّنَّة المطهّرة؛ فقد جعلَ اللهُ الليلَ للنّوم والنّهار لطلبِ المعاش ، وهو من آياتِ اللهِ وفضْله على النَّاس ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النّبأُ: ٩ - ١١].

* وفي موضوعِ النّوم يحرِصُ المربّي على اتّباع السُّنَّة ، لحصولِ الرّاحة في الجسمِ ، وللاستفادة منْ أوقاتِ النّوم ، وحصولِ المقصود منها للطّفل منْ حيثُ النّواحي التربوية والنّواحي الصّحية ، فمن أهمّ السُّنَن التّربويةِ في النَّومِ وآدابه: أنْ يدعوَ المربي الطّفل إلى النَّوم المبكّر ، وأنْ يتركَ السَّهرَ إلاّ لضرورةٍ قُصوى ، أو أمْرٍ مهمّ ، فلا يَحْسُنُ السَّهر بعد العشَاء ، وقد وردَ عن النّبيّ ﷺ أنّه حذَّرَ منَ الحديثِ والسَّهرِ بعد العشاء ، فقد كانَ يكره النّوم قبل العشاء والحديث بعدها.

* فالنومُ قبل العشاءِ والحديثُ بعدها مذمومٌ ، والسُّنَّة في هذا الاعتدال

والتوسّط في جميعِ الأمور؛ ومنَ المؤسفِ أنَّ بعضَ النّاس في هذهِ الأيّام قد غَزَتْهمُ الحضارةُ الملونةُ فتبدّلَ ليلهمْ بنهارِهم ، وانقلبتْ موازينُهم ، فصاروا يتأخّرون في السَّهر إلى قُبيل الصُّبح ، وربّما بعده ، ثم ينامون إلى قُبيل العَصر ، وربّما بعده ، ثم يقومون منْ نومهم كأنّهم خارجون من غُرف العمليّات وهم صُفْرُ الوجُوهِ ، مُضطربي المزاج.

* ويقولُ الأطبّاء والمتخصّصون: إنَّه قد ثبتَ من خلالِ البحثِ العلميّ أنَّ النَّوم في الليلِ له فوائدُ كثيرة ، ويستفيدُ منه الجسم أكثر ممّا يستفيدُه من نومِ النّهار[1]. وهذا ليس بجديدٍ في العِلْمِ الحديث ، إذ ثبتَ ذلك في السُّنّة منذ مئاتِ السّنين ، ولذا فعلىٰ المربّي أنْ يقتديَ في تربية الطّفل بالسُّنَّةِ والهدي النّبوي ، وأنْ يأخذَ بنصائح كثيرةٍ منها:

١ ـ تعويدُ الطّفلِ النَّومَ بُعَيْدَ أداءِ صلاةِ العشَاء ، وبعد أنْ يتناولَ الطّفل طعامَه ويهضمه ، يلجأُ إلى مضجعِه وينام ، ويوجّه المربّي الطّفلَ إلى محاسنِ النّوم المبكّر وفوائده.

٢ ـ يمنعُ المربّي الطّفْلَ منَ النَّوم في النَّهار ، لأنَّ نومَ النَّهار يعوّده على الكَسلِ والسَّهرِ في الليلِ. وقد تنبَّه الغزاليُ في «الإحياء» إلى هذه النَّاحية فقال: وينبغي أنْ يُمْنَعَ من النَّوم نهاراً فإنّه يُورِثُ الكَسَل[2]. وخاصّة النّوم عقبَ صلاةِ الفجر مباشرةً ، فقد كانَ بعضُ علماء السَّلف وفقهائهم لا يتركون أَحَداً منْ أطفالِهم أو أهليهم ينامونَ بعد الفجرِ حتى تطلعَ الشّمسُ ، وذلك لحصولِ بركةِ دعوةِ رسول الله ﷺ التي خصَّ فيها أمّته بقوله: «اللهم باركْ لأمّتي في بكورها»[3].

---

(١) مع الطِّبّ في القرآن الكريم (ص ١٠٤).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠).
(٣) سنن الدارمي (٢/ ٢١٤).

* وبُعيد الفجر يكونُ الطّفل صافيَ الذّهن ، قادراً على التّفكير وعلى المربّي أنْ يستغلَّ الطِّفلِ في هذا الوقتِ بالتَّسبيح والذّكْر ، وقراءة القُرآن الكريم حتى تطلعَ الشّمس بنورها على الدّنيا ، وينقلَ له قولَ الحبيبِ المصطفى ﷺ: «مَنْ صلّى الغداة في جماعةٍ ثمّ قعدَ يذكرُ الله حتّى تطلُعَ الشمس ثمّ صلى ركعتَيْن ، كانت له كأجرِ حجّة وعمرة» قال أنس راوي الحديث ، قال رسولُ الله ﷺ: «تامّة تامّة تامة»[1]؛ وهذا ترغيبٌ منه ﷺ للاستفادةِ من هذا الوقتِ المبارك.

* وهناك مسألةٌ مهمّة جدّاً ينبغي للمربّي أنْ ينتبهَ لها ، وهي تربويّةٌ ترتبطُ بآدابِ النومِ المستمدّة منَ الهديِ النّبوي ، وهي تفريقُ الأطفالِ عندما يأخذونَ مضاجِعَهم وخصوصاً الأطفال الذّكور والإناث ، فقد أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ المربّين وأولياءَ الأمور بتفريقِ الأطفال والأولاد في المضاجعِ فقال: «مُروا أولادَكم بالصَّلاة وهم أبناء سبعِ سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر ، وفرقوا بينهم في المضَاجع»[2].

٣ ـ يُعوِّدُ المربّي الطّفلَ أنْ ينامَ على جنبهِ الأيمن ، وذلك اقتداءً برسولِ الله ﷺ ، مع وضعِ اليدِ اليُمنى تحت الخدّ الأيمن[3]. ويحذّره منَ النّوم مُنبطحاً على بطنِه لكراهيةِ رسولِ الله ﷺ لهذه النّومة القبيحة حيثُ قال عنها: «إنَّ هذهِ ضجعةٌ لا يحبُّها الله»[4] ، ومع التّوجيهِ التّربوي للنَّومة الصَّحيحةِ يذكّرُ المربّي الطّفلَ بالدّعاء الذي يقولُه المسلمُ عندما يأوي إلى مضجعهِ ، وهو كما جاء في الصَّحيح عنه ﷺ: «اللهم باسمكَ أحيا وباسمِك أموت» ، وكذلك عندما يستيقظُ: «الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدما

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة برقم (٨٥٦) وقال: حسن غريب.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم (٤٩٥).
(٣) انظر: صحيح البخاري (٨/ ٨٥).
(٤) أخرجه الترمذي في الأدب برقم (٢٧٦٨).

أماتنا وإليهِ النّشور»[1] ، ويفعلُ المربّي هذا كلّ يوم حتى يحفظَ الطفلُ هذه الأذكار والدّعوات . ولا مانع منْ أنْ يعوّدَه على قراءة بعضِ آياتٍ منَ القُرآن الكريمِ أُثِرتْ قراءتها قُبيل النوم من مثل آية الكُرسي ، وخواتيم سورة البقرة ، والمعوذتَيْن ، وينهاه عن سماعِ بعضِ ما ينفّر كبعضِ الأشياء التي تخالفُ السُّنّة ، أو بعض الكلماتِ التي لا علاقة لها بمثلِ هذه الأذكار ، مثل بعض الجُمل التي يظنُّ بعضُ الجهلةِ أنّها من الدُّعاء .

* ومنَ المستحسنِ ألا يتركَ المربّي الطّفلَ ينامُ في البيتِ وحْدَه ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهىٰ أنْ يبيتَ الرّجلُ في البيتِ وحْدَه[2] ، فكيفَ بالطّفل؟ وفي هذا فائدةٌ عظيمة ، حيث يشعرُ الطفلُ بالأنسِ إذا كان معه أحدٌ في البيتِ ، ولا يتسرّبُ الخوفُ إلىٰ نفسه .

٤ ـ يدعو المربّي الطّفلَ إلى سُنَّةٍ مستحبّة عندما يأخذُ مضجعَه ، هذه السُّنّة هيَ الوضوءُ ، والنّوم على طهارةٍ ، فإذا تعوّدَ الطّفلُ ذلك نشأَ ونشأَتْ معه سِمةُ النَّظافةِ ، وتعوّدَ كذلك على أن ينامَ طاهِراً ، هادئاً ، ذاكراً اللهَ عزَّ وجل ، ومَنْ نامَ على هذه الصّفة ، فإنّه سيؤجرُ وسيكتبُ له الثّوابُ عند اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وقد أمرَ النّبيُّ ﷺ بالوضوءِ عند النّوم فقال: «إذا أخذتَ مضجعك فتوضأْ وضوءَك للصَّلاة»[3] . وبمثل هذه الأمورِ ينشأُ الطّفلُ على حبّ هذه الآداب والسُّنن ويطبّقُها طيلةَ حياته .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٣).

(٢) انظر: المصنف (٩/ ٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨١).

الفصل السابع
الطّفلُ وآدابٌ تربويّةٌ قُرآنيّةٌ متنوّعَةٌ

* منَ المعروفِ أنَّ الطّفْلَ يتعلّم في سنواتِهِ الأولى كثيراً من المعارفِ والآداب التي تظلُّ مصاحبة له حتى آخر حياته ، وعلى المربّي الحصيف أنْ يستغلَّ هذه الفترة المهمّة في تعليمه ، وتربيته على سائرِ الآداب التي حكَاها القُرآن الكريمُ ، ونطقتْ بها السُّنَّةُ المطهّرة ، كما يوجِّهه الوجهةَ الحسَنة ، والتَّقويم الصَّحيح.

* قال ابنُ الجوزي في تحقيقِ هذه النَّاحية : أقومُ التّقويم ما كانَ في الصِّغَرِ ، فأمّا إذا تُرِكَ الولدُ وطبعه فنشأَ عليه ومرَنَ كان ردُّه صعباً؛ قال الشَّاعر :

إنَّ الغصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلَتْ ... ولا يلينُ إذا قوَّمتَه الخَشَبُ
قد يَنْفَعُ الأدَبُ الأحداثَ في مَهلٍ ... وليسَ ينفعُ في ذي الشَّيبةِ الأدبُ[1]

* فالطفلُ في صغرِه لا يعرفُ ولا يميّزُ بين الصَّالح النَّافع ، وبين الطّالح الضّارّ ، ولا يميز كذلك بينَ الخيرِ والشَّر ، بل يحسُّ برغبةٍ تنبعثُ من داخلهِ ، وتدفعه إلى طاعةِ مَنْ يربّيه ويرشده ، فيعيشُ تحتَ سلطتهِ ، فإنْ لم يجِدْ هذه السّلطةَ حكيمةً ، فإنّه ينشأُ قلقاً مضطربَ الشَّخصية ، لذا فإنَّ دور

(١) انظر كتاب : الطب الروحاني لابن الجوزي (ص ٦٠).

المربّي مهمٌّ لتربيةِ شخصية الطفلِ ، وتحقيق الآدابِ المفيدة في نفسه ، ليغدوَ عنصراً فاعلاً في المجتمعِ يعرفُ ماله ، وما عليه .

* وهناك آدابٌ كثيرةٌ يجبُ على المربّي أنْ يوضّحها للطّفل ، ليسلكَ النَّهجَ القويم ، وليكونَ على بصيرةٍ من أمرِه ، ومن هذه الآداب التّربوية التي أشارَ إليها القرآن الكريم : أدبُ الاستئذانِ وضوابطُه ؛ وأدبُ المجالس ، وغير ذلك . . . وسنتحدّثُ عن بعضِ هذه الآداب التّربوية القُرآنية ، وكيف نعلِّم الطّفل سلوكَها .

١ ـ أدَبُ الاستئْذَانِ وتَربيَةُ الطّفْل عليه :

* إنَّ الإسلامَ لم يتركِ الطفلَ هَملاً لا شأْنَ له ولا قيمةَ اجتماعية في الحياةِ ، حتى إذا ما شبَّ وغدا رجلاً بدأ يُلقي عليه التكاليف ، لا ، فالإسلامُ منهاجُ حياةٍ متكامل يبدأُ مبكّراً مع الإنسانِ منَ البداية إلى النَّهاية ، فهو ينظِّمُ حياةَ الإنسانِ في جميع أطوارِها ، وسائرِ مراحلها ، وكلّ علاقاتها وارتباطاتها ، وكلّ حركاتها وسكناتِها ، ومن ثمّ يتولّى بيان الآداب التّربوية اليوميّة الصَّغيرة ، كالاستئذانِ على البيوتِ .

* وفي القُرآن العظيم وقفةٌ جليلةٌ مع أدبِ الاستئذان ووقْته ، وكيفَ جاء الأمْرُ للأطفالِ في هذا الأدبِ الاجتماعيّ الذي ينظّم حياةَ النَّاس ، ويرشدُهم إلى طريقِ السَّعادة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النور : ٥٨ و٥٩] .

* ومَن الملاحظِ في هذا النّصّ القُرآني أنَّه يربّي الطّفلَ وغيرَه على آدابِ

الاستئذانِ في داخلِ البيوت ، فالأطفالُ دون سنّ التكليف ـ أي قبل البُلوغ ـ مأمورون بالاستئذانِ قبلَ الدّخول علىٰ أهلِ البيت منَ الأمّ ، أو الأبِ ، أو الأخوات ، أو غيرِهم ، قال جابرُ بنُ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: «يستأذنُ الرَّجلُ علىٰ ولـدِه ، وأمّه وإنْ كانت عجوزاً ، وأخيهِ وأختهِ وأبيه»[1].

وهذا الاستئذانُ يكونُ في الأوقاتِ التي تنكشفُ فيها العوراتُ عادةً ، أو التّخفف من الملابسِ ، وهي: حين الاستيقاظ من النوم ، وحين إرادة النّوم ، وحين القَائلة ، ويعلّمُ المربّي الطّفل أدبَ الاستئذان في هذهِ الأوقاتِ ويشرحُ لـه ذلك ، فحين الاستيقاظِ وهو الوقتُ قُبيل صلاةِ الفجر ، حيث يكونُ النَّاس عادةً في ثيابِ النّوم ، أو أنّـهم عندما يقومون منَ نومهم يغيّرونها ومن ثمّ يلبسون ثيابَ الخُروج إلى المسجدِ. وحين إرادة الـنّوم يخلعُ النَّـاس في غالب العادة ملابسَ العمل التي يكونون فيها ، ويلبسون ثيابَ النّوم المعدّةِ للرّاحة والهدوء ، وتكونُ هذه الثّياب في أغلبِ الأحيان بسيطةً ورقيقةً وليس فيها احتشامٌ كثير. وحينَ القائلةِ: والقائلةُ وقت الظّهيرة ويخلعُ النّاس عادةً ملابسهم ليأخذوا قِسْطاً من الرَّاحة.

* وقد سمّى القُرآنُ الكريمُ هذه الأوقات الثّلاثة «عورات» لانكشافِ العورات فيها ، وفي هذه الأوقاتِ الحرجةِ لا بدّ أنْ يستأذنَ الأطفالُ ، حتّى لا تقعَ أنظارهم على عوراتِ ذويهم وأهليهم ، وهذا منهيٌّ عنه لأنَّه يؤذي الطّباع والنّفس ، ومع الأسفِ الشَّديد نجدُ بعضَ المربين والمربيات يغْفُلون هذه التَّربية ، ويتهاونون في هذا الأدب وهذا الخُلق القويم في بيوتِهم ، وهم غير آبهينَ له ، بل مستهينين بآثارِه الخُلقيةِ النّفسية والاجتماعيّة ، وهم يحسبون بأنَّ الأطفالَ الصِّغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظِر ، علْماً بأنّ كثيراً منَ الدّراسات النّفسيّة اليوم تقولُ ما مفاده: إنَّ بعضَ المشاهدِ التي قد

---

(١) انظر: الأدب المفرد للبخاري (ص ٣٥٣) حديث رقم (١٠٦٦).

يراها الأطفالُ مصادفةً في صغرهم قد تتركُ أثراً في حياتِهم كلّها ، وربّما تصيبهم بأمراضٍ نفسيّة يصعُب علاجهم منها فيما بعد .

* ونقول : إنَّ أدبَ القُرآن الكريم وتربيته ، وأدب السُّنَّة النّبوية قد سبَقَا كثيراً الدّراساتِ التي يطلعُ بها علينا النّفسيّون ، وهم يحسبون أنَّهم الرَّائدون الأوّلون في هذا المضمار ، فالله عزَّ وجلَّ يربّي عبادَه جميعهم بهذهِ الآداب ، ويخصُّ الأطفالَ ببعضِها ، ليكونُوا في غَدِهم أمةً ذوي قلوبٍ طاهرة ، ونفوسٍ مستقيمة ، لأنَّه حرصَ منذ نشأتِهم على عدمِ انكشافِ العورات ، وعلى الإذنِ كما يستأذن الكبار والمميزون ، ولأنَّه عليمٌ بما يصلح نفوسَهم من آداب .

* وينصحُ المربّي الطّفل بأنْ يلقي السّلام إذا دخل البيتَ في غير تلكم الأوقات الثّلاثة ، لأنّه يجوزُ أنْ يدخلَ في غيرها بيته دون استئذان ، ولأنَّ بإلقاء السَّلام بركة وخيراً ، لقول النّبيّ ﷺ لأنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه : «يا بُني ، إذا دخلتَ على أهلك فسلّمْ يكونُ بركةً عليك وعلى أهلِ بيتك»[1] ، ومن فوائدِ هذا السَّلام وبركاته : مزيدٌ منَ الحذَرِ والحيطة ، وإشعارٌ لأهلِ البيتِ بالقدوم ، وامتثالٌ لأمرِ العزيزِ الحكيمِ ورسوله الكريمﷺ؛ كما يغرسُ في نفس الطّفل الحياءَ الذي هو أصلُ كلّ خيرٍ ومفتاحُ كلّ خير ، فالحياءُ خيرٌ كلُّه ، وبركةٌ إذا شبَّ الطِّفلُ عليه وتعلَّم آدابَه .

٢ ـ أَدَبُ المَجْلسِ والضَّيف وتَربيةُ الطّفْل عَليه :

* إذا كانتْ تربيةُ الطّفلِ علىٰ آدابِ الاستئذانِ مهمّة ، فإنَّ أدبَ المجلسِ وحُسْنَ استقبالِ الضَّيف منَ الأمورِ المهمّة أيضاً في حياةِ الطّفل اليومية ، ولأنَّ أدبَ المجلس منَ الأشياءِ المألوفةِ لدى الطّفل يوميّاً ، فإذا ما أحسنَ

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان برقم (٢٦٩٨) .

المربّي تعريف الطّفلِ بآدابِ وأخلاقيّات المجلسِ ، فإنّه يضمنُ أنْ ينشأَ الأطفالُ متشبعين بالخلقِ الرّفيع والأدبِ الحسَن ، والأنْسِ والائتناسِ في مخالطةِ النّاس ومعاملتهم.

* فمن عناوين آدابِ المجلس التي ينبغي على المربّي أن يعلّمَها الطّفلَ إفشاء السّلام على أهلِ المجلس ، لأنَّ للسلامِ منزلةً مرموقةً في الإسلام ، فهي عنوانُ خيرٍ ، وشعارُ كَرَم ، وتأليفٌ للقلوبِ ، وتصفيةٌ للنفوس ، ونشرٌ للوئام والمحبّةِ ، وفي التَّنزيل العزيز نَجدُ الأمْرَ من العزيزِ الحميدِ بردِّ التّحية والسَّلام ردّاً جميلاً حَسَناً ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النّساء: ٨٦] ، فإذا ألقىٰ المسلمُ السَّلام وأفشاهُ على النَّاس ، وجبَ ردُّ السَّلام عليه بمثلِ ما سلّمَ أو يزيد ، إذْ إنَّ إلقاءَ السَّلام علىٰ النَّاس سُنّةٌ مستحبّةٌ ، بينما ردُّه فريضةٌ واجبة[1].

* ويؤدّب المربّي الطفلَ ويُربّيهِ على هذه السُّنّةِ الميمونةِ المباركةِ ، ويحاولُ أنْ يشجّعَه عليها ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً ، ويعلّمه أنّه إذا شاهدَ كبيراً أمرَه بإلقاء السّلام عليه ، وإذا مرَّ بالقاعدِ أو بالجمْعِ منَ النَّاس في المجلسِ أو الطّريق أمرَهُ بالسَّلام عليهم ، ويكون المربّي نفسُه قدوةً للطّفلِ في ذلك ، فيحرصُ على إلقاءِ السَّلام وردّه متأدّباً مع الكبيرِ والقاعدِ والجمعِ الكثير ، ويعلّمُ الطفلَ ذلك ويسمعُه قولَ النبي ﷺ في هذا المضمار حيثُ ربّى أصحابَه على ذلك ، ووضعَ لهم آدابَ السَّلام وأصولَه فقال: «يسلِّمُ الصّغيرُ علىٰ الكبير ، والمارُّ على القاعدِ ، والقليلُ على الكثير»[1] ، ويحاولُ المربّي أنْ يرغّبَ الطّفلَ في فضائلِ السَّلام الذي هو طريقٌ سَهْل إلى الجنَّة ، وأنَّ ثوابَه عظيمٌ عند المليكِ المُقتدر.

* ثم ينتقلُ المربّي إلى تعليمِ الطّفلِ حُسْنَ الضّيافةِ وأدبَ الاستقبالِ ، إذ

---

(١) البخاري في الاستئذان (٨/ ٦٤).

إنَّ الطّفلَ بحاجةٍ إلى هذه التّربية الأدبيّة ، لأنَّ الضَّيفَ والضّيوفَ والضّيافة منَ الحياةِ الاجتماعيّةِ اليوميّة التي يُعَايِنُها الطّفلُ في أهْلهِ أو أقربائه أو جيرانه . لذا فالواجبُ على المربي أنْ يعلّمَ الطّفلَ ـ وخاصَّة الطّفل الكبير ـ كيفيّة استقبال الضَّيف ، والتّفاهم معه ، وكيف يكلّمُه ، ويحدثه ، ومن ثمّ يكرمُه وفْقَ ما جاءَ في الصَّحيح : «من كانَ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فليكرمْ ضيفه»(١) .

* ولكي يعزّزَ المربّي هذه النّاحيةَ الجميلةَ في الإنسان يروي له قصّة استقبالِ نبيّ الله إبراهيم للضَّيف ، وكيف كان يكرمهُ ويحسنُ استقباله ، كما يروي له قصّةً عن كرمِ سيّدنا محمّد ﷺ ، ولا مانع منْ أنْ يذكرَ كرمَ أبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ وكرمَ عُثمان بن عفان وبعضَ الصَّحابة الكرام منَ المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فإنَّ قصصَ الكرمِ وحسنَ استقبال الضّيوف تولِّدُ في نفسِ الطّفل السَّماحة والنَّدى .

* ويراقبُ المربّي الطّفلَ عن كثَبٍ ، ويقوّمُ ما اعوجَّ من خَطئِه في هذا الأدبِ ، ويحسنُ له المكافأةَ إنْ أجادَ ، لأنَّ الطّفْلَ بهذهِ الأخلاق يغدو ناجحاً في مخالَطةِ النَّاس ومعاملتهم ، وتتكوّن لديهِ القدرةُ على التَّفاهم معهم ، وعلى الجرأةِ في حديثهم ، فلا يضطربُ ولا يتلعثَم أمامَ الغريب ، ولا يخجلُ منَ الضَّيف .

* ومما يحسنُ تربيته وغرسُه في الطّفلِ احترام الضَّيف والقيام على خدمتِه بما يتناسبُ مع الطفلِ من خِدْمات ، من تقديم الشّاي أو المرطباتِ أو ما شابَه ذلك مع البشاشةِ في الحديثَ والتَّرحيب به(٢) ، ويعلِّمه بأنّ خيرَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٨/ ٣٩) .

(٢) في أدبنا العربيّ وقفاتٌ رائعاتٌ مع حسنِ الضّيافةِ وإكرام الضّيف ، وما أجمل قولَ الشّاعر في هذا المضمار :

أضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رحلهِ ... ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ=

الخلقِ على الإطلاقِ محمَّداً ﷺ كان يقومُ بنفسهِ أحياناً على إكرامِ الضَّيف ، وكذلك نبيُّ الله إبراهيم من قبلُ كان يخدمُ ضيوفَه ، كما جاءَ ذلكَ في القُرآن الكريم[1] .

* ويعوّدُ المربّي الطّفلَ أدبَ المجلسِ ، ويعلّمُه حُسْنَ الإنصاتِ إذا تكلَّمَ الكبارُ ، ولا يتكلّمُ إلا إذا طُلِبَ منه ، ولا يقاطعُ أحداً ، بل يسكتُ ويسمعُ ، وهذا كان هو نهجُ أطفالِ الصَّحابة إذا حضروا مجالسَ الكبار ، فقد أخرجَ البخاريُّ في صحيحهِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أخبروني بشجرة مثَلُهَا مثَل المسلمِ تؤتي أكلها كلّ حينٍ بإذن ربها ولا تَحُتُّ ورقها ، فوقعَ في نفسي النّخلة فكرهتُ أنْ أتكلَّم وثمّ أبو بكر وعمر»[2] ، ويظهرُ من هذه الرّواية الصَّحيحة وهذه القصّة أدبَ الطفل الصَّغير في مجالسِ الكبار ، فلا يتكلّمُ إلا عندما يُطلَبُ منه ، وهذا الأدبُ يعلّمه المربّي لطفلِه ، وينبهُهُ عليهِ ، فلا يكثرُ الكلامَ أو اللغطَ في المجلسِ ، وهذا من قلّة الحيَاء .

* ومن ألوانِ التّربيةِ الأدبيّة للمجالس أنْ يعلِّمَ المربّي الطّفلَ آدابَ العُطاس والتّثاؤب في المجالسِ ، ويعلِّمه الهديَ النَّبوي بذلك ويخبره بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ «كان إذا عطسَ غطّى وجْهَه بيدِه أو بثوبِهِ وغضَّ بها صوتَه»[3] .

* والتّثاؤب مكروهٌ ، ومن فعْلِ الشّيطان ، ويُعلَّمُ الطّفلُ أنَّ الإسلام ربّى النَّاس على ذلك ، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بيّنَ ذلك فقال: «التّثاؤبُ منَ

= وما الجودُ للأضيافِ أن يكثرَ القرىٰ ... ولكنّما وجْهُ الكريم خصيبُ

(١) راجع في هذا سورة هود (٦٩ و٧٠) وسورة الذاريات (٢٤ ـ ٢٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٨/ ٤٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في الأدب برقم (٢٧٤٥) .

الشَّيطانِ ، فإذا تثاءبَ أحدُكم فليكظمْ ما استطاعَ»[1] ، ومنَ المعروفِ أنَّ التَّثاؤبَ منَ الكسَلِ وثقلِ البدنِ والاسترخاءِ بعكس العُطاس الذي يدلُّ على الخفّةِ والنَّشاط. وعلى المربّي ألا يتكاسلَ في هذه الأمور ، ويعملَ على إحيائِها بالتّكرار والتَّنبيه ، والبيانِ والتَّبيينِ للطِّفل بأنَّ التّثاؤب منَ الشَّيطان ، وأنّه يضحكُ عليه إنْ تثاءبَ ولم يُغَطِّ فمه ، ولا مانعَ أنْ يرشدَه إلى النَّظرِ في المرآةِ عند التّثاؤب ليرىٰ قبْحَ المنظر وكيفَ يضحكُ الشَّيطان منه ، وبذلك يَنْفُرُ الطفلُ من هذا السُّلوك الشَّائن الشَّائه ، ويعتادُ على هذا الأدبِ التَّربوي العظيم.

* ومن بدائع تعليمِ الطّفل الآداب العامّة للمجالِس أنْ يقرأَ عليه المربّي بعضَ الآداب التَّربوية التي ذكرها الغزالي في «الإحياءِ» والتي تعينُ المربّي في تربيةِ الطّفل وتعويده أدبَ المجالس حيث قال: وينبغي أنْ يعوَّد ألا يبصقَ في مجلسهِ ، ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرةِ غيره ، ولا يستدبرُ غيره ، ولا يضعُ رِجْلاً على رجْلٍ ، ولا يضعُ كفّه تحت ذَقْنِه ، ولا يعمدُ رأسه بساعدِه ، فإنَّ ذلك دليلُ الكسلِ ، ويعلّمُ كيفيةَ الجلوس ، ويمنعُ لغْوَ الكلام وفُحْشه[2].

* إنَّ هذه التَّربيةَ الخُلُقيّةَ التي أوردهَا الغزالي موردٌ معينٌ للمربّي ، فلو تمكَّن من تربيةِ الطّفل عليها ، وتغذيته بآدابها ، لكانَ قدوة طيّبة لغيرهِ من الأطفالِ ، وما أجملَ أن يكون الطّفل قدوة!

* هذا وآدابُ المجالسِ كثيرةٌ ، ولا يمكننا أنْ نحصرَها في هذا المقام ، بيد أنَّه يمكننا أنْ نشيرَ إلى بعضِها لتكون زاداً وتذكرةً للمربّي ، ومنها: أدب التّفسّح في المجالسِ ، وشكرُ المُضيف والدّعاء له ، والأدبُ في الولائمِ وغيرها كثير.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٩٣).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠ و٧١).

٣ ـ أَدبُ الـحَـيَـاءِ وتـربـيَـةُ الطِّـفْـل عَلَـيْـهِ :

* من الآدابِ التّربويّةِ العظيمةِ التي ينبغي أنْ نربّي الطّفلَ عليها: الحياءُ؛ لأنَّ الحيـاءَ منَ الإيمانِ ، وهل هنـاك حلْـيَـةٌ أجملُ منَ الحيَاء؟!

* وقد استدلّ أدباءُ المسلمين وعلماؤُهم في عصورٍ سابقة على نجابةِ الطّفل بكثرةِ حيائهِ ، وأدبه مع الكبار ، وعدم التّحديق في وجوههم بطرفـهِ ، بل تراهُ مُطرقـاً نظره إلـى الأرض[١] ، وعلى المربّي أنْ يستغلَّ هذه الفرصة في سجيّةِ الطّفل ، فيؤدّبه مستعيناً على ذلك بكمالِ حيائه وتمييزه. وفي هذا يقولُ بعضُ الحكماء: الحياءُ في الصَّبي يدلُّ على العقل.

* والأطفالُ ذوو الحياءِ يستفيدون منَ الكلامِ ، وينتفعون من النَّصائح الموجّهـة إليهم ، خصوصاً إذا وقعوا فـي عملٍ قبيـح ، فسرعان ما يخجلون ويقلعون عن الأمْرِ المذموم ، ويندمون على فعلهِ. أمّا الأطفال الذين حُرموا منَ الحياءِ والأدب ، فإنَّ المربّي يتعبُ معهم في نقلهم إلى برّ الأمان وساحلِ الحياء ، وتصعبُ سياستهم إذا لم يتخذِ المربّي معهم الحزْمَ.

* وقد امتدحَ رسولُ اللهِ ﷺ الحياءَ وأهلَ الحياء ، وأثنى على مُعلّمه أيضاً ، فقد أخرج البخاري في صحيحه أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ يَعِظُ أخاهُ في الحياءِ ، فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعْهُ فإنَّ الحياءَ منَ الإيمان»[٢]. وأثنـىٰ ﷺ على خُـلُقِ الحيـاء فقـال: «لكلّ ديـنٍ خلُـقٌ ، وخلُـقُ الإسلامِ الحياءُ»[٣].

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه (ص ٦٩).
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١/ ١٢).
(٣) أخرجه مالك في الموطأ برقم (١٦٣٥).

* وعلى المربّي أنْ يُفْهِمَ الطّفلَ بأنَّ ارتداء لباس الحياء ، والاتّصاف بأخلاق أهلِ الحياء أمرٌ محبوب ، ومندوبٌ إليه ، كما أنَّ مَنْ خلعَه ، وتجرَّدَ منه فهو كما قالَ ابنُ قيم الجوزية : ليس معه منَ الإنسانيةِ إلا اللحم والدّم وصورتهما الظاهرة ، كما أنَّه ليس معه من الخيرِ شيء ، ولولا هذا الخلقُ لم يُقْرَ الضَّيف ، ولم يُوفَ بالوعدِ ، ولم تُؤَدَّ أمانة ، ولا سترَ له عورة ، ولا امتنعَ عن فاحشة[1] . فالحياءُ إذاً رأسُ مكارمِ الأخلاق ، ومَنْ كان ذو حياءٍ فإنّه ذو فضائل كريمة ، ويدعوه الحياءُ إلى تَرْكِ الرّذائل والقبائح ، وذلك لما يشعر به الإنسانُ في نفسهِ من الاستحياءِ من اللهِ عزَّ وجلَّ ، أو من النَّاس .

* والمربّي يوطّنُ الطّفلَ على التزامِ الأدبِ والحياءِ دائماً ، حتى في المواقفِ الحرجة ، فإذا سَبَّ الطّفلَ أحدُ أقرانِه ، فلا يردُّ عليه بالمثْلِ ، بل يشعره بأنَّه مؤدَّبٌ وذو حياء ، فلا ينطقُ بفاحشِ الكلام ، ولا ببذيءِ اللفظ ، لأنَّ ذلك من قلّة الحياء ، ويذكرُ المربّي بعضَ الأحاديثِ النّبوية التّربوية في هذا الميدان ، كقولهِ ﷺ: «الحياءُ لا يأتي إلا بخير»[2] ، وقوله : «إنَّ ممَّا أدرك النَّاس من كلامِ النّبوة الأولىٰ : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت»[3] ويعلّم المربي الطّفل بأنَّ الحيـاءَ ضرورةٌ اجتماعيـة ، فإذا فَقَدَهُ الناس ، فإنَّ الطفْلَ يتنكَّرُ لأبيهِ ، والتّلميذ لأستاذهِ ، والمتفضّل لصاحب الفَضْل ، وإذا نُزِعَ الحياءُ منْ إنسانٍ انحدرَ إلى دركِ الرّذائل شيئاً فشيئاً ، و :

يَعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقىٰ العودُ ما بقيَ اللحاء

* ولا مانع أنْ يشيدَ المربّي ويشيرَ إلى بعضِ الشَّمائل المحمديّة في

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/ ٣٤٥) .
(٢) متفق عليه من حديث عمران بن الحصين ـ رضي الله عنه ـ .
(٣) أخرجه البخاري من حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ .

الحياء ، ليحبّب إلىٰ الطّفلِ الحياءَ ، وسَيِّدَ أهْلِ الحياءِ وأميرهم محمداً ﷺ ، فيذكرُ له أنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ كان أرقّ النّاس طبعاً ، وأنبلهم سيرةً ، فعن أبي سعيد الخدريّ ـ رضي الله عنه ـ: «كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرِها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهِهِ»[1] .

* ويعرّف المربّي أيضاً الطفلَ بأنَّ للحياءِ مواضع يستحبُّ فيها ، فالحياءُ في الكلام يتطلّب منَ المسلمِ أنْ يطهِّرَ فمه منَ الفحش ، وأنْ ينزّه لسانَه عن العيبِ ، فإنَّ منْ سوءِ الأدب أنْ يلفظَ الإنسانُ الكلماتِ البذيئة وغير المهذّبة وهو غيرُ عابىء بمواقعها وآثارِها ، لذا فإنّه منَ الحياء أنْ يخجلَ الإنسانُ من أنْ يُؤثر عنه سوءٌ أو كلماتٌ نابية ، أو غِيْبةٌ أو رذيلة .

* إنَّ الحياءَ ملاكُ الخيرِ ، وهو عنصرُ النُّبْل والخير فيّ كلّ عملٍ يشوبه ، قال الحبيبُ المصطفى ﷺ: «ما كان الفحشُ في شيءٍ إلاّ شَانَه ، وما كانَ الحياءُ في شيءٍ إلا زانَه»[2] ، ولو تجسّم الحياءُ لكانَ رمزَ الصَّلاح والإصلاحِ ، والمكارم ، فقد وردَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لأمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لو كانَ الحياءُ رجُلاً لكان رجُلاً صالحاً ، ولو كان الفحشُ رجلاً لكان رجلاً سوءاً»[3] .

* ومما يجبُ على المربّي أنْ يعلِّمَه الطّفلَ في الحياءِ أنْ يذكرَ له أنَّ مِنْ الحياءِ أن يعرفَ الإنسانُ لأصحاب الحقوقِ منازلَهم ، فالطّفلُ مع مَنْ يكبره ، والتّلميذ مع مَنْ يعلّمه ومع من يؤدّبه ويربّيه ، وهكذا في سائرِ أحوالِ النَّاس؛ ويعلّمه كذلك أنَّ الحياءَ ليس جُبْناً ، بل هو الشّجاعة في أعلىٰ صورِها ، لأنَّ الإنسانَ الحييَّ العاقلَ يضبطُ سلوكَه ضبطاً محكماً أمامَ

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الترمذي.
(٣) رواه الطبراني.

اللهِ وأمامَ النَّاس ، فيتكلّم بحَسَنِ القولِ ، ويتصرّفُ بأمانةٍ ودقّة ، ويعرف أنَّه لا يغيب عن اللهِ أبداً ، لذلك يحيا حياةً فاضلةً خيّرة معطاء ، ويكون من الخيّرين من أهلِ الحياءِ ، فأكرمْ بالحياءِ وأهل الحياء! .

٤ ـ أهميّةُ الوقْت وتربيةُ الطّفْلِ عَلى الإفادة منْه :

* الفراغُ والوقتُ إذا لم يُستغلاّ بالحقِّ كانتِ العاقبةُ وخيمةً ، وخصوصاً إذا نشأَ الطّفْلُ علىٰ الاستهانةِ بالزَمنِ وعدمِ الاكتراثِ بالوقتِ ، وبالتَّالي تحدُثُ الآفاتُ منَ الفَراغ ، إذ في أحضانِ البَطالة تُولدُ آلافُ الرّذائلِ ، وإذا كان العملُ رسالةَ الأحياءِ والحياةِ ، فإنَّ العاطلينَ موتىٰ ، والفَارغين لا حصادَ لهم إلاّ البوارُ والخسرانُ ، ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ لمْ يخلقِ النَّاسَ ليضيّعوا وقْتَهم عبثاً ، فعليهم أنْ يعمُروا وقْتَهم بما يسعدُهم في الدَّارَيْن ، لأنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن عمره فيما أمْضَاه ، ولم يُخْلقْ عَبثاً قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

* ومن أجملِ العبارات التي قيلَتْ في استغلالِ الوقت ، هذه العبارة التّربوية الصّادقة للإمام الشّافعيّ ـ رحمه الله ـ حيث قال: إذا لمْ تشْغَلْ نفْسَك بالحقّ شغلتْكَ بالَباطلِ.

* وهذا صحيحٌ ، فإنَّ النَّفْسَ لا تهدأُ ، فإذا لمْ تُشْغَلْ بصالحِ الأعمالِ ومشروعاتِ الخير ، لا تلبثْ أنْ تتناوشَها الأفكارُ الطائشةُ ، وتلقي بها في مهاوي الرّدى والتّرّهات. ولذا يُعَدُّ الفراغُ ووفْرةُ الوقتِ لدىٰ النّاسِ والأطفالِ خاصَّة مشكلةً كبيرةً ، حيثُ إنّ كثيراً منَ الانحرافاتِ السّلوكيّةِ والأخلاقيّةِ المختلفةِ كان الوقتُ والفراغُ منْ أهمّ الأسبابِ الدّافعة إليها؛ ومنَ المعروفِ لدىٰ عُلماء التَّربية بأنَّ الطِّفْل عندما تتوفّرُ لديهِ الإمكاناتُ والفراغُ فإنَّه يبدأُ في المُعاكَسَاتِ والأفكارِ والهواجسِ التي لا تحصُلُ له إذا كانَ مشْغُولاً بشيء.

* ولذا فعندما يُتاح وقتُ الفَراغِ للطّفل ـ أو حتّى للكبير ـ لا تلبثُ

شياطينُ القَلقِ أنْ تهاجمَه ، وتدخلُ عليه منْ أيّ الأبواب شاءَتْ ، ومن هنا يجبُ على المربّي أنْ يشْغَلَه بعملٍ يملأُ عليه وقْتَه ، ويطردُ عنه الهواجسَ ، والقَلقَ ، وقد شرحَ «ديل كارنيجي» هذا فقال: إنّنا لا نحسُّ أثراً للقَلقِ عندما نعكفُ على أعمالِنا ، ولكنَّ ساعاتِ الفراغ التي تلي العملَ هي أخْطَرُ السَّاعاتِ طرّاً.

* ولهذا فإنَّ الطّفْلَ الذي يعيشُ في جو ملؤهُ الفراغُ القاتلُ ، والوقتُ الطّويلُ ، ودون اهتمام المربّي في مُراعَاةِ وضْعهِ النَّفْسي ، والعمل على شغلِ فراغِه ، فإنَّه بلا شَكّ يكون أسيرَ الشَّكِّ والوسواسِ والانحرافِ وما شابَه ذلك.

* ولذا يحرِصُ المربّي على حمايةِ الطّفلِ من أوهامِ الفَراغ ، ويشعرُه بأهميّةِ الوقْتِ ، ويعملُ على إشْغَالِ يومِه بما ينفعُه من أنشطةٍ ثقافيّةٍ ورياضيّةٍ مختلفة؛ ومن حق المربّي أنْ يحذِّرَ من آفاتِ الفَراغ ، وأنْ يُحصِّنَ نَفْسَ الطّفلِ من شُرورها. ولعلَّ أمثلَ الوسائلِ في هذه الحالةِ وضْعُ برنامج مفيدٍ لذلك؛ لأنَّ شَحْنَ الوقتِ بالواجباتِ يحمي الطّفل منْ عللِ الفَراغ ولوثاتِ البَطالةِ ، ومنذُ قديمِ الزّمانِ عَرفَ حكماءُ العربِ ومصلحوهم أنَّ آفةَ الفراغِ مفسدةٌ ، وذريعةٌ إلى الفُسوق ، ؛ قال زُهير بنُ أبي سلمى:

إنَّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَه مفْسَدةٌ لِلْمرْءِ أيَّ مفْسَده

* إنَّ الفَراغَ يدمّرُ ألوفَ الكفاياتِ وألوفَ المواهبِ ، ويخفيها وراءَ ركامٍ هائلٍ من الاستهانةِ والاستكانةِ ، كما تختفي معادنُ الذَّهبِ والحديدِ في مناجمَ مجهولةٍ؛ ويستتبعُ هذا الإهدارُ الشَّنيعُ للوقتِ مصائبَ لا حَصْرَ لها في الأحوالِ الاجتماعيّة والنّفسيّة والفكريّة.

* ويروىٰ أنَّ سيّدنا عمرَ بنَ الخطّاب ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ كان يقولُ: إنّي لأرى الرَّجل فيعجبُني ، فأسألُ: ألَهُ حِرْفَةٌ؟! فإنْ قيلَ: لا حرفةَ له سقَطَ من عيني.

* وفي الحديثِ: «إنَّ الله يحبُّ المؤمنَ المُحترِفَ» ولا ريبَ في أنَّ شعوباً تسقطُ في الهاويةِ، إذا استهْلَكَها الفراغُ، ولعبَ بها الوقْتُ؛ أو لعبتْ هي بالوقتِ دونَ فائدة.

* فالوقتُ إذاً في حياةِ المُسلم هو كلّ شَيءٍ، وهو رأسُ مالهِ الحقيقيّ الذي يحتاجُه لديْنِهِ وآخرته، فهو أثمنُ ما يملكُ على الإطلاقِ، فالحياةُ دقائقٌ وثوانٍ كما قالَ شوقي:

دقّــاتُ قَلْــبِ المــرءِ قــائلــةٌ لــه إنَّ الحيــاةَ دقــائــقٌ وثَــوان

* إنَّ الوقتَ هو الوعاءُ لكلّ عملٍ يقومُ به الإنسانُ، فكلُّ الأعمالِ الطّيبةِ التي يحتاجُها الإنسانُ في الدّنيا والآخرة تفتقِرُ إلىٰ الوقتِ؛ ولهذا يشيرُ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهميّته ويحذّرُ من إهمالهِ، فيقول: «إنَّ الصّحةَ والفراغَ نعمتان منْ نعمِ اللهِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاس»[1]، والمعنى: إنَّ كثيراً منَ النّاسِ قد خسرها، ولم يتمكّنْ منِ استغلالِها على الوجهِ الصَّحيح الذي تكونُ له ذُخْراً في الآخرة؛ لا غُبناً عليه وحَسْرة.

* ومنْ هنا دعا العلماءُ والفقهاءُ المربِّينَ إلىٰ الاستفادةِ من الفراغِ، وتبيانِ أهميّته للطّفل والمتعلِّم، يقولُ الإمامُ برهانُ الدّين الزّرنوجي في هذا المجالِ ما مُفاده: وينبغي أنْ يكونَ طالبُ العلْمِ مستفيداً في كُلّ وقْتٍ، حتى يحصلَ له الفَضْل[2]. فالعمر قصيرٌ، والعلمُ كثيرٌ، فينبغي ألّا يضيِّعَ الأوقاتِ والسَّاعاتِ، ويغتنمَ الليالي والخلواتِ.

* قال يحيىٰ بنُ معاذ الرّازي ـ رحمه الله ـ: يُنصحُ الطّفلُ وطالبُ العِلْم باغتنام الفُرص واغتنام الفَراغ والوقْتِ: الليلُ طويلٌ فلا تقصِّرْهُ بمنامِكَ، والنَّهارَ مضيءٌ فلا تكدِّره بآثامِك[3].

---

(١) سنن الدارمي (٢/ ٢٩٧)، وللحديث أصل في البخاري وسنن الترمذي وابن ماجه.
(٢) تعليم المتعلم في طريق التعلم (ص ٨٩).
(٣) المصدر السابق عينه (ص ٩١).

* وأنشدَ أحدُ الفُضَلاء :

أَلَيْـسَ مِـنَ الخُسْـرانِ أنَّ ليـاليـاً   تَمرُّ بلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ منْ عُمرِي

* وكان السَّلفُ الصَّالح منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، وكذلك صلحاءُ التّابعين يحرصُون على أوقاتِهم حرصاً شديداً أكثر منْ حرصِ الشَّحيح علىٰ مالهِ ، وقد جاء في أخبارِ الحسنِ البصريّ التّابعي الشَّهير ـ رحمه الله ـ أنَّه قالَ لتلامذتِه وعلماءِ عَصْره: أدركْتُ أقواماً ـ أي الصَّحابة ـ كانُوا على أوقاتِهم أشدّ منكم حرصاً علىٰ دراهمكم ودنانيركم .

* وفي أهميّةِ الوقتِ والحفاظِ عليه يقولُ ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ: ينبغي للإنسانِ أنْ يعرفَ زمانَه ، وقَدْرَ وقْتِه ، فلا يضيع منه لحظةً في غيرِ قُربة ، ويقدّمُ الأفْضَلَ فالأفْضَلَ من القولِ والعَملِ ، ولتكُنْ نيّتُه في الخيرِ قائمةً ، من غيرِ فُتورٍ بما يَعْجزُ عنه البَدَنُ من العَملِ ، كما جاءَ في الحديث: «نيّةُ المرءِ خيرٌ منْ عَملِه»[1] ، وقد كان جماعةٌ من السَّلَفِ يبادرون اللحظات ، ويغتنمون الأوقاتِ في الجِدّ والنَّفعِ[2] .

* وفي ضرورةِ المحافظةِ على الوقت ، ولفْتِ نَظَر المربّين إلى أهمّيته ، وتعويدِ النّشءِ على الاستفادةِ منه يقولُ ابن الجوزي أيضاً: رأيتُ عمومَ الخلائقِ يدفعون الزَّمان دفْعاً عجيباً؛ إنْ طالَ الليلُ فَبِحَديثٍ لا ينفعُ ، أو بقراءةِ كتابٍ فيه غزاةٌ وسَمَر؛ وإنْ طالَ النَّهارُ فَبِالنّوم؛ وهُمْ في أطرافِ النَّهار على نَهْر دِجْلَةَ ، أو في الأسواقِ ، فشَبَّهتُهم بالمتحدثين في سفينةٍ وهي تجري بهم ، وما عندهم خَبَر. . . فاللهَ اللهَ في مواسم العُمر ، والبدارَ البدارَ قبلَ الفواتِ ، واستشهدوا العلْم ، واستدلّوا الحكْمةَ ، ونافسُوا

---

(١) أخرجه الطبراني (٦/ ٢٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥) .
(٢) انظر : صيد الخاطر (ص ٥٢) طبعة دار اليمامة بتحقيق يوسف بن علي بديوي .

الزَّمانَ ، وناقشُوا النّفوسَ ، واستظهروا بالزّاد ، فكأَنْ قَدْ حَدَا الحادي ، فلمْ يُـفْهَمْ صَوتُه من وقْعِ دمعِ النَّدم[1] .

* وما زلنا مع الوقتِ النّافع واغتنام الفَراغِ بما هو نافعٌ مع ابنِ الجوزي في نصيحتِه لابنِهِ من خلالِ رسالته الشَّهيرة: «لَفْتَة الكَبِد في نَصيحَةِ الولَد» حيثُ ينصحُ ابنَه بالاعتناءِ بالوقتِ والحرصِ عليه ، والاستفادةِ منه قبل فواتِ الأوان فيقولُ له: يا بنيّ ، انتبهْ لنفسِكَ ، واندمْ علىٰ ما مضىٰ من تفريطكَ ، واجتهدْ في لحاقِ الكاملينَ ، ما دامَ في الوقتِ سَعَة ، واسقِ غُصْنَك ما دامتْ فيه رطُوبةٌ ، واذكرْ ساعاتِكَ التي ضاعَتْ ، فكفى بها عِظَة؛ ذهبتْ لذّةُ الكَسَلِ فيها ، وفاتت مراتبُ الفَضائِلِ ، وقد كانَ السَّلفُ يحبّون كلّ فضيلةٍ ، ويبكون علىٰ فوتِ واحدةٍ منها. قال إبراهيمُ بنُ أدهم ـ رحمه الله ـ: دخلنا علىٰ عابدٍ مريضٍ ، وهو ينظرُ إلى رجلَيْه ويبكي ، فقُلنا: مالك تبكي؟ فقالَ: ما اغبرّتا في سبيلِ اللهِ تعالى. وبكى آخرُ فقيل له: ما يبكيكَ؟ قال: علىٰ يومٍ مضىٰ ما صُمْتُه ، وعلىٰ ليلةٍ ذهبَتْ ما قمتُها.

* واعلمْ يا بني أنَّ الأيّامَ تبسطُ السَّاعاتِ ، والسَّاعاتُ تبسطُ أنْفَاساً ، ولكلّ نفس خزانةٌ ، فاحذرْ أنْ تُذْهِبَ نفساً في غيرِ شيء ، فترى في يوم القيامةِ خزانةً فارغةً فتندمَ؛ وكان أربعونَ رجُلاً من السَّلف يصلّونَ الفجر بوضوءِ العشاء؛ وكانتْ رابعةُ العدويّة لا تنامُ الليلَ ، فإذا طلعَ الفجرُ هجعَتْ هجعةً خفيفةً ، ثمّ قامَتْ فَزِعةً ، وقالتْ لنفسها: النّومُ في القُبور طويلٌ[2] .

* وكان ابنُ الجوزي من شدّةِ حرصِه على الوقت ، وشدّةِ اهتمامِه به ، يخصّصُ وقْتَ زيارةِ الأصدقاءِ له في حزمِ الدّفاترِ ، وبري الأقلام ، وغيرِها

(١) انظر: صيد الخاطر (ص ١٧٩ و١٨٠) باختصار.
(٢) انظر: لفتة الكبد بآخر كتاب صيد الخاطر (ص ٥١٨ و٥١٩) باختصار.

من الأعمالِ التي لا تحتاجُ إلى استحضارِ القَلب ، حتّى لا يضيعَ شيءٌ من وقتهِ سُدى(١) .

* ولابن قيّمِ الجوزيّة ـ رحمه الله ـ كلامٌ قيّمٌ في وصفهِ لأهميّة الوقتِ ، وقيمته ، فيقول: ووقتُ الإنسانِ هو عمرُه في الحقيقةِ ، وهو مادّةُ حياتهِ الأبديّة في النَّعيم المُقيم ، وهو يمرُّ أسرعَ من السَّحاب ، فمَنْ كان منْ وقتِهِ لله وبالله فهو حياتُه وعمره ، وغير ذلك ليس محسُوباً من حياتِه وإنْ عاشَ فيه عاشَ عيشَ البهائِمِ ، فإذا قطعَ وقْتَه في الغَفْلةِ والسَّهو والأماني الباطلةِ ، فموتُ هذا خيرٌ لهُ من حياتِهِ(٢) .

* إذاً فكيفَ يستغلُّ المربّي الوقْتَ؟! وكيفَ يحافظُ الأبُ على أطفالِه منَ الضَّياع وسطَ أوقاتِ الفَراغ القاتلةِ؟!

* إنَّ التَّنظيمَ والنِّظامَ في الأسرةِ هو أساسُ النَّجاحِ في جميعِ الأمور في الحياةِ ، ومن يتعوَّدْ علىٰ النّظام يجدْ لذّةً خاصّةً في الحياةِ ، لذا فعلىٰ المربّي أنْ يحاولَ استغلال كلِّ دقيقةٍ وكلِّ لحظةٍ بما يفيدُ الطّفلَ ويعُودُ عليهِ بالنَّفعِ والخيرِ ، ويربّي الأطفالَ على حبّ العملِ والاستفادةِ منْ كلّ جزءٍ من الوقْتِ ، وتحذّرهم من تعوّدِ المَلَلِ ، وحبّ الفَراغ ، وتذوّق مرارةِ السَّآمة ، فالمسلمُ ليسَ عنده أوقاتٌ يركَنُ فيها إلى تبديدِ الوقتِ؛ فالطّفلُ الصَّغيرُ يشغلُ وقْتَه باللعبِ الهادفِ(٣) الذي يناسبُ سِنَّه ، ويمزجُ المربّي ذلكَ اللعب بتعليمِهِ شيئاً منْ مبادىءِ القراءةِ والحساب والتّعلُّم ، ويتّخِذُ المربّي أبسطُ الوسائلِ المناسبةِ في هذا المجالِ المفيدِ. وأمّا الطّفْلُ المميّز فينظرُ المربّي إلىٰ هواياتِهِ ويحاولُ أنْ ينميَ منها ما يخدمُ الخلائقَ القُرآنيّة ،

---

(١) انظر كتاب: قيمة الزمن عند العلماء لعبد الفتاح أبو غدة ففيه قصص شائقة مفيدة.
(٢) الجواب الكافي (ص ١٨٤).
(٣) سنذكرُ في فقْرةٍ قادمةٍ ـ بإذن الله ـ بعضَ أنواع اللعب المُباح للطفل.

ويخدمَ السّلوكَ الاجتماعيّ ، وذلك حسب البيئةِ التي يعيشُها الطفلُ ، والبلدِ الذي يحيَا فيه .

* وفي إجازاتِ السَّنَةِ الدّراسيّة وخصوصاً إجازة نصف السّنةِ ، أو عطلةِ الصَّيف يكونُ وقْتُ الفَراغ فيها طويلاً ، وحدوثُ المللِ والسَّآمةِ مُحْتَمل ، وهنا فلا بدَّ للمربّي من أنْ يستغلَّ الوقْتَ بصورةٍ مقبولةٍ ، ولعلّ من ألوانِ استغلالِ الوقْت إشْراك الطّفل بالنَّشاطات الثّقافيّة والرّياضيّة المُفيدة؛ ويُستَحْسنُ إشْراكَ الطّفلِ في دوراتِ تحفيظِ القُرآنِ الكريمِ وجمعياتِهِ ، ومنها ما هو قائمٌ طوال العَام؛ وهناك أنشطةٌ يراها المربّي ويمكنُ أن يملأَ فراغ الطّفل فيها حَسَبَ ما يرىٰ من ميولِ وهواياتِ الطّفلِ ، وبشرط ألاّ يكثر عليه العمل فينقلبَ الأمْرُ ، وتضطربَ الأحوالُ ، ولا يستفيدَ الطّفل منَ الوقتِ أو الزّمن ، لأنَّ الزّمن كما يقولُ الشّيخ عبد الفتّاح أبو غُدة: من أجَلِّ أصولِ النّعم ، ومن أعلاها ، فالزّمن هو عمرُ الحياةِ ، وميدانُ وجود الإنسان ، وساحةُ ظلِّه وبقائِه ، ونفعُه وانتفاعُه ، وقد أشارَ القُرآنُ الكريمُ إلى عِظَم هذا الأَصْل في أُصول النِّعم ، وألْمعَ إلى علوِّ مقدارِهِ على غيرِه ، فجاءتْ آياتٌ كثيرةٌ ترشدُ إلى قيمةِ الزّمنِ ، ورفيعِ قَدْره ، وكبيرِ أثَرِه[1] .

* ومن الممتعِ والمُستَحْسنِ أنْ يقرأَ المربّي بعضَ الآياتِ من القرآنِ الكريمِ التي تتحدَّثُ عن قيمةِ الوقْتِ وأهميتهِ ونعمتهِ ، ويفسرها للطّفلِ ليدركَ قيمةَ هذا الكنْزِ النّفيس الذي لا يُقدَّرُ بثَمنٍ ، فيقرأُ له مثلاً قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

* ومنَ المفيدِ أيضاً أنْ يلفتَ المربّي نظرَ الطّفل إلىٰ أهميّة الوقتِ من

(١) انظر: قيمة الزمن عند العلماء (ص ١٧) بتصرف يسير جداً.

خلالِ قصارِ السُّوَر التي أقسمَ اللهُ من خلالها بالزَّمن ، حيثُ أقسمَ بالليلِ ، والنَّهار ، والفجر ، والصُّبح ، والشَّفق ، والضّحى ، والعَصْر ، ومن ذلك قولُه عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٣ و٣٤] ، وقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ و٢] ، وقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧ و١٨] ، وقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٦ و١٧] وقوله: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ﴾ [الفجر: ١ و٢] ، وقوله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١ و٢] ، وقوله : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ [العصر: ١ و٢]. وقال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: العصْرُ هو الزَّمنُ.

* ومن لطائفِ التّفسير وبدائعِهِ ما أوردَه الإمامُ فخر الدّين الرّازي في تفسيرِه الجميلِ البديعِ «مفاتيح الغيب» المشهور باسم «التّفسير الكبير» ، وذلك عند تفسيرِه لسورة ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ ما محصّلُه وملخّصُه ومُفادُه: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قدْ أقسمَ بالعَصْر ، لما اشتملَ عليه منَ الأعاجيبِ ، لأنّه يحصلُ فيه السَّراءُ والضَّرّاءُ ، والصِّحة والسّقْم ، والغنىٰ والفقْر ، بل فيه ما هو أعجبُ من كلّ عجبٍ ، فلو ضيّعتَ ألفَ سنةٍ ، ثمّ تُبتَ في اللمحةِ الأخيرةِ من العمر ، بقيْتَ في الجنَّة أبدَ الآبادِ ، فعلمتَ حينئذٍ أنَّ أشرفَ الأشياءِ حياتُك في تلكِ اللمحةِ ، فكأنَّ الدهرَ والزّمانَ من جملةِ أصولِ النّعم ، فلذلك أقسمَ بهِ ونبّهَ على أنَّ الليلَ والنَّهار فرصةٌ يضيّعها المكلَّفُ ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ فالإشارةُ إلى الزّمانِ واضحةٌ ، لأنَّ الزّمانَ أعلىٰ وأشرفَ منَ المكانِ ، فلما كان كذلك كانَ القَسمُ بالعَصْرِ قَسَماً بأشرفِ النّصفَيْن منْ مُلْكِ الله وملكوتِهِ ، ولأنَّ العَصْرَ نعمةٌ خالصةٌ لا عيبَ فيها ، وإنّما الخاسرُ المعيبُ هو الإنسان[1].

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٣٢/ ٨٠ و٨١) باختصار وتصرف.

* ويذكُرُ المربّي للطفل أيضاً قيمةَ الوقْتِ ، وأنَّه سريعُ الانقضاء ، وهو أعزُّ الأشياءِ ، وإذا فاتَ فلا يمكن استدراكُه ، ولذلك قيل : الوقتُ كالسَّيفِ إنْ لمْ تقطعْه قطعَكَ .

* فالوقتُ منْقَضٍ بذاتِه ، ومن سَهَا عن نفسهِ اشتدَّتْ حسراتُه لقيمةِ ما أضاعَ ، فاخترْ لنفسِكَ ما يعودُ عليك منْ وقتِكَ ، فإنَّه عائدٌ عليكَ لا محالة؛ فَمَنْ قضاهُ بأعمالِ الخيرِ فسيكونُ سعيداً ، ومَنْ أضَاعَهُ دون جَدوىٰ ضاعَتْ عليهِ مصالحُه كلّها ، وجميعُ المصالحِ تنشأُ من الوقتِ ، ومَنْ أضاعَ الوقْتَ لم يستدركْه أبداً .

* فوقتُ الإنسانِ هو عمرُهُ الذي يمرُّ مرَّ السَّحاب ، فليغتنمْهُ في الطَّاعةِ والمفيدِ ، وإلاّ مَنْ قطَعه في غَفْلةٍ وفي نومٍ وبطالَةٍ ، فموتُ هذا خيرٌ له منْ حياتِهِ؛ ولذلك كان عبدُ الله بنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقولُ : ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غَربَتْ شمسُه ، نقصَ فيه أجلي ، ولم يزِدْ فيهِ عمَلي .

* ويسعىٰ المربّي مع الطّفْلِ لقراءةِ بعضِ ما وردَ عن أكابرِ السَّلف في اغتنام الوقتِ وتبيانِ قيمته ، من مثل قولِ الحسَن البصري ـ رحمه الله ـ : يا بنَ آدم ، إنّما أنتَ أيّام ، فإذا ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك . وقال عمرُ بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ : إنَّ الليلَ والنَّهار يعملان فيك ، فاعملْ فيهما .

* ويرغّبُ المربّي الطّفْلَ في استثمارِ الوقْتِ وهو في هذهِ المرحلةِ المزهرةِ من العمر ، قبلَ أنْ تدهمَه الأعمالُ والمشاغلُ ، قال النّووي ـ رحمه الله ـ : وينبغي للمُتعلِّم أنْ يغتنمَ التّحصيلَ في وقتِ الفراغِ والنَّشاط ، وحال الشّباب وقوةِ البدنِ ، ونباهةِ الخاطرِ ، وقلّة الشّواغل قبل عوارضِ البطالة[1] .

---

(١) قيمة الزمن (ص ١١٤) نقلاً عن المجموع للنووي (١/ ٦٩) .

* يقولُ الشّيخ عبدُ الفتّاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ: ومنَ المؤسفِ أنَّه قد انتشرَ في صفوفِ طلبةِ العلْمِ اليومَ: الكسَلُ العَقْليّ ، وغلبَ عليهم إيثارُ الرَّاحةِ والدَّعةِ ، على الجدِّ والدّأبِ ، وصارتِ الرّفاهيةُ وأنواعٌ منَ الفُضُولِ مقصداً منْ مقاصدِ الحياةِ عندهم ، وغدتِ المُتعُ مطْلَباً من مطالِبهم ، فلم يبقَ لديهم وقتٌ للدّرسِ والتّحصيل ، وصارتْ حالُهم تشبِهُ حالَ مَنْ عناه الإمامُ أحمدُ بنُ فارس الرّازي اللغويّ بقوله:

إذَا كَانَ يؤْذيكَ حرُّ المَصيفِ ... ويُبْسُ الخَريفِ وبَرْدُ الشّتا
ويَلهيْكَ حُسْنُ زمَانِ الرّبيعِ ... فأخْذُكَ لِلعِلْمِ قُلْ لي مَتَى[1]

* إنَّ سنَّ الطُّفولةِ هو خيرُ وقتٍ لتحصيلِ العلْمِ والمعرفةِ ، لأنّه كلّما كبرتْ سنُّ الإنسانِ كبرتْ معه المسؤوليّات ، وزادتِ العلاقاتُ ، وضاقتِ الأوقاتُ ، ونقصتِ الطّاقاتُ ، فالوقتُ في الكِبَرِ أضيقُ ، والجسمُ فيه أضْعَفُ ، والصِّحَّةُ فيه أقلّ ، والواجباتُ والشّواغلُ فيه أكبرُ وأكثرُ وأشدُّ. فالعملُ والجِدُّ والمجدُ ونيلُ الغاياتِ يكونُ في سنّ الطّفولةِ وسنّ الشّباب ، لا في سنّ الشّيخوخة عندما يبلغُ الإنسانُ منَ الكبرِ عتياً.

* وهكذا يظلُّ المربّي وراءَ الطّفلِ ، يذكّرُهُ بقيمةِ الزَّمنِ ، ويذكّره باغتنامِهِ ، وألاّ يضيعَ وقْتَه وراءَ المُلهيات ، فمنَ الملاحظِ أنَّ الأوقاتِ ـ في هذه الأيّام ـ تمرُّ سريعةً جدّاً ، ولا يكادُ يمرّ شهرٌ إلا ويقرعُه شهرٌ آخر ، والسَّنة تقرعُها السَّنةُ ، وقد لاحظتُ ذلك من خلالِ الأيّام حيث لا نشعرُ بالوقتِ ولا ببركَتِهِ ، حتى إنَّ الأطفالَ أنفسَهم يقولون: إنَّ الأيّامَ تمضي مسرعةً ، ولا نشعرُ بتعاقبِ الأسابيعِ ولا الشّهور!!

* وأخيراً أحبُّ أنْ أختمَ هذه الفقْرَة ، بكلماتٍ مفيداتٍ عن الزمن سمعتُها من أحدِ العُلماء عندما كنتُ تلميذاً ، فطلبتُ منه ورجوتُه أنْ يكتبَها

---

(١) المرجع السّابق (ص ١١٥ و١١٦).

لي بخطّهِ علىٰ دفترِ مذكّراتي ومختاراتي ، فكتبَ فيه ما يلي : «خُذْ منَ الدُّنيا ما صَفَا ، ومنَ العيشِ ما كفىٰ ، ومنَ الإخوانِ ما وفَىٰ ، ودعِ الظُّلمَ والجفَا ، فإنَّ العمرَ قصيرٌ ، والنَّاقدَ بصيرٌ ، وإلى اللهِ المصير» .

* وفي هذهِ العبارة دليلٌ علىٰ أهميّةِ الوقْتِ ، واغتنامِهِ بما هو مفيدٌ؛ كما أنّني أوجّهُ النُّصحَ إلىٰ أولئكَ المدمنين على الدخان ، بأنْ يعملُوا بهذه النّصيحة ، ويتركُوا شُربَ الدّخان ، لأنَّهم يقطعونَ الوقْتَ بضررِ أنفسِهم ماديّاً وجسدياً ، وكذلك يضرّون مَنْ حولهم من أُسرِهم وأصحابِهم ، وقد نصحتُ أحدَ النَّاس مرّةً وقلتُ له : اشْتَرِ بنصفِ ثمنٍ ما تشربُ منَ الدخانِ كتاباً في كلّ شَهر ، ستجد أنّك كوّنْتَ مكتبةً ممتازةً بعد مدّة منَ الزَّمن ، وبالفعلِ عملَ هذا الإنسانُ بالنّصيحة وتزخرُ مكتبتُه الآن بنفائسِ الكتب ، كما يزخرُ عقلُه بنفائسِ العلْمِ والمعرفةِ ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَنا وأطفالَنا ممن يقطعونَ أوقاتهم بما ينفعُ ويفيدُ .

٥ ـ أهميّةُ اللّعبِ وتربيَةُ الطّفْلِ على الإفَادة منه :

* نحنُ علىٰ موعدٍ مسبقٍ مع هذهِ الفقْرةِ التي تبدو غريبةً للوهْلَةِ الأُولى عن موضوعِ البابِ الذي دلفْنَا منهُ إلىٰ هذهِ الفُصولِ والفقْرات المتنوّعة .

* غير أنّنا لو نظَرنا نظرةً متأنيةً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ لألفينا فيهِ جوانبَ متعددةً في الحديثِ عنِ القُوّةِ في البدنِ، مع كمالِ الهيئةِ، وانتصابِ القامَةِ، فالقوّةُ الجسميّة المتوجَة بالعلْمِ وخشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أساسٌ للرّئاسةِ والقيادةِ والسُّؤدد ، وهذا ما ذكرهُ الله عزَّ وجلَّ عندما تحدَّثَ عن سببِ اختيارِ طالوت للمُلْكِ على قومهِ فقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧]

فالقيادةُ تحتاجُ مع القوةِ الجسميّة إلىٰ العلْم المفيدِ النّافع ، وهذا ما اهتمَّ به الإسلامُ ودعا إليه كيما يكونَ الفَرْدُ قريباً من الكمالِ من جميعِ النواحي الخلقيّة ، والفكْريّة ، والجسميّة ، ولا يقتصرُ على ناحيةٍ منها دونً أخرى.

* والإسلامُ دينٌ جاءَ لسَعَادةِ الإنسانِ بل البشريّة جميعاً ، فدعا إلى اتّخاذِ المفيدِ من اللعبِ والرّياضَات ، وقد أعدَّ أبناءَه إعداداً ملائماً ، فقد أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالاستعدادِ الكاملِ بكلّ أنواعِ القوّة حسبَ المستطاعِ ، حيثُ قال مُخاطباً عبادَه المؤمنين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ . . .﴾ [الأنفال: ٦٠].

* وتأتي السُّنَّةُ المطهَّرة لتؤكّدَ هذا المفهومَ ، وتبينَ بأنَّ المؤمنَ يجبُ أنْ يكونَ قويّاً ، لأنَّ الإسلامَ يحبُّ منه ذلك ، وفي هذا يمتدحُ النَّبيُّ ﷺ المؤمنَ القويَّ فيقولُ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ اللهِ مَن المؤمنِ الضَّعيف وكلٌّ خير»[1].

* إذاً فكلُّ ما يفيدُ الجسمَ ويقوّيه يحبُّه الإسلامُ ويدعو إليه ، فاللعبُ بأنواعهِ المشروعةِ يرفدُ الجسمَ ويقوّيهِ ، وينمّي العضلاتِ ، والجهادُ يستلزمُ هذه الغاية ، ويدعو إليها.

* ولذا يحرصُ المربّي الحصيفُ على رعايةِ الأطفالِ من هذه النَّاحيةِ ، ويوجّههم إلى أفضلِ السُّبلِ المشروعةِ كيما يستفيدوا منْ طاقاتِهم الحيويّة ، وقدراتهم الجسميّة بما يعودُ عليهم ، وعلى أمّتهم بالقوّةِ والمنعة[2].

* وقد رغَّبَ الإسلامُ الآباءَ أنْ يحرصوا على تربيةِ أطفالِهم على ممارسةِ بعضِ الألعابِ والنَّشاطات البدنيّة ، ونبّه إلىٰ أنَّ الحركةَ عند الطِّفل غريزةٌ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٠).

(٢) انظر: مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٢٠) بشيء من التصرف.

قويّـةٌ ، فيجبُ توجيهُها إلى ما ينفعُها؛ وقد ثبتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أقـرَّ بعضَ أنواعِ النَّشاطاتِ البدنيّةِ والألعاب الرّياضيّة ، عند مقدمِه المدينة المنوّرة ، فقد أقرَّ سباقَ الخيلِ كما جاءَ في صحيحِ البُخاري ، وكان يشرفُ على ذلك بنفسهِ.

* وتذكرُ المصادرُ الحديثيّةُ وكتُبُ الطَّبقات وغيرها أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ والمربّي الكريم محمّداً ﷺ كان يشجّعُ علىٰ بعضِ الرّياضَات المفيدة ، ويشجّعُ عليها الأطفال ، بل كان يقومُ ببعض النَّشاطاتِ الرّياضيّة والبدنيّة مع الأطفالِ ، ومع الكبار ، فقد وردَ أنَّه كان يشجّعُ على السِّباق ، فكان يصفُّ عبد الله وعُبيد الله وكثيراً من بني العبّاسِ ثمَّ يقول: «مَنْ سبَقَ إليَّ فَلَهُ كذا وكذا» ، فيستبقون إليهِ فيقعون على ظهْرِه وصَدْرِه فيقبّلُهم ويلزمُهم[1].

* ويستفادُ من هذا الحديثِ بأنَّه ﷺ قد أقرَّ شيئاً منَ الرّياضة وممارسةِ النَّشاطاتِ البدنيّة مع الأطفالِ ، ليكبروا وتكبرَ معهم القوّةُ المحمودةُ.

* ومن هذا المنطلقِ نجدُ أهميّة الرّياضةِ والحركةِ ودورهما المهمّ في تنميةِ قوىٰ الطّفل العقليّة ، والخلقيّة ، والجسميّة ، وحتّى الاجتماعية ، لأنَّ العقلَ السَّليمَ في الجسمِ السَّليم ، ومن هنا جاءتِ الدّراساتُ الحديثةُ العربيةُ والغربيّةُ لتثبتَ أنَّ ذهْنَ الطّفل يتفتّحُ وينمو في اللعبِ ، فقد جاء في بحثٍ تربوي أنَّ الأطفالَ الذين تكونُ لديهم الإمكاناتُ والفرصُ للّعب ، تنمو عقولُهم نمواً أسرعَ وأكثرَ من غيرهم ممن لم تُتَحْ لهم هذه الفُرص ، وتلك الإمكانات ، وقد أكّدَ بعضُ الباحثين أنَّ رعايةَ الطّفل واكتسابَه بعضَ المهارات تساعدُ على نموّه الاجتماعي ، وذلك حسبَ سِنّه؛ كما أكّدَ على أنَّ الأطفالَ ما قبل سنّ المدرسةِ يملكون حريّةَ اللعب في معظم الوقتِ ، ولا تُسْتَنَدُ إليهم أيّ أعمال ، لكنْ منَ المفروضِ أنْ يتعلّمُوا عن طريقِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢١٤).

المحاكاة والملاحظةِ أكثر مما يتعلمون عن طريقِ التَّعليم المباشر[1].

* وعن أهميّةِ اللعبِ في التَّربية ، تدلُّ بعضُ الدراسات على أنَّ تنميةَ القوى الجسميّة وتنشيطها عند الأطفال ، تحتاجُ إلى لعبٍ يكسبُهم بعضَ المهاراتِ الحركيّة من مثل القَفْز، والجري، والتَّسلُّق ، والتَّسابق ، وغيرها من النشاطاتِ الحركيّة الجسميّة التي يكتسبُ منها الأطفال قُدراتٍ حركيّةً ، إلى جانب أنَّ اللعب يساهمُ مساهمةً كبيرةً مع الغذاءِ في نمو الأطفالِ وزيادةِ وزْنهم زيادة طبيعيّة ، وكذلك زيادة حجمِهم ، ويساعدُ على نمو أجهزتهم الجسميّةِ المختلفةِ شريطةَ ألاّ يزيدَ اللعبُ عن الوقتِ المخصّص لهم ، أو مخالفة القواعد الصِّحيّة التي يعرفُها الرّياضيون المعتدلون المتخصّصون.

* وأمّا أهميةُ اللعبِ والرّياضة في تربيةِ الجانبِ الاجتماعيّ والخُلقيّ ، فإنَّ ممارسةَ الطفلِ للّعب وسطَ مجموعة منْ أترابهِ ، يساعدُه على التّكيُّفِ الاجتماعي ، وقبولِ آراء الجماعة ، وإيثارِها على النّفس ، والتَّخلُّص من الأنانيّة وحبّ الذّات ، إلى جانبِ ظُهورِ القياداتِ بين الأطفالِ ، وتعلّم أساليبها وطُرقِ ممارستها ، كما أنَّ المبارياتِ المختلفةَ الهادفةَ بين الأطفالِ تُعتبرُ مجالاً جيداً لصرفِ المشاعر العدوانيّة عندهم.

* إنَّ ممارسةَ الطفلِ للأدوارِ الاجتماعيّةِ المختلفةِ كالأبِ ، والأمِّ ، والطَّبيب ، والجندي في لعبةِ التَّمثيل ، يجعلُه يتقلَّبُ بين هذهِ الشَّخصيّاتِ المختلفةِ ، فيكتسبُ منها أدباً اجتماعياً في كيفية التّعامل مع هذه الفئاتِ والشَّخصيات الاجتماعيّة المختلفة[2].

* وقد أشار علماءُ المسلمينِ ومفكّروهم منذُ قديمِ الزّمانِ إلى أهميّةِ

---

(١) انظر: سيكولوجية اللعب (٢٤٩ ـ ٢٥٥) بتصرف. عالم المعرفة رقم (١٢٠) ١٩٨٧م.

(٢) مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٢١ و٤٢٢) وسيكولوجية اللعب (ص ١٨٦) مع الجمع والتصرف.

الحركةِ واللعبِ للطّفل ، وأنَّه علىٰ المربّي أنْ يهتمَّ بهذا الأمْرِ المهمّ لكيلا يركَنَ الطفلُ إلى الخمولِ والدَّعَةِ المُفْرطةِ؛ يقولُ الإمامُ الغزالي ـ رحمه الله ـ: ويُعوَّدُ ـ الطّفلُ ـ في بعضِ النَّهار المشيَ والحركةَ والرياضة حتى لا يغلبَ عليه الكَسَلُ[1].

* كما أنَّ الغزالي أشار إلى فكرة التَّرويح عن نفسِ الطّفلِ بعد الدُّروسِ ، لئلا ينفرَ منَ العلْمِ ، فقال: وينبغي أنْ يُؤْذَنَ له بعد الانصرافِ من الكُتَّاب أنْ يلعبَ لعْباً جميلاً يستريحُ إليهِ من تَعَبِ المكْتَب بحيثُ لا يتعبُ في اللعبِ ، فإنَّ منْعَ الصَّبي منَ اللعبِ وإرهاقَه إلى التّعليم دائماً يميتُ قلْبَه ، ويبطلُ ذكاءَه ، وينغّصُ عليه العيشَ؛ حتى يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منْه رأساً[2].

* وهذا يشيرُ إلىٰ أنَّ الغزالي كان يدركُ ما للّعب من أثرٍ في إثراءِ فكْرِ الطّفلِ ونشاطِهِ ، وكذلك قبوله للتّلقّي إذا حدَثَ فاصِلٌ رياضيٌّ ، بالإضافةِ إلى تربيةِ الطّفلِ على الصَّراحةِ ، وإلاّ ركَنَ إلى اتّخاذ الحيلةِ غير المشروعة ، وتعوّدَ على العَبثِ والكذبِ وعدمِ الاستقامة نتيجةَ التّضييقِ عليه في العَيش مع العِلْم في الكُتّاب.

* ومن الممتعِ أنَّ الدّراساتِ والتّجاربَ قد أثبتتْ ما أشارَ إليه الغزالي من حيثُ علاقة حركة الجسم مع نموّ العقلِ في مرحلةِ الطّفولة ، حيث إنَّ التّمرينات العضليّة التي تسبقُ العملَ الفكْريَّ ، تؤدّي إلى تحسينِهِ غالباً وزيادةِ نشاطهِ؛ ومن جانبٍ آخر تنمّي العضلات ، وتزيدُ من قدرتها على المقاومةِ ، وتيسّرُ سرعةَ الحركاتِ ورشاقتها[3].

* ولعلّه من المفيد هنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ كثيراً منَ الألعابِ قد عرفَها

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠).
(٢) المصدر السابق عينه (٣/ ٧١).
(٣) مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٢٣) بتصرف.

العربُ ، ومنها ألعابُ الكرةِ ، فليستْ ألعابُ الكُرة دخيلةً على العرب كما يعتقدُ بعض النّاس ، وإنّما كان أجدادُنا العرب القدماء يعرفونَ منها أنواعاً متعدّدة ، لم يزلْ بعضُها شائعاً في الأوساطِ الشّعبية إلى الآن .

* وتشيرُ المصادرُ إلى أنَّ الشّاعر عديَّ بنَ زيد هو أوّلُ مَنْ لعبَ بالصّولجانِ منَ العرب ، كما كان هارون الرّشيد أوّلَ مَنْ لعبها منَ الخُلفاء ، وأنشأَ لتلك اللعبةِ ميداناً بجانبِ قَصْرِه؛ وقد أولى سائرُ الخُلفاء من بني العبّاسِ تلك اللعبة عنايةً كبيرةً ، فأعدّوا لها الملاعبَ المناسبةَ ، ونظّمُوا لها المبارياتِ الحافلةَ التي كان يشاركُهم اللعبَ فيها بعضُ الوزراء ، وسائرُ أكابرِ الدّولة . ويروى أنَّ المعتصمَ قسمَ أصحابَه يوماً للّعب ، وجعلَ أحدَ قوّاده في فريقٍ غير فريقه ، فقال القائدُ : يعفيني أمير المؤمنين مِنْ هذا .

فقال المعتصمُ : ولمَ أعفيكَ؟!

قال القائدُ : لأنّي ما أرى أنْ أكونَ على أميرِ المؤمنين في جِدّ ولا هَزْلٍ . فاستحسنَ المعتصمُ ذلك منه ، وجعلَه في فريقِهِ .

* وهناك مشاهيرُ من تاريخنا منَ الملوكِ والخُلفاء قد أُغرِموا بهذهِ اللعبة ومنهم : أحمدُ بنُ طولون ، ونجم الدّين الأيوبي والدُ صلاح الدّين ، ونورُ الدّين الشّهيد ، والظاهرُ بيبرس ، وغيرهم كثيرون ، وكان لهذهِ اللعبة أصولٌ مرسومة ، وقواعدُ متّفقٌ عليها ، وكان من عادتهم بعد انتهائِهم من لعبِ الصّولجان أنْ يدخلُوا الحمَّامَ الساخنَ ، حيثُ يستحمّون ويدلكون ، ثمّ يتناولون الأشربةَ المناسبة .

* وقد أجمعَ الباحثون التّربويون في أصولِ الدَّلك الحديثِ «المسَّاج» الذي يُستَعانُ به في التّجميل ، وفي تنشيطِ أجسامِ الرّياضيين ، أنَّ كلمةَ «مسَّاج» Message الفرنسيّة قد استُقيَتْ من الكَلمةِ العربيةِ «مَعْس» ؛

والمعْسُ هو دلْكُ الجلْدِ دلكاً شديداً حتّى يلينَ ، ومن المُعتقد أنَّ الفرنسيين أخذوا الدَّلْك عنِ العرب.

* وقد أدركَ العربُ فوائدَ هذه الألعاب النّفسيّة والخلقيّة والصّحية ، وخصوصاً ألعاب الكُرةِ المتنوعة ، قال الحسنُ بنُ عبد الله في كتابه : «آثار الأُوَل في ترتيبِ الدّول»: واللعبُ بالكُرة هو رياضةٌ حسَنَةٌ تامّةٌ ، وصفَها الحكماءُ والفضلاءُ منَ الملوكِ لرياضةِ الجسَد ، ورياضةِ الخيل؛ واللعبِ بالكُرة والجوكان ـ الصّولجان ـ من أتمّ الرّياضات وأكملِها وأنفعها؛ لأنَّ منَ الرياضيات ما يختصُّ بالكفوفِ والسَّواعدِ مثل الشّباك وتناوُلِ الكُرة أيضاً ، ومنها ما يختصُّ بالرِّجْلِ مثل المشي والسَّعي ، ومنها ما يختصُّ بأنواع البدنِ ، مثل الصِّراع وحَمْلِ الأثقال ، وهذه تعمّ البدنَ جميعَه ، وهو يتحرّكَ لها حركاتٍ مختلفةً ، والبصرُ يتبعُها ، والرّأس تلتفتُ إليها ، والأصواتُ والصَّيحات ترتفعُ فيها ، ومنها تحريك الغدّة النَّفسيّة لما فيها من طَلبِ المُغالبة.

* ثمّ يستمرُّ الحسنُ بنُ عبد الله في الحديثِ عن الفوائدِ الخلقيةِ والنَّفسية التي تحقّقها تلك اللعبة فيقول: ومنها السّرورُ والفرحُ بالظَّفرِ والاستيلاءِ ، مع مباشرةِ التّألُّم من العجزِ والغَلبةِ ، ومنها تعوّد الاجتماع والتّدرب ، ومساعدة الأصحاب لبعضِها ، وتعاضد الأولياء وتعاونهم على الخصْمِ والأعداءِ.

* وأشارَ الحسن هذا إلىٰ القواعدِ الصِّحيّة التي ينبغي مراعاتُها في تلك اللعبة : ومنها أنَّ يلتزمَ اللاعبون في لعبتهم حدَّ الاعتدالِ ، فيتجنبوا تحميلَ الجسَدِ ما يفوقُ طاقتَه ، وأنْ يباشروا اللعبَ في أجزاء مناسبة ، وأنْ يتحاشوا اللعبَ عند امتلاءِ المعدة بالطَّعام.

* وأدلىٰ الطّبيبُ العربيُّ الشَّهير ابنُ النَّفيس دلْوَهُ في هذا المضمارِ ، وأبانَ فائدةَ الرّياضةِ البدنيّة فقال: واللعبُ بالصَّولجان رياضةٌ للبدنِ

والنَّفس ، لما يلزمه من الفرحِ بالغلبَة ، والغضب بالانقهار[1].

* ونجدُ ممّا تقدَّمَ أنَّ الرّياضةَ البدنيّةَ للطّفلِ وللكبيرِ عملٌ ضروريٌّ لإعدادهِ إعداداً بدنيّاً لائقاً ، وكذلك عقليّاً ، فهو بذلك يكتسبُ القامةَ المعتدلةَ الرَّشيقةَ ، ويعطي الجهازَ الدَّوري ، والدورةَ الدّموية كفاءةً جيّدة ، مع حمايةِ الجسم منَ الأمراضِ.

* وهذه أدلةٌ واضحةٌ على أنَّ الرِّياضةَ مهمةٌ في حياةِ الطّفلِ ، وعلى المربّي أنْ يُعِدَّ الجوَّ المناسبَ للطّفلِ لاستغلالِ طاقاتِهِ وقُدراته الجسميّة في ممارسة الألعابِ التي تجوزُ ممارستها مع مراعاةِ الأحكام الشّرعيّة ، وأنْ يجنّبَه الألعابَ المكروهةَ التي لا ينبغي ولا يجوزُ ممارستها.

* ولعلَّ سائِلاً يسألُ: ما الألعابُ التي تجوزُ ممارستُها ، والتي لا تجوزُ ممارستها؟!

* وللإجابةِ عن هذا السُّؤال نقول: وردَ اللعبُ المباحُ في القُرآنِ الكريمِ في قولهِ تعالى ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف: ١٢] ، والمعنى: نستبقُ في العدوِ إلى غايةٍ بعينها ، وقيل: المرادُ باللعبِ المباحِ منَ الانبساطِ لا اللعب المحظور الذي هو ضدّ الحقّ ، ولذلك لم ينكرْ نبيُّ اللهِ يعقوب ـ عليه السّلام ـ قولهم «نَلْعَب»[2].

* ولقد أقرّتِ السُّنَّةُ الغرّاء بعضَ أنواعِ اللعبِ الجائزِ التي كانت تُمَارَسُ على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ. ومنها ما وردَ أنَّه ﷺ قد مارسَها ، ومنها ما أقرّه وأجراه ولم ينكرْهُ.

* ومنَ الألعابِ التي مارسَها رسولُ الله ﷺ شخصيّاً: السّباق على الأقدامِ ، فقد وردَ أنَّه سابقَ أمّنا عائشة بنت الصّدّيق ـ رضي الله عنهما ـ في

---

(١) انظر: مجلة العربي (ص ١١٧ و١١٨) بتصرف ـ العدد (٨٢) أيلول عام ١٩٦٥م.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٣٩) بتصرف.

بعضِ أسفارِه[1] ، وأقرَّ ﷺ اللعبَ والرّقْصَ بالحرابِ في الأعيادِ والمناسبات ، وذلك في مسجدِهِ ، وقد وردَ أنَّه سمحَ لأمّ المؤمنين عائشةَ بنتِ الصِّدّيق ـ رضوان الله عليهما ـ أنْ تستمتعَ بالنَّظر إليهم وهم يلعبون[2] . وهذا النّوع من اللعبِ فيه خفّةٌ ورشاقَةٌ وبطولةٌ ورجولَةٌ ، فالحجلَ أو ما يشبُهه جائزٌ إذا خلا منَ الميوعَةِ والتّخنُّث.

* ومن الرّياضاتِ المباحةِ الرِّمايةُ ، فالقوّة الرّمي كما وردَ في الصَّحيح؛ وكذلك وردَ في الصَّحيح أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ شاهدَ نفَراً من قبيلةِ أسْلَم ينتضلُون فقال لهم : «ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً»[3] .

* وهناك ألعابٌ ورياضاتٌ مباحةٌ من مثل السّباحة ، واستخدام القوسِ والسّهام ، وبعض أدوات السّلاح الحديثة من أجلِ التّدريب عليها ، ومراعاة قواعد السّلامة.

* ومن الألعاب المباحة الدّمى[4] المصنّعة للأطفالِ ، وكذلك اللعب بالعرائس ، وقد أقرَّ ذلك النَّبي ﷺ ، ذلك. ومن الألعابِ المباحةِ اللعبُ بالأرجوحةِ ، واللهو بالرّمل. والرسمُ حيث يجوزُ رسم الأشجارِ والأحجارِ دون ذوات الأرواح.

* ومنَ الرّياضاتِ الإسلاميّة المعروفة: رياضةُ ركوبِ الخيل ، وهي رياضةٌ قديمةٌ امتدّتْ لعصرنا الحاضر ، ولا مانعَ من تدريبِ الطّفل عليها ، لا سيما أنَّ نوادي الفروسيّة منتشرةٌ وفْق أصولٍ تربويّة حديثة. كما أنَّ هناك ألعابٌ أخرى لا تتعارضُ مع المنهج الإسلامي مُفصَّلةٌ في المراجعِ الحديثة.

---

(١) انظر سنن أبي داود ، حديث رقم (٢٥٧٨).

(٢) انظر: صحيح مسلم (٢/ ٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٤/ ٤٥).

(٤) انظر كتاب: سيكولوجية اللعب (ص ٢٦٠ ـ ٢٦٨).

* أمّا الألعابُ الممنوعةُ ، فقد حدَّدتها الشَّريعةُ ، وأبانت خطرَها مثل لعب النّرد ، الذي يشبُه اليوم طاولة الزَّهر ، وكذلك الألعابُ التي تشبه النّرد ، وكذلك اللعب بالحَمامِ ، والألعاب التي تدلُّ على القُمار ، والألعاب التي لا يُوجد فيها احتشامٌ ولا حياء ، وتعتمدُ على الخشونةِ والوحشيّة المُفرطة وإلحاق الأذىٰ بالخصمِ ، وعلى المربّي أنْ يُحْذَرَ ويحذِّرَ الطفلَ من اللعبِ بالآلاتِ الحادّة ، أو الأدوات الحديديّة المؤذية ، وألا يشيرَ إلى صديقهِ بها من بابِ تخويفه ، لأنَّ ذلك منهيٌّ عنه ، فقد جاء عن النَّبي ﷺ أنَّه قال «مَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدةٍ ، فإنَّ الملائكةَ تلعنُه حتى وإن كان أخاه لأبيهِ وأمّه»[1]. وهناك ألعابٌ أخرىٰ ضارّة بالطفلِ يستطيعُ الإنسان أنْ يعرفَها من خلالِ آثارِها وسلبياتِها.

* ولا بدّ بعد هذا كلّه من توجيهِ الطّفل إلىٰ مكانِ اللعبِ واختيارِ الوقْتِ المناسب له ، وهذه مسؤوليّة المربّي ، لأنَّ الأطفالَ يميلون دائماً إلى الحركةِ واللعبِ في جميعِ الأوقاتِ ، وفي أيّ مكانٍ يجدون فيه الفرصةَ ، ويصعُب حصرهم أو كبْتَهم.

* وكان مكانُ لعبِ الأطفالِ في عهْد السَّلفِ في الطَّريق ، ووردَ عن عقبةَ بنِ الحارث قال: صلّى أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ العصرَ ، ثمّ خرج يمشي ، فرأىٰ الحسنَ يلعبُ مع الصِّبيان فحملَه على عاتقهِ وقال: بأبي شَبيه النّبي لا شبيه بعليّ ، وعليٌّ يضحكُ[2]، وكان عُمر الحسنِ إذ ذاك سبع سنَوات[3].

* ومن قصَص لعبِ الأطفال الشَّهيرة ما روي أنَّ سيّدنا عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرَّ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزّبير ـ رضي الله عنهما ـ وهو صبيٌّ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٤/ ٢٢٧).
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: فتح الباري (١٤/ ٤٩).

يلعبُ مع الصِّبيان ففرّوا ووقفَ هو ، فقال له عمرُ: مالكَ لم تفرَّ مع أصحابِك؟ قال: يا أميرَ المؤمنين لم أجرِمْ فأخاف ، ولم تكنِ الطّريقُ ضيقة فأوسعَ لك[1] .

* وفي زحمةِ المدنِ اليوم ، وارتقاءِ الحضارةِ ، أصبحتْ هناك أنديةٌ للرّياضةِ مخصّصة للأطفالِ ، ليمارسوا اللعبَ فيها وفْقَ مفاهيم تربويّة إسلاميّة.

* وعلى المربّي أنْ يختارَ الوقتَ الملائمَ لِلَعِبِ الأطفالِ ، فلا يكون عند اشتدادِ الحرّ أو البرد ، وإنّما حين اعتدالِ الجو ، ويُسْتَحسنُ أنْ تُمارسَ الرّياضةُ عند الصّباح قُبيل تناولِ طعام الإفطار ، ويحذّر من اللعبِ أثناءَ امتلاء البطنِ ، وقبل هضم الطّعام ، لأنَّ الأطباءَ المتّخصصين أوضحوا أنَّ الطعامَ يحتاجُ في انهضامِه إلى السّكونِ والهدوء ، والحركةُ لا تساعد على الهضم. ويُنْصَحُ في هذا أنْ يُستشار المتخصّصون لضمانِ صحة الطّفل وهواياته ، والله أعلم.

* * *

---

(١) انظر: الأذكياء لابن الجوزي (ص٢٤٢).

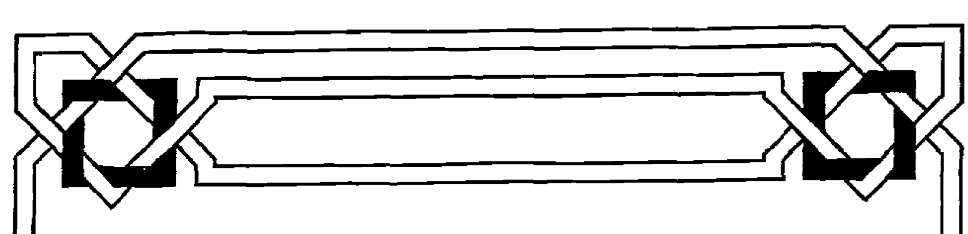


القسم الثاني

الطفل والطفولة

في

السنة النبوية



الباب الأول

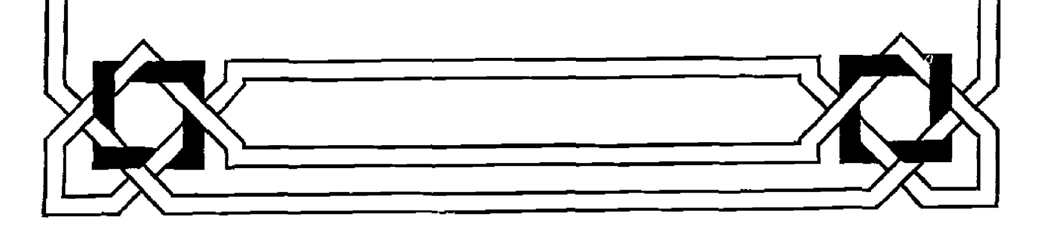
الطفل والهدي النبوي

الفصل الأول: النبي صلى الله عليه وسلم والطفل

الفصل الثاني: من حقوق الطفل في الحديث النبوي

الفصل الثالث: صور من ألوان العناية النبوية بالطفل

الفصل الرابع: الطفل ومحبة النبي «صلى الله عليه وسلم»



الفصل الأول
النَّبيُّ ﷺ والطِّفْل

* الحبيبُ الأعظمُ محمّد رسولُ اللهِ ﷺ وُلِدَ له بنون وبنات ، وعَرَفَ حنانَ الأبوّة قبل النُّبوَّة وبعدها ، وأعطانا لمساتٍ حانياتٍ في معاملةِ الأطفالِ ، كما بيَّنَ دورَ الطِّفل في الأسرةِ ، وفي المجتمعِ ، وفي جميعِ المجالاتِ الاجتماعيّةِ التي تهمُّ شؤونَ الحياة.

* وفي حياةِ حبيبنا محمّدٍ ﷺ لوحاتٌ رائعاتٌ للأطفالِ في دنيا الطُّفولة ، وللأطفالِ أيضاً صورٌ متعدّدة في حياتهِ ﷺ ، فقد فُجِعَ بموتِ أبنائِه الذُّكور وهم في مرحلةِ الطُّفولةِ الأولىٰ صغارٌ لم يعرفوا طعْمَ الحياةِ ، ترى ماذا كان الشُّعور النَّبويُّ عند فَقْدِ أولادِه؟ وما كان شعور أمّهم خديجة ـ رضي الله عنها ـ؟؟

* لا أبالغُ لو قلتُ: إنَّ أمَّنا خديجة[1] ـ رضوان الله عليها ـ هي بطلة المواقف في كل مجال وموقف ، وهي صِدِّيقَةُ المؤمناتِ الأولى في كلِّ فضيلة ، لم يسبقْها أحدٌ من نساءِ العالمين إلىٰ ديوان الفضائل ، حتّى في حياةِ الأطفال ، ترى لماذا نقولُ ما قُلناه؟ وما الشَّاهد على ذلك؟

* في الخبرِ التَّالي نعرفُ السَّببَ؛ روى الزُّبيرُ بنُ العوّام ـ حواري النّبيّ وابنُ عمّته صفيةَ رضي الله عنه ـ قال: وَلَدتْ خديجةُ له ـ أي للنّبيّ ﷺ ـ ،

---

(١) اقرأ سيرة أمنا خديجة في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» فسيرتها إمتاع للأسماع وريحان للنفوس.

القاسمَ ، وعبدَ الله ، وبلغَ القاسمُ سِنَّ المشي وماتَ قبل أنْ تكملَ رضاعته ، ودخل النَّبيُّ ﷺ على خديجةَ ـ وكان ذلك بعد النُّبوّة ـ فقالت : يا رسولَ الله ، درّت لُبينةُ القاسم ـ تصغير لبنة تعني بقايا اللبن في ثديها ـ فلو كان عاشَ حتى يستكملَ رضاعه لَهُـوّنَ عليّ .

فقال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ له مرضعاً في الجنَّةِ تستكملُ رضاعه» .

قالت : لو أعلمُ ذلك لهوّن عليَّ .

فقال رسول الله ﷺ : «إنْ شئتِ أسمعتُكِ صوتَه في الجنّة» .

فأجابتْ : بل أصدِّقُ اللهَ ورسولَه[1] .

* اللهُ أكبرُ ، هذه هي صِدّيقةُ المؤمناتِ ، وأمُّ الأطفال ، وزوجةُ حبيبنا وسيّدنا رسولِ الله ﷺ ، أطهرُ أمّهات الدّنيا ، وأعظمُ نساءِ الأنبياء ، وسيّدة نساءِ العالَمين ـ رضي الله عنها وأرضاها وحشَرنا في معيتها ـ .

* وبناتُ النَّبي[2] ﷺ كُلُّهنَّ من خديجةَ ، وهنّ : زينبُ ، رقيَّةُ ، أمُّ كلثوم ، فاطمة ، ثمّ الأولاد : القاسمُ ، فعبدُ الله .

* ووُلِدَ للنّبيّ ﷺ ابنه إبراهيم من ماريةَ القبطيّة[3] في السَّنَةِ الثَّامنة منَ الهجرةِ ، وكان عمرُه ﷺ إذ ذاك يقتربُ منَ السّتين ، وكانت قابلةُ مارية يومَها سلمى زوج أبي رافع ، فلما ولدتْ مارية بشَّرتِ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ بأنَّه قد وُلدَ له غلامٌ جميل ، فأكرمَها غايةَ الإكرام ، ثمّ إنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ سمّاهُ في يومِ سابعه إبراهيم تفاؤلاً وتيمّناً بأبيهِ إبراهيم خليل الله وأبي الأنبياء .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ، والأدب ، وبدء الخلق .

(٢) اقرأ سيرهن بتوسع في كتابنا «نساء أهل البيت» (ص ٤٥٥ ـ ٦٠٤) ، ففي سيرهن خير كثير بإذن الله .

(٣) اقرا سيرة مارية القبطية في كتابنا : «نساء أهل البيت» تجد خيراً بإذن الله .

* وتسابقتْ نسوةُ الأنصارِ المراضع كيما يحظينَ بهذا الشَّرف الوافي بإرضاع إبراهيم ابن الحبيب الأعظم ﷺ ، فاختارَ مُرضعاً من نساءِ الأنصار تُدعى: أمّ سيف ، وقال: «وُلدَ لي الليلة غلامٌ فسمّيته باسمِ أبي إبراهيم ، ودفعتُه إلى أمّ سيف امرأة في المدينة»[١] .

* وتصدَّقَ رسولُ الله ﷺ على مساكين المدينة ، فعقَّ له بكبشٍ ، وتصدّقَ بوزنِ شعْرِ إبراهيمَ فضَّةً لمساكين المدينةِ ، وجعل عند المرضعِ سبعاً من الماعزِ لترضعَ إبراهيم ، إذا ما لزمَ الأمْرُ ، أو شحَّ ثدياها .

* وعاشَ إبراهيمُ حتى بلغَ سنةً وزيادة ، وهو موضعُ اهتمامِ البيت النّبويِّ الطّاهر ، إلا أنَّ المرضَ قد دهمَه قبل أنْ يتجاوز منتصف عامهِ الثّاني ، وراحتْ ماريةُ أمُّه تسهرُ على راحتهِ ، ولكنَّ المرضَ لم يتركِ الطِّفْلَ الصَّغير إبراهيم ، حيث جثَم عليه وأثّرَ فيه ، وتألّم الحبيبُ المصطفى ﷺ على ابنهِ إبراهيم ، خصوصاً وأنَّ هذا الطِّفلَ الحبيبَ يموت ، ودخلَ ﷺ على ابنه وهو يعتمدُ على يدِ عبد الرحمن بنِ عوف ـ رضي الله عنه ـ فألفىٰ ابنه يجودُ بنفسه ، فأخذَه فوضعه في حجرِه ثمَّ قال: «يا إبراهيمُ إنّا لا نغني عنْك منَ اللهِ شيئاً» .

* وذرفتْ عيناهُ الشَّريفتان ثمَّ قال: «يا إبراهيم ، لولا أنَّه أمْر حقّ ، ووعد صدق ، وأنَّ آخرنا سيلحقُ أوّلنا ، لحزنَّا عليك حزناً هو أشدُّ من هذا ، وإنَّ بكَ يا إبراهيم لمحزونون ، تبكي العينُ ، ويحزنُ القلب ، ولا نقولُ ما يسخطُ الرّبّ» .

* وماتَ إبراهيم ، وحُمِلَ جثمانُه على سريرٍ صغير ، وسارت الجنازةُ إلى البقيعِ ، والحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يمشي بين العُمرَيْن[٢] حتى بلغوا

(١) انظر الإصابة ترجمة أمّ سيف ، وللحديث أصل في الصَّحيحين من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) «العمران» : أبو بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما .

البقيع ، ودُفِنَ هناك إلى جانبِ عثمانَ بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ ، ثمَّ رشَّ القبرَ بالماء ، وأعْلَمَ عليه علامة .

* وصبرَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ على فَقْد الطِّفل إبراهيم ، وكان يُعلِّمُ النَّاس ذلك ، بل ويبشّرهم بالجنّةِ إنْ صبروا على فَقْد الأطفالِ ، من ذلك ما رواهُ أبو هريرةُ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ امرأةً أتتِ النَّبيَّ ﷺ بصبي فقالت: ادعُ له ، فقد دفنْتُ ثلاثةً ؛ فقال: «احتظرْتِ بحظارٍ شديد من النَّار»[1] .

* وعن جابرِ بنِ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ ماتَ له ثلاثة من الولَدِ فاحتسبَهم دخل الجنَّة»؛ قُلنا: يا رسولَ اللهِ ، واثنان؟ قال: «واثنان». قلتُ لجابر: والله أرىٰ لو قلتُم: وواحد لقال ، قال: وأنا أظنُّه والله[2] .

* وحيَاةُ النَّبيّ ﷺ حافلةٌ معَ الأطفالِ بألوانِ العطفِ عليهم ، فكانَ لهم منْ وقتِه نصيب ، فكان يمازحُهم ، ويلاعبُهم ، ويقبِّلُهم ، ويعلِّمُ النَّاس أنْ يسلكوا هذا الطَّريقَ اللطيفَ في معاملةِ الأطفال .

* روى البخاريُّ في «الأدبِ المفرد» عن أمِّنا عائشة ابنة الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليهما ـ أنَّها قالت: جاءَ أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: أتُقبِّلونَ صبيانكم؟ فما نقبِّلُهم! فقال النَّبيُّ ﷺ: «أوَ أمْلِكُ لكَ أنْ نزعَ اللهُ من قلبكَ الرحمة»[3] .

* وهذا أسلوبٌ لطيفٌ فيه توجيهٌ إلى رحمةِ الأطفال والعطفِ عليهم ، ورعايتهم وحسن معاملتهم ، وملاطفتهم ، وإكرامهم ولو بالسَّلام عليهم؛ فقد روى أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه قال: بعثني النَّبيُّ ﷺ في حاجةٍ فرأيتُ

---

(١) الأدب المفرد برقم (١١٤) .
(٢) الأدب المفرد برقم (١٤٦) .
(٣) الأدب المفرد برقم (٩٠) .

صبياناً فقعدتُ معهم ، فجاء النَّبيُّ ﷺ فسلَّم علىٰ الصِّبيان[1] .

* وكانَ الحبيبُ الأعظمُ محمّدٌ ﷺ يعاملُ الأطفالَ بالرّفقِ واللينِ ، وكان يُوصي أصحابه الكرام بذلك؛ روىٰ أبو أمامةُ ـ رضي الله عنه ـ قال: أقبلَ النَّبيُّ ﷺ معه غلامان ، فوهبَ أحدهما لعَليّ ، وقال: «لا تضربْه فإنّي نُهِيْتُ عن ضَرْبِ أهْل الصّلاة ، وإنّي رأيتُه يصلّي منذ أقبلنا» ؛ وأعطىٰ أبا ذرّ غلاماً وقال: «استوصِ به معروفاً» فأعتقَه فقال: «ما فَعل»؟ قال: أمرتني أنْ أستوصي به خيراً فأعتقتُه[2] .

* وكان الصَّحابةُ الكرامُ ـ رضي الله عنهم ـ يتمثّلون بأخلاقِ النّبيّ ﷺ في هذا الميدان الرَّحب الجميل ، وربّما وقعَ من أحدهم شدّة على الأطفالِ ، أو على الغِلْمان الذين يملكونهم ، فيعتقه لوجهِ الله طلباً لمرضاةِ الله ومرضاةِ رسوله ، وحبّاً في معاملةِ الأطفال بالرّفق ، وغرسِ اللين بنفوسهم؛ ويحدّثنا أبو مسعود ـ رضي الله عنه ـ عمّا جرىٰ له في هذا المجال فيقول: كنتُ أضربُ غلاماً لي ، فسمعتُ صوتاً مِنْ خلفي: «اعلمْ أبا مسعودٍ اللهُ أقْدَرُ عليك منك عليهِ» فالتفتُّ فإذا هو رسولُ اللهِ ﷺ ، قلتُ: يا رسول اللهِ فهو حرٌّ لوجْهِ الله؛ فقال: «أَمَا والله لو لم تفعلْ ذلك لمسَّتْكَ النَّار ، أو للفحتك النَّار»[3] .

* وبهذه الأخلاقِ الكريمةِ ، والأعمالِ الموفَّقة ، كان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يُوصي أصحابَه في معاملةِ الأطفال ، فكانوا يتسابقون في أساليب العطفِ عليهم بالإكرام والإحسان والعتق وما شَابَه ذلك .

* ولعلَّ من صُوَرِ الجمال في حياةِ الأطفالِ مع النَّبيِّ ﷺ ، تلكم التي نقرؤها في السِّيرة النّبويّة ، وفي كتُبِ التَّراجم ، وغير ذلك ، حيث نجدُ

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣٨٢) .
(٢) الأدب المفرد.
(٣) الأدب المفرد برقم (١٧١) .

عدداً منَ الأطفال ترعاهم اليدُ النّبويّةُ ، ومن هؤلاء: عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الذي نَهَدَ في أكرمِ المكارمِ ، ربيب النّبوة ، فقد آمنَ طفلاً صغيراً قبل أن يشبَّ عن الطّوق ويبلغَ الحلم ، فشبَّ معه الإيمانُ حتى خالطَ مُشَاشَه ووجدانَه ومشاعِرَه ، وملأَ قلبه ، وأفعمَ بالنّور روحَه ، وكانتِ العنايةُ الرَّبانيّة قد ساقتْهُ إلى حجرِ النّبيّ ﷺ ، فغدا عليّ[1] من مشاهيرِ الدّنيا في دنيا المشَاهير من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

* ومن الأطفالِ الذين عرفوا معنى الطُّفولةِ في حياتهم، وعاشوا فترةً من حياتِهم مع الحبيبِ المصطفى ﷺ زيدُ بنُ حارثة[1] ، حِبُّ رسول الله ﷺ؛ وقصّة طفولةِ زيد من القَصَصِ الكريم الجميلِ الرّائعِ بين الأطفال الصَّحابة الذين صُنِعوا على عينِ رسولِ الله ﷺ.

* وممن عاش طفولةً جميلةً في حياتِهِ ، في رحابِ حياةِ الحبيب الأعظمِ ﷺ أنسُ بنُ مالك[1] خادمُ رسولِ الله ﷺ ، إذ كان أنسٌ يخدمُ رسولَ الله ﷺ وهو طفلٌ لم يبلغ الحلمَ بَعْد ، وكان كاتباً ذكيّاً فَطِناً ، حظيَ برعايةِ طفولتِهِ في البيتِ النّبويّ الذي رعىٰ الأطفالَ من جميعِ النّواحي.

* ترى هل حظيتِ البناتُ الصّغيرات بشيءٍ من عطفِ النّبيّ ﷺ ورعايته؟ وهل كان لهنّ في حياته نَصيب؟

* لا شكَّ في أنَّ كثيراً من بناتِ الصَّحابة ـ وهنَّ في سنّ الطُّفوليّة كُنَّ يحظَينَ بالرّعايةِ واللطفِ النّبويّ ، فقد كانتْ زينبُ بنتُ أبي سلمةَ ـ رضي الله عنهما ـ ربيبةُ النّبيّ ﷺ وأخوها عمرُ بنُ أبي سلمة ، وقد ولدتهما أمّهما أمّ سلمة بالحبشة يوم أنْ كانت مهاجرةً إليها.

* ولما تزوّجَ رسولُ اللهِ ﷺ أمَّ سلمة بعد وفاةِ أبي سلمة ، كان يأتي أمّ سلمة فيقول: «أين زناب»؟ وذلك تنويهاً وتدليلاً للطّفلة الصَّغيرة

---

(١) سنخص هؤلاء وغيرهم بباب خاص من هذه الموسوعة المباركة.

زينب ، وتعبيراً عن حبّه لها ، وإدخالاً للسُّرور على نفسها ، كيما تشعرَ بهمساتِ جمالِ الطُّفولة البريئةِ ترفرفُ مِنْ حولها ، ومن فوقها ، فقد كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يقدّرُ حياةَ الأطفالِ وحاجاتِهم ، ويكرمُهم ، وكثيراً ما كان يداعبُ زينب بقوله: «أي زناب»؟ أو «ما فعلتْ زناب»؟!

* وقد استفادت هذه الطِّفْلةُ الميمونةُ منَ العنايةِ المحمّدية بها ، فكانت من أفْقَه بناتِ ونساء زمانها ، وكانت إذا ذُكِرت امرأةٌ بالمدينةِ فقيهةٌ ذُكرتْ زينبُ بنتُ أبي سلمة.

* وهذه أمّ سعد بنتُ سَعْد بن الرَّبيع ، ابنةُ الخطيب النَّقيب الشَّهيد بأُحُد ، تحظىٰ برعايةٍ نبويّةٍ خاصّة ، وذلك لمّا ظلمها عمُّها وأخذَ ميراثَهَا وميراثَ أختِها ، فجاءت أمُّها عمرةُ بنتُ حزم بن زيد الأنصاريّة إلى أميرِ الأنبياءِ ، ومَنْ يعرفُ ويقدِّرُ حقَّ الأطفالِ ، فشكتْ له ما نزلَ بها وبطفلتَيْها ، فقال ﷺ: «يقضي اللهُ في ذلك» ، ونزلتْ آيةُ الميراث ، فأرسلَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ إلى عمّهما فقال: «أعطِ ابنتَي سعد الثُّلثَين ، وأمَّهما الثُّمن ، وما بقي فهو لك»[1].

* وللحبيبِ المصطفى ﷺ وقفاتٌ رائعاتٌ مع كثيراتٍ من بنات الصَّحابة الصَّغيرات ، كما كانَ له ﷺ وقفاتٌ جميلةٌ مع بناتِهِ الطَّاهرات: زينب ، رقية ، أمّ كلثوم ، وفاطمة ـ رضي الله عنهن وأرضاهنَّ وحشرنا في معيتهنّ ـ وقد توسَّعتُ بسيرهنَّ في كتابي: نساء أهلِ البيت في ضوء القُرآن والحديث ، فمن شاء فليرجع إلى سِيرهنّ.

* * *

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٥٢) ، وأبو داود برقم (٢٨٩١) ، والترمذي برقم (٢٠٩٣) ، وابن ماجه برقم (٢٧٢٠) ، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٥٢٤). وآية الميراث هي الآية رقم (١١) من سورة النساء ، راجع إن شئت تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير وغيرها من التفاسير لهذه الآية.

الفصل الثَّاني

من حُقوقِ الطِّفْل في الحَديثِ النَّبويّ

* كانت بعضُ القبائلِ العربيّة في الجاهليّة الجهلاء تدفنُ البنات وهنّ أحياءٌ من غيرِ سبب يفترينَه ، وذلك خشيةَ الفَقْرِ ، أو العارِ ـ أحياناً ـ؛ فقد كان الرّجلُ في الجاهليّة إذا وُلدَ له بنتٌ فأرادَ قتْلها تركَها حتى إذا كانت سُداسية ـ أي بنت ست سنين ـ ، يقول لأُمِّها: طيّبيها وزيّنيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائِها ، وقد حفَر لها بئراً في الصَّحراء ، فيذهب بها إلى البئر ، فيقولُ لها: انظري فيها ، ثم يدفعُها من خلِفها ويهيلُ عليها التُّراب ، حتى تستوي بالتراب .

* وقد ذكر ربّنا عزَّ وجلَّ هذه الجريمةَ النّكْراءَ بحقّ البناتِ فقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] ، وقد جاء السُّؤال للموءودةِ تبكيتاً لقاتِلها الذي دفنَها في القبر وهي حيّةٌ ، وهذا جوابٌ عمّا يُقال ما معنىٰ سؤال الموءودة ، مع أنَّ الظَّاهر أنْ يُسألَ عن قَتْله إيّاها. وتقرير الجواب أنَّ هذه الطّريقة أفظعُ في ظهور جنايةِ القاتل وإلزام الحجّة عليه ، فإنّه إذا قيلَ للموءودةِ إنَّ القتْلَ لا يجوزُ إلا لذنبٍ عظيم ، فما ذنْبُكِ وبأي ذنب قُتلتِ؟ كان جوابُها: إنّي قُتِلتُ بغير ذنبٍ ، فيفتضحُ القاتلُ ويصيرُ مبهوتاً[(١)] .

---

(١) الفتوحات الإلهية (٨/ ٢٦٢).

* وجاءَ الإسلامُ ، وعمَّ بنورِه الدُّنيا ، وجاءَ الهادي البشيرُ ، والسِّراجُ المنيرُ سيِّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ ، ورفعَ حقَّ الطِّفل عالياً عالياً ، واستنكرَ تلك العادة الشّوهاء التي دمَّرت حياةَ كثيراتٍ من البنات ، بل وكثيرٍ من الأطفالِ الذّكور ، وعلَّم النَّاس الحلالَ والحرامَ وقال: «إنَّ اللهَ تعالىٰ حرَّم عليكم عقوقَ الأمّهات ، ومنعاً وهات ، ووأْدَ البنات ، وكَرِه لكم قيل وقال ، وكثرة السّؤال ، وإضاعة المال»(١).

* وجاء عند الطَّبراني أنَّه ﷺ قال: «إنَّ الله كَرِهَ لكم ثلاثاً؛ عقوق الأمّهات ، ووأْد البنات ، ومنع وهات»(٢).

* إنّنا مع قول الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ نلمسُ حقَّ الطِّفل في الحياةِ ، والنَّعي علىٰ مَنْ يعتدي على حياتِه ، وأنَّ الحياةَ بيدِ الله عزَّ وجلَّ ، وهي من الأمورِ الخاصّة باللهِ سبحانه ، والقضاءُ عليها جريمةٌ لا تُغْتَفر ، سواء أكانَ ذلك موجَّهاً إلىٰ صغيرٍ أمْ كبير.

* لقد شدَّدَ الحبيبُ المصطفى ﷺ واستنكرَ وأْدَ البناتِ ، وقَتْل الأطفالِ خشيةَ الفَقْر ، مهما كانتِ الأسبابُ ، لأنَّ ذلك من الجرائمِ التي لا تُتصوّر ، حيث تتبخّرُ العاطفةُ الأبويّةُ عند الوأدِ أو القتلِ ، وأي ذنب أعظمُ من قَتْل الأبرياء؟!!..

* إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يقرر في أحاديثهِ حقوقاً كثيرةً للطِّفل ، منها المساواة في كلّ شيء؛ في الحبّ ، في العطاءِ ، في المعاملةِ ، حتى في النَّظرة أو القُبْلة.

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في الرقاق ، ومسلم في الأقضية من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح عن معقل بن يسار ، انظر مجمع الزوائد (٨/ ١٤٧).

* روى ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كانت له أنثى فلم يئدْهَا، ولم يهنْها، ولم يُؤْثِرْ ولَده عليها أدخْله الله الجنَّة»[1].

* وكان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يرشدُ أصحابَه إلى المساواةِ والعَدْلِ بين أطفالِهم وأولادِهم، فقد حدَّثَ النُّعمانُ بنُ بشير ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ أباه انطلقَ به إلىٰ رسولِ الله ﷺ يحملُه فقال: يا رسولَ الله، إنّي أشهدُك أنّي قد نحلتُ النُّعمانَ كذا وكذا، فقال: «أكلّ ولدك نَحلْتَ»؟

قال: لا.

قال: «فأَشْهِدْ غَيري».

ثم قال: «أيسرُّك أنْ يكونوا في البرِّ سواء»؟

قال: بلى.

قال: «فلا إذاً»[2].

* وفي روايةٍ: «أفعلتَ هذا بولدك كلِّهم»؟

فقال: لا.

قال: «اتّقوا اللهَ واعدلوا في أولادكم».

قال النُّعمان: فرجعَ أبي فردَّ تلك الصَّدقة.

* وهذا الحديثُ النَّبويُّ الشَّريف يظهِرُ حقَّ الطِّفل مهما كان، ويحضُّ الآباءَ على المساواةِ والعدلِ، وألّا يفضِّلُوا ولَداً على آخر بالعطاءِ وغيرِهِ لئلا يَزْرعَ بين الإخوةِ الكراهية، ولأنَّ هذا العملَ يُعَدُّ ظلماً وجوراً وبُعْداً عن الإنصاف.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٢٣)، وأبو داود، ومعنى «ولده»: أي أولاده الذّكور.

(٢) انظر: الأدب المفرد برقم (٩٣).

* وقد أكدَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ على المساواةِ بين الأطفالِ ضَماناً لإحقاقِ الحقّ فقال: «ساووا بين أولادِكم في العطيّة».

* ويرشدُ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ إلىٰ وجوبِ المساواة بين الأطفالِ والأولادِ عموماً فيقول: «اعدلوا بين أولادكم في النُّحَل كما تحبُّون أنْ يعدلوا بينكم في البِرّ واللطف»(١).

* وأظهرَ النَّبيُّ ﷺ من حقوقِ الطِّفل ما لم تعرفْهُ الحضاراتُ العالميّةُ جميعُها، من ذلك ما رواه أنسُ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رجلاً كان عند النَّبيّ ﷺ، فجاءَ ابنٌ له فقبّله، وأجلسَه على فخذه، وجاءت ابنةٌ له، فأجلسها بين يديه، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا سوّيتَ بينهما»(٢)؟!

* أرأيتَ مبدأ المساواةِ الدّقيق هذا؟!

* أرأيتَ هذا اللطف المحمديّ، والتّوجيه النّبويّ لهذا الرَّجل؟

* هذا هو الهادي البشير، وهذه تعاليمُه للآباءِ لمعرفةِ حقِّ الأطفال حتى في القُبْلة، أو الجلْسَة، فصلى الله عليه وسلمْ، وصلى الله على المُعلِّم الرَّؤوف الرَّحيم الذي أثنى عليه ووصفه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

* * *

(١) رواه الطبراني، وابن حبان، و«النُّحَل»: العطية بغير عوض. و«البر»: الإحسان. «واللطف»: الرفق.

(٢) رواه النسائي والبزار.

الفصل الثَّالث

صُورٌ من ألوانِ العنَاية النّبويّة بالطِّفل

* وردَ في بعضِ الآثار: مَنْ كان له صبيٌّ فليتصابَ.

* وقال أحدهم: لاطفْ ولَدك سبعاً، وأدّبْه سبعاً، ثم اتركْ له الحبلَ على الغَارِب.

* قد يُطْرَحُ علينا أسئلةٌ وتساؤلاتٌ من الآباء مفادها: كيف نربّي أطفالنا، ونلعبُ معهم ونحنُ في سنِّ الوقار؟ ألا يزيلُ ذلك هيبتنا من قلوبهم؟ بل كيف يليقُ بالرّجلِ العالمِ أو الرّجلِ الفاضلِ أن يلعبَ مع أطفالِهِ؟

* وللإجابةِ عن هذه التساؤلات نقول: علينا أنْ ندركَ أنَّ الطِّفلَ ليس رجُلاً صغيراً يفكّرُ بتفكير الكبارِ، ويلاحظَ ما يلاحظون ويتصرّفون حسب ما يشاؤون، وكذلك الأب أو الأُم ليسا طفلاً كبيراً، لا يأْبهان للأمور ومسؤولياتِ الحياة، فالطِّفلُ مخلوقٌ له عالَمُه الخاص، ومفاهيمُه، وله تصوّراتهُ، وعلينا نحن الكبارَ أنْ نفهمَ هذه الأجواء التي يحلّقُ فيها الطِّفل أحياناً، أو يعيشُها في آفاق صغيرة، فإذا ما فعلنا ذلك، وتأسّيْنا بالحبيبِ الأعظمِ سيِّدنا رسولِ الله ﷺ، غرسْنا ألوانَ الحبّ المشترك مع الأطفالِ، وأحكمنا رباط الثّقة بين القلوب.

* وقد كان للحبيبِ المصطفى ﷺ صورٌ جميلةٌ لتربيةِ الطِّفل ومعاملتهِ

سواء كان ذكراً أمْ أنثى ، وفي السّطور التّالية نجلو بعض الصُّورِ الجميلةِ للتّربيةِ النّبويّة للأطفالِ الذّكور والإناثِ ، وكيف كان ﷺ يرعاهم بإحسانِه ، ويربّيهم بتوجيهاتِه وإرشاداتِه.

أولاً: الأطـفـالُ الـذُّكُــور:

* إنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ مع جلالِ قَدْره ، وعظَمِ مقامِهِ ، كان للأطفالِ نصيبٌ موفورٌ من حياتهِ ، يتحفُهم بإرشاداتهِ ، يداعبُهم ، يُسَرُّ لمرحهم البريء ، يزرعُ لهم الرَّحمة في قلوبِ الآباء ذوي القسوةِ الشَّديدةِ في قلوبهم ، كما جاء عنه ﷺ أنَّه كان يقبّلُ ذات مرّة حفيدهَ الحسنَ بنَ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، وعنده الأقرعُ بنُ حابس وهو جالسٌ ، فقال الأقرعُ: إنَّ لي عشرةً من الولَد ، ما قبّلتُ منهم أحداً ، فنظرَ إليه رسولُ الله ﷺ ثمّ قال: «مَنْ لا يرحَم لا يُرحَم»[1].

* وكان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ هو القدوةُ المُثْلى في رعايةِ الطِّفلِ في كلِّ المجالات ، فهاهو ذا يُعطينا لوناً آخر من ألوانِ تربيته الشَّريفةِ ، ورعايته لأبناء الشُّهداء ، وذلك لما استُشْهِدَ جعفرُ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بمؤتَةَ مع ثلّةٍ منَ الصَّحابة الكرام ، جاء بعبدِ اللهِ بنِ جعفرَ وأخيه ، ومسحَ على رأسهما وعيناهُ تُهْراقان الدّموع.

* روى عبدُ الله بنُ جعفر ـ وكان طفلاً ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخلَ على أُمِّه أسماءَ بنتِ عميس زوجِ جعفر بن أبي طالب ونعاهُ لها؛ يقولُ عبدُ الله بنُ جعفرَ مشيراً إلىٰ الرِّعايةِ النَّبويّة له: فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وأخذَ بيدي يمسحُ بيده على رأسي حتّى رقيَ علىٰ المنبر ، وأجلسَني أمامَه على الدَّرجةِ السُّفْلى ، والحزنُ يُعْرَفُ عليه ، فتكلَّمَ فقال: «إنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيهِ وابنِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وللحديث أصل في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة.

عمّه ، ألا إنَّ جعفراً قد استُشهِد ، وقد جعل اللهُ له جناحَيْن يطيرُ بهما في الجنَّة» .

* ثم نزلَ رسولُ الله ﷺ ، فدخلَ بيتَه وأدخلني ، وأمرَ بطعامٍ فصُنِعَ لأهلي ، وأرسلَ إلى أخي ، فتغدَّينا عنده والله غداءً طيّباً مباركاً ، عمدتْ سلمىٰ خادمتُه إلى شعيرٍ فطحنتْه ، ثمّ نسفَتْه ، ثمّ أنضجتْه وأَدمَتْه بزيتٍ ، وجعلتْ عليه فُلفلاً ، فتغديتُ أنا وأخي معه ، فأقمنا ثلاثةَ أيامٍ في بيتهِ ندورُ معه كلّما صار في إحدىٰ بيوتِ نسائِه ، ثم رجعنا إلى بيتنا ، فأتىٰ رسولُ الله ﷺ وأنا أساومُ بشاةِ أخٍ لي فقال: «اللهم باركْ في صفقتِه» فما بعْتُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه[1] .

* وتروي أسماء بنتُ عُميس طرفاً من رعاية النَّبيّ ﷺ لأبناءِ الشُّهداء ، وذلك عقب استشهاد زوجها جعفر ـ رضي الله عنه ـ فقالت: دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ ، فدعا بني جعفر ، فرأيتُه شمَّهم ، وذرفتْ عيناه ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ، أبلغَكَ عن جعفر شيءٌ؟! قال: «نعم قُتِل اليوم» .

فقمنا نبكي ، ورجعَ فقال: «اصنعوا لآل جعفرَ طعاماً فإنَّه قد جاءَ ما يشغلُهم»[2] .

* ولم تتوقفِ الرِّعايةُ النَّبويَّةُ عند هذا الحدّ ، بل أخبر أسماءَ بنتَ عُميس عندما بكَتْ وذكرَتْ يُتْمَ أطفالِها فقال: «العَيْلَة تخافين عليهم وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة»[3]؟! .

* وكانت يدُ العطفِ النّبويّة قد امتدّتْ من قبل لتشملَ عبدَ الله بن جعفر ، فقد روي أنَّه لما عاد جيش مؤتةَ ، واقتربوا منَ المدينةِ المنورةِ ،

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٥٦)؛ والمغازي (٢/ ٧٦٦ و٧٦٧) .
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٩٩٨) ، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه برقم (١٦١٠ و١٦١١) ، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٨٢) .
(٣) أخرجه البخاري ، وانظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢) .

تلقّاهم الحبيبُ الأعظمُ ﷺ والمسلمون معه ، ولقيهمُ الصِّبيان يشتدّون ، والحبيبُ المربي ﷺ مقبلٌ مع القومِ على دابّةٍ فقال: «خذوا الصِّبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابنَ جعفر» فأُتي بعبدِ اللهِ بنِ جعفرَ فحملَه بين يديه[1].

* مرّةً أخرىٰ نقولُ لمن لا يستطيعُ التآلف مع الأطفالِ: إنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ كان يخالطُ الأطفالَ ، ويؤنسُهم ، ويباسطُهم ، وذلك تربيةً لنا وتعليماً ، ولنستمع إلى تلميذِ مدرسةِ النّبوة النّجيبِ الطّفلِ الأريبِ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يخالطنُا ، حتى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عُمير ما فعل النّغير»؟ طائر كان يلعبُ به ، ونضحَ بساط لنا فصلّى عليه وصفّنا خلفه[2].

* ويزرعُ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في تربيته الألفة في قلوبِ الأطفالِ ، حيث كان يغرسُ في نفوسهم الصَّغيرة البريئةِ سنَّة السَّلام ، ولذلك كان الأطفالُ يفعلون ذلك عندما يكبرون ، كما فعلَ أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ فقد مرَّ على صبيانٍ فسلّمَ عليهم وقال: كان رسولُ الله ﷺ يفعلُه[3].

* كما أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ يعلّمُ النَّاسَ ألوانَ التّربيةِ للطّفل ، وغَرْسِ الألفةِ والمودّةِ في قلبهِ ، فقد كان ﷺ يزورُ الأنصارَ ، فيسلّمُ على صبيانهم ، ويمسحُ رؤوسهمَ ويدعو لهم[4].

* وتبلُغُ التّربيةُ النّبويّةُ الذِّروة في عيادةِ الأطفالِ ، والسُّؤال عن أحوالِهم ، فإنَّ ذلك يغرسُ في نفوسِهم كريمَ العادات ، ولطيفَ المودّات ، ناهيك بأنَّ ذلك يشعره بمكانتِه واهتمامِ مَنْ حوله به ، فينسىٰ

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٥٣).
(٢) رواه أحمد.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) انظر صحيح الجامع برقم (٤٩٤٧).

آلامَه ، وتكبرُ آماله ، وتثمرُ الزّيارة وتُؤتي أُكُلَها فوراً ، وهذا ما ربّى النَّبيُّ ﷺ عليه أصحابَه ، وكان قدوة لهم بذلك .

* روى أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ قصَّة ذلك فقال : كان غلامٌ يهوديٌّ يخدمُ النّبي ﷺ ، فمرضَ ، فأتاه النّبي ﷺ يعودهُ ، فقعدَ عند رأسِه ، فقال له : «أَسْلِمْ» ، فنظرَ إلىٰ أبيه وهو عنده ، فقال : أطعْ أبا القاسم ، فأسلمَ ، فخرجَ النبي ﷺ وهو يقول : «الحمد لله الذي أنقذَه من النَّار»[1] .

ثـانـيـاً : الأطفَـالُ الإنـاثُ :

* نلحظُ لوناً آخرَ من تربيةِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ للأطفالِ الإناثِ ، فقد جاءَ في الصَّحيحَيْن عن أُمِّنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ قالت : كنتُ ألعبُ بالبناتِ (العرائس) عند رسولِ اللهِ ﷺ ، وكان يأتيني صواحبُ لي ، فكُنَّ ينقمعْنَ (يختفينَ إجلالاً) لرسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ الرسولُ الكريمُ لَيُسرُّ لمجيئهنَّ إليّ ، فيلعبنَ معي[2] .

* وفي روايةِ أبي داود : أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال لها يوماً : «ما هذا»؟ مُشيراً إلىٰ العرائسِ من الدّمى من ألعابها .

فقالت : بناتي .

فقال رسولُ الله ﷺ : «ما هذا الذي في وسطهنَّ»؟

قالت : فَرسٌ

فقال : «ما هذا الذي عليه»؟

قالت : جناحَان .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦١٣٠) ، ومسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٤٠) ، وانظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٦١) .

قال: «أفرسٌ له جناحان ؟!».

قالت: أوَ ما سمعتَ أنَّه كان لسليمانَ بنِ داود خيلٌ لها أجنحة؟ فضحكَ حتى بدَتْ نواجذُه[1].

* وعن ألوانِ التّربيةِ النّبويّةِ للأطفالِ الإناثِ، نَجِدُ سجلاًّ مُسْهَباً في ديوانِ ذكرياتِ أمِّنا عائشة بنت الصِّدِّيق ـ عليهما سحائب الرّضوان ـ، حيث تحكي عن الطّفولة وآفاقِها العِذَاب، وما كانت تجدُهُ من اللّطف النّبويّ، وهي ما تزالُ في ريحانِ سنّ الطُّفوليّة، ولهذا ظلَّتِ الألطافُ المحمديّة، والتّربيةُ النَّبويّةُ، تصاحبان أمّنا عائشةَ إلى آخرِ حياتها، وكانت ـ رضي الله عنها ـ تنصحُ الآباءَ بودِّ البنَات الصَّغيرات، ومعرفةِ حياتهنّ وهنَّ في عهد الصِّغر وتقول: فاقدروا قَدْرَ الجاريةِ الحديثةِ السِّنّ، الحريصةِ على اللهو[2].

* وتتّسعُ دائرةُ الرّعايةِ والتّربيةِ النّبويّة لتشملَ بنات الصَّحابة الكرام، فهذه أَمَةُ بنتُ خالد المشهورة بكنيتِها أمّ خالد بنت الأمويّة القرشيّة، تحظى بالرعايةِ المحمديةِ في لونٍ من ألوانِ التّربية الفريد الذي يشرقُ بسنَاه على الدّنيا، لتجعلَ منَ الطِّفل الحبيبِ موضعَ رعايةِ واهتمامِ الحبيبِ المصطفى ﷺ، وليكونَ ذلك الاهتمامُ النَّبويُّ درساً وضيئاً للنّاس، ونهجاً عبقاً بروحِ وريحانِ العناية بالطّفل، فقد يصيرُ هذا الطّفل علَماً بارِزاً في يومٍ من الأيّام، ويتذكّرُ لوامعَ الإحسانِ إليه من ذوي النّدى والخصالِ الكريمةِ، فيكون عنصراً طيّباً في جسمِ أسرتِه وكيان أمّته.

* تروي أمُّ خالد بنتُ خالد الطِّفلةُ الآتيةُ من الحبشَةِ مع المهاجرين هذه

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٤٩٣٢) باب، في اللعب بالبنات، والنسائي في عشرة النساء (١/ ٧٥)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٦٢)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥٠ و١٥١).

(٢) انظر: نساء أهل البيت (ص ١٢١ و١٢٢).

القصّة الشّائقة النّدية بعطفِ النّبيّ ﷺ ، واهتمامِه بها ، وبأطفالِ المسلمين فتقول: أُتي رسولُ الله ﷺ بثيابٍ فيها خميصةٌ سوداءُ صغيرةٌ ، فقال: «مَنْ ترون أكسو هذه الخميصة»؟

قالت: فأسكتَ القوم.

قال: «ائتوني بأمِّ خالد».

فأُتيَ بي رسول الله ﷺ أَحمَل ، فألبسينها وقال: «أَبْلي وأَخْلفي» ، يقولها مرتَيْن أو ثلاثاً ، وجعلَ ينظرُ إلى علَم في الخميصة أصفر أو أحمر ، فقال: «هذا سَنَا يا أمَّ خالد ، هذا سَنَا يا أمّ خالد» ، ويشيرُ بأصبعهِ إلى العَلَم[1].

* وظلَّ هذا التّكريم النّبويّ ، وهذا العطف المحمديّ يصاحبُ هذه الطّفلة ، التي كبرتْ وغدتْ من راوياتِ الحديثِ النّبويّ ، ومن عالماتِ بناتِ الصَّحابة ، بل ظلَّتْ تحتفظُ بالهديةِ النّبويةِ إلى آخر حياتها الطّويلة التي زادت عن تسعينَ عاماً ، ببركةِ دعوةِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ لها بذلك.

* ومن ألوانِ التَّربيةِ النَّبويّةِ للبنات الصِّغار ما كان يفعلُه الحبيبُ الأعظمُ ﷺ؛ فقد بلغَ من حبِّه ﷺ لحفيدتهِ أمامةَ بنتِ أبي العاص ابنةِ ابنتهِ زينبَ ـ رضي الله عنهما ـ أنْ كان يحملُها في الصَّلاة ، وقد شهدَ شاهدٌ عَدْلٌ من فرسانِ المدرسةِ المحمديّةِ بهذه التَّربيةِ العظمىٰ الفُضْلى الكبرىٰ ، هذا الشَّاهد هو أبو قتادة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحنُ ننتظرُ رسولَ اللهِ ﷺ في الظُّهر أو العَصْر ، وقد دعاهُ بلالٌ للصَّلاة ، إذ خرجَ

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ، في اللباس (١٠/٣٦) ، وفي الجهاد (٦/١٢٨) ، وفي الأدب (١٠/٣٥٦) ، وفي فضائل أصحاب النبي (٧/١٤٥) ، وأخرجه أبو داود برقم (٢٠٢٤) ، وأحمد في المسند (٦/٣٦٤ و٣٦٥) ، وانظر هذا كله بتوسع في كتابنا الشهير «بنات الصحابة» ، حيث تجد فيه ما يسرّ النفوس بإذن الله.

إلينا ، وأمامةُ بنتُ أبي العاص بنت ابنته على عنقِهِ ، فقام رسولُ الله ﷺ في مصلّاه ، وقُمنا خلفَه وهي في مكانِها الذي هي فيه ، فكبّر فكبّرنا ، حتى إذا أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أن يركعَ ، أخذهَا فوضعَها ، ثم ركع فسجدَ ، حتى إذا فرغَ من سجودِه ثمّ قام ، أخذَها فردَّها في مكانِها ، فما زالَ رسولُ الله ﷺ يصنعُ بها ذلك في كلِّ ركعةٍ حتى فرغَ من صلاته[1] .

* وخصَّ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ أمامةَ هذهِ بهدية جاءتْهُ من عند النَّجاشيّ ، وذلك كي نتعلَّمَ لوناً آخرَ من ألوانِ التّربيةِ المحمديّةِ للطّفل ؛ روتْ أمُّنا عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النَّجاشيَّ أهدىٰ إلىٰ النبيِّ ﷺ حليةً فيها خاتمٌ من ذهبٍ فصُّه حبشي ، فأعطاه أمامَة رضي الله عنها[2] .

* ومرّة أخرى أُهديَ له ﷺ قلادة من خَرزٍ ، فوضعَها في رقبةِ أمامة بنت أبي العاص[3] .

* والأمثلةُ على الرّعاية النّبويةِ للطّفل كثيرةٌ ، لا يمكن أنْ تُستقصى ، ولكن فيما ذكرناه كفايةٌ وزادٌ لمن أرادَ ذلك .

* * *

(١) أخرجه الشيخان في الصحيحين ، وأبو داود برقم (٩١٧ و٩١٨ و٩١٩ و٩٢٠) ، والنسائي (٢/ ٤٥) و(٣/ ١٠) .
(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٤٠) .
(٣) انظر : در السحابة للشوكاني (ص ٥٣٥) .

الفصل الرابع

الطِّفْلُ وَمَحَبَّةُ النَّبيِّ ﷺ

* من سعادةِ العبدِ أنْ يرزقَه اللهُ عزَّ وجلَّ حبَّ النَّبيّ محمّدٍ ﷺ ، لأنَّ محبَّتَه منْ شروطِ الإيمان ، فقد أخرجَ الإمامُ البخاريُّ بسندِه عن أبي هُريرةَ - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فَوالذي نفسي بيدِه ، لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أَحبَّ إليهِ منْ والدِهِ وولدِه»[1] . وعن أنس بنِ مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ عَبْدٌ حتّى أكونَ أحبَّ إليه منْ أهلِهِ ومالِهِ والنَّاسِ أجمعين»[2] .

* ومحبَّةُ النَّبيّ ﷺ منْ أسبابِ حُصُولِ حلاوةِ الإيمانِ ، ومن تذوَّقَ حلاوةَ الإيمانِ فقد حظيَ بالرِّضْوان ، فقد أخرجَ الشَّيْخان: البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النَّبيّ ﷺ قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءُ لا يحبُّه إلا لله ، وأنْ يكرهَ أنْ يعودَ في الكُفْر كما يكرهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّار»[3] .

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٥٨).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٦٧) ، برقم (٧٠).

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري (١/ ٦٠) واللفظ له؛ ومسلم (١/ ٦٦). ومعنى «حلاوة الإيمان»: استلذاذ الطّاعات ، وتحمّل المشاق في الدِّين ، وإيثار ذلك على أعراضِ الدنيا. (شرح النّووي ٢/ ١٣) و(فتح الباري ١/ ٦١).

* ومحبّةُ النّبيِّ ﷺ ستكونُ ـ بإذنِ اللهِ ـ سبب مرافقَتهِ في الجنَّةِ ، فقد روى ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءَ رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ ، كيفَ تقولُ في رجُلٍ أحبَّ قوماً ولم يلحقْ بهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «المرءُ معَ مَنْ أحبّ»[1].

* وإذا عُرِفتْ شخصيّةُ النّبيّ ﷺ وفضائلُه وشمائلُه وأحوالُه ، فإنَّ القَلْب يصبحُ أسيرَ حبّه ، وإذا ذاك يتعلَّقُ به تعلّقاً عظيماً يخالطُ الرّوحَ ويتخلّلُها ، ويفديه المُحبُّ بالأهلِ ، والولدِ ، والمالِ؛ وهذا الحبُّ الصّحيحُ يجبُ أنْ نُعلِّمَه للطِّفل ، ونُعلّمه بأنَّ الصَّحابةَ الكرامَ ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ قد مَلَكَ حبُّ رسول الله ﷺ شغَافَ قلوبهم ، فكان أحدهم يشتاقُ إليهِ وهو في حضرتهِ الشَّريفةِ ومعيَّته المباركةِ ، وقد ظهرَ حُبُّ أصحاب النَّبيّ ﷺ له في مواقفَ كثيرة متعدّدة ، منها حبُّ أبي بكْر له يومَ الهجرة ، وحبُّ الأنصار له يوم وصولهِ المدينةَ ، وكذلك حبُّهم له في غزاةِ أُحد ، حيث كان أحدهم يقفُ درعاً واقياً له ﷺ من ضَرباتِ وسهامِ المُشركين ، فيتلقّى السِّهامَ بصدرِه أو ظهرِه أو سائرِ جسمه.

* ونُعَلِّم الطِّفْل انتقالَ المحبّةِ من جيلِ الصَّحابة ، إلى جيلِ التَّابعين ، وكيفَ ورَّثَ الصَّحابَةُ الكرام محبّة النَّبيّ ﷺ لمن بعدهم ، فقد كان ثَابتٌ البُنَاني التّابعي الجليلُ يقولُ لأنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ: أعْطِني عينَيْك التي رأيتَ بهما رسول الله ﷺ حتّى أقبّلَهما[2].

* وذكر عبدُ الرحمن بنُ رزين أنَّه نزلَ الرَّبذة ذات مرّةٍ هو وأصحابه ، وكانوا في طريقهم إلى الحجّ فقيل لهم: هاهنا سَلَمةُ بنُ الأكْوع ـ رضي الله عنه ـ صاحبُ رسول الله ﷺ.

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٠/ ٥٥٧) واللفظ له ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤) و«مع من أحب»: أي في الجنة.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب (١/ ١٩٠ و١٩١).

قال عبدُ الرحمن: فأتيناه، فسلَّمنا عليه، ثمَّ سألناه؛ فقال: بايعتُ رسول الله ﷺ بيدي هذه، وأخرجَ لنا كفَّه كفّاً ضخمةً.

قال عبدُ الرحمن: فقُمْنا إليهِ فقبلنا كفَّيْهِ جميعاً.

* ونروي للطّفْلِ مثلَ هذه الآثار الطَّيِّبة، ونربطُه بمحبّةِ النَّبيّ ﷺ عن طريق القَصَصِ المشوِّقِ، والأخبارِ الجميلةِ، ونذكرُ له بأنَّ حبَّه من حبِّ الله عزَّ وجلَّ، ومَنْ أحبَّه فقد أحبَّ الله، لأنَّ اللهَ الذي خَلَقَه وبعثَه رحمةً للعالمين يحبُّه، وقد أمرنَا بحبّهِ واتّباعه، ولا مانعَ أنْ نُطلع الطّفل على بعضِ الكُتبِ المصنَّفةِ في محبّةِ النَّبي ﷺ، مثل كتاب: «جلاء الأَفْهام في الصَّلاةِ والسَّلام على خيرِ الأنَام» وغيرِه، ولا بأس في أنْ نقرأَ عليهِ بعض عبارات هادفة منَ الكتابِ من مثل كلام ابن قيم الجوزيّة في محبّة النّبي ﷺ حيث يقول في كتابه جَلاء الأفهام: وكلُّ محبّةٍ وتعظيم للبشَر فإنّما تجوزُ تبعاً لمحبّة اللهِ وتعظيمِه كمحبةِ رسولهِ وتعظيمه، فإنّها منْ تمامِ محبّة مُرسلِهِ وتعظيمِه، فإن أمّتَه يحبّونَه لمحبّةِ اللهِ له، ويعظّمونَه ويبجّلونَه لإجلالِ اللهِ له، فهي محبّةٌ للهِ من موجبات محبّةِ الله(١).

* ويجبُ أنْ يلتفتَ الأبُ أو المربّي في ميدان محبّةِ النّبيّ ﷺ إلى ناحيةِ الأدبِ والاحترام والتّوقيرِ، فعندما يُذْكَرُ النّبيُّ يلفِتُ نظرَ الطّفل إلى أنْ يقولَ: ﷺ، وهذا ممّا يزيدُ الطّفل حبّاً للنّبيّ الكريم ﷺ الذي أمرَ الآباء بأنْ يؤدّبوا أولادهم وأطفالَهم على حُبّه فقال: «أدّبوا أولادكم على ثلاثِ خصال: حبّ نبيّكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القُرآن»(٢).

* وبما أنَّ الأمرَ بحبّ النّبيّ ﷺ مهمٌّ إلىٰ هذا الحدّ، فإنَّه منْ واجبِ

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٩٤).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٢٢٥ و٢٢٦) رقم الحديث (٣١١) وهو حديث ضعيف.

المربّي أنْ يغرسَ في نفسِ الطِّفْل إكبارَه وحبَّه وتعظيمه ، ولعلَّ منْ أسهلِ وأفضلِ الوسائلِ إلى ذلك أنْ يكونَ المربّي أو الأب مُلمّاً بسيرةِ النّبي ﷺ ليقصَّها على مسامعِ الأطفال ، أو يقرأَ له سيرتَه وشمائِلَه وفضائلَه في كتب الشّمائل والسِّيرة الّتي ما يكادُ أحدٌ يطّلعُ عليها أو يسمعُها إلاَّ تتركُ أجملَ الأثرِ في نفْسهِ ، وتمتلكُ قلْبَه ولبَّه وجوارحَه .

* والأبُ النّاجحُ في تربيةِ أخلاقِ الطِّفْل على محبّةِ النَّبيّ ﷺ يجعلُ منه رجلاً صالحاً حَسَن السِّيرةِ في المُسْتقبلِ ، خصوصاً إذا استطاعَ أنْ يرويَ لطفْلهِ بعضَ الرّواياتِ التي تظهرُ حبَّ النّبيّ ﷺ للأطفال الصِّغار ، وكيفَ كان يهتمُّ بشؤونهم ويرعاهم ، ولا مانع أنْ يرويَ ما وردَ عنه من حبٍّ لحفيدَيْه الحسنِ والحُسين رضي الله عنهما ، وكذلك لحفيدتِهِ أمامةَ بنتِ أبي العاصِ ، وكذلك معاملته لزينبَ بنتِ أبي سلمةَ وغير هؤلاء من الأطفال منْ أقربائِهِ وغيرِهم منْ أطفالِ أصحابهِ الكرام رضي الله عنهم جميعاً؛ وإذا أحْسَنَ الأبُ أو المربي عَرْض محبّتِهِ ﷺ للأطفالِ ، فإنَّ الطِّفْل يحبُّه ويسعى كيما يقتدي به في سلوكهِ وأخلاقهِ ، وأنْ ينهجَ نهْجَه في هذا الطَّريقِ اللطيفِ البنّاء .

* وممَّا لاشكَّ فيهِ أنَّ عاطفةَ الحُبِّ ليستْ في إطارِ ما يملكُ الإنسانُ أنْ يتحكَّمَ به ، ولكنَّها تدلفُ إلى النَّفسِ الإنسانيّة بعيداً عن ميدانِ الإرادةِ ، ومع ذلك تأبىٰ هذه الشَّريعة أنْ تدخلَ إلى النَّفسِ عن طريقِ الأمْرِ ، فربّما نفَّذَ الإنسانُ بعضَ الأمورِ مُكْرهاً؛ والإكراهُ مرفوضٌ في قواعدِ هذا الدِّينِ فـ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وأبتْ إلاّ أنْ يكونَ الحبُّ هو العلاقةُ التي تحكمُ هذا الارتباطَ بين المسلمِ وبينَ نبيّه ﷺ.

* ومن هذه النُّقطةِ الحسَّاسةِ نحقّقُ الحبَّ في حياةِ الطفْلِ ، حيثُ نربطهُ بالنّبيّ ﷺ بموقفِ إعجابٍ في شخصهِ الكريم ، ثمّ يتأكّدُ هذا الإعجاب فيتحوّلُ إلى حبٍّ ، والحبُّ قوةٌ لا تقفُ في وجهها العوائقُ مهما عظُمَت ،

وعلينا أن نثبّتَ حبَّ النّبيّ ﷺ في نَفْس الطفل عن طريق إثارةِ مواقف الإعجابِ بالنّبي ﷺ؛ ويمكنُ أنْ نثيرَ زاويةَ الإعجابِ للطّفل بِكَرمِ وسخاءِ النّبيّ ﷺ ، ويتحوّل الإعجابُ بهذهِ الخُلّة إلىٰ الحبّ الفريدِ الخالصِ .

* ويستطيعُ المربّي أنْ يذكرَ أحداثاً من السّيرة النّبوية ، توضِّحُ هذا المفهومَ وهذا المعنىٰ ، من مثلِ ما ذكَرَ سيّدنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ قصّةَ الرّجل الذي أعطاهُ النّبيُّ ﷺ عطاءً عظيماً ، يقولُ أنسٌ : إنَّ رجُلاً سأل النّبيّ ﷺ فأعطاهُ غَنماً بينَ جبلَيْن ، فأتىٰ قومَه فقال : يا قوم؛ أَسْلِمُوا ، فإنَّ محمّداً يعطي عطاءَ رجلٍ لا يخافُ الفَاقَةَ ، وإن كانَ الرجلُ ليجيء إليهِ ما يريدُ إلا الدنيا ، فما يمسي حتى يكونَ دِيْنُه أحبَّ إليهِ منَ الدُّنيا بما فيها[1] .

* وهذه صورةٌ أخرى من صُور المحبّة الخالصةِ للنّبيّ ﷺ ، يمكنُ للمربي أنْ يعرضها علىٰ الطّفْل ليقتديَ بها . . . فقد كان صفوانُ بنُ أميّة ممّن تأَخَّرَ إسلامُه إلى ما بعدِ فتح مكّةَ ، ولكنّه أصبحَ ممن يحبُّ النّبيّ ﷺ لأنّه أغدقَ عليهِ بالعَطَاء ، فانكشفَ عن قلبهِ الغِطَاء ، وغدا النّبيّ ﷺ قرّةَ عينهِ ، ولنسمعْ إلى صفوانَ وهو يتحدَّثُ عن هذهِ المحبّةِ فيقول : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حُنين وإنَّه لأبغضُ النّاس إليَّ ، فما زال يعطيني حتّى صار وإنّه أحَبُّ النّاس إليّ[2] .

* وإذاً ، فما دامَ حبُّ النّبيّ ﷺ فرضاً ، فينبغي أنْ نسلكَ السَّبيلَ القويمَ والصَّحيح إلى تحقيقهِ في نفسِ الطّفل؛ والسّبيل هو التّعرّفُ على سيرتِه كما أسلفنا ، ويمكنُ لنا أنْ نستقرىءَ ميولَ الطّفْل ، ونتعرّفَ أحوالَه ، ونثيرَ فضائل النّبي ﷺ أمامَه ، فإنْ كانَ الطّفْل ممّن يحبُّ الشَّجاعَةَ ويُعْجَبُ بها ، قصصْنَا عليهِ جانباً من شجاعتَهِ ﷺ وتشجيعهِ على الفروسيةِ ، وإن كان

---

(١) أخرجه أحمد كاملاً في المسند (٣/ ٢٥٩) ، وروى مسلم القسم الأول منه برقم (٢٣١٢) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٣) .

الطّفْل ممّن يحبُّ السَّخاءَ ، أوردنا له من كرمهِ ﷺ في جميع الأحوال ، وإن كانَ ممن يحبُّ إغاثةَ الملهوفِ ومساعدةَ المحتاجِ ، سَرَدْنا له من وقائعِ حياةِ النّبي ﷺ قَصَصاً وأحداثاً عن ذلك ، وهكذا نتعاملُ مع الوفاءِ بالوعد ، والإيثارِ والعفو ، وسائر الفضائل.

* ولابدَّ لنا أنْ نعلِّمَ الطِّفل مع محبَّةِ النّبيّ ﷺ الأدبَ بحضرتهِ في حياتِه ، ومع سُنَّتهِ وهَدْيهِ بعد مماتِهِ ، فلا يُنادىٰ ﷺ باسْمِه ، بل يُنادى بأدبِ النّبوّة فيُقَال: يا رسولَ اللهِ، أو يا نبيَّ الله، ولقد أشارَ القُرآن الكريمُ إلى هذا الأدبِ معلّماً النَّاس أصولَه ، فقال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾ [النور: ٦٣] ، وفي موضع آخر يأتي الأمْرُ الإلهيُّ واضحاً بألا يُرْفَعَ الصّوتُ فوقَ صوتِ النَّبيّ لأنَّ ذلك يحبطُ العملَ ، فلنستمعْ إلىٰ ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

* ومن تمامِ الأدبِ مع النَّبيّ ﷺ نعلِّم الطِّفل حسنَ السَّماع لحديثهِ ﷺ ، فإذا سمعَ الطّفل حديثاً نبوياً يصمتُ لسماعِه ، وإذ ذاك يستشعرُ الطّفْلُ منزلة الرسولِ ﷺ ومكانتَه ومحبّته في قلوب المسلمين.

* ونضيفُ إلى ذلك كلّه الجهْرَ بالصَّلاة على النّبيّ كلّما ذُكِرَ ، لنكونَ بذلك قدوةً للطّفل ، فإذا لم يُصَلّ الطفلُ عليهِ ننبّهه ، ونبيّنُ له أنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ هذا النّبيّ ، لذا فقد أمرَ بالصَّلاة عليهِ فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ ونذكّرُ الطِّفلَ أيضاً بأنَّه منَ الكَرم الصَّلاة على النّبيّ ، وأنَّ الذي لا يصلّي عليه بخيلٌ ، ونسمعَه في هذا قولَ النّبي ﷺ: «البخيلُ الذي مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلمْ يُصَلّ علي»(١).

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٦) ، وهو حديث حسن صحيح.

* ومن تمامِ محبّةِ النّبيّ ﷺ الإكثارُ منَ الصَّلاةِ عليه ، وخُصوصاً في أوقاتٍ معلومةٍ ، وضَّحَتْها السُّنَّةُ المطهّرةُ ، ونحثُّ الطّفْل على المداومةِ على الإكثارِ من الصَّلاة على النّبيّ وأنْ يجعلَ ذلك من كلامهِ ، ويستغلَّ يومَ الجمعةِ وليلتَها في كثرةِ الصَّلاة ، لأنَّ رسول الله ﷺ يقولُ: «أكْثروا الصَّلاةَ عليَّ يومَ الجُمعَة وليلةَ الجُمعةِ ، فَمنْ صلّى عليَّ صلاةً صلّى اللهُ عليه عَشْراً»(١).

* ومن خلالِ هذه الآدابِ الجميلةِ يتعود الطّفل على محبّة النّبيّ ﷺ وتوقيرِه والتأدّب معه ، وينشأُ هذا الأدبُ معه حتى يشتدَّ عوده ، ويعرفُ قَدْر النّبي ﷺ معرفةً عقليةً فينفعُ وينتفعُ ، ويظْهِرُ تعظيمه وتوقيره. فيحظىٰ برضوان الله عز وجل وجنّته.

* ومما يحسنُ بالمربّي غرسه في نفسِ الطّفل ليزدادَ محبّةً للنّبيّ ﷺ أنْ يرويَ له إيمانَ أطفالِ الصَّحابة وإسلامَهم ، وكيفَ أحبُّوا الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ ، وكيفَ أصبحَ وأمسى رسول الله ﷺ كلَّ شيءٍ في حياتِهم ، فكان أعظم من كلِّ شيء وأغلى من كلّ مخلوقٍ عندهم ، حتى منْ آبائِهم وأمّهاتِهم.

* ومنَ الأطفالِ المحبّين للحبيبِ الأعظمِ محمّد ﷺ ، والمحبّبين إلى قلوبنا سيّد الأبطالِ وشبْلهم عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد عاشَ في كنفِ النَّبيّ ﷺ ، ولمّا دعاه إلىٰ الإسلامِ سارعَ إلى تلبيةِ الدّعوةِ المحمّديةِ النّبويةِ دون أنْ يأخذَ رأي أبيهِ وهو أبو طَالب وكانَ مُطاعاً شريفاً ذا مكانٍ وهيبةٍ في قريش ، إلا أنّ محبّةَ النّبيّ ﷺ جعلت سيّدنَا علياً يضربُ صفحاً عن كلّ شيءٍ إلا عن المسارعةِ إلىٰ الإيمانِ ، وكان ما يزالُ طريَّ العودِ لم يتجاوزِ العاشرة وحظيَ بالصَّلاة مع النّبي ﷺ وأمّنا خديجة

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٤٩).

ـ رضوان الله عليها ـ في شِعابِ مكّة ، ولما رآهُ أبوه أبو طالب لم يوجَلْ ، ولم يخَفْ ، بل مضىٰ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وطاعةِ الرَّسولِ ﷺ؛ فأكرمْ بهِ من طفلٍ أحبَّ النّبيّ ﷺ ، فرأىٰ الوجودَ بعين المُحبّ الصّادق ، فكانَ منْ أعلياءِ الخَالدين.

* ولا مانعَ مِنْ أنْ يروي المربّي للطّفلِ شدّة محبّةِ الأطفالِ والأولادِ للنّبي ﷺ ، ومنهم مصعبُ بن عُمير الذي لم يلتفتْ إلى أمّه كي تثنيه عن حبِّ النّبيّ ﷺ ، وكذلك سعدُ بنُ أبي وقّاص مع أمه أيضاً ، فقد غلبتْ محبّةُ هؤلاء الأطفالِ للنّبيّ ﷺ كلّ شيء ، ومنْ جانبٍ آخر يذكرُ المربّي الأطفالَ الذين تشرّفوا بخدمةِ النّبيّ ﷺ وأحبُّوه وتخلّوا عن أحبّ الأشياءِ لديهم ، وسارعوا لتنفيذِ ما يأمرهم بهِ النّبيّ ﷺ ، ومنهم أنسُ بنُ مالك الأنصاريّ الذي خدمَ النّبيَّ ﷺ عشر سنين ، وكانَ ذات مرّة يلعبُ مع الأطفالِ ، فجاء النّبيُّ ﷺ ، فسلَّم علىٰ الأطفالِ ، ثمَّ بعثَ أنَساً في حاجتهِ ، فتركَ اللعب وأصحابَه ، وانبعثَ مُسرعاً فقضاها والحبُّ يملأُ قلبَهُ الصّغيرَ. وكانَ أنسٌ ينظرُ إلى النّبي ﷺ بعينِ البراءَة والمحبَّةِ الصَّافيةِ ، وممّا أكرمَهُ اللهُ بهِ أنّه كان يسعىٰ لقضاءِ حاجة النّبيّ ﷺ في محبّةٍ نادرةٍ دونَ أنْ يأمرَهُ بذلك ، ومما يذكُرهُ أنسٌ في هذا المجالِ قال: كانَ رسول الله ﷺ يأتي الخلاءَ ، فأتبعهُ أنا وغلامٌ منَ الأنصار؛ بإداوَةٍ من ماءٍ ، فيستَنْجي بها[١]. وأمّا عبدُ الله بنُ عبّاس ـ وكان ما يزالُ طفْلاً صغيراً ـ فلم يكنْ أقلّ حُبّاً من أنسٍ للنّبيّ ﷺ ، فكان هو الآخرُ يترقّبُ أحوالَ الحبيبِ محمّدٍ ﷺ ليسارعَ بحبٍّ إلىٰ قضاءِ ما يحتاجُه ، فقد أخرجَ البخاريُّ عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النّبيَّ ﷺ دخلَ الخلاءَ ، قال: فوضعتُ له وضُوءاً ، فقال: «مَنْ وضَعَ هذا»؟ فأُخْبِرَ ، فقالَ ﷺ: «اللهمَّ فَقّههُ في الدِّيْن»[٢].

---

(١) أخرجه الشيخان والبيهقي.

(٢) أخرجه البخاري.

* ولا بأسَ في أنْ يرويَ المربيّ للطّفْل ألواناً أخرىٰ من المحبّةِ البريئةِ منْ أطفالِ الصَّحابة للنّبي ﷺ ليستقرَّ حبُّه في قلبهِ الصَّغير البريء ، ومن ذلك قصَّةُ عبدِ الله بنِ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ الذي كانَ أوّلَ طفلٍ يُولَدُ للمهاجرِيْن في المدينةِ منْ أبوَيْن مُهاجرين كريمَيْن لهما شرفٌ ومكانةٌ في سماءِ الفضائلِ ، فقد جاءتْ به أمُّه أسماء بنتُ الصِّدِّيق ـ عليهما سحائبُ الرّضوان ـ لمّا ولدتْه إلىٰ رسولِ الله ﷺ كيما يحنّكَهُ ، فأخذَهُ رسول الله ﷺ منها ، ومن ثمَّ وضعَه في حجرِهِ الشَّريف ، ثمَّ دعا بتمرة ، فمضغَها ، ثمَّ ألقاهَا في فمهِ ، فكانَ أوّلُ شيءٍ دخلَ بطْنَ الطِّفلِ الوليدِ عبدِ الله بن الزّبير رِيْقُ النَّبيّ ﷺ ، ثمّ مسحَه ، وسمّاه: عبدَ الله ، ولما غدا عبدُ الله طفْلاً ابنَ سبْع سنين أو ثَمان جاءَ ليبايعَ النَّبيَّ ﷺ حيثُ أمرَهُ أبوه الزُّبير بذلك ، فتبسَّمَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ حينما رآهُ مقبلاً إليه ، ثمَّ بايعه(١).

* وبمثل هذه المحبّةِ الحُلوة البريئةِ ترعْرعَ أطفالُ الصَّحابة علىٰ محبّة النَّبيّ ﷺ يدفعُهم إلىٰ يَنْبوع الحبِّ الخالد مربُّوهم الذين تربَّوا علىٰ حبِّ النّبيّ ﷺ أيضاً ، وعوّدوهم هذه العادة الكريمةِ .

وينشأُ ناشيءُ الفتيانِ فيْنَا   علىٰ ما كان عوَّدَه أبوه

* وهكذا حظيَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ بهذه البيعةِ النّبويّة المباركةِ من النّبيّ ﷺ ، ولم يَحْظَ سوىٰ بضعةِ أطفالٍ معه بهذه البيعةِ ؛ فقد وردَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمْ يبايعْ صبيّاً إلا الحسنَ والحسينَ ، وعبَد الله بنَ عبّاس ، وعبد الله بن الزَّبير ـ رضي الله عنهم ـ(٢) .

* وفي شرحهِ على صحيحِ مُسلم يقولُ الإمامُ النَّووي ـ رحمه الله تعالى ـ عن بيعةِ هؤلاءِ الأطفَال وذلك في تعليقهِ على حديثِ ولادةِ

---

(١) هذه القصة أخرجها الإمام مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير وفاطمة بنت المنذر.

(٢) انظر كتاب: أنباء نجباء الأبناء (ص ٨١).

عبدِ اللهِ بن الزُّبير: هذه بيعةُ تبريكٍ وتشريفٍ، لا بيعةُ تكليفٍ، فإنَّه دونَ سنّ التكليف[1].

* ويتابعُ المربّي رحلةَ محبّةِ النّبي ﷺ مع الطّفلِ، فيذكرُ قَصَصاً مثيرةً وجميلةً تعمّقُ المحبّةَ النّبويّةَ في قلبِ الطّفل، ومنها ما جاءَ في كتُب الصَّحيح والسِّيرة النّبوية عن غلامَيْن شاركَا في قَتْل فرعونِ الأمّة أبي جَهْل، فقد روىٰ سيدّنا عبدُ الرّحمن بنُ عوف الزُّهريّ ـ رضي الله عنه ـ قصَّةَ غلامَيْن شَهِدا بَدْراً، فقالَ ما مفادُه: كنتُ في غزاةِ بَدْرٍ الكبرى، والمعركةُ حاميةُ الوطيسِ، فوقفَ غلامٌ عن يميني يسألُني: يا عمُّ، يا عمُّ، دُلَّني علىٰ أبي جهل بنِ هشام فقلتُ له: يا بنيّ مالكَ منْ أبي جهل؟

فقال لي في براءةٍ: والله! إنْ رأيتُه لَنْ أفلتَه، لقد كان يؤذي رسول الله ﷺ. ثمّ وقفَ غلامٌ عن يساري، فسألَني مثْلَ الأوّلِ.

* واحتدمتِ المعركةُ، واشتدَّ البأْسُ، واحمرّتِ الحدقُ، ثم التفتُّ إلىٰ الغلامَيْن وقلتُ لهما: ذاكَ الذي تبغيان، ذلك أبو جَهْل، وانطلقَ الغلامانِ مسرعَيْن نحوه بسيوفهما الصَّغيرة، وكلّ واحدٍ منهما يريدُ أنْ ينالَ شرفَ السَّبْق في قتْلِ عدوّ الله ورسوله أبي جهل فرعون الأمّة، ثمَّ يضربانِه ضربةً قويةً، ويسقطُ أبو جهل علىٰ الأرض صريعاً، فيتسابقان إلىٰ النَّبي ﷺ ليبشّراه بقتلهِ، وكلٌّ واحدٍ منهما يقولُ: يا رسولَ اللهِ أنا الذي قتلتهُ، ويقولُ لهما الحبيبُ المصطفى ﷺ: «أرِيَاني سيوفكُما»، فيرىٰ ﷺ عليهما آثارَ الدِّماء، فيقولُ لهما: «كلاكُما قتَلَهُ»[2].

* ويُسْتَحسنُ أنْ يُكثرَ المربيّ من قَصَصِ محبّةِ الأطفالِ للنّبيِّ ﷺ، ودفاعِهم عنه، حتى إنَّ ثلّة منهم قتلوا أسْقُفاً بالبحرين[3] سبَّ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته.

(٢) للقصة أصل في صحيح البخاري، وانظر: كتب السيرة النبوية المتنوعة.

(٣) «البحرين»: ليست دولة البحرين حالياً، وإنما هي منطقة الإحساء بالسعودية.

رسول الله ﷺ أمامَهم في زمنِ الخلافةِ الرّاشدة؛ وملخّصُ هذه القصّة ومحصّلُها من أنَّ أطفـالاً منْ أهلِ البحرين خرجُوا يلعبونُ بالصَّوالجةِ ، وكان أسقفُ البحرين قاعـداً ، فوقعتِ الأكـرَةُ على صـدره ، فأخذَهـا وحجزَها عنهم ، فجعلُوا يطلبونَهـا منه ، فأبى أنْ يردَّهـا ، فقال غـلامٌ منهم: سألتُكَ بحقّ محمدٍ ﷺ أنْ تردَّها علينا حتى نلعبَ ، فأبىٰ الأسقفُ وشخرَ ونخرَ وسبَّ النَّبيّ ﷺ ، وعندما سمـعَ الأطفالُ ذلك منْ هذا اللعينِ ، أقبلُوا عليه بصواليجهم ، فما زالوا يخبطونَهُ بها حتى مات شرَّ ميتةٍ؛ فَرُفعَتْ تلك القصّة إلى فاروقِ الأمّةِ ووزيرِ النّبيّ الثّاني عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فواللهِ ما فرحَ بفتحٍ ، ولا غنيمةٍ ، ولا نَصْرٍ ، كفرحتهِ وسرورهِ بقَتْلِ الأطفالِ والغلْمانِ لذلك الأُسقفِ اللعينِ الحقودِ الحسُودِ ، وقال: الآنَ عزَّ الإسلامُ ، إنَّ أطْفَالاً صَغاراً شُتِمَ نبيُّهم ـ ﷺ ـ فغضبُوا له ، وانتصروا حبّاً له ومحبّةً بدينه إنَّهم لأوفياءَ؛ وأهدرَ عمرُ دَمَ الأسقفِ الملعونِ. والله أعلم(١).

* ومنْ روائع قَصصِ الطّفْل المحبِّ للحبيبِ الأعظمِ محمّد ﷺ ، ذلك الطّفلُ ذو الأُذُن الواعيةِ ، والفكْر المتوقّد ، الذي لم يستطعْ أنْ يأخذَ الحقّ بيده ، ممّنْ أساءَ إلىٰ النّبيِّ ﷺ ، فنَقَلَ خبرَ زعيمِ الفُسَّاقِ والمنافقينَ إلى حبيبهِ ونبيّهِ محمّد ﷺ ، وإلىٰ المؤمنين المحبّين مِنْ بعدِه ، ذلكم الطّفل الكبيرُ الهمّةِ ، الواعي الفَطِن زيدُ بنُ أرقمَ ـ رضي الله عنه ـ الذي كشفَ زيفَ عبدِ الله بن أُبيّ ابن سلول ، وأبانَ حقيقةَ أمرْه عقب غزوةِ بني المُصْطَلق ، عندما تهيّـأَ المسلمون مع نبيّهم للعودةِ إلى المدينةِ المنوّرة ، فحدَثَ أنِ اختلفَ رجُلان على الماءِ ، مهاجريٌّ؛ وأنصاريٌّ ، فاقْتَتَلا ، فصرخَ المهاجريُّ: يا معشرَ المهاجرين؛ وصرخَ الأنصاريُّ: يا معشرَ

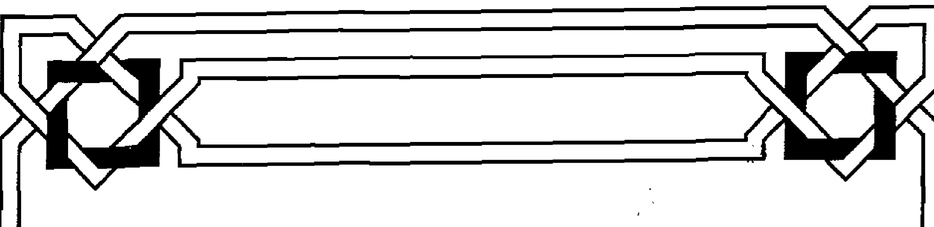
---

(١) انظر: ربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٦٤) ، والمستطرف (٣/ ٢٢٦) طبعة دار صادر في بيروت مع الجمع والتصرف. وانظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ٢١٣).

الأنصار ، فغضبَ رأسُ ورئيسُ وزعيمُ المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول لذلك ، وعنده جماعةٌ منْ قومِه فيهم زيدُ بنُ أرقمَ غلامٌ حَدَثٌ ، فقال ابنُ سلول يعرّضُ بالمهاجرين وينتقصُهم: أَوَقَدْ فَعلُوها؟ قد ثَاوَرونا وكاثَرونا في بلادِنا. واللهِ؛ لئن رجَعْنا إلىٰ المدينةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ، وقال كلاماً آخرَ ، ثمّ أقبلَ علىٰ مَنْ حوله منْ قومِه من المدينة ، وقال لهم: هذا ما فعلتُمْ بأنفسكم ، أحْلَلْتُموهم بلادَكم ، وقاسمتموهم أموالكَم ، أمَا واللهِ ، لو أمسكْتم عنهم ما بأيديكم ، لتحوّلُوا إلى غير دارِكم؛ وسمعَ هذا الكلام الشَّائن من ذلك الرّجلِ المنافق زيدُ بنُ أرقمَ ، فسارعَ إلىٰ حبيبهِ رسول الله ﷺ ، وأخبرَهُ الخبرَ ، وانكشفَتْ صورةُ المنافقِ ابنَ سلول أمامَ قومِهِ وأمامَ المؤمنين أجمعين[1].

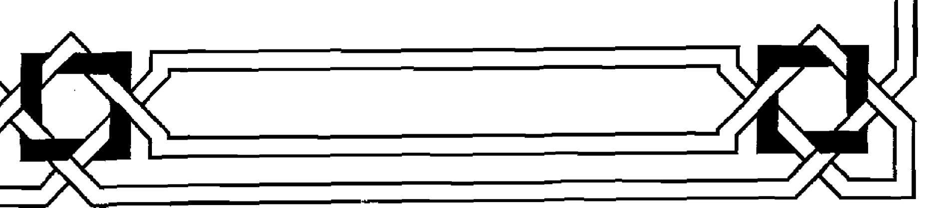
* * *

(١) اقرأ القصة كاملة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» ترجمة زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وانظر كتب التفسير وكتب أسباب النزول للآية: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].



الباب الثاني

أطفال حول الرسول صلى الله عليه وسلم



الفصل الأوّلُ

عليٌّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه -

* هذا طفلٌ حظيَ بالإكرامِ والتّكريمِ منَ الله عزَّ وجلَّ ، إذ خصَّه بمنقبةٍ فريدةٍ لم تكنْ لواحدٍ من الأطفالِ الصَّحابة .

* وما عساي أنْ أقولَ فيمن آمنَ في سِنِّ الطفوليّة قبل أنْ يبلغَ الحُلُم؟! .

* وما عساي أنْ أقولَ في ثاني اثنين أظلّهما البيتُ النّبويّ ، فكان منَ السُّبَّق الميامينِ إلى دوحةِ الإسلام؟! .

* بل ما عساي أنْ أقولَ فيمن قفّىٰ أُمّنا خديجةَ في السَّبْقِ إلى ساحةِ الإيمانِ برسالةِ الحبيبِ الأعظمِ سيّدنا وحبيبنا ورسولنا محمّدٍ ﷺ؟!

* وهل يستطيع كاتبٌ مهما جلّىٰ بيانُه وقلمُه ، ومهما قدحَ زنادَ فكْرِه أنْ يفيَ هذا الطِّفل الصَّحابي حقّه من الكتابةِ ومن الاحترام؟!

* إذاً تعالوا نحيا إشراقاتٍ تنيرُ دربَ الأجيالِ مع أبي الأشبالِ ، وسيّد الأطفالِ ، عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

* فقد كان عليٌّ ربيبَ النّبوّة ، ورضيعَ ثدي الرّسالة ، حباهُ اللهُ بأرفعِ مقاماتِ الإنعام ، فكان المتقلّب على فراشِ الإيمانِ ، النّاهدِ في مهْدِ أكرمِ المكارمِ ، الواعي أحداثَ الرّسالةِ العظيمة وهي في إطلالةِ أندائِها .

* نشأَ والإيمانُ معه حتى خالطَ مشاعِرَهُ ووجدانهِ وملأَ قلبَه ، وأفعمَ بالنّور روحَه ، وكان اللطفُ الإلهيُّ والعنايةُ الرّبانيةُ قد ساقَتْه إلى حِجْرِ رسولِ الله ﷺ ليحظىٰ بالخيرِ والخيراتِ؛ وأيّ خيرٍ أعظمُ من الحياةِ في ظلالِ البيت النّبويّ ، ويحظىٰ برعايةِ خاتم الأنبياء؟ بل أيّ خيرٍ أعظمُ من الحياة عند أمِّ المؤمنين ، وسيِّدة نساء العالمين ، وصديقةُ المؤمناتِ الأولىٰ ، وذِروة كلّ فضيلةٍ ومكرمة خديجة بنت خُويلد ـ عليها سحابات الرّضوان ـ؟!

* لا شكّ في أنَّ علياً ذو حظٍّ عظيم ، وخيرٍ جسيم ، ونعمةٍ من اللهِ وفضْل ، إذ عاشَ في بيتِ ابنِ عمّه أشرفِ الخلقِ وسيِّدهم محمّد ﷺ.

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: وكان من أَنْعُمِ اللهِ عليه أنَّه كان في حجْرِ رسولِ الله ﷺ قبل الإسلام ، وذلك أنَّ قريشاً أصابتْهم أزمةٌ شديدةٌ ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثيرة ، فقال رسولُ الله ﷺ للعبّاس عمه: «يا عبّاس إنَّ أخاكَ أبا طالب كثيرُ العيالِ ، وقد أصابَ النَّاسَ ما ترىٰ من هذه الأزمةِ ، فانطلقْ بنا إليهِ ، فلنخفّفْ من عيالِهِ ، آخذُ من بنيهِ رجلاً ، وتأخذُ أنتَ رجلاً ، فنكفيهما عنه».

قال العبّاسُ: نعم.

فانطلقَا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا: إنّا نريدُ أنْ نخفّفَ عنك من عيالِك حتى ينكشفَ عن النّاسِ ما هم فيه.

فقال أبو طالب: إنْ تركتُما لي عقيلاً فاصْنعَا ما شئتما. فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ علياً فضمَّه إليهِ ، وأخذ العبّاس جعفراً فضمَّه إليه ، فلم يزلْ عليٌّ مع رسولِ الله ﷺ حتى بعثَه الله نبيّاً ، فاتّبعه عليّ وآمن بهِ وصدّقه.

* وهكذا جاءُ ردّ الجميلِ لمرحلةِ الطُّفولة النَّبويّة ، فعندما كان الحبيبُ

المصطفىٰ ﷺ طفلاً في سنّ الثّمانية ، توفي جدّه عبد المطلب ، فكفِلَه عمُّه أبو طالب ، وحدبَتْ عليه فاطمةُ بنتُ أسد[1] زوج عمّه رضي الله عنها ، حتى استوى واشتدَّ عودُه ، وعندما تزوَّج ﷺ خديجَة ، وحدثتِ الأزمةُ الشَّديدةُ بقريش ، كافأَ عمَّه وزوجَه فاطمة بنتَ أسد بأنْ أخذَ عليّاً وضمَّه إليه.

* قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: وُلِدَ عليٌّ قبل البعثةِ بعشرِ سنين ، فَرُبّي في حِجْرِ النَّبيِّ ﷺ ولم يفارقه[2].

* وعلى هذا يكون عليٌّ عندما أسلمَ في عمر عشر سنين تقريباً ، وذلك قبل أنْ يبلغَ الحُلُم ، وهو في ذِروةِ سنّ الطفوليّة العذبة النّديةِ التي تشبُه الأحلامَ الحلوة.

* نشأَ عليٌّ وهو ينعمُ بدفءِ الحبّ النَّبويّ له ، وتفتّحَ عقْلُه على الهدي المحمديِّ ، وتربَّتْ نفسُه بالأخلاقِ المحمديّةِ التي اقتبسَ كثيراً منها في طفولتِه وشبابِه وشيخوختهِ.

* وعرف عليٌّ أنَّ محمداً ﷺ عنوانُ كلِّ فضيلة ، فهو الأمينُ في مكَّةَ ، وهو صاحبُ الخلقِ العظيمِ والأدبِ الرّباني الرّفيع ، وشاهَدَ من أنسامِ التّربيةِ المحمديّة له ما جعلَه من خيرِ الأطفال ، وأوّل مَنْ سُجِّلَ في ديوانِ الأوائل في سجلّ العظائِم فيقال: أوّلُ مَنْ أسلمَ من الصِّبيان عليّ. . . وحسبُك بهذه الشَّهادة فخراً.

* ومن أَنْعُم اللهِ عزَّ وجلَّ عليٰ هذا الطِّفْلِ الكريمِ أنْ كانَ أوّلَ الأطفالِ

---

(١) اقرأ سيرة هذه الصّحابية الكريمة في كتابنا «نساء مبشّرات بالجنة» (١/ ٥٣ ـ ٧٢) ، ففي سيرتها عبقات من أنوار ، وروح من رياحين ، رضي الله عنها وأرضاها.

(٢) الإصابة (٧/ ٥٧) ترجمة رقم (٥٦٨٢).

المصلِّين مع الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وفي حديثِ عفيف الكنديّ شهادةٌ بذلك .

* حدَّثَ عفيفٌ الكندي ـ وهو أخو الأشعث بن قيس لأُمّه وابن عمّه ـ أنَّه قال: كانَ العبّاسُ بنُ عبد المطلب لي صديقاً ، وكان يختلفُ إلى اليمنِ ، يشتري العطْرَ ويبيعُه أيّام الموسم ، فبينا أنا عند العبّاس بمنى ، فأتاهُ رجلٌ مجتمعٌ ، فتوضّأَ فأسبغَ الوضوءَ ، ثمّ قامَ يصلّي ، فخرجتِ امرأةٌ فتوضّأَتْ ، ثم قامتْ تصلّي ، ثم خرجَ غلامٌ قد راهقَ فتوضّأ ، ثمَّ قام إلى جنبه يصلّي .

فقلت: ويحك يا عبّاس ، ما هذا الدِّين؟!! .

قال: هذا دِيْن محمّد بن عبد الله ، ابن أخي ، يزعُم أنَّ اللهَ بعثَه رسولاً ، وهذا ابنُ أخي عليّ بن أبي طالب قد تابَعَه على دِيْنِهِ ، وهذه امرأتُه خديجة قد تابعتْه على دِيْنه .

فقال عفيفٌ بعد أنْ أسلمَ ورسخَ في الإسلام: يا ليتني كنتُ رابعاً .

* ولا شكَّ في أنَّ عليّاً غُبِطَ على هذا الحظِّ العظيم من قِبَل عفيفِ الكنديّ هذا ، فقد كان عليّ ـ رضي الله عنه ـ في مرحلةِ الطّفولةِ المخصبَةِ التي استفادَ منها ممّا حوله ، وكان بحقٍّ أحدَ الأعلام في دنيا الأَعلام النُّبلاء .

* وقد شهدَ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أحداثَ الدَّعوةِ جميعها ، وشاهدَ ما تصنعه قريشٌ بالمؤمنين ، ولقيَ نصيبَه من الأذىٰ ، كما لقيَ كثيرٌ من أطفال المسلمين آنذاك نصيبَهم مع أهليهم إلى أنْ هاجروا ، وكان لعليّ دورٌ مهمٌّ في الهجرةِ ، إذا اختصَّه الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بأنْ جعلَه في فراشِه كيما يؤدّي الأماناتِ إلىٰ أهلِها ، وكيما يكونُ من الفدائيين الأبطالِ ، وليبقى نجماً من نجوم الإسلامِ في سماءِ الإسلام .

* هـذا وطفولـةُ علـيّ ـ رضـي الله عنـه ـ حافلـةٌ بكثيـرٍ من المكـارم والفضائلِ ، وحافلةٌ بكثيرٍ من الأنداءِ العطراتِ التي تهذّبُ النُّفوسَ وتصقلُ الطّباع ، ولا يتَّسعُ المقام لإيرادها هنا ، وما أوردناه يروي الغلّة ، ويفي بغرضِ الكتاب.

* * *

الـفـصـل الثّـانـي

زيدُ بنُ حارثةَ ـ رضي الله عنه ـ

* منْ مِنّا لا يعرفُ زيداً هذا؟! ومَنْ منّا لا يعرفُ أنّه الصَّحابيُّ الوحيدُ الذي ذُكِرَ اسمهُ صراحةً في القُرآن الكريم؟! إذ نتعبّدُ اللهَ عزَّ وجلَّ في قراءةِ اسمِ هذا الطِّفل الحبيبِ المحبوبِ ، ونحنُ نتلو كتابَ اللهِ في الصَّلاة وغير الصَّلاة ، فقد أفردَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأشرفِ الشَّرفِ ، فذكرهُ في القُرآنِ الكريمِ باسمهِ ممتنّاً عليه بإنعامهِ عليهِ بنعمةِ التّوفيقِ إلى الإيمانِ في طليعةِ أسبقِ السَّابقين ، وممتنّاً عليهِ بإنعام رسولهِ ﷺ بالحريةِ والولايةِ فقال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، قال ابنُ عبد البَرّ ـ رحمه الله ـ: رُوي عنه ﷺ أنَّه قال: «أحبُّ النَّاسِ إليَّ مَنْ أنعمَ اللهُ عليهِ وأنعمتُ عليه»[١].

* ولزيدِ بنِ حارثةَ قصّة حلوةٌ تطربُ الألبابَ ، وتَسْحَرُ العقولَ ، إذ ساقَتْه العنايةُ الإلهيّةُ من مكانٍ بعيدٍ ليحظىٰ بقربِ الحبيبِ المصطفى ﷺ ، وليُصْنَعَ على عينِه ، وليكون حِبّه وأبو حبّهِ ، وزوج حاضنته أمّ أيمن.

* وفي مهدِ الطّفوليّة دُعي زيدُ بنُ حارثةَ إلى الإيمانِ فأجابَ ، فكان له فضْل السَّبْقِ إلى مائدةِ الإنعامِ الإلهيّ ، وكان أوّل الموالي لصوقاً بهذا الدِّينِ

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٥٣) ترجمة رقم (٨٤٣).

الخالصِ الذي ارتضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لعبادِهِ المؤمنين.

* ولا يحسبنَّ القارئُ الكريمُ أنَّ زيدَ بنَ حارثة مولىً في الأصلِ، بل إنَّ زيداً من صميمِ العرب، ومن عُليا قبائِلهم، فهو زيدُ بنُ حارثة بنِ شراحيل الكلبيّ، يعودُ نسبُه من جهةِ أبيهِ إلى يعرب بنِ قحطان[1]؛ ومن جهةِ أمّه إلىٰ طيء[2].

* إذاً، فما الذي جاءَ بزيدٍ طفلاً ليكونَ حولَ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ وبقربِه، وكيفَ أخذَ مساحةً كبيرةً من قلبِ النَّبيِّ ﷺ، فكان سيِّدَ الموالي وأسبقَهم إلىٰ الإسلام، وحِبَّ النّبيّ ﷺ وأبو حِبِّه، وما أحبَّ الحبيبُ الأعظم ﷺ إلا طيّباً؟!.

* إنَّ لطفولةِ زيدٍ قصّةٌ شائقةٌ رسمتها العنايةُ الإلهيّة، وساقتها من قبْلُ، ليكون قدوةً للأطفالِ، وليكون قدوةً للرّجال، وليكون قدوةً للمخلصين.

* تروي الأخبار قصّة مجيء زيد إلى البيتِ المحمديّ وهو طفلٌ صغيرٌ فتقول: خرجتْ سُعدىٰ بنتُ ثعلبةَ الطّائية أمُّ زيد بن حارثةَ كي تزورَ قومَها، واصطحبتْ ابنَها معها، فأغارتْ خيلٌ لبني القين بن جسر في الجاهليّةِ على بني معنٍ رهطِ أمّ زيد، فاحتملوا زيداً، وهو غلامٌ يفعَة، وقدموا به سوقَ عُكاظ، وعرضوه للبيع، فاشتراهُ حكيمُ بنُ حزام بن خُويلد الأسديّ لعمّته خديجةَ بنتِ خويلد، ولما تزوَّجها الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ وهبَتْ له زيداً.

* أمّا أمّ زيد وأبوه وقومُه، فقد حزنوا عليه، وشعروا بمرارةِ فَقْده، وراحوا يسعونَ في مناكبِ الأرضِ يبحثون عنه، ويستنشقونَ أخبارهَ منَ الرّائحِ والغادي.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٤/ ٤٧) ترجمة رقم (٨٤٣).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٨).

* وكان أبوه حارثةُ يرسلُ العبراتِ الحرّى حزناً على فراقِهِ ، ويرسلُ النَّفثاتِ ، ويبكيه في عديدٍ من الأبيات ، ومن أشهرِ ما أنشده في التّفجُّع عليه ، قصيدتهُ الهامسةُ التي يبكي فيها ويتساءل أحيّ هو أم اغتالته الأرضُ أم الجبالُ فيقول:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فَعَل   أحيٌّ يرجّىٰ أمْ أتىٰ دونهَ الأجل
فواللهِ ما أدري وإنْ كنتُ سائلاً   أغالَكَ سَهلُ الأرضِ أمْ غالَك الجبل
تذكّرنيهِ الشّمسُ عند طُلوعها   وتعرضُ ذكْراه إذا غَرْبُها أَفَل[1]

* وظلَّ حارثة أبو زيد ينشدُ أمثالَ هذه الأشعارِ في ابنهِ زيد ، إلى أنْ حضرَ موسمُ الحج ، فقدمَ ناسٌ من قومهِ من بني كلب حُجّاجاً ، فرأوا زيداً ، وعرفَهم وعرفُوه ، فأخبروه بما لقيَه أبواه من بعده ، وما لقيه قومُه من غيبتِه عنهم ، فأحبَّ زيدٌ أنْ يخمدَ لهفتَهم عليه ، ويبعثَ الطّمأنينةَ في نفوسهم ، حيثُ ينعمُ بأنعمِ مقام ، وأرغدِ حياة ، عند أسرةٍ هاشميّة لم يعرفِ التَّاريخُ لها مثيلاً . . . . ثم إنَّه قال لقومه الذين عرفَهم وعرفوه: أبلغوا عني أهلي هذه الأبيات ، فإنّي أعلمُ أنَّهم قد جزعوا عليَّ فقال:

أَحِنُّ إلىٰ قومي وإنْ كنتُ نائياً   فإنّي قعيدُ البيتِ عند المشَاعر
فكفُّوا من الوجدِ الذي قد شجاكمُ   ولا تُعملوا في الأرضِ نصّ الأباعر
فإنّي بحمدِ اللهِ في خيرِ أسرةٍ   كرام معدٍّ كابراً بعد كابر[2]

* فانطلقَ الكلبيّون ، فأعلموا أباه فقال: ابني وربّ الكعبة ، وخرجَ أبوه حارثةُ وعمُّه كعبٌ لفدائِه ، وقدما مكةَ ، ودخلا على رسولِ الله ﷺ في المسجدِ فقالا: يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ، أنتم أهلُ حرمِ الله وجيرانُه ، جئناك في ابننا عندك فامننْ علينا ، وأحسنْ إلينا في فدائِه فإنّا سنرفَعُ لك ما تشاء.

---

(١) الاستيعاب (٦/ ٤٩ و٥٠) وعدد الأبيات ثمانية.
(٢) الاستيعاب (٦/ ٥١).

فقال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وهو مستغربٌ: «ومَنْ هو»؟

قالا: زيدُ بنُ حارثة ابننا عندك.

فقال الحبيبُ المصطفى ﷺ: «فهلاّ غير ذلك».

قالا: وما هو يا بن الكرام الأخيار؟

قال ﷺ: «أدعوه فأخيّرُه، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فواللهِ ما أنا بالذي أختارُ على مَن اختارني أحداً».

قالا: قد زدتنا علىٰ النّصف وأحسنتَ.

* ودعا الحبيبُ المصطفى ﷺ زيداً، ثمّ قال له: «هل تعرفُ هؤلاء»؟ وأشارَ إلى أبيهِ وإلى عمّه.

قال: نعم.

قال ﷺ: «مَنْ هذا»؟

قال زيد: هذا أبي، وهذا عمّي كعبُ بنُ شراحيل.

فقال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ لزيدٍ: «فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما».

* وهنا ظهرَ أعظمُ طفلٍ في تاريخِ الطُّفولة، في هذا الموقفِ العَطِرِ الذي حيَّر أباه وعمَّه وقال كلمات تقطرُ بالوفاءِ والإخلاصِ والحبّ والودِّ للحبيبِ الأعظم ﷺ: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنت منّي مكانَ الأب والعم.

* وهنا ذُهِل أبوه وعمُّه، وعراهُما ما عراهما من الاضطرابِ لهذه المفاجأةِ غير المتوقّعةِ، وظنّا كلَّ الظَّنِّ أنَّ زيداً سعيدٌ ومسرورٌ بقدومهما لخلاصهِ من الأَسْرِ أو من الرِّقِّ كما يزعُمان، وقالا: ويحكَ يا زيد! أتختارُ العبودية علىٰ الحريّةِ وعلى أبيكَ وعمّك، وعلىٰ أهلِ بيتك؟!

* وصمت زيـدٌ هنيهةً، وطافَتْ بذهنِهِ الصَّغير اللطائفُ النّبويّةُ التي

ترعاه ، واليدُ الحانيةُ التي تمسحُ رأْسَه وقلبَه ، ورأى منَ الأسرةِ المحمديّةِ ما لم يَرَهُ أحدٌ منَ العالمِيَن ، ولمسَ من الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ما لم يلمسْهُ من أبيهِ ، وبأسرع من وميضِ البرق قال لأبيه وعمّه: نعم يا أبتاه ، لقد رأيتُ من هذا الرّجل شيئاً ، ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً أبداً.

* فلمّا رأىٰ الحبيبُ المصطفى والمربّي الكريمُ محمّد ﷺ هذا اللونَ من وفاءِ زيدٍ ورقّتِه ولطفِه ، أخرجَه إلى الحِجْرِ قربَ الكعبةِ المشرّفة وقال: «يا مَنْ حَضَر ، اشهدوا أنَّ زيداً ابني يرثني وأرثُه».

* فلمّا رأى أبوه حارثةُ وعمّه هذا الموقفَ الآسِرَ العظيمَ الميمونَ طابَتْ نفوسُهما ، فودَّعَاه وانصرفَا ، وهما في سرورٍ عظيم ، ودُعي زيدُ بنُ محمّد.

* ولما جاء الإسلامُ نزلتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] ، فدُعيَ يومئذ زيد بن حارثة ، ودعي الأدعياء إلى آبائِهم ، وبطلت بدعة التّبنّي بتشريع ربِّ العالمين[١].

* وبهذهِ الأخلاقِ الكريمةِ الميمونةِ عاشَ الطّفلُ زيدُ بنُ حارثة مرعيَ الجانبِ في البيتِ النّبويّ ، وسجّل أعظم المواقفِ في تاريخِ الطُّفولة ، إذ ألهمه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يختارَ الرّسولَ ﷺ عن أهلِهِ وعشيرتِهِ والنّاس أجمعين ، لذلك بادَلَه ﷺ حبّاً من نوعٍ فريدٍ حتى عُرِفَ بين المسلمين: حِبّ رسولِ الله ﷺ؛ يعني محبوبه؛ وقالَ ﷺ للنّاس: «لا تلومونا على حبِّ زيد»[٢].

---

(١) انظر: الاستيعاب (٦/ ٤٨ ـ ٥٢) بتصرف واختصار ، وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٠ ـ ٤٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٤ ـ ١٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٢٠ ـ ٢٣٠).

(٢) المستدرك (٣/ ٢٣٨).

* ومرّةً قال له: «يا زيدُ أنتَ مولاي، ومنّي، وأحبّ القوم إليَّ»[1].

* وهكذا عاشَ زيدُ بنُ حارثة أجملَ طفولةٍ وأعذبَ حياةٍ في كنفِ الأسرةِ المحمديّة حتى غدا من مشاهيرِ الصّحابةِ وأعلامِهم، فرضي الله عنه وأرضاه.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤٣).

الفصل الثّالث
زيدُ بنُ أرقمَ - رضي الله عنه -

* مَنْ هذا الطِّفلُ الكريمُ الذي أنزلَ الله عزَّ وجلَّ تصديقَه من فوقِ سبعِ سمواتٍ ، وبادرَ إليه شيْخَا الصَّحابة أبو بكر وعمر كيما يبشّراه بالتَّنزيل والتَّصديق؟!

* ومَنْ هذا الطِّفلُ الذي شَهِدَ له الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بالصِّدق فقال: «إنَّ اللهَ صدقَك» ، وقال له: «وعَتْ أُذُنُكَ يا غلام»؟!

* هذا الطِّفلُ الصَّادق الواعي هو زيدُ بنُ أرقم الأنصاريّ الخزرجيّ أحدُ أطفالِ الأنصارِ الذين درجوا على محبّةِ رسولِ الله ﷺ قبل مقدمهِ المدينة ، وأحدُ الأطفالِ الذين تسابقوا إلى استقبالِ النَّبيّ ﷺ مع لِدّاته ، وهم يقولون في بهجةٍ وسرور: اللهُ أكبرُ جاءَ رسول اللهِ ، اللهُ أكبر جاء محمّد ، اللهُ أكبرُ جاءَ محمّد ، الله أكبر جاء رسولُ الله.

* عاشَ زيدُ بنُ أرقم طفولَته في المدينةِ يتيماً ، فقد ماتَ أبوه وهو صغيرٌ ، فنشأَ يتيماً في رعايةِ عبد الله بنِ رواحةَ الذي ربّاه في حجرهِ ، وعطفَ عليه ، وأخذ بيده إلى طريقِ النُّور لما فشَا الإسلامُ بالمدينة.

* وكان لزيدِ بنِ أرقمَ موقفٌ مشرِّفٌ مشرقٌ في غزوةِ بني المُصطلق إذ كشفَ الهويّـةَ الحقيقيّةَ لزعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول ، ومفادها أنَّ رجلَيْن اقتتلا علىٰ الماءِ ، أحدهما مهاجريّ ، والآخر

أنصاريّ ، فغضبَ عبدُ الله بن أُبيّ ابن سلول وقال يلوم قومَه: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضّوا منْ حولِه ، ثمّ قال لأصحابه: إذا رجعتمْ إلى المدينةِ ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ.

* فسمعَ زيدُ بنُ أرقمَ ذلك ، فقال له: أنتَ واللهِ الذّليلُ القليلُ ، واللهِ لا أحبُّك بعد كلامك هذا.

فقال له عبدُ الله بنُ أُبيّ: اسكتْ فإنّما كنْتُ ألعبُ... فذهبَ زيدٌ وأخبرَ رسولَ الله ﷺ ، فأرسلَ النّبيُّ ﷺ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ ، فاعتذرَ وجحدَ وحلفَ باللهِ وكذَّبَ زيداً ، وقال لقومهِ: يا رسولَ اللهِ ، عسى أنْ يكونَ هذا الغلامُ أوهم ، ولم يُثْبِتْ ما قال الرجل فتألَّم زيدٌ لذلك ، وأحسَّ بأنَّ قلبَه الصَّغيرَ يكادُ ينفطرُ لنفاقِ ابنِ سلول وأصحابه ، وأصابه همٌّ عظيم ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ «سورة المنافقون» ، فأرسلَ النَّبيُّ ﷺ إلى زيدٍ فقرأَ السُّورة عليه ثم قال له: «إنَّ اللهَ قد صدقك يا زيد»[1].

* ويروي ابنُ عبد البرّ بشارةَ تصديقِ زيد فيقول: فأنزلَ اللهُ تصديقَ زيدِ بنِ أرقمَ ، فتبادرَ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ إلىٰ زيدٍ ليبشّراه ، فسبقَ أبو بكر فأقسم عمرُ ألاّ يبادره بعدها إلىٰ شيء[2].

* وتسلَّمَ زيدٌ بشارةَ الصِّدقِ الرّبانية من الصِّدِّيق الأكبرِ أبي بكر ، وأسرعَ إلى الحبيبِ الأعظمِ ﷺ ، كيما يشهدَ له بتصديق القُرآن ، وهناك ابتسمَ في وجْهِ زيد ممّا جعل زيداً أسعدَ مخلوقٍ ، ويروي زيدٌ ذلك فيقول:

---

(١) انظر: الاستيعاب (٤/ ٣٩) ترجمة رقم (٨٣٧) بتصرف. وللحديث أصل في الصّحيحين والسّنن ، فقد أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٩٠٠ و٤٠٩١ و٤٩٠٣ و٤٩٠٤) ، ومسلم في صفات المنافقين ، والترمذي في التفسير برقم (٣٣١٢) ، وأخرجه أحمد والنسائي. وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٩١ و٢٩٢) ، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٥) وغير ذلك كثير.

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٩).

فعركَ ـ ﷺ ـ أذني ، وضحكَ في وجهي ، فما كان يسرّني أنَّ لي بها الخلْدَ في الدُّنيا .

ثمّ إنّ أبا بكر لحقني وقال : ما قالَ لكَ رسولُ الله ﷺ؟

قلت : ما قال شيئاً .

ثمّ لحقني عمر فقلتُ له مثل قولي لأبي بكر .

* فلما أصبحنا قرأَ رسولُ الله ﷺ سورةَ المنافقين[1] .

* وهكذا أثبتَ الطِّفلُ الأريبُ النَّجيبُ زيدُ بنُ أرقم محبّته للنّبي الكريم ﷺ ، وللإسلامِ ، وللمسلمين ، وصانَ سِرَّ النّبيّ ﷺ ، ولم يَبُحْ به لأبي بكر ، أو عمر ، وأثبتَ أنَّه طفْلٌ نجيبٌ أديبٌ من أطفالِ المدرسةِ المحمديّة المباركةِ .

* * *

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٩) .

الفصل الرابع
أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ

* إذا تحدّثنا عنِ الصَّحابةِ الكرامِ وقلنا «أنس» ، فإنَّ صورةَ أنس بنِ مالك تقفزُ للأذهان ، ولن ينصرفَ الذِّهنُ إلى غيره .

* هذا الطِّفلُ العَلَمُ عاشَ قربَ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ وحوله عشر سنين كانت سِماناً ، وذلك منذ أنْ كان طفْلاً صغيراً ، إلى أنْ غدا شابّاً صلبَ العود .

* وطفولةُ أنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ في البيتِ النّبوي طفولةً ملأى باليُمْن والبركاتِ ، فقد قدمَ الحبيبُ المصطفى ﷺ المدينةَ ، ولأنَسٍ من العمر عشر سنين ، فخدمَه عشر سنين ، ودعَا له بكثرةِ المالِ والولدِ والبركةِ فيهما ، وفيما أوتي ، وكانَ له بستانٌ يحملُ الفاكهةَ في السَّنَةِ مرتَيْن ، وكان فيه ريحان يجيءُ منه ريح المسْك[1] .

* وطفولةُ أنسٍ كلّها إشراقٌ في إشراقٍ ، فقد ماتَ أبوه وهو صغيرٌ ، فعاشَ في كنفِ أمِّ سُليم بنت ملحان أمّه ، تلك التي كانت من أوائلِ نسوة الأنصار إيماناً برسالةِ النبي ﷺ ، وجعلتْ تلقّنُ ابنَها أنساً مفتاح الخير ـ الشَّهادة ـ ، فاستجابَ ونطقَ بالشَّهادتَيْن ، وفازَ بسعادة الدَّارين .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥ ـ ٤٠٦) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق لابن منظور (٥/ ٦٤ ـ ٧٦) ، والإصابة (١/ ١١٢) ترجمة رقم (٢٧٥) .

* وفي أحضانِ هذه المرأةِ الفاضلةِ تقلَّبَ أنس ، تحفُّه أمّه بكلّ رعاية ، وتحنو على طفولته البرئيةِ ، فقد ماتَ أبوه كافراً ، ولكنّها قالت: لا جرمَ ، لا أفطمُ أنَساً حتى يدعَ الثَّدي ، ولا أتزوّجُ حتى يأمرني أنس ، ويقول: قد قضيتِ الذي عليك.

* وكانَ أنسٌ قد رضَع من أُمّه احترامَ النَّبيّ ﷺ ، وتغذّى على محبّته قبل أنْ يراه ، وأمّه تحدّثه عن عظمةِ هذا النّبيّ الكريم الذي خَتَمَ به الله عزَّ وجلَّ الأنبياءَ والرّسالات.

* كان أنسٌ يسمعُ ما تقوله أمّه ، وفي عينيه أطيافٌ وأحلام ، تُرىٰ متى سيأتي النَّبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة؟.

* ولما قدمَ الحبيبُ المصطفى ﷺ المدينةَ المنورَّةَ مهاجراً ، لم تجدْ أمُّ سُليم أغلىٰ من فلذةِ كبدِها أنس تدفعُه ليخدمَ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ ، فجاءتْه تمشي على استحياءٍ ، وبصحبتِها ابنها أنس ثمّ قالت: يا رسولَ الله هذا أُنَيسٌ أتيتُك به يخدمُك ، فادعُ الله له ، فقال ﷺ: «اللهم أكثرْ مالَه وولَده»[1] ؛ فكان أكثر الصّحابةِ أولاداً لدعاءِ رسولِ الله ﷺ[2].

* وكانت أمُّ أنس قد آتاها الله بصيرةً نافذةً ، فعلَّمَت أنساً الكتابة وهو صغيرٌ ، فنَشأَ غلاماً ذكيّاً كاتباً لم يبلغِ الحلمَ ، ولما قَبِله النَّبيُّ ﷺ خادماً له ، حظيَ أنسٌ بكل مقاماتِ التّكريم ، وغدا أحد ساداتِ الصَّحابة.

* وفي البيتِ النَّبويِّ لقيَ الطّفلُ النَّجيب أنس تكريمَ ورعايةَ الحبيبِ المصطفى ﷺ ، فكان يسمّى خادمَ رسولِ الله ، وكانَ أنسٌ نفسه يتسمّى بذلك ، ويفتخِرُ به وحقّ له ذلك. وقال أنسٌ: إنّي لأرجو أنْ ألقىٰ

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٤ و١٩٥).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٧) ترجمة رقم (٧١) ، وكان أنس يقول: إني لأعرف دعوة رسول الله ﷺ فيّ وفي مالي وفي ولدي. (طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠).

رسولَ الله ﷺ فأقول: خُويدمك. وقد كنّاه رسول الله ﷺ ببقلَةٍ كان يحبُّها. وكان رسولُ الله ﷺ يحبّ أنساً ويرعاهُ، فقد مازَحه وقال له: «يا ذا الأُذُنين»[1]؛ فكان أنسٌ يشعرُ ببردِ هذا المزاحِ على قلبهِ، ويشعرُ بالسَّعادة تغمرُ قلبَه وروحَه.

وكان أنسُ الخادمُ الأمينُ يشعرُ بالحنانِ النَّبوي، فقد كانتْ له ذؤابة، وكان رسولُ الله ﷺ يمدُّها ويأخذُها[2].

* وهذه الأفعالُ النَّبويّةُ الحميدةُ بالأطفالِ، وتلك اللمساتُ الحانياتُ بهم، جعلتْ أنَساً يعطينا أجملَ الصُّور عن الشَّمائلِ المحمديّةِ ومنها ما قاله: ما شممتُ عنبراً قطّ، ولا مِسْكاً أطيبَ، ولا مسستُ شيئاً قطّ ديباجاً ولا خزّاً ولا حريراً ألينَ مسّاً من رسولِ الله ﷺ[3].

* وهذه فريدةٌ أخرىٰ نسمعُها من أنسٍ فيما رواه عنه ثابت البُناني قال: دخلتُ على أنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ فقلتُ: رأتْ عيناك رسولَ الله ﷺ؟

أظنُّه قال: نعم.

قال: فقبّلتُهما.

قال: فمشَتْ رجلاك في حوائجِ رسول الله ﷺ؟

قال: نعم.

قال: فقبّلتُهما.

ثم قلتُ: فصببتَ الماءَ بيديكَ؟

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٨٣١)، وأبو داود برقم (٥٠٠٢)، وأحمد (٢/ ١٢٧ و٢٦٠).

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥).

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٦٩).

قال: نعم، فقبلتُهما.

ثم قال لي أنس: يا ثابت، صببتُ الماءَ بيدي على رسول اللهِ ﷺ لوضوئهِ، فقال لي: «يا غلامُ أسبغِ الوضوءَ يُزَدْ في عمرِك، وأفْشِ السَّلام تكثُر حسناتُك، وأكثر من قراءةِ القُرآن يجيء يوم القيامةِ معك كهاتَيْن» وقال بأصبعيه هكذا السَّبابة والوسطى[1].

* وقد اقتبسَ أنسٌ كثيراً من الأخلاقِ المحمديّةِ، وكان من أحرصِ النَّاس على المحافظةِ على سرِّ رسول الله ﷺ، ومن أكثرِ النّاس اقتداءً به، وكانت طفولتُه مثمرةً يانعةً في حياةِ النَّبي ﷺ، حيث استفادَ وأفادَ، وجرتِ الحكمةُ على لسانه كأنّما ينطقُ بكلمات النّبوة من مثل قوله: لا يتقي اللهَ عبدٌ حتى يخزنَ من لسانه[2].

* وكقوله ينصحُ أولاده: يا بني قيّدوا العِلْمَ بالكتاب[3].

* رضي الله عن أنس طفلاً وكهلاً وشيخاً، وحشرنا في معيّته، وفي معيّةِ أطفالِ الصَّحابة، إنّه سميع مجيبٌ كريم.

* * *

(١) المصدر السّابق نفسه (٥/ ٦٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢).

(٣) المصدر السابق نفسه.

الفصلُ الخامس
زيدُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ

* في قصصِ حياةِ الأطفالِ الذين تحلّقوا حولَ الرّسولِ ﷺ عظةٌ وعبرةٌ وقدوةٌ لكلّ أطفالِ الدّنيا ، إذْ أبدىٰ هؤلاء الأطفالُ ضروباً من الإخلاصِ والحبّ للحبيبِ الأعظمِ ﷺ ما جعلهم منَ الأوائلِ في هذا المضمار .

* ونحن اليومَ نحطّ رحالنَا بين دُوْرِ الأنصار ، لنلقى طفلاً أنصاريّاً من بني النّجّار ، الذي أضحىٰ كاتب الوحي والمصحف ، والفَرضيّ الذي يَعْرِفُ الفرائضَ ـ وهو العِلْمِ بقسمة المواريث ـ والذي شهدَ له الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بقوله : «أفرضُ أمّتي زيدُ بنُ ثابت» .

* إذاً ، فطفلُ هذه الصَّفحات زيدُ بنُ ثابت الأنصاريّ أحدُ أطفالِ الأنصارِ الأذكياء الذين غدوا من علماء الصَّحابة الأبرارِ الأخيارِ ، فكان شيخ المقرئين ، وشيخ الفرضيّين ، ومفتي المدينة ، وكاتب الوحي[1] ، وناهيك بهذهِ المكارمِ وهذه الفضائل والشّمائل التي تجعلُ الإنسانَ عالياً عالياً في سماءِ المكارمِ والمحاسنِ .

* وزيدٌ هذا ، وما أدراك ما زيد ، عرفَ الإيمان إلى قلبهِ الصَّغير سبيله ، وذلك قبل هجرة الحبيبِ المصطفى ﷺ إلى المدينةِ ، فقد كان عمره بضع سنين عندما حفظَ ست عشرة سورة قبل الهجرة ، بينما كانَ

---

(١) اقرأ سيرته في موسوعتنا «علماء الصحابة» تجد خيراً بإذن الله تعالى .

عمرُه يوم أنْ قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينة إحدى عشرة سنة .

* نشأ زيدُ بنُ ثابت يتيماً ، حيثُ تذكرُ المصادرُ أنَّ أباه قد قُتِل يوم بُعاث قبل الهجرةِ بخمس سنين ، وكان عمرهُ آنذاك قرابةَ ستة أعوام ، وكانت أمُّه أمّاً كريمة شهمةً عاقلةً ، آمنتْ بالنّبيّ ﷺ قبل مقدمه المدينة ، فراحت تغذّي زيداً على مائدةِ القرآنِ الكريم وحفظه ، وحبّ الحبيب الأعظم ﷺ الذي سيأتي المدينةَ مهاجراً .

* وجاء اليومُ الذي أشرقتْ فيه المدينةُ بحلوله ﷺ فيها ، ذلك اليومُ الأغرُّ المشهودُ ، فقد خرجَ زيدٌ وثلةٌ منَ الأطفالِ ، يرحِّبون بمقدم النَّبيّ ﷺ وإليك صورة الأطفالِ الأنصارِ وهم يستقبلون الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ .

* أخرجَ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ من حديثِ البراءِ بنِ عازب ـ رضي الله عنه ـ قال : جاءَ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ المدينةِ في الهجرةِ ، فما رأيتُ أشدَّ فرحاً منهم بشيءٍ منَ النَّبيِّ ﷺ ، حتى سمعتُ النِّساء والصِّبيان والإماءِ يقولون : هذا رسولُ اللهِ قد جاء[1] .

* ومن الجديرِ بالذّكْرِ أنّه قد خرجتْ أيضاً ، ولائدُ من بني النَّجارِ[2] فرحاتٍ بمقدمِ النّبي ﷺ ، وبجوارهِ الكريم لهنَّ ، وهنّ ينشدنَ :

نحنُ جَوارٍ منْ بني النَّجّار ... يا حبَّذا محمّد منْ جَار

فقال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ لهنَّ : «أتحببنني»؟ فقلنَ : نعم .

فقال : «اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي يحبّكُنَّ» .

* بهذهِ اللطائفِ الهامسةِ الآسرةِ ، استقبلَ الأطفالُ الأنصاريّون حبيبَنا

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) قال الإمام السّبكي ـ رحمه الله ـ في تائيته الجميلة يغبط بني النجار ويخاطب النبي ﷺ :

نزلتَ على قومٍ بأيمنِ طائرِ ... لأنّكَ ميمونُ السَّنا والنَّقيبةِ

فيا لبني النّجّار من شرفٍ بهِ ... يجرّون أذيالَ المعالي الشّريفةِ

وسيّدنا محمداً رسول الله ﷺ ، وهذه الهمساتُ تصوِّر مدىٰ التّوقير ، ومدى قداسةِ الحبِّ التي تكنّها هذه القلوبُ الصَّغيرةُ لصاحبِ القلبِ الكبيرِ النّبيِّ الرّؤوفِ الرَّحيمِ الذي جعلَه اللهُ خاتمَ رسلهِ وختامهم.

* لقد كانت قلوبُ أطفالِ الأنصارِ تشعُّ حبّاً صادقاً بريئاً للنّبيّ ﷺ ، وقد علَّمهم أهلوهم بأنَّ حبَّه ﷺ لُبُّ الإيمانِ برسالتهِ الغرّاء الزَّهراء ، وأنَّ توقيرَه فوق كلّ شيء ، وهو عنوانُ اليقين ، ونبراسُ الإيمان.

* ما أُحيلى تلكم الأويقات المباركات التي أطلَّ فيها المحبوبُ على المدينةِ ، وخرجتْ تلكم القلوبُ الصَّغيرةُ تستقبله أحلىٰ استقبال ، فلقد برهَنَ الأنصارُ أطفالاً وشباباً وشيباً على أنَّ إيمانَهم برسولِ الله ﷺ وبرسالتهِ كان إيمانَ حبٍّ أفعمت به قلوبُهم ، واختلطتْ به نفوسُهم ، فبادلَهم النّبي ﷺ هذا الحبَّ بحبٍّ أعظم وأجلّ وأعمق ، هذا الحبُّ العظيمُ الذي عمَّ به رجالهم ونساءهم ، شِيْبهم وشبابهم ، غلمانهم وأطفالهم ، فقال لهم: «واللهِ وأنا أحبّكم» ، و«يعلمُ الله أنَّ قلبي يحبّكم» ، و«أنتم منْ أحبّ النَّاس إليَّ».

* وعرفَ قلبُ زيد الصَّغير مدى هذا الحبّ وبركته من أوّل يوم التقىٰ رسولَ الله ﷺ ، فقد كان لقاء كرمٍ وحسن ضيافة ووئام ، إذ كانت أوّل هديّة أهديتْ للحبيب المصطفى ﷺ حين نزلَ بدارِ أبي أيّوب الأنصاريّ قصعة من طعام جاءَ بها زيدُ بنُ ثابت ، أرسلته بها أمّه النّوّار بنت مالك ـ رضي الله عنها ـ.

* ويروي زيدٌ ـ رضي الله عنه ـ قصَّة هذه الهديّة فيقول: أوّلُ هديةٍ دخلتْ علىٰ رسولِ الله ﷺ في بيتِ أبي أيّوب ، قصعة أرسلتني بها أمّي إليه ، فيها خبزٌ مثرودٌ بسمنٍ ولبن ، فوضعتُها بين يديهِ ، وقلتُ: يا رسول الله أرسلت بهذه القصعة أمّي.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «بارَكَ اللهَ فيك وفي أمِّك» ودعا أصحابَه فأكلوا[١].

* ورأىٰ الحبيبُ المصطفى ﷺ في هذا الطِّفل الذّكي كلّ الخير، فأمره أنْ يتعلَّم خطَّ اليهودِ، ليقرأَ له كتبهَم وقال: «فإنّي لا آمنُهم»، فتعلَّمه حتى أتقنه، وكان يكتبُ لرسول الله ﷺ إذا كتبَ إليهم.

* وكان زيدُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ يكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، ويكتبُ له أيضاً المراسلات إلىٰ النَّاس، وكان يكتبُ لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ في خلافتهما[٢].

* لقد كانت طفولةُ زيد بن ثابت طفولةً حافلةً بكلّ ألوان التّكريم النّبوي، وشتّى أنواعِ العناية المحمديّةِ، إذ اجتمعَ له شرفُ العِلْمِ والصُّحبةِ، ولما شبَّ عن الطَّوقِ واستوىٰ أصبحَ أحدَ أكابر علماءِ الصَّحابة وأعلامهم، فكان ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ يأتيه إلى بيته للعِلْم ويقول: العلمُ يُؤتى ولا يأتي.

وكان إذا ركبَ أخذَ بركابهِ، ويقول ابنُ عبّاس: هكذا أُمرنا أنْ نفعلَ بالعلماء، فيأخذ زيدٌ كفَّه ويقبّلها ويقول: هكذا أمرنا أنْ نفعلَ بأهل بيتِ نبيّنا ﷺ[٣]، فرضي اللهُ عن زيدٍ وحشرنا في معيته.

* * *

(١) انظر هذا في السيرة الحلبية (٢/ ٢٧٧).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٧) ترجمة رقم (١٨٦) طبعة دار الفكر الأولى لعام ١٩٩٦ م.
(٣) انظر: شذرات الذهب (١/ ٢٣٨) طبعة دار ابن كثير المحققة لعام ١٩٨٦ م.

الفصل السَّادس

عبْدُ اللهِ بنُ عبَّاس ـ رضي اللهُ عنه ـ

* في كرمِ أصولِ الأعْراقِ كانتْ نشأةُ هذا الطّفْلُ الذي غَدَا في شبابِهِ وشيبهِ البَحْرَ والحبْرَ ، وفي أحضانِ الفضْلِ ، وأنداءِ الجودِ ، وكرمِ الآباء والجدودِ ، تقلَّبَ الطفْل الكريمُ عبدُ الله بنُ عبَّاس القُرشيّ الهاشميّ؛ فهل أتتْكَ أنباءُ طفولتِهِ المتفرّدةِ بين أطفالِ الصَّحابة؟.

* وعبدُ الله بنُ عبّاس هذا حفَّتْهُ المكارمُ منْ جميعِ أطرافِها ، وغلَّفَه المجدُ بأرديةِ الفضائلِ ، فابنُ عمّه هو الرّحمةُ المهداةُ للعالَمين ، محمّد ﷺ ، فأعظمْ بها منْ قَرابة! وأبوه العبّاسُ أحدُ أهلِ الفَضْل في دنيا الفضل ، وأمُّه لبابةُ بنتُ الحارث الهلاليّة السَّبَّاقةُ إلى نعيمِ الإيمان والإسلام بين نساء عَصْرِها ومصْرِها ، وخالتُه ميمونةُ بنتُ الحارث أمّ المؤمنين ، أمّا عمُّه فهو أسَدُ الرّحمنِ وأسدُ النّبيّ ﷺ حمزةُ بنُ عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ فهل هناك منْ أسرةٍ في دنيا الأُسَر تعدلُ أسرةَ عبد الله بن عبّاس:

إنْ كانَ أسرتُه بين الورىٰ عَلَماً ... فــإنَّــه عَلَــمٌ فــي ذَلــكَ العَلَــم

* وقد تحدّثَ عبدُ الله ـ رضي الله عنه ـ عن أسرتِه الزّكيّةِ الزّاكية ، وعن عراقةِ أصْلهِ ، وكريم محتده ، فقال: نحنُ ـ أهلَ البيتِ ـ شجرةُ النّبوة ،

ومختلفُ الملائكة ، وأهلُ بيتِ الرسالةِ ، وأهلُ بيتِ الرّحمةِ ، ومعدنُ العِلْم[1] .

* ومنذ أنْ ولدَ عبدُ اللهِ بنُ عبّاس ، وُلِدَتْ معه النَّجابةُ التي رافقَتْه مرحلةَ الطُّفولَة ثمّ إلىٰ آخرِ حياته ، وكانَ مولدهُ بشعبِ بني هاشم قبلَ الهجرة بنحو ثلاث سنين. ولما وضعَتْهُ أمُّه ، جيءَ به إلى رسولِ الله ﷺ فحنّكَهُ بريقهِ الشَّريف ، فكان أوّلُ شيءٍ دخلَ جوفَه ، ممّا جعَلَ مجاهدَ بنَ جَبْر ـ رحمه الله ـ يقولُ: فلا نعلمُ أحَداً حُنِّك بريقِ النَّبيّ ﷺ غير ابنَ عبّاس[2] .

* ودرجَ عبدُ اللهِ منذُ طفولتِه الأولى على حُبّ الخيرِ ، وكانت علائمُ النَّجابة والنُّبوغ والذّكاء تبدو على محيّاه الجميل تشهدُ له لا عليه :

في المَهْدِ ينطقُ عن سَعادةِ جدّه ... أَثَـرُ النَّجـابـةِ سَـاطـعُ البُـرهَـانِ

* ومن لبانِ الفَضْلِ ارتضَعَ عبدُ اللهِ من أمّه أمّ الفضْلِ ، فكانت مخايلُ السِّيادة تبدو على وجههِ الصَّغير ، فكانت ترقّصُه وترتجزُ قائلةً :

ثكلْـتُ نَفْسـي وثكلْـتُ بِكْـري ... إنْ لَـمْ يَسُـدْ فِهْـراً وغيـرَ فهْـرِ
بِحَسَـبٍ زَاكٍ وبـذْلِ الـوفْـرِ ... حتّـى يُـوارىٰ فـي ضَـريـحِ القَبْـرِ

* ومنذ أنْ فتحَ عبدُ الله عينَيْه علىٰ الدّنيا ، تفتَّحت جوارحُه على محبّةِ النّبيِ الكريم ﷺ ، وعلى حُبّ العلْمِ وأهلِ العلْم ، فغدا أحدَ أطفالِ الصَّحابة النّجباء الذين رسموا أجملَ لوحاتِ الفضل في دُنيا المكارم.

* وعبد الله بنُ عبّاس ـ رضي الله عنه ـ أحدُ الذين حبَاهم اللهُ جمالاً وبهاءً ، وزادَه بسْطَةً في العلْمِ والجسم ، فكانَ وسيماً جميلاً ، مديدَ القامَةِ ، مَهيباً ، كاملَ العَقْلِ ، زكي النَّفْس ، من رجَالِ الكَمال؛ وصفَه الإمامُ الذَّهبي بقولهِ: كانَ ابنُ عبّاس أبيضَ ، طويلاً ، مشرّباً صفرةً

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠٧).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٢٩٣ و٢٩٤) والبداية والنهاية (٨/ ٢٩٥).

جسيماً ، وسيماً ، صبيحَ الوجْهِ ، له وفرةٌ ، يخضبُ بالحنّاء ، دعا لهُ النّبي ﷺ بالحكْمَةِ[1] .

* وكان ابنُ عبّاس يُشَبَّهُ بالقمر لوسامةِ وجْههِ وكمالِ شكْله؛ قال عطاءُ بنُ أبي رباح التّابعي العالم الشَّهير : ما رأيتُ القمرَ ليلةَ أربعَ عشرة إلا ذكرتُ وجْه عبد الله بنَ عبّاس. وقال مسروقُ بنُ الأجدع : كنْتُ إذا رأيتُ ابنَ عبّاس قلتُ : أجمل النَّاس[2] .

* وفي مكّةَ أمِّ القُرى ظلَّ عبدُ الله بنُ عبّاس مع أمّه ، وعلى بطحائِها عاشَ طفولته يرىٰ ويسمعُ الأخبار النّبوية ، إلى قُبيلِ غزاةِ الفَتْح ، ففي سنةِ ثمان من الهجرة النَّبويةِ المباركةِ ، أسلمَ العبَّاسُ بنُ عبد المطلب ، ثمّ هاجر بأهلهِ إلى المدينةِ المنوّرة ومعه ابنهُ عبدُ الله ، وعند الجُحْفَةِ التقوا رسولَ اللهِ ﷺ وهو ذاهبٌ إلى فتحِ مكّةَ المكرمةِ ، وشهدَ العبّاسُ وابنهُ فتح الفُتوحِ صبيحة يوم الجمعةِ لعشرين ليلة خَلَتْ من شَهْرِ رمضان .

* وفي تلك الأيّام كان ابنُ عبّاس طفلاً تجاوز سنّ العاشرة قليلاً ، فصحبَ النّبي الحبيبَ محمّداً ﷺ قرابة سنَتيْن ونصف ، ولزمَ المجالسَ النّبوية السّنية ، وأخذَ عن رسولِ الله ﷺ ، وحفظَ وضَبَطَ الأقوالَ والأفعالَ والأحوالَ ، وكُتِبَ في سجلّ الأطفالِ الأصحاب الذين حظُوا بمعيّةِ النّبي ﷺ ، وحظُوا بلمسةِ حنان نبويّة ، حيثُ مسحَ النّبيّ ﷺ رأْسَه ، ودعا له بالحكمةِ والبركةِ وتأويل الكتاب .

* عن عِكْرمةَ عن ابن عبّاس قال : مسحَ النَّبيّ ﷺ رأْسي ودعا لي بالحكْمَةِ[3] .

---

(١) انظر : سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٣٣٦) .
(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣١٢) .
(٣) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٥) ، وللحديث أصل في الصّحيحين والسُّنن والمسند ، وانظر : مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦) ، ودليل الفالحين (١/ ٧٣) . =

* ومنَ المعروفِ أنَّ أجلّاء الصَّحابةِ الكرام وأعلياءَهم كانوا يُعْنون عنايةً فائقةً بالعِلْم وخُصوصاً علومَ القُرآنِ الكريم ، وكانوا متفاوتون في العِلْم والحفْظِ ، فمنهم من حفظَ كتابَ اللهِ كامِلاً كالخلفَاء الأربعةِ ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعود والطّفْلِ النَّجيبِ الحصيفِ عبدِ اللهِ بنِ عبّاس رضي الله عنهم جميعاً ، وحشَرنا في معيّتِهم.

* وكان عبدُ الله بنُ عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أصغرهم سِنّاً ، فاستفادَ منهم ، وأخذَ عنهم عِلْماً غزيراً ، وخصُوصاً عن سيّدنا عليٍّ وعمرَ ـ رضوان الله عليهما ـ. وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ قد دعا لابنِ عبّاس من قَبْلُ فقال: «اللهم فقِّههُ في الدِّين وعلّمْه التّأويل» فكان حَبْرَ الأمّة وترجمان القُرآن ، إذ أوتي علماً عظيماً ، وفَهْماً ثابتاً ، وفصاحةً وملاحةً وجمالاً وبيَاناً.

* وعرفَ عبقريُّ الأمّةِ عمرَ بنِ الخطّاب مكانةَ ابنِ عبّاس الطّفلِ العالمِ العَيْلَم في عالَم العُلماء ، فكان يحبُّه ويدني مجلِسَه ، ويحضرهُ مشاهده مع الأكابرِ من ذوي شُوراه ، ويقولُ فيه مفتخِراً بنبوغهِ وذكائِه: ذاكم فتى الكُهول ، إنَّ له لساناً سؤولاً ، وقلباً عقولاً[1]. وقد ثبت في الصَّحيح[2] وغيره أنَّه كانَ يدخلُه مجلسَه مع أشياخ بَدْر ، وأكابر الصَّحابة ، ويسأله فيجيب بما علَّمه الله ، وبما سمَع منْ رسولِ الله ﷺ.

* وفي إحدى الجلسات العلميّةِ العمرية يلفتُ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ الأنظارَ إلى الطّفلِ العالمِ ابن عبّاس ، ويشيرُ إلى تمكّنه من ناصيةِ العِلْم

= ومن معاني «الحكمة»: القرآن ، وقيل: العمل به ، وقيل: السّنّة ، وقيل: الإصابة في القول ، وقيل: الخشية ، وقيل: الفهم عن الله ، وقيل: العقل ، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة ، وهناك أقوال أخرى كثيرة.

(١) المستدرك (٣/ ٥٣٩ و٥٤٠).

(٢) انظر صحيح البخاري برقم (٤٩٧٠) ، وأحمد (١/ ٣٣٧ و٣٣٨) ، والترمذي برقم (٣٣٦٢) ، والمستدرك (٣/ ٥٣٩). وغيرها كثير.

والتّفسير ، فقد أخرج البخاريُّ من طريقِ أبي مُليكة يحدّثُ عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - قال: قال عمرُ - رضي الله عنه - يوماً لأصحاب النّبيّ ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلَتْ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ . . . ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟!

قالوا: اللهُ أعلمُ.

فغضبَ عمر وقال: قولُوا: نَعلَمُ أو لا نعلمُ.

فقال ابنُ عبّاس: في نفسي منها شيءٌ يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: يا بن أخي ، قُلْ ولا تحقِرْ نفسَكَ.

قال ابنُ عبّاس: ضُرِبَتْ مثَلاً لِعَمل.

قال: عمر: أيُّ عملٍ؟

قال ابنُ عبّاس: لرجل غني يعمل بطاعةِ اللهِ عزّ وجلّ ثم بعثَ اللهُ له الشّيطان ، فعملَ بالمعاصي حتّى أغرقَ أعمالَه(١).

* قال ابنُ حجر - رحمه الله - في تعليقِهِ على هذا الحديثِ: وفي الحديثِ: قوّةُ فَهْمِ ابنِ عبّاس ، وقربُ منزلَتِهِ من عمرَ ، وتقديمُه له على صِغَرِه ، وتحريضُ العالِمِ تلميذَه علىٰ القولِ بحضرةِ مَنْ هو أسنُّ منه إذا عرفَ فيه الأهليّة ، لما فيه من تنشيطِه ، وبسْطِ نفسِهِ ، وترغيبِهِ في العِلْم(٢).

* وقال ابنُ عسَاكر - رحمه الله -: كانَ عمرُ بنُ الخطّاب - رضي الله عنه - يُدْنيهِ ويسألُه ويستشيرُهُ ويدخلُه مع مشيخةِ أهلِ بدر ، وكان له

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٥٣٨).
(٢) فتح الباري (١/ ٥٠) طبعة الدار السّلفية بمصر.

الجوابُ الحاضرُ ، والوجْهُ النّاضر ، علمُه غزيرٌ ، وخيرُه كثيرٌ ، يصدرُ الجاهلُ عن علمِهِ وحكمته يقظان[1] .

* وأمّا سميّه عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا ذُكِرَ أهلُ العلْم ، ونُشِرَ فَضْلُ العُلماء ، نَبّهَ ودَلّ على علمِ وفضلِ وفقْهِ ابن عبّاس فقال : هذا أعلمُ النّاس بما أُنْزِلَ على محمّد ﷺ .

* وقال له عمر : لقد عُلِّمتَ علْماً ما عُلِّمناه[2] . وقال له مرّة : أشهدُ أنَّكَ تنطقُ عن بيتِ نُبوة .

* وعن الأوزاعي قال : قال عمرُ بنُ الخطّاب لعبدِ اللهِ بن عبّاس : واللهِ إنّك لأصبحُ فتياننا وجْهاً ، وأحسنُهم عقلاً ، وأفقهُهم في كتابِ الله عزَّ وجلّ[3] .

* وكان عمرُ يستشيره في الأَمْر إذا أهمّه ويقول له : غُصْ غَوّاص[4] .

* وكان يقولُ وهو معجَبٌ بعلمِهِ وفَهْمِهِ : لا يلومنِّي أحدٌ على حبِّ ابن عبّاس .

* صحيحٌ أنَّ ابنَ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ لم يدركْ من عُمْرِ النّبيّ ﷺ ما أدركَ غيرهُ من نظرائهِ في العلْمِ ، ولكنّه لازمَه فيما أدركه منَ الزَّمن ، وكان في سنّ الطّفوليّة ، فعقَلَ وفقهَ وجدَّ واجتهدَ ، واستعاضَ عما فاتَه بملازمةِ أكابرِ الصَّحابة وعلمائِهم من مثل : عمر ، وعليّ ، وعبد الله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ـ رضي الله عنهم ـ وكان حريصاً على العلْمِ ، نهماً له ، شغوفاً به ، يأخذُه حيثُ وجدَهُ ، ويسعى إليه أنّى كان ، ويحتملُ في سبيله من الجهدِ والمشقّة ما يحتمل ، وقد تحدَّثَ عن محبّته للعِلْمِ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ٢٩٦) بتصرف .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٥) .
(٣) صفة الصفوة (١/ ٧٤٨) والبداية والنهاية (٨/ ٢٩٩) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٦) .

وطلبهِ له فقال: طلبتُ العِلْمَ فلمْ أَجِدْهُ أكثرَ منه في الأنصارِ ، فكنتُ آتي الرَّجُل فأسألُ عنه فَيُقَال لي: نائم ، فأتوسَّدُ ردائي ثمّ أضطجعُ حتّى يخرجَ إليَّ الظّهر فيقول: متى كنتَ ها هنا يا بن عمّ رسولِ الله ﷺ؟

فأقول: منذُ وقت طويل.

فيقول: هلا أعلمتني؟!

فأقول: أردتُ أنْ تخرجَ إليَّ وقد قضيتَ حاجتَكَ ، أسألُه عما أريدُ وأنصرف[1].

* ولكي يتأكّدَ الطّفْلُ العالِمُ من تثبُّتِ العِلْم ورسوخِه كان يسألُ عدداً كبيراً منَ الصَّحابة ، يقول ابنُ عبّاس عن هذا الأمر: إنْ كنتُ لأسألُ عن الأمرِ الواحدِ ثلاثين من أصحابِ النّبيِّ ﷺ[2] ، وكان ـ رضي الله عنه ـ طالبٌ نجيبٌ وطفلٌ مخلصٌ لمن يعلِّمه ، وأصيلٌ بارٌّ بمن يرشدُه إلى الكَلِمِ الطّيّب ، فكان يعرفُ لعلماءِ الصَّحابة قَدْرَهم ويحفظُ مكانتَهم ، ويدل على مكارمهم ، ويعلِّم الأطفال حُسْنُ احترامِ المعلمين ، وما لهم منَ الفضلِ والمكارمِ ، فيقول: كنتُ أكرمُ الأكابرَ منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ من المهاجرينَ والأنصار ، وأسألُهم عن مغازي رسولِ الله ﷺ ، وما نزلَ من القُرآن في ذلك ، وكنت لا آتي أحداً منهم إلاّ سُرّ بإتياني لقُربي من رسولِ الله ﷺ ، فجعلتُ أسألُ أبيَّ بنَ كعب يوماً ـ وكان منَ الرّاسخينَ في العِلْم ـ عمّا نزلَ منَ القرآن بالمدينة فقال: نزلَ سبعٌ وعشرون سورة وسائرها بمكة[3].

* والعلمُ يرفَعُ طالبَهُ ، ويجعلُه ذا مكانة تضاهي مكانة الأمراء ، لذا كانَ ابنُ عبّاس ـ رضوان الله عليهما ـ يرغِّبُ النَّاسَ في طلبِ العلْم ، والحرصِ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٨) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٤) بتصرف.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٤).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ٣٠١). والبداية والنهاية (٨/ ٢٩٨).

على إتيان مواردِهِ ، حتى غدا أمير العُلماء ، قال يزيدُ بنُ الأصم: خرجَ معاويةُ حاجاً معه ابن عبّاس ، فكان لمعاوية موكبٌ ، ولابن عباس موكبٌ ممن يطلب العِلْم[1] .

* إنَّ النفسَ البشريةَ المتلهّفةَ إلى سلسبيلِ العِلْمِ ، تميلُ بطبعِها إلى معرفةِ العُلوم ونوادِرها ، ولا غرابةَ في أنْ يشمّرَ الطّفلُ الصّحابي النّجيبُ ابن عبّاس عن ساعدِ الجدّ ، ويسعى في تحصيلِ المعارفِ القُرآنيةِ والمعارفِ النّبويةِ مهما كلَّفه ذلك ، ليكونَ العلمُ نبراسَ حياتهِ ، ومنار سبيله. لأنَّ العلم شرفٌ لا يُداني ، وفضل لا يُجارى ، ومنزلةٌ لا تُطَال. ولهذا قال طاووسُ عن ابن عبّاس: كان ابنُ عبّاس قد بَسَقَ على النَّاس في العلمِ ، كما تبسق النَّخلُة السَّحوق على الوَديّ الصِّغار[2] .

* وقد استفادَ الطفلُ الأريبُ ابن عبّاس من الصُّحبة النّبوية ، وكان منَ الأطفالِ الكرام الذين كانوا حولَ رسولِ اللهِ ﷺ يستمدّون منه القدوةَ والفائدة والبركةَ ، وكان يسارعُ لقضاءِ الحوائجِ النّبوية ، وكان كثيراً ما يذهبُ إلى بيتِ خالته ميمونة أمّ المؤمنين ويتشرَّفُ بخدمةِ النّبيّ ﷺ ، وممّا جاء عن ابن عبّاس في هذا المجال أنَّه قال: بتُّ في بيت خالتي ميمونةَ ، فوضعتُ للنّبيّ ﷺ غُسْلاً فقال: «مَنْ وضَعَ هذا»؟

قالوا: عبد الله.

فقال: «اللهمّ علِّمْه التّأويل وفَقِّهْه في الدِّين»[3] .

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٣٤٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥١).

(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٢/٣٠٨) ، وصفة الصفوة (١/ ٧٥٣) ، و«بسق»: طال. و«الودي»: صغار النخل.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦ و٣١٤ و٣٢٨ و٣٣٥) ، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٥). وقال ابن عباس عن هذا: وضعتُ لرسولِ الله ﷺ وضوءاً ، فقال: «اللهم فقهه في الدِّين وعلّمْه التّأويل». وقال: دعا لي رسولُ اللهِ بالحكمة مرتين ، (طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥).

* ومن فوائدِ صحبةِ ابن عبّاس الطّفل الذّكي للنّبيّ ﷺ أنَّه صلّى وحيداً بجانبه ، قال ابن عباس : صليتُ خلْفَ النّبيّ ﷺ من آخرِ الليل ، فجعلني حِذَاءه ، فلمّا انصرفَ . قلتُ : لا ينبغي لأحدٍ أنْ يصليَ حذاءك وأنتَ رسولُ الله؟!

فدعا الله أنْ يزيدني فهماً وعلماً[1] .

* هذا وأخبارُ ابن عبّاس كثيرة ، وهو من علماء الصَّحابة ومن المكثرين لروايةِ الحديث النّبوي الشَّريف ، وظلَّ من أركانِ العلْمِ حتى وافَتْه المنيّةُ سنة (٦٨ هـ) رضي الله عنه .

* * *

(١) انظر : حلية الأولياء (١/ ٣١٤ و٣١٥).

الفصل السابع

عبْدُ اللهِ بن عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ

* هذا الطّفلُ العالمُ العليمُ ارتقىٰ ذروةَ الفضلِ ، وسَبَقَ السُّبَّق في حلبةِ العلومِ ، فغدا من أذكياءِ أطفالِ الصَّحابة ، وحاكى أباه في العُلا وإيقاظ الهِمَم ، ومَنْ يُشابِهْ أباه فما ظَلم ، وأحبَّ قبل كلّ شيءٍ الحبيبَ الصَّادق المصدوقَ رسولَ الله ﷺ حبّاً مَلَكَ عليه كل شيء ، وصارَ يقلّده في كُلّ شيء حتّى عُرِفَ بين أقرانِه بلقبِ المؤتسي برسولِ اللهِ ﷺ .

* وهذا الطّفلُ العالِمُ الذي حظيَ بشرفِ الدّنيا والآخرة هو عبدُ الله ابنُ عمر بن الخطاب القرشيّ ـ رضي الله عنه وعن أبيه وسائر الصَّحابة وحشَرنا في معيّتهم ـ .

* ولما أشرقتْ بطاحُ مكّةَ وتعطّرتْ أرجاؤُها برحيقِ الإيمانِ وأنداءِ الإسلامِ ، كان عبدُ الله بنُ عمر ممن وُلِدَ في هاتيكم الأزمانِ الميمونةِ ، فقد كان مولُده في السَّنةِ منَ البعثةِ المحمدية ، ولما وعىٰ وكبرَ قليلاً ، وفي سنِّ الطُّفولة المبكّر ، لاحظَتْهُ السَّعادة بعيونها الجميلة المتفتّحة والمفتوحةِ على أخبارِ الإسلام ، ورأى إذ ذاك عظمةَ الدِّين ، فأسلمَ وهو طفلٌ صغيرٌ مع أبويهِ[1] ، ونَعِمَ في أحضانِ الإسلام الذي تغذّى على مائدتهِ وهو طريٌّ

---

(١) أبوه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وأمُّه زينبُ بنتُ مظعون من بني جُمحَ ، وجاء في صحيح البخاري عن عمر أنَّه قال في شأنِ ابنه عبد الله : هاجرَ به =

العُودِ ، فشبَّ عليه شباب العارفين العالمين ، وكانت قلوبُ المؤمنين تحنو عليه ، بل كان قلبُ الفاروقِ يرعاهُ ، ومَنْ رعاه الفاروق فيحقّ له أنْ يفخرَ ويفتخرَ ، لأنَّ عمرَ الرَّجُل الثّاني والوزير الثّاني في عالَم الصَّحابة بعد شيخ الصّحابة وعَلَمِهم ورأسِهم وعالمهم وعَيْلمهم وسيّدهم وكبيرهم قدراً عند رسولِ الله ﷺ ، الصّديق الأكبر والوزير الأوّل سيّدنا أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه وحشَرنا في معيّته ـ فهو رأْسُ الأسرةِ الصّديقيّة ، وعين المجد و :

يَا أُسْرَةَ الصِّدْقِ والصِّدِّيقِ إنّكمُ   في كلِّ عَصْرٍ لِعَيْنِ المجدِ إنْسانُ

و :

إذا زانَ قَوماً بالمناقِب واصفٌ   ذكَرنَا لـه فَضْـلاً يـزيـنُ المنَـاقِبـا

* نشأَ عبدُ الله بنُ عمر نشأةً صافيةً ، وكان يرى بعينِ البراءةِ الصَّافيةِ ما يحلّ بالمسلمين من أذىٰ كفّار مكّةَ ، فكانت نفسُه الصَّافيةُ وقلبُه النَّقي يعتصرُ أسىً لما يحلّ بهم ، أمّا عيناهُ البريئتان فكانتا ترسمان تلكم المناظرَ الوحشيّةَ ، والقسوةَ الجاهليّة التي يرتكبُها فجّار قُريش في أهلِ الإيمان ومنهم أسرتُه وأهلُه .

* وبعد بضعةِ أعوامٍ منْ إسلام عبدِ الله جاءتِ الأوامرُ الإلهيّة مؤذنةً بالهجرة إلى المدينةِ المنوّرة ، فاستعدت الأسرةُ العمريةُ لامتثالِ أوامرِ العزيزِ الحميد ، وسرعان ما كان الركبُ العمريُّ يتوجَّه تلقاءَ المدينةِ المنوّرة ، وهاجر عبدُ الله بنُ عمر مع أبويه وهو لم يبلغِ الحُلُمَ بعد ، ولما يتجاوزْ أحدَ عشرَ ربيعاً ، والهجرةُ العمريةُ الثَّابتةُ في وجْهِ مشركي قريش متعالَمةٌ بين معظم النّاس ، وقَلَّ مِنَ الناس مَنْ لا يعرفُ أكثرَ الأخبار العمريّة

= أبواه ، وزينبُ بنتُ مظعون هذه أمّ عبد الله بن عمر وحفصةَ أمّ المؤمنين ، وهي من المُهاجرات . قال ابنُ عبد البر : أسلمَ عبدُ الله مع أبيه وهو صغيرٌ لم يبلغِ الحُلمَ . (الاستيعاب ٢/ ٣٣٤) .

والهجرة العظيمة إلى المدينةِ ، والتي تُعَدُّ غرّةً في جبين الدّهر.

* ونَعِمَ عبدُ الله بنُ عمر في المدينةِ المنوّرة بنعيمٍ مقيمٍ عظيم ، حيث قضىٰ فيها عشر سنين وهو في رحابِ الحضرةِ النبوية يرتشفُ من أنداءِ الأنفاس المحمديّة ما يبلُّ الصَّدى ، ويغترفُ من بحارِ أنوارِ المعارفِ المحمديّة ما يطيبُ له ، إلى أنْ غدا منَ الأطفالِ النَّابهين ، بل من الصَّحابة العالمين ، وتسنّم ذروةَ العلْمِ قرابةَ ثلاثة أرباع القرن.

* كانت علاماتُ النَّجابة ترتسمُ على محيّا عبدِ اللهِ بنِ عمر ، فحينما كانتْ مجالسُ النّبيّ ﷺ تنعقدُ في المسجدِ النّبويِ الشَّريف ، تشرَّفَ عبدُ الله بالانتسابِ إليها ، فكانَ تلميذاً نجيباً وطفْلاً محبّاً لها ، وحظي بالصُّحبةِ النّبويةِ ، وبُوركَ له بذلك الوقت ، فحفظَ ما شاء الله له أنْ يحفظ منَ العلمِ النَّافعِ المفيد.

* وقد كان مسجدُ سيّدنا رسول الله ﷺ هو القلبُ الدّافىء الحاني الذي يسكنُ إليه عبد الله بن عمر. وهو اليدُ الحانية التي تمسحُ على رأسهِ وصدرهِ ، لذا فقد اتّخذَ عبد الله المسجدَ دنيا أملهِ ، وأمل دنياه ، وحرصَ على أنْ يسيرَ في طريق الجنّة ، فكانَ معلِّم البشرية ومربّي الأطفال والأبطال رسول الله ﷺ ، فانتظمَ في سلكِ المدرسةِ المحمدّية ، ليكون أحد نجباءِ العلماء من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، وأحد الأذكياء العالِمين في عَصْر النّبوة النّدي.

* وعكفَ عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنه ـ على تلقي العِلْم من النّبيّ ﷺ ، وكان طفلاً نجيباً مستمعاً منصتاً لما يقولُه الحبيبُ الأعظم محمّد ﷺ ، حتى حظيَ بثناءٍ أبديّ منَ النّبي ﷺ عندما قال فيه : «نِعْم الرّجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل» ؛ وفي رواية «إنَّ عبد الله رجلٌ صالح»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (٣/ ٥ و٦). ومسلم برقم (٢٤٧٨ و٢٤٧٩). والترمذي=

* ويبدو أنَّ هذا الإنعامَ النَّبويَّ المندّىٰ بعطرِ الثَّناء ، على هذا المحبِّ العالمِ المتعلّم عبدِ اللهِ بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قد جعله من أعظمِ أطفال الصَّحابةِ وشبّانهم التماساً للأمكنةِ التي يصلّي فيها النّبي ﷺ.

* روى نافعٌ مولى ابن عمر: أنَّ ابنَ عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يتّبعُ آثارَ رسولِ الله ﷺ كلّ مكان صلّى فيه ، حتى إنَّ النّبيَّ ﷺ نزلَ تحتَ شجرةٍ ، فكان ابنُ عمر يتعاهدُ تلك الشَّجرة ، فيصبُّ في أصلها الماء لكيلا تَيْبَس[1].

* وصاحبتِ الكلمةُ النّبويةُ: ـ «نِعْم الرّجلُ عبد الله لو كان يصلي من الليل» ـ عبدَ اللهِ طيلةَ حياتِهِ ، فكان لا يتركُ إحياءَ الليل إلاّ وهو في صلاةٍ ومناجاةٍ للعليم الخبير ، ورَسمَ مولاه نافعٌ هذه الصّورةَ الوضيئةَ في سجلّ مفاخرِه فقال: كان عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يحيي الليل ، ثم يقول لي: يا نافعُ ، هل جاء وقْت السَّحر؟

فأقول: لا يا أبا عبد الرحمن ، ما زالَ الليلُ مرخياً سُدوله. فيعاودُ صمتَه وقيامه ومناجاته ، فإذا ما عادَ وسألني عن السَّحر ، وقلتُ نعم ، قعدَ ، ثمّ بدأ يستغفرُ الله ، ويدعوه تضرّعاً وخيفةً حتى يصبح . و:

مَا زَالَ يَضْرَعُ فِي الدُّعَاء لِربِّهِ ... سرّاً وجَهْراً مُجمِلاً ومُفَصِّلا
مُتوجّهاً بخُلُوصِ قلْبٍ صَادِقٍ ... فيما انتحَاهُ تضرّعاً وتَبتُّلا

لقد كانَ عبدُ الله في رحلةِ العبادةِ والصَّلاةِ يقتبسُ كلّ ما رآه من معلّمهِ ومربّيه ودليله إلى الخيراتِ رسولِ الله ﷺ ، فيحذو حذْوَه ، ويهتدي

= برقم (٣٨٢٥) ، وانظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٧) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٥٦).

(١) انظر: صفوة الصفوة (١/ ٥٧٧) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٢) مع الجمع والتصرف.

بهديه ، ويقلّده ويحاكيه تماماً «كأنَّه هو»[1] لا يحيدُ عنه قيدَ أنْملةٍ؛ حتى شهدَ له بحسنِ اقتفائهِ للآثار المحمدية شاهدٌ من أهلِ البيتِ النّبوي الطّاهر ، وهذا الشَّاهِدُ هو أمُّنا الصّدّيقةُ بنتُ الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ حيث قالت : ما كانَ أحدٌ يتّبعُ آثارَ النّبيّ ﷺ في منازلهِ كما كان يتّبعه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[2].

* وقد استفادَ ابنُ عمر فائدة كبرى منَ الصُّحبة النّبوية ، ونضجتْ معارفُه واتَّسعَ حفظُه على عهْدِ النّبي ﷺ ، فقد تعلّم سورةَ البقرة في أربع سنين[3] ، بل إنَّ ابنَ عساكر ذكر أنَّ ابنَ عمر مكثَ على سورةِ البقرة ثماني سنين يتعلّمها[4]. ويوضّح ابنُ عمر نفسُه كيف كان ينظرُ بمنظارِ الإيمانِ ومنظارِ القرآن في المجالسِ النّبوية فيقول: لقد عشْنا برهةً من دهرنا ، وأحدُنَا يرىٰ الإيمانَ قبل القرآنِ ، وتنزلُ السّورةُ علىٰ محمّد ﷺ ، فنتعلّم حلالَها وحرامها ، وأمرَها وزجرها ، وما ينبغي أنْ نقفَ عنده منها[5].

* وعبد الله بنُ عمر من أطفالِ الصَّحابة النُّجباء الذين وعوا حديثَ رسولِ الله ﷺ. فهو ثاني اثنين من المكثرين ، ولم يسبقْه في هذا الميدان سوىٰ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ المُجَلّي السَّبّاق بين الحُفَّاظِ الأعلامِ الكرام والذي بلغتْ مروياته (٥٣٧٤حديثاً) ، بينما قفّى عبد الله بن عمر على آثارِه وبلغتْ مروياته (٢٦٣٠حديثاً) ، وبهذا ينتظمُ في سلكِ السَّبعة الحفّاظ المكثرين لرواية الحديث النّبوي الشَّريف وهم: أبو هُريرة ، عبدُ الله بن عمر ، أنسُ بن مالك ، عائشةُ الصّديقة أمّ المؤمنين ، عبد الله

---

(١) اقتباس من الآية (٤٢) من سورة النمل.
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٥).
(٣) المصدر السابق عينه (٤/ ١٦٤).
(٤) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ١٦٩).
(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٦٩).

ابن عبّاس ، جابرُ بن عبد الله ، وأبو سعيد الخُدري واسمه سعدُ بن مالك ، وقد نظمَ أحدُ الفُضلاء أسماء هؤلاء السَّبعة المكثرين من روايةِ حديث سيّدنا رسول الله ﷺ ، فقال:

سَبْعٌ منَ الصَّحْبِ فوقَ الألفِ قد نقلُوا ... منَ الحديثِ عن المُختار خيرِ مُضَرْ
أبو هُريرةَ سَعْدٌ جابرٌ أنسٌ ... صِدِّيقةٌ وابنُ عبّاسٍ كذا ابنُ عُمَر

* ومن مروياتِ عبد الله بن عمر التي يحفظُها كلّ طفْلٍ مسلمٍ في دنيا الإسلام ، ذلكم الحديثُ المشهورُ في أركانِ الإسلام حيث روى عن النّبي ﷺ قوله: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، وإقامِ الصّلاة ، وإيتاءِ الزّكاة ، وحجِّ البيت ، وصومِ رمضان»[1].

* ومن المفيد هنا أنْ يشيرَ المربّي إلى أنَّ عبدَ الله بنَ عمر هو منَ العبادلةِ الأربعة ، والعبادلةُ الصَّحابة يبلغ عددهم (٢٢٠ رجلًا) لكنّه اشتُهر أربعةٌ منهم تربُّوا أطفالاً حولَ الرسولِ ﷺ وبلغوا السُّها ، وهم:

١ ـ عبدُ الله بنُ عمر بنِ الخطاب.
٢ ـ عبدُ الله بنُ عبّاس بن عبدِ المطلب.
٣ ـ عبدَ الله بنُ الزّبير بنِ العوام.
٤ ـ عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

هكذا سمّاهم الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ وكذلك سائرُ الفقهاء والعُلماء والمحدّثين؛ وهؤلاء هم أهلُ الفضل ، وأهلُ العلْم ، وأهلُ الفخر ، و:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦ و٩٣ و١٤٣ و٢١٠) ، والبخاري في الإيمان برقم (٨) ، ومسلم برقم (١٦) ، والترمذي برقم (٢٦١٢) ، والنسائي (٨/ ١٠٧ و١٠٨) ، وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١/ ١٥٢): إنَّ هذا الحديثَ أصلٌ عظيمٌ في معرفةِ الدِّيْن ، وعليه اعتمادُه ، وقد جمعَ أركانه ، واللهُ أعْلم.

أولئـكَ آبــائـي فجئْنِـي بمثلِهـم   إذا جمعَتْنَـا يـا جـريـرُ المَجـامـعُ

* وهؤلاء العبادلة[1] الأكارمُ منْ أسيادِ السَّادة ، ومن سادةِ العُلماء ، ومن ذوي الأصولِ والأعراقِ الأصلية ، والنَّسب الكريم ، وقد ارتقوا بالعلمِ والحسبِ سُدَّة الفضل والمكارم و:

العِلْـمُ يـرفَـعُ أقـوامـاً بـلا حَسَـبٍ   فكيفَ مَنْ كانَ ذا عِلْم له حَسَبُ

* ومن رصيد ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه كان يحبُّ الجهادَ وهو طفلٌ لم يشتدَّ عودَه بَعْدُ ، ففي غزاةِ بدر لم يُسمح له بخوضِ غمارها ، واستُصْغِر أيضاً يوم أُحُدٍ مع ثلّة من أطفال الصَّحابة ، بل أشبال فرسان الصَّحابة ، ممن كانوا في عُمْرِ الوردِ ، وعَمَرَ الإيمانُ قلوبَهم الصَّغيرة ، وأحبّوا اللهَ ورسولَه ، وحبّذُوا الشَّهادة ليفوزوا مع الفائزين بجنّة عرضها السّموات والأرض.

* ولا يسعُ المقامُ لاستيفاءِ أخبار طفولة عبد الله بن عمر ، ولكنّا اكتفينا بشذرات منها ، فرضيَ الله عنه وأرضاه.

* * *

(١) للمزيد من أخبار العبادلة الأربعة وغيرهم اقرأ كتابنا الكبير الشهير «علماء الصحابة» حيث تجد فيه ما يسر بإذن الله وما يطرب القلوب والألباب.

الفَصْل الثَّامن

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ ـ رضي الله عنها ـ

* هي ذا البَضْعَةُ النّبويّةُ ، والجهةُ المصطفويةُ ، والطّفلةُ البارّةُ ، والابنةُ البارّة ، زينةُ بناتِ النّبيّ ﷺ ، وأشهرهنّ ، إنّها الزَّهراءُ فاطمةُ بنتُ حبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ ، والزّهراءُ هذه استحقَّتْ هذا التَّاج النّبويّ من سيّدِ الأنبياء لسيدةِ نساءِ زمانِها فقال ﷺ: «فاطمةُ أمُّ أبيها».

* وسيرةُ فاطمةَ في طفولتها بركةٌ وخيرٌ لهذه الموسوعةِ المباركةِ ، وعقْدٌ نزيّنُ به هذا الكتاب ، وغذاءٌ تتحلّى به الأفواهُ والأسماعُ ، ومَنْ كفاطمةَ في هذا المجالِ المباركِ؟

* إذاً ، فلنبدأ الرحلةَ الفاطميّة في هذا الكتاب ، وهذا الفَضْلِ الميمون.

* لمّا كانَ الحبيبُ الأعظمُ محمّدٌ ﷺ في منتصفِ العِقد الرّابع من عمره الشَّريف ، شاركَ في بناء الكعبةِ المشرّفَةِ؛ وفَضَّ الخلافَ الذي كادَ ينجمُ بينَ قريش ، ووضعَ الحجرَ الأسودَ بيده الشَّريفة في مكانهِ من الكعبةِ الشَّريفةِ ـ حرسَها اللهُ تعالى ـ ، وفي ذلك العام ، وقبلَ البعثةِ بخمسِ سنين تقريباً ، جاءَ البشيرُ إليه ﷺ وألقىٰ إليه أنَّ زوجَه الطَّاهرةَ خديجة بنتَ خُويلد قد ولدَتْ له ابنةً جميلةً ، كانت هي فاطمةُ ـ رضوان الله عليها ـ.

* كان مولدُ فاطمةَ وقريشُ تبني البيتَ الحرام ، واستبشرَ الحبيبُ المصطفى ﷺ بمولدِها ، فقد كانتْ ـ رضوان الله عليها ـ أشدُّ النَّاس شَبَهاً برسولِ الله ﷺ ، وكانت بيضاء ، مشرّبة بحمرةٍ ، لها شعرٌ أسود .

* وتروي لنا أمّنا عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ جانباً من صفةِ سيّدتنا الزّهراء فقالت : كانتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ أشْبَهَ النَّاس وجهاً برسولِ الله ﷺ ، وقالت أيضاً : ما رأيتُ أحداً منْ خلْقٍ أشبهَ حديثاً وكلاماً برسولِ الله ﷺ منْ فاطمةَ .

* وفي دنيا الأعراقِ تسجِّلُ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ فضلاً لا يدانيه فَضْلٌ ، فأبوها رسولُ اللهِ ﷺ وأمُّها خديجةُ بنتُ خويلد ـ رضي الله عنها ـ ومَنْ كهذَيْنِ في دنيا الأعْراق؟!!

* ورضعتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ منْ أمِّها لبنَ التَّوحيدِ مع الفطْرةِ ، وفتحتْ عينيها علىٰ دنيا الطَّهارة والحبِّ والعطْفِ ، وكانتْ بدايةُ طفولتها طفولةً ميمونةً مباركةً ، إذ غمرهَا الأبوانِ بوابلٍ منَ العطفِ مع إخواتها اللاتي ولدْنَ قبلَها وهنَّ : زينبُ ، ورقيّةُ ، وأمّ كلثوم .

* ولما اقتربتْ فاطمةُ من ربيعها الخامس كانت إرهاصات النّبوّةِ تتبدّى لأبيها محمّدٍ ﷺ ، ولما تمَّ له ﷺ أربعون سنة ، أكرمَهُ اللهُ عز وجلُ بالنّبوّةِ ، ونُـبِّيءَ باقْرَأ ، وكانَ يتعبّدُ اللهَ في غارِ حراء ، فعادَ إلى بيتهِ وهو يقولُ : «زمّلوني ، زمّلوني» وكان خائفاً ممّا عراهُ منْ نزولِ الوحي جبريل ـ عليه السَّلام ـ ولعلَّ فاطمةَ الزَّهراءَ قد شاهدَتْ ووعَتْ ما قاله أبوها ، وسمَعْتْ ما قالتْ أمُّها الطّاهرة خديجة لأبيها يومذاك ، سمعتها تقولُ له كلماتٍ عظيمة وهي كلُّها نورٌ وإلهامٌ وإكرامٌ وحنانٌ وألْفَةٌ ووئام : كلا ، واللهِ لا يخزيك اللهُ أبداً؛ إنّكَ لتصِلُ الرحمَ ، وتصدقُ الحديثَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضّيف ، وتعينُ على نوائب الحقّ .

* وانطلقتْ به أمُّنا إلى ورقةَ بنِ نوفل ، فأخبرهما أنَّ هذا هو النّاموسُ

الذي نزلَ على موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ ثمَّ قال لمحمّدٍ ﷺ: ليتني أكونُ حيّاً إذْ يخرجُكَ قومكَ ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم»؟ قال: نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثلِ ما جئْتَ به إلاّ عودي ، وإن يدركني يومُكَ أنصرُكَ نَصْراً مؤزراً[1].

* وعاد حبيبُنا ونبيّنا محمدٌ ﷺ وأمُّنا خديجةُ إلى البيتِ ، وسمعتْ بناتُه الطّاهرات ما قالَه ورقةُ بنُ نوفل لأبيهما ، ولعلَّه قد دار في خَلَدِ الطّفلة فاطمة أسئلةٌ منها: لماذا يخرجُه قومُه منْ بلدِه؟ ولماذا يعادونه ويحاربونه؟ وأسئلةٌ أخرى سَبَحَتْ في مخيلتِها الصَّغيرة.

* وأخذَ النَّبيُّ ﷺ يبلِّغُ الرِّسالةَ التي أمرَه اللهُ بها ، وراحَ يدعو النَّاس سرّاً بادىء الأمْر ، وكان منَ الطّبيعي والبدهي أنْ يبلِّغَ أهلَ بيتهِ وأصدقاءَه المُخلصين فبدأ بأهل بيته الأطهار ، فكانت خديجةُ أوّل هذه الأمّة إسلاماً ، لم يتقدّمْها رجلٌ ولا امرأةٌ ، وقفّىٰ على آثارِها بناتُهُ الطّاهراتُ ، فكُنَّ ممن تجاذبْنَ نعيمَ السَّبْقِ ورداءَ الإيمانِ في السَّابقين والسَّابقات إلى دوحةِ الإيمانِ بالخالقِ البارىء وبالنّبيّ الكريمِ محمّد ﷺ.

* نعم إنَّه منَ الطَّبيعي في الحياةِ الأُسريّةِ في الأسرةِ المحمّديّة أنْ تكونَ فاطمةُ وأخواتُها منَ السَّابقاتِ الأُوَلِ ، لأنَّهنَّ ارتشفْنَ رحيقَ الهدايةِ من ينبوعها النّقي الصَّافي ، وتندين منْ عطرِها الزّكي من الأبويْنِ العظيمَيْن محمّد ﷺ وخديجة الكبرى أمّنا ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* أخبرتْ أمُّنا عائشةُ الصِّديقَةُ فيما رواه عنها ابنُ إسحاق قالت: لمّا أكرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه بالنّبوةِ ، أسلمت خديجةُ وبناتُه.

---

(١) لهذه الحادثة أصل في صحيح البخاري ، حيث أخرجه في بضعة مواضع برقم (٣ و٣٣٩٢ و٤٩٥٣ و٤٩٥٥ ، و٤٩٥٦ ، ٤٩٥٧ ، ٦٩٨٢) ومسلم بشرح النووي (٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٤) ، وابن إسحاق (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨) ، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٣٥) ، وانظر كتابنا نساء أهل البيت (ص ٣٩ وما بعدها).

* ففاطمةُ إذاً وأخواتُها الطّاهراتُ في قَرَنٍ مع أمهنَّ خديجة ، ينظمنَ جميعاً سلْكَ دُرَرِ أسبق السُّبّقِ إلى الإسلام ، فكنّ مُؤازِرات له ﷺ ، وقامتْ أمهنّ خديجةُ بأعباءِ الصّديقيّة ، فعلمتْ بكمالِ عقلها وفطرتها أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ والشِّيم الكريمةَ تناسبُ أشكالَها فعملَتْ بهذه الشَّمائل فحازت الصّدّيقيّة والكمالَ.

* وبدأَ الإسلامُ يصافحُ أسماعَ القرشيين فأسلمَ منهم بعضُ الكُبراء الأعلياء الأغنياء كأبي بكر الصّدِّيق ، وعبد الرحمن بنِ عوف ، وعثمانَ بنِ عفان وأمثالِ هؤلاء الأكابر ، ووصلتِ الهمساتُ الإيمانيّةُ سَمْعَ قريش بيد أنَّ فجّارها أعرضُوا وصمُّوا ووقَفُوا محاربين معاندين مستهزئين بالدَّعوةِ وبرسولِ الله ﷺ ، وقد حاربَه هؤلاء بكلِّ الوسائلِ والسُّبل القبيحةِ ، وكان في مقدمتهم: أبو لهب وزوجتُه أمّ جميل بنتُ حرب ، وأبو جهل ابنُ هشام ، وعقبةُ بنُ أبي مُعيط ، وشرذمةٌ من الكفرةِ الفجرةِ الذين طارَ صوابُهم لمّا علموا بإسلامِ عددٍ من الأماثلِ وآخرين منَ الولدانِ والمُستضعفين.

* وبدأتْ قريشٌ تشنُّ حملات الحرب ضدّ محمّد ﷺ ، وكانت الزَّهراءُ ـ رضي الله عنها ـ ما تزالُ طفلةً صغيرةً ترى هذه الأحداثَ الجِسَامَ ، ونالتْ حظّاً منَ الابتلاء والمُعاناة العظيمةِ ، فشهدتِ البلاءَ والمحنة منذ طفولتِها ونعومةِ أظافِرها ، وعاشتْ مع أبيها اللحظاتِ الأولى منذُ نزول الوحي ، حتّى اللحظاتِ الأخيرة من حياتِهِ ﷺ.

* وعندما أخذَ المعاندون يعرقلُونَ الدَّعوةَ المحمّديّة ، أخذتْ فاطمة تتصدّى لهم ، وكانَ لها مواقفُ زاهرةٌ وضيئةٌ ضِدهم ، فقد كانتْ عيناها وقلبُها مع همساتِ أبيها ﷺ في كلّ ما يقوم به من دعوةٍ ، وكانت تخرجُ وتتحرّكُ وتتبعُ أباها حيثما يذهبُ إلى أنديةِ قريش داعياً ومبشّراً ونذيراً ، ويلقىٰ في سبيلِ اللهِ ما يلقى منْ أذى السُّفهاءِ وكيدِهم وسخريتهم.

* وفي يومٍ منْ أيّامِ مكةَ ، وفي رحلةِ الدعوةِ إلى الله عزّ وجلّ كانتِ الزَّهراءُ ـ رضوانُ الله عليها ـ تمشي خَلْفَ أبيها وهو يمضي إلى الكعبةِ ، فاستلمَ الرّكْنَ ، وما أنْ لمحَهُ المشركون حتّى تحرّكَتْ قلوبُهم بالحقدِ والحَسَدِ ، ووثبوا إليه ، وأحاطُوا به وهم يقولون له : يا محمّد ، أنتَ الذي تقول كذا وكذا ـ وعدُّوا ما قالَ من تكفير آبائهم وعيبِ آلهتهم و تسفيهِ أحلامِهم ـ ويجيبُهم ﷺ إجابةَ الواثقِ بربّه ، المؤمن به وبنصره ورحمتِه : «نعمْ ، أنا الذي يقولُ ذلك» . وثارتْ ثورتُهم البلهاءُ الغبيّةُ المُتَغابِيَةُ ، وأخذَ أبو جهلٍ بمَجْمعِ ردائِهِ ﷺ ، ولمّا رأتِ الزَّهراءَ هذا الموقَف دُهشَتْ ، بيد أنَّ دهشتَها تلاشَتْ عندما رأتْ صَديقَه وصِدِّيقة أبا بكْر ـ رضي الله عنه ـ يقومُ ويقول لهم في حَزْم وقوةٍ وكلماتُه الإيمانيةُ تعطّر الأجواءِ : أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربّي الله؟! وثارَ الملأُ القرشي الحاقدُ على الصِّدِّيق الذي نزلَتْ كلماتُه على آذانِهم كالصاعقة ، فانقضُّوا عليهِ يضربونَه حتى كاد أنْ يغمىٰ عليه .

* وفي حياةِ فاطمةَ الطّفولية مواقفُ جريئةٌ وعظيمةٌ ، فقد تصدَّت لأكابرِ مجرمي قُريش ، وسبّتهم وشتمتهم ، لما كثر سَفَهُهم ذات يومٍ ، وتجرّأَ سافلُهم عقبةُ بنُ أبي مُعيط على النبي ﷺ ورمىٰ عليه الأقذار وهو ساجدٌ ، فكان لها موقفٌ ، وأيّ موقف ، ترى ما الذي فعلتْهُ هذه الطّفْلةُ الطَّاهرة مع أولئك الأَجْلاف قُساة القُلوب والأكباد؟!

* ذكَرَ أصحابُ المصادرِ موقفاً بطوليّاً لفاطمةَ الزّهراءِ مفاده : أنَّ سيّدنا محمّداً ﷺ قد دخلَ الحرمَ ذاتَ يومٍ منَ الأيّام ، وكان معه بعضُ صحبهِ الذين آمنوا باللهِ ورسوله وزادهم اللهُ هدىً ، وجلسَ هؤلاء المسلمون قربَ الكعبةِ ، وراحَ حبيبُ اللهِ محمّد ﷺ يصلّي ويناجي ربَّه ويدعُوه ، وكانَ بالقربِ من بعضِ الأصنامِ قد نُحِرُ جَملٌ ، وبقي روثُه في كرشِهِ ، وعليه بعضُ الأقذار والدّماء ، وكان منظرُه يقزّزُ النَّفْسَ وينفّرُ الطّباع لما يقعُ عليه

منَ الحشَرات والذُّباب ، وكان فرعونُ الأمّةِ أبو جهل بنُ هشام ، وعقبةُ بنُ أبي معيط ، وناسٌ من مشركِي قريش وأشرارهم وفجارهم يتحلّقُون حولَ أبي جهل في مجلس لهم قربَ الكعبة المشرّفة حماها الله.

* وفي تلك الأثناء كانَ رسولُ الله ﷺ ساجداً ، فرآهُ أبو جهل وهو يصلّي ، فثارتْ أحقادُه وحسدُهُ الدّفين ، والتفتَ إلى مَنْ حولَه وقال لهم: ألا رجلٌ منكم يقومُ إلى فرث جزور بني فُلان ، فيلقيهِ على محمّد وهو ساجدٌ؟! وتبرّع أشقىٰ الجالسين حولَه عقبةُ بنُ أبي معيط.

* وكان عقبةُ هذا ساقِطاً مغموزَ النَّسبِ في قريش ، فقامَ وأخذ ذلك الفرث ، وجاءَ به ، ثمّ ألقاهُ على ظهْرِ النَّبيّ ﷺ وهو ساجدٌ ، والقومُ ينظرونَ لفعلةِ عقبةَ النّكراء ، فاستضحكُوا في سخريةٍ ، وأخذ بعضُهم يميلُ على بعضٍ من شدّة الضَّحكِ والاستهزاء ، ولم يجرؤ أحدٌ من المسلمين الذي كانُوا بالمسجد أن ينحّيهِ عن ظهرِ النّبيّ ﷺ ، أو أنْ يصنَعَ شيئاً ، لأنَّ بعضَهم كان منَ المستضعفين ، وظلَّ النّبيُّ ﷺ ساجِداً ، وإذا بالطّفلة فاطمةَ ابنته قد أقبلت ، ورأتْ ما صنَعه ذلك المجرمُ من إلقاءِ الرَّوثِ بين كتفَيْه الشَّريفَيْن ، هنالك أسرعَتْ مذعورةً نحو أبيها ، وألقتِ الرَّوثَ منْ علىٰ ظهرِه الشَّريف الطَّاهر ، وغسلَتْ ما لحقَ به من أذى ، ثمّ إنّها نظرتْ بعينيها البريئتَيْن إلىٰ الرّعديدِ الجبَانِ أبي جهل ، وإلى العدوّ المغموز بنسبِهِ عقبةَ بن أبي معيط ومَنْ كان معهم من المستهزئين السَّاخرين كَشَيْبَةَ بن ربيعة ، وأُبّي بنِ خَلف ، والوليد بن عتبةَ ، وآخرون عُمُوا عن الحقّ ، وصمّوا عن سماعِ كلماتِ النُّور والهدى ، ثمّ أخذت تدعو عليهم وتسبّهم وتشتمُهم ، وكانَ صوتُها اللطيفَ البريءُ النديُّ يملأُ قلوبَهم الحاقدة فيزلزِلُها ، ولكنّهم لم يستطيعُوا أنْ يقولُوا لها شيئاً.

* ولما أنْ قضىٰ رسولُ الله ﷺ صلاتَه ، توجَّه نحو الكعبةِ ضارعاً ، ورفعَ يديه وقال: «اللهم عليك بشيبةَ بن ربيعَة ، اللهمّ عليك بأبي جَهْل بن

هشام ، اللهم عليك بعقبةَ بنِ أبي مُعيط ، اللهم عليك بأمية بنِ خلف».

* ولما أنْ سمعَ هؤلاء دعاءَ رسولِ الله ﷺ عليهم بأسمائِهم ، خشَعَتْ منهم الأصواتُ ، وتلاشتِ الضَّحكات ، وهدأتِ الأَنْفاسُ ، وغابَ عنهم الفرحُ ، وخافُوا دعوتَه خوفاً شديداً ، وغضّوا أبصارهم ، فقد أدركوا سَفَهَ ما يعملون ، وظُلْمَ ما يقترفون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٧٧](١).

* وتمرُّ الأيّام في أُمّ القرىٰ مكة ، وتزدادُ فاطمةُ إحاطةً بالأحداث ، وتعي ما تكنُّ صدورُ المشركين منَ البغي والحَسدِ لأبيها وللإسلام. فقد اضطرمتْ قلوبُهم بنيران الحقدِ ، وبدتِ البغضاءُ من أفواهِهم ، وما تخفى صدورهم أعظمُ ، وممّا زادهم حقْداً علىٰ حقْدٍ ، وسَفهاً على سَفَهٍ ، أنْ جذبتِ الدَّعوةُ المحمديّةُ زهرةَ شبابِهم وصفوةَ فتيانهم وفتياتهم ، فراحُوا يذيقونَهم ألوانَ العذاب ، كيما يتركونَ دِينهم ، ولكنْ أنّى لهم ذلك ، فمن تذوَّق حلاوةَ الإيمان تهونُ عليه أحقادُ المشركين.

* وبدأ الفجرةُ يدبّرون المكائدَ وينصبونَ المصايدَ لكيدِ الدّعوةِ ، وكيدِ رسولِ الله ﷺ ، وعلمتِ الزهراءُ ذاتَ مرّة بكيدهم فخافَتْ على أبيها ، ثمّ أخبرته ، فأعلمها بحفْظِ الله له؛ ترى كيف كانَ ذلك؟!

* كان ذلك في الحرم قريباً منَ الكعبةِ ، فقد خرجتْ فاطمة ذات مرّة إلى المسجد ، فبصرتْ عن جنبٍ ثلةً من مجرمي قريش يتوسّطُهم أبو جهل بنُ هشام ، وكانوا جالسينَ في الحِجْرِ بِظِلِّ الكعبة ، فأصاخَتْ بسمعِها ، فإذا بهم يتحدّثون عن محمّدٍ ﷺ وأصحابِهِ ، وعمن تبعَهم منَ المؤمنين ، وقفزتْ كلمةٌ إلى سمعها فإذا بأبي جَهْل ومَنْ معه يقولون:

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠) ، والبداية والنهاية (٣/ ٤٤) مع الجمع والتصرف ، وللقصة أصل في صحيح البخاري وغيره.

إذا مرّ محمدُ بنُ عبد الله فليضربْهُ كلٌّ مِنّا ضَرْبَةً.

* ولم تملكْ فاطمةُ نفسَها ممّا سمعت منْ هؤلاءِ الفجرةِ، فعادت تبكي وأخبرتْ أباهَا ﷺ بما سمعَتْ، وكانت ترتجفُ منْ هولِ ما كانُوا يبيّتُونَ لرسولِ الله ﷺ.

* ونظرَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلى طفلتِهِ الصَّغيرةِ فاطمةَ، ورأىٰ خوفَها، فلمسَ رأسَها بمسحةٍ حانية، وقال لها: «يا بُنيةُ لا تبكي فإنَّ اللهَ تعالى مَانِعٌ أباكِ».

ولكي يثْبِتَ لها النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يمنعُه، وهو خيرٌ حافِظاً، قامَ فتوضّأ ثم توجَّه نحو المسجدِ فدخلَ عليهم، فرفعُوا أبصارِهم فرأوه، ثم نُكِسُوا على رؤوسِهم، واضطربتْ أفئدتُهم من بينِ أضالِعهم، فأخذَ قبضةً من تُراب المسجدِ ثمّ رمى بها نحوهم وقال: «شاهتِ الوجوهُ» ووقفَ النّبي ﷺ يصلّي، وأطالَ في سجودِه، ولمْ يقدروا أنْ يتكلّمُوا بحرفٍ واحد، ووقفوا ينظرونَ النَّبي ﷺ وقد ركبهم الخوفُ والهَلَع.

* ولطفولةِ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ طعمٌ خاص عند محبّي أطفالِ الصّحابة، فكيفَ بابنةِ النّبي ﷺ؟!

لقد نالتْ فاطمةُ نصيباً منَ الأذى، واحتملتِ المكروه وما تزالُ طفلةً صغيرةً؛ فقد ضربَها مرّةً أبو جَهْل بكل ما يملكُ منْ حقْدٍ؛ وما يملك من سَفَهٍ وحقَارة.

* تذكرُ المصادرُ أنَّ سيدتنا فاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ مرّتْ ذاتَ يوم بالقُرب من اللعينِ أبي جهل بنِ هاشم، فرمقهَا شزراً، فإذا بالأحقادِ تفورُ في داخِله، وتطغىٰ عليه، فرماهَا بنظراتٍ ملؤها القسوةُ والحقْدُ، ثمّ قامَ إليها فلطَمها لطمةً شديدةً أفرغَ فيها حقْده وكراهيتَه لها ولأبيها محمّدٍ ﷺ.

* وتألمتِ الطفلةُ فاطمةُ لتصرّفِ هذا النَّذلِ الجبَان، الذي تطاوَلَ

على طفلةٍ بريئة لا تملك شيئاً ، ولا ذَنْبَ لها فضربَها ضربَ الحاقدين ، والذي يضربُ مثل هؤلاء البنات البريئاتِ ليس له قيمةٌ في مجتمع يَزِنُ أفعالَ الرجالِ بميزانٍ دقيق.

* وحانتْ من فاطَمة التفاتةٌ فرأتْ أبا سُفيان بنَ حرب قريباً منها ـ وكان حاكماً في قريش ـ فذهبتْ إليهِ وأخبرتْهُ بفعْلَةِ أبي جهل النّكراء ، فغضبَ أبو سُفيان لها ، ورجعَ بها نحو أبي جَهْل ، وقال لها: الطميهِ قبّحه اللهُ.

* فرفعتْ فاطمةُ يدهَا ولطمتْ أبا جَهْل كما لطَمها ، فنكسَ رأسه خزياً ، ولأنَّ ما فعله منْ جملةِ النَّذالةِ وفعلِ الأشرار؛ ثمّ ذهبَتْ فاطمةُ إلى أبيها رسول الله ﷺ وأخبرته بما حَصَل ، فقال: «اللهمّ لا تنْسَها لأبي سُفيان» ، وقد استجابَ الله عزَّ وجلَّ لرسولِه هذا الدّعاء ، فأسلمَ أبو سفيان فيمن أسلمَ عام الفتح ، و انتظمَ في سلْكِ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

* هذا وأخبارُ طفولةِ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ تملأُ الصَّفحات وقد استوفيناها في كتابنا الشّهير «نساء أهل البيت» ، واكتفينا هنا بقبساتٍ وضيئات منها ، لنحليَ هذا الكتاب بها ، وننشط السَّامعَ والقارىء ، واللهُ وحده يعلمُ ما نرمي إليه من فائدةِ وإفادةِ القُراء الأحبّاء ، فسيرةُ طفولةِ سيّدتنا فاطمة الزّهراء لا تُحْصَرَ في بضع صفحات ، ولا يستطيع كاتب مهما بلغَ من البلاغَة أنْ يوجزَ أخبارَها ، أو ينظمها في هذه العُجالة ، و:

لهَـا صَحـائِـفُ أخْـلاقٍ مهـذّبـةٍ　　منْها الحِجىٰ والعُلا والفَضْل يُنْتَسَخُ

* وسيدتنا الزّهراء هذه تعبقُ منْ سيرتها أنفاسُ النّبوة ، فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جمعَ لها حِسَان المناقبِ ، فاختارتْ منها وانتقَتْ ، ورأتْ أنَّ أحسنَها وأكرمَها العلْمَ والتّقوى ، فبلغَتْ بذلك الكمالَ ، فكانَتْ من كُمَّلِ النِّساء. و:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ السَّعَادةَ نَالَها   إنَّ السَّعَـادَةَ أصْلُهَـا التَّخْصيـصُ

* فرضي اللهُ عن فاطمةَ ، وحشرَنا في معيّتِها ، وأدخلنا في رحمتـهِ ، وأكـرمنـا بفضلِـه ، وجعـلَ أطفـالنَـا ينهجـون نهـجَ أطفـالِ الصَّحابة ، هدانا جميعاً إلى صراطهِ الحميد.

* * *

الفصل التاسع

أسْمَاءُ بْنتُ أَبي بَكْر ـ رضي الله عنها ـ

* نفحاتٌ بكريّةٌ وأنداءٌ صِدّيقيّةٌ تهبُّ علينا في هذا الفَصْلِ الميمونِ الذي نعيشُ أحْداثَه مع طفلةٍ ، بل بطَلَةٍ من نساءِ الإسلام اللواتي رسمنَ آثاراً حِسَاناً في دنيا الحسْنِ والفَضْل والمكَارم .

* ومن مِنَّا لا يعرفُ سيرةَ أسماء بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما ـ الفِدائيّة ـ التي أدهشتِ العالَمَ بحصافِتها وجرأتها في سِنّ الزّهر وعمر الوَرْد .

* ورثتِ الفضائلَ كَابِراً عن كابرٍ منْ أبيها شيخ الصَّحابة ، وصِدِّيقِ الأُمّةِ ، وجوادِ الصَّحابةِ ، ومَنْ مَسَاعيهِ في الإسلامِ جلَّتْ وعظمَتْ ، ولا تُقَدَّرُ ولا تُحصىٰ بِعَدٍّ ولا حَصْرٍ .

وفَي الغَارِ ثاني اثنَيْنِ وَاللهُ ثَالِثٌ بِنَصِّ كَلامِ اللهِ في مُحْكمِ الذِّكْرِ

* فأبوها رأْسُ البيتِ البكريّ ، ذلك البيت الثّابتُ الأصولُ في منابتِ العزّ ، والمتطاولُ في سماءِ الرِّفعةِ؛ وأبوها رأْس صِدّيقي الصَّحابةِ الرِّجالِ ، ومَنْ كالصِّديقِ صاحب النّبيّ ﷺ في رحلةِ الهجرة ، وفي الغَار؟! فهنيئاً لكِ أسماءُ هنيئاً : فـ

ثَـانـيَ اثْنَيْـنَ مَـنْ أَتَـتْ فـي أبيْهَـا آيـةُ المَـدْحِ فـي كَـلامِ البَـاري

هُـو قَـوْلُ الإلـهِ فيْـهِ تَعـالـىٰ ﴿ثَاني اثنَيْنِ إذ هُما في الغَار﴾

* والصِّدِّيق لا يُدانيهِ رجُلٌ في أصحابِ النَّبي ﷺ و:

لا تُفَضِّلْ علىٰ العَتيقِ صَديْقاً   فهوَ صِدِّيقُ أحْمَدَ المُختارِ
وَإِنِ ارتبْتَ في الأَحاديثِ فاقْرَأْ   ﴿ثَانيَ اثنَيْنِ إذْ هُما في الغَارِ﴾[1]

* وفي هذا الجو الجميلِ المتشبّعِ بأنوارِ الإيمان، وظلالِ الصِّديقيّة كانت نشأةُ أسماء بنتِ أبي بكْر، فقد فتحتْ عينيها على أبٍ كريم، ولما كانت في سنّ الطُّفولة، أذِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لنورِ الإسلام أنْ يشرقَ من مكّة، فقد بعثَ الله عزَّ وجلَّ محمّداً رسولاً نبيّاً من قريش، وأخذَ يدعو النَّاسَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويدعو أصدقاءَه، فجذبتْ أنسامُ دعوتِهِ صدِيْقَه أبا بَكْرٍ الذي أجابَهُ إلى الدِّين.

وَلَـمْ يتلَعْثَـم بـالإجَـابـةِ عنْـدَمَـا   دَعَاهُ إلى الإسلامِ خيرُ الورى الطُّهْرِ
فقَـالَ نَعـمْ واللهِ إنَّـك صَـادِقٌ   وَإنّكَ أنْتَ المُصطفىٰ منْ بني فِهْرِ

* وعاد الصِّدِّيق إلى بيته، وعرضَ على ابنتهِ أسماء الإسلام، فأسلَمَتْ وهي صَغيرة[2] في سنّ الطُّفولةِ لم تشبّ عن الطّوق، ولعلّها لم تكن في ذلك الوقتِ قد اشتدَّ عودها.

* وفي تقديري أنَّ أسماء ـ رضي الله عنها ـ كانت أوّل بنْتٍ من بناتِ الصَّحابة تدخلُ في الإسلام، وبذلك تسجّلُ سبقاً جميلاً مع الأطفالِ الذين تأثّروا برسولِ الله ﷺ وتحلّقُوا حولَه.

* تذوّقَتْ أسماءُ حلاوةَ الإيمانِ منذ أنْ دخل قلبَها الصَّغيرَ، وراحتْ ترقُبُ ما يجري من أحداثٍ في مكّةَ، فهذهِ جموعُ قريش ترصدُ حركَاتِ أبيها الصِّدِّيق الأكبر، الذي نشِطَ في الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وجَذَبَ إلى الإسلامِ عدداً منْ أكابرِ قريش وأعلياءِ شبابِها، فقد أسلمَ على يديه ثلّةٌ منَ

---

(١) اقتباس من سورة التوبة آية (٤٠).

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٠).

السَّابقين الأوّلين ، وفئةٌ كانَ لها أعظم الأثرِ في ظهورِ وانتصارِ الإسلام فيما بعْدُ ، ومنهم: عثمانُ بنُ عفّان ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف ، وطلحةُ بن عُبيد الله ، وسعيد بنُ زيد وغيرهم.

* وبالمقابل نَشِطَ المشركون ، وطفقُوا يذيقون المسلمينَ صنوفَ العذابِ ، وتحمّلَ أبوها شيئاً منَ العذاب يوم أنْ قامَ خطيباً يوم كانتِ الدّعوةُ في مرحلةِ الاستسرار ومرحلةِ البدايةِ ، وفي السُّطورِ التَّاليات نميطُ اللثام عن ذلك ونرىٰ موقفَ الطّفلة أسماء.

* فتذكرُ المصادرُ أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان أوَّل خطيبٍ دعَا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإلىٰ رسولِ الله ﷺ ، وذلك في المسجدِ الحرام ، يومَ أنْ حاولَ المشركون أنْ ينالُوا منَ النّبي ﷺ ، فقامَ ودعا اللهَ وقال لهم: أتقتلون رجُلاً يقول ربّي الله؟!

فثارت حفيظةُ المشركين يومَها ، فانهالوا علىٰ أبي بكرٍ يضربونَه ، وأقبل الفاسقُ عتبةُ بنُ ربيعةَ فضربَه ضَرْباً مبرحاً حتى أُغميَ عليه ، وحتى ظنَّ أهلُه وذووه أنَّه ماتَ ، وأقسموا أغلظَ الأيْمانِ لئنْ نالَه سوءٌ لينالُنَّ من عتبةَ بنِ ربيعة.

* وحُمِلَ أبو بكر إلى بيتهِ وهو مغشيٌّ عليه ، ورأتْهُ أسماءُ على تلك الحالة ، فراحتْ تدعو علىٰ مَنْ ضربَه ، وتتألّم أشدَّ الألم على أبيها؛ وظلّتْ حالُ أبي بكر سيئة إلى أن آذنتْ شمسُ النَّهار بالرَّحيل ، ولما زالتْ زالَ عنه ما كانَ فيه ، وأفاقَ ، وفتحَ عينيهِ ، فاستبشرتْ أسماءُ ونساءُ البيتِ البكريّ وفيهم جدّتُها أمُّ الخير سلمى بنتُ صَخْر والدةُ أبيها ، فكان أوّل ما تكلَّم بهِ أبو بكر أنَّه سألَ عن حبيبهِ رسولِ اللهِ ﷺ وقال: أخبريني يا أسماءُ ماذا فعلَ رسولُ اللهِ؟! وما حالُ رسولِ الله؟! وهل نالَه أحدٌ بأذى؟!

* فقالت له: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سالمٌ صحيح؛ ولما علمَ سيّدنا أبو بكر

بذلك، نهضَ نَشِطاً وسُرَّ بسلامةِ رسولِ الله ﷺ، وسألَ أسماء: أينَ يكونُ رسولُ اللهِ الآن؟

فقالت: هو في دار الأرقم بنِ أبي الأرقم مع صَحْبِهِ.

* وأسرعَ أبو بكر إلى لقاءِ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ، وذهبَ إلى دارِ الأرقم ومعه أمُّه أمُّ الخير سلمى بنتُ صخر حتى دخلَ على رسول الله ﷺ الذي تألَّمَ لحالِه، لكنَّ آلامَه تلاشَتْ أمامَ الحبيبِ المربيّ الذي أخرجَه من ظلماتِ الجاهليّةِ إلى نور الإسلام، ومن ثمَّ سألَ أبو بكر النّبيَّ ﷺ أنْ يدعوَ اللهَ لأمِّه لتكونَ منَ المسلمات، فدعَا لها النّبيُّ ﷺ ربَّه وتضرَّع إليه أنْ يكشفَ عن بصيرتها وأنْ يبصِّرَهَا الخيرَ، فأسلَمَتْ، وكانتْ منَ السَّابقاتِ المؤمناتِ إلى ساحةِ الإيمانِ ودوحةِ الإسلام، وفرحتْ حفيدتُها أسماءُ فرحاً شديداً بإسلامِها وانضمامِها إلى ركْبِ المؤمنين والمؤمنات، ورأتْ في دخولِ جدتها الإسلامَ أنَّ الأسرةَ الصِّدّيقيّة البكريّة قد أضحتْ متفردّةً بين الأُسَرِ المكية بالتّضحية والفداء، فقد كانت أسماء تعْلَمُ أنَّ جدَّتَها هذه من نجيباتِ النّساء، وأنَّها قد ربَّت أباهَا الصِّدِّيقَ علىٰ كلِّ فضيلةٍ، وفطمتْهُ علىٰ كلّ مكرمةٍ، حتّى بلغَتْ شهرتُه السُّهَا، وصارَ وزير المصطفىٰ ﷺ؛ وربّما رَوَتْ لها جدّتُها سلمى هذه أشياءَ جميلةً عن طفولةِ والدِها أبي بكر الصِّدّيق العتيق ـ رضي الله عنه ـ من مثلِ ما ذكره محمّدُ بنُ ظفْر الصِّقْلّي في كتابِه «أنباء نُجباء الأبناء» حيث ذكرَ ما مفادُه عن طفولةِ أبي بكر الصِّدّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فقال: وبلَغني أنَّ سلمىٰ بنتَ صخر ـ وهي أمُّ أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه ـ أرضعَتْه أربعَ سنينَ عَدَداً، ثمّ إنّها أرادتْ فِصَالَهُ وفطَامَه، فوضعتْ على ثديها صَبِراً، فلمّا وجَدَ طعْمَه قال لها: يا أمّاه اغْسِلي ثَدْيَك فإنّي أجِدُ فيه طعمَ المَرار.

فقالَتْ له: يا بُني، إنَّ لَبَني قَدْ فَسَدَ، وصار طعمُه رديئاً مكروهاً خبيثاً.

فقال لَها: يا أمّاه إنّي وجدتُ طعمَ اللبن طيِّباً قبل أنْ تَضَعِي المرارَ، فاغْسِلي يديَك، وإن كنتِ قد بخلتِ عليَّ بلبانِك، فإنّي أصدُّ عنه، ولا أرضعُ.

* وهنالك استطارَ قلبُها فَرحاً، ثمَّ ضمّتْهُ إلىٰ صدرِها وقبّلتْه ورشفتْه، ثمّ جعلَتْ ترقِّصُهُ وتقولُ وهي نشوىٰ ممّا سمعتْ من همساتِ كلماتِه الحُلْوة:

يَا ربَّ عَبدِ الكَعْبَه أَمْتَعْ بهِ يا ربَّهْ
فَهو بصَخْرٍ أشْبَه[1]

* ثمَّ انتقلَتْ عن هذا الرّويِّ لِرَويّ آخرَ فقالَتْ:

عَتيقُ يا عَتيقْ ذو المنظَر الأنيقْ
وَالمَقْوَلِ الذَّليقْ كالمُصْعَبِ الفَتيقْ
رشفْتُ منْه رِيْق كالزَّرنَبِ الفَتيق[2]

* ثمّ تحوَّلَتْ عن هذا الرَّوي فقالَتْ:

بِأبي أنْتَ وفُوك المأشُور وكَلماتٍ كالجُمانِ المَنْثورِ[3]

---

(١) «عبد الكعبة»: هو اسمٌ كان لسيّدنا أبي بكْر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ في الجاهليّة فسمَّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ الله. و«هو بصخر أشْبَه»: تعني أبَاهَا، وهو صخر بنُ عمرو بنِ كعب بنِ تيم بنِ مرّة، فهي ابنة عمّ أبي قُحافة، وصخر عم أبي قحافة.

(٢) «المنظر الأنيق»: هو المُعجب المُسْتَحْسَن. و«المَقْول»: تعني به اللّسان، و«الذّليق»: الحادّ المَاضي. و«المصعب الفتيق»: المُصْعَبُ هو الفحْلُ منَ الإبل الذي لم يُذَلَّل وبه سمّي الرجل. و«الفتيق»: المكرَّمُ الممتلىء الجسم العَبْل. و«رشفت منه»: مصصت. والرشف هو المص. و«الزرنب»: يقال: إنّه نبتٌ طيّب الرائحة، ويقال إنّه أخلاط من الطّيْب.

(٣) «فوك المأشُور»: المأشور من الثغور ما في أطرافه حِدّة وتحزيز. و«الجمان المنثور»: جمعُ جمانة، وهي الدرّة، ويُقال لخرزٍ يُصاغ من الفضّة على صفة الدّر جمان.

* ثمَّ إنّها تحوّلَتْ عن هذا الرّوي إلى غيره فقالت:

مـا نَهَضـت وَالـدِةٌ عـن نِـدِّهِ   أَرْوَعُ بُهْلُـول نَسيـجُ وحْـدِه[1]

* ثمَّ إنَّ السُّرورَ استهْوَاهَا فهتفتْ بأعلى صوتها كما تهتفُ النّساء عندَ الفَرحِ؛ وصارتْ تقولُ مَنْ مثلِ تلكم التّرقيصات الجميلة، وفي هذه اللحظاتِ دخلَ عليها زوجُها أبو قحافة ورأىٰ حالَها فقال في دهشةٍ وغرابةٍ: مالكِ يا سلْمى؟ أَحَمُقْتِ؟ ولِمَ تهتفينَ هكذا؟!

فأخبرتْه بمقالةِ ولدِه، وما نطقَ بهِ، وما أجادَه منْ كَلماتٍ باهِراتٍ.

فقال لها: يا سلمىٰ، أتعجبينَ مِنْ هذا؟ فوالذي يَحْلِفُ به أبو قُحافة، ما نظرتُ لابنك قطّ إلاّ تبيّنْتُ السُّؤددَ في حَماليقِ عينَيْهِ[2].

* ولعلَّ أسماءَ كانْ تستمعُ إلى هذه القصّةِ الجميلة عن طفولةِ أبيها الصِّدِّيق، فسُرَّتْ أسماءُ سُروراً عظيماً بذلكَ، ثمّ إنّها توجَّهَتْ إلى اللهِ بالدّعاء أنْ يسْلمَ جدُّها أبو قحافة أيضاً كيما يكتمل سرورها بإسلامِه، ولأنَّ ذلك يسرُّ النّبي ﷺ أيضاً.

* وتمضي الأيّام بأسماءَ، وتكبرُ وتصبحُ زوجاً لبطلٍ من فرسانِ المدرسةِ المحمديّة هو الزّبير بنُ العوّام ـ رضي الله عنه ـ وكان لها أخبارٌ جميلةٌ معه، وتألّقَتْ أسماءُ في تضحياتها يومَ الهجرة وسمّيت «ذاتَ النِّطاقين» وأخبارها مبثوثةٌ في المصادر، ويمكنُ الرّجوع إليها في موسوعتنا «بنات الصَّحابة»، حيث يجدُ القارىءُ فيه ما يروي الغلّة، ولكنّنا

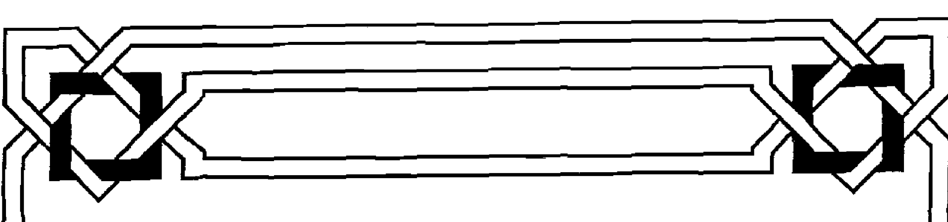
---

(١) «أروعُ»: هو الحسَنُ المنظرُ الذي يروعُ مَنْ يراه. و«بُهلول»: هو الحسَنُ الطّلاقةِ والبشرِ والهشَاشَةِ. و«نسيج وحده»: لا شبيه له، وأصله في الثوب النفيس، فإنه ينسج وحده، ولا يُنْسجُ على منوالهِ.

(٢) انظر: أنباء نجباء الأبناء (ص ٦٦ و٦٧)، وأغاني ترقيص الأطفال (ص ٦١ و٦٢) مع الجمع والتصرف.

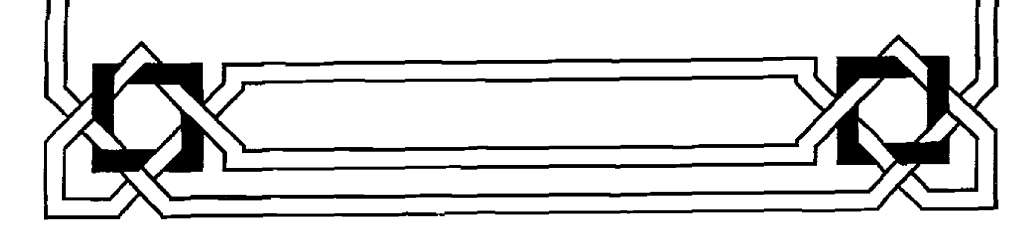
قد اكتفينا هنا بذكرِ بعض الجوانبِ المهمّة من طفولةِ أسماء ـ رضي الله عنها ـ لنزيدَ جمالَ الكتابِ جَمالاً.

* * *



الباب الثالث

النبي القدوة ﷺ في تربية الطفل وتعليمه



الفصل الأوّل
منْ معاني التّربيةِ ومدلُولاتِها

* كلُّنا يعلْمُ أنَّ مرحلةَ الطُّفولةِ هي مجالُ إعدادٍ وتدريبِ الطّفل للقيامِ بالدَّورِ المطلوبِ منه في الحياة؛ ولما كانتْ وظيفةُ الإنسانِ هي أكبرُ وظيفة ، ودورُه على ظهرِ الأرض هو أَعظمُ دور ، اقتضتْ طفولته مدّة أطول ، كيما تحسنَ تربيته ويحسنَ تدريبه للمستقبل ، ومن هنا كانت حاجةُ الطّفلِ شديدةً لملازمةِ أبويه في هذه الفترة منَ الزمن.

* ولما كان الأطفالُ هم أغلى ذخيرة على وجْهِ الأرض ، فقد حثَّت شريعةُ الإسلام على العنايةِ بهم ، وحسْنِ تربيتِهم وتأديبهم وتهذيبهم ، والرّفقِ بهم والعطفِ عليهم؛ كما أمرتِ الشَّريعةُ الغرّاء بتعليمِ الأطفال كلّ ما يعودُ عليهم بالنَّفع العميمِ في الدُّنيا وفي الآخرةِ ، وأوّلُ شيءٍ يُلقَّن لهم ، ويُلقىٰ في أسماعِهم ذِكْر الله عزَّ وجلَّ ، لأنّه أعذبُ الكلام وأطيبه ، وفي هذا يقولُ الحبيبُ المصطفى ﷺ «افتحوا علىٰ صبيانكم أوّل كلمة بـ لا إله إلا الله»[1].

* وقد فعلَ الحبيبُ المصطفى ﷺ هذا بنفسِهِ ، فقد ذكَرَ أبو رافع هذا فقال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ أذّنَ في أُذنِ الحسنِ بنِ عليّ حين ولدته فاطمة[2].

(١) رواه الحاكم بسنده عن ابن عباس، انظر: تحفة المودود بأحكام المولود (ص ١٧٣).
(٢) انظر: تحفة المودود (ص ٢٥).

* وفي حديثٍ آخر أنَّه ﷺ ، أذّنَ في أُذنِ الحَسنِ اليمنىٰ ، وأقامَ في أذنه اليُسرى[1] .

* ولعلَّ الحكمةَ في أذانِ رسولِ الله ﷺ في أُذنِ حفيده هي أنْ يكونَ أوّل ما يلامسُ سمْعَ المولودِ كلمات الأذان التي فيها الشَّهادة التي هي مفتاحُ كلِّ خيرٍ في الدّارَيْن ، فكانَ ذلك تلقيناً للطِّفلِ شعار الإسلام عند دخوله إلىٰ هذه الدّنيا ، كما أنّه يُلقَّن كلمةَ التَّوحيد عند خروجهِ من الدُّنيا ، وتلك هي حكمةُ الإسلامِ وتربيتُه العظيمةُ لسعادة الإنسان .

* والآن ، فما معنى التَّربية ، وكيف نفهمُها ونعرفُ مدلولها؟! جاء في «لسان العرب» ما مفادُه : رَبَّ ولَدَه والصَّبيَّ يربُّه ربّاً ، وربّبه تربيباً وتَرِبَّة ، بمعنى ربّاه ، وفي الحديث : «لكَ نعمةٌ تُربُّها» أيْ تحفظُها وتراعيها وتربيها ، كما يربّي الرّجل ولده . وترببه ، وارْتَبَّه ، وربّاه تربيةً : أحسن القيام عليه ، ووليه حتى يفارق سنّ الطُّفوليّة ، كان ابنهُ أو لم يكن .

والصَّبي مربوبٌ ، وربيبٌ ، والمربوبُ : المربّىٰ . وقال أحمدُ بنُ يحيى للقومِ الذين استُرضعَ فيهم النَّبيُّ ﷺ : أربّاءُ النّبي ﷺ ، كأنَّه جمعُ ربيب[2] .

* وفي «المعجم الوسيط» جاء أنَّ معنى التَّربية : ربَّ : الولد ـ ربّاً : وَلِيَه وتعهّده بما يغذّيه وينمّيه ويؤدّبه ، فالفاعلُ رابٌّ ، والمفعولُ مربوبٌ وربيبٌ ، وهي (بتاء) . والقوم : رأسُهم وساسُهم . وفي حديث ابنِ عبّاس مع ابن الزُّبير : «لأنَّ يَـرُبّني بنو عمي أحبُّ إلي من أن يَـرُبّني غيرُهم»[3] .

* وجاء في «معجم ألفاظِ القرآنِ الكريم» : ربّ الشَّيء يربّه ربّاً : ربّاهُ

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١٦) .
(٢) انظر : لسان العرب (١/ ٤٠١ و٤٠٢) بشيء من التصرف والاختصار .
(٣) المعجم الوسيط (١/ ٣٢١) .

ورعَاهُ ليبلغه كمَالَه[١]. وربَا في حجرِه يربو ربواً وربوّاً: نشأَ، وربا في بني فلان: نشأَ فيهم، وربَّاه تربيةً: نمّاه ونشَّأَه، أو أنَّ أصلَه ربيه، فقلبت الباء ياء للتَّخفيف، ومنه: ربيانـي: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

نـربّـك: ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨][٢].

* وقد لاحظنا أنَّ التَّربية تدورُ حولَ عدّة معان من مثل: نشأَ، تثقَّفَ، تغذّى، ونَما، وعملَ، وزادَ، وعلا، وما شابَه ذلك، هذا في معاجمِ اللغة.

* أما مدلولُ التَّربية بوجهٍ عام، فتُطلَقُ على ما يلحقُ الإنسان في مختلفِ أدوارِ حياته من مؤثّراتٍ في جسمه، أو عقلِه، أو خلقِه، سواء أكانتْ مدَبّرة مقصودة أمْ حدثَتْ من تلقاءِ نفسها.

* والمقصود بمختلفِ أدوار الحياة ما يشمل الأدوار الأولىٰ السَّابقة للولادة، وهي أطوارُ الجنين، فجميعُ ما يلحقُ الإنسان في هذه الأدوارِ نفسها من يوم أنْ تحمّلَ به أمّه إلى يوم ولادته من مؤثّرات وراثيّة أو غير وراثيّة يدخلُ في مدلولِ التَّربية بمعناها العام، كما يدخلُ فيه جميع ما يلحقه من مؤثّرات بعد ولادته من مهدِهِ إلى لحدِهِ[٣].

* إنَّ التَّربيةَ نظامٌ اجتماعيٌّ، وتربيةُ الإسلامِ تقومُ على أمريْن هما: القرآن الكريم والسُّـنَّـة المطهّرة، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أمورَ التَّربية ومدلولاتها من خلالِ إرشاداته لنا إلى الطّريقِ القويمِ في هذا المجال.

* * *

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم (١/ ٤٤٤).
(٢) المرجع السابق عينه (١/ ٤٥٢ و٤٥٣).
(٣) انظر: الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ١٩٦) بتصرف يسير.

الفصل الثّاني
أثرُ تربيةِ النَّبيّ ﷺ في الطِّفل

* النَّبيُّ محمّدُ ﷺ خاتَمُ الأنبياءِ والمرسلين ، أنبتَه اللهُ نباتاً حسَناً ، وربّاه منذُ الصِّغر أفضلَ تربية ، وحبَاه في كبرِه فضائلَ الأخلاقِ ومكارمها ، ليكونَ للعالمين قدوةً وبشيراً وهادياً ومربياً .

* وكلُّنا يعرفُ مراحلَ الطُّفولة النَّبويّة ، فقد ماتَ والدُ النَّبيِّ ﷺ وهو ما يزالُ جنيناً في بطنِ أمِّه ، ثم ماتت أمُّه وهو طفلٌ صغيرٌ طريُّ العودِ ، فعاشَ عند جدّه عبد المطلب الذي كان يحبُّه ، ولكنَّه سرعان ما قضىٰ نَحْبَـه ، والنَّبيُّ ﷺ في ذِرْوةِ طفولتهِ ، وهذا كلّه لحكمةٍ أرادَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ ، ليكونَ حافظاً ، ويُصنعَ على عينه .

* ولهذا فقد كانت طفولةُ النَّبيّ ﷺ حافلةً بألوانٍ عديدةٍ من الإشراقاتِ الإلهيّة التي جعلتْ منه قدوةً للعالمين ، ورحمةً لهم أيضاً صغاراً وكباراً .

* وكانتِ الطّفولةُ والأطفالُ ذات مكانةٍ عظمىٰ عند الحبيبِ الأعظمِ ﷺ ، فكان لهم نصيبٌ كبيرٌ من نفسه ، ولم يكنْ ﷺ يفرّقُ في معاملته معهم بين طفلٍ قريبٍ أو بعيدٍ ، وهذا ما ستفصحُ عنه السُّطور التَّاليات .

* حدَّث عبدُ الله بنُ الحارث قال : كانَ رسولُ الله ﷺ يصُفُّ عبدَ الله

وعُبيد الله ابني العبّاس ويقول: «مَنْ سبقَ إليَّ فَلَه كذا» ، قال: فيستبقونَ على ظهْرِه وصدرِه فيقبّلهم ويلزمهم.

* ويروي عليُّ بنُ أبي طالب قصّةَ عطفِه ﷺ ، وآثارَ تربيته الجميلة لحفيديه فيذكر: أنَّ النَّبي ﷺ كان قاعداً في موضعِ الجنائزِ ، فطلعَ الحسنُ والحسينُ فاعتركا ، فقال رسولُ الله ﷺ ـ وعليٌّ جالس ـ: «ويهاً[1] حُسين خُذْ حسناً».

فقلت: تؤلِّبُ على حَسَن ، وهو أكبرُهما يا رسولَ الله؟

فقال: «هذا جبريلٌ قائمٌ وهو يقولُ: ويهاً حَسَناً خذ حسيناً».

* إنَّ جبريلَ عليه السَّلام يشجِّع حَسَناً على حُسين ، والحبيبُ المربّي يشجّعُ حُسين على حسن ، ليكونَ لكلّ مَنْ يشجّعه.

* وكان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يلاعبُ الأطفال بيده الشَّريفة ، ويجعل الحسن والحسين على ظهرِه الشَّريف. فعن جابرِ بنِ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: دخلتُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وهو يمشي علىٰ أربع ، وعلى ظهره الحسنُ والحسينُ وهو يقول: «نِعْم الجملُ جملكما ، ونعْم العدلان أنتما».

* وأمّا أثرُ الحبيب المصطفى ﷺ في أطفالِ النَّاس وأطفالِ أصحابه ، فكانَ شيئاً جميلاً يجعلُ الأطفال في سعادةٍ غامرة ، وحبٍّ شديدٍ للحبيبِ المربّي ﷺ.

* من الأمثلةِ التي نستطيعُ أنْ نوردَها على ذلك ، ما ذكره عطاءُ بنُ يسار قال: كان أسامةُ بنُ زيد قد أصابهَ الجُدري أوّل ما قدمَ المدينَة وهو غلامٌ ، مخاطُه يسيلُ على فِيْهِ ، فتقذَّرَتْه عائشةُ ، فدخلَ رسولُ اللهِ ﷺ فطفقَ يغسلُ وجههَ ويقبّله ، فقالت عائشة: أمَا واللهِ بعد هذا فلا أُقْصيه أبداً.

* ومن آثارِ التّربيةِ المحمديّةِ التي تركَتْ بصماتها في نفسِ عائشةَ أيضاً

---

(١) «ويهاً»: كلمة إغراء وتحريض ، كما تقول: دونك يا فلان.

ما روتْهُ ـ رضي الله عنه ـ قالت: عثرَ أسامةُ بنُ زيد بعتبةِ الباب ، فشُجَّ في وجههِ ، فقال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «أميطي عنه الأذىٰ» ، فتقذرتُه ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يمصُّ الدَّم ويمجُّه في وجههِ وهو يقول: «لو كان أسامةُ جاريةً لكسوتُه وحلّيتُه».

* إنَّ هذا اللونَ وهذا الأثرَ التَّربويَّ يغرسُ الثِّقةَ بنفسِ الطِّفْل ، ويجعلُه متفائلاً بالحياةِ ، لأنَّه من يرعاه ويحوطه ويحنو عليه ، وعندها لا يبقىٰ في نفسه مكان للحرمانِ أو الحزنِ أو الكبْتِ ، وهذه التَّربيةُ النَّبويةُ الممزوجةُ بالعطفِ تصنعُ المعجزاتِ ، وتبعثُ العبقرية ، وتوقظُ الطّموح عند الطّفل ، وتنمّي العقلَ والذَّوق والوعي عنده ، فأكرمْ بهذهِ التّربية وأعظِمْ بها!.

* * *

الفصل الثّالث
بواكيرُ تَعْليمِ الطّفل في عَصْر النُّبوّة

* هذا فصلٌ مهمٌّ من بينِ فصولِ هذا الكتاب ، لأنّنا نطّلعُ من خلالهِ على أهميةِ الكتابةِ والخطِ والقراءةِ عند الأطفالِ المسلمين في عهدِ النُّبوّة ، كما نتعرّفُ أحوالَ أطفالِ الصَّحابة ، وأطفالِ التَّابعين ، وغيرهم منَ العُلماءِ والكبراءِ في التَّاريخ الإسلامي .

* وهناكَ سؤالٌ يطلعُ علينا مفاده: أينَ كانَ الأطفالُ يتلقّون معارفَهم الأوليّةَ في عصْرِ النّبوةِ والخلافةِ الرَّاشدة؟ وما المعارفُ الأوّليّة التي كان يتلقّاها الأطفالُ في بدايةِ طلبِ العِلْم؟ وهل توجدُ مدارسُ أو كتاتيب عَصْر ذاك؟ وخصوصاً في المدينةِ المنوّرةِ عاصمة الدّولة الإسلاميّة؟ .

* نستطيعُ أنْ نقولَ: إنَّ تعليمَ الكتابةِ للأطفالِ قد بدأَ مبكّراً في المدينة المنوّرة ، وكان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يحثُّ الصَّحابَة الذين يجيدون الكتابةَ على تعليمها للنَّاس وخصوصاً للأطفالِ ، وكان هناك عددٌ من الصَّحابةِ والصَّحابياتِ يعرفونَ الكتابة والقراءةَ ، منهم عبادةُ بنُ الصَّامت ، والشَّفَّاءُ بنتُ عبد الله القرشيّة التي علَّمَتْ حفصةَ أمَّ المؤمنين الكتابة ، وغيرهما كثيرون .

* ولعلَّ أوّلَ حملةٍ صحيحةٍ لتعليمِ أطفالِ المسلمين الكتابة والقراءة كانت بُعيدَ غزاةِ بدرٍ الكبرى؛ وعند السُّهيلي في «الرّوضِ الأُنف» الخبرُ

اليقين عن هذا المجالِ فيقول: كان منَ الأسارىٰ يومَ بدر مَنْ يكتب ، ولم يكنْ من الأنصارِ يومئذ أحدٌ يحسنُ الكتابةَ ، فكان منهم ـ من الأسارىٰ ـ مَنْ لا مالَ له ، فيُقبل منه أنْ يعلّم عشرةً من الغِلْمان الكتابةَ ويُخلّىٰ سبيله ، فيومئذ تعلَّمَ الكتابة زيدُ بنُ ثابت في جماعةٍ من غلمانِ الأنصار.

* وعند الكتّانيِّ خبرُ يقيني آخر في كتابه «التَّراتيب الإدارية» حيث نقلَ عن الهوريني قوله: لم تكثرِ الكتابةُ العربيّةُ في المدينةِ إلاّ بعد الهجرةِ النَّبويّة بأكثرَ من سنة ، وذكر قصّة أسارى بدْر ، ثمّ قال: فبذلك كثُرت فيهم ـ في أهلِ المدينةِ الكتابة ـ حتى بلغت عدّةُ كتّابه عليه الصَّلاة والسَّلام اثنين وأربعين رجلاً.

* وفي كتابه النَّفيس «المعارف» ذكر ابنُ قتيبةَ مكانة الخطِ والكتابةِ عند العربِ فقال: وكانتِ العربُ تعظّمُ قَدْرَ الخطِّ ، وتعدُّه من أجلِ نافع ، حتى قال عِكْرمة: بلغَ فداءُ أهلِ بدر أربعة آلاف ، حتى إنَّ الرَّجلُ ليفادَىٰ على أنَّه يُعلِّم الخط ، لما هو مستقرٌّ في نفوسِهم منِ عظمِ خطره ، وجلالة قَدْره ، وظهورِ نَفْعه وأثره ، وقد قالَ اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥] ، فوصفَ نفسُه بأنَّه علّم بالقلم ، كما وصفَ نفسه بالكرم ، وعدَّ ذلك من نِعَمِه العظام ، ومن آياتِه الجسام ، حتى أقسمَ به في كتابه العزيز ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١] ، فأقسم بالقلمِ بما يُخطُّ بالقلم[١].

ولله درّ القائل:

إنَّ الكتـابـةَ رأسُ كـلّ صنـاعـةٍ وبهـا تتـمُّ جـوامـعُ الأعمـالِ

* والآن ، هل وُجِدَتْ في المدينةِ المنوّرة في عهدِ النُّبوّة مدرسة ، أو كُتَّاب يقصدُه الأطفالُ لتعلّمِ الكتابةِ والقراءة؟

---

(١) المعارف (ص ٥٥٢) بتصرف.

* نستطيعُ أنْ نلمسَ إشاراتٍ تهدينا إلى الإجابةِ الصَّحيحة عن هذا السّؤال ، وتدلُّ على وجودِ كُتَّاب عصر ذاك ، وذلك من إشارةٍ لطيفةٍ من قولِ ابنِ مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، إذ قال: قرأتُ من فِي رِسولِ الله ﷺ سبعين سورة ، وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكُتَّاب[1] .

* وعندما قدمَ الحبيبُ المصطفى ﷺ المدينة كان زيدُ بنُ ثابت ابن إحدى عشرة سنة ، ورأينا ـ قبل قليل ـ أنَّه تعلَّم الكتابَة من أسارى بَدْر في السَّنة الثَّانية من الهجرة ، ولعلَّ عبدَ الله بن مسعود يشيرُ إلى ذلك ، فقد فُرض على كلّ أسير أنْ يعلِّمَ عشرة من الغلْمان ، وهذا العددُ كان يجتمعُ عند المعلّم أيّاماً متواليةً حتى يتقنَ هؤلاء الأطفال الكتابة والقراءة .

* ولكنَّ بدايةَ تعليمِ الأطفالِ بشكل منظّم ، كانت بإنشاءِ الكتّابِ الذي يعلّمُ القراءةَ والكتابةَ فقط ، ثمّ نشأَ بعد ذلك الكتّاب الذي يُعلّم القرآنَ الكريمَ مستقلاً عن معلّمِ الكتابة .

* وتشيرُ كتبُ التَّواريخ الإسلاميّ إلى أنَّ بدايةَ إنشاءِ الكتَّاب لتعليمِ الأطفالِ الكتابة ، كانت بادىء الأمرِ على يدِ الموالي في الحجاز ، قال ابنُ العربي ـ رحمه الله ـ في كتابه المفيد النَّفيس «أحكام القُرآن»: وللقومِ في التَّعليمِ سيرة بديعة ، وهي أنَّ الصغيرَ فيهم إذا عقل بعثوه إلى المكتبِ فيتعلّم الخطّ والعربية ، فإذا حذقَه خرج إلى المؤدّب فلقّنه القرآن[2] .

* وينقلُ لنا الرَّحَّالةُ ابنُ جبير صورةً جميلةً عن تعليمِ الأطفالِ في البلادِ المشرقية ، واهتمام المعلمين بالخطّ والأشعار وغيرها فيقول: وتعليمُ

---

(١) رواه أحمد (١/٣٨٩) ، وانظر هذا بتوسع في موسوعتنا الضخمة «علماء الصحابة» .

(٢) من الجدير بالذّكر أنّ جمهرةَ الأطفالِ كانوا يحفظونَ القرآنَ الكريم إمّا عن آبائهم أو عن المعلمين ، أو عن طريقِ جهد شخصي ، بعد أنْ يتعلّمَ أحدهم القراءة والكتابةَ ، حيث ينظرُ في المصحف ويحفظه .

القرآنِ للصّبيان بالبلاد المشرقيّة ، إنّما هو تلقين ، ويعلّمون الخطَّ في الأشعار وغيرها ، تنزيهاً لكتابِ الله عن ابتذال الصِّبيان له بالإثبات والمحو ، وقد يكون في أكثرِ البلادِ الملقّن على حدة ، والمكتب على حدة ، فينفصل من التّلقين إلى التّكتيب ، ولذلك يأتي لهم حُسْن الخط[1] لأنَّ المعلمَ له لا يشتغلُ بغيره ، فهو يستفرغُ جهده في التَّعليم ، والصَّبي في التّعلّم كذلك[2] .

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ فقهاءَ المسلمين أوصوا بألا تكون الكتاتيب في المساجدِ ، فقد سُئل الإمامُ مالك ـ رحمه الله ـ عن ذلك فقال : لا أرىٰ ذلك يجوزُ ، لأنَّ الأطفالَ لا يتحفظون من النَّجاسة .

* وقد ورَد في كتبِ الحسْبَة : أنَّه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجدِ لأنَّ النَّبي ﷺ أمْر بتنزيهِ المساجد من الصِّبيان والمجانين ، لأنّهم يسوّدون حيطانها بالكتابة ، ولا يتحرزون من النَّجاسات ، بل يتّخذ لتعليمهم حوانيت في الدّروبِ وأطرافِ الأسواق .

* وبعد أنْ ينهيَ الطّفلُ تعلّمَ الكتابةِ ومبادىءَ القراءةِ ، وبعد أنْ ينهيَ حفظَ القرآنِ الكريم في المكتبِ أو غيره ، فإنَّه ينتقلُ بعد ذلك إلى المسجدِ

---

(١) الخطُّ الحسنُ الجميلُ نعمةٌ عظمى منَ العزيزِ الجليل ، البارىء الكريم ، ولا يعرفُ هذه النعمة إلا من تذوّقها ، وكانَ لحُسْنِ الخط سابقاً مكانةٌ رفيعةٌ عند الخلفاءِ والولاة ، وقد أبدعَ فيه العربُ إبداعاً جعلَ أعداءهم منَ الروم وغيرهم يحسدونهم عليه ، وقد وصف أحمدُ بنُ إسماعيل خطاً حسناً فقال : لو كان نباتاً لكان زهْراً ، ولو كان معدناً لكان تِبراً ، أو مذاقاً لكانِ حلواً ، أو شراباً لكان صفواً. وقالوا: القلمُ قسيم الحكمة . وقال أفلاطون : الخطُّ عقالُ العقل .
(أدب الكتاب ص ٣٦) .
وقلتُ مرّة في أحد أصدقائي الخطّاطين :
خطّتْ أناملُه بدائعَ لفظنا ... فكأنّها من حسنها تتكلَّمُ
وأجادَ في مشْقِ الخطوطِ جميعها ... فقُدودُهَا ميّاسةٌ تترنمُ
(٢) انظر : رحلة ابن جبير .

ليتلقّىٰ علومَ الحديثِ والفقْهِ والمعارفِ العامة ، وفي مقدمتها اللغة العربية .

* وقد لخَّصَ الماوردي في كتابه «نصيحة الملوك» أهمية تعليم الطّفلِ العربية وعلومها فقال : فإذا بلغَ التّأديب ، والتّعليم ، فالوجهُ أنْ يبدأَ بتعليم القُرآن مع اللغة العربيّة ، لأنّها اللغةُ التي أنزلَ اللهُ بها كتابَه ، وخاطبَ بها في شرائع ديْنه ، وفرائض ملّته ، وبها بلَّغَ رسولُ الله ﷺ سنَّته ، وبها أُلِّفتِ الكتبُ الدَّينية ، والحكميةُ ، والجديّة ، والهزليّة ، وبها تكتب رسائلهم ، والصّكوك التي جعلَها اللهُ وثائق بينهم ، فلا بدّ للنَّاشيء في هذه الملّة من تعلمّها ، وإلا كان جاهلاً بالدِّين ، منقوصاً في الملل[1] .

* وعلى هذا الأساسِ المتين كان تعليمُ الطِّفلِ في عصرِ صدر الإسلام وما يليه ، فبلغَ الأطفالُ الثّريا بمعارفهم ، وضُرِبَ المثلُ بذكائِهم وفطنتِهم .

* * *

---

(١) انظر : نصيحة الملوك (ص ١٦٨) .

الفصلُ الرّابع
توجيْهَاتٌ نبويّةٌ في تَربيَةِ الطِّفْل

* الطّفلُ الصَّغيرُ أمانةٌ في أعناقِ الآباءِ؛ وعلى الآباء والمربّين أنْ يتخيّروا لأطفالِهم الزّاد الرُّوحي المناسب ، قبل أنْ تدهمَ الحياةُ بكلْكَلِها ، فمما يُنْسَبُ إلىٰ الأحنفِ بنِ قيس - أو غيره من حلماءِ وحكماءِ العرب - قوله : بادروا بتعليمِ الأطفال قبل تراكمِ الأشغال ، وإن كانَ الكبيرُ أوقَدُ - أو أوفَرُ - عقْلاً ، فإنَّه أشْغَلُ قلْباً - أو أكثر شغلاً - .

* ومن هذا المنطلقِ الجميلِ ذي الأرضيّة الغنيّةِ بالتّربيةِ القويمة يَحْسُنُ بالمربّي الحصيفِ أنْ يأخذَ بيدِ الطّفْل إلىٰ المعينِ المحمديّ لينهلَ منه ، كما أنَّ المربي نفسَه يأخذُ ما يناسبُ ويتناسبُ مع سنّ الطّفل ، فيغذّيهِ بالهدي النّبوي الذي يجعلُه فتىً كريماً طيِّبَ الخِلال ، مقتدياً بالحبيبِ الأعظم ﷺ؛ وعندما يربطُ المربّي الأطفالَ الصّغار بسيّدِ الأبرار ، يكونُ قد وفّىٰ بحقّهم وأدّى الأمانةَ التي حملَها علىٰ عاتقه؛ ففي الهدي النّبوي والسُّنَّة المُطهّرة زادٌ وفيرٌ للحياةِ والمعَاد ، وتُغْني الطّفلَ والمربّي عن النَّظرياتِ والتّوجيهاتِ الوافدةِ منْ هنا وهناك .

* ففي الهدي النَّبوي أقباسٌ روحانيةٌ لكافّةِ المؤمنين ، فهو ﷺ حريصٌ على نجـاةِ النَّاس ، وهدايتهم إلى طريـقِ الحقّ والخيـر ، فلقد صـدقَ اللهُ

إذ سمّاه: الرّؤوف الرّحيم فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ولقد كادَ حبيبُنا رسولُ الله ﷺ يهلكُ نَفْسَه أسفاً لانْفِلاتِ النَّاس وعدمِ إيمانِهم؛ إنَّه الرحمةُ المُهداة ، فكم تحمّل ما تعجزُ الجبالُ عن حملهِ من المَشقّة كي يكونَ النّاسُ مؤمنين.

* إنّه ﷺ المربّي المخلصُ ، والمعلّمُ النّاصح ، والموجّهُ الخبيرُ الذي لا يألو جُهداً في التّوضيح ، واستخدامِ الوسائل التي تقرّب الفكْرةَ وتجسّدها وتمنحُها التّأثير المطلوب. لقد أرسلَه اللهُ عزَّ وجلَّ إلى الخلقِ ليأخذَ بيدهم إلى طريقِ النّجاة ، ويكون الطّفلُ الصَّغيرُ والرّجلُ الكبيرُ سواء في الاستفادةِ منْ هديهِ الكريم وسبيلهِ القويم ، فكلامُه وتوجيهاتُه وتربيتُه دواءٌ شافٍ لمن أرادَ الصِّحّة والنّجاة في الدَّارين.

* وفي السُّطور التَّالياتِ سنقفُ وقفاتٍ وضيئاتٍ مع بعضِ التَّوجيهاتِ النّبويّةِ للطّفل ، وكيفَ كانَ ﷺ يغتنمُ الأُويقاتِ المناسبةَ لذلك ، كما أنّنا سنشرحُ هذا التّوجيهَ ليقومَ المربّي الحصيفُ المحبُّ للطّفلِ بتعليمِ الطّفل هذه الأقْباس الكريمة الميمونة.

* وفي الوقفةِ الأولىٰ ، نستمعُ إلى هذا التّوجيهِ النّبوي الكريمِ لعبد اللهِ بنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عنْدما كان غُلاماً طريّ العُود.

* عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: كنْتُ خلْفَ النَّبيِّ ﷺ يوماً فقال لي: «يا غُلامُ ، إنّي أعلِّمكَ كلَماتٍ: احفظِ اللهَ يحفظْكَ ، احفظ الله تجدْهُ تُجاهَكَ؛ إذا سألْتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنْتَ فاسْتَعِنْ بالله؛ واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعُوك إلّا بشيءٍ قد كتَبَه الله لكَ ، وإنِ اجتمعُوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضرّوكَ إلّا بشيءٍ قد كتبَه الله عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحف ، تعرّفْ إلىٰ اللهِ في الرّخاءِ يعرفْكَ في الشّدّة ، واعلمْ أنَّ ما أخطأكَ لم يكنْ ليصيبَكَ ، وأنَّ ما أصابَك

لمْ يكُنْ ليُخطئَكَ ؛ واعلمْ أنَّ النَّصْرَ مع الصَّبر ، وأنَّ الفَرجَ مع الكربِ ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً»[1] .

* ويبدأُ المربّي معَ الطّفْلِ بشرْحٍ بعضِ الكلماتِ التي تحتاجُ إلى إيضاح وذلك بأسلوبٍ مبسَّطٍ لطيفٍ فيشرحُ له بعضَ المعاني الآتية :

«تُجاهَكَ» : وجْهاً لوجْه .

«الرَّخاء» : سَعَة العيش .

«تعرَّف إلى الله» : اسألِ اللهَ متذلّلاً متضرّعاً إليه .

«الكَرْب» الحزْنُ والغمّ .

* ثمّ يستخلصُ المربّي للطّفلِ الوصايا والتّوجيهات النّبوية له ، وأوّلُها : مراقبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحفْظُ العبدِ لربّه يعني حفْظ حقوقِهِ عليه ، وحفْظ حدودِه التي اشتملتْ عليها أوامرُه ونواهيه ، وشرائعهُ ووصاياهُ. وهذه المراقبةُ لله عز وجل تجعلُ العبْدَ يستبصرُ مع كلّ تصرّف يقومُ به حقوقَ اللهِ عليه ، فيحفظُ نفْسَه من الوقوعِ في المعصيةِ ، والطّفلُ الذي يحرصُ علىٰ أنْ يحفظَ الله عزَّ وجلَّ يندفعُ بيُسْرٍ إلى حفْظِ حدودِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويكونُ من أهلِ الطَّاعةِ والاستقامةِ ، وعندها يجدُ الإنسانَ اللهَ مسرعاً في معونَتِهِ واستجابةِ دعائهِ وتحقيقِ مطالبه منَ الخيرِ والرّغائبِ النَّافعة .

* والسُّؤالُ والدُّعاءُ لا يكونُ إلاّ لله عزَّ وجلَّ ، فإذا سألتَ اللهَ داعياً لأمرٍ ما منْ أمورِ الدُّنيا أو الآخرة ، فاسأل الله وحْدَهُ ، وادْعُهُ وحْدَهُ ، ولا تسألْ

---

(١) هذا الحديث أخرجَه التّرمذي في جامعه إلى قوله : «وجفّت الصُّحف» ، وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ . ورَوىٰ باقيهِ عبد بن حميد في مسنده عن عطاء عن ابن عبّاس بإسناد ضعيف .

غيرَهُ ، ولا تسألْ معَه أحداً ، لأنَّ سؤالَ غيرِ اللهِ شِرْكٌ به ، وهذا الشّركُ ينقضُ الإيمان .

* ويغرسُ المربّي في نفسِ الطّفل بأنَّ في الوصيّةِ النّبويّة لعبدِ اللهِ بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ توجيهاً لعفّةِ النَّفس ، وترفّعها عن سؤالِ النّاس تفضّلاً بالعطاء في أيّ أمْر منْ أمورِ الدنيا ، ضمنَ حدودِ نظام الأسباب والمسبّبات ، لأنّ التّرفُّعَ عن سؤالِ النَّاسِ أكرمُ للمؤمن ، وأفضلُ له ، وأكثرُ ثقةً بالله ، وإيماناً بقضائِه وقَدرِه ، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو خالقُ كلّ شيءٍ ، وبيدهِ مقاليدُ كلّ شيء .

* والاستعانةُ أيضاً لا يصحُّ أنْ تكونَ إلاّ باللهِ وحده لا شريكَ له ، فلا يُسْتعانُ بجنٍّ ولا ملائكةٍ ولا أرواحٍ لأنَّ ذلكَ طريقٌ إلىٰ الشِّركِ ، والاستعانةُ بالله من عناصرِ عبادتِه ، واللهُ يحبُّ أنْ يُعْبَدَ بالاستعانةِ به ، لأنَّها أثرٌ للإيمانِ به ، وفرعٌ عن ذِكْرِه .

* ثم إنَّه ما منْ شيءٍ في هذا الكون يحدثُ إلا بعلمِ الله عزّ وجلّ ، وبإرادتهِ وإذْنِهِ ، فالنّفعُ والضُّرّ كلّهما بيد الله عزّ وجلّ ، لا ينفعُ أحدٌ بشيءٍ لم يقْضِه اللهُ ويقدّره ، أو لَمْ يأذَنْ له ، ولا يضرُّ أحدٌ بشيءٍ لم يقْضِهِ اللهُ ويقدّره ، أو لمْ يأذَنْ به .

* وكُنْ ذاكراً لله عزّ وجلّ في الرّخاء ، وكُنْ شاكراً حامِداً عارفاً واجباتك تُجاهه ، فإذا فعلتَ ذلك أجابَ سؤالكَ ولبّى رجاءَك ، وكشفَ عنك الشّدّة؛ وهكذا يوضّح المربّي سائر معاني هذا الحديث التّربوي العظيم .

* ولا بأس في أنْ يذللَ المربّي بعض الصُّعوبات في فَهْم هذا الحديث ، ويوضّح له بعضَ النّقاط البارزة فيه ، من مثل: انتهاز النّبي ﷺ الفُرصة المواتية ، فألقىٰ درساً تعليميّاً مفيداً على ابن عمّه عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ وذلك في أمّهاتِ العقيدةِ الإسلاميّة ، وهُما على ظَهْرِ

الدّابّةِ السَّائرة بهما إلى غايتهما في الطَّريق. فالمعلمُ المربّي هو النّبيّ ﷺ. والتّلميذُ الحصيفُ هو عبد الله بن عبّاس الغُلام اليفعة. والمدرسةُ هي طريق المسير في الهواءِ الطّلْق في المدينةِ.

* ويستخلصُ المربّي بعضَ الفوائدِ منَ الحديثِ مثل:

١ ـ تعليمُ الأطفالِ أصولَ العقيدةِ، والتّلطّفُ بهم في التَّعليمِ، والتّحبُّبُ إليهم ليستقرَّ ذلك في أعماقِ قلوبهم.

٢ ـ منْ حَفِظَ الله عزّ وجلّ حَفِظَهُ، وحقّق رغباتِهِ.

٣ ـ المؤمنُ موصولُ القلبِ باللهِ فلا يدعو غيرَهُ ولا يستعينُ في الغيبيّات إلاّ به.

٤ ـ المؤمنُ لا يسألُ غيرَ الله، ولا يستعينُ بغيرِ الله.

٥ ـ لا يستطيعُ أحدٌ جلْبَ نَفْعٍ لأحدٍ، أو دفْع ضُرّ عن أحدٍ إلاّ بإذنِ الله.

٦ ـ النّصرُ يعقبُ الصَّبرَ، والفرجُ عقبَ الكربِ، واليسرُ بعد العُسْرِ.

٧ ـ التّحبّبُ إلىٰ الأطفالِ يستثيرُ عندهم أوائلَ الرّجولة، فيقبلُون على المعرفةِ وحفْظِها، والعملِ بوصاياها.

* وهذهِ وقفةٌ توجيهيّةٌ نبويّةٌ أخرىٰ لطفلٍ نجيبٍ آخرَ من مدرسةِ النّبوة، بيد أنَّ هذا التّوجيهَ هذه المرّة يشملُ جانباً عظيماً هو: أدَبُ الطفلِ في مجالسِ الكبارِ مع عِلْمهِ ومعرفتِه بما يقولُون ويفيضونَ منَ العِلْم.

* ففي جلسةٍ نبويّةٍ تعليميّةٍ تربويّةٍ، يوجّهُ النَّبيُّ ﷺ أصحابَه الكِبَار والأطفالَ إلى الثقافة العامّة، ويفتّحُ عيونَهم علىٰ حقائقِ الكونِ ومكْنُوناتِهِ.

* وطفلُ هذهِ الجلْسةِ المباركةِ هو عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ الذي يروي لنا هذه الوقْفة التَّعليميَّة فيقول: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مثَلُ المؤمنُ كمثلِ شجرةٍ خضْراء لا يسقطُ ورقُها ولا يتحاتّ». فقالَ القومُ: هي

شجرةُ كذا ، هي شجرةَ كذا ، فأردتُ أنْ أقولَ هي النَّخْلَة ، فاستحييتُ ، فقال: «هي النّخلة»[1].

* ويستغلُّ المربّي قصَّةَ هذا الحديثِ في تربيةِ الطّفلِ وتوجيهِهِ الوجهةَ السّلوكيةَ الصَّحيحةَ في الأدبِ الاجتماعيّ وأدبِ المجالس.

* لقد جاءَ النَّبي ﷺ جُمَّار ـ قلب النخلة وشحمها ـ في طبقٍ ليأكلَه ، فسألَ أصحابَه ليخبروهُ عن شجرةٍ مباركةٍ يُشَبَّهُ بها المؤمنُ ، فذهبتْ أفكارُ أصحابِه الكرام مذاهبَ شتّى إلىٰ أشجارِ الباديةِ ، وجعل كلُّ واحدٍ منهم يفسّرها على هذا الأساسِ ، ولم يفطَنُوا إلى أنّها النّخلة ، غير أنَّ الطّفلَ الفَطِنَ اللبيبَ عبدَ اللهِ بنَ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قد فطنَ إلى هذا ، بدلالةِ الارتباطِ بينَ الجمّار والسُّؤال الذي جاءَ بَعْده مباشرةً ، غير أنَّه لِصِغَر سِنّهِ استحىٰ أنْ يتكلَّم ويقولَ إنّها النّخلةُ ـ وقد سكتَ في المجلسِ أبو بكر وعمر ـ ثمّ إنَّ الطّفلَ عبدَ الله قد صدَقَ بعد ذلك حدْسُه ، وأخبرَ أباه بما وقَعَ ووقَر في نَفْسه ، فقالَ له أبوه: لأَنْ تكونَ قُلْتَها أحبُّ إليّ منْ أنَ يكونَ لي كَذَا وكَذَا[2] . . . تأسُّفاً على كونِ الطّفلِ عبدِ الله لم يقُلْ ذلك ، إذْ إنَّ الأبَ يسرُّه ذكاءُ طفْلِهِ ، وخصوصاً إذا ظهرَ في مثلِ هذا المجلس السَّنِي المبارك الكريم ، وقد كانَ في إمكانِ الطّفلِ عبدِ الله بن عمر أنْ يفصحَ عن الجوابِ ـ لكنْ منعَه الحياءُ من ذلك ـ إجْلالاً لِمَنْ هو أكبرُ منه ـ ، وهذا يفيدُ أنَّ المؤمنَ يشبهُ النّخلة في ثباتِها وشموخها ، زيادة على ما تقدّم من شبههِ بها في عمومِ بركتها ، والانتفاعِ بها وعدم نقصانها.

* ويمدُّ المربّي الطفلَ بزادٍ تربويٍّ من هذا الحديثِ ، ويذكّره بأنَّ شأنَ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، ورواه البخاري في عشرة مواضعَ من صحيحهِ ، واللفظ هنا لروايته هذا الحديث في كتاب الأدب (٨/ ٣٦) مطابع الشعب بمصر.

(٢) انظر في هذا: صحيح البخاري: باب الفهم في العلم ، وباب الحياء في العلم ، وباب طرح المسألة على أصحابه ، كل هذا من كتاب العلم.

المؤمنِ كلّه خيرٌ، لأنَّ صِلتَه باللهِ عزَّ وجلَّ، وهو يحبُّ النَّاسَ جميعاً، ويحبُّ لهم الخير، لأنَّ معدنَ المؤمنِ معدنٌ نقيٌ نفيسٌ، لا يعرىٰ من لباسِ التّقوى، كما لا تعرىٰ النّخْلةُ عن الوَرَقِ، والتّقوى خيرُ زادٍ وخيرُ لباس؛ وكما يقي اللباس الظّاهر البدنَ من الحرّ والبردِ، كذلك التّقوى تقي النَّفسَ والقلب.

* والمؤمنُ كذلك نشيطٌ كالنَّحلة، دائبُ العملِ، دائبُ النّفعِ، يتخيّرُ منَ الطّيّبات، ولا يصدرُ عنه إلاّ الطّيّب، سواء في القولِ أو في العمل، ويستمعُ إلى أحسنِ القولِ فيتبعُه، ويعرضُ عن اللغو، ولا يأْبَهُ له، فيرتقي سدّة المكارمِ والفَلاح، وقد وصفَ اللهُ المؤمنينَ بقولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣] فلا يقولُ إلاّ المفيد النّافع، ولا يفعلُ إلاّ المفيد النّافع، ويعطي أحسنَ ما يكونُ العَطاءُ من نفسهِ ومالهِ، ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ تعالى، فلا يفسدُ في الأرضِ، ولا يطغىٰ على الخلْقِ، فهو كالنَّحلَةِ تهبطُ برفقٍ على الزَّهرةِ، ترتشفُ منها الرَّحيقَ، ثم تغادرها برشاقةٍ دون أنْ تفسدَها أو تشوِّه جمالَها، فلا تعرِفُ الفسادَ ولا الإفسادَ، وهكذا المؤمنُ يعطي النَّفع في كلّ حين، ولا يفسدُ، كالنّحلة وقعتْ على الزّهرة فلم تفسدْ، وأكلت فلم تكسِرْ، ووضعتْ طيّباً.

* نعم إن المؤمنَ الكريمَ، يشْبهُ النَّخْلَةَ في عدمِ نقصانِها وكثرةِ فوائدها ومنافِعها، حيث بركتُها موجودةٌ في جميع أجزائها، مستمرّةٌ في جميع أحوالِها، فمنْ حين تطلعُ إلىٰ أنْ تَيْبسَ تؤكَلُ أنواعاً، ثمّ بعد ذلك يُنْتَفَعُ بجميعِ أجزائِها، حتّى النّوى في علفِ الدّواب، والليف في الحبال، وغير ذلك ممّا لا يخفىٰ، وكذلك بركةُ المؤمنِ عامّة في جميعِ الأحوال، ونفعُه مستمرٌّ له ولغيرِه حتى بعد موته.

* ومنَ التّوجيهاتِ النّبويّةِ الاجتماعيّة والعامّة في السُّلوك والتي ينبغي على المربّي أنْ يسيرَ على هديها، ما جاءَ في الصَّحيحِ قوله ﷺ: «إنّما مثَلُ

الجليسِ الصَّالح والجليسِ السُّوءِ ، كحاملِ المسْكِ ونافخِ الكيرِ ، فحاملُ المسْكِ إمّا أنْ يحذيكَ ، وإمّا أنْ تبتاعَ منه ، وإمّا أنْ تَجدَ منه ريحاً طيّبة. ونافخُ الكيرِ إمّا أنْ يحرقَ ثيابك ، وإمّا أنْ تَجِدَ ريحاً خبيثة»[1].

* ويقومُ المربّي بشَرحِ بعضِ المفردات مثل:

«حامل المسْك»: المقصود بائعُهُ.

«المسْك»: نوعٌ منَ الطّيْب يُستخرجُ مِنْ نوعٍ خاص مِنَ الغَزالِ ، يسمّى غزالَ المسْك.

«نافخُ الكير»: الحدّادُ الذي ينفخُ علىٰ الحديدِ ليحمىٰ ويلينَ للطَّرق والتّشكيل ، والحدادُ ينفخُ بواسطةِ آلة تسمّى الزّق.

«الكِيْر»: هو البِناءُ الذي يركَّبُ عليه الزّق.

«يُحذيك»: يُعْطيك.

* ثمّ يشرحُ المربّي للطّفْلِ معاني الحديث ، ويبيّن له بأنَّ النَّبي ﷺ يشبِّهُ الجليسَ الصَّالحَ والجليسَ السّوء بحاملِ المسكِ ونافخِ الكير.

فالأوّلُ: صورةٌ جميلةٌ عنِ الجليسِ الصَّالح والصّديق الكريم ، وهي صورةٌ ينبعثُ منها أريجٌ زكيَ ، ويفوحُ منها طيْبٌ عَطِرٌ ، وشذا فوّاحٌ ، ونسماتٌ رقيقةٌ تنشرحُ لها الصُّدور ، وتُسَرُّ القُلُوب؛ إذ إنَّ فيها عطراً أنيقاً فيه أصالةُ الطّيْبِ ، فالعطْرُ نفيسٌ في ذاتِه ، يفيضُ بشَذَاه على ما حولَه ، والمسكُ هذا هو أطيَبُ الطّيْب ، فأكرِمْ به طيباً ، وأحْسِنْ بتجارته مهنةً!

وهكذا الجليسُ الصَّالحُ والصَّديقُ الطّيِّبُ يكون كالطّيْب. والثّاني: صورةٌ مضطربةٌ تملأُ الدنيا حركةً وضجيجاً ، والمكانَ حرارةً ، ورائحةً

---

(١) متفق عليه. وزاد مسلم فيما اتفقا عليه. وانظر: صحيح البخاري بحاشية السندي (٣/ ٢٢١) في الذبائح ، و(٢/ ٨ و٩) في البيوع ، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٧٨).

كريهةً ، وتجعلُ الجو خانقاً ، تضيقُ به النّفس ، والقلب ، وقد تحرقُ الثّوبَ ، وهكذا الجليسُ السّوء والصَّاحب الخبيثُ يكون.

* وهاتانِ صُورتانِ متضادتان ، فأيّ واحدة منهما يختارُ الإنسان؟! ثم يشرحُ المربّي فائدة الصّحبة الخيرة ، وأضرارَ المخالطةِ السّيئة.

* إنَّ المخالطةَ سببُ العدوىٰ ، والعدوى تنتقلُ من النَّفسِ إلىٰ النفسِ ، ومنَ السُّلوك إلى لسُّلوك ، ومنَ الأخلاقِ إلىٰ الأخلاقِ ، كما ينتقلُ المرضُ بين الجسمِ والجسمِ. يقولُ الإمامُ الغَزالي: الطّباعُ مجبولةٌ على التّشبّه والاقتداءِ ، بل الطَّبْعُ يسرقُ من الطَّبع من حيثُ لا يدري صاحبُه[1].

* ومنَ المعروفِ لدىٰ أهلِ صناعةِ الطّبّ أنَّ الوقايةَ خيرُ من العلاجِ ، ولهذا ينصحونَ بالابتعادِ عن مخالطةِ المرضىٰ بمرضٍ مُعْدٍ ، وكذلك يجب أنْ يبتعدَ الإنسانُ عن المنحرفين ، وإذا اختلطَ بغيرِه ، فليحرصْ علىٰ أنْ يحسنَ اختيارَ مَنْ يجالسُهم ، وإلا فالوحدةُ أفضلُ كما أُثِرَ عنِ سيّدنا أبي ذرّ الغفَاري ـ رضي الله عنه ـ قولُه: الوحدةُ خيرٌ من جليسِ السّوء ، والجليسُ الصَّالحُ خيرٌ منَ الوحدةِ[1].

* ولعلَّ الطّفلَ يسألُ: مَنْ هو الجليسُ الصَّالح؟ والجوابُ عن هذا يكونُ بتبيانِ صفاتِه من قِبَل المُربّي ، فالجليسُ الصَّالحُ مَنْ يُستفادُ منْ مجالستِه ، وما تنفعُ صحبتُه منْ خيراتٍ في الدّنيا والآخرة ، وهذا يعني أنَّ الجليسَ الصَّالحَ هو المؤمنُ الفاضلُ ، ونجدُ هذا في قوله ﷺ: «لا تصاحبْ إلاّ مؤمناً ، ولا يأكلْ طعامَك إلا تقيّ»[2]. وهذا يعني أيضاً ألاّ يصاحبَ الإنسانُ أهلَ الضّلال وحزبَ الشّيطان الذين يلوّثون سلوكَ الإنسانِ ، ولا يحرصون علىٰ الفضَائِل ، ويغفُلُون عن ذكْرِ الله ، وقد أمرَ

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ١٥٠).

(٢) أخرجه ابن حبان في المولود (ص ٥٠٢ و٦٢٣ و٦٢٥) وانظر الإحسان (١/ ٣٨٣).

اللهُ عزَّ وجلَّ بمجانبتهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

* وعلى الجليسِ الصَّالحِ أنْ يكونَ مُسلماً عاقِلاً، حسنَ الخُلُق، كريمَ الطِّباع والنَّفس؛ فأمّا الجليسُ العاقلُ فهو رأسُ المالِ، ولا خيرَ في صحبةِ الأحمقِ والسَّفيه لأنّهما خسارةٌ بيّنةٌ، ولله درُّ مَنْ قال:

فلا تَصْحَبْ أخَا الجهْلِ ... وإيّاكَ وإيّاهُ

فكمْ مِنْ جاهلٍ أرْدىٰ ... حَليماً حينَ آخاهُ

يُقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا مَا المرءُ ما شَاهُ

* وأمّا حُسْنُ الخُلق فلا بدّ منه للعاقل ليدير الأمور بروية، دون غضبٍ أو شهوةٍ بخْلٍ أو جُبْنٍ أو هوى، وكذلك يحكمُ بكرمِ الطّباع وحسنِ الخِلال، فإذا تحقّقَ كلُّ هذا نفعتِ الصّحبةُ وآتتْ ثمارَها وفائدتها المرجوّة.

* هذا ولا بأسَ أنْ يضعَ المربّي جملةً منَ الأحاديث النّبوية التي توجِّهُ الأطفالَ إلىٰ المسالكِ الأخلاقيّة والتي تنفعُهم في الدّنيا والآخرةِ، ولا مانعَ منْ أنْ يبيِّنَ المربّي معانيها وما ترمي إليهِ منْ فوائدَ تعينُ الطّفْلَ على المُضيّ في سُلوكِ الطَّريق المُستقيم، وها نحنُ أولاءِ نقترحُ على المربّي بعضَ الأحاديثِ التي تصلحُ لمذاكرةِ الطّفْلِ وتوجيهِه إلى الموردِ المحمديّ.

أ * جاءَ في الصَّحيح وغيرِه عن أنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلتُ مع النَّبيّ ﷺ على غلامٍ خَيّاط، فقدَّمَ إليه قصعةَ ثريدٍ، وعليه دبَاء، قال: وأقبلَ على عَمله ـ يعني الغُلام ـ قال: فجعلَ النّبيُّ ﷺ يتتبّعُ الدُّباء ـ أي القَرع ـ قال أنسُ: فجعلتُ أتتبّعُه، وأضعُه بين يديه، قال: وما زلتُ بعْدُ أحبُّ الدُّبّاء[1].

(١) أخرجه البخاري ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، واللفظ هنا للبخاري.=

ب * وجاءَ في الصَّحيحِ وغيرِه عنْ أنسٍ أيضاً قالَ: خدمتُ رسولَ الله ﷺ يوماً ، حتّى إذا رأيتُ أنّي فرغْتُ منْ خدمتي قلتُ: يقيلُ ـ أي ينامَ بَعْد الظُّهْر ـ رسولُ الله ﷺ ، فخرجتُ إلىٰ صبيانٍ يلعبون ، قال: فجئتُ أنظرُ إلىٰ لعبهم ، فجاءَ رسولُ الله ﷺ ، فسلَّم علىٰ الصِّبيانِ وهم يلعبونَ ، فدَعَاني رسولُ الله ﷺ ، فبعَثني إلى حاجةٍ لهُ ، فذهبتُ فيها ، وجلسَ رسولُ الله ﷺ في فيءٍ حتّى أتيتُه ، واحتبستُ عن أمّي عن الإتيانِ الذي كنْتُ آتيها فيه ، فلّما أتيتُها قالت: ما حَبَسَكَ؟ قلتُ: بعثَني رسولُ الله ﷺ في حاجةٍ له ، قالت: ومَا هي؟

قلت: هو سرٌّ لرسولِ اللهِ ﷺ.

قالت: فاحفظْ علىٰ رسولِ الله ﷺ سِرَّه.

قال ثابتُ البُناني راوي الحديث عن أنس: قال لي أنسٌ: لو حدّثتُ به أحداً منَ النَّاس ، أو لو كنتُ محدثاً بهِ لحدثتُكَ به يا ثابت[1].

ج * وعن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يا بُنيّ ، إذا دخلْتَ على أهلِكَ ، فسلّمْ يكنْ بركةً عليك ، وعلى أهلِ بيتك»[2].

د * وجاءَ في الصَّحيحِ وغيرِه عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: كانَ رسولُ الله ﷺ أحْسنَ النّاسِ خُلُقاً ، وكان لي أخٌ يُقال له: أبو عُمير ، كانَ إذا جاءنا قال: «يا أبا عُمير ، ما فعلَ النُّغير؟» لِنُغَرٍ كانَ يلعبُ به ، وربّما حضَرتِ الصّلاةُ وهو في بيتنا ، فيأمرُ بالبسَاط الذي تحته ، فيُكْنَس ، ثم يُنْفَخُ ، ثمّ يقومُ ، ونقومُ خلفه ، فيصلي بنا[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ومسلم ، واللفظ هنا لأحمد.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي.

هـ * وجاء في الصَّحيح وغيرِه عن عمرَ بنِ أبي سَلَمة ـ رضي الله عنهما ـ ، قال: كنْتُ غلاماً في حجرِ رسولِ الله ﷺ ، فكانَتْ يدي تطيشُ في الصَّحْفَةِ ، فقال لي رسولُ الله ﷺ: « يا غلامُ ، سَمّ اللهَ تعالى ، وكُلْ بيمينِك ، وكُلْ ممّا يليْكَ» فما زالَتْ طُعمتي بعد[1] .

و * وجاءَ في الصَّحيحِ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنَّةِ هكذا» وأشارَ بالسَّبابةِ والوسطى ، وفرَّجَ بينهما[2] .

ز * وفي الصَّحيحَيْن وغيرِهما عن أنسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «والّذي نفسي بيدِه ، لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ منْ والدِه وولدِه والنّاسِ أجمعين»[3] .

ح * ووردَ في الصَّحيح عن عبد اللهِ بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يعوِّذ الحسنَ والحُسَينَ: «أعيذُكما بكلماتِ اللهِ التَّامَّة ، من كلّ شَيطان وهامَة ، ومن كلّ عين لاَمة» ويقولُ: «إنَّ أباكما كانَ يعوّذُ بها إسماعيل وإسحاق»[4] .

ط * وفي المسندِ عن عبد اللهِ بنِ الحَارثِ ـ رضي الله عنه ـ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يصفُّ عبدَ اللهِ وعُبيدَ الله وكثيْراً من بني العباس ـ رضي الله عنهم ـ ثم يقول: «مَنْ سَبَقَ إلي فَلَه كذا وكذا» قال: فيستبقونَ إليهِ ، فيقعُونَ على ظَهْـرِه وصَدْرِه ، فيقبّـلُهم ويلتزمُهم[5] .

ي * وفي الصَّحيحَيْن عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: رأىٰ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

الأقرعُ بنُ حابسٍ النَّبيّ ﷺ يقبِّل ولدَهُ الحسنَ ، فقال له : إنَّ لي عشرةً منَ الولدِ ما قبّلْتُ واحداً منهم ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : «مَنْ لا يرحَمْ لا يُرْحَم»[1] .

ك * وفي الصَّحيحِ أيضاً عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبي ﷺ قال : «رغمَ أنْفٌ ، ثمّ رغم أنفٌ ، ثمّ رغمَ أنْف» قيل : مَنْ يا رسولَ الله؟ قال : «مَنْ أدركَ أبويهِ عند الكِبَرِ أحدهما أو كليهما ، فلمْ يدخلِ الجنَّة»[2] .

ل * وفي الصَّحيحَيْن عن النّعمان بن بشير أنَّ أباه جاءَ إلى رسول اللهِ ﷺ وقال له : إنّي نَحَلْتُ ابني هذا غُلاماً كانَ لي .

فقال رسول الله ﷺ : «أكُلَّ ولدك نحلته مثل هذا»؟

قال : لا .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «لا تشْهِدني على جَوْر»[3] ثم قالَ ﷺ : «أيسرُّكَ أنْ يكونُوا لكَ في البِرّ سَواء»؟

قال : بلى .

قال رسولُ الله ﷺ : «فَلَا إذاً» .

وفي روايةٍ لمسلم فقالَ : «أفعلْتَ هذا بولدِك كُلِّهم»؟

قال : لا .

قال : «اتَّقوا اللهَ ، واعدلُوا في أولادِكم» ، فرجعَ أبي في تلكَ الصَّدقة[3] .

* وعن عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ الخطّاب ـ رضي الله عنهما ـ قالَ : دخلَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٧) ، ومسلم برقم (٢٣١٨) .
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٥١) ، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٢١) .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم . و«نحلته» : أعطيته .

عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «أَلَمْ أُخْبَر أنّك تقومُ الليلَ وتصومُ النَّهار»؟

قلتُ: بلى.

قال: «فلا تفعلْ، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفْطِرْ، فإنَّ لجسْمِكَ عليكَ حقّاً، وإنّ لعينِكَ عليكَ حقّاً، وإنَّ لزَوْرِكَ عليكَ حقّاً، وإنّ لزوجِكَ عليك حقّاً، وإنّك عسى أنْ يطولَ بك عُمرٌ، وإنّ منْ حسبِك أنْ تصومَ في كُلِّ شَهرٍ ثلاثة أيّامٍ، فإنَّ بكلِّ حسنةٍ عشْر أمثالِها، فذلك الدّهر كلّه»[1].

ن * وعن أنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كانَ ﷺ يلاعِبُ زينب بنت أم سلمة، ويقول: «يا زوينب، يا زوينب» مراراً[2].

* وهذه توجيهاتٌ نبويةٌ أخرىٰ تصلُح للطّفلِ والمربّي والمجتمعِ لما فيها منَ الفوائدِ النّافعة لسعادة الدّارَيْن.

١ ـ عن عبد اللهِ بنِ عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ الله ﷺ في الجهادِ؛ فقال له ﷺ: «أحي والدك»؟

قال: نعم.

قال: «ففيهما فَجاهِدْ»[3].

٢ ـ وعن معاويةَ بنِ جاهمةَ، أنَّ جاهمةَ ـ رضي الله عنه ـ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ أردتُ أنْ أغزوَ، وقد جئْتُ أستشيركَ.

فقال ﷺ: «هَلْ لكَ من أُمّ»؟

قال: نعم.

قال: «فالزمْهَا فإنَّ الجنَّة عند رجْلِها»[4].

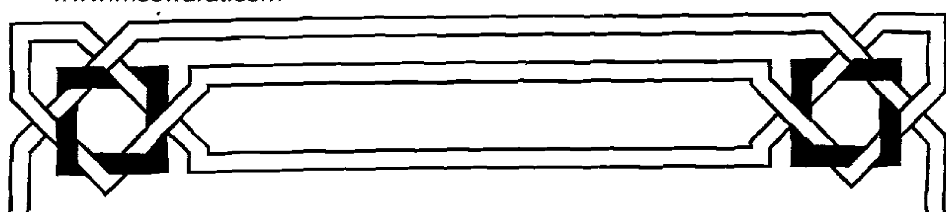
---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٥٣).
(٢) انظر: صحيح الجامع برقم (٥٠٢٥).
(٣) أخرجه الخمسة.
(٤) أخرجه النسائي، وعزاه المنذري إلى ابن ماجه والحاكم.

٣ ـ وعن أنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سرّه أنْ يَمُدَّ له في عُمره، وأن يُزادَ له في رزْقهِ، فليبرَّ والديه، ولْيَصِلْ رحمه»[(١)].

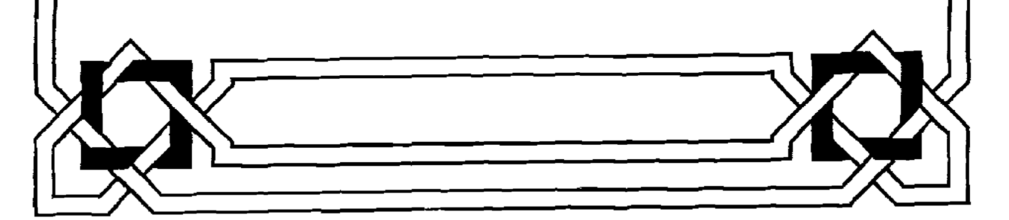
* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.



الباب الرابع

تربية الطفل روحاً وسلوكاً في ضوء الإسلام



الفصل الأوّل
مقوّماتُ تأديبِ الطِّفل

* في التَّوجيهاتِ النَّبويّةِ ، نجدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، يدعو إلى تأديبِ الطِّفل ، وإلى غرسِ الأخلاقِ الكريمةِ في نفسهِ ، ويعوّدُه صالحَ الأعمالِ ، والتَّحلّي بالأمانةِ والصِّدقِ ، واحترامِ الكبيرِ وتوقيره ، وفي هذا نسمعُ قولَ الحبيبِ المصطفى ﷺ : «ليس منْ أمّتي مَنْ لم يجلّ كبيرَنا ، ويرحم صغيرَنا ، ويعرفْ لعالمنا حقَّه»[1] .

* إنَّ الطِّفلَ أمانةٌ غاليةٌ عند أبويه ، وهو معدنٌ نفيسٌ نقيٌّ خالٍ من كلّ نَقْش ، وقلبُه الطَّاهرُ البريءُ قابلٌ لما يُلقىٰ إليه من خيرٍ أو شرٍّ ، لأنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ يقول : «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»[2] .

* لذا فإنَّ الأبَويْن يستطيعان العملَ على حسنِ تربية الولد ، ويأمرُ رسولُ الله ﷺ بتأديبِ الطِّفل ، فقد روى ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ : «الزموا أولادَكم وأحسنوا أدَبهم»[3] .

* وعن عبدِ الله بنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٤) .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .
(٣) انظر : الفتح الرّباني (١٩/ ٤٥) .

«ما ورَّثَ والدٌ والداً خيراً من أدبٍ حسن»[1] .

* إذاً ، فالأبوان مسؤولان عن تأديبِ الطِّفل ، وتلقينهِ الآدابَ الفاضِلةَ ، والخصائلَ الكريمة ، وطبْعِه على الصِّفات الحميدةِ المحمودةِ ، وتقوية صلته بالله عزّ وجلّ عن طريقِ حفْظ القرآنِ الكريم ، وممارسةِ العبادة ، والتَّحلّي بالأخلاقِ الفاضلة .

* إنَّ المرحلةَ الأولىٰ من مراحلِ الطِّفل ، هي أهمّ مرحلةٍ في تربيةِ الطِّفل وتأديبه جسميّاً وعقليّاً وخلقيّاً ، بل وفي تعويدهِ أحسن العادات ، من مثل : أدب الحديث ، وأدب السّؤال ، وآداب الطّعام والشّراب ، ولا يزاحمُ على المائدة ، ويحمدُ الله عندما ينتهي من الطَّعام ، وهذه الآداب قد وردَ بها توجيه الحبيبِ المصطفى ﷺ للطّفل ، ومنها ما رواه عمرُ بنُ أبي سلمة ـ رضي الله عنهما ـ قال : كنتُ غلاماً في حجر رسول الله ﷺ فقال لي : «يا غلام سمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك»[2] .

* ومن الأمورِ والمقوّمات التي يجبُ فيها تأديب الطّفل ، أنْ نعوِّدَه على النّوم مبكّراً والاستيقاظِ مبكّراً ، وإذا ما بلغَ سبْعَ سنين تبدأ رحلةُ تعليمه الصَّلاة ، والطَّهارة ، والوضوء ، ويشجّعُ على أداءِ الصَّلاة في أوقاتِها ، وإذا بلغَ عشرة أعوامٍ تبدأُ رحلة تأديبِ أخرى ، حيث يُؤدَّبُ على تركِ الصَّلاة ، ويُعزلُ فراشُهُ ، يقولُ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ : «مروا أبناءَكم بالصَّلاة لسبعٍ ، واضربوهم على تركها لعشْر ، وفرّقُوا بينهم في المضَاجع»[3] .

* وهناك ناحيةٌ مهمّة في تأديبِ الأطفالِ ، وهي أنْ ننظرَ إلىٰ ميولهم الفطريّة ، وننتفعَ بها في تربيتهم تربيةً خلقيةً مفيدةً ، ونشجّعهم عليها ،

---

(١) المصدر السّابق نفسه ، وهو حديث ضعيف أخرجه الترمذي برقم (١٩٥٢) ، وقال : هذا حديث غريب .

(٢) متفق عليه .

(٣) انظر : تحفة المودود (ص ١٣٣) ، والحديث أخرجه أبو داود بإسناد حسن .

فالطِّفلُ لديه ميلٌ طبيعي لحبّ الظُّهور والثَّناء والتَّشجيع ، ولذا ينبغي أنْ يُشجّعَ وأنْ يُكافأَ ، حتى يبقىٰ سبّاقاً في ميدانِ الفضَائل ، لأنَّ مِنْ وسائلِ التّربيةِ القويمة الثَّناء الممزوج بالوعظِ والنّصح ، وبيان الفوائد والمضار ، ليكون الطّفل على بصيرة من أمرِه ، ومن ثم تكون شخصيّتُه قويمةً قويّةً .

* وعلى هذا فينبغي لكلّ مؤمن أنْ يعملَ بهذه الآداب في تقويم الطِّفل ، وأن يكونَ قدوة في الأدبِ والتّأدّب . روي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : تأدّبوا ثم تعلّموا .

* وقال الأحنفُ بنُ قيس : الأدبُ نورُ العقلِ ، كما أنَّ النَّار في الظُّلمة نورُ البصرِ .

* وكان يُقال : الأدبُ من الآباءِ ، والصَّلاح منَ اللهِ ، وكان يُقال أيضاً : مَنْ أدَّبَ ابنَه صغيراً ، قرّتْ به عينُه كبيراً . وقال بعضُهم : من لم يؤدّبه والداه أدَّبه الليلُ والنَّهار .

* وقال عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم : ٦] ، قال : أدبوهم وعلّموهم[١] .

* وقال بعضُ أهلِ الأدب والعِلْم :

قد ينفعُ الأدب الأحداث في مَهَلٍ ... وليسَ ينفعُ بعد الكبرةِ الأدبُ

إنَّ الغُصونَ إذا قوَّمْتَها اعتدلتْ ... ولا تلينُ إذا قوَّمتها الخُشُبُ

* وقال محمّد بنُ سيرين : كانوا يقولون : أكرمْ ولدكَ وأحسنْ أدبَه[٢] .

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٤) .

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٥٢٤) .

الفصل الثّاني
الأسرةُ وتربيةُ الطّفل المثَالي

* الحبيبُ المصطفى المربّي ﷺ يقرّرُ حقيقةً عظيمةً في الطّفولةِ ، هذه الحقيقةُ جاءت في قوله: «ما منْ مولودٍ إلا يُولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه»[(١)].

* وهذا يعني أن الطِّفل يُولَد على الفطرةِ السَّوية التي فَطَره اللهُ عليها ، وأبواهُ هما اللذان يجعلان هذه الفطرة تستقيمُ على طبيعتها السَّويّة ، أو يعملان على انحرافها ، وذلك حسب التّربية التي يربّيان طفلهما عليها.

* إنَّ التَّربيةَ القويمةَ للطّفلِ والعنايةِ به في ضوءِ الشَّريعةِ الإسلاميّةِ ، تحتاجُ إلى البيتِ الذي يقومُ بهذه المهمّة ، ويساعدُ بذلك المدرسة والشَّارع

---

(١) متّفق عليه. وقال الشّيخُ الملا علي القاري في شرحه على مسندِ الإمام أبي حنيفة ، عندما ساقَ حديث: «كلّ مولود يُولد على الفطرة..»: أيْ فطرةُ الإسلام من التّوحيدِ والعرفان ، والمعنى أنّه لو خُلِّيَ وطبعه ، لما اختارَ إلا طريق الإيمان ، على وجْهِ الإحسان ، لما جُبِلَ عليه من الطَّبع المتهيّىء لقبولِ الشّرع ، فلو تُرِكَ عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقْها مائلاً إلَى غيرها.
وقيل: معناه كلُّ مولودٍ يُولدُ على معرفةِ الله تعالىٰ ، والإقرار به ، فلا تجدُ أحداً إلا وهو يقرُّ بأنَّ الله صانعٌ ، وهذا يوافقُ قولَ أبي حنيفة: من أنّه يجبُ على كلّ مكلّف أنْ يعرفَ الله بمجرد عقله ، مع عدم علْمِه ببعثة الرُّسل.
(شرح مسند أبي حنيفة ص ٢٢٥).

والمجتمع المسلم ، وهذه العناصرُ جميعها ذاتُ أثرٍ فعّالٍ في تنشئةِ الأطفالِ ، فإمّا أنْ تنشّئهم على الاستقامةِ ، وإمّا على الانحراف .

* ومن الطَّبيعي أنْ يتكوّنَ السُّلوكُ الشّخصيُّ للطِّفل في الأسرةِ والبيتِ أوّلاً ، فهو يُولدُ به ، ويعيشُ مدّةً قبل أنْ يُتاحَ للشَّارعِ أو المدرسةِ أو المجتمعِ التّأثير فيه .

* وكلّما كان التّقويم الأسريّ مبكّراً لسلوكِ الطِّفل ، كلما زادت فرصةُ صلاحهِ وإصلاحِهِ ، ولكنْ إذا تُرِكَ الطّفل فقد يصعُب الأمْرُ ويستفحلُ ، وليس معنى هذا أنَّ التقويمَ مستحيلٌ ، لكنّه يحتاجُ إلى المزيدِ من الجهد والصَّبر ، فمعالجةُ انحرافِ الطِّفل لا تستعصي على العلاج حين يُوجدُ المنهجُ القويم والدَّواء السَّليم لدى الأسرة المُثْلى .

* إنّنا من أجلِ تربيةِ طفلٍ واحدٍ ، أو جميع الأطفالِ نحتاجُ أن يكونَ البيتُ والأسرةُ والشّارعُ والمدرسةُ في الصُّورة التي نرغبُ في تنشئةِ هذا الطّفل عليها ، لأنَّ تأثيرَها على طفل واحد ، كتأثيرِها على كلِّ الأطفالِ مجتمعين ، فمن الطَّبيعي أنْ يختلطَ الطفل بِلدَّاته في الشَّارع والمدرسة ، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يحبسَ طفْله ، أو يحجزَه من النُّزولِ إلى الشَّارعِ أو المدرسةِ ، ولن يستطيعَ حجزَه في المنزلِ ، وتربيته تربيةً خاصّة مهما سلكَ سبيلَ التَّربيةِ المثاليّةِ ، أو المناهج التّربوية .

* لا يُشَكُّ في أنَّ البيتَ هو الأثرُ والمؤثّرُ الأوّلُ في حياةِ الطِّفل ، لأنَّه يتسلّمُ الطِّفلَ من أوّلِ مراحلهِ ، فيبذرُ فيه بذورَه قبل أيّ شيء ، أو أيّ أحدٍ آخر خارج البيت ، ولأنَّ السَّنواتِ التي يقضيها الطّفلُ في بيتِ أبويه أكثر ، وأحبَّها إلى قلبه ، وخاصّةً أُمّه التي يَلْتقيها مراراً وتكراراً في اليوم الواحدِ ، ومن ثمّ فهؤلاء جميعاً هم أكثرُ النَّاس تأثيراً في الطِّفل بالقدوةِ والتّلقين على السَّواء .

* إنَّ البيتَ بلا شك هو أعظمُ شيءٍ ، وأخطرُ شيء أثراً في تربيةِ

الطّفل ، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه هو المتفرّدُ بالتّأثيرِ ، ولا ينفي أثر الشّارع والمدرسةِ والمجتمعِ في تكوينِ أخلاقِ الطّفل وعاداتِه وسلوكِه وميوله.

* ولئن وُجدَتْ حالاتٌ فرديةٌ ، استطاعَ البيتُ فيها بصبرٍ وجهدٍ ، أنْ يربّي أطفالَه على صورةٍ مخالفةٍ لما عليه المجتمع ، فليس هذا أَصْلاً مفروضاً في طبائعِ الأشياءِ ، ولا هو بالجهدِ الذي يَقْدرُ عليه كلُّ النّاس ، بل وليس كلّ النّاس بمؤهّلين لهذهِ التّربيةِ الصّعبةِ ، إذ إنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى شخصيّاتٍ ذاتِ مواهبَ فائقةٍ ، وتخصُّص عالٍ في هذا الشّأن.

* ومن عجائبِ المُصادفات أنّني التقيتُ أحدَ هؤلاءِ المتخصِّصين في إحدىٰ العواصمِ العربيّةِ في ندوةٍ أدبيّةٍ ، وتحدَّثَ هو عن تربيةِ الطِّفل من حينِ ولادته ، وذكرَ أنَّه استطاعَ أنْ يربّيَ ابنَه تربيةً خاصّةً ، وكان مما ذكره أنَّه لم يحملِ الطّفلَ مُطلقاً عندما يبكي ، وخصوصاً في الأيّام الأولى لولادتِه ، ثمّ إنَّ الطّفل تعوَّد ، ولم يَعُدْ يبكِ ، وقال هذا المتخصّص: إنَّ الطّفل الرّضيعَ مخلوقٌ ذكيٌّ ، فإذا ما بكىٰ وسارعتِ الأمُّ أو مَنْ حولَه إلى حَمْله تعوّدَ علىٰ ذلك ، وصارَ البكاءُ حجَّتَه البالغةَ ، وأكثر منَ الصُّراخ والبكاء.

* وقال هذا المحاضرُ أيضاً: إنَّ ابنَه كان يلفظُ أكثرَ من أربعينَ كلمةً ، وعمرهُ لا يزيدُ عن عشرةِ شهور عددَاً ، وقد نشرتْ إحدى الصُّحف بتلكَ العاصمة هذهِ الحادثة بأنَّ طفلاً يتكلّمُ أكثرَ من أربعينَ كلمةً ، ولم يكملِ السَّنة بعد.

* إنّنا إذا كُنّا نريدُ أنْ نربّيَ أطفالَنا تربيةً إسلاميةً صحيحةً ، فلا بدّ أنْ يتوفّر لدينا البيت والشّارع والمدرسة والمجتمع المسلم ، وبالتّالي تكونُ الحصيلةُ رائعةً.

* فالبيتُ هو أقوى تلكم العواملِ الأربعةِ بحكم التِصَاق الطّفل فيه التصاقاً مباشراً ، وبحكم أنَّه أوّل من يتسلّم الطّفل ويؤثّر في رغباتِهِ وميوله

وشخصيّته؛ ولكنّه على الأغلبِ أنْ تكونَ العناصرُ الأربعة: البيتُ، والشّارعُ، والمدرسةُ، والمجتمعُ متجانسةً في عاداتِها، فيكونَ تأثيرُها واضحاً في نفس الطّفل، ولكنْ لا يخلو الأمْرُ منْ بعضِ الاختلافاتِ الطّبيعيّة بين بَشَرٍ وبَشَر، بيد أنَّ هذا لا يؤثّر بالطّفل تأثيراً كبيراً، إذ لكلِّ طفلٍ، أو لكل شخصٍ طابَع خاص طبَعَه الله عزَّ وجلَّ به.

* ولكنَّ الإسلامَ والتَّربيةَ الإسلاميّةَ القويمةَ تركّزُ في الدَّرجةِ الأولىٰ على البيتِ والأسرةِ، حيث إنَّ البيتَ هو المأوىٰ الذي ينشأُ فيه الطِّفلُ حتى ينموَ، ويلتقطَ منه الانطباعاتِ الأولى التي قد تؤثّرُ فيه مدىٰ الحياةِ.

* وتظهرُ عنايةُ الإسلام بالأسرةِ باعتبارِها مَهْدَ الطّفولةِ الأولىٰ، وموطنَ التّأثيرِ الأكبرِ في مجالِ التّربية، فأكّدَ على حفظِ الأنسابِ لما له من عنصر مهمّ من عناصرِ الاستقرارِ في نفس الطّفل، كما أكّدَ علىٰ قيام الرّجلِ بكفالةِ الزَّوجةِ، كيما تتفرّغَ إلى تربيةِ الأطفالِ، وإلى التّفرُّغ للأمومةِ الحقّةِ، وبناءِ الأجيال بناءً سليماً خالياً من التّعقيدات.

* ومن هذا المبدأ نلاحظُ أنَّ توجيهاتِ الإسلام تشيرُ وتؤكِّدُ على توفيرِ أكبر قَدْرٍ من الاستقرارِ للأطفالِ، لتكونَ تربيتُهم أفضلَ، فجعل المودَّة والرَّحمةَ بين الزَّوجين، وأوصى الرِّجال بمعاشرةِ النّساء بالمعروف، وأوصىٰ المرأةَ أنْ تحفظَ استقرارَ البيتِ وأمْنه: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النّساء: ٣٤]، ودعا إلىٰ بتْرِ الخلافاتِ الأسريّة، وركوبِ مراكب الصُّلح والإصلاح.

* وهكذا وبكلِّ الوسائلِ يحرصُ الإسلام على بقاءِ عرىٰ المودَّةِ ليسعدَ الأطفال بالعيشِ الرّغيد في المحضنِ الأوّل لهم، فلا شيءَ يُيسِّرُ التَّربية السَّليمة ويجعلُها أقربَ إلى إيتاءِ الثّمرة المرجوةِ من الجوِّ المستقرِّ للطّفل، أو الحبّ المرفرفِ حولَه من قِبَلِ الأبويْن، ولا شيء يفيدُ التّربيةَ ويجعلُها

أبعدَ عن إيتاءِ ثمرتها من جوّ القلقِ العصبيّ والنّفسي والبغضاء والشّقاق في الأسرة.

* إنّنا إذا أردنا أنْ نرسمَ الصُّورةَ الصَّحيحةَ للطِّفل المسلم، فعلينا أنْ ندركَ أنَّ تربيتَه تبدأُ من نقطةٍ مهمّةٍ، هذه النّقطةُ سابقة كثيراً على مولدِه، وهي وجودُ أبويْن مسلمَين لهما رصيدٌ من التَّربيةِ الإسلاميةِ الصَّحيحة، كيما يوجِّها طفلَهما التَّوجيهَ الصَّحيح، وبالتَّالي يكون استعدادُ طفلهما لتلقّي التّربيةِ السَّليمةِ طيّباً، ويخفّف كثيراً من الجهد الذي يبذلانه في تربيتهِ، وقد لا يحتاجُ إلى أكثرَ من توجيهاتٍ عابرةٍ بين الفينةِ والأخرى.

* ويُولدُ الطفل فتتلقّاهُ منذُ اللحظاتِ الأولىٰ الفرحةُ الفطرية بالوليد، ويودُّ الأبوان أنْ ينشأَ طفلهما علىٰ منهجِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك قائمٌ في حسِّهما من أوّلِ لحظةٍ لامسَ طفلُهما الوجود.

* ومن الطَّبيعي أنْ يكونَ وعيُ الطِّفل في البدايةِ ضئيلاً، ويكونَ إدراكُه في أضيقِ حدود، ولكنْ غيرُ صحيحٍ أنَّ الطِّفْلَ لا يعي علىٰ الإطلاق، فهو في أيّامِهِ الأولىٰ يعي تلك البسمةَ الحانيةَ الجميلةَ في وجْهِ الأمِّ، ويرتاحُ لها، وتطمئنُ نفسُه إليها، وربّما يعي غضبها، وينزعجُ منه ويبكي، ولكنّا لا نستطيعُ أنْ نضعَ حدوداً لهذا الوعي الذي لا يتناسبُ مع إدراكنا ووعينا، المهمُّ أنَّه يعي في الحدودِ التي تتطلّبُها فطرته وسِنّه.

* وكلُّنا يعرفُ أنَّ الطِّفلَ لا يملكُ من وسائلِ التَّعبير في أيّامه الأولىٰ وشهورِه الأولى إلا بسماتِ الرّضا والارتياح، أو بُكاءِ القلقِ والخوفِ والجوعِ والألمِ، ولكنَّ الطّفلَ وإن كانَ شبْه ضئيلِ القدرةِ على التّعبير، فليس هذا يعني أنَّه ليس لديْهِ ما يعبّرُ عنه، إنّه يحملُ في قلبهِ الصَّغير كتلةً من العواطفِ والانفعالاتِ تخطُّ خطوطَها في صفحةِ حياته البيضاء.

* إنّ كلَّ انفعالٍ يمرّ في نفسِ الطّفل، وكلَّ تجربةٍ تمرُّ به أو يخوضُها تجربةَ سرور أو رضا، أو تجربةَ خوفٍ وألَم، تخطُّ خطَّها في تلكِ

الصَّفحةِ ، حتى يتكون فيها في النّهاية خطٌّ بارزٌ واضحٌ نتيجةَ تراكم التّجربةِ وتراكم الانفعال .

* إنّه في تلك الصَّفحةِ البيضاء ترتسمُ الملامحُ الأولىٰ لشخصيّةِ الطّفل ، وقد لا يستطيعُ الأبوان أنْ يكتشفا هذه الملامح ، لأنَّ وسائلَ التَّعبير عند الطِّفل محدودةٌ للغاية ، وذلك قبل أنْ يستطيعَ النّطق ويتعلّمُ التَّعبير باللغة التي هي معجزةٌ من معجزاتِ الخلق في بني البشَر : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

* على أنَّ الملامحَ الأولىٰ في صفحةِ الطّفلِ وإنْ كانت باهتة غير واضحةِ تماماً ، فإنَّ الأمّ بما آتاها اللهُ من إحساسٍ خاص تبدأُ فتدركُ شيئاً عن مزاجِ الطِّفلِ وطبائعه ، فهي ألصقُ النّاسِ به ، وأقربُهم في التَّعامل معه .

* إنَّ الأطفالَ في هذه المرحلةِ ذوو مطالبَ متشابهةٍ ، وكلُّ الأطفالِ يطلبون الحبَّ والحنانَ والرّعايةَ والأمنَ في حضنِ الأمّ ، والأمُّ بفطرتها تعطي ذلك الحنانَ والحبَّ ، وتؤدّي تلك الرّعايةَ المطلوبةَ ، والأمُّ المسلمةُ التي عرفتْ واجباتِها وما لَها وما عليها ، تدركُ إدراكاً عميقاً واضحاً أنَّ الطِّفلَ في سنواتهِ الأولىٰ يحتاجُ إلى أمّ متخصّصةٍ ، لا يشغَلُها شيءٌ عن رعايةِ الطفولةِ وتنشئةِ الأجيالِ ، وإنَّ كلَّ أمرٍ تقومُ به خلافاً لتدبير أمْرِ البيتِ ، ورعايةِ أطفاله ، إنّما يتمُّ على حسابِ هؤلاءِ الأطفالِ ، وعلى حسابِ الجيلِ القادم من البشريةِ .

* إنَّ الحبَّ الذي تمنحه الأمُّ للطِّفلِ ، ولا يستطيعُ غيرُها أنْ يمنحهَ إيّاه ، هو الذي يعلِّمُ الطِّفل الحبَّ ، ويوازنُ في نفسه خطّ الكره الفطريّ ، وغيره من الخطوطِ الأخرى؛ كالخوفِ والرّجاء والواقع والخيال وما شابه ذلك .

* وتكونُ هذه الخطوطُ في نفسِ الطّفل غير واضحةِ المعالم ، ولكنّها

موجودةٌ ، والمعاملةُ الخارجيةُ للطّفل تبرزُ هذه الخطوط ، وربّما توقفَ نموها أو تكبتها ، وهنا تظهرُ مهمّة التّربية الصّحيحة لإبرازِ هذه الخطوطِ بشكلٍ متوازن ، وخصوصاً الحبّ والكره ، حيث يوجدان بنفسِ الطّفل بشكلٍ فطري ، فكلّ إنسانٍ يحبُّ ويكره ، يحبُّ أشياء ، ويكرهُ أشياء.

* وإذا لم يجدِ الطّفلُ الحبَّ من قلبِ الأم لقسوةٍ وغلظةٍ منها ، أو لشجارٍ وشقاقٍ دائمٍ مع زوجها ، فهذا لا يجعلُ في نفسيهما فرصةً يتّجهان بها إلى الطّفل بالحبّ والعطفِ ، فتنشأُ في نفس الطّفلِ الكراهيةُ للآخرين والحقدُ عليهم ، وربما ينزوي وينطوي على نفسهِ ، ويكون سلبيّاً في مجتمعه.

* فالأمُّ الواعيةُ هي حَجر الأساسِ في هذا المضمار ، وعليها أن تدركَ أنَّه ينبغي أنْ تمنحَ الطِّفل حاجتَه الطبيعيّة من الحبِّ والحنانِ والرّعايةِ ، وعليها أنْ تدركَ بأنّها تفسدُ كيانه كلّه إن هي حرمته حقّه من هذهِ المشاعر التي أودعها الله عزّ وجلّ برحمتهِ وحكمتهِ في كيانها ، بحيثُ تتفجّرُ تلقائياً لتفيَ بحاجةِ الطّفل ، وعليها كذلك أنْ تعرفَ أنَّ هناك قدْراً مضبوطاً منَ الحبِّ والحنانِ والرّعايةِ هو المطلوب ، وأنَّ الزيادةَ فيه كالنَّقص ، كلاهما مفسدٌ لكيانِ الطِّفل في مستقبل حياته ، حيثُ إنّ الزّيادة تؤدّي إلى التّدليل الضّارّ الذي يؤدّي إلى الميوعةِ والفَشَل ، وبالتّالي لا يقدرُ الطّفل ـ فتى كان أو فتاة ـ أنْ يعتمدَ على نفسهِ في مهمّاتِ الأمور ، ويجبُ أنْ تعلمَ الأمُّ أنَّ ظروفَ الحياةِ لا ترحم ، فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

* لقد لاحظنا من خلالِ تجاربنا ، ومن خلالِ ما قرأناهُ من أدلّةٍ وقَصَصٍ قديمة؛ أنّ الأطفالَ المدللين ، يتعبون في حياتهم ، ويُتعبون مَنْ حولهم ومَنْ بعدهم.

* فالأمُّ الواعيةُ تدركُ تماماً أن الطِّفل ـ ذكراً أو أنثى ـ الذي ينشأُ اليوم

هو رجلُ الغد ، أو امرأةُ الغدِ ، وكلاهما له دورٌ في بناءِ المجتمع ، فينبغي أنْ يؤهَّلَ لمهمّةِ البناءِ السَّليم منذ مولده ، وذلك بأنْ يُعطىٰ ما يستحقّه من حبّ ورعايةٍ وحنان بشكلٍ مضبوط صحيح.

* وإذا أخذَ الطفلُ حقّه من الحبّ والعطفِ ، تأتي بعد ذلك مرحلةٌ أخرى ، وهي تعويده على الضّبط ، فالضَّوابطُ فطريّةٌ في كيانهِ كالدّوافع تماماً ، ولكن الضَّوابط تتأخّر في ظهورِها ، وتحتاجُ إلى معونةٍ خارجيةٍ لصقلها ، فالطّفلُ في حاجةٍ إلى معونةِ أمّه لكي يتعلّمَ الضّبط ويتعوّدَه ، كضبطِ رضاعتهِ ونومهِ وراحتهِ؛ والضّبطُ أيضاً له معيارٌ ، فلا ينبغي أنْ يزيدَ أو ينقصَ ، والوالدانِ الحكيمانِ يستطيعان أنْ يوازنا ويضبطا أمورَ الطِّفل حسبَ ظروفهِ الذَّاتية.

* فالطّفلُ المريضُ مثلاً يتلقّىٰ من أبويهِ ـ ومن أمّه خاصّة ـ جرعةً أكبر من العطفِ والرّعايةِ ، ولكنَّ هذه الجرعة تفسدُه إنْ ظلَّ يأخذها بعد شفائِه ، ويجبُ على الأبوَيْن أنْ تكونَ معاملتهُما للطّفلِ متقاربةً ، فلا يشعر بالفارقِ ، أو التّعارضِ في المعاملةِ ، فالأمرُ يحتاجُ إلى حكمةٍ يداول فيها الأبوان بين العطف والحسْم ، مرّة هكذا ، ومرّة هكذا حتى يستقيمَ ما هو معوجٌّ من كيانِ الطّفل ، ويستطيعَ أنْ يضبطَ نزواتِهِ.

* ومن الطّبيعي في تربيةِ ضبطِ الطِّفل أنْ تكونَ سياسةُ الأبوينِ موحّدةً نوعاً ما ، فلا يقفا موقفَيْن متعارضَيْن أمامَ الطِّفل ، كأنْ يطالبُ أحدهما بعقابِهِ والآخرُ يعارض بذلك ، فإنَّ هذا التّصرّف يفسدُ الموازين في حسّه ، ويشعره بأنَّ الأمورَ ليس لها ضابطٌ محدّد ولا معيارٌ معيّن ، وعندها يخالفُ أحدهما ، لأنّه يجدُ مَنْ يدافعُ عنه من طرفٍ آخر ، وهذا ما نلحظهُ كثيراً من الآباءِ الذين يحبّون عقابَ الطّفلِ علىٰ تصرّفٍ ما ، فتقفُ الأمُّ حائلاً دون ذلك.

* وإذا افترضنا أنَّ الأبوين مختلفان في معاملةِ الطِّفل بموقف معيّن ،

فلا يجوزُ لهما أنْ يعلنا خلافَهما أمامَ الطّفل ، بل يعالجان ذلك فيما بينهما ، دونَ أنْ يسمعَ طفلهما ، لأنَّه يدركُ مغزىٰ خلافَهما بشأنِهِ ، فيتأثّرُ وتضطربُ المعاييرُ أمامَه ، وتصبحُ غير واضحةِ المعالم ، ومن ثمّ لا يعودُ يلتزمُ بما يُطلبُ منه .

* كما أنَّه يجبُ علىٰ الأبوين تغيير المواقفِ الثَّابتةِ المقرّرة أمامَ الطِّفل ، إذ لا يعوّدانه على سياسةٍ واحدةٍ دائمةٍ ، فإنَّ ذلك يظهرُ عيوبَهما أمامه ، ويتمادى في الخطأ ما دامَ يعرفُ النَّتيجةَ ، وما دام لا يجدُ التوّجيه السَّليم ، وربما يتولَّدُ في نفسهِ الشُّعور بالظُّلم والاضطهادِ إذا ظلماه ، ولم يعدلا في تعاملهِ ومعاملته .

* وعندما ينمو الطّفل ويكبرُ قليلاً في الأسرةِ ، يكبرُ معه وعْيُه وإدراكه ، ويتأثّرُ بمن وبما حولَه ، وتكمنُ في هذه المرحلةِ مرحلة القدوة بمن حوله ، وهي مرحلةٌ مهمّةٌ جدّاً ، فإذا كانتِ القدوةُ حسنةً ، فهناك أملٌ طيّب في صلاحِ الطِّفل ، وإن كانتِ القدوةُ سيئةً ، ففسادُهُ محتملٌ .

* إنّنا ننظرُ إلى الطّفلِ على أنَّه كائنٌ صغيرٌ لا يدركُ ولا يعي ، وهذا خطأٌ واضحٌ ، فالطِّفلُ ذو قدرةٍ كبيرةٍ على الالتقاطِ أكبرُ وأكثرُ مما نظنُّ ، صحيحٌ أنَّه لا يدركُ كلّ ما يراه ، ولكنّه يتأثّر بهِ ، ويحاكيه أحياناً ، ويقلِّدُ أحياناً أخرى بغيرِ وعي كلَّ ما يراهُ حولَه أو يسمعهُ .

* ومن طرقِ الالتقاطِ والمحاكاةِ يبدأُ الطِّفلُ فيتعلّمُ الكلام ، ويحفظُ معاني الأصواتِ والمفرداتِ والجملِ ، ولو فكّرنا في كيفيّةِ تعلُّم الطّفلِ اللغةَ وإدراكها لألفينا أنَّها معجزةٌ كبرى ، حارَ العلمُ والعلماءُ في ماهيّتها ، وتدلُّ على أنَّ هذا المخلوقَ البشريَّ ذو وعي مبكّر ، وضَعَه الخالقُ فيه ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

* ومع زيادةِ وعي الطّفل يلتقطُ من أبويه قَدْراً متزايداً من القيم ، ويكونان قدوةً له في الأمورِ الحسنَةِ أو السّيئة ، ومرّة واحدةً من القدوة

السّيئة تكفي لتحطيمِ القدوة ، فإذا عرفَ الطفلُ أنَّ أمه تكذبُ على أبيه ، أو أنَّ أباهَ يكذبُ على أمّه ، أو أنَّ أحدهما يكذبُ على الجيرانِ ، فإنَّ هذه السيئةَ كفيلةٌ بأنْ تدمِّرَ مفهومَ الصِّدقِ في نفسه ، وبعدَ ذلك لو راحا يردِّدان على سمعهِ المواعظَ والتّوصياتِ بالصِّدقِ لما أثّر ذلك بنفسهِ ، وكذلك لو وجدَ أبَاه أو أمَّه يغشُّ أحدهما الآخر ، أو يغشّان النّاس فلنْ يستقيمَ ، ولو وجد مَنْ حوله يسرقُ لما وجَدَتِ الأمانةُ إلى نفسه سبيلاً .

* وقد لا يأْبه الطِّفل إذا ما كذبَ الآخرون ، أو سرقُوا ، أو غشّوا ، وخصوصاً إذا كان يتلقّى القيم السَّليمةَ من أبوين عاقلَيْن يقدّمان لطفلهما أحسنَ نماذج التّربية الإسلاميّة والأخلاقيّة ، ولكنّه يتأثّرُ لو رأى أبويه يغشّان أو يكذبان أو يراوغان ، ولن يزولَ هذا الأثر من نفسِه ، وقد يبقى بقيّة عمره .

* لذلك حرصَ الإسلامُ على أنْ يكونَ الأبوان هما القدوة المثلىٰ المباشرة لطفلهما ، وخصوصاً في الفترةِ التي ينحصرُ فيها عالم الطِّفل فيهما ، فتتكونُ في نفسِ الطِّفل بالتَّقليدِ والمحاكاةِ تلك القيم والمبادىءِ الصَّحيحة بغيرِ جهد أو صعوبة ، وتنشأُ في نفسِه منذ الصِّغر ، فتكون عميقةَ الجذور ، ثم يزيدُها التَّعليمُ والتَّوجيه رسوخاً حين يكبرُ الطِّفْلُ ويتلقّى التَّعليمَ ، ويخالطُ المجتمعَ ، ويأخذُ منه ويعطي ، وتنصقلُ تجاربه في معاملةِ النَّاس .

* ونجدُ من هذه النَّقطةِ المهمة أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ ، كانَ يحرصُ على توصيةِ الرّجل أنْ يظفرَ بذات الدِّين فيقول: «تُنكحُ المرأةُ لأربعِ خصال؛ لمالِها ، ولحسبِها ، ولجمالِها ، ولدينِها ، فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تربتْ يداك»[1]. فذات الدِّين هي الحصنُ الأمينُ لتنشئةِ الأطفالِ بالقدوة ، ثم التّلقين ، وتربيتهم على القيمِ الرّفيعةِ منذ نعومةِ أظفارهم ، فتصبحُ القيمُ

---

(١) أخرجه الشيخان.

عادةً لهم وسجيةً ، وتصبحُ جزءاً من كيانهم ، لأنَّ الطِّفلَ يجدُ مِنْ حوله القيم السَّليمة ، فتكون له نماذج يحتذيها ويجعلها نبراساً له في حياتِهِ.

* والوالدانِ المسلمانِ الواعيان يستمدان أوامرهُما ونواهيهما من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومن السُّنَّة النّبويّة المطهّرة ، ويجعلان من ذلك مهاداً وثيراً للطّفلِ كي يعلمانه ما يتوافقُ مع سنِّه وقدراتِه ، لينشأَ منْ طفولته وهو يتعودُ أنْ يتصرَّفَ لمرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيعوِّدان الطِّفْل على الصِّدق ، والاعتمادِ على النّفس ، وجميعِ القيمِ الإسلامية والأخلاقيةِ.

* ولكنَّ هناك دوافع للطّفلِ تفترقُ عن دوافعِ الكبارِ ، إذ للطّفل دوافعُه الشَّخصية ، ودوافعُه الذّاتية ، فقد يكذبُ ـ وقد يكون أبواه بعيديْن عن الكذبِ ـ ، ولكن لا يستمدُّ ذلك من قدوةٍ سيّئةٍ أمامَه ، فهو يكذبُ أحياناً دون أنْ يقصدَ الكذب بدافعٍ من خياله الفيّاض الذي ربما يجسّمُ له أشياء لم تحدُثْ ، فيراها كأنَّها حدثَتْ ، ويقصُّها على أنَّها واقعٌ ، وعندها لا ينبغي للأبوين الواعيَيْن أنْ يقولا له بأنّه كذّاب ، وإنّما تعالَجُ هذه النُّقطة بالهدوءِ ، والنَّصيحةِ اللطيفةِ بأنْ يعلِّماه كيفَ يتذكَّر جيّداً ، ولعلّ الأمْر ليس كما يقول ، إلىٰ أنْ يردّاهُ إلى الحقيقةِ الصحيحةِ.

* والطّفل قد يكذبُ أحياناً بقوّةِ خياله ، فهو يتمنّى ويتمنى ويتمنّى ، ثمّ يصدّقُ ما يتمنى ويتخيّلُ أنّه حدثَ بالفعلِ ، ويبدأُ فيروي هذا الخيال على أنّه حقيقةٌ ، وعلاجُ هذا كعلاجِ سابقه.

* وقد يقودُ التّمنّي الخيالي الطّفل إلى نسجِ هالةٍ من حوله ، وذلك تحقيقاً لرغبات لا تتحقّقُ في واقعِ حياته ، كأنْ يصنعَ ويختلقَ لنفسه بطولةً وهميّةً أمامَ أقرانه ، وتضخيم الواقعِ هذا بنفس الطّفل يحتاجُ إلى علاجٍ مدروس لإعادةِ الثّقة إليه في نفسه علىٰ طبيعتها.

* وقد يكذبُ الطّفلُ أحياناً ليأخذَ قدراً أكبر منَ المالِ ليشتريَ بعض

ما يشتهيه ، وعلاجُ هذا النَّوع يحتاج إلى النَّصحيةِ والحزمِ ، ليعودَ إلى الصَّواب .

* ولعلّ أكثرَ الدَّوافع الذّاتيةِ التي تتشابَه في أطفالِ العالمَ ، دوافعُ السَّرقة والكذب ، وهذانَ الدَّافعان هما أكثرُ انحرافاتِ الطُّفولة حدوثاً وتوقعاً ، وهما يحتاجان جهداً مميزاً منَ الوالدين حتى يَعْبُرَ الطّفلُ تلك المرحلةَ بسلام ، ويسلكَ الطّريقَ السَّوي الذي يوصلُه إلى شاطىءِ الأمان .

* وربما تعُودُ سرقةُ الطّفل أو كذبه إلى الحالةِ الاجتماعيةِ التي يعيشُها الأبُ ، فقد يكون فقيراً ، وهناك رغباتُ الطّفلِ في أشياءَ يحبُّها ، أو ممارسة هواياتٍ موجودة أمامه في المجتمع ، وهناك قد يلجأُ الطّفْل إلى السَّرقةِ أو الكذبِ لإرضاءِ رغباته الجامحةِ غير المفيدة ، وهذه الانحرافات تحتاجُ إلى صبْرٍ وهدوء ، وذلك بالنَّصيحةِ والتَّلقين ، وبتعويده الصِّدق ، إذ الصّدقُ رأسُ كلِّ فضيلةٍ ، فإنَّ الطِّفلَ إذا ما تعوَّد الصِّدقَ ، فلن يكذبَ ، وسيعترفُ بالسَّرقة ، وربما يبتعدُ عنها حتى لا يعترفَ بهذا العمل المخزي .

* وهناك دوافعُ كثيرةٌ متوقَّعةٌ وموجودةٌ لانحرافِ الطّفلِ ، على الرّغمِ من القُدوة الصَّالحة ، ومن أمثلةِ ذلك حبُّ الطّفلِ للسَّيطرة أو العدوان ، فيعتدي علىٰ أقرانِه في اللعبِ ، وهذا الدّافعُ يلاحظُه المربّون في المراحل الابتدائية ، وكثيراً ما يتلقون الشّكاوى على هذا الطّفل العدواني ، وهذا يحتاجُ إلى التَّوجيه السَّليم والتَّلقينِ الطّيّبِ من الأبويْن والمربّي ، لكي يتحقّقَ نجاحُ التَّربية الصَّحيحة ، وإلا حدثَ الجنوحُ والاضطرابُ الذي سيصاحبُه إلى نهايةِ حياته .

* ويحسنُ بنا ونحنُ في هذه الرّحلة الشَّائقة في العنايةِ بالطّفلِ في ضوء الشَّريعةِ الإسلاميّةِ أنْ نتعرَّضَ لموضوعِ العقوبةِ والمثوبةِ ، فالعقوبةُ تكونُ في بعضِ الأحايين والأوقات وسيلة ناجحة من وسائلِ تربيةِ الطّفل ، ونجاحه في كثيرٍ من مهمّات الحياة .

* ومن الجديرِ بالذّكْر أنّ كثيراً من النَّظريات الغربيّةِ الحديثةِ ، والتي وجَدَتْ محضناً دافئاً في الشَّرق ، تحرّمُ العقوبةَ ، وتعتمدُ على المثوبةِ ، وأنَّ التَّربيةَ بالمثوبةِ أكثرُ نجاحاً ، وهاهنا نحتاجُ إلى وقفةِ نقْدٍ واقعيّةٍ ، فقد رأينا أنَّ كثيراً منَ الأجيالِ قد درجتْ على الميوعةِ والتّفكك باستخدامِ عنصر المثوبةِ والتَّغاضي عن أخطاءِ الأطفال ، بل وتجاوُزِ السُّلوك الخاطىءِ الذي يمارسونَه أحياناً ، أو يقتبسونَه من هنا وهناك.

* وأحبُّ أنْ أوضِّحَ هاهنا نقطةً مهمةً فأقولُ: ليستِ التربيةُ بالعقوبةِ أمْراً غريباً عن تعاليم الإسلامِ ، والعقوبةُ المدروسةُ ذات المضمون الهادف أمرٌ طبيعيٌّ بالنّسبةِ للطّفل خاصّة ، فلا يجبُ أنْ تُسْتَنكر من بابِ العطف على الطِّفل ، أو من بابِ الرُّقي الحضاريّ المزعوم ، فالأطفالُ الذين تلقّوا نصيباً منَ العقوبةِ الصَّحيحةِ نجحوا في الحياةِ ، وبنوا مستقبلاً صالحاً لهم ولمجتمعِهم ، أمّا الأطفال الذين نشؤوا في الظّلال الباهتةِ التي تحرّمُ العقوبةَ ، فكانوا أجيالاً مائعةً مضطربةً في سلوكِ جديّاتِ الحياةِ ومهامّها.

* علينا أنْ نفهمَ جميعاً بأنَّ العقوبَة الحسنةَ للطِّفل ليستْ أمْراً ضارّاً بكيانِ الطّفل ، كما يروّجُ أصحابُ المذاهبِ التّربوية الغربيّة ، ومن اقتفى آثارهم منَ المشارقةِ الذين تركوا الحبلَ على الغاربِ للطِّفل ، فنشأَ في ميوعةٍ لا تحتمل.

* وليس معنى هذا أنّنا نقرُّ العقوبةَ ، فليستِ العقوبةُ الجسميّةُ الحسيّة أوّلَ ما تلجأُ إليه الأسرةُ أو المربّي ، بل تلجأُ إلى المثوبةِ أوّلاً إلى أنْ تنعدمَ الحيلةُ أمامَه ، فيبدأُ بالعقوبةِ المعنويةِ ، وهكذا إلى أنْ يحتاجَ إلى العقوبةِ الحسيّةِ الحانيةِ؛ نعم الحانية التي يحسُّ الطّفل من خلالها أنّه ذو كيان ، ويجبُ أنْ يكونَ عنصراً نافعاً في المجتمع.

* ولكنْ هل كلُّ الأطفالِ بحاجةٍ إلى عقاب؟!

* يجبُ أنْ نعملَ في الحسبانِ أنْ نعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقّه ، وأنْ نراعيَ الفوارق الفرديّة بين طفْلٍ وطفل.

* فهناك طفلٌ لا تحتاج أنْ تعاقَبه مرّةً واحدة في فترة طفولتِه.

* وهناك طفلٌ يرىٰ في الإعراضِ عنه أكبرَ عقوبةٍ تخترمُ وجدانَه وكيانَه.

* ونلحظُ طفلاً يتألّمُ باكياً لو عَبَسْتَ في وجهِهِ.

* ونرى طفلاً آخر يرعوي لو وجَّهتَ له كلمةً بسيطة.

* ثم إنّنا نجدُ بعضَ الأطفالِ لا يرعوي أبداً حتّى يُعاقبَ عقوبةً حسِّيّةً ، ولو عاملتَه كغيرِهِ بالإعراضِ أو العبوسِ ، أو الكلامِ لفسدَ وأفْسدَ.

* إنَّ المربي الحكيمَ الحصيفَ هو الذي يدرسُ حالةَ الطفلِ الذي بين يديه ، ومن ثمّ يقدّرُ إنْ كانَ ممّن تصلحُ له وتصلحه المثوبةُ أو العقوبةُ ، أو المراوَحةُ بينهما.

* على أنَّ أكثرَ المربّين أدلوا دلْوهَم في هذا المجالِ ، وقالوا: إنَّ الأطفالَ على الأغلبِ يحتاجونَ إلىٰ المثوبةِ والعقوبةِ تارةً بعد تارة ، وأقرُّوا أنَّهم يحتاجون إلى المثوبةِ والعقوبةِ في تربية الطّفل.

* فهناكَ أعمالٌ يحتاجُ الطِّفل فيها إلى التَّشجيعِ والمثوبةِ ، كتعلّمِ عادةٍ حَسَنة؛ والتّشجيعُ قد يكونُ بابتسامةٍ ، أو بقُبْلة حانيةٍ من الأمّ أو الأب ، أو ربّما بِلُعْبةٍ جميلةٍ تُعْطَىٰ له مكافأةً على الاستجابةِ للتّعلُّم الحَسن ، أو العَمَل الطّيِّب الذي قامَ بهِ ، أو بأيّ شيءٍ يعرفُه الوالدان من خلالِ معرفتهما لطفلِهما أنَّه محبَّبٌ إليه ، ومن ثمّ يكون مشجّعٌ له وترغيبٌ لما قام بهِ من عمَلٍ حَسن مفيد.

* إنَّ عمليةَ التَّشجيعِ ضروريةٌ دائماً ، ليتابعَ الطِّفلُ المسيرةِ في طريق السَّلام وطريقِ الصَّواب ، فمثلاً صعوبة النُّطق لدىٰ الطِّفل قد تضايقه بادىءَ الأمْر ، ولكنْ إذا شجَّعه الأبوان حتى يستقيمَ لسانُه ، وتسيلَ الكلماتُ من

فَمِه ، فإنَّ ذلك يجعلُه يستجيبُ بشكلٍ أسرعَ وأحسن.

* وأمّا العاداتُ السَّيئة التي يتعرّضُ لها الطّفل ، فلا بدَّ من إزالتها دون الخوفِ على إزعاج الطِّفل أو المساس بمشاعرِه ، وإلاّ سيستعصي حلّها في المستقبلِ ، والأفضلُ إزالتها منذُ الطّفولة في أخفِّ صورة ممكنة ، مرّة بالتّشجيع ، وإذا لم يتركِ العادةَ السَّيِّئة باللين ، نلجأُ إلى أمْرٍ حاسمٍ في نهايةِ الأمرِ باستخدامِ العقوبة البدنيّة التي تنقذُه من العادات السَّيِّئة ، وعندها لا خوف على الطِّفلِ من العُقَد أو الكبْت أو ممّا تلوكُه النّظريّات التّربوية ، ما دامتِ العقوبةُ لم تتجاوزِ الحد المعقولَ ، بل الحدُّ الحكيمُ الهادفُ الذي يقرّره المربّي ، والتي تقرره طبيعةُ الطّفلِ نفسه ، إذ المثوبةُ في هذا الموقفِ ـ كما تشيرُ بعض النّظريات التّربويّة ـ تصبحُ شرّاً مُستطيراً ، لأنّها تعوّقُ الإحساسَ بالواجباتِ التي ينبغي أنْ يعمَلَها ، وتعوّقُ نموه الشّخصي وتفسدُ كذلك شخصيّته؛ ومن أمثلة ذلك أنْ يأمرَ الأبُ طفله بأنْ يذهبَ ويشتري شيئاً ضرورياً للبيت ، فيمتنع ، فيقول له: اذهبْ يا حبيبي وسأُعطيك كذا ليرةً أو مالاً ، أو أعطيكَ قطعةَ حلوىٰ ، أو يشترطُ الطِّفل على أبيه ثمناً ما للذّهاب ، فيقبلُ الأبُ الشَّرط بنيّةٍ صالحةٍ طيّبة ، ولكنّه بهذا اللونِ من ألوانِ التَّعامُل يفسدُ طفْله ، بل هذه العادة مَفْسدَةٌ للطِّفل أي مَفْسدة ، لأنَّه قد يقْتلُ في نفسهِ الإحساسَ بالواجبِ وضرورة الالتزام بأدائِه ، ومن ثمَّ يصلُ الأمْر بالطِّفل ألا يعمل عملاً إلا مقابل ثَمَن ، أو بالتّحايُل عليه ، وهذا يعني أنَّه لنْ يفلحَ في شيء في المستقبلِ القريب.

* هذا والعقوبةُ درجاتٌ تبدأُ بعدم التَّشجيع ، ثمّ إلىٰ الإعراضِ المؤقّت ، فالعبوسُ ، والزَّجرُ بصوتٍ غاضب إلى التّهديد ، ثمّ إلىٰ حرمانِ الطِّفل من الأشياءِ المحبّبة لديه ، ثم التّهديد بالضّرب الخفيف ، أو الموجع قليلاً حتى تنصلحَ حالُ الطّفلِ ويستقيمَ شأْنه ، وينبغي للمربّي أنْ يستهدفَ الإصلاحَ وهو يقومُ بعقوبةِ الطِّفل ، لأنَّ التَّشفّي قد يحدثُ انحرافاً في نفسِ الطِّفل ، وربّما يتعوّدُ على الإهانة فلا يَعُدْ يبالي بشيء.

* فالعقوبةُ إذاً ، ينبغي أنْ تنفَّذَ بحكمةٍ واجبةٍ في كلّ شأْن من شؤونِ التّربيةِ ، فلا يسرفُ المربّي في استخدامها ولا يرخي الحبْلَ ، وعليه أنْ تكونَ العقوبةُ مناسبةً لخطأ الطّفل ، فلا يضربْه لكلّ أمْر ، إذ الضّربُ يكونُ عديمَ التّأثيرِ في النّهاية.

* فمثلاً قد يستخدمُ المربّي التّهديد حين يقعُ من الطّفل ما يحتاجُ إلى ذلك ، فإنِ اعتقدَ الطّفل أنَّ التَّهديدَ هو لمجرّدِ التَّهديدِ لا للتّنفيذ ، فإنَّه إنِ اعتقدَ ذلك فلن يهمَّه التّهديدُ بطبيعة الحال ، وهنا ينبغي للمربّي أنْ ينفِّذَ التّهديد ولو مرّة إذا أحسَّ بأنَّ الطّفل قد استخفَّ بالتّهديد ولم يعدْ يهمّه الأمر.

* * *

الفصل الثَّالث
نشْأَةُ الطِّفْل من الأَلف إلىٰ اليَاء

* عندما بدأتُ أنسجُ خيوطَ هذا الفصل استوقفتني أسئلةٌ كثيرةٌ ، وصادفَتْني تساؤلاتٌ عديدةٌ ، كيف يكونُ عندنا أطفال مثاليون؟ وهل هناك طفْلٌ مثاليّ يمكن أنْ ينشأَ على الفضيلة من الألفِ إلىٰ الياء؟!

* ولم أستطعْ أنْ أعطيَ إجابةً محدّدةً بادي الرّأي ، وإنّما لجأتُ إلى الكتُب المتخصّصة في هذا الشّأن ، ثمّ إلى عددٍ من المتخصّصين في تربيةِ الطّفل والأسرةِ ، في عدد من العواصمِ العربيةِ وغيرِها ، ولقيتُ كثيراً من الفضلاء ممن درسَ داخلَ البلاد وخارجَها ، وطرحتُ عليهم السّؤال نفسه : هل يوجدُ أطفال مثاليّون في الإسلامِ؟! وهل نستطيعُ أنْ نصنعَ طفلاً مثاليّاً في ضوءِ الإسلام؟

* وتأتي الإجاباتُ من هؤلاء هيَ هيَ أو قريبةٌ من هي ، فلم يستطعْ أحدٌ أنْ يأتيَ بجوابٍ شافٍ كافٍ وافٍ ، وإنّما كانتِ الإجاباتُ مطّاطيّة ، متأرجحةً بين الجزمِ والسُّهولة ، وبعضُهم يضربُ أمثلةً عنْ أولاد السّلف[1] ، وأخرون يصفونَ التّربيةَ عند الغرب ، وبعضٌ آخر يأتي بسيل من نظرياتِ التّربية عند العربِ قديماً ، وعند الغربِ حديثاً ، ولم نصلْ إلى حلٍّ مناسبٍ نعرضُه للنّاس ، بل وللدنيا .

---

(١) سنتحدث في فصل خاص عن الطفل والسلف إن شاء الله .

* ومن هذا المنطلق بدأتُ هذا الفصل ، كيما آخذَ بيد القارىءِ إلى الأسلوبِ التَّربوي الذي أوصىٰ به العلماءُ والمربُّون قديماً وحديثاً ، لعلّي أسدُّ بعضَ الثَّغرات التي تعترضُ تربيةَ الطّفل في بلادِ الإسلام ، ولعليّ أكونُ خدمتُ الأطفالَ الأحبّاء في هذا العالم ، ولعلَّ أحدَ الناسِ يستفيدُ من هذا ، فيدعو لي دعوةً مستجابةً بظهر الغيب .

* إنَّ السَّنواتِ الأولىٰ من عمرِ الطّفل مرحلةٌ مهمّةٌ جدّاً ، وقد سمّاها العلماء : السّنوات التّكوينيّة ، وأثبتَ كثيرٌ من علماءِ تربية الطّفل أنَّ ما يجده الطّفل من المعاملةِ والتّلقين في سنيّه الأُوَل ، يستمرُّ صداهُ في نفسهِ طيلةَ حياته ، وفي حِلّه وترحاله .

* ولهذا نجدُ أنسامَ التَّربيةِ النَّبويّةِ تهبُّ على الطِّفلِ لتعطيه أحلى العبقَات ، ونجدها أيضاً توجِّه دعوةً إلى الأسرةِ ، إلى الآباءِ ، إلى الأمَّهات ، كي يربُّوا الأطفالَ على مائدةِ المحبّةِ منذ نعومةِ أظفارهم ، يقول الحبيبُ المصطفى ﷺ: «أدِّبُوا أولادَكم على ثلاثِ خصال : حبّ نبيّكم ، وحبّ آل بيته ، وتلاوة القُرآن ، فإنَّ حملةَ القرآن في ظلّ عرشِ الله يوم لا ظلّ إلاَّ ظلّه مع أنبيائِه وأصفيائِه»[1] .

* ومنَ الضروري أنْ نلقِّحَ أذهانَ الأطفالِ بقصص أبطالِ الإسلام قديماً وحديثاً ، فهم منَ الأسوة الحسنَة ، ولقد كانَ أعلامُ الصَّحابةِ وأكابرهم وأعلياؤهم وعلماؤهم يفعلونَ ذلك ، فهذا سعدُ بنُ أبي وقّاص الزّهري ـ رضي الله عنه ـ يقول : كُنّا نُعلِّم أولادَنا مغازي رسولِ الله ﷺ ، كما نعلّمهم السّورة منَ القرآن .

* ويوصي الإمامُ الغزالي في «الأحياءِ» بضرورة تعليم الطّفل القرآنَ الكريمَ ، وأحاديثَ الأخبار ، وحكاياتِ الأبرار ، والأحكامَ الدّينية .

---

(١) رواه الطبراني عن علي رضي الله عنه .

* ولكنّا قبل أنْ نصفَ الدواء ، علينا أنْ نعرفَ ماهيّة الدّاء ، وأنْ نتعرَّفَ أحوالَ الطُّفولةِ وأهميّتها ، وحكمةَ إكثار النّسل ، واختيار الزّوجة الصّالحة ، وبعضَ أحكامِ المولود ، ثم ننتقلُ إلى تربيةِ الطّفل ، وبعد ذلك نأتي ببعضِ الأمثلة من عنايةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ في تربيةِ الطّفل وتعليمهِ ، وبالتّالي نكونُ قد تعرفْنا أهمَّ الملامحِ في نشأةِ الطّفلِ من الألفِ إلى الياء تقريباً.

* إنَّ الطفولةَ عند الإنسان هي المرحلةُ الأولىٰ من مراحلِ حياته ، تبدأُ منذ ولادتهِ ، وتنتهي حينَ بلوغِه سنّ الرّشدِ تقريباً ، قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] ، وقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩].

* إنّنا نلمحُ أنَّ هاتَيْن الآيتَيْن تشيران إلى سنِّ الطُّفوليّة الذي يمتدُّ من الميلاد إلى حين البلوغ.

* لسنا ننكر أنَّ مرحلةَ الطُّفولة هذه من أهمّ مراحلِ عمر الإنسان إنْ لم تكن أهميّتها ، فهي تتميّزُ عن غيرِها بِسِماتٍ واستعداداتٍ ، فهي أساسٌ لمراحلِ الحياةِ القادمةِ ، وهي جذورٌ لمنابتِ التّفتُّح الإنسانيّ ، ففي هذه المرحلة الخصيبة تتفتّق مواهبُ الإنسان ، وتنمو مداركه ، وتبرزُ مشاعرهُ وإحساساتهُ ، وتبدو استعداداتهُ ، وتتحدَّدُ ميولُه واتجاهاتهُ ، وتأخذ شخصيّتهُ بالتّكوين والبناء ، لتغدو مميزةً عن غيرها.

* إنَّ هذه المرحلةَ تشبهُ إلى حدٍّ ما الكتابَ الأبيضَ المفتوحَ ، يُسجَّلُ فيه كلّ ما يَرِدُ عليه من حوادثَ وأحداثٍ تعرضُ وتقعُ له ، وكذلك ترتسمُ انطباعات في ذاكرتهِ وفي مخيّلته.

* ومرحلةُ الطّفولةِ أيضاً كالأرضِ الصّالحة للاستنبات ، فكلُّ ما يُغرسُ فيها من محاسنِ الأخلاقِ وكرمِ الصّفات ، أو ما ينثرُ فيها من بذور الغيّ والإفسادِ ، كلّ هذا يؤتي أكله في المستقبلِ الحياتي للطّفل.

* وفي هذه المرحلةِ المهمّة مرحلة الزَّهر ، يكتسبُ الطّفل من محيطه العادات الحسنة أو السيئة ، أو الأخلاق الحِسان ، أو الذّميمة ، أو السُّبل المستقيمة المضيئة ، أو المنحرفة المعوجّة المظلمة.

* إنَّ أوّلَ ما يتراءى أمام عيني الطّفل صورةُ أُمِّه وهي تبتسمُ له ابتسامةَ الحبِّ والحنانِ ، فتضمّه ضمّةَ الإشفاقِ إلى صدرها ونحرها ، وتغمره بوابل من همساتِ القبلاتِ ، وأنفاسِ الهمسات الحانية ، فتؤثّرُ فيه هذه الأنداء ، ويتأثّرُ هو بذلك العطفُ والحنو والحنان ، ويشعر أنَّ صدرَها هو الملجأُ الحصينُ الذي يأوي إليه ويثق به ، وأنَّ قلبَها هو الذي يسعه ، فهي تطعمهُ إذا جاعَ وتضحكه إذا بكى ، وتبعدُ عنه الأذى والقذى ، وتبذلُ الغالي والرّخيص من أجله.

* وبعد إذ يفتحُ الطّفل عينيه على محيطٍ أكبر ، فيرى غيرَ أمِّه الباسمة الحانية ، يرى أباه ، وإخوتَه ، وبعضَ أفراد أسرتهِ ، وإذ ذاك يحسُّ بالأمنِ والأمانِ بينهم ، ويخلدُ إلى الطُّمأنينة والهدوء ، ثم يشعرُ بثقةِ نفسه ، ومكانته في هذا المحيطِ من حوله.

* والوالدان هنا مسؤولان ـ في هذه المرحلةِ المهمّة من حياة الطِّفل ـ عن تربية الطّفل عقليّاً وجسميّاً ، وتعليمه الآدابَ الاجتماعيّة والأدبيّة ، ليكتسبَ منهما العاداتِ الفاضلةَ ، ويقتبسُ منهما الأخلاقَ القويمة ، وذلك عن طريقِ القدوةِ الصَّالحة في القولِ والعملِ وحبّ الفضيلة ، فلا يرى منهما إلا كلَّ خير وفَضْل ، ولا يسمع إلا كل خير وطيْب.

* ويمكنُ للأبوين أنْ يربّيا الطِّفلَ عن طريق التَّعليم والتَّلقين الصَّحيح ، فيغرسان فيه الإيمان ، وحبّ الصّدق قولاً وفعلاً ، وكراهية الرّياء ، ويرغّبانه في الاستقامةِ وحبّ الخير ، وبهذا يكونان قد قاما بأداءِ الأمانةِ تجاه هذه الهدية الرّبانية «الطّفل» ، نعم إنّه هديةٌ ربانيّةٌ وأمانةٌ يجبُ على

الأبوين أنْ يحسنا رعايتها ، وعدم التّهاون بها ، وإلا ضاعَ الطِّفلُ ، وألقياه في غيابةِ جبٍّ ليس له قرار .

* لقد خلقَ اللهُ الأرضَ ، وأعدَّها سَكَناً للأحياء ، وخلقَ فيها ما يساعدُ على الحياةِ ، وجعلَ الإنسانَ فيها خليفةً له ، فيجبُ على الإنسان إصلاحها وإعمارها لدوام الحياة على ظهرها ، وليقومَ بعبادةِ الله والقيام بالطَّاعات ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ولهذا جعل النَّسلَ مستمراً ، وشرع الزَّواج للإكثار من النّسل ، إذ هو في الحقيقةِ سنّة من سننِ الإسلام حثَّ عليه الحبيبُ الأعظمُ ﷺ في مواقفَ وأحاديثَ كثيرةٍ. وفي كتابه «الإحياء» ذكرَ الغزاليُّ أنَّ فوائدَ الزَّواج خمسٌ هي: الولدُ، كَسْر الشَّهوة ، تدبير المنزل ، كثرةُ العشرة ، مجاهدةُ النَّفس بالقيام بهنَّ.

* ولعلَّ اهتمامَ الإسلامِ بالطِّفل ورعياته له من الألفِ إلى الياء ، أنْ جعلَ قواعدَ مهمّة تخدمُ الطِّفَل قبل مجيئهِ إلى الدنيا ، ولما كان طفلُ اليوم هو رجلُ الغَدِ ، ودعامةُ المجتمع ، وعمادُ الأمَّة ، فقد عنيَ الإسلام به عنايةً كبرىٰ ، وذلك بتهيئةِ كلّ ما يصلحُه ويَصْلحُ له في الدُّنيا والآخرة ، فحثَّ الأبَ على اختيارِ الزَّوجةِ الصَّالحة ، ذاتِ الأعراقِ الطّيبة والأصول الكريمةِ ، الحَصَان ذات الدِّين والإيمان ، لأنَّها ستورِّثُ طفلَها كلّ هذه العاداتِ والأخلاقِ الحِسان ، وعند إذ يُولدُ الطِّفلُ وينشأُ على أكرمِ الخصائِل من كريمِ الطّباع وسمو الصِّفات ، وحسنِ الأخلاق ، ونبلِ العادات ، ولذلك قال أحدهم لأولادِه يخاطبهم:

وَأَوّل إحْسَانـي إليكـم تخيّـرِي ... لمـاجِـدةِ الأعْـراقِ بـادٍ عفـافُهـا

* إنّنا نرى كثيراً من النّاس يختارُ الزّوجة على مقياسِ جماليّ معيّن ، فيسأل عن حسنِ المظهر ، ولا يبالي بحسنِ المخبر[1] ، ولا بتربيتها ،

---

(١) ولله در من قال محذراً من اللئيمة الجميلة فقال:

لا تنكحـنَّ لئيمـةً لمحـاسـنِ ... فـاللـؤمُ يبقـىٰ والمحـاسـنُ تـذهـبُ

وربما تكون الصُّورة بالعكسِ ، إذ يرغبُ أهل الفتاة بالفتى ذي الثّراء الطّويل العريض ، لا يعرفون منْ أينَ اكتسبَه ، المهمّ وفْرةُ المالِ ، أمّا الأخلاقُ وحسنُ المنبتِ فلا يهمّهم من قريبٍ ولا من بعيد ، وبالتّالي نلاحظ أنَّ ذريةَ هذيْن الزَّوجين لا تثمر الأطفال الصّلحاء لأنفسهم أولاً ، وللأمّة ثانياً ، والشّواهد العملية كثيرة في سِيَر الأقدمين ، وفي عصرنا الحاضر.

* إنَّ مَنْ يُعْجَب بحسنِ القوام ، وجمالِ الصُّورة والتّأنق في الحديثِ ، والتَّصنُّع في اللباس ، لا يلبث أنْ تنكشفَ له الحقائق ، ويرىٰ الأخلاقَ الحقيقيةَ ، فيجدُ التّمثيل عنواناً لذلك الزَّواج ، وإذا هو أمام سيلٍ من رداءَةِ الطَّبع ، وقبحِ العاداتِ ، وسوءِ المعاملةِ في القولِ والفعلِ والعياذِ باللهِ تباركَ وتعالى.

* لقد أمرَ الإسلامُ أنْ يُنْظَر إلى الزَّواج من المنظارِ الصَّحيح لتتمّ الحياة ، ويسعدَ الزَّوجان ، وقد وجَّه أيضاً إلى اختيارِ الصَّلاح والصَّالح النّافع لكلا الزَّوجين ، وحضَّ على اختيارِ المرأةِ الصَّالحةِ من الأسرةِ الشَّريفة ذات الخلق والدّين القويم ، ونجدُ الحبيبَ الأعظم ﷺ يدعو إلى هذا بقوله: «تزوّجُوا في الحُجَر[1] الصَّالح فإنَّ العرقَ دسّاسٌ».

* ونجد أيضاً أنَّ الإسلامَ يحضُّ ويحثُّ على اختيار الدِّين والخُلق الكريم في الرّجُل والمرأةِ ، فإذا أتى الشّاب الصّالح ذو الدِّين والخُلق فيُزوّج ، وكذلك المرأةُ تنكَح لأربع ، وأمر أنْ يظفرَ بذات الدِّين.

* وحضَّ الإسلامُ كذلك على الزَّواج بالبكْرِ ، وعلى الزَّواج بالولودِ الودودِ ، وعلى المرأةِ الصَّالحة التي تسرُّ زوجها ، قال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ: «إنَّ الدّنيا كلَّها متاعٌ ، وخيرُ متاعِ الدّنيا المرأة الصَّالحة»[2].

---

(١) «الحُجَر»: الأسر.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي.

* وبعد هذا كلّه تأتي مرحلةُ الطّفولة ونعمةُ الأولاد ، وعلينا هاهنا أنْ نتعرضَ لفكرة مهمّة؛ هي حكْمُ الإسلام في كُرهِ البنَات ، وهي ما نراهُ في كثيرٍ من المجتمعات في العصر الحالي امتداداً لعصورٍ خاليات.

* إنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الخالقُ البارىءُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] ، ولعلَّ الحكمةَ الإلهيّةَ من تقديمِ الإناثِ على الذّكور؛ الحثُّ على الاهتمامِ بهنَّ ، وترغيب الأبوَيْن في إكرامهنّ ، لأنَّه جلَّ وعز عليمٌ بمحبّةِ كثيرٍ من الأزواجِ للذّكور ، لذا بدأ بالصّنف الذي يريدهُ ويشاؤه هو ، لا ما يشاؤه الأبوان ، ولأنَّ أهلَ الجاهليةِ كان معظمُهم يكرهُ البناتِ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

* لذلك جاءتِ الأحاديثُ الشَّريفةُ تدلُّ على عظيم الثَّواب وكريمِ الأجر لمن يعيلُ البناتِ ويعنى بهنَّ ، ومن ذلك قول الحبيبِ الأعظمِ ﷺ: «مَنْ عَالَ جاريتَيْن حتى تبلغا جاء يومُ القيامة أنا وهو هكذا وضمَّ أصبعيه»[١].

* ومن لطائفِ تربيةِ الطّفل أنْ يُبَشَّر الوالدان بقدومه كأَنْ يُقال: باركَ اللهُ لكَ فيه أو فيها ، أو يدعو له وللمولودِ ، ويجبُ على الوالدين تكريمُ المُبشِّرِ بهديّة.

* والبشارةُ بقدومِ الأطفال من لطائفِ التَّوجيهات القرآنية ، حيث كانتِ الملائكةُ تحملُ البشَارةَ إلى الأنبياءِ ، أو إلى نساءِ الأنبياءِ بذلك ، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصَّافات: ١٠١] ، وقال ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] ، وقال مخاطباً سارَّة زوج نبيّه إبراهيم: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ، وقال لإبراهيم ـ عليه

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

السلام ـ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال لزكريا ـ عليه السّلام ـ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]. وهكذا فالأولادُ ريحانةُ القلوبِ، وبهجةُ النفوس وزينةُ الحياةِ الدّنيا، فمن بُشِّر بمولود فكأنَّما بُشِّرَ بريحانهِ الجنَّة، لأنَّ الأولادَ ذخرٌ للأبوين في الحياةِ، وذكْرٌ لهما عقيبَ الوفاة.

* ويستحبُّ لمن وُلدَ له مولودٌ أنْ يُؤذِّن في أذنهِ شكراً لله عزَّ وجلَّ، فمن حقّ الوليدِ أنْ يصافح سمعه ذكْرُ اللهِ، وقد أذَّنَ النَّبي ﷺ في أُذنِ الحسنِ بنِ علي حين ولدته فاطمة[1]. وروى البيهقي أنَّ النبي ﷺ أذَّنَ في أُذُن الحسن بن عليّ حين وُلدَ وأقامَ في اليسرى.

* وبعد ذلك يُستحبُّ تسميةُ المولودِ باسْمٍ حسنٍ لطيف، ثم يُحْلَقُ شعرُهُ، ويتصدّقُ بوزنهِ ذهباً أو فضّة، ثم تُذبحُ له العقيقةُ، ثم يُختنُ، وبذلك تنطبعُ هذه الآثارُ الميمونةُ الخيّرة في نفسِ الطفلِ، وتصاحبه حتى يكونَ له ذلك خُلُقاً وسجيّةً يُعرفُ بها.

* وعندما يبدأُ الطّفل في وعي ما حوله، يغرسُ الأبوان فيه الأمور الدّينية والدّنيوية، ويعلمانه أصولَ الأدب، فمن أدَّبَ ولده صغيراً سُرَّ به كبيراً. وقال الشّاعر:

علِّمْ بُنَيَّكَ إنْ أردْتَ صَلاحَهُ ... لا خيرَ في ولَدٍ إذا لم يُضْرَبِ
أو ما ترىٰ الأقْلامَ حين فصَامها ... إنْ لم يُقَطَّ رؤوسها لا تكتبِ

وقال آخر:

نِعَمُ الإلهِ علىٰ العبادِ كثيرةٌ ... وأتمهُنَّ نجابةُ الأولادِ
فَضَعِ العصا أدباً لهم كي يسلكوا ... سُبُلَ الرَّشاد ومنهجَ الزُّهّادِ

* إنَّ الإنسانَ أحوجُ المخلوقاتِ إلى التَّربية والتّأهيل، فهو الكائنُ

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حديث صحيح.

الوحيدُ الذي يستطيعُ أنْ يبنيَ ويهدمَ ، ويصلحَ ويفسدَ على ظهرِ الأرض .

والطّفلُ إنْ أصبحَ كبيراً وكان ذا تربيةٍ فاسدةٍ ، فإنّه يعيثُ في المجتمع فساداً ، ويكونُ ضررُه أكثرَ من نفعِهِ ، ولهذا فإنَّ التَّربيةَ الصَّحيحةَ تفيدُ الطِّفلَ والمجتمعَ معاً .

* إنَّ الطِّفلَ متعطشٌ إلى معرفةِ الحياةِ الجديدةِ ، محبٌّ لاستطلاعِ ما خفيَ عليه فيها ، ولا بدّ من إرواءِ ذلك الغليل عنده ، حتى يشعرَ بالاطمئنانِ إلى الحياةِ ، وحتى يعتمدَ على نفسه ، ويعرفَ ما لَه وما عليه ، إذْ إنَّ الطّفلَ يُولدُ وهو مزوَّدٌ بمواهبَ فطريةٍ ، وغرائزَ أصيلةٍ ، فلا بدّ من توجيهها إلىٰ المسارِ الصَّحيحِ ، والمسلكِ المفيد الذي تختاره له الأسرةُ الفاضلة من أصولِ الأخلاقِ القويمة ، والخلالِ الحسَنةِ ، والسّلوكِ المستقيم السَّليم ، ولا بدَّ عندها من تنميةِ عقلهِ ومداركهِ ومساعدته على تكوينِ شخصيّته ، وتهذيبِ نفسه .

* وهذه التّربيةُ وهذا الإعدادُ مسؤولٌ عنه الأبوان ، حيث يوجّهان الطِّفلَ إلى العاداتِ الحسنةِ ، حيثُ إنَّ الطفلَ الصَّغيرَ لا يفرقُ بين الخيرِ والشَّرِّ ، والوالدان في نظره هما مثَلاه الأعلى ، فكما يزرعان فيه ، يحصدان منه ، فإنْ غَرَسَا الصِّدقَ ألفيا النَّتيجةَ طيِّبةً ، وإن كذبت الأمُّ على الأبِ أمامَ الطِّفل شبَّ على الكذبِ ، وتبدأُ أوليّات انحرافاتِه ، إذاً فلا بدَّ من تدريب الطِّفل عمليّاً على الصِّدقِ في القولِ والعملِ .

* فالطِّفلُ يتلقّى التَّربيةَ البيتيّةَ قبل أنْ يتلقّى تربيتَه في المدرسةِ ، أو في المجتمع ، فالإسلامُ أرسىٰ قواعدَ التَّربيةِ العمليةِ في فنِّ التّوجيه منذ الولادة ، فالرَّسولُ المصطفىٰ ﷺ يقول: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» .

* فالأبوانِ مسؤولان عن سعادةِ المجتمع إنْ أحسنَا تربيةَ الطِّفل ، ورسما معالم التَّربيةِ الإسلاميّة السَّليمةِ للطِّفلِ علىٰ أسسٍ منها :

١ ـ غرسُ الإيمانِ باللهِ في نفسِ الطِّفل ، وتلقينهُ الألفاظَ والمعاني التي تحبِّبه باللهِ منذ أنْ يبدأَ بالنُّطق ، كأنْ يلقّنه أبواه قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثمّ يبدأُ بتعليمه آدابَ الدِّين والأمورَ النَّافعة ، وهذا من واجبِ الآباء. قال عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أدِّبْ ابنَكَ فإنَّك مسؤولٌ عنه ماذا أدّبتَه وماذا علّمْتَه ، وهو مسؤولٌ عن برِّكَ وطواعيته لك.

٢ ـ تعهّدُ الطِّفلِ منذُ نشأتِهِ الأولىٰ ، وتدريبُه على القيامِ بواجباتهِ الدِّينيّةِ ليعتادَ عليها جسميّاً وعقليّاً ، فلا يتخلّى عنها فيما بعد ، لقولهِ ﷺ في تعليم الصَّلاة: «مُروا أبناءكم في الصَّلاة لسبعٍ ، واضربوهم عليها لعشْر ، وفرِّقوا بينهم في المضَاجع»(١).

٣ ـ تدريبُه على محاسنِ الفضائل ، وفضائلِ المحاسنِ من مثلِ الاستقامةِ ، والصِّدقِ ، وأداءِ الأمانةِ ، وحفظ الكرامة ، وتحذيره مما يخلُّ بالمروءة والعقلِ من طيشٍ وخفّةٍ ورفاقِ سوء وجشعٍ وحقدٍ وحَسدٍ ونميمةٍ ، فإذا رسختْ هذه الخلائقُ السَّيئةُ في نفسه واعتادَ عليها ، صعبَ عليه تجنُّبها في الكِبَر.

٤ ـ تربيةُ الطِّفلِ على الصَّراحة والشَّجاعة في القولِ ، والإخلاصِ في العملِ ، بحيثُ يعيشُ شجاعاً بين لِدّاته ، يعرفُ كيف يدافعُ عن آرائهِ وأفكارهِ بشكلٍ صحيح.

٥ ـ غرسُ حبِّ الخيرِ بنفس الطِّفل ، وتقويةُ روحِ التّعاون عنده ، وحثُّه على المشاركةِ والبذلِ والعطاءِ والإيثار ، وبالتّالي يتحقّقُ معنى التكافل الاجتماعي عنده.

* ولكن هناك بعض الأخطاءِ التي نمارسُها في تربيةِ الطِّفل ، من ذلك:

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

أوّلاً: تجاهلُ مشاعرِ الطِّفل وعواطفِه، وسوءُ فهمِ نيّته، فإذا أساءَ التَّصرُّفَ، قد نقسو عليه في العقوبةِ، أو بالتَّحقير والازدراء، وإذا ما عبث بأثاثِ البيتِ مثلاً فإنَّه يُوَبَّخُ من جميعِ أفرادِ العائلة، أو يُهدَّدُ بالعقابِ إذا ما خرجَ يلهو مع أترابه، وربّما يكون هذا التّأنيب سبباً لانحرافه.

وعلينا أنْ ندركَ ونتذكَّر دائماً، أنَّ للطِّفلِ عالَماً غيرَ عالم الكبيرِ، فننسى عالَمه، ونسيءَ فهمه، وغالباً ما يكون الطّفلُ نشيطاً كثيرَ الحركةِ والحيويّة، وهذا يحتاجُ إلى التّوجيه السَّليمِ والمداراةِ والرّفقِ.

ثانياً: تخويفُ الطِّفل لينامَ، أو ليجلسَ هادئاً، أو ليكفَّ عن الحركةِ، وقد نخوّفه بأشياءَ وهميّةٍ كالغُول، أو بأشياءَ أخرى كالعفريت والجنّ، أو حسب الخرافاتِ التي تُوجد في البلادِ حسبَ مفاهيمها. وتلجأُ بعضُ الأُمّهات أحياناً إلى تخويفِ الطِّفلِ بالطَّبيب أو بإبْرتهِ، أو تخوّفه بالمعلّمِ أو مدير المدرسة، وغالباً ما ينشأُ الطّفلُ جباناً لا شخصيّة له، وقد يكرهُ الطّبيبَ والعلاجَ والدَّواء، وما شابَه ذلك.

ثالثاً: تركُ الحبْلِ على الغَارِبِ للطِّفل دونَ مراقبة، فقد يُغرمُ بأشياءَ تفسده من رفاقِ سُوء، أو ينساقُ وراءَ تمثليّات هابطةٍ، أو أفلام تضرُّ بالعقلِ والدِّين والصِّحةِ، وهذا يجعلُ الطِّفْلَ فاسدَ الأخلاقِ، لا قيمةَ عنده للقِيم أو الأخلاقِ أو الفضائل.

* ولهذا كلّه يجبُ أنْ ننبّه إلىٰ هذه الأغلاط، ونلزمَ الطِّفلَ بالمتابعةِ والتّوجيهِ، لقول النَّبي ﷺ: «الزموا أولادَكم وأحسنوا أدبَهم»[١].

* وإذا أخذنا ما يفيدُ الطِّفل، وأبعدناه عما يضرُّه اقتربنا من المثاليةِ التي ننشدُها وينشدُها كلُّ أبوين يريدان السَّعادة لأطفالِهما وللمجتمع.

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه.

الفَصْلُ الرّابع
الطّفْل بينَ السُّلوكِ والعَمَلِ

* إنَّ الطفلَ يتأثّرُ بالبيئةِ التي يعيشُ فيها ، فهو يخطىءُ ويصيبُ، ويجبُ أنْ ندركَ أنَّ خطأَ الطّفلِ ليس خطأه وحدَه ، ولكنَّه ـ بلا ريب ـ خطأُ المجتمعِ الذي لم يحسنِ الرعايةَ ، ويحسنِ الصَّلاح ، ويقضي على الفساد.

* والمربّي النّاجح هو الذي يعالجُ سلوكَ الطّفْلِ بالحكمةِ. فإذا أخطأَ الطّفلُ في سُلوكٍ ما ، يكتفي بالتّلويح له بدلَ التّصريح ، ولو تكرّرَ الخطأُ مرّةً أخرى فإنَّ المربّي يحرصُ على العلاجِ بالحكمةِ ، وذلك حرصاً منه على بنيانِ الطّفل النّفسي أنْ يضطربَ في دوّامةِ العنف ، وحتّى لا يتعوّدَ التّوبيخ ، فيبردَ إحساسُه بالموعظةِ بعد ذلك ، وتتبلّدَ مشاعره ولا يهمُّه شيءٌ ، ولا تَثْنِهِ هيبةٌ.

* وقد تنبّه إلىٰ هذه النّقطةِ المهمّة الغزاليُّ منذُ زمنٍ بعيد ، ورسمَ منهجاً متكاملاً يعينُ على إنجاح سلوكِ الطّفل قولاً وعملاً ، ترىٰ ما الذي لِسلُوك الطّفل؟ يقولُ الغزالي : مهما ظهرَ منَ الصَّبي خلقٌ جميلٌ وفعلٌ محمود ، فينبغي أنْ يُكْرمَ عليه ويُجازىٰ عليه بما يفرحُ به ، ويُمْدَحُ بينَ أظْهُرِ النَّاس ، فإنْ خالفَ ذلك في بعضِ الأحوالِ مرّةً واحدةً ، فينبغي أنْ يتغافلَ عنه ، ولا يهتكَ ستْرَه ، ولا يكاشفَ ولا يظهرَ له أنْ يتصوّرَ أنْ يتجاسرَ أحدٌ على مثلهِ ولا سيما إذا ستَره الصَّبيُّ ، واجتهدَ في إخفائِهِ ، فإنَّ إظهارَ ذلك عليه ربّما يفيدُهُ جسارةً حتى لا يُبالي بالمكاشفةِ ، فعند ذلك إنْ عادَ ثانياً فينبغي

أنْ يُعَاتَبَ سِرّاً ، ويعظّمَ الأمْرُ فيه ، ويُقالُ له : إيّاكَ أنْ تعودَ بعد ذلك لمثلِ هذا ، وأنْ يطّلعَ عليكَ في مثلِ هذا فتُفْضَحَ بينَ النَّاس . . ولا تُكْثِرِ القولَ عليه بالعتاب في كُلِّ حين ، فإنّه يهونُ عليه سماعُ الملامةِ وركوبُ القبائح ، ويسقطُ وقْعُ الكلامِ من قلبهِ ، وليكنِ الأبُ حافظاً هيبةَ الكلامِ معه فلا يوبّخه إلا أحياناً ، والأمُّ تخوّفُ بالأبِ وتزجرُهُ عن القبائح[1] .

* إذاً ينبغي أنْ يُمْدَحَ الطّفْلُ علىٰ الملأ لو صَنَعَ جميلاً ولو كانَ بسيطاً ، ورعايةً لهذا الشُّعور نفسه يُوبَّخُ علىٰ الذَّنبِ خفيةً بعيداً عن النَّاسِ حتى لا يقعَ في حرجٍ يجيءُ بعده انفلات الزّمام .

* ولأنَّ كلَّ ابن آدم خطّاء ، فلا بدّ أنْ يخطىءَ الطّفلُ في أثناءِ حياته ، ولا بدّ من احتوائِهِ ، والفرارِ به إلى اللهِ ، وتخويفِه منه ، وهذا التَّخويفُ منَ اللهِ خطٌّ أصيلٌ في المنهج الإسلامي ردْعاً للطّفل عنَ الخطأ ، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : «لا ترفعِ العَصَا على أهلِكَ ، وأَخِفْهُم في اللهِ عزَّ وجلَّ»[2] .

* إنَّ المربّي الحكيم يقدّرُ حالةَ الطّفْلِ الذي بينَ يديهِ ، ويقدّر إنْ كانَ ممّنْ تصلحُ له المثوبةُ أو العقوبةُ ، أو المداولةُ بين هذهِ وتلك ، ثم يربّي الطّفل علىٰ هذا الأساسِ ليكونَ سلوكُه طبيعيّاً بينَ النَّاسِ وفي المُجتمع . ومن الطّبيعي أنْ يبدأَ الدّورُ الأهمُّ في أيّامِ الطّفْلِ الأولىٰ ، بحيثُ نراهُ يستعدُّ للاتصالِ بالعالَم الخارجيّ على نحو من الأنحاءِ ، الأمْرُ الذي يفرضُ على المربّي أنْ يأخذَ بهذهِ اليد الغضّة الطَّريةِ عبر المستقبل الواسعِ ليشتدَّ ساعداً بعد ذلكَ ، وتمتدَّ به الحياة ، ويعْمُرَ به الوجود .

* وممّا يؤيدُ فكرتَنا هذه ما جاءَ في المصادرِ أنَّ سيّدنا معاويةَ بنَ

---

(١) انظر : إحياء علوم الدّين ـ باب رياضة الصبيان .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير .

أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ قد غضبَ مرّةً على ابنهِ يزيد ، فأرسلَ إلى الأحنفِ بنِ قيس التّميمي ـ رحمه الله ـ يسألُه عن رأيهِ في البَنين فقال: يا أميرَ المؤمنين هم ثمارُ قلوبنا ، وعمادُ ظهورِنا ، ونحنُ لهم أرضٌ ذليلةٌ ، وسماءٌ ظليلةٌ ، فإنْ طلَبوا فأَعْطِهم ، وإنْ غضِبوا فأَرضِهم ، فإنّهم يمنحونَكَ ودَّهم ، ويحبونَّك جهدهم ، ولا تكنْ عليهم ثقيلاً ، فيملّوا حياتك ، ويتمنّوا وفاتَك .

* ومن هذا المبدأ ، فلا يجوزُ وضْع السَّوط موضع السَّيف ، ولله درُّ المتنبي :

فوضْعُ النَّدىٰ في موضعِ السَّيفِ بالعُلا
مضرٌّ كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدىٰ

* ولهذا فقد كانَ أصحابُ النّبيّ ﷺ ينهجونَ النَّهجَ المعتدلَ في السُّلوك التَّربوي ، وكانت طريقتُهم لطيفةً مثمرةً تموجُ بينَ التَّربيةِ والنَّصيحة ، ومن ذلك ما رُوي أنَّ أبا الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ مرَّ على رجلٍ قَدْ أصابَ ذنباً ، وكانوا يسبّونه؛ فقال: أرأيتمْ لو وجدتموه في قُلَيب ـ بئر ـ ألم تكونُوا مُستخرجيه؟ قالوا: بلىٰ.

قال: فلا تسبُّوا أخاكم ، واحمدوا اللهَ الذي عافاكم .

قالوا: أفَلا نبغضُه؟

قال: إنَّما أبغضُ عملَه ، فإذا تركَه فهو أخي .

* إنَّ الحبَّ والكرهَ يتعلّقُ بعملِ الإنسان ذاتِه ، لا بالشَّخص المسلم ، والذي يريدُه الإسلام هو الصَّلاح ، فإذا جاءَ العملُ صالحاً ، فقد وجبتِ المحبّةُ وحسن الثّناء . فالتّأنيبُ الذي يميتُ الشَّخصيّة ، أو يحلُّ عُراها ، يميتُ في الوقت نفسه كلَّ محاولةٍ لدىٰ الطِّفلِ للنُّهوض من كبوتهِ ، وتطفىء كلَّ أملٍ في الإصلاح ، واستئنافِ المحاولةِ منْ جديد . وسوف تظلُّ فرصةُ تعديلِ السُّلوك قائمةً ، والأملُ في النَّجاحِ يربو في الصُّدور ، إذا سارتْ

عمليةُ التّربيةِ سيرَها طِبْقَ مفهومِ الإسلام ، ليكونَ صوتُ الأفعالِ أشدَّ من صوتِ الأقوالِ دويّاً ، وليكون السُّلوك مطابقاً للقولِ في الحَسَنِ من القولِ والعمل.

* ويمكننا الآن أنْ نطرحَ سؤالاً : كيفَ تربّى النّشء قديماً في ظلالِ هذه التّربيةِ وهذه البيئة؟ بل كيف ربّى السَّلفُ الصّالح أطفالَهم بين السُّلوك والعَمل؟!

* وللإجابةِ عن هذا نذكرُ بعضَ النّماذج والصُّور من تاريخنا الوضّاء للسَّلف الصَّالح؛ ومنْ ذلك ما وردَ عن سعيدِ بن المسيّب ـ رحمه الله ـ أنَّه قالَ لابنهِ: لأزيدنَّ في صلاتي مِنْ أجلكَ ، رجاءَ أَنْ أُحْفَظَ فيك ، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]. وفي تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ يقولُ الحافظُ ابنُ كثير: فيه دليلٌ على أنَّ الرَّجلَ الصَّالحَ يُحْفَظُ في ذريّته ، وتشمل بركةُ عبادتهِ لهم في الدّنيا والآخرة بشفاعَتِه فيهم ، وبرفْعِ درجتهم إلىٰ أعلىٰ في الجنَّةِ لتقرَّ عينهُ بهم ، كما جاءَ في القُرآن والسُّنَّة. قالَ سعيدُ بن جُبير عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: حُفِظَا بصلاحِ أبيهما ، ولم يذكرْ لهما صَلاحاً، ثمّ ذكرَ أنّه لم يكنِ الأبُ المباشر ، وإنَّما كان الأبُ السَّابع[1].

* ولنا في سيرةِ سيّدنا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ خطّ واضحٌ جَليٌّ ، وجانبٌ وضيءٌ في إعداد الطّفْل سُلوكاً وعملاً ، وتوجيهاً سديداً حينما يضعُ خطّةً لتربيةِ الطّفل ، حيث كتبَ إلى ساكني الأمصار: أمَّا بعد: فعلّموا أولادكم السّباحةَ والفروسيّة ، ورووهم ما سارَ من المثَل وحَسُنَ منَ الشِّعْرِ[2]. وفي رواية: ومروهم فليثبُوا على الخيلِ وثْباً.

* فالطّفلُ ليسَ مُلْك والدِه فحسب ، بيدَ أنّه ملكٌ للأمّة كلّها ، ومن ثمّ

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (ص ٢١٥).
(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (٩٢).

فإعدادهُ بالسّباحةِ والرّمايةِ وركوبِ الخيلِ تزكيةٌ للرُّوحِ القتاليّة فيه. وهذه الخطوطُ العمريّة السُّلوكيّةُ مستمدّةٌ من الأسسِ النّبويةِ، ومرتكزةٌ علىٰ هدي النّبي ﷺ الذي يقول: «ارمُوا واركبُوا، وإنْ ترمُوا أحبُّ إليّ منْ أنْ تركبُوا، ومَنْ تعلّمَ الرّميَ ثمّ نسيَه فليسَ منّا»، وفي رواية: «فهي نعمةٌ جَحَدها»[1].

* وفي مجالِ سلوكِ العِلْم وتطبيقه عمليّاً نلمحُ السَّلف الصَّالحَ يحرصونَ علىٰ إشاعةِ ذلك بين الأطفالِ، بل إنّهم يشجّعونَ عليهِ، ويغرسون الثّقةَ بنفوسِهم ليحضروا مجالسَ العِلْم بينَ يدي أشياخِ بَدْر منْ أعلياءِ الصَّحابة وكبرائِهم، وهكذا كان عمرُ ـ رضي الله عنه ـ يشجّعُ ابن عبّاس للجلوسِ مع علماءِ الصَّحابةِ، فقد كانتِ القاعدةُ السُّلوكية التي ينتهِجُها: لا كبير في العِلْم، لذا كانَ يتعهَّدُ النَّشءَ ليفسحَ لهم الطّريق اللائقَ إذا ما كشفُوا عن مواهِبهم.

* أخرج البخاري بسندِه عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان عمرُ يدخلُني مع أشياخ بَدْرِ، فكانَ بعضهم وجَدَ في نفسِه فقال: لِمَ تُدخِلُ هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ ـ أي في مثلِ سنّه ـ.

فقال: إنّه منْ حيثُ علمتُم.

فدعاهُ ذاتَ يومٍ فأدخلَه معهم، فما رؤيتُ أنّه دعاني يومئذٍ إلاّ ليريهم، قال: ما تقولون في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١].

فقال بعضُهم: أُمِرنَا أنْ نحمدَ اللهَ، ونستغفِرَه إذا نصَرَنا وفتحَ علينا.. وسكَتَ بعضُهم فلمْ يقُلْ شيئاً.

فقال لي: أكذَاكَ تقول يا بن عبّاس؟

---

(١) أخرجه مسلم؛ وانظر الفقرة رقم (٥) من القسم الأول بعنوان: أهمية اللعب وتربية الطفل على الإفادة منه.

فقلتُ: لا.

قال: فما تقول؟.

قلتُ: هو أجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمه له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ، وذلك علامة أجلِك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

فقال عمر: ما أعلمُ إلاّ ما تقول.

* وقد روىٰ عبدُ الرزّاق عن مَعْمَر عنِ الزّهري قال: قالَ المهاجرون لعمرَ: ألا تدعو أبناءَنا كما تدعو ابنَ عبّاس؟ فقال: ذاكم فتىٰ الكُهُول ، إنَّ له لِسَاناً سؤولاً ، وقَلْباً عقُولاً.

* وما كانَ لابنِ عبّاس أنْ يرقىٰ إلى هذهِ المنزلةِ العاليةِ المرموقةِ ، لولا توجيهاتٌ تربويّةٌ من أبيهِ العبّاسِ ـ رضي الله عنه ـ التي هيّأته لهذه المكانةِ الرّفيعةِ؛ فقد قال له أبوهُ يوماً: إنَّ هذا الرّجلَ ـ يريدُ عمر ـ يُدنيكَ فلا تفشِ له سرّاً ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً ، ولا يسمعْ منكَ كذباً ، ولا تبتدئْهُ بشيءٍ حتّى يسألَك عنه.

* وتربيةُ الطّفلِ ضِمنَ السُّلوك العمليّ تحتاجُ إلىٰ هُدوءٍ ورويّةٍ ، وهذا ما تفصحُ عنه السّيرةُ العُمريّةُ حيثُ يحرصُ على التّوجيهِ الهادفِ في المواقفِ البسيطةِ ، فقد ذكرَ عبّاس العقّاد في كتابهِ «عبقريّة عمر» هذا الموقفَ التّربويَّ الجميلَ عن عمرَ فقال: وبلغَ من حنانِهِ علىٰ الأطفالِ أنَّه كانَ يشفقُ عليهم أنْ يحزنُوا في لهوهم ولعبِهم ، فلا يتركُ الخائفَ منهم حتّى يأمنَ على لهوِهِ ومحصولِ لعبِهِ. تحدَّثَ سِنانُ بنُ سِلمةَ: أنَّه كان في صِبْيانٍ يلتقطُ البلحَ في أصولِ النَّخْلِ مع بعض الصِّبْيَةِ ، إذ أقبلَ عمرُ فتفرّقَ الغِلْمانُ ، وثبتَ هو في مكانِهِ ، فلمّا دنَا منه أسرعَ قائلاً: يا أميرَ المؤمنين ، إنما هذا ما أَلْقَتِ الريح.

قال: أرني أنظرْ ، فإنَّهُ لا يخفىٰ عليَّ.

فنظرَ في حجرِه ، ثمّ قالَ : صدقْتَ .

إلاّ أنَّ الصبي لم يقنعْ بهذا حتى يحرسَه أميرُ المؤمنين إلى بيتِه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أترىٰ هؤلاءِ الآن؟ ـ وأشارَ إلى الصِّبيةِ الهاربين ـ ثمَّ قالَ : واللهِ لئن انطلقتَ لأغاروا عليَّ فانتزعوا ما معي؛ فمشىٰ معه عمرُ حتّى بلَّغَه بيتَـه(١) .

* وها هنا يتميّزُ الطّفلُ سِنانُ بنُ سَلمةَ بالشَّجاعةِ والذّكاءِ والصّدق ، بفضلِ تربيتِه النَّاجحةِ ، وبفضلِ التّوجيه العمليّ الذي تلقّاهُ عن مُربّيه . . كما أنّنا نرىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب خليفةَ المسلمين يهتمُّ بالأطفالِ ، ويحرصُ على معرفةِ الحقيقةِ عندهم ، فهي وإنْ كانتْ صغيرةً عند الكبار ، لكنّها مهمةٌ عند الأطفال ، فقد استجوبَ الطّفل سِنان بليْنٍ ورويةٍ ، وأجابَه الغُلامُ بهدوءٍ وأبلغَه أنَّ ما التقطهُ من التّمر السَّاقطِ منَ النّخلِ على الأرضِ ليس حراماً ، لأنَّ مربيه قد علّمه حُكْم رسولِ الله ﷺ في ذلك ، عندما قالَ لأحدِ الأطفال ـ وقد أُتي به لأنَّه يرمي نخلَ الأنصار ـ «يا غلامُ ، لِم ترمِ النَّخل»؟

قال الغلامُ : آكل .

فقال : «لا ترمِ النَّخل ، وكُلْ ممّا سقطَ في أسْفَلِها»(٢) .

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ سلوكَ الطّفلِ العمليّ لا يتمُّ دونَ تدريب ، فالعملُ البنَّاءُ المُوجَّه ، والطريقة السَّليمة في العمليّة التّربوية تقتضي من المربّي أنْ يعلِّم الطّفلَ ويصحّحَ له الخطأ ، فقد كانَ الصَّحابةُ الكرام يعلّمونَ جميعَ فئاتِ المجتمع بالتَّدريب العمليّ ، والمشاهدِ الحسيّةِ ، والتّربيةِ الخُلقية ، والقدوةِ الصّحيحة ، فقد جاء في «المُسند» عن أبي مالك الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : يا معشرَ الأشعريّين ، اجتمعُوا ،

---

(١) انظر : عبقرية عمر (ص١٣٠ و١٣١) ، وانظر كتاب العيال (١/ ٤١٨) .
(٢) كتاب العيال (١/ ٤١٦) .

واجْمَعوا نساءَكم ، وأبناءَكم حتّى أريكم صلاةَ رسولِ الله ﷺ؛ فاجتمعُوا ، وجمعُوا أبناءهم ، ونساءهم ، ثمّ توضأَ ، وأراهم كيفَ يتوضّأُ ، ثم تقدَّم ، فصفَّ الرّجال ، ثمّ أتى الصَّفَّ ، وصفَّ الولدان خلْفَهم ، وصفَّ النّساء خلْفَ الصّبيان[1] .

* وبهذهِ الطريقةِ العِلْميّة يتوضَّح الطريقُ أمامَ الطّفل ، ويتعرفُ الأحكامَ عمليّاً ، وترتسمُ الصُّورة الصّحيحة لها في ذهنِه ، فلا يكادُ يقعُ في الخطأ ، وهكذا يمكنُ للمربي أنْ يسلكَ هذا الطريق في التَّعليم والتَّدريب لسائر الأحكام والعبادات .

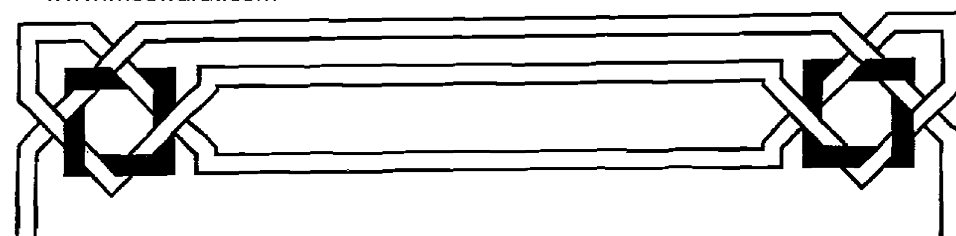
* إذاً؛ فهلْ يسلكُ المربّون مثلَ هذه الصُّور في تربيةِ سُلوكِ أطفالِهم؟

* إنَّ الأطفالَ أمانةٌ في الأعناقِ ، وهم عجائنُ سهلةُ التّشكيل والتّوجيه ، فإذا فتحوا عيونَهم علىٰ مجتمعٍ طيّبٍ فإنّهم ينقلونَ عنه ذلك ، ثم يورّثُوا ما حملوه إلى أبنائِهم من بعدهم؛ وبدايةُ هذا المجتمع ومفتاحُه بالنسبة لهم هو المربّي ، أو الأبُ ، الذي يجبُ أنْ يكونَ قدوةً صالحةً طيّبةً في أقوالهِ وأفعالهِ للطّفل ، لأنَّ القدوةَ الصَّالحةَ من أهمِّ وسائلِ تربيةِ الطّفلِ واستقامةِ سلوكهِ وعملهِ ، فالطّفلُ بطبيعتِه يقلِّدُ الكبيرَ ويُحاكيْهِ ، لأنَّه يعتقدُ بأنَّ ما يفعلُه الكبيرُ هو الصَّحيحُ والصَّوابُ؛ فلا يجوزُ أنْ يقولَ الكبيرُ شيئاً ويخالفَ قولُه عملَه ، وقد ذمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاءِ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣] .

* وبعد ، فليكنِ المربّي حَصيْفاً في تعامُلهِ مع الطّفْلِ ليكونَ الطّفلُ نبتةً طيبةً في المجتمعِ فيفيدُ ويستفيد .

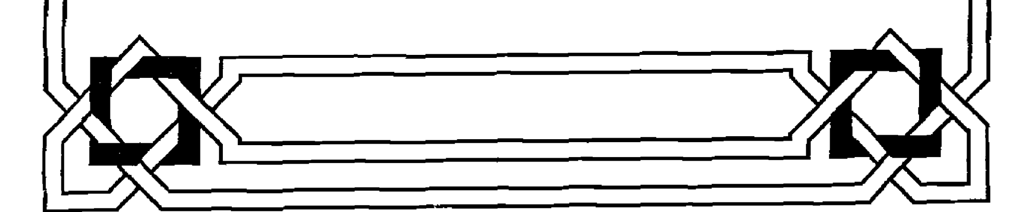
* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد .



الباب الخامس

السلف وعنايتهم بالطفل



الفصل الأوّل
منهجُ السَّلف في تربية الطِّفل

* لما جاءَ الإسلامُ الحنيفُ ، جعلَ تأديبَ الطِّفلِ وتربيتَه واجباً على الآباءِ ، وحقّاً للأبناءِ ، فقد قالَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ: «الرّجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عن رعيّته ، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجها ومسؤولةٌ عن رعيتها» . وقالوا: علّموا أولادكم وأهليكم الخيرَ وأدّبوهم .

* وإذا كانَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ قد علَّمنا كيف نعرفُ حقَّ الطُّفولةِ ، ونعرفُ التَّربيةَ والتَّأديبَ ، فإنَّ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قد أدلىَ دلوَه بهذا المضمار ، وحدَّد الزَّمنَ المناسبَ للتَّأديبِ وفنونِ التَّربية ، إذ جعلَ ذلك من الولادةِ ، ثمَّ من سنّ السَّابعة إلى الرَّابعة عشرة ، فيقول: لاعبْ ولدَك سبعاً ، وأدّبْه سبعاً ، وصادقْه سبعاً ، ثم اتركْ حبْلَه على غاربِه . وقال: من حقّ الولدِ على الوالدِ أنْ يحسنَ أدَبَه .

* وقد بيّن رسولُ الله ﷺ أصولَ التَّربية والأدبِ ومحاورها للطّفل ، وذلك في كثيرٍ من الأحاديثِ التَّربوية الموجّهةِ إلى الآباءِ والأبناء .

* ولقد سارَ السَّلفُ الصَّالح على منهجٍ واضحٍ في تربيةِ أطفالِهم وتأديبهم ، وقد كانَ الأبوان يقومان مباشرةً بهذه المهمّة ، أو يعهدان بها إلى مَنْ يوثَقُ به .

* وكان ابتداءُ التَّربية والتَّعليمِ في أوائلِ عَصْر بني أميّة ، فكان الخليفةُ

يُحضِرُ لأولادهِ مَنْ يؤدِّبُهم ويربيهم على الفصاحةِ ، ويغذّيهم بألوانِ الفضائلِ التي تزيّنُ حياتَهم ، وكانت موادُّ التّأديب تتركَّزُ حولَ القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّة المطهَّرة ، والشِّعْر ، والخُطبِ المأثُورة ، وسيرة النّبي ﷺ ، ومغازيه ، وبعضِ المواعظِ والحكَمِ والأمثالِ ، والقصصِ الهادفةِ المفيدة.

* ويؤكّد ابنُ خلدون بدايةَ هذه التّربية وأهميتها ، وكيف سارَ عليها السَّلَفُ فقال: إنَّ تعليمَ الوِلْدان للقرآن شعارٌ من شعارِ الدِّين ، أخذَ به أهلُ الملّة ، ودرجوا عليهِ في جميعِ أمصارهم ، لما يسبق بهِ إلى القلوبِ من رسوخِ الإيمان ، وعقائدَ من آياتِ القُرآن ، وبعضِ متونِ الأحاديث ، وصارَ القرآنُ أصلَ التَّعليمِ الذي يُبنىٰ عليه ما يحصلُ من المَلَكات ، وسببُ ذلك أنَّ تعليمَ الصِّغر أشدُّ رسوخاً ، وهو أصلٌ لما بعده ، لأنَّ السَّابقَ الأوّلَ للقلوبِ كالأساسِ للمَلَكات ، وعلى حسبِ الأساسِ وأساليبه يكونُ حال ما يُبْنىٰ عليه[1].

* فالأطفالُ امتدادٌ لعمرِ الآباء بعد أنْ يغادِروا هذه الحياة ، فحياتُهم موصولةٌ بهم بعد مماتهم بما غرسوه فيهم من الأخلاقِ والمبادىءِ والمثُل والفضائِل ، فإنْ أحسنُوا تربيتَهم وتأديبهم نالوا الحظَّ الأوفرَ والسَّعادةَ في الدَّارَيْن ، لأنَّه يُقال: مَنْ أدَّب ابنه أرغمَ أنْفَ عدّوه. ويُقال أيضاً: ما ورّثتِ الآباءُ الأبناءَ شيئاً أفضلَ منَ الأدبِ ، فإنّها إذا ورثتها الآدابَ كسَبَت بالآدابِ الأموالَ والجاهَ والإخوانَ والدِّين والدُّنيا والآخرة ، وإذا ورثتها الأموالَ تلفتِ الأموالُ ، ووقعتْ عدماً منَ الأموالِ والآدابِ.

* ولله درُّ القائل:

خيرُ ما ورَّثَ النَّاسُ بنيهم ... أَدَبٌ صالحٌ وحسنُ الثَّناءِ
هو خيرٌ منَ الدَّنانيرِ والأو ... راقِ في يوم شدّةٍ أو رَخَاءِ
تلك تفنى وَالدِّين والأدبُ الصَّا ... لحُ لا يفنيان حتّى اللِّقاء

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ٤٩٠).

إنْ تـأدَّبْـتَ يـا بنـي صغيـراً كُنـتَ يـومـاً تُعَـدُّ فـي الكُبَـراء[1]

* وقد انتبه الغزاليُّ ـ رحمه الله ـ إلى هذهِ النَّاحيةِ المهمّةِ من مراحلِ التَّربية للطِّفل فقال: إنَّ الصَّبيَّ أمانةٌ عند والديه، وقلبُه الطاهرُ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ، خاليةٌ من كلّ نقشٍ وصورة، وهو قابلٌ لكلّ ما يُنْقَش فيه، ومائلٌ إلى كلّ ما يُمال بهِ إليه، فإنْ عُوِّدَ الخيرَ، وعُلِّمه نشأَ عليه، وسَعِدَ في الدّنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه، وكلّ معلّم له ومؤدّب، وإنْ عُوِّد الشَّرَّ، وأُهملَ إهمالَ البهائم شقيَ وهلكَ، وكان الوزْر في رقبةِ مربّيه والقيّم عليه[2].

* وإذا ما كان للأطفالِ هذه المكانة من أبويهم، فلا ريبَ أنَّ أفضلَ ما يورّثه الأبوان لأطفالِهم الأدبَ وحسنَ الخلق، والتَّحلّي بالخصائلِ الحميدةِ، وأنْ يغرسوا فيهم كلّ هذا منذ بدايةِ عمرهم، وإن كان في ذلك بعضُ الصُّعوبة أو الكراهية من الأطفالِ للتّأديب.

* ولقد أشارَ ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ إلى هذه النَّاحية المهمّة، فقال: مَنْ لم يجلس في الصِّغر حيث يكره، لم يجلسْ في الكبر حيثُ يحبّ[3].

* ومن لطائفِ النَّظمِ في هذا المجال قول الشَّاعر:

إذا المـرءُ أعيَتْـه المـروءةُ نـاشِئـاً فمطلَبُـه كهـلاً عليـهِ شَـديـدُ[4]

* وفي حُسْنِ تربيةِ الطّفل نَظَم أحدهم هذه الفرائد فقال:

إنْ بلـغَ الطّفـلُ لـديـكَ الحُلُمـا فقـلْ لـه لا تَقْـربِ المحـارمـا

فالنَّار إنْ تُلْقَ على القُطْن فَتِقْ بـأنَّ مـا فـي الـدَّار حـالاً يحتـرقْ

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٥٢٤).

(٢) إحياء علوم الدين.

(٣) العقد الفريد (٢/ ٤٣٥).

(٤) عيون الأخبار (٢/ ٤٣٥).

وإنْ تُـــرِدْ صيتـــاً وذِكْـــراً طيّبـــا فـــاجهـــدْ بـــأنْ تجعلَـــه مهـــذَّبـــا

* وقالوا: اطْبعِ الطّينَ ما كانَ رطباً ، واغمزِ العُود ما كان لَدِناً.

* وتصعبُ رياضَةُ الكبيرِ لاستقرارِ طباعه ، وعدم ليونتها:

وتروضُ عرسَكَ بَعْدَما هَرَمَتْ ومِـــنَ العنَـــاءِ ريـــاضـــةُ الهَـــرِمِ

* * *

الفصل الثّاني
صورٌ منْ تربيةِ السَّلف للطِّفل

* حرصَ أسلافُنا الأوائلُ على أنْ ينالَ أطفالُهم أصولَ التّربية والعلْمِ والآدابِ والأخلاقِ الكريمةِ لتكونَ حياةُ الأطفالِ في صورةٍ رائعةٍ ، ولذلك كانَ الآباءُ والخلفاءُ وذوو الشّأن ، حين يعهدون بأبنائِهم إلىٰ مؤدّبيهم ، يستثيرون في هؤلاءِ المؤدّبين دوافعَ الخيرِ والاستقامةِ ، وحسنِ المعاملةِ والقدوةِ ، كما أنَّهم كانوا يحدّدون لهم موادَّ التّربيةِ وطرائقَ التَّعليم .

* ومِنْ أجملِ ألوانِ التَّربيةِ في هذا المجالِ ما جاءَ عن عمروِ بنِ عتبة أنَّه قالَ لمؤدّبِ ولده : ليكن أوّل إصلاحِكَ لولدي إصلاحُكَ لنفسكَ ، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينك ، فالحسنُ عندهم ما صنعْتَ ، والقبيحُ عندهم ما تركْتَ ، علّمْهم كتابَ اللهِ ، ولا تكرهْهم عليه فيملّوه ، ولا تتركْهُمْ منه فيهجروه ، روِّهمْ منَ الحديثِ أشرفَه ، ومنَ الشِّعْر أعفَّه ، ولا تنقلْهُم من علْمٍ إلى علْمٍ حتّى يُحْكِموه ، فإنَّ ازدحامَ الكلامِ في القلبِ مشغلةٌ للفَهم ، وعلّمهم سُنَنَ الحُكماء ، وجنّبهم محادثةَ النِّساء ، ولا تتكلْ على عذرٍ منّي لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك[1] .

* ومن لطائفِ ألوان التّربيةِ وتوجيه المؤدّبين إلى تربيةِ الأطفالِ ،

---

(١) انظر : العقد الفريد (٢/ ٤٣٦ و٤٣٧) ، وعيون الأخبار (٢/ ١٦٦) والبيان والتَّبيين للجاحظ (٢/ ٣٥) ؛ وفيهما : عتبةُ بنُ أبي سفيان لعبد الصّمد مؤدّب ولده .

ما كتبَ القاضي شُريح إلى معلّم ولده ، وكان لشُريح ابنٌ يلعبُ بالكلاب :

تـركَ الصَّـلاةَ لأكْلُـبٍ يسعـى بهـا ... يبغي الهِراشَ مع الغُواة الرُّجَّسِ
فـإذَا أتـاكَ فَعضَّـه بمـلامـةٍ ... وعِظَنْـهُ وعْظَـك لـلأريـب الكيِّـسِ
وإذا هممْـتَ بضـربـهِ فبـدِرَّةٍ ... وإذا بلغـتَ بهـا ثـلاثـاً فـاحبـسِ
وَاعْلَـمْ بـأنَّـكَ مـا فعلـتَ فنفسُـه ... مـع مـا يُجـرِّعُنـي أعـزُّ الأنفـسِ[1]

* وكان خلفاءُ بني أميَّة من أشدِّ النَّاس حرصاً على تأديبِ أولادهم ، وتربيتهم على ألوانِ التَّربيةِ السَّليمة ، وبرزتِ الوصايا التّربويةُ من أعلامِهم؛ فهذا عبدُ الملك بنُ مروان يحرصُ أشدَّ الحرص أنْ يكونَ أولادُه من أكملِ النّاس خُلُقاً وسُلوكاً ، فقد أشارَ إلى معلِّم أولادِه بأنْ يعلّمَهم الصِّدقَ كما يعلِّمهم كتابَ اللهِ ، وأنْ يربّيَهم علىٰ المصالحِ العامّة والخاصّة لهم ، ونرى في وصيةِ عبد الملك ألواناً رائعةً من التَّربية تَنداحُ بينَ الأدبِ والطِّبّ وعلمِ النَّفس وأدب السُّلوك وما شابَه ذلك ، ولنسمعْ إليه يوصي مؤدِّب ولده فيقول :

علّمهم الصّدقَ كما تعلّمهم القرآن ، وجنّبهم السَّفِلة فإنّهم أسوأُ النّاس ورَعاً وأقلّهم أدباً ، وجنّبهم الحشَم فإنَّهم لهم مفسدةٌ ، وأَحْفِ شعورهم تغلظْ رقابهم ، وأطعمهم اللّحمَ يقووا ، وعلِّمهم الشِّعر يمجدوا وينْجُدوا ، ومُرْهُمْ أنْ يستاكوا عَرضاً ، ويمصّوا الماءَ مصّاً ، ولا يعبّوه عبّاً ، وإذا احتجتَ إلى أنْ تتناولهم بأدبٍ فليكن ذلك في سترٍ لا يعلمُ به أحدٌ من الغاشية فيهونوا عليه[2] .

* وحرصَ بعضُ السَّلفِ على تمكينِ المعرفةِ والعلْم في الطِّفل أوّلاً بأوّل ، فقال لمؤدّب ولده: لا تخرجهم منْ علمٍ إلى علمٍ حتّى يُحْكِموه ،

---

(١) عيون الأخبار (٢/ ١٦٧) ، والعقد الفريد (٢/ ٤٣٥ و٤٣٦).
(٢) عيون الأخبار (٢/ ١٦٧) ، و«الحشم»: الخدم؛ و«أحْفِ»: أي قصِّرْ شعورهم؛ و«ينجدوا»: يرتفعوا؛ و«الغاشية»: المقصود هنا العامة.

فإنَّ اصطكاكَ العلْمِ في السَّمع ، وازدحامه في الوهم مضلّة للفَهم[١] .

* ومن بدائعِ الوثائقِ التّربويةِ عند السَّلف الصَّالح ، وثيقةٌ جميلةٌ توضّح دورَ التَّربية للطّفلِ ، وتضعُ المُعلّم في مكانِه الصَّحيح ، وتكشفُ على أنَّه مؤتمنٌ على أغلى ما يعتزُّ به الإنسان ، وهو ثمرةُ قلبهِ ، وفلذةُ كبده ، ومهجةُ نفسهِ ، ومُنى روحه ، وروحُ مُنَاه ، طفلُه الذي يُسَخّرُ له كلّ شيء .

* وهذه الوثيقةُ بحقّ تتضمَّنُ آراء رائعةً فريدةً في الأسلوبِ التَّربوي الذي ينبغي أنْ يُؤْثرهَ المعلم على سواه ، والمنهج الذي يتبعُه ، ترى مَنْ صاحب هذه الوثيقة التّربوية العُظمى؟

* كلُّنا يعرفُ هارون الرَّشيد الخليفةَ العبّاسي الرّجل الصَّالح ، فقد أوصىٰ الأحمرَ ـ علي بن الحسن ـ معلِّم ابنهِ الأمين وقال: يا أحمرُ ، إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفعَ إليك مهجةَ نفسِهِ ، وثمرةَ قلبهِ ، فصيِّرْ يدَكَ عليه مبسوطةً ، وطاعتَه لك واجبة ، فكنْ له بحيث وضعَك أميرُ المؤمنين ، أقرِئه القُرآنَ ، وعرّفْه الأخبارَ ، وروّه الأشعارَ ، وعلّمه السُّنن ، وبصّره بمواقعِ الكلام وبدئه ، وامنعه من الضّحك إلا في أوقاتهِ ، وخذهُ بتعظيمِ مَنْ همْ أكبَرُ منه سنّاً وعلماً إذا دخلوا عليه ، وارفعْ مجالسِ القوّاد إذا حضروا مجلسَه ، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنتَ مغتنمٌ فائدة تفيدها إياه من غير أنْ تحزنَه فتميتَ ذهْنَه ، ولا تمعنْ في مسامحتِه فيستحلي الفراغَ ويألفه ، وقوّمه ما استطعتَ بالقربِ والملاينةِ ، فإنْ أبَاهُما فعليكَ بالشّدَّة والغِلْظة .

وقال هشامُ بنُ عبد الملك لمؤدّب ولده سُليمان الكلبيّ:

إنَّ ابني هذا هو جلدةُ ما بين عيني ، وقد وليتُك تأديبَه ، فعليك بتقوى اللهِ ، وأدِّ الأمانةَ ، وأوّلُ ما أوصيك به أنْ تأخذَه بكتابِ اللهِ ، ثمَّ روّه من الشّعر أحسنه ، ثمّ تخللْ بهِ في أحياءِ العرب ، فخذْ من صالحِ شِعْرهم ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .

وبصِّره طرفاً من الحلالِ والحرامِ ، والخطبِ والمغازي . . .

* ما أحرىٰ المربّين أنْ يأخذوا بهذهِ الآثارِ التّربويةِ الحكيمةِ ، حيث فيها توجيهاتٌ رائدةٌ ، وأساليبُ رائعةٌ ، وآدابٌ عامّةٌ تصلُحُ للدّنيا والآخرة . إنَّ في آثار السَّلف مناهجَ تربوية رائعة تكشفُ عن سِماتِنا الأصيْلة ، وتربيتنا الكريمة ، وأفكارِنا المفيدة .

* * *

الفصل الثّالثُ
السَّلفُ وحُبُّ الطِّفْلِ

* احتلَّ الأطفالُ ذكوراً وإناثاً أرفعَ المنازلِ وأرحبَ السَّاحاتِ في نفوسِ الآباء والأمّهات ، وتراثنا الوضيء يحملُ في أردانهِ فواكهَ شهيّة في هذا المضمارِ ، ويتحفُ الدنيا بأرقّ ما جاء في حُبِّ الطِّفْل ، وعما تكنّه الصُّدور ، وتصدره همساتُ القُلوب .

* وقد احتلت البناتُ منزلةً رفيعةً من قلوبِ الوالدَيْن ، فمنْ ذلك ما ذكَره ابنُ عبد ربّه في «العقد الفريد» أنَّ النَّبي ﷺ لما بُشِّر بفاطمةَ قال : «ريحانةٌ أشمُّها ورزقُها علىٰ الله»(١) .

* وكان معاويةُ بنُ أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ يجلُّ البناتِ الصَّغيرات ويحبّهنَّ ، وكانَ يقولُ عن ابنتهِ عائشة ـ وكانت صغيرة ـ : هذه تفّاحةُ القلب . وكان ـ رضي الله عنه ـ يقولُ في البناتِ : واللهِ ما مرّضَ المرضى ، ولا نَدبَ الموتىٰ ، ولاأعانَ على الأحزانِ مثلهنَّ ، وربَّ ابن أخت قد نَفَع خالَه .

* ومثلَ هذا قول حسّان بن النّذير في تقديره مكانةَ البنت وإعزازَه إيّاها :

رأيـتُ رجـالاً يكـرهـونَ بنـاتِهـم وهنَّ البواكي والجيوبُ النَّواصحُ

* وكان الشَّاعر المخضرمُ معنُ بنُ أوس قد اشتُهِرَ بحبّه الشَّديد لبناتِه

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٤٣٨) .

الثّلاث ، وكان يؤثرهنّ ، ويذكر وفاءهنّ ، وكان يقول: ما أحبُّ أنْ يكونَ لي بهنَّ رجال:

رأيتُ رجالاً يكرهونَ بناتِهم   وفيهنَّ لا تُكْذبْ نساءٌ صوالحُ
وفيهنّ والأيّام تعثرُ بالفتى   نَوادِبُ لا يمللْنَه ونوائح[1]

* وقال غيرُه:

أحبُّ البناتِ وحبُّ البنا   تِ فرضٌ على كلّ نفسٍ كريمه
فإنَّ شعيباً من أَجْلِ ابنتيه   أخْدمَه اللهُ موسىٰ كليمه[2]

* وتروي المصادرُ أنَّ أمَّ الحكمِ ابنةَ الزُّبيرِ بنِ عبد المطلب ، كانت تستحوذُ على قلبِ أبيها وعلى حُبّه ونفسِه ، فكان يدلّلُها ويقرّبُها ويفاخرُ بها ، ويهشُّ إلى لقائِها ، ويُسَرُّ برؤيتها ، ويقولُ مرقّصاً لها:

يا حبّذا أمّ الحكّم   كأنَّها ريمٌ أَجم
يا بعلَها ماذا يشمّ   سَاهَم فيها فَسَهم

* ويروىٰ أنَّ محمّد بنَ جعفرَ بنِ محمد كان يعتبرُ البناتِ هبةً منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنهنَّ حسناتٌ يُثَابُ عليها ، فكان يقول: البناتُ حسَناتٌ ، والبنونُ نعمةٌ ، والحسناتُ مُثَابٌ عليها ، والنِّعَمُ مسؤولٌ عنها.

* واعتبرَ بعضُهم أنَّ منْ كرامةِ المرأةِ أنْ تلدَ الأنثىٰ قبل الذّكَر مستنداً إلى قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

* وينتصرُ أبو منصور الثّعالبيّ ببلاغَتهِ في كتابهِ «سِحْر البلاغة» للبناتِ ،

---

(١) الأغاني (١٢/ ٧١) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. وكان معن بن أوس مئناثاً وكان يحسنُ صحبةَ بناته وتربيتهنّ ، فولدَ لبعضِ عشيرته بنتٌ فكرهها ، وأظهرَ جزعاً من ذلك ، فقال معنٌ البيتَيْن السّابقين.

(٢) في هذا إشارة لقول الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧].

ويأتي بفصلٍ لطيفٍ ليؤيِّـدَ كلّ ما هو مؤنثٌ فيما ذهبَ إليه ، فيقولُ مهنّئاً صديقاً ولدتْ زوجُه بنتاً ، فآلَمه ذلك فأرسلَ إليه يقولُ : هنأَ اللهُ سيّدي وِرْدُ الكريمةِ عليه ، وثمَّرَ بها أعدادَ النَّسلِ الطَّيِّب لديه ، وجعلَها مؤذنةً بإخوةٍ بررة ، يعمرونَ أنديةَ الفَضْلِ ، ويدومُ ذكرهم بقيّةَ الدَّهْر .

اتَّصلَ بي خبرُ المولودةِ أنبتها اللهُ نباتاً حسناً ، وما كان من تغيُّرِك بعد اتّضاحِ الخبرِ ، وإنكارك ما اختارَ اللهُ لك في سابقِ القَدَر ، وقد علمتَ أنّهنَّ أقربُ منَ القلوب ، وأنَّ الله بدأَ بهنَّ في التَّرتيب فقال سبحانه : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى : ٤٩] ، وما سمّىَ اللهُ تعالى هبةً فهو بالشّكر أولىٰ ، وبحسنِ التَّقبُّل أحرى .

أهلاً وسَهْلاً بعقيلةِ النِّساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبةِ الأصهارِ ، وأولادِ الأطهار ، والمبشّرة بإخوةٍ يتناسقون ، ونجباءَ يتلاحقون :

فلـو كَـانَ النّسـاءُ كمثـلِ هــذي   لفُضّلـتِ النِّسـاء علـىٰ الـرّجـالِ
فما التَّأنيثُ لاسم الشَّمس عيب   ولا التَّــذكيــر فخــرٌ للهــلالِ

منحكَ اللهُ البركةَ في مطلعها ، والسَّعادةَ في موقِعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنفْ نشاطاً ، فالدُّنيا مؤنَّثةٌ والنَّاس يخدمونَها ، والذّكورُ يعبدونَها ، والأرضُ مؤنَّثةٌ ومنها خُلقتِ البريّةُ ، وفيها كثُرت الذّريّة ، والسَّماء مؤنّثة وقد حُلّيت بالكواكبِ ، والحياةُ مؤنَّثة ولولاها لم تتصرفِ الأجسامُ ، ولا تحـركَ الأنـام ، والجنَّـة مـؤنّثـة وبهـا وُعِـدَ المتّقـون ، وفيهـا ينعـمُ المرسلون ؛ فهنّأَكَ اللهُ ما أوليتَ ، وأوزعكَ شُكْر ما أُعْطيت ، وأطالَ اللهُ بقاءكَ ما عرفَ النَّسلُ والولدُ ، وما بقي العصرُ والأبدُ ، إنَّه فعَّال لما يريد .

* وكانَ كثيرٌ منَ الشُّعراء في العصور السَّابقة يرون أنَّ العطفَ على البناتِ من الأسبابِ التي تزيده في الحدبِ عليهنَّ فقال :

لقــد زَادَ الحيــاةَ إلــيَّ حبّــاً   بنــاتــي إنّهــنّ مــنَ الضِّعــافِ
مخـافـةَ أنْ يـذقْـنَ البؤسَ بعـدي   وأنْ يشـربْـنَ رنقـاً بعـد صَـافـي

ولولاهُنّ قد سَوّمتُ مهري وفي الرّحمنِ للضُّعفاء كافي

* ومن الرَّصيدِ الطَّيِّبِ من صُورِ الحبّ للأطفالِ الإناثِ عند الأدباءِ ، ما وردَ أنَّ عبد اللهِ بنَ المقفع قد أرسلَ إلى رجلٍ قد وُلدتْ له بنتٌ وقال: باركَ اللهُ لك في الابنةِ المستفادة ، وجعلَها لكم زينةً ، وأجرى لكم عليها خيراً ، فلا تكرهُهنّ فإنهنّ الأمّهاتُ والأخواتُ والعمّاتُ والخَالاتُ ، ومنهنَّ الباقياتُ الصَّالحاتُ ، وربّ غلامٍ ساءَ أهله بعد مسرّتهم ، وربّ جاريةٍ فرّحتْ أهلها بعد مساءتِهم ، وأنشدَ في ذلك يقول:

سَخطْتَ بنيّةً عمّا قليلٍ تسرُّ بها عيونُ النّاظرات

فباركَ في فطيمةِ ربّ موسى وأنبتَها نباتَ الصَّالحات

وزادكَ عاجلاً أخرى سواها لسخْطكَ إذ سخطتَ على البنات

* إنَّ حبَّ الطّفلِ غيرُ حبِّ الزَّوج ، وغيرُ حبّ الوالدَيْن ، وغيرُ حبّ الإخوة ، حبٌّ له طعمٌ لا تذوقُه في شيءٍ من كلّ أولئك ، فهو مزيجٌ من الرّحمة والحنانِ ، ومن السَّعادة والجمالِ ، ومنَ الطَّربِ والشَّجى ، ومن الطُّمأنينةِ والقَلقِ ، ومن الأثرةِ والإيثارِ ، ومن الخوفِ والرّجاءِ ، هو مزيجٌ من هذا كلِّه ، مختلط يموجُ بعضُه ببعض ، فتخرج له ذلك الطَّعم الخاصّ الذي لا يكونُ إلا بمجموعِ هذه المعاني وفي مقدمتها الرَّحْمةُ والحنان.

* ولقد عبّر أسلافَنا عن هذهِ المعاني ، فمما وردَ في هذا المجالِ أنَّ سيِّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ أرسلَ إلى الأحنفِ بن قيس فقال: يا أبا بَحْر ، ما تقولُ في الولد؟!

فقال: يا أميرَ المؤمنين ، ثمارُ قلوبنا ، وعمادُ ظهورنا ، ونحنُ لهم أرضٌ ذليلة ، وسماءٌ ظليلة ، فإنْ طَلبوا فأعْطِهم ، وإنْ غضبوا فأَرْضهم ، يمنحوك ودّهم ويحبوك جهدهم ، ولا تكنْ عليهم ثقيلاً فيملّوا حياتَك ، ويحبّوا وفاتَك.

فقال: لله أنتَ يا أحنف ، ثمّ إنَّ معاويةَ بعث له بمئتي ألف درهم ، ومئتي ثوب[1].

* وبلغ حبُّ الطِّفل مبلغاً عظيماً عند أسلافِنا ، مما جعلهم يفيضون عليهم بألوانِ الحنانِ ، من ذلك أنَّ الزُّبيرَ بنَ العوّام ـ رضي الله عنه ـ كان يرقّصُ ولده عروة ويقول:

أبيضُ منْ آل أبي عتيق مباركٌ من ولَد الصِّدِّيق
ألـذّهُ كما ألـذُّ ريـقـي

* وهكذا نرى أنَّ الأبناء والأطفالَ إحدىٰ زينتي الحياة الدُّنيا ، قال ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. والأطفالُ ابتسامةُ الأملِ ، وروحُ النَّفس ، وريحانُ القلوب ، ولهم في النُّفوس قديماً وحديثاً مكانةٌ لا تُوصف. وفي تاريخنا ألوانٌ كثيرةٌ من هذا المضمارِ يصعُبُ إحصاؤها ، ولكنّا أوردنا منها ما يوضّح الصّورة في حبّ الطِّفل.

* * *

(١) انظر: العقد الفريد (٢/ ٣٧) باختصار وتصرف يسير.

الفصل الرابع
قَبَساتٌ منْ طفُولَةِ المشَاهيْرِ

* مشاهيرُ أمّةِ الإسلامِ هم مشاعلُ نورٍ تضيءُ للنّاس سُبُلَ الخيرِ وطرقَ الصَّلاحِ والفلاحِ والتّقدُّم ، ويشعّ نورُهَا على امتدادِ الأجيالِ ، فهم الموردُ النّدي للارتواءِ ، وهم الحجّةُ الواضحةُ على العباد.

* وطفولةُ هؤلاء المشاهير تغذّي الأرواحَ ، وتندّي النّفوسَ ، وتأخذَ بأيدي الأطفالِ إلى مواردِ الهنَاء والصَّفاء ، ويجبُ على المربّي أنْ يضعَ عينَ الطّفل على سيَرِ هؤلاء الأكابرِ ، لتكونَ أعينُهم معقودةً بهم ، وليسيروا في حياتِهم على نهجهم ؛ ليكونوا منَ المشاهيرِ الذين يتركون أثراً كريماً في هذه الدّنيا.

* وفي هذا الفَصْل الجميلِ سنتحدَّثُ عن طفولةِ بعضِ المشَاهير منَ الصَّحابة وغيرِهم من السَّلف الصَّالح ، ليكتملَ عقْدُ كتابنا هذا ، وتتمَّ الفائدةُ منه بإذنِ الله تعالى.

* وسنبدأُ رحلةَ الطُّفولةِ هذه مع الحِبِّ بن الحِبِّ أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما ، لكي نحب مَنْ أحبَّ حبيبُنا.

أولاً : طُفولـةُ أسامـةَ بـنِ زَيْـدٍ ـ رضـي الله عنهمـا ـ :

* في بيتٍ تنبعثُ منه أنفاسُ النّبوةِ الشَّذيّةِ ، وُلدَ أبو محمّد أسامةُ بنُ زيد بنِ حارثةَ الملقَّب بالحِبِّ بنِ الحبِّ. ومعنى الحبّ : المحبُوب. فأبوه

زيدُ بنُ حارثةَ الكلبيّ حبُّ رسولِ اللهِ ﷺ ومولاه ، وهو الصَّحابيُّ الوحيدُ الذي وردَ اسمُه صريحاً في القُرآنِ الكريمِ في سورةِ الأحزاب. وأمُّه إحدى الصَّحابيات ذوات السَّبْق إلى الإسلام ، فهي بَرَكَةُ الحبشيّة المكنَّاة بأمِّ أيمن حاضنة سيّدنا رسولِ الله ﷺ ، وكان يقولُ عنها: «هي أمّي بعد أمّي وبقيّة أهل بيتي».

* وُلد أسامةُ في السَّنةِ الرَّابعة منَ البعثةِ المحمديّةِ ، وفرحَ الحبيبُ المُصطفى ﷺ بولادته ، فأبوهُ زيدُ حِبّ النبي ﷺ ومن السَّابقين إلى دوحة الإيمانِ ، فهو أوّلُ الموالي إسلاماً رضي الله عنه وعن ابنه زيد وعن زوجه أمّ أيمن.

* كانَ مولدُ أسامةَ بمكةَ ، ونشأَ في ظلّ النّبوة ، وترعرعَ في بيتِ النّبي ﷺ وفي رعايتهِ وتربيتهِ. فآمنَ بالإسلامِ منذُ نعومةِ أظفارِهِ ، فلم يعرفْ إلا الإسلامَ دِيناً خالصاً لله عزّ وجلّ ، ولم يَدِنْ بغيرِه عقيدةً وعملاً وسُلوكاً ، وقضى طفولَتَه بينَ ألوانِ الهدايةِ والعَطْفِ النّبوي ، وهاجرَ مع أبيهِ إلى المدينةِ المنورةِ ، وتقلَّب في أجواءِ الوحيِ والتَّنزيل ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يحبُّه حبّاً شديداً ، وكان كبعضِ أهله.

* إنَّ تربيةً عاليةً كهذهِ التّربيةِ المحمديّة ، ونشأةً إسلاميّة صِرفةً ، كفيلان بتكوينِ نَفْسٍ على أحسنِ ما يريدُ الإسلامُ ، عقْلاً ووعيْاً ، وتفانياً في سبيلِ المبدأ والعقيدةِ؛ وشجاعةً وإقداماً ، وإيماناً راسخاً كالجبالِ ، وعلماً وفقهاً ، كلُّ ذلك كانَ إرهاصاً ليصبحَ أسامةُ أحدَ مشاهيرِ قادةِ الإسلامِ ، وأحدَ مشاهيرِ الدّنيا في طُفولَتِهِ وشبابهِ وشيبهِ فرضيَ الله عنه وأرضَاه[١].

* كانَ أسامةُ رضي الله عنه حِبَّ رسولِ الله ﷺ وابن حِبِّهِ ، واشتهرَ

---

(١) انظر: أسامة بن زيد (ص ١٨) بتصرف ، سلسلة أعلام المسلمين؛ للدكتور وهبة الزحيلي.

بذلك بينَ أطفالِ الصَّحابةِ وأولادهم ، ولعمري فهذهِ منزلةٌ فريدةٌ يغبطُه عليها سائرُ المسلمين ، فقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُقْعِدُ أسامةَ على فخذِهِ ، ويقعدُ الحسنَ على الفخذِ الأيسرِ ويقولُ: «اللهمّ ارحمْهُما فإنّي أرحمهما» أو «اللهمّ أحبَّهما فإنّي أحبُّهما». قال أسامةُ واصِفاً ذلك: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يأخذُني والحسنَ بنَ عليّ ثمّ يقولُ: «اللهمّ أحبَّهما فإنّي أحبُّهما»[1].

* وحدَّثَ هشامُ بنُ عروةَ عن أبيه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أسامةَ بنَ زيد لأحبُّ الناسِ إليّ ، أو منْ أحبِّ النَّاسِ إليَّ ، وأنا أرجو أنْ يكونَ من صالحيكم ، فاستوصُوا به خَيْراً»[2].

* وعن أمِّنا عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالَتْ: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يبغضَ أسامةَ بعدما سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ كان يحبُّ اللهَ ورسولَه فليحبّ أسامة» وقال أيضاً: «أسامةُ أحبُّ النَّاس إليّ».

وكانتْ طفولةُ أسامةَ من أجملِ طُفولات الدّنيا في دنيا الأطفالِ ، لأنّه حظيَ بالرّعايةِ النّبويةِ والاهتمام الأبويّ منْ رسولِ الله ﷺ ، فقد وَرَدَ أنّ أسامة دخلَ على رسولِ اللهِ ﷺ ، فأصابتْه عَتَبَةُ البابِ ، فوقعَ ، وشجَّ في رأسهِ أو في جبهتِهِ وسالَ منه الدمُ ، فقال رسولُ الله ﷺ لعائشة: «يابنةَ أبي بكر ، قُومي فامْسَحي عنه الأذىٰ» أو قال: «يا عائشةُ ، أميطي عنه الدم» ، ويبدو أنَّ عائشةَ قد تقذَّرتْ ذلك ، فقامَ إليهِ الحبيبُ المصطفى ﷺ ، فجعلَ يمصُّ شجَّتَه ويمجّه ، ويقولُ: «لو كانَ أسامةُ جاريةً لكسوتُه ، وحلّيته ، حتى أنْفِقَه للرِّجال».

* وتذكر المصادرُ أيضاً أنَّ أمَّنا عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالَتْ: أمرني رسولُ اللهِ ﷺ أنْ أغسلَ وجْهَ أسامةَ يوماً ، وهو صبيٌّ ، وما ولَدْتُ ،

---

(١) جامع الأصول (١٠/ ٢٧). والحديث أخرجه البخاري وأحمد.
(٢) جامع الأصول (١٠/ ٢٦) والحديث أخرجه البخاري والترمذي.

ولا أعرفُ كيفَ يغسِلُ الصِّبيان ، فأخذتُه ، فغسلتُه غَسْلاً ليس بذاك ، فأخذَه منّي رسولُ اللهِ ﷺ ، وجعل يغسلُ وجهَه ، ويقول: «لقد أُحْسِنَ بنا إذ لم يكُ بِجَارية ، ولو كنتَ جاريةً ، لحلّيتُك وأعطيتُكَ».

ثانياً: طُفولَةُ عَبدِ اللهِ بنِ الزُّبَير ـ رضيَ الله عنهما ـ:

* هذا طفلٌ كريمٌ من الأسرةِ الزُّبيريّةِ التي أنجبتْ نجباءُ أطفالِ الدّنيا في عَصْر النّبوّة الأزْهرِ الزّاهرِ. وُلدَ في المدينةِ المنوّرةِ بُعَيْدَ الهجرةِ النّبويةِ ، فكانَ أوّل مولودٍ وُلدَ للمهاجرين في المدينةِ في عصرِ الإسلام؛ وعندما سمعَ أصحابُ النّبيِّ ﷺ بأنَّ عبدَ اللهِ قد وُلدَ ، كَبّروا تكبيرةً واحدةً ، حتّى ارتجَّتِ المدينةُ المنوّرةُ تكبيراً ، وفرحُوا بولادتِه كثيراً ، لأنَّ اليهودَ حينما قدمَ سيدنا رسول الله ﷺ وصحبُه المدينةَ قال: أخّذوهم ، ـ والتّأخيذ: نوعٌ من السِّحْر ـ حتى لا يكون لهم نَسْل ، فكانَ مولدُ عبدِ اللهِ بن الزّبير بُشْرى للمسلمين ببطلانِ سحْرِ اليهود.

* ولما ولدته أمه أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أحبَّتْ أنْ يراهُ رسولُ الله ﷺ ، ولنتركِ الحديثَ الآن لأسماءَ حيثُ تقول: فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ ، فأتيتُ المدينةَ ، فنزلتُ بقباء ، فولدتُه بقباءَ ، ثمّ أتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فوضعتُه في حجرِه ، ثمَّ دعا بتمرةٍ فمضَغَها ، ثمّ تفلَ في فيه ، فكانَ أوّلُ ما دخلَ في جوفهِ ريقُ رسولِ الله ﷺ ، ثم حنّكهُ بتمرةٍ ، ثمّ دعَا له وبرّكَ عليه(١). وسمّاه باسمِ جدّه لأمّه ، وأمرَ أنْ يؤذّنَ في أذنيه بالصّلاة ، فأذّنَ جدّه أبو بكر في أُذنَيْه.

* ويروي ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ أنَّ أبا بكر الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ طافَ بابنِ الزُّبير في خرقةٍ وهو صبيٌّ مولودٌ ، ليشتهرَ أمرُ ميلادِه على خلافِ ما زعمتِ اليهود.

---

(١) الحديث صحيح أخرجه البخاري (٣/ ١٤٢٢) ، ومسلم (٦/ ١٧٥).

* وكانَ أبوه الزّبيرُ بن العوّام يحبُّه كثيراً ، فيحمله ويقبّله وهو صغيرٌ ويقول:

أبيضُ من آلِ أبي عتيق أحبُّه كما أحبُّ ريقي

* كانتْ نشأةُ عبدِ اللهِ بن الزّبير قريبةً من بيتِ النّبوّة ، فجدّتُه صفيّةُ بنتُ عبدِ المطلبِ عمّةُ النّبي ﷺ، وعائشةُ بنتُ الصّديق أمُّ المؤمنين خالتُه، وأبوهُ حواري النّبيّ وابنُ عمّته ، لذا فالبركاتُ تحفُّه من كلّ جانبٍ ، فهو صحابيٌّ جليلٌ ابنُ صحابي جليل وصحابية جليلة ، وكانَ أوّلَ شيءٍ دخلَ جوفَه ريقُ رسولِ الله ﷺ ، نشأ عبدُ الله عند خالتِهِ أمّنا الصِّدِّيقةِ في بيتِ النّبوّة الزّاهرِ الأزهرِ الكريمِ خير بيوت الدّنيا ، ومنذُ طفولته عُرِفَ بالذّكاء والحَصَافة.

* وعن هذا روى عبدُ الله عن نَفْسه أنّه أتى رسولَ اللهِ ﷺ ، وهو يحتجمُ ، فلمّا فرغَ قال: «يا عبدَ اللهِ اذهبْ بهذا الدم فأهرقْهُ حيثُ لا يراكَ أحدٌ»؛ فلما برزَ عنْ رسولِ اللهِﷺ ، عمدَ إلى الدم فشربَه ، فلما رجعَ ، قال: «يا عبدَ اللهِ ما صنعْتَ بالدم»؟ قال: جعلتُه في أخفى مكانٍ علمت أنّه يخفى على النّاس ، قال: «لعلّك شربتَه»؟ قال: نعم. قال: «ولمَ شربْتَ الدم ، ويلٌ للنّاس منك ، وويلٌ لكَ من النّاس». وكانوا يرون أنَّ القوّة التي به من ذلك الدم[1].

* ومنَ المطْرِبِ في طفولةِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير أنَّه قد حظيَ بمبايعةِ النّبيّ ﷺ وهو طفْلٌ ، فقد روى الزّبير ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ كُلِّمَ في غِلْمةٍ ترعرعوا ، منهم عبدُ اللهِ بنُ جعفر ، وعبدُ الله بنُ الزّبير ، وعمرُ بنُ أبي سلمةَ ، فقيل: يا رسولَ اللهِ ، لو بايعتَهم فتصيبَهم بركَتُكَ ويكونَ لهم ذِكْرٌ ، فأُتيَ بهمْ إليهِ ، فكأنَّهم تكعْكَعُوا ، واقتحمَ عبدُ الله بنُ الزّبير؛ فتبسَّمَ رسول الله ﷺ وقالَ: «إنَّه ابنُ أبيهِ»؛ وبايعَه ، وكانَ عبدُ اللهِ ابنُ سَبْعِ سنين.

---

(١) انظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ٣١٠) طبعة دار الفكر ببيروت ١٩٧٨ م.

* ولعبدِ اللهِ بنِ الزّبير أخبارٌ جميلة تكفَّلَتِ المصادرُ بذكْرِها ، وإنّما عشْنا هنا مع أقباسٍ وضيئةٍ من طفولته رضي الله عنه وأرضاه.

ثالثاً: عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ـ رحمه الله ـ:

* في مدينةِ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ مولدُ هذا الطّفل الكريم الذي يحبُّه الخاص والعام ، والذي ملأَ صيتُه الدّنيا ، فكان منْ مشاهيرِ الرِّجالِ العادلين الورعين ، ومنَ الكرماءِ النّجباء.

* عمرُ بنُ عبد العزيز هو صاحبُ هذه الصِّفات العظيمة ، وقد جمعَ المجدَ منْ أطرافهِ ، فقد جمعَ النَّسبَ الطَّاهر ، والسُّلالةَ الطيِّبةَ الأصيلةَ إلى الاستقامةِ والسّيرةِ الحسنةِ.

* كان مولدُه سنة (٦٠ هـ) ، ونشأَ نشأةً كريمةً ، في كنفِ أبويه التّقيَّيْن الورعَيْن ، وخصوصاً أمُّه أمُّ عاصم[١] بنتُ عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب ، التي ربّتْ عمر على أخلاقِ الإسلامِ الكريمة ، وأرضعته مع لبنِها التّقوى والإحسانَ ، والصّدقَ والورعَ ، والنُّبْلَ والمروءةَ ، والجودَ والسَّخاءَ ، وحاولتْ أنْ تربطَ فؤادَه بجدّهِ الكريم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فظهرتْ فيه الرّوحُ العمريّة والصِّفات الفاروقية ، فكان سمي جدّه عمر ، وكان يسيرُ سيرته في حياتِه فكان منَ الصَّالحين الخالدين.

* ومنذ أنْ تفتّحتْ عينا عمر بن عبد العزيز على الدنيا ، تفتّحتْ معه براعمُ الفضائلِ والمواهبِ والكفاياتِ ، فكان هذا من سماتِهِ ، وأخذَ يتردّدُ على المسجدِ النّبوي ، وينهلُ من عبدِ اللهِ بنِ عمر عمّ أمّه أمّ عاصم ، فكان ـ وهو طفْلٌ ـ يأخذُ عنه العلْمَ والحديثَ النّبوي ، ولشدّة شغفه بابنِ عمر كان يقولُ لأمّه: يا أمّاه ، أنا أحبُّ أنْ أكونَ مثل خالي ـ يعني عبد الله بن

---

(١) اقرأ سيرة أم عاصم بنت عاصم في كتابنا «نساء من عصر التابعين».

عمر ـ؛ فتقولُ له أمُّه في سرورٍ: أنْتَ تكونُ مثلُ خالِك!! تكرّرُ عليه ذلك غير مرّة.

* وأمّا سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ فكانَ يقرأُ في وجْهِ الطّفلِ الصَّغير علاماتِ النَّجابةِ، وأماراتِ النّبوغِ، وكيف لا؟ وهو منَ السُّلالة العمريّة الفاروقيّة؟!

* ولما بعثَ أميرُ مصرَ عبدُ العزيزِ بنُ مروان ـ والدُ عمر وزوجُ أمّ عاصم ـ كتاباً يطلبُ من زوجته أنْ تصحبَ ابنها عمرَ وتلْحَقَه بمصر، جاءتْ إلى عمّها عبدِ الله بنِ عمر كيما تودّعه، فقال لها: يا بنةَ أخي، هو زوجُك فالحقي بهِ؛ ولما أرادتِ الخروجَ قال لها عن ابنها عمر: خَلّفي هذا الغَلامَ عندنا فإنّه أشبهُكم بنا أهلَ البيتِ. فخلّفَتْه عنده، وسُرَّ عبد العزيز أبوه بذلك، وأوصى بابنهِ أخاه عبدَ الملك بنَ مروان، وأجرىٰ عليه ألف دينار كلّ شهر.

* وأقامَ عمرُ بنُ عبد العزيز زمناً بالمدينةِ المنوّرة، ثمّ لحقَ بأبيهِ في مصرَ فأقامَ عنده ما شاءَ اللهُ؛ ورأى عبد العزيز بنَ مروان مخايلَ العلْمِ ودلائلَ الخشيةِ على نجلهِ، فاختارَ له مربّين وعلماءَ ومؤدّبين، فحفظَ القرآنَ وهو صغيرٌ، وتأثّر بهِ، وجرتْ محبّةُ القرآن في عروقهِ، وتمشَّتْ في مفاصلِه، وظهرتْ في قلبهِ، فقد ذكرتِ المصادرُ أنّه بكى وهو غلامٌ صغيرٌ، فأرسلتْ إليهِ أمُّه، فقالت: ما يبكيكَ؟

قال: ذكرتُ الموتَ.. فبكَتْ أمُّه منْ ذلك[1].

* وكانت نفسُ الطّفلِ عمرَ توّاقةً إلى المدينةِ المنوّرةِ، فهي منارةُ العلْمِ والتّقوى، وجاءَ إلى أبيهِ وأسرَّ إليهِ قائلاً: يا أبتِ، ترحِّلُني إلى المدينةِ، فأقعدُ إلى فقهاءِ أهلِها؛ وأتأدّبُ بآدابِهم.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٩٢)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ١١٨).

* ووجدتْ هذه الأمنيةُ مكاناً فسيحاً في قلْبِ أبيهِ عبدِ العزيز ، فاختارَ له أهلَ العلْم والتّقى والصَّلاح ، وبعثَ بهِ إلى المدينةِ يتأدّبُ بها ، وكتبَ إلى صالحِ بنِ كيْسَانَ يتعاهده ، فتولّى صالحُ تأديبَه ، وكان يلزمه الصّلواتِ في المسَاجد .

* ومن طرائفِ ما حصَلَ لعمرَ بنِ عبد العزيز أنّه تأخَّرَ مرّةً عن الصَّلاةِ مع الجماعةِ يوماً ، فقال له صالحُ بنُ كيسان : ما شغَلَكَ يا عمر؟

قال : كانتْ مرجِّلَتي تُسَكِّن شَعْري .

فقال له : قَدَّمْتَ ذلكَ على الصَّلاة؟!

ثم كتبَ إلى أبيهِ ـ وهو على مصرَ ـ يخبرهُ بذلك ، فبعثَ أبوهُ رسولاً إليهِ ، فلم يكلِّمْه حتّى حلقَ رأْسَه .

* وهكذا تكونُ التّربية ، ومثلُ صالح بن كيسان يكونُ المربّون في النُّصحِ والصِّدقِ والأمانةِ .

* وبمثلِ هذهِ التّربية سادَ عمرُ وهو طفلٌ ، فقد بلغَ من حصافتهِ أنّه قعَدَ مع مشايخِ قريش ، وتجنَّب شبابَهم ، وما زالَ ذلك دأْبُه حتى اشتُهِرَ بالعلْمِ والعَقْل ، مع حداثَةِ سنّهِ .

* وتجلّت في سنواتِ طفولةِ عمرَ الباكرةِ النّاضرةِ عزيمةٌ ماضيةٌ ، وإرادةٌ متوقّدة ، راحتْ تحرّكُ دوافعَ الطّفلِ نحو الخيرِ والمكرماتِ ، فاستطاعتْ طفولتُه أنْ تكونَ أنموذجاً متكاملَ الخصائصِ ، متناسقَ القسماتِ للتنشئةِ الصحيحة ، فكان فيما بعد منْ أعلامِ الخُلفاء ، ومن خلائفِ العُلماء ، ومن عبادِ اللهِ المتّقين والمنيبين . وتظهرُ ومضاتُ التّقوى في عمرَ منذ طفولتهِ ، فقد قيلَ له : ما كانَ بدايةُ إنابتك؟ قال : أردتُ ضربَ غلامٍ لي ، فقالَ لي : يا عمر ، اذكرْ ليلةً صبيحتُها يومَ القيامة .

* وهكذا كانتْ أنسامُ طفولتهِ تغطّي أنفاسُها كلَّ مجالٍ فيه خيرٌ وسعادةٌ

له ولمنْ حولَه وللنّاس كلّهم ، فكانَ الطفلُ الورعُ الحافظُ التّقي ـ بالرغمِ من أنَّه نشأَ في محضنِ الخلافةِ ، ورضعَ من ثديَّيْها ، وتنفَّس في أجوائِها المِعْطار منذُ لحظات عمرِه الأولى ـ رجلاً بارزاً.

* وها نحنُ أولاءِ نقفُ مبهورين أمامَ هذا الطّفلِ الصَّغيرِ الكبيرِ الهمّة الذي يحدّثنا عن نفسهِ فيقول: لقد رأيتُني بالمدينةِ غلاماً مع الغِلْمان ، ثم تاقَتْ نفسي للعِلْم ، فأصبتُ منه حاجَتي.

* واختارَ الطّفلُ الحصيفُ النَّجيبُ عمرُ رفقاءَ له ، فكانوا القدوةَ للسَّادات ، فقعدَ إلى أكابرِ أهلِ العلمِ والمعرفةِ والفَهمِ ، وتجنَّبَ الأغرارَ والشَّباب ، فحفظ القرآن مبكّراً في سنّ الطّفولةِ الغضّ ، وتجنّب كبائرَ الإثمِ وصغارها حتّى قال عن نفسه: ما كذبتُ كذبةً منذ شددتُ عليَّ إزاري.

* وقال: ما كذبتُ منذُ علمتُ أنَّ الكذبَ شينٌ على أهله.

* وسيرةُ طفولةِ عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ تعينُ المربّي على إتمامِ مهمّته في التَّربيةِ ، فما أجملَ أنْ ننديّ نفوسَ الأطفالِ بِسِيَرِ هؤلاء الرِّجال!!

رابعاً: الإمامُ الشَّافعي ـ رحمه الله ـ:

* طفولةُ الإمام الشّافعيّ منَ الطّفولاتِ الغزيرةِ بالأخبارِ الجميلةِ التي يجبُ على المربّي أَنْ يرويها للطفْل ، وأنْ يكثرَ له من ذكْرِها وقراءتِها.

* والشَّافعيُ هو أبو عبد اللهِ محمّدُ بنُ إدريس القُرشيّ ، وُلِدَ في سنةِ (١٥٠ هـ) في غزَّة ، وسنةُ ١٥٠ هـ هي السَّنَةُ التي توفي فيها أوّل الأئمةِ الأربعةِ الإمامُ أبو حنيفة و:

نجومُ سَماءٍ كُلّما غَار كَوكَبٌ بَدا كوكبٌ تأْوي إليهِ كَواكبُهُ

* كانتْ نشأةُ الشّافعي في مكَّةَ حيثُ قضى فيها طفولتَه ، وعن هذه

النَّشْأةِ يقولُ الشّافعي نفسُه: ولدتُ بغزّةَ سنةَ خمسين ومئة، وحُملْتُ إلى مكَّةَ وأنا ابنُ سنتَيْن.

* وفي مكَّة أمِّ القرى درجَ الشَّافعي، وعلى أرضِها كانتْ مرابعُ طفولتِه، فمكّةُ مهبطُ الوحي، ومهوى أفئدة المسلمين والمحبّين، وهي مَنْبَتُ الإسلام، وجذْرُ الإيمان وأعظمُ ما فيها المسجدُ الحرام، الذي يجتمعُ فيه الأئمةُ والأعلامُ، فلا تكادُ تنظرُ إلى زاويةٍ من زواياه، أو ساريةٍ فيهِ إلا تجد عندها إمّا فقيْهٌ، أو محدّثٌ، أو عالمٌ، أو مفسّرٌ، وقد تحلَّقَ من حولِ هؤلاء المتعلّمون وشُداة المعرفةِ والعِلْم.

* وعلى هذه الحِلَقِ العلميّةِ تفتَّحت عينا الشَّافعي وبصيرتُه، وراحَ يطلبُ العلْمَ وهو طريُّ العُود غضُّ الجسْمِ. وقد أرادتْ أمُّه - وكانت امرأةً عاقلةً - أنْ تأخذَ به إلى معلّمٍ كيما يعلّمَه مبادىء القراءةِ والكتابةِ على عادةِ النّاس في البَداءةِ بالتَّعلُّمِ، ولكنْ لم يكنْ مع أمِّه ما تعطيهِ للمعلّم أجراً عن تعليم ابنها، يقولُ الشَّافعي في ذلك: كنْتُ يتيماً في حجرِ أمّي، ولم يكنْ معها ما تُعطي المعلّمَ، وكان المعلمُ قد رضيَ منّي أن أخلفَه إنْ قام[1].

* ولعلَّ هذا المُعلّمَ الحصيفَ رأىٰ من نجابةِ هذا الطّفل الصّغير، وسُرعة حفْظِهِ، ونباهته ما دعاهُ إلى المسامحةِ بأجْرِه، يقولُ الشّافعي: كنْتُ أنا في الكُتَّابِ أسمعُ المعلّمَ يلقّنُ الصَّبي الآيةَ، فأحفظُها أنا، فقال لي ذاتَ يوم: لا يحلُّ أنْ آخذَ منكَ شيئاً[2].

* واستمرَّ الشّافعيُّ الطّفلُ الذّكي على هذهِ الحال الطّيّبة، حتى جمعَ القُرآنَ الكريمَ وهو طفلٌ لا يتجاوزُ عمرُهُ سبْعَ سنَوات[3].

* وبعدَ ذلك أخذَ الشَّافعي يختلفُ إلى العُلَماء ويسمعُ منهم، بشغفٍ

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٢/ ١٤١).
(٢) انظر: معجم الأدباء (١٧/ ٢٨٤) بتصرف.
(٣) شذرات الذهب (٢/ ٩) بتصرف.

شديدٍ ، وذهنٍ صَافٍ ، وهو ما يزالُ طفلاً في ضيقٍ منَ العَيْش ، وقلّة ذاتِ اليد ، حتى إنّه لم يجدْ ثمنَ ورقٍ يكتبُ عليه بعضَ ما يسمعُ من دروسِ العلْمِ والفقْه ، فكان يعمدُ إلى التقاطِ العِظَامِ ، وأكتافِ الجمالِ وغير ذلك ليكتبَ فيها الحديثَ ، وكانت لأمّه جِرَارٌ ضَخمةٌ ، فملأَها أَكْتافاً وخزفاً مملوءةً حديثاً[1].

* وقال الشَّافعي ـ رحمه الله ـ: طلبتُ هذا الأمرَ عن خفّةِ ذاتِ يَدٍ ، وكنتُ أجالسُ النَّاسَ وأتحفّظُ ، ثمّ اشتهيتُ أنْ أدوّنَ ، وكان لنا منزلٌ بقرب شِعْب الخَيْف ، وكنتُ آخذُ العِظَامَ والأكتافَ ، فأكتبُ فيها ، حتى امتلأَ في دارنا منْ ذلكَ حُبّان[2].

* ولشدّةِ حاجةِ الشَّافعي وفَقْرِه ، نصحَ له أحدُ أقربائهِ أن يتكسَّبَ ، وأنْ يتركَ طلبَ العلْمِ ولا يعجلَ إليه ، ولكنَّ حبَّ العلْمِ ملَكَ عليه كلّ شيء يقولُ الشَّافعي ـ رحمه الله ـ: قدمتُ مكّةَ وأنا ابنُ عشرٍ أو شبهها ، فصرتُ إلى نسيبٍ لي ، فرآني أطلبُ العلْمَ ، فقال لي: لا تعجلْ بهذا ، وأقبلْ على ما ينفعُكَ ـ يعني طلب الرّزق ـ ، فجعلتُ لذّتي في العِلْمِ وطلبهِ ، حتى رزَقَ اللهُ ما رزَقَ.

* ومن العجيب في طفولةِ الشّافعي أنّه حفظَ كثيراً من العلْمِ قبل أنْ يبلغَ الحلْمَ ، فقد روىٰ الإمامُ المُزني عن الشّافعيّ قولَه: حفظتُ القُرآنَ وأنا ابنُ سبعٍ ، وحفظتُ الموطّأَ وأنا ابنُ عشْر[3].

* وأثمرتْ مرحلةُ الطُّفولةِ عند الشَّافعي فتصدَّرَ للتّدريس في المسجدِ الحرامِ ولما يشبَّ عن الطَّوقِ بَعْدُ ، فقد ذكرَ الإمامُ الجليلُ حرملةُ بنُ يحيى

---

(١) معجم الأدباء (١٧/ ٢٨٤) بشيء من التصرف.
(٢) انظر: آداب الشافعي ومناقبه (ص ٢٥). و«حُبّان»: جرّتان ضخمتان.
(٣) انظر: توالي التأسيس لابن حجر (ص ٥٠).

التّجيبي قال: رأيتُ الشَّافعيَّ يقرىءُ النّاسَ في المسجدِ الحرامِ، وهو ابنُ ثلاثَ عشْرةَ سنة.

* وممّا يُضافُ إلى مناقبِ الشَّافعي في طفولتِهِ تلك الهمَّة العاليَة التي رُزِقَها، فقد تعلَّم الرّمي، إذ إنَّ القوّة في الرّمي، حتّى صارَ منْ أحذقِ الرُّمَاة. قال الشَّافعي: كانت همّتي في شيئَيْن: العِلْمُ والرّمي، فنلْتُ من الرّمي حتى كنتُ أصيبُ من عشرةٍ عشرة[1].

* وقال الرّبيع: كانَ الشَّافعيُّ ذا معرفةٍ تامّةٍ بالطّبّ والرّمي، حتى كان يصيبُ عشرة منْ عشرة[2]. يُضاف إلى هذا أنَّه أتقنَ الفروسيّة فكان أشجع النَّاس وأفرسَهم.

* وهكذا نجدُ طفولةَ الشَّافعي حافلةً بجميعِ ألوانِ الفضائلِ والمكارمِ، فكيف سيرتُه كاملةً، فرحمَ الله الشّافعي وجعلنَا نُربّي أطفالَنا على مثلِ سيرته.

خامساً: الإمَامُ النَّووي ـ رحمه الله ـ:

عندما تحدَّثَ الذَّهبيُّ عنِ النَّووي قال: الشيخُ الإمامُ القدوةُ، الحافظُ الزَّاهدُ، العابدُ الفقيهُ، المجتهدُ الرّبّاني، شيخُ الإسلامِ، حسنَةُ الأنام.

نعم فالنَّووي، شيخُ الإسلامِ، وعلَمُ الأولياء، وهو صاحبُ التَّصانيف النَّافعة.

وقال عنْه اليافعيُّ: العالمُ العامِلُ، المحقِّقُ الفاضِلُ، الوليُّ الكبيرُ، السَّيِّدُ الشّهيرُ، ذو المحاسنِ العديدة، والسَّيرةُ الحميدةُ، والتَّصانيفُ المفيدةُ، الذي فاقَ جميعَ الأقرانِ، وسارتْ بمحاسنِه الرّكبان، واشتهرتْ فضائله في سائرِ البُلدان.

---

(١) توالي التأسيس (ص ٦٧).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٦٥).

* ومَنْ منّا لا يعرفُ النَّووي ، ويعرفُ كتابَه «الأذكار» وكتابه «رياض الصَّالحين» ، وسائرَ كتبهِ النّافعة المفيدة؟! والنّووي يُنْسبُ إلى بلدةِ نوى من أرضِ حَوران من أعمال دمشقَ ، واسمُه: يحيى بن شرف بن مِري الحزامي النّووي أبو زكريا. كان أبوه دكانياً في نوى يبيع ويشتري ، وكان شيخاً مباركاً ورعاً توفي سنة (٦٨٥ هـ) وأما ابنُه يحيى فقد وُلِدَ في شهرِ محرّم سنة (٦٣١ هـ) في بلدةِ نوى.

* وفتحَ النّووي عينَيْه على هذا الوجودِ في تلكَ البُلَيدة ورأى بساطة مَنْ حولَه ، فقد كانَ والدُه رجلاً بسيطاً مستورَ الحالِ ، فعاشَ النّووي في كَنَفِهِ ونشأَ في سترٍ وخير ، وبقي يتعيَّشُ في الدُّكّان لأبيهِ مدّة.

* وكأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أعدَّ النَّوويَّ منذُ طفولتِهِ وصباهُ ليحملَ عبءَ الوراثةِ النّبوية في العلْمِ والوَرَع والصَّلاح ، وهذا ما أشارَ إليهِ بعضُ الصَّالحين الكبار إذْ قال: إنَّه حينَ وُلِدَ كُتِبَ مع الصَّالحين[1].

* ويذكرُ السّبكيّ في «طبقاتِه» أنَّ النَّوويَّ لمّا بلغَ من العمرِ سبعَ سنين ، كانَ نائماً ليلةَ السَّابع والعشرين منْ رمضانَ بجانبِ والدِه ، فانتبَه نحو نصف الليل. يقولُ والدهُ: وأيقظَني وقال: يا أبتي ، ما هذا الضّوءُ الذي قَدْ ملأَ الدَّار؟ فاستيقظَ أهلُه جميعاً فلم نَـرَ كلُّنا شيئاً ، قالَ والده: فعرفتُ أنَّها ليلةُ القَدْر[1].

* هذه جوانبُ مشرقةٌ وضّاءةٌ من طفولةِ الإمامِ النّووي ، بَيْدَ أنَّ هذا الطِّفْلَ لم يكنْ يَحفَلُ بالدّنيا ، ولم يكنْ يشغَلُه شيءٌ عن ذِكْرِ اللهِ وقراءةِ القرآنِ الكريمِ ، فعندما بلغَ من العُمر عشر سنين جعلَه أبوه في دكان ، فكانَ لا يشتغلُ بالبيعِ والشِّراء عن القُرآن.

* وتذكرُ المصادرُ موقفاً وضيئاً عن طفولةِ الإمامِ النّووي يستحقُّ أنْ

---

(١) انظر: الإمام النوّوي لعبد الغني الدقر (ص ٢٢ و٢٣) بتصرف.

يُسجَّلَ بأحرفٍ من ذَهَب ، فقد صادفَ في سَنَةٍ نيّفٍ وأربعينَ وستمئة أنْ مرَّ بقريةِ نوى أحَد الأولياءِ الصَّالحين ، وهو الشَّيخُ ياسينُ بنُ يوسُف المراكشيّ الذي اشتُهِرَ بولايته وفِراسَتِهِ وصدقْهِ وصفائِهِ ، فرأى النّووي وهو طفلٌ ابن عشر سنين ، والأطفالُ والصّبيانُ يُكْرِهُونَه على اللعب معَهم ، وهوَ يهْربُ منهم ، ويبكي لإكراهِهمْ لهُ على اللهو واللّعبِ ، وكانَ يقرأُ القرآنَ في تلكَ الحال ، يقولُ الشَّيخُ ياسين هذا: فوقع في قلبي محبَّته ، فأتيتُ الذي يقرئه القُرآنَ الكريم فوصيتُه به ، وقلتُ له: هذا الصَّبيُّ يرجى أنْ يكونَ أعلم أهلِ زمانِه وأزهدهم ، وينتفعُ الناس به ، فقالَ لي: أمنجِّمٌ أنْتَ؟

فقلتُ: لا؛ وإنّما أنطقني اللهُ بذلك ، فذُكرَ ذلك لوالدِه ، فحرصَ عليه إلى أن ختمَ القُرآن ، وقد ناهَزَ الأحْلامَ.

* وكانَ ـ رحمه الله ـ مضْربَ المثلِ ومثارَ العجبِ في حبِّ العلْمِ والسَّهر في طلبهِ ، قال ـ رحمه الله ـ: وبقيتُ سنتَيْن لم أضعْ جنْبي إلى الأرضِ.

* وقال عنه الذّهبيّ: وضُرِبَ به المثَلُ في إكبابهِ على طلبِ العِلْمِ ليلاً ونهاراً ، وهجْرِهِ النَّومِ إلا عن غَلَبَةٍ ، وضبطَ أوقاته بلزومِ الدَّرسِ أو الكتابةِ أو المطالعةِ أو التَّردُّدِ على الشّيوخ.

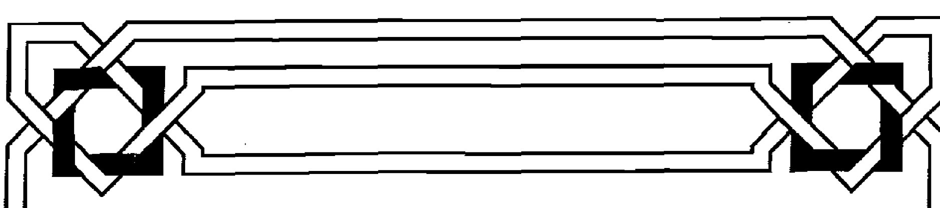
* وظلّتْ شهرةُ النّووي في صعودٍ حتّى وافَتْه المنيّةُ سنة (٦٧٦ هـ) رحمه الله ، وكانَ في طفولته مثالَ الفضائلِ وكذلك في شبابهِ إلى أنْ لقي ربَّه وعمرهُ حوالي (٤٥ سنة) فرحمه اللهُ رحمةً واسعة ونفعَنا ونفعَ أطفالنا بسيرته.

* * *



القسم الثالث

الطفل والطفولة في الأدب وفنونه



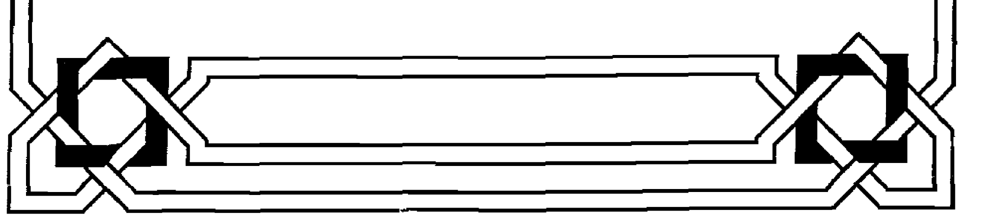
الباب الأول

الطفل وأنداء اللغة والأدب

الفصل الأول : الطفل في رحاب اللغة

الفصل الثاني : الطفل وأدبُ النّشأة

الفصل الثالث : ميل الطفل إلى الأدب



الفصل الأوّل
الطِّفلُ في رحَابِ اللُّغَة

حفلتْ كتبُ اللّغةِ على مختلفِ مشاربها وألوانِها ومذاهِبها في إعطاءِ الطِّفل حقَّه منَ اللّغة ، فقد تحدَّثت عن معنى الطِّفل ، وعمّا تَحْمله هذه اللفظةُ من آفاق ، وبالتّالي حصلنا منها على الزّاد التَّالي .

* ففي «مُجملِ اللغة» أوردَ ابنُ فارس ـ رحمه الله ـ مادّة «طفْل» فكان ممّا قاله :

«الطّفل» : المولودُ؛ والمولودةُ طفْلةٌ .

والطّفلة : الجاريةُ النّاعمة .

والمُطفِل : الظَّبيةُ معها ولدهُا ، وهي قريبةُ عَهْد بالنِّتاج[1] .

* وفي «أساسِ البلاغةِ» أشارَ الزَّمخشري ـ رحمه الله ـ إلى مادَّة الطِّفل إشارةً رائعةً ، وملخّصُ ذلك ومحصّله أنَّه قال :

«طفل» : هو طفلٌ بيِّنُ الطّفولة ، وفعل ذلك في طفولته .

وامرأة وظبية مُطفِل ، وطفَّلَت ولدها : رشّحته .

وامرأةٌ طفْلة ، وطفلةُ الأنامل : ناعمة .

وبنان طَفْل : ناعمة ، قال ذو الرُّمّة :

---

(١) انظر : مجمل اللغة (ص ٤٤٨ و٤٤٩) باختصار .

أَسيْلةُ مسْتَنِّ الوشَاحيَنْ قانىءٌ	أطْرافها الحِنّاءُ في سبطٍ طَفْلِ

وقد طَفُلَ طفولة وطفَالة. وطفلتِ الشّمس: دنت للغروب.

ومن المجازِ: لففت في الخرقة طفْلَ النّار: وهو السَّقطُ أو الجمرة، قال الطِّرمّاح:

إذا ذُكِرتْ سلمىٰ لـه فكأنَّما	تغْلغلَ طفْلٌ في الفؤادِ وجيعُ

وقيل: تطايرتْ أطفالُ النَّار: شررها.

وقيل: هو يسعىٰ لي في أطفالِ الحوائج: يعني صغارها.

وقيل: وقعت أطفالُ الوسميّ: مُطيراته.

وريحٌ طفْل: ليّنة.

وطفلتُ الكلامَ ورشّحته: تدبّرتُه[1].

* وقال صاحبُ «المصباح» في مصباحِه:

«الطِّفلُ»: الولدُ الصَّغير منَ الإنسانِ والدَّواب.

قال ابنُ الأنباري: ويكونُ الطّفل بلفظ واحدٍ للمذكّر والمؤنّثِ والجمعِ؛ قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

ويجوزُ المطابقةُ في التَّثنيةِ والجمعِ والتّأنيثِ، فيُقال: «طفلة»، و«أطفال»، و«طفلات».

وأطفلت كلّ أنثى: إذا ولدت فهي مُطْفِل.

قال بعضُهم: ويبقى هذا الاسمُ للولدِ حتى يميّز، ثمّ لا يُقالُ له بعد ذلك طفل، بل «صبي» و«حَزَوَّر»، «يافع»؛ و«مراهق»؛ و«بالغ».

---

(١) انظر: أساس البلاغة (ص ٣٩٢) بشيء من الاختصار.

وفي التّهذيب : يُقال له طفل إلى أنْ يحتلمَ[1] .

* ولعلَّ ابنَ منظور ـ رحمه الله ـ كانَ من أكثرِ أهلِ اللغة الذين توسّعوا في معاني كلمةِ الطّفل ، وأتى بالأدلّةِ والأقوالِ والشّواهدِ الوافيةِ ؛ وأبحرَ في مادّةِ الطّفلِ بحدود أربع صفحات ، ومن المعاني المُستفادةِ التي أوردها ابنُ منظور ، والتي منها قوله :

«طفل» : الطَّفْل بالفتح : البنَان الرَّخص النّاعم ، والجمع طفَال وطفول ، قال عمرو بن قميئة :

«وكفّ تَقَلَّب بيْضاً طِفَالاً»

* وقالَ ابنُ هرمة :

متَىٰ ما يغْفُل الواشون تُومىء ... بأطرافٍ منعَّمة طُفول

والأنثى : طفلة .

وقد طَفُل طفالةً وطفولة ؛ ويُقال : جارية طَفْلة : إذا كانت رَخْصة .

والطِّفلُ والطِّفلة : الصَّغيران .

والطِّفْلُ : الصَّغير من كلِّ شيء بيِّن الطَّفْل والطَّفَالة والطّفولة والطّفولية ، ولا فِعْل له .

والجمعُ أطفال : لا يُكَسَّر على غير ذلك .

قال أبو الهيثم : الصَّبيُّ يُدعى طفلاً حين يسقطُ من بطنِ أمّه إلى أنْ يحتلمَ .

وفي حديثِ الاستسقاء : «وقد شَغِلَت أمّ الصّبي عن الطّفل» أي : شُغِلت بنفسِها عن ولدها بما هي فيه منَ الجدب .

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : ٢] .
وأما قولُه عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج : ٥] ؛ قال الزّجّاجُ :

---

(١) انظر : المصباح المنير للفيومي (ص ٣٧٤) مادة : «الطفل» .

طفلاً هنا في موضع أطفال يدلُّ على ذلك ذِكرُ الجماعة ، وكأنَّ معناه: ثمّ يخرجُ كلَّ واحدٍ منكُم طفلاً.

وقال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: ٣١]؛ والعربُ تقول: جاريةٌ طفْلَة وطفل وجاريتان طفْل ، وَجَوَارٍ طِفْلٌ ، وغلامٌ طفلٌ ، وغلمان طفل. ويقال: طفل وطفلة وطفلان وأطفال وطفلتان وطفلات في القياس.

«والطّفل»: المولودُ ، وولَدُ كُلِّ وحْشيَّة أيضاً طفل ، ويكون الطّفل واحداً وجمعاً مثل الجنُب.

وغلامٌ طفْلٌ: إذا كان رخْص القدمين واليدين.

وامرأةٌ طفْلةُ البنان: رخصتُها في بياض ، بيّنة الطّفولة ، وقد طفل طفالةً أيضاً؛ وبنان طفْلٌ ، وإنما جازَ أنْ يُوصفَ البنان ، وهو جمعٌ بالطّفلِ وهو واحد ، لأنَّ كلَّ جمع ليس بينه وبين واحده إلاّ الهاء ، فإنَّه يُوَحَّد ويذكَّر ، ولهذا قال حُميد:

فلما كشفْنَ اللّبْسَ عنه مَسَحْنَه ... بأطرافِ طفْلٍ زانَ غَيْلاً موسّما

أراد بأطراف بنان طفل فجعله بدلاً عنه.

والطّفل: الصَّغير من أولادِ النّاسِ والدَّوابِ.

والمطفل: ذات الطّفل من الإنسانِ ، والوحش معها طفلُها ، وهي قريبةُ عهد بالنّتاج.

وليلةٌ مُطفِلٌ: تقتلُ الأطفالَ ببردِها.

وأطفالُ الحوائج: صغارُها.

ويُقال: أتيتهُ طَفَلاً: بعد طلوعِ الشّمس ، أُخِذ من الطِّفل الصَّغير.

وجاريةٌ طفلة: إذا كانتْ صغيرة.

وجاريةٌ طفلة: إذا كانتْ رقيقة البشْرة ناعمة.

قال الأصمعيُّ: الطّفلةُ: الجاريةُ الرّخصةُ النّاعمةُ. وكذلك البنانُ الطَّفل؛ والطّفلة: الحديثةُ السِّنِّ، والذّكر الطِّفل[1].

* وفي «تهذيبهِ» قال الإمامُ النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ ما مفاده: «طفل»: الصَّبي يُدعى طفلاً حيْن يسقطُ من بطنِ أمه إلى أنْ يحتلمَ.

والعربُ تقولُ: جاريةٌ طفْل، وجاريتان طفْل، وجوارٍ طفْل، وغلام طفْل، وغلمان طفْل.

ويقالُ: طفْلٌ، وطفلةٌ، وطفلان وطفلتان في القياسِ وأطفال. ويُقال: طفلات، وأطفلتِ المرأةُ والظّبيةُ إذا صارت ذات طفل. وقال المفسّرون وأصحابُ المعاني والنّحويون وأهلُ اللغة في قولهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]؛ المرادُ بالطّفل هنا: الأطفال. قال المبرّدُ وغيره: مجازُه مجازُ المصدر[2].

* وجاء في «معجمِ ألفاظِ القرآن»، و«المعجم الوسيط» تعريف الطّفل على النّحو التّالي:

«الطِّفل»: بكسر الطّاء: الصَّغير من كلّ شيء عَيناً كان أو حَدثاً. فالصَّغيرُ من أولادِ النَّاس والدَّواب طفل، والصَّغير من السّحاب طفل.

يقالُ: هو يسعىٰ لي في أطفال الحوائج، أي صغارها.

ويقالُ: أتيتهُ والليل طفل، أي في أوّله.

وأطفلتِ الأنثى: صارت ذات طفل.

والمصدرُ: الطَّفَل ـ بفتح الطَّاء والفاء ـ والطّفالة والطّفولة والطّفولية. والطَّفلُ ـ بفتح الفاء ـ الرَّخْص النّاعم، والمصدر الطّفالة.

---

(١) لسان العرب (١١/ ٤٠١ ـ ٤٠٤) مادة «طفل» بتصرف واختصار.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٧٧) طبعة دار الفكر الأولى ١٩٩٦ م.

والطّفلُ المولود ما دام ناعماً رخصاً ، والولدُ حتى البلوغ ، وهو للمفرد المذكّر. . . وفي التّنزيلِ العزيز: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [النور: ٥٩].

وقد يستوي فيه المذكّر والمؤنَّثُ والجمعُ ، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] ، وقال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

والطّفولة: والفعلُ منه كَكَرم ـ ويلتقي المعنيان في المادّة ، إذ الثّاني بعضُ ما في الأوّل ـ لأنَّ الوليدَ ، أي وليد ، طفالة ونعومة حتى قيل: الطّفل: هو الولدُ ما دام رخصاً.

ويُقال: امرأةٌ طفلةُ الأنامل أي ناعمتها[1].

* * *

---

(١) معجم ألفاظ القرآن (١/ ٧٤٧) ، والمعجم الوسيط (٢/ ٥٦٦).

الفصل الثَّاني
الطِّفْلُ وأَدَبُ النِّشأَة

* النّفسُ البشريّة مجبولةٌ على شيمٍ وأخلاقٍ تحتاجُ إلى تأديب ، إذ لا يكتفىٰ بها دون تهذيب ، فإذا أُغْفِلَ تأديبُ النّفوس تعطّلَتِ الآدابُ والمحاسنُ ، لأنَّ أكثرَ الأدبِ مكتسبٌ بالتّجربة ، أو مستحسنٌ بالعادة ، أو مستفادٌ بالدّرجة والمعاطاة .

* ولهذا فيجبُ أنْ يُرعى الطّفلُ منذ اليوم الأوّل لقدومهِ هذه الحياة ، ويجبُ أنْ يُسقىٰ مكارمَ الأخلاق مع رضاعه ، فالله عزَّ وجلَّ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ومحاسنَها .

* ولقد حرصَ النّاسُ قديماً على إرساءِ قواعد التّأديب للأطفالِ ، حتى الأعراب في الباديةِ كانوا يسلكون هذا الطّريق الوضيء؛ فقد ذكرَ الأصمعيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أعرابيّاً قال لابنهِ: يا بني؛ الأدبُ دِعامةٌ أيّدَ اللهُ بها الألبابَ ، وحليةٌ زيّن الله بها عواطِلَ الأحساب .

* إنَّ الأدبَ وسيلةٌ إلى كلِّ فضيلة ، وذريعةٌ إلى كلّ شريعة ، وما دام كذلك فعلينا أنْ نغرسَ هذه الفضيلة في نفوسِ الأطفالِ الرَّخْصَة التي تستجيبُ لكلّ شيء، وبالتّالي نضمنُ صلاحَها ، وما أجمل مَا قال الشَّاعر :

وإنْ يكُ العقلُ مولوداً فَلَستُ أرىٰ ... ذا العقلِ مستغنياً عن حادثِ الأدب
إنّـي رأيتُهمـا كـالمـاءِ مختلطـاً ... بـالتُّـرب تظهـرُ منه زهـرةُ الأدبِ
وكـلُّ مَـنْ أخطـأتْـه فـي مـولـدِهِ ... غريزةُ العَقْل حاكىٰ البَهْم في الحسبِ

* إنَّ الآباءَ مسؤولون عن ضرورةِ تأديبِ الأطفالِ ، ولعلَّ من أفضلِ صُور التّأديب أنْ يأخذَ الوالدُ طفْلَه بمبادىءِ الآداب ليأنسَ بها ، وينشأَ عليها ، فيسهلَ عليه قبولها عند اشتدادِ عوده لاستئناسهِ بمبادئها في الصِّغَر ، لأنَّ نشوءَ الصَّغيرِ على الشَّيء يجعله متطبّعاً به ، قال الشَّاعر :

وينْشَأُ ناشىءُ الفتيانِ فينا ... على ما كانَ عوَّدَه أبوه

وقال غيره :

ينْشو الصَّغير علىٰ ما كانَ والدُه ... إنَّ الأصولَ عليها ينبتُ الشَّجر

* إنَّ مَنْ أغفلَ طفلَه التّأديب في عَهْد الصِّغر ، كان تأديبُه في عهد الكبر عَسيراً؛ فقد رُوي عن النّبي ﷺ أنَّه قال: «ما نحلَ والدٌ ولده نِحلةً أفضل من أدبٍ حسنٍ يفيده إيّاه ، أو جهلٍ قبيحٍ يكنّه عنه ويمنعه منه»[1] .

* وقال بعضُ الحكماء ناصحاً تنشئةَ الأطفال على مائدةِ التّأديب: بادروا بتأديبِ الأطفالِ ، قبلَ تراكم الأشغالِ ، وتفرّقِ البال.

* ولقد أصابَ بعضُ الشُّعراء في معانيه ، إذ نظمَ قوافيه في هذا المعنى فقال:

أدّبْ بَنيْكَ صِغاراً قبلَ كَبرتِهم ... فليسَ ينفَعُ بعْدَ الكبرةِ الأدبُ
إنَّ الغصونَ إذا قوّمتَها اعتدلتْ ... ولا تلينُ إذا قوّمْتَها الخُشُبُ
العِلْمُ في صِغَرٍ كالنَّقش في حجَرٍ ... ما إنْ تغيّره الأزمانُ والحِقبُ
قَدْ يَنفعُ الأَدبُ الأَحْداثَ في صِغَرٍ ... وليسَ ينفعُ عند الشَّيبةِ الأدبُ

* ومن الأشياءِ التي تدخلُ السُّرور إلى النَّفس في مجالِ تأديبِ الأطفالِ ، أنَّ علماءَ السَّلَف لم يتركُوا هذا الجانبَ هَملاً ، ولم يهملوا أدبَ الطِّفل ، فهذا ـ على سبيل المثال ـ العلامةُ شمسُ الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر الزُّرعيّ المشهور بابن قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ أحدُ

---

(١) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذي برقم (١٩٥٢) وقال: هذا حديث غريب .

أكابِر العلماء ، وأحدُ علماءِ الأكابر ، قد طَلَعَ على الأُمّة بواحدٍ من مؤلّفاته الرّائعة ، وخصَّ به الطِّفل وسمّاه: «تُحْفَة المودودِ في أحكامِ المولُودِ»[١] وفي هذا الكتاب تعرَّضَ إلى أشياءَ كثيرةٍ تهمُّ الطِّفلَ ، ومنْ ذلك تربيته على مكارمِ الأخلاقِ فيقول: وممّا يحتاجُ إليه الطِّفلُ أشدَّ الاحتياجِ ، الاعتناءُ بأمْرِ خُلُقِهِ ، فإنَّه ينشأُ على ما عوّده المربي في صغرهِ من حَردٍ وغضبٍ ولجاجٍ وعجلةٍ وخفّةٍ مع هواه وطيشٍ وحدّةٍ وجشعٍ ، فيصعُبُ عليه في كبرهِ تلافي ذلك ، وتصيرُ هذه الأخلاقُ صفاتٍ وهيئاتٍ راسخة ، فإنْ لم يتحرّزْ منها غايةَ التَّحرُّزِ فَضَحَتْه لا بدَّ يوماً ما ، ولهذا تجدُ أكثر النَّاس منحرفةً أخلاقُهم ، وذلك من قبل التّربية التي نشؤوا عليها[٢] .

* وهنا يستوقفنا سؤالٌ: ما عاقبةُ إهمالِ تأديبِ الطِّفل؟! وللإجابةِ عن هذا السُّؤال نقول: إنَّ مَنْ يهملُ تأديبَ الطّفلِ في الصِّغر ، يحصدُ النَّدم عندما يكبُر ، ويعصيه ابنهُ ولم يعرفْ شيئاً من حقّه.

روي أنَّ رجلاً جاء بابنهِ إلى عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: إنَّ ابني هذا يعقُّني.

فقال عمرُ للابن: أمّا تخافُ اللهَ في عقوقِ والدِك ، فإنَّ من حقِّ الوالدِ كذا وكذَا!.

فقال الابنُ: يا أميرَ المؤمنين ، أمّا للابنِ علىٰ والده حقٌّ؟

قال: نعم ، حقُّه عليه أنْ يستَنْجب أمَّه ـ يعني لا يتزوّج امرأةً دنيئةً لكيلا يكون للابنِ تعييرٌ بها ـ ، ويحسنُ اسمَه ، ويعلّمُه القُرآنَ.

فقال الابنُ: فواللهِ ما استنجبَ أمّي ، ولا حسَّنَ اسمي سمّاني جُعَلاً ـ ذكَرُ الخُفَّاشِ ـ ، ولا علَّمني من كتابِ اللهِ آيةً واحدةً.

---

(١) طبع هذا الكتاب في الهند سنة (١٣٣٩ هـ) ، كما طبع بتحقيق الشّيخ عبد القادر الأرناؤوط ، وللكتاب طبعات أخرى عديدة.

(٢) تحفة المودود في أحكام المولود.

فالتفتَ عمرُ إلى الأبِ ، وقال: تقولُ ابني يعقّني ، فقد عققتَه قبل أنْ يعقَّكَ[1] .

* وروىٰ أبو الليث السّمرقندي قصّةً قريبةً من هذا عن أحدِ علماءِ سمرقند أنَّه أتاهُ رجلٌ فقال: إنَّ ابني ضربَني وأوجعني ، قال العالمُ: سبحان الله الابنُ يضربُ أباه؟!

قال: نعم ضربَني وأوجَعني.

فقال العالمُ: هل علَّمتَه الأدبَ والعِلْم؟

قال: لا.

قال: فهل علّمتَه القُرآن؟

قال: لا.

قال: فأيّ عمَلٍ يعمل؟

قال: الزِّراعة.

قال: هل عَلِمتَ لأيّ شيءٍ ضَرَبَك؟

قال: لا.

قال: فلعلّه حين أصبحَ وتوجَّه إلى الزَّرع ، وهو راكبٌ على الحمارِ ، والثّيرانُ بين يديه ، والكلبُ من خلفِه ، وهو لا يُحسِنُ القرآن ، فتغنّى ، وتعرّضتَ له في ذلك الوقتِ ، فظنَّ أنَّكَ بقرةٌ فضربَك ، فاحمدِ اللهَ حيثُ لم يكسِرْ رأسَك[2] .

* إنَّ لتأديبِ الأطفال أثرهُ الواضحُ في مظهرِهم ، وفي سلوكِهم ، فيأخذون منذ الصّغر بمكارمِ الأخلاقِ ، ولطائف المحاسنِ ، أما إذا أُهمل

---

(١) تنبيه الغافلين (ص ١٣٠) بتصرف يسير جداً.

(٢) المصدر السابق عينه (ص ١٣٠ ـ ١٣١) بتصرف يسير جداً.

هذا الجانبُ ، فينشأُ الأطفالُ على الاعوجاجِ ، ويصعُبُ تقويمُهم ، ولله درُّ من قال :

وإنَّ مَنْ أدَّبْتَه في الصِّبا كالعُودِ يُسقىٰ الماءَ في غَرْسِه
حتّى تراهُ مُورقاً ناضِراً بعد الذي أبصرتَ من يَبْسِه
والشَّيخُ لا يتركُ أَخْلاقَه حتى يُوارىٰ في ثَرىٰ رمْسِه
إذا ارعوىٰ عادَ له جَهْلُه كذي الضَّنى عادَ إلى نكْسِه
ما يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفْسِه[1]

* إنَّ أفضلَ ما يورّثُه الآباءُ لأطفالِهم هو محاسنُ الأدبِ ، وأدبُ المحاسنِ ، قال عليُّ بنُ عبد الله المَدينيّ أحدُ أئمةِ الإسلامِ المبرّزين في الحديثِ : توريثُ الأولادِ الأدبَ خيرٌ لهم من توريثِ المال ، الأدبُ يكسبُهم المالَ والجاه والمحّبة للإخوانِ ، ويجمعُ لهم بين خَيْرَي الدُّنيا والآخرة[2] .

* حقّاً إنَّ الأطفالَ أمانةٌ في الأعناقِ ، والإنسانُ المؤمنُ يجبُ أنْ يؤديَ الأمانةَ ، ويفي بها ، ويعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ، فإذا ما ضيَّعَ المرءُ هذه الأمانةَ ـ وأيّ أمانة ـ كان الخسرانُ والنَّدمُ في انتظارِه ، فهل يسعىٰ الآباء ، وتسعىٰ الأُمَّهات إلى عدم إهمالِ الأطفالِ ، وإلى توريثهم الأدب ، وإلى تعليمهم ما ينفعُهم ويصلحُ أحوالهم في الدَّارين؟! وهل يسعىٰ هؤلاء إلى تنميةِ عَقْلِ الطِّفل وأدبِه ، فهما حياتُه؟! ولله در القائل :

ما وهبَ اللهُ لامرىءٍ هِبَةً أفْضَلَ من عقْلِه ومِنْ أَدبِه
هُما حَياةُ الفَتى فإنْ فُقِدَا فإنَّ فَقْدَ الحياةِ أحْسَنُ به[3]

* * *

(١) العقد الفريد (٢/ ٤٣٦).
(٢) انظر : تنبيه المغترين للشعراني (ص ٤١).
(٣) انظر العقد الفريد (٢/ ٤٢٣). هذا وكتُبُ المصادر الأدبيّة تزخرُ بكثيرٍ من الفوائدِ المهمّة التي تصلحُ زاداً لكلّ أبَوين يسْعَيان إلى تربيةِ ابنهما تربية صالحة.

الفصل الثّالث
ميْل الطِّفْل إلى الأَدب

* يبدأُ الطِّفلُ بتذوّقِ الأدبِ وفنونهِ وهو لا يزالُ في المهدِ صبيّاً ، فقد لوحظَ أنَّ الأطفالَ منذ نعومةِ أظافِرهم يقْدِرونَ على تذوّقِ النَّص الأدبيّ الشِّعريّ الغنائيّ ، والاستمتاعِ بترديدِهِ ، والرَّغبةِ في تَكْرار بعضِ مقَاطِعه .

* ولعلَّ المرأةَ العربيّةَ الحصيفةَ قد أدركتْ ما للأدبِ الغنائيّ اللطيفِ من أثرٍ وتأثيرٍ في نفسِ الطِّفل ، فكانت تتغنّىٰ بأبياتٍ خفيفةٍ ، سهلةِ المعنى ، عذبةِ الإيقاع ، فتنفذُ إلى مرادِها ، حيث يستمتعُ بالاستماعِ إلى صوتها فيسكتُ بعد بكاء ، أو ينامُ بعد أَلَم .

* والغناءُ والتَّرنُّم[1] عند الأممِ المختلفةِ عبارةٌ عن التَّلفُّظِ بكلماتٍ

---

(١) ليسَ حبُّ التَّرنُّم مقصوراً على الأطفالِ وحدهم ، فقد تمَّ ملاحظة ذلك عند ممارسةِ الإنسان لعملٍ ما ، فالأمُّ تترنّمُ عندما تحضِّرُ الطّعامَ لأطفالِها ، أو حينما تلاعبُ طفلَها لينام ، وكذلك لوحظَ أنَّ العمالَ يردّدون بعضَ ما يحفظون من أراجيزَ أثناء قيامِهم بالعملِ ليتغلّبوا علىٰ التّعبِ والمشقّة . وكُلّنا يذكرُ وقائعَ حَفْرِ الخندقِ حولَ المدينةِ المنوّرة في عَهْد النُّبوة ، وكيف كان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وأصحابهُ يرتجزونَ الكلامَ ليزدادَ نشاطُهم ، كما نلاحظُ أنّ كثيراً منَ النّاس يردّدُ أنشودةً ، أو أغنيةً أثناء فراغهِ ليؤنسَ نفْسَه ووحدتَه وفراغَه ، أو أثناء سَيرهِ في طريقٍ خالٍ منَ النّاس ، ليتغلّبَ علىٰ بُعْدِ الطّريقِ ووحشتها ، وأحياناً كان يحدو للخيلِ أو الجمالِ لتسرعَ في سَيْرها ، وقد نلحظ أيضاً أنَّ بعضَ البائعين قد يردّد بعضَ المقاطعِ الجميلة ليجلب انتباه الناسِ إلى بضاعته التي يبيعها . وصفوة القول : إنَّ الإنسانَ =

موزونةٍ بهدف مداعبةِ الطّفل ، وتحريكِهِ كي ينامَ ، أو يسلوَ أو يسهوَ.

* إنَّ النّساءَ قديماً وحديثاً قد أدركنَ أنَّ الأدبَ وسيلةٌ ناجحةٌ لإرضاءِ ميولِ الطّفل ، أو تحريكِه وترقيصِهِ بهدفِ تسليتِهِ ، أو تمرينِ جسمه ، أو ربّما تشجيعه على تناولِ الطّعام ، أو تعليمه نطقَ الكلمات ، أو تحفيظه بعضَ المفردات الموزونةِ ، وتعويد أُذنَيْه على السَّماعِ والاستمتاعِ بالكلامِ اللطيفِ الهامس المُغنَّىٰ.

* وقد قسَّم أحدُ الدَّارسين هذا الأدبَ إلى قسمَيْن:

الأوّل: الأدبُ الغنائيُّ الخاصّ؛ وهو الكلماتُ السَّهلةُ الدَّافئةُ لينامَ الطّفل ، وهو ما عُرِفَ باسم أغاني المهد.

الثّاني: الأدبُ الخاصّ بملاعبةِ الأطفال ، وهو ما عُرِفَ بأغاني التّرقيص بهدفِ تحريك الطِّفل بحركاتٍ مختلفةٍ لينمو جسم الطّفل بشكلٍ سليم[1].

* ويمتازُ أدبُ هذَيْن النَّوعَيْن بالبساطةِ ، والاعتمادِ على الإيقاعِ الخفيفِ ، وخصوصاً ما اتَّصل بأغاني المهدِ الممزوجِ بهزّاتٍ خفيفةٍ تقومُ بها الأمُّ بما يتناسبُ مع النَّغمَةِ والإيقاعِ الموجودةِ في الكلماتِ التي تردّدُها ، مع الاعتمادِ على نغَمٍ رتيب وحركاتٍ بسيطة يرتاحُ لها الطِّفلُ ، ويشعرُ بالحنانِ والرّقة ، فينامُ مع الاهتزازاتِ التي توفّر له الهدوءَ الانفعالي والنّفسي.

* وقد أدركتِ المرأةُ المعاصرةُ أنَّ طفلَها ينامُ على كلماتٍ مسجوعةٍ موزونةٍ ، فكانت تردّدها له لتضمنَ نومه ، ولا يتوقّف هذا التّصرف على

= كان يلجأُ إلى الأدبِ الشّعري الغنائيّ للتّعبير عن مشاعرِهِ وانفعالاته للتّرفيه عن نفسه ، أو للقضاءِ على الإرهاق ، وربما طلباً لتجديد الهمّة والنّشاط في العمل أيّاً كان نوع هذا العمل فكريّاً أو بدنيّاً.

(١) دراسات في أناشيد الأطفال وأغانيهم (ص ٦١ و٦٢) بتصرف.

المرأة العربيّةِ ، وإنّما هي ظاهرةٌ عامّةٌ عند نساء العَالَم[1].

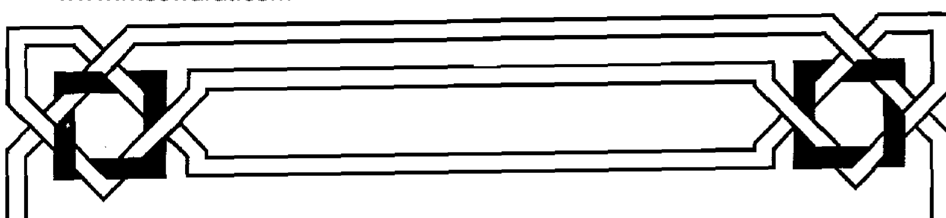
* والأطفالُ بفطرتهم يميلونَ إلى الأشعارِ الخفيفةِ المغنّاة ، لذلك نلاحظُ حسنَ استماعِهم وترديدهم لبعضِ المقاطعِ ذاتِ الإيقاع الحسَنِ ، والجمالِ اللفظي.

* لذا يمكنُ غرسَ هذه الميول بنفسِ الطّفل الصَّغيرِ ، وتعليمه الكلمةَ المقروءةَ ، ونطوِّرُ ذلك فيه إلى أنْ يدركَ العلاقاتِ بين الكلماتِ ، ويفرّقَ بين الاسمِ والفعلِ والحرفِ ، وبعد ذلك يحفظُ ما يسمعُه من آداب لطيفةٍ تنمّي عنده ملكةَ الحفْظ والتّذوّق وهو في مرحلةٍ مبكّرة.

* * *

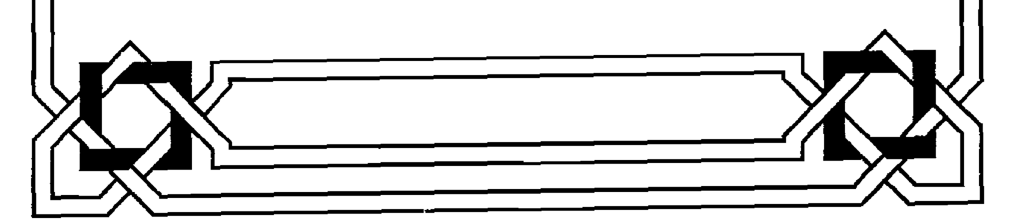
---

(١) للمزيد من هذا؛ انظر المرجع السَّابق (ص ٦٤ ـ ٨٠) فقد أتىٰ بشواهدَ عديدة عن نساء العالَم.



الباب الثاني

الطفل في همسات الرجال والنساء



الفصل الأول
الطِّفلُ في أدبِ الرِّجالِ قديماً

* كثيراً ما يُرمى تُراثُنا العربيُّ بالجمودِ ، أو عدمِ مخاطبةِ الوجدانِ والعَواطفِ؛ هذا القولُ يردِّدُه المغرضون وأعداءُ العربيّةِ؛ فاللُّغةُ ذاتُ تناغمٍ موسيقيّ رائع يسْحَرُ الألبابَ ، ولا أَجِدُ في سِحْر اللغةِ أجملَ من إسلامِ عددٍ من كبارِ الصَّحابة حينما سمعوا آياتِ القُرآن العظيمِ تتُلىٰ ، وعندها تنزّلَتْ قطراتُ غيثٍ إلهيّ علىٰ قلوبهم فأعلنوا الشَّهادةَ والتَّوحيد ، من هؤلاء: الطُّفيلُ بن عمرو الدُّوسي ، وأبو ذر الغفَاريّ ، واشتهر جدّاً من الصَّحابة عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وفي بيوتِ الأنصار أخذتْ كلماتُ القرآنِ المندّاة بلبٍّ ونَفْسِ أُسيدِ بن الحضير فأسلمَ ، وكان السَّبب أيضاً في إسلامِ صِدِّيق الأنصارِ سعدِ بنِ مُعاذ عليهم جميعاً سحائب الرّضوان.

* إذاً فالأدبُ يؤثّرُ في النُّفوسِ الغليظةِ التي بلغتِ الرُّشدَ ، فكيفَ بنفسِ الطِّفلِ التي ما تزالُ تزخَر برحيقِ أنداءِ الطّفولةِ ، وعبق زَهْر البراءةِ ، ونقاءِ صفاءِ القلب؟!

* أجَلْ لقد أدركَ أسلافُنا العرب القدماء بفطرتهم النَّقية ، ما يُدخلُ على قلوبِ أطفالهم ونفوسِ أبنائهم البهجةَ والسُّرورَ فقدَّمُوا لهم ما رقّ وراقَ من أهازيجِ المناغاةِ ، هذه المناغاةُ النَّاعمةُ توفّرُ صفاءَ النَّفسِ وهدوءَها ، وراحةَ الجسم ، وجمالَ الخاطِر.

* ولعلَّ عواطفَ الأبوّةِ والأمومةِ من أبرزِ ما تندّتْ به خواطرُ أسلافنا عن

رقائق أنغامِهم السَّواحر ، ولعلَّها هي القادرةُ على مدٍّ أدبنا بجمالِ الخواطرِ ، فهل نجدُ أصدقَ من عاطفةِ الأمِّ وهي تهمسُ قربَ أذنِ طفلِها بطريقةٍ مؤثّرةٍ آسرةٍ ساحرةٍ ، تدخلُ القَلْبَ ، وتجمعُ النَّفس ، وتهذِّبُ الحواسَّ؟!

* ولعلّي لا أبالغُ لو قلتُ: إنَّ تلكم الأنغامَ الجميلةَ التي كانتْ تصدرُ عن الآباءِ والأمّهاتِ ، من أرقِّ الكلامِ وأعذبِهِ وأجملهِ وأقومهِ في زرعِ المعاني الأخلاقيّةِ في نفسِ الطِّفل ، وستكون الزَّادَ الطِّيبَ الذي يصحبُه وهو رجلٌ كبيرٌ ، شديدُ العودِ ، عاقلٌ يقدِّرُ الأمورَ حقَّ قَدْرِها.

* فالأدبُ العربيُّ القديمُ من أغنىٰ الآدابِ العالميّةِ في أدبِ الطّفلِ ، فقد أخذَ الطّفلُ مساحةً كبيرةً من وجدانِ الرّجالِ ، شعراء كانوا أمْ حكماء أمْ فُرسان أمْ غير ذلك ، ولقد رسمَ القدماءُ أحاسيسهم تجاهَ الطّفل ، فيما وردَ إلينا من آثارٍ أدبيّةٍ ناصعةٍ تصفُ رقَّةَ العربِ ورقائقَهم ورقيقَ أنفاسِهم.

* ونجدُ من ألوانِ حبّ الطِّفل في هذه الهمساتِ النّديات من عبد المطلبِ بنِ هاشم الذي يقولُ في طفْلِه العبّاس وهو يرقّصهُ:

ظَنّي بعبّاسٍ حبيبي إنْ كَبُرْ ... أَنْ يمنعَ القومَ إذا ضَاع الدُّبُرْ
وينزِعُ السَّجلَ إذا اليوم اقْمَطَرْ ... ويكشفُ الكربَ إذا ما الخطبُ هَرْ[1]
أكملُ مِنْ عبدِ كلالٍ وحُجُرْ ... لو جُمِعَا لم يَبْلغَا منه العُشُرْ

* ويشبُّ العبّاس بنُ عبد المطلب عمّ النّبيّ ﷺ ، ويُولدُ له عشرةُ بنين ، وكان آخرهم طفل اسمه «تمّام» ، وهذا الطِّفل أخذَ مساحةً من وجدانِ أبيه العبّاس ـ رضي الله عنه ـ ، فإذا به ينضحُ بهذهِ الرّقائق ، إذ يتمنّى لطفلهِ «تمّامٍ» تَمَامَ الرّفعةِ ، وكمالَ الكرم ، وحسنَ الأحدوثَة ، فيقول:

---

(١) «السَّجْل»: الدلو الملأىٰ بالماء؛ و«هر»: وقع واشتد.

تمُّـوا بتمّـامِ فَصَـاروا عَشَـره   يـا ربّ فـاجعلهـم كـراماً بَـرَرَه

والحقيقةُ ، فالأطفالُ النُّجباء نعمةٌ من نعمِ الله :

نِعَـمُ الإلـهِ علـىٰ العبـادِ كثيـرةٌ   وأتمهـنَّ نجـابـةُ الأَوْلادِ

* وفي معلقةِ عمرو بنِ كلثوم نجدُ صدىً واسعاً للطّفل ، ولكن هذه المرّة يفخرُ بالطّفل فخراً فوقَ المُعتاد ، فيجعل منه السّيدَ ، والفارسَ ، و . . . . . :

إذا بلـغَ الفطـامَ لنـا صبـيٌّ   تخـرُّ لـه الجبـابـرُ ساجـدينـا

* وقال غيرهُ :

وليـسَ يهلـكُ مِنّـا سيِّـدٌ أبـداً   إلاّ افتلينـا غُـلامَـاً سيِّـداً فينـا

* وننتقلُ إلى دوحةٍ أخرىٰ نتفيأُ بظلالِها ، ونستروحُ أدبَ الطِّفْل منها ، ونلتقي الصَّحابيَّ الجليلَ العالمَ عبدَ الله بنَ عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فقد كانَ لعبدِ اللهِ بضعةُ أولادٍ ، وكانوا نجوماً زواهرَ في سماءِ العِلْم والأدبِ والعملِ ، ومنهم : عبد الله ، وسالمٌ ، وعبيدُ الله ، وحمزةُ ، وبلالٌ ، وواقدٌ ، وعبد العزيز ، لكنَّ سالماً قد احتلَّ مساحةَ ودٍّ وحبٍّ في نفسِ أبيه الكبيرة ، فأعطىٰ أدبَ الطِّفل أدباً رطباً جميلاً ، فكان يقولُ لمن يلومه في حبِّ طفله سالم :

يلـومُـونَنـي فـي سَـالـمٍ وألـومُهـم   وجلْدةُ بين العَينِ والأنفِ سالمُ

* ولو فتحنا قاموسَ الشُّعراء في العُصور الإسلاميّة لألفينا أدبَ الطِّفل يملأ جنباتها ، ولألفينا الطِّفلَ يملأُ دنيا الآباءِ ويشغَلُهم عن أشياءَ كثيرةٍ ، وربما كان الطِّفلُ شُغْل أبيهِ الشَّاغل ؛ وتطولُ بنا الرّحلةُ لو سلكنا هذا الطَّريقَ الجميلَ المحفوفَ بالزَّهرِ عن يمينٍ وشمال وبالعيونِ والرّياض النَّضرة في كلِّ مكان ، ولكنّا نقتطفُ من بعضِ تلكم الأزاهر ما نعطّرُ به الأجواءَ ، ونبلُّ به القلوبَ .

* فهذا الشَّاعرُ الشَّهير جريرُ بنُ عطيّة الخطفيّ ، تحتلُّ آثارُ البنّوةِ

مساحاتٍ واسعةٍ من قلبهِ ، فتأخذُ تلك الآثارُ طريقها على لسانِه لتسجِّلَ أرقَّ ما قيل في أدبِ الطِّفل الذي تنبثقُ منه عاطفةُ الأبوّةِ الصَّادقةِ التي تحملُ في أردانها كلّ مشاعرِ الحبّ ، فيقولُ في ابنهِ بلال الذي يشفي ريحه وشمّه من الصُّداع ، ويذهبُ ضمّه كلّ الهمومِ والأحزان :

إنَّ بـــلالاً لـــم تَشْنِـــهِ أمـــه   لـــم يتنـــاســـبْ خـــالُـــهُ وعمُّـــه

يشفـــي الصُّـــداعَ ريحُـــه وشمُّـــه   ويـــذهـــبُ الهمـــومَ عنّـــي ضمُّـــه(١)

* وأمّا ابنُ الرُّومي ـ أكثرُ شعراءِ العربيّة إنتاجاً للشِّعر ـ فإنّنا نجدُ في هذا الإنتاجِ الأدبيّ الضَّخم ثروةً رائعةً في أدبِ الطِّفلِ ، وخصوصاً في رثائِه لأطفالِه الثَّلاثةِ الذين ماتُوا فخلَّدَ في أدبِ رثاءِ الطفلِ أجملَ الصُّور في تاريخِ عَصْرِه ، وكلُّنا يذكرُ ويحفظُ داليّتَه الشَّهيرةَ التي عبَّرَ فيها عن حبِّهِ لابنهِ الأوسط محمّد الذي توخّاه حِمَامُ الموتِ فقال :

توخّىٰ حِمَامُ الموتِ أوسَطَ صِبْيتي   فللَّـهِ كيـفَ اختـارَ واسِطَـة العِقْـدِ

علىٰ حين شمتُ الخيرَ في لمحاتِـهِ   وآنستُ من أفعالِه آيَةَ الرّشدِ(٢)

* ثمَّ ما يلبثُ أنْ يموتَ ابنُه الآخر هِبةُ الله فيقول :

يـــا حسْـــرتَـــا فـــارقْتَنـــي فَنَنـــاً   غضّـــاً ولـــم يثمـــرْ لـــيَ الفَنَـــنُ

أولادُنـــــا أنتـــــم لنَـــــا فِتَـــــنٌ   وتفـــارقـــونَ فـــأنتـــمُ مِحَـــنُ(١)

* ونجدُ في أدبِنا العربيّ صوراً متنوعةً لأدبِ الطِّفلِ ، وفي هذه المرّة نجدُ صورةَ عقوقِ الأبناء ، فهذا أبٌ يشدو بألمِ العتابِ ، وعتابِ الألم ، وحنانِ الأب وعطفهِ على ابنهِ ، ويُرجعه قليلاً إلى الوراءِ ، إلى زمنٍ غير بعيدٍ ليذكُرَ طفولتَه ، وما لاقاهُ في تربيتهِ من التَّعب ، ويذكّره بالجهدِ الذي بذله ليشبَّ طفلَه عن الطَّوقِ ، فإلى هذه الأبياتِ الشَّهيرةِ نسمعُها من أميةَ بن

---

(١) ديوان جرير .

(٢) ديوان ابن الرومي .

أبي الصَّلت[1] الذي يشيرُ إلى كلٍّ هذه المعاني الفائتةِ ، ويذكرُ عقوقَ ابنهِ وإساءَتَه :

غـذوتُـك مـولـوداً وعُلْتُـك يـافعـاً ... تُعَـلُّ بمـا أدنـي إليـكَ وتنهـلُ
إذا ليلةٌ ضافَتْك بالسُّقم لم أبتْ ... لسقْمِـكَ إلا سـاهـراً أتملمـلُ
كأنِّي أنا المطروقُ دونَك بالذي ... طُـرقْـتَ بـه دونـي فعينـي تهمـلُ
تخافُ الرَّدىٰ نَفْسي عَليكَ وإنّها ... لتعلـمُ أنَّ المـوتَ وقْـتٌ مـؤجّـلُ
فلمـا بلغـتَ السِّنَّ والغـايـة التـي ... إليهـا مـدىٰ مـا كنـتُ فيـك أؤمـلُ
جَعَلـتَ جـزائـي غلظـةً وفظـاظـةً ... كـأنّـكَ أنـتَ المنعـمُ المتفضـلُ
فليتـك إذْ لـم تـرعَ حـقَّ أبـوّتـي ... فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعلُ
فأوليتَني حقَّ الجوارِ فلم تكنْ ... علـيَّ بمـال دون مـالِـكَ تبخـلُ[2]

* وقد نجدُ بعضَ الصُّور السَّلبيّةِ في أدبِ الطِّفلِ ، وخصوصاً في علاقةِ الآباء بالبناتِ ، فقد وردَ أنَّ الأحنفَ بنَ قيس بُشِّرَ بجاريةٍ فبكىٰ فقيل له : ما يبكيكَ؟

قال: لِمَ لا أبكي وهي عورةٌ ، وبكاؤُها عبْرةٌ ، وهديتُها سرقةٌ ، ونصرتُها البكاءُ ، ومهنؤها لغيري[3]؟؟!!

* ومن الصُّورِ السَّلبيّةِ في هذا المجالِ موقفُ عدَدٍ من الآباءِ من بناتِهنَّ الصِّغار ، فاسمعْ إلىِ هذا الذي يسجِّلُ في أدبِ الطِّفولة هذه الوقْفةَ السَّلبيّة فيقول :

---

(١) أميّةُ بن أبي الصَّلت الثقفيّ ، أحدُ شعراء الجاهلية الحكماء من الطّائف ، كان مطّلعاً على الكتب القديمةِ ، وكان يلبسُ المُسوح تعبّداً ، وهو ممن حرّموا على أنفسهم الخمرة ونبذوا عبادةَ الأصنام في الجاهلية ، عاصرَ أوّل الإسلام ولم يدخلْ فيه ، وله أشعارٌ وأخبارٌ كثيرة جاءت في عديد من المصادر . توفي سنة (٥ هـ) .

(٢) الأغاني (٤/ ١٣٧) . و«أتململ» : أتقلب . و«المطروق» : المصاب . و«تهمل» : تفيض بالدمع وتسيل ، و«الردىٰ» : الهلاك .

(٣) المحاسن والمساوىء (ص ٦٢٧) .

لولا البُنيّةُ لم أجزعْ من العَدمِ ولم أَجُبْ في الليالي حِنْدسَ الظُّلَمِ
وزادنَي رغبةً في العيشِ معرفتي ذلّ اليتيمةِ يَجْفُوها ذَوو الرّحمِ
تهوىٰ بقائي وأهوىٰ موتَها شَفقاً والموتُ أكرمُ نزّال على الحُرَمِ
مخافةَ الفقرِ يوماً أنْ يلمَّ بها فيكشفَ الدَّهرُ عن لحمٍ علىٰ وضمِ
إذا تذكّرتُ بنتي حينَ تندبُني فاضتْ لرحمةِ بنتي عبرتي بدم[1]

* وهذا آخرُ يسعىٰ جهده للتّخلُّصِ من بناتِه ، ليس عن بغضٍ ولكنْ له فلسفتهُ الخاصّة ، ومنهجُه وفهمهُ الذي يخصُّه فيقول:

أحبُّ بنيّتي ووددْتُ أنّي دفنْتُ بنيّتي في جوفِ لحْدِ
ومالي بغضُها غرضاً ولكنْ مخافةَ ميتَتي فتضيعَ بعدي
مخافةَ أنْ تصيرَ إلى لئيمٍ فيفضحَ والدي ويشينَ جدّي
فليتَ اللهَ أكرمَها بقبرٍ وإنْ كانت أعزّ النّاسِ عندي
فتسترَ عورتي وتكونَ أجراً إذا قدَّمتُها وكتمتُ وجدي
سألتُ اللهَ يأخذُها قريباً ولو كانت أحبّ النَّاس عندي
وتُتْبَعَ بعد ذاك بأم صدْقٍ فتؤنسَ بنْتَها وأعيشُ وحدي[1]

* ولكنّا إزاء هذه الصُّور السَّلبيّة نلمحُ صوراً إيجابيّةً في أدبِ الطِّفل ، ويقدّم لنا حطّانُ بنُ المعلّى لوحةً أدبيةً رائعةً عن علاقتِهِ الجميلةِ بطفلاتهِ الصَّغيرات ، وما يكنّه لهنَّ من حبّ وتضحيةٍ :

أنزلَني الدَّهرُ علىٰ حكْمِهِ من شامخٍ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالَني الدَّهْرُ بوفْرِ الغنىٰ فليسَ لي مالٌ سوىٰ عِرضي
لَولا بنياتٌ كزغْبِ القَطا رُددنَ من بعضٍ إلى بعضِ
لَكانَ لي مضطربٌ واسعٌ في الأرضِ ذاتِ الطّول والعرضِ
وَإنَّما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض

---

(1) المحاسن والمساوىء (ص ٦٢٨).

لـو هبَّـتِ الـرّيـحُ علـى بعضِهـم لامتنعــتْ عينــي مــنَ الغمــضِ

* وهذه أهزوجةٌ جميلةٌ تعبِّرُ عنْ حبِّ أَبٍ لطفلتِهِ ، فقد وردَ أنَّ أحدَ الأعرابِ كان يرقّص ابنته ويقول :

كــريمــةٌ يحبُّهــا أبــوهــا مليحــةُ العينيــن عــذْبُ فــوهــا

لا تُحسنُ السَّبَّ وإنْ سبّوها

* هذا وأدبُ الطّفلِ بألوانهِ وأشكالهِ متنوّعُ المشاربِ والألوانِ في أدبنا القديم ، وقد أوردنا نماذجَ منه ليكونَ كتابُنا أكثرَ جمالاً وبهاءً .

* * *

الفصل الثّاني
الطِّفلُ في أدبِ الرِّجال حَديثاً

* لا يستطيعُ باحثٌ أنْ يحيطَ عِلماً بأدبِ الطّفلِ في الأدبِ العربيّ الحديثِ والمعاصر ، وذلك لاتِّساع رقعتهِ ، ومذاهبهِ ، وأدواتهِ ، وأساليبهِ ، ولظهورِ عددٍ كبيرٍ من الأدباءِ والشُّعراء والمربّين على ساحةِ الوطنِ العربيّ من محيطهِ إلى خليجهِ ، ومن مشرقهِ إلى مغربهِ ، ولتأثّر بعض هذه الآداب ، بالآدابِ الأوربيّة المترجمة .

* ولكنّنا نستطيعُ أنْ نشيرَ إشاراتٍ مفيدةً إلى عددٍ من البارزين في هذا المجالِ ممن ساهموا في إثْراءِ أدبِ الطّفل العربيّ ، وغذّوا لغةَ الطّفل بتراكيبَ وجملٍ أضحتْ مُغنّاةً لدى الأطفالِ العرب ، ومعروفةً عندهم بسببِ وسائل الإعلام المتطوّرة ، ومن أبرزِها الرّائي ـ التّلفزيون ـ.

* وتُعتبرُ القصّةُ الشّعريةُ البسيطةُ الهادفةُ من أبرزِ أنواعِ أدبِ الطّفلِ التي سلكَها شعراءُ العَصْر الحالي ، فالقصّةُ تستعينُ بالكلمةِ الحلوةِ ذات الإيقاع المؤثّر في التّجسيدِ الفنّي ، حيث تتّخذُ الكلماتُ فيها مواقعَ فنيّة ، وتتشكّل فيها عناصرُ تزيدُ في قوّةِ التَّجسيدِ من خلالِ خَلْقِ الشَّخصيّات ، وتكوينِ الأجواء والمواقفِ والحوادث ، وتقودُ بالتّالي إلى إثارةِ عواطف وانفعالات لدى الطّفل ، ناهيك بإثارتها عمليّات العقلِ والإدراكِ والتّفكيرِ والتّخيُّل؛ فالقصّة الشِّعريةُ للطّفل تشكّلُ وعاءً ثقافياً لنَشْرِ المعرفةِ بين الأطفال .

* وقد حلقت بناتُ أفكارِ شعر العصرِ الحديث عالياً في هذا المجالِ الرَّحبِ الجميل ، وأبرزَ معظمُهم دَوْرَ الخير والنَّصيحةِ في أعمالهِ الأدبيّة ، ولُوحظ أنَّ عدداً كبيراً من الأطفال قد تعلَّق بهذا النَّوع القَصصي النَّاعم الهادف ، فكانوا يستمعون إليهِ أو يقرؤونه بشَغفٍ شديدٍ ويحلّقون في أجوائه وهم في غايةِ المتعةِ والإثارةِ ، لأنَّه يُرضي مختلف المشاعرِ والأمزجةِ والمدارك والأخيلةِ باعتبارها عمليّة مَسْرحَةٍ للحياةِ والأفكارِ والقيم[1].

* ولعلَّ الشَّاعر أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ من أوائلِ الذين ساهموا في بناءِ صَرْح قَصص الطّفل في العصرِ الحديث ، وعملَ أهازيجَ شعريّة في أدبِ الأطفال ، وكانَ قد سَبقَه شعراء من مثل: محمّد عثمان جلال المتوفىٰ سنة (١٨٩٨ م) وإبراهيم بك العرب المتوفىٰ في سنة (١٩٢٧ م) ، ولكنَّ أحمد شوقي أدركَ قيمةَ أدبِ الأطفال من خلالِ إقامته في فرنسا أثناءَ وجودِه هناك ، وعندما عادَ إلى مصرَ ، كتبَ القصصَ الشِّعرية للأطفالِ على أَلْسِنةِ الحيوانات والطّيور ، وجعلَها تدورُ حولَ حكمةٍ أو نصيحةٍ ، ومن حكاياته المشهورة: الصَّياد والعصفورة ، والدّيك الهندي ، والثَّعلب والدِّيك ، وغيرها كثير جداً.

* وفي أقصوصةِ الثَّعلب والدّيك يصوّر شوقي الثَّعلب ناسِكاً هادياً داعياً إلى التَّوبةِ ، والعودةِ إلى اللهِ وتَرْكِ محارِمه ، ويذيّلُ شوقي هذه الأقصوصة بحكمةٍ رائعةٍ مفادها عدم تصديقِ الثَّعلب إذ لا دِيْنَ عنده ، وحذارِ من نصائحهِ الزَّائفةِ ، فيقول مترنّماً بهذه النُّونية اللطيفة[2]:

بَــرزَ الثَّعلـــبُ يـــومـــاً فـــي شعَـــارِ الـــواعظينـــا

(١) ثقافة الأطفال (ص ١٨٢) بتصرف. د. هادي نعمان الهيثمي ، عالم المعرفة ـ الكويت رقم (١٢٣).
(٢) انظر: الشوقيات (٤/ ١٥٠).

فمشــىٰ فــي الأرض يهــدي ويَســـبُّ المـــاكــــرينـــا
ويقــــولُ الحمــــــدُ للـــــهِ إلــــه العــــالَمينـــا
يـــا عبـــادَ اللهِ تُـــوبـــوا فهـــو كهْـــفُ التَّـــائبينـــا
وازهـــدوا فـــي الطَّيـــر إنَّ العيـــشَ عيـــشُ الـــزَّاهـــدينـــا
واطلبـــوا الـــدّيـــكَ يـــؤذن لصـــلاةِ الصُّبـــح فينـــا
فـــأتـــىٰ الـــدّيـــكَ رســـولٌ مـــن إمـــامِ النّـــاسكينـــا
عَـــرَضَ الأمْـــرَ عليـــهِ وهـــو يـــرجـــو أنْ يلينَـــا
فـــأجـــابَ الـــدّيـــكُ عـــذراً يـــا أضـــلَّ المهتـــدينـــا
بلِّـــغ الثَّعلـــب عنّـــي عـــن جـــدودي الصَّـــالحينـــا
عـــن ذوي التّيجـــانِ ممـــن دخـــلَ البطْـــنَ اللعينـــا
أنّهـــم قـــالـــوا وخيـــرُ القـــول قـــولُ العـــارفينـــا
مخطـــىءٌ مـــن ظـــنَّ يـــومـــاً أنَّ للثّعلـــبِ دِيْنـــا

* ومن القصص الشِّعري النّاجح الذي تعرَّض له أحمد شوقي قصّة نبيّ اللهِ سُليمان ـ عليه السلام ـ والهدهدَ الذي يشتكي عيشتَه المملّة من حبّةِ قمحٍ سرقَها من بيت نملة ، ويذيّلُ شوقي هذه الأقصوصة بأنَّ الظَّالم يشتكي من غيرِ سبب فيقول:

وقـــفَ الهـــدهـــدُ فـــي بـــا بِ سُليمـــــان بـــــذلّـــــه
قـــالَ يـــا مـــولاي كُـــنْ لـــي عيشتـــــي صـــــارتَ مُملّـــــه
مُـــــتّ مـــــن حبّـــةِ بـــرّ أحـــدثَـــتْ فـــي الصَّـــدر غُلّـــه
لا ميـــاهُ النّيـــل تـــرويهـــا ولا أمـــــــواهُ دجْلَـــــــه
وإذا دامـــــــتْ قليـــــــلاً قتلتْنـــــي شـــــرَّ قتْلَـــــه
فـــأشـــارَ السَّيِّـــد العَـــا لـــي إلـــى مَـــنْ كـــانَ حَـــولَـــه
قـــد جنَّـــى الهـــدهـــدُ ذنبـــاً وأتـــىٰ فـــي اللـــؤم فِعْلـــه
تلـــك نـــارُ الإثـــم فـــي الصَّـــدر وذي الشّكـــوى تعلّـــه
مـــا ألـــىٰ الحبّـــة إلاّ سُـــرِقَـــتْ مـــن بيـــتِ نَملـــه

إنَّ للظَّـــــالــــــم صَـــــــدراً   يشْتكـــــي مـــن غيـــرِ علـــه[1]

* وممن شاركَ في إثراءِ أدبِ الطّفل الشّاعر محمّد الهراوي المتوفى عام (١٩٣٩ م) ، حيث كتبَ : «سمير الأطفال للبنين» عام (١٩٢٢ م)؛ و«سمير الأطفال للبنات» عام (١٩٢٣ م) وقد حرص محمّد الهراوي أنْ يخاطبَ الأطفالَ من خلالِ أدبهِ وشعرِه بلغةٍ سهلةٍ معبّرةٍ واضحةٍ للطّفل ، واختار أخفَّ الأوزانِ وأيسرَها حفظاً ، وكان يستمدُّ موضوعاتها من صميمِ الحياةِ ، ولذا فإنّه يُعَدُّ رائداً في ميدانِ الشّعر للأطفالِ والنّاشئةِ.

* ومن قَصص الهراوي اللطيفة المحبّبة للأطفالِ ، ما نَظَمه على لسانِ طفْلٍ صغير في المدرسةِ فقال :

أَنـــا فـــي الصُّبــحِ تلميـــذٌ   وبعــــد الظُّهْـــرِ نجَّـــارُ
فَلِـــي قلـــمٌ وقـــرطـــاسٌ   وإزْميـــــلٌ ومنشَـــــارُ
وعِلْمـــي إنْ يكـــن شَـــرفـــاً   فمـــا فـــي صنْعَتـــي عـــارُ

* وللهراوي قصائدُ جميلة تغرسُ معاني الفضيلة والأخلاقِ بنفوس الأطفالِ ، وكلُّها ذاتُ أهدافٍ نبيلة ، ومن هذه المنظوماتِ واحدة بعنوان «أخلاقُ فاطمة» ، حيث يصفها بأنّها لا تغضبُ ، ولا تحلفُ كذباً ، وحديثُها لطيفٌ ، وطبعُها في غايةِ التَّهذيب ، وهي طفلةٌ مجدّةٌ تعلَّمَتْ صالحَ الأخلاقِ من أبيها ، يقول محمّد الهراوي :

فَـــاطِمـــةٌ لا تغضـــبُ   إلاّ لحـــــقّ يُغْضِـــــبُ
لا تَحْلِـــفُ الأيمـــانَ لَغْـ   ـــواً لا وليســـتْ تكـــذبُ
حـــديثُهـــا محبَّـــبُ   وطبعُهـــــا مهـــــذَّبُ
فـــاطمـــةُ فـــي درسِهـــا   مجـــــدّةٌ لا تلعـــــبُ
فـــاطمـــةٌ ليســـتْ تســـيءُ   لامـــرىءٍ أو تـــذنـــبُ

(١) الشوقيات (٤/ ١٥٣).

لا تعـــرفُ الشَّتْـــم الـــذي عنـــه نهـــاهَـــا الأدبُ

أدَّبهـــــا معلِّـــــمٌ أكْسَبَهـــا الخُلْـــقَ أَبُ

* ويهتمُّ محمّد الهراوي بأطفالِ المدارسِ ، ويضعُ لهم أنشودةً رائعةً منها:

نحـــــنُ فتيـــــةٌ نطلـــــبُ الأَدَبْ

كُـــلُّ واحـــدٍ يحمـــلُ الكُتُـــبْ

نبتغـــي بهـــا أرفـــعَ الـــرّتـــبْ

* ومنَ الذين حلّقُوا عالياً في سماءِ الطّفل وأدبه ، الشّاعر العراقي المشهور معروف الرّصافي المتوفىٰ عام (١٩٤٥ م) ، حيثُ وضعَ منظوماتٍ جميلةً أوضحَ من خلالها دورَ الأسرة والمدرسةِ والوسطِ الاجتماعيّ في حياةِ الطّفل ، إذْ إنَّ في أدمغةِ الأطفالِ قابليةً عظمىٰ للتَّلقّي ، ولذا قالوا: «العِلْمُ في الصِّغرِ كالنَّقش في الحجر».

* ومن روائعِ الرّصافي منظومة بعنوان «كلّ شيء يتكلّم» حيث تحدَّثَ على لسانِ الغُرَابِ ، والذُّبابِ ، والعصفورِ ، والضِّفدع ، والطّبلِ ، والبابِ ، وغير ذلك بطريقةٍ جميلةٍ ، ومن هذه القصيدة الحلوة المغناج قوله:

لا شـــيءَ ممّـــا نعلـــمُ إلاّ لـــــه تكلُّـــمُ

تكلّـــمٌ مختصـــرٌ يفهمـــهُ مَـــنْ يفهـــمُ

فهـــو لقـــومٍ واضـــحٌ وهـــو لقـــومٍ مبْهـــمُ

* وتحدَّث الرَّصافي عن لسانِ الغُراب النشيطِ فقال:

إنَّ الغـــرابَ قـــد غَـــدا يقـــولُ غَـــاق غَـــاق

فكـــانَ معنـــى قـــولـــهِ فـــي نَظـــرِ الحُـــذَّاق

مَـــنْ قـــام مثلـــي بـــاكـــراً لـــم يُبْـــلَ بـــالإمـــلاق

* ويقول علىٰ لسان العُصفور في دعوةٍ جادَّةٍ إلى طلب الرّزق والمعيشةِ في الإبْكارِ:

قـــد أخــذَ العصفــورُ مـــن بعـــد وضـــوحِ الفَلَـــقِ
يقـــولُ قـــولاً واضحـــاً بصـــوتِـــهِ المـــزقـــزقِ
إنْ رمْـــتَ رزقـــاً طيّبـــاً فـــاسْـــعَ وجـــدَّ تُـــرزَقِ

* وعلى لسانِ الضّفدعِ يبثُّ النُّصحَ ويحثُّ على الصِّدقِ فيقول:

وضفـــدعٌ مـــرتطـــمُ مـــا بيـــن مـــاءٍ ولثـــقْ
قـــالَ بمستنقعـــــهِ وهـــو ينـــقُّ فـــي الغَســـقْ
مـــا خـــابَ قـــطَّ مَـــنْ صـــدقْ ولا نجـــا مـــنِ اخْتَلَـــقْ

* ويخترع الحكمة على لسان الطبل فيقول:

والطّبـــلُ عنْـــدَ ضَـــربـــهِ يخـــرجُ صـــوتـــاً دَمْ دَمْ
فكـــانَ معنـــى صـــوتـــهِ كمـــا رواهُ سِـــرْ دمْ
إنْ تفعـــلِ الخيـــرَ فـــلا تـــدعْـــهُ لكـــنْ دمْ دمْ

* هذا وقد لمعتْ في العصر الحالي أسماء شعراء وأدباء اهتمّوا كثيراً بالطّفلِ وأدبهِ وثقافته، منهم: سُليمان العيسى، ومُصطفى عكرمة وغيرهما كثير في سوريةٍ، بالإضافة إلى شعراءَ آخرين من مختلفِ أقطارِ وطننا العربيّ الحبيبِ يصعُبُ حصرهم وتتبّع أعمالِهم وإنتاجهم الأدبي في هذا المضمارِ الخصبِ الجميل.

* * *

الفصل الثّالث
هَمَسَاتٌ نسائيّةٌ للطِّفلِ من الأَدبِ القَديم

* من نفائسِ أدبنا النِّسائي القديم ما جاءَ عن هند بنتِ عتبةَ زوجِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ حينما كانتْ تحنو على صغيرِها معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ حيث كانت تهمسُ في روعه همساتٍ دافئاتٍ وتقولُ:

إنَّ بُنَيَّ مُعْرَقٌ كَريمْ ... محبَّبٌ في أهلِهِ حَليمْ

ليسَ بفحّاشٍ ولا لئيمْ ... ولا بطخْرورٍ ولا سئيمْ

صَخْرُ بني فِهْرٍ به زعيمْ ... لا يخلفُ الظَّنَّ ولا يخيمْ[1]

* وهندُ بنتُ عتبة هذه ـ رضوان الله عليها ـ كانت تهمسُ في نفوسِ أطفالِها رقائقَ القولِ وعذبَ الكلامِ، وتزرعُ في قلوبهم بذورَ الشَّجاعةِ والحماسِ، ومن إحدىٰ همساتِها السَّاحراتِ لطفلها عتبةَ قولها:

إنَّ بُنَيَّ مِنْ رجالِ الحُمْسْ ... كريمُ أصْلٍ وكريمُ النَّفْسْ

ليسَ بوجَّابِ الفُؤاد نكْسْ ... عتبةُ بدرٌ وأبوه شَمْسْ[2]

---

(١) انظر كتابنا: «نساء من عصر النّبوّة» (٢/ ٣٥١)، و«مُعْرق»: عريق النّسب. و«فحّاش»: قبيحُ القول. و«طخرور»: الرّجل لا يكون جلْداً ولا كثيفاً. و«الطّخرور»: الغريب. و«يخيمُ»: يجبن.

(٢) «الحمس»: لقب قريش، وقيل: هم الشّجعان من النّاس جميعهم. و«وجّاب الفؤاد»: جبان. و«نكس»: الدّني القصير لا خير فيه.

* ونجدُ في أدبِ نساءِ العرب لمساتٍ رائعاتٍ من أدبِ الطِّفل ، وألواناً متموجاتٍ من أنفاس التَّربيةِ الجميلةِ التي تنبثقُ من الحياةِ الاجتماعيّةِ التي تعيشُها النِّساء آنذاك ، ومن ذاكَ ما جاء عن صفيةَ بنتِ عبد المطلب عمّةِ النَّبيِّ ﷺ وأمِّ الزُّبير بن العوّام ، وإحدى شواعر البيت الهاشميّ وفصيحات قريش ، حيث تَرُدُّ في همساتٍ أدبيةٍ على مَنْ عاتَبها في ضَرْبِ طفلها الزُّبير ، فعبَّرتْ عن عميقِ حبِّها له ، وردَّت عليهم بأنّها لم تضربْه تشفيّاً ، بل ليكونَ لبيباً فارساً عَلَماً في الميدانِ ، يُضربُ المثلُ بشجاعَتهِ ، فتقول[1] :

مَنْ قالَ لي أبغضُه فقد كذَبْ وإنّما أضربُه لكي يَلَبّ
ويَهْزِمُ الجيشَ ويأتي بالسَّلَبْ

وقيل : إنَّها كانت تقول :

إنّما أضرِبُه لكي يدبّ ويجرُّ الجيشَ ذا الجَلَب

* ومما يؤثرُ عن أدبِ النّسوة الأعرابيّات ، ما جاءَ عن أعرابيةٍ في إحدى البوادي ، وكانت لم ترزقْ ولداً ، فكانت دائماً تنعىٰ حظَّ نفسِها ، وتندبُ واقعَها ووحدتَها ، فلما أنْ رزقَها اللهُ طفلاً ، تبدَّل يأسُها وبؤسُها ، واستحال إلى سرورٍ ، فإذا بها تتغنّى بهذه الأنفاسِ العَطِرات ، التي همستْ بها أوتارُ فؤادها ، وراحتْ تشدو بعاطفةِ الأمومةِ الصَّافيةِ ، وبمحبّة الطِّفل فتقول :

أحبُّه حبَّ الشَّحيحِ مالَه قد كانَ ذاقَ الفَقْر ثمّ نالَه
إذا أرادَ بذْلَه بدا لَه

* وأنفاسُ النِّساءِ الأدبيّةِ الحانياتِ على الطِّفل ، تضوِّعُ أدبَنا القديم بمضاعفِ غيثِ أدبِ الأُمومةِ الرَّائع ، الذي ينسجُ بروداً حلوةً أخّاذةً

---

(١) انظر كتابنا : «فرسان من عصر النبوة» (ص ١٠٧) طبعة دار اليمامة الأولى ١٩٩٩ م .

للأطفالِ ، وتحنو هذه الهمساتُ حنوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ ، فتنشرُ في نفسهِ الصَّغيرة رذاذ الحبِّ والطّمأنينة ، ويرتشفُ من زلالِ حبِّ الأمِّ ما يطفىءُ عنده ظمأَ الخوفِ ، خصوصاً حينما تكونُ الأمُّ تداعبُ طفلَها ، أو تكيدُ جارتها أو ضرَّتَها ، وفي أدبِ النِّسوةِ القديمِ جانبٌ طريفٌ حفظته المصادرُ في ذاكرتها الواعية ، ومن لطائفِ ذلك هذا الحوارُ اللطيفُ الذي يداعبُ الوجدان ، والذي يظهرُ روحَ التَّنافس بين أمِّ الطِّفل الذّكر ، وأمّ الطِّفلة الأنثىٰ.

* تذكرُ المصادرُ أنَّه كانَ لرجلٍ امرأتان في دارٍ واحدةٍ ، فولدتْ إحداهما غُلاماً ، والأخرى جاريةً ، فكانت أمُّ الغُلام تعيِّرُ ضرّتها بأنَّها مِئْنَاث وتقولُ:

الحمــدُ للهِ الحميــدِ العــالــي ... أنقــذنــي العَــامَ مــنَ الجــواري

* ويروىٰ أنَّها قالت:

عــافَــانــي اليــومَ مــنَ الجــواري ... مِــنْ كُــلِّ سَــوداءَ كَشَــنٍّ بــالــي

لا تدفعُ الضَّيم عنِ العيَال

* وهنالك تتصدّىٰ أم البنتِ وهي ترقِّصُ طفلتَها ، وتجيبُ صاحبتَها بهذه الهمساتِ العطراتِ المفعمة بالاعتزازِ والمحبّة وبُعْدِ النَّظر والذَّكاء فتقول:

ومــا علــيَّ أنْ تكــونَ جــاريــهْ ... تحفــظُ بيتــي وتضــيءُ نــاريــهْ

تمشــطُ رأســي وتكــونُ الفــاليــهْ ... وتحمــلُ الفــاضِــل مــنْ خمــاريــهْ

حتّــى إذا مــا بلغــتْ ثمــانيــهْ ... أو تسعــة مــن السِّنيــن وافيــهْ

أَزَّرْتُهــا ببــردةٍ يمــانيــهْ ... زوجتُهــا مــروانَ أو معــاويــهْ

أَصهارَ صدقٍ ومهورٍ غاليه[1]

---

(١) انظر: المحاسن والمساوىء للبيهقي (ص ٦٢٤ و٦٢٥) بتصرف يسير.

* ويصل إلينا صوتٌ نسائيٌّ دافىءٌ من إحدىٰ نساءِ الأعرابِ ، وهي زوجُ أبي حمزةَ الضَّبيّ ، فقد وصلتِ الحالُ بأبي حمزةَ هذا أنْ يهجرَ زوجَه ، ويبيتُ عند جيرانٍ له ، كيلا يراها لأنَّها قد ولدتْ له طفلةً أنثىٰ ، وكانتِ امرأتُه حصيفةً ذكيّة ، فراحتْ تداعبُ طفلتَها ، وتتغنّىٰ بهذه الهمسّات النّاعمة ، وهي تعرّضُ بزوجها وتعنّفُه وتقولُ:

مَا لأَبي حمزةَ لا يأتينا ... يظلُّ في البيتِ الذي يلِيْنَا
تَاللهِ ما ذلك في أيدينا ... وَإنَّما نأخذُ ما أعطِيْنا
ونحنُ كالزَّرعِ لزارعينا ... نُنْبتُ ما قد زَرعوه فينا

* وتحملُ كتبُ السِّيرةِ النَّبويةِ صُوراً ملونةً رائعة من أدبِ النِّساء في الطِّفل والطَّفولة ، ومن هاتيكم الصُّور الحِسان ، تلكم الكلماتُ العِذاب التي حُفِظَت عن السَّيِّدة حليمةَ السَّعديةِ مرضع رسول الله ﷺ لما أنْ كانَ في باديتها ، فكانتْ حليمةُ تداعبُه وتناغيه كما تفعَلُ الأمّهات بأطفالهنَّ وتقول:

يا ربّ إذْ أعطيتَه فأَبْقِهِ ... وأَعْلِهِ إلى العُلا وَرَقِّهِ
وادحضْ أباطيلَ العِدا بحقّه[(١)]

* وكانتِ الشَّيماءُ ابنةُ حليمةَ السَّعدية منْ أشدِّ النَّاس سعادةً بالطِّفل محمّد ﷺ ، فكانت تكنُّ له في قلبها كلَّ الحبّ والعطفِ والحنانِ ، وكانت تسيلُ على لسانِها همسات أدبيّة دافئة ، تدخلُ السُّرور إلى قلبهِ الشَّريف ﷺ، ومن همساتِها النَّدية العذبة قولها:

هذا أَخٌ لي لم تلدْهُ أمّي ... وليسَ منْ نَسْلِ أبي وعمّي
فديتُه منْ مخولٍ مُعمّي ... فأَنْمه اللهمّ فيما تُنْمي[(٢)]

---

(١) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٩٥).

(٢) انظر: السّيرة الحلبيّة (١/ ١٦٧ و١٦٨) بتصرّف. و«معمّي»: كريم الأخوال والأعمام ، والياء هنا لضرورة الشّعر. و«أَنْمه»: نمىٰ من باب: رمىٰ ، كثر وزاد ، ويتعدّىٰ بالهمزة والتّضعيف.

* ونظلُّ نستظلُّ بظلالِ السِّيرة النّبويّة الوارفةِ، ونتعطّر منْ رحيقِ أندائها، ونجني أعذبَ كلمات أدبِ الطُّفولة من الشَّيماء بنتِ حليمةِ السَّعدية ، التي أُغرمت غراماً شديداً بالطّفل محمّد ﷺ الذي يدرج فوق المروجِ الخُضْر في باديةِ بني سعد ، فكانت تتبعُه وتضمُّه إلى صدرها ، ثم تنشدُ وتقول :

يا ربَّنا أبْقِ أخي محمّدا   حتّى أراهُ يافعاً وأمْرَدَا

ثمَّ أراهُ سيّداً مسوّدا   وأكْبتْ أعاديه معاً والحُسَّدا

وأعْطِه عزّاً يدومُ أبدا

وكان أبو عروةَ الأزديّ إذا أنْشَدَ هذا التَّرقيص اللطيف الهامس يقول : ما أحسنَ ما أجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعاءَها[1] .

* وأمّا أمّ الفَضْل ابنةُ الحارث الهلاليّة امرأةُ العبّاسِ عمِّ النَّبي ﷺ ، فَلَها أدبٌ مأثورٌ في أدبِ الطِّفل ، وكيفَ لا وهي أمُّ أولادِ العبّاس السِّتّة النُّجباء الذين قالَ فيهم وفيها عبد الله بنُ يزيد الهلاليّ :

ما ولَدتْ نجيبةٌ من فَحْل   بِجَبَلٍ نعلمُه أو سهْل

كستَّةٍ منْ بطنِ أمّ الفضل   أكرمْ بها منْ كَهلةٍ وكهْل

عمّ النَّبيّ المصطفى ذي الفَضْل   وخاتم الرّسل وخير الرّسْل

* كانت أمُّ الفضل إحدى بليغاتِ النِّساء الصَّحابيات ، ولمّا ولدتْ طفلَها عبْدَ الله بنَ عبَّاس ، كانت ترقّصُه وتقولُ له مترنّمة :

ثكلتُ نفسي وثكلتُ بكْري   إنْ لم تَسُدْ فِهْراً وغيرَ فِهْر

بالحَسَبِ العدّ وبذلِ الوفْر   حتى يُوارىٰ في ضريحِ القبر[2]

* * *

---

(١) السّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (١/٦٣). ومن الجدير بالذكر أنَّ الشّيماء كانت تحضنُ الطّفل محمداً ﷺ مع أمّها حليمة ، ولذلك كانت تُدعى أمّ النّبي أيضاً.

(٢) شاعرات العرب (ص ٣٢٠) و«بكري» : ابنها البكر الفضل بن العباس وبه كانت تكنىٰ. و«الحسب العد» : القديم.

الفصلُ الرَّابع
همساتٌ نسائيّةٌ للطّفلِ منَ الأدبِ الحَديثِ

يصعُبُ على الباحثِ أنْ يتتبَّعَ هذا الموضوع ، إذ اتَّسعتْ دائرةُ الأدب النَّسويّ في عَصْرِنا الحاضر ، وخصوصاً موضوع الطِّفلِ والطُّفولة والأمومةِ وما شابَه ذلك ، حيثُ نجدُ كثيراً من الهمسَات النِّسائيّةِ تملأُ رحْبَ الفضَاء ، وتملأُ بطونَ الكُتُب والمجلاَّت والصُّحف ، ولا أدَّعي أنّي قد وفّيتُ هذا الفَصْل حقَّه ، ولكنّي عملتُ ما وسعني العمل علىٰ أنْ أستقصيَ أهمَّ تلكم الهمسات الدَّافئات ، وأسجّلها هنا لتبقىٰ ذخيرةً لمن أحبَّ أنْ يسمعَ إلى الأصواتِ النِّسائية التي تهمسُ في أذنِ الطِّفْل ، وتعتني بالطِّفل ، وتحوطُهُ بكلِّ رعايةٍ وعناية ، من لدن تكوينهِ في أحشائها إلى أنْ يغدوَ طفلاً سويّاً يتكلّمُ ويلعبُ ويتعلّمُ.

* ويطلعُ علينا أدبُ الطِّفلِ من خلالِ همساتِ النِّساء الأديبات ونفحاتِهنَّ ، ليغدوَ موضوعاً قائماً على أصولٍ متينةٍ ثابتةٍ في عالَم الأدبِ ، حيثُ نقرأُ في الأصوات النِّسائية صوراً رائعةً عن تجاربهنَّ وتعبيرهنَّ عن الطفولةِ والأمومةِ ، إذ يتحدثنَ عن الطّفلِ منذ أنْ يكونَ جنيناً في أحشائهنّ ، وما يُعَانينَ من آلام الحمل والولادة ، إلى أنْ يلدْنَ ، ثم يترعرعُ طفلهنَّ ، ويغدو أمامهنَّ طفلاً كبيراً قد شبَّ عنِ الطَّوقِ؛ ومن ذلك ما نلمحُه في إحدى شواعِر عَصْرنا الحاضر ، وتُدعى سعيدةُ بنتُ خاطر بنِ حسن

الفارسيّ العُمَانيّة[1] ، فقد عبّرت سعيدةُ هذه عن تجربتها في الأمومةِ تعبيراً صادقاً واضحاً ، حيثُ تبدأُ همساتُها بالحديثِ عن مشاعرِ المرأةِ حينما تحسُّ بتكوّن الجنينِ في داخِلها ، وعندها تتقاذفُها أمواجٌ من السُّرورِ والخوفِ من آلامِ الحملِ ومشاكلِه ، ومخاوف الولادةِ وصعوباتها ، ومن ثمَّ الفرحُ بالمولودِ الأوّل للمرأةِ ، وتتساءلُ سعيدةُ سؤالاً طبيعيّاً يَحْدُثُ لكلِّ امرأةٍ: ترىٰ هل ستلدُ طفلاً تدعوهُ عليّاً ، أم طفلةً تدعوها ليلىٰ؟! حَسَناً ، فلنستمعْ إلى هذه الأنغامِ العِذَاب في قصيدةِ الشَّاعرة العمانية سعيدة بعنوان «أمومة» حيثُ تقولُ:

إذا مــا تكــوَّرْتَ فــي داخِلــي ... وأثْقَلْــتَ جسْمــاً خفيفــاً خَلِــي

وصــرتَ تُلمْلــمُ روحَ الحيــاة ... فلــمْ يبــقَ شــيءٌ ســوىٰ الآهِ لــي

عــرفــتُ بــأنّــي نــديــمُ السُّهــاد ... وليلــي طــويــلٌ ولــنْ ينْجَلــي

وبــتُّ أقلِّــبُ فكْــر التَّمنّــي ... ســأحظىٰ بليلــى تُــرى أمْ علــي

ولمــا تــوالَــتْ شُهــوري الطِّــوال ... وقــاربْــتُ هَــولاً بــه مــأْمَلــي

ذبُلْــتُ ذبــولَ غصــون الخــريــف ... ومَــنْ تلــك مثلــي ولــم تَــذْبُــل

وقــدْ راودتْنــي شتَّــى الظُّنــون ... بعــاقٍّ ســأرزقُ أمْ بِــوَلــي

إلهــي أَبِنْــي طيــب الأصــول ... وأكــرمنــي فــي بِكْــريَ الأوّل[2]

* وتصلُ الشَّاعرة سعيدةُ سلسلةَ أدبِ الطّفل بهذهِ الأبياتِ التي تصفُ فيها آلام المرأةِ ، وما يعتريها عند المخاضِ وهي تنتظرُ طفْلَها ، وكيفَ ترتبطُ في تلك اللحظات الحرجاتِ بالخالقِ الباريءِ اللطيفِ الخبير ،

---

(١) سعيدةُ بنتُ خاطر بنِ حسن الفارسيّ ، شاعرةٌ عُمانيّة وُلدت في ولاية «صُور» من سلطنةِ عمان عام (١٩٥٦ م) ، ثم تلقّت تعليمَها في مدينة الكويت ، ونبغتْ في فنِّ المقالةِ والشّعر ، وراحت تنشرُ نفحاتِها ونفثاتِها في جريدةِ عُمان ، وكذلك في مجلّة «الأسرة» التي تصدرُ في سلطنة عمان ، وما تزال تتابعُ هذه المسيرة الأدبيّة إلى الآن.

(٢) أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي (٢/ ٣٥٦).

وتتذكّرُ أيضاً حنانَ أمّها وعطفَ أبيها ، ولعلَّ هذه القصيدة امتدادٌ لمعاني القصيدة السَّابقة ، فلنقرأ ترنيمات الشَّاعرة سعيدة ، ولنستمعْ إلى زمجرتها وهي تصوّرُ الأمَّ في آلام المخاض في هذه البائيّةِ الجميلة :

وحينَ تزمجِرُ ريحُ المَخاض ... تلاطمُ أمواجَها مَركَبي
شعرتُ بنوباتِ شبْهِ الجنون ... وموجاتِ صخبٍ إلى الأصخبِ
تقطّعُ ما بينَ هذا الوجود ... وبيني فلمْ أدْرِ ما مذهبي
كأنّي منَ القهر بين الرّحى ... تدكُّ عظامي بلا مُوجِبِ
استجرتُ بلطفك يا مَنْ علىٰ ... ضفافِك ألقيتُ ما حلَّ بي
فيدوي الصُّراخُ لحكمٍ أتىٰ ... من الغيبِ يختالُ في موكبِ
وتَنْسِلُ منّي جذورُ العروق ... جنيناً دعاني منْ مغربي
وكنتُ مُوَدِّعةً للحياةِ ... مبحرةً في دجىٰ قاربي
هناك تذكّرتُ بينَ الملا ... حنانَكِ أمّي وعطفَ أبي
وطافتْ ملائكُ ربٍّ غفور ... تردّد قولَكِ لي جَرّبي
علمتُ يقيناً بأنَّ الإلهَ ... يعيدُ دروساً ولم تكْتَب[1]

* ومن الآدابِ النّسويةِ الجميلة التي حلّقتْ عالياً في سمواتِ الأدبِ ، ورسمتْ هنالك أجملَ صورِ الطُّفولة ، صوتُ الأديبةِ الشَّاعرةِ عائشة التَّيموريّة المصريّة القاهريّة[2] ، تلك التي فاقت بأدبِها شاعرات عَصْرِها ومصرِها وكانت :

فصيْحَة منطقٍ ناغَتْ بلفْظٍ ... كسلْسَلِ منَ الصَّهباءِ عذْب
فتاة زيَّنَتْ جِيْدَ المعالي ... بِدُرٍّ منَ حُلَىٰ الآداب رطْب
حَوتْ قَصب السِّباق بكلِّ فَنٍّ ... وراضتْ في المعاني كلَّ صَعْب

---

(١) أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي (٢/ ٣٥٦).
(٢) اقرأ سيرتها بتوسع في موسوعتنا الشهيرة «نساء من التاريخ» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٩) ففي سيرتها جوانب مهمة للمرأة المعاصرة.

* وعائشةُ التَّيموريّةُ هذه منْ شواعِرِ العَصْر الحديثِ ، فقد كانتْ وفاتُها في مطلعِ القرنِ العشرين الذي يوافقُ عام (١٣٢٠ هـ) ، وكان لها آثارٌ وضيئةٌ في تزويدِ أدبِ الطِّفل بعذبِ الهمساتِ ، إذ كان لها مع طفْلِها أنغامٌ تأسرُ القلوبَ ، حيثُ تبدو مثالَ الأمّ العطوفِ ، فهي لا تقوىٰ علىٰ بُعْدِ طفلها الذي سلبَ منها فؤادها الذي رآه قبل أنْ تراه عيناها فتقول:

قَلْبي لبعدِكَ لم يحْمَد مجاورتي وفرَّ نحو حبيبٍ في حشَاه رُبِي

فقُلْ بطلعتِكَ الغَرَّاء وعزَّتها واحكمْ بما ترتضي متّعْتَ بالأدبِ

من غيرِ قلبٍ أتبقى روحُ عائشة لا والذي زانَ هذا المجدَ بالأدبِ

* إنَّ قلبَ الأمِّ لن يستطيعَ البعد فترةً طويلةً عن طفلِها ، ولكنْ ماذا خبّأَتْ لنا عائشة عن قدومِ مولود يستبشرُ به أهلُها؟

* فمن روائع أدبها الموجَّه إلى الطِّفل ، قولُها الجميل عندما وُلدَ أخوها أحمدُ سنة (١٢٨٨ هـ) ، وكان اسمهُ مركَّباً «أحمد توفيق» ففرحت عائشةُ بمولدِ هذا الطّفل ، ورحّبتْ بهذا القادم الذي أضاءتِ المنازلُ بمولده:

غنّى فؤادُ الأمِّ أهلاً بالذي مُذْ جاءَ أشرقتِ المنازلُ بالهَنَا

* ونشأَ أحمدُ توفيق هذا في أسرتهِ ، تحوطُه عائشة بالعطفِ الأخويّ ، فقد كانَ طفلاً نابهاً ، ذكيّاً ، يتعلَّمُ من فقيهِ البيتِ ما يمليهِ عليه ، فقد كانَ كاتباً قارئاً مجيداً وهو في سنّ الطّفوليّة ، ولما أخذَ هذا الطّفْلُ يقرأُ ما يكْتُبُ له الفقيهُ على الورقِ ، أو اللوحِ الصَّغير ، راحت عائشةُ تقول:

لاحَ السُّعود وأسْفَر التَّوفيقُ وتلا لنا سُوَرَ العُلا توفيقُ

رقَمَ الفقيهُ له على لوحِ الهدىٰ أقبِلْ فإنَّك للنَّجاحِ رفيقُ

* ونستمعُ إلى صوتٍ نسوي آخر يذكرُ الطِّفْل في أجمل مناسبة ، وهي فرحةُ الأهل بمولده ، ترى مَنْ يحمل لنا هذا الأدب الغضّ الطري؟ .

* لا شكَّ في أنكم قد سمعتم من قبلُ صوت صابرة العزّي[1] تشدو لطفلٍ يُولد ، وتصوّرُ فرحةَ أبويه ، واستبشارهم بقدومهِ ، وجمال صوتِه الذي ينسكبُ لطيفاً في آذانِها أعذبَ من شدوِ الطّير على الأفنانِ ، أمّا صورتهُ وجمالُه فإنَّه البدرُ يتوارىٰ منه ، والوردُ أعارَهُ الحمرةَ ليعلو خدَّه ، فلنستمعْ إلى تلكم الأنغامِ الفريدة من صابرة العزّي في رائعتها الدّالية «مولد طفل» حيث تقول:

رَحُـبَ البيـتُ بمـن حـلَّ بـه ... وتهـادىٰ عبْـر آفـاقٍ بعيـدهْ
يحمـلُ البشـرىٰ بـأحلـىٰ نغَـمٍ ... يـا لَهـا منـه لنـا بشْـرىٰ سعيـدهْ
يتحـدّىٰ البـدرَ فـي طلعتِـهِ ... ومـن الـوردِ سنَـىٰ يعلـو خـدودهْ
وذكـاءٌ شـعَّ مـنْ مقْلَتـهِ ... خيـر نبـراسٍ لـدنيـاه الجـديـدهْ
كطيـورِ الـرَّوضِ يشـدو صـوتَـه ... بهجـةً للقلْـبِ أنغـامـاً فـريـدهْ[2]

* ولم تتوقفِ الهمساتُ النّسويةُ عند هذا الحدّ من تصوير العواطفِ نحو الطّفل وهو جنينٌ أو طفلٌ يرتعُ في البيتِ ، وإنّما غذَّتِ الشّاعرات أدبَ الطِّفل والطُّفولة بلبِّ العواطفِ إذ حرصنَ علىٰ تصويرِ الطِّفلِ وهو يدخلُ المدرسةَ للمرّةِ الأولىٰ ، وهنَّ يصورنَه ينتقلُ من هدوءِ البيتِ إلى ضجيجِ المدرسة حيث تمتزجُ ضحكاتُ الأطفَال بصراخِهم ، وتختلطُ همسات

---

(١) صابرة العزّي واحدة من شواعر العصرِ الحاضر ، وصابرة لقبها ، أمّا اسمها فهو: خديجةُ محمود العزّي ، وهي شاعرةٌ عراقيةٌ ولدت في مدينةٍ بغداد ، وترعرعت فيها ، ومنَ العجيبِ أنّها لم تقُلِ الشّعر في مطلع حياتها ، ولا في أوسطها ، وإنّما راحت تقرضُ الشّعر بعد أنْ دخلتْ في العقدِ السّادس من عمرها في سنّ الواحد والخمسين ، وكانت قد أُصيبت بمرضٍ منعها منَ الحجّ إلى بيتِ الله الحرام ، وفي إحدىٰ أويقات الصّفاء ، وفي واحدةٍ من غمرات الشّوق واليأس انبثقَ قلمُها عمّا وردَ في خاطرها ، وراحت تكتبُ أولىٰ قصائدها ، ولها ديوان شعر اسمه «نفحات الإيمان» مطبوع في وزارة الثقافة والإعلام العراقية عام ١٩٨٠ م.

(٢) انظر: نفحات الإيمان (ص ٢٩٩).

أناشيدهم ببكائِهم ، ونعيشُ هذه الأجواء الرّائعةَ مع شاعرة معاصرةٍ عرفت دفءَ الطُّفولةِ ولمستْه بحنانِها ، وعبّرت عنه بلسانِها ، ورسمتْهُ بالكلماتِ على دفاترِ الأيّام ، هذه الأديبةُ الشاعرةُ من المعاصراتِ وهي سعادُ ابنةُ عبد الله الصَّباح الكويتيّة[1] ذات الإنتاجِ الأدبيِّ الجميل ، والهمساتِ النَّسويةِ الدَّافئةِ الدّافقةِ برقائقِ ما رقّتْ به خواطرها المندّاة برحيقِ الكلمات السَّاحرات ، وخصوصاً في هذه المزدوجةِ الجميلةِ بعنوانِ «ولدي في المدرسة» من ديوانها «أمنية» ومنها:

هذه دارٌ وأسوارٌ وروضٌ وأريجْ وصدىً من ضَحكاتٍ وصراخٌ وضجيجْ
ودموعٌ في مآقي جَمْعِ أطفالٍ صغار وحكايا أُمَّهات في هدوءٍ ووقَارْ
ودنَا الطِّفْلُ بعينيه إلى الجوّ العجيبْ ضحكاتٌ ودموعٌ وغناءٌ ونحيبْ
وبدا لي أنّه يحملُ عبئاً وينوءْ بعد جوِّ البيتِ والبيتُ سكونٌ وهدوءْ

* وسنظلُّ مع سعاد الصَّباح نستمعُ لأدبِ الطِّفل منها ، ولكن هذه المرّة ليست لطفلِها ، وإنّما ترسمُ صورةَ أطفالٍ فقراء من خلالِ لوحةٍ مؤثّرةٍ لامرأةٍ اضطرها الفقرُ أنْ تتركَ بيتَها ، وتخرجَ بحثاً عن رزقِ أطفالِها السّتة ، ورزقِ زوجها الذي هدَّ المرضُ قواه ، وجعلَه الهزالُ قعيدَ البيت ، وتعملُ في غسلِ الثِّياب للنّاس ، فتقول:

وقفَتْ تقصُّ عليَّ قصَّتَها وبكفِّها الصَّابونُ والماءُ
قالتْ عيالي ستَّةٌ ولَهمْ في العيشِ حاجاتٌ وأعباءُ
وأبوهمُ أزْرىٰ الهزالُ بهِ ومشىٰ بصُلْبِ عروقهِ الماءُ
أشقىٰ لأدفعَ عنهمُ قدراً لا شئتُ قسْوَتَه ولا شاؤوا

---

(١) سعادُ ابنةُ عبد الله الصَّباح من مواليدِ الكويت عام ١٩٤١ م ، نشأتْ في الكويتِ ، ثم تلقّت تعليمَها الجامعيّ في جامعةِ القاهرةِ ، ثمّ تابعت دراستَها العُليا حيثُ حصلتْ على رسالةِ الماجستير من جامعةِ لندن ، ثمّ حصلتْ على شهادة الدكتوراه ، ولها عددٌ من الدَّواوين منها: أمنية ، إليك يا ولدي ، لحظات من عمري.

* وتنتقلُ الشَّاعرةُ الحصيفةُ سعاد لتنقلنا إلى جوّ السَّعادةِ التي أضفتها على روحِ هذه المرأةِ أمّ الأطفال السِّتة راسمةً أحلى معاني الإنسانيّة ، وأجملَ عواطفِ الأدبِ النّسوي تجاه أطفال النّاس ، إذ رسمتِ السَّعادة في هذه الصُّورة الجميلة:

بينــي وبيــنَ اللهِ مــا بــذلَــتْ كفّــي لهَــا لتبــدِّد اليــأْسَــا
وشعــرتُ حيــنَ رأيــتُ بسْمتَهــا لسعــادتِــي فكْــراً وإحْسَــاســا
ليـس السَّعيـدُ مَـن اغتنـى ليـرىٰ مَــنْ حــولَــه يقضــونَ أنْفــاسَــا
إنَّ السَّعـــادةَ عنـــد ذروتِهـــا هـي أنْ أعيـشَ لأسعـد النَّـاسـا[1]

* وأدبُ الطفولة ثرٌّ جميلٌ عند سعاد الصَّباح ، ومن بدائِعها قولها عندما ماتَ طفْلُها «مُبارَك» تصوِّر ما أصابَها:

إنّنـــي أغـــرقُ فـــي بحـــرٍ مـــنَ الـــدَّمْـــع السَّخيـــن
إنّنـــي أصـــرخُ مـــن نـــاري وأهـــذي فـــي أَنينـــي
بعـــد أنْ جُـــنَّ جنـــونـــي وغـــدا اليـــأْسُ خـــدينـــي
كـــم تضـــرَّعْـــت إلـــىٰ اللهِ بـــإيمـــانـــي ودينـــي[2]

* ونتابعُ همسات الطُّفولة العذبة في ألوانِها المتعدّدةِ مع الدُّكتورةِ سعاد الصَّباح ، وهي تبعثُ من نبضِ أحساسيسها نبض قلبِها ونبض حروفها ، لترسمَ مشاعرهَا بعد وفاةِ ابنها مبارك الذي تركَ تساؤلات في حياةِ إخوتهِ وأصدقائِه ، وتركَ أيضاً أمّه ذات الينبوع الثّرّ في أدبِ الطّفل ، كما جعلها ترفدُ أطفال الدّنيا بمشاعرِها وشاعرِيتها الحلوة المعطاء التي وهبها اللهُ إيّاها ، فها هي ذي سعاد الصّباح تحكي في قصيدتها «إيمان» ، حكايةَ أطفالها الذين يسألون أين رحل أخوهم؟! ويسبقُها دمعُ الحنان ، وحنان الدَّمع لتقول: إنَّه في رحمةِ الله؛ فإلىٰ تلكم الكلماتِ النَّاعماتِ ، وإلى

---

(١) ديوان أمنية (ص ٣٤) طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م.

(٢) إليك يا ولدي (ص ١٧).

تلكم الهمساتِ الباكياتِ ، وإلى تلكم العبراتِ السَّاخنات ، إلى وجدانِ الدّكتورة سعاد الصَّباح كيما نشاركها ما نظمَتْه من أبيات ، في أعذبِ نبرات ، لتملأَ حزينَ وبياضَ الصَّفحات :

وصغَــاري فــي رحــىٰ المحنَــةِ حيــرىٰ النَّظــرات
ســأَلُــوا أيــنَ أخــوهــم أهــوَ مــاضٍ أهــوَ آت؟
قلــتُ والــدَّمْــعُ سخيــنٌ ذائــبٌ فــي نَبَــرات
إنَّــه فــي الغيــبِ بيــنَ السُّحــبِ فــوقَ النَّيِّــرات

* * *

وَلــدي ليتَــك تــدري كيــفَ بــاتَــتْ أُمسيَــاتــي
لــو بســاطُ الأرض طِــرســي ولــو البحــرُ دوَاتــي
لمــلأتُ الكــونَ إيقــاعــاً حــزيــنَ الصَّفحــات
فَســلِ الــرّحمــنَ فــي أيّــام عمــري البــاقيــات
رحمــةٌ منــه تعــزّينــي إلــى يــومِ ممَــاتــي
إنَّ إيمــانــي بــربّــي وحــده طــوقُ نجــاتــي[1]

* إنَّ الحديثَ عن أدبِ الطِّفلِ بألوانهِ في الأدبِ النّسوي شجي النَّغمات ، شهي النّبرات ، يأسرُ النّفوس بلطفِ أحاسيسهِ ، ويربطُ القلوبَ بصدقِ وجيبه ، لأنَّه نابعٌ من مشاعرَ صادقةٍ ، وتجاربَ حقيقيةٍ ، لا يشوبها كدَرُ المادّيّات ، بل الرّوحُ وحدَها هي التي تبعثُ الضّياء في أدبِ الأطفالِ الذين نسعدُ معهم فيه ، ويسعدون هم بما جاء فيه .

* وهذه وقفاتٌ ساحراتٌ في بستانِ أدبِ الطِّفل عند النِّساءِ المعاصراتِ ، نقتطفُ منه زَهْر الرّيحان وريحانَ الزَّهر ، لنضمَّ هذه الباقات النَّضرات إلى تلكم الرَّياحين التي استروحنا عبيرَ شذاها ، وتذوَّقْنا رحيقَ نداها .

---

(١) إليك يا ولدي (ص ٥٣ و٥٤).

* فمِنْ هذه الأزاهر التي سطرتها ورسمتْها أناملُ الشَّاعرات في أدبِ الطِّفل ، هذه الزَّهرةُ الزَّاهرةُ التي رسمتها ريشةُ الشَّاعرة هيام رمزي الدَّردنجي[1] التي تعرضَّتْ للطِّفل بصورة جميلةٍ عبرت عنه بمشاعرِ آمالها ، وآمالِ مشاعرها وبحاضرِها ومستقبلها ، فالطِّفلُ هديّةٌ ربّانيّـةٌ ، وابتساماتُ ربيع تملأُ القلبَ بالأماني ، وما أعذبَ الأماني إنْ تحقَّقَتْ في هذا المخلوقِ اللطِّيفِ الحبيبِ اللصيقِ بأضالعِ القلبِ وحناياه. فلنستعد سويّاً مع أنداءِ هذه الشَّاعرة التي حلَّقت في مناجاةِ ربّها أن يهبَ لها طفلاً تضمُّه ، عطراً تشمُّه ، نوراً يضيء دجى حياتها ، ترىٰ ماذا تقول الشَّاعرة هيام هذه؟!

يا إِلهي : إنَّكَ اللهُ وتُوهِبُ مَنْ تَشاء
إنَّكَ اللهُ إذا عزَّ الرَّجَاء
فأَنِرْ دنياي مِنْ هذا السَّنَاء
وأَنِلْني كلَّ ما تطْلُبُ روحي
ليسَ ما يشفي جُروحي
غيرُ ابنِ فأعْطِني طفلاً أضمُّه
أعطِني عِطراً أشمُّه

---

(١) هيامُ رمزي الدّردنجي ، إحدى شواعر العَصْر الحديث من البلادِ المشرقيّةِ ، من مواليد فلسطين بمدينةِ يافا عام ١٩٤٢ م ، درستِ الآدابَ في ليبيا ، وحصلتْ على شهادةِ الليسانس في الآدابِ من جامعةِ بنغازي هناك ، وذلك في عام ١٩٧٦ م؛ ولهيام الدّردنجي أصواتٌ جميلةٌ في عالم الأدب والقصّة والشّعر ، ولها يدٌ طولىٰ في ميدانِ القَصص والرّوايات ، ومن إنتاجها في القصّة الطّويلة: النخلة والإعصار ، وداعاً يا أمس ، إلى اللقاء في يافا؛ أمّا في ميدان الشِّعْر فكانت من المجلّيات ، ولها بضعةُ أعمال منها: دموع النّاس ، ألحان وأحزان ، رسمتك شعراً ، عبيراً ، وأغنيات للقمر ، وزهرات في ربيع العمر وغيرها. ولها في الشعر التاريخي باع طويل.

أعْطِني نوراً يضيءُ دجىٰ حياتي
بجميلِ البَسَمَات
فأرىٰ الأيّامَ بَسْمَة
وشقاءَ العُمر رحمة

يا إلهي: إنَّ في قلبي أنيناً وحَنِيْن
إنَّ في قلبي بكاءً وشُجون
لنِداءاتِ رضيع
كابتساماتِ الرَّبيع
تملأُ القلبَ الوجيع
بالأماني والشُّموع
فيروحُ العمر يمضي آمناً
عَبْرَ السِّنين[1]

* ويبدو أنَّ هذه الصُّورةَ مستمدّةٌ من قولِ إحدىٰ الأعرابيّات، التي كانتْ ترقِّصُ ولدها وتشمّه وتقول:

يا حبَّذا ريحُ الولَد	ريحُ الخُزامىٰ في البَلَدْ
أهكذا كلُّ ولَدْ	أمْ لَم يلدْ مثلي أَحَدْ؟!

* إنّنا نلحظُ أنَّ هذه الأعرابيّة تضمُّ ولدَها وتشمّ ريحَه، وكذلك نجدُ الشَّاعرة هيام الدَّردنجي تعبِّرُ أيضاً عن رغبةٍ شديدةٍ في أن يهبَها اللهُ طفْلاً تضمُّه هي الأخرىٰ إلى صدرها، فهي تتحدَّثُ عن طفلٍ لم ترزَقْ به في حين أنَّ الأعرابيةَ تتحدَّث عن طفلٍ ترقّصه ويناغيها[2].

* بينما نسمعُ صوتاً نسائياً آخرَ ينبضُ من قلبِ أخرى، أفاضَ اللهُ عليها

---

(١) ديوان: دموع الناس لهيام الدردنجي (ص ٤٩ و٥٠).
(٢) انظر كتاب: الصّورة الفنية في الشعر الإسلامي عند المرأة العربية في العصر الحديث (ص ٤٠٣) بشيء من التصرف.

منْ عطاياه ، وأضحت أمّاً ، فقد باتت تحسُّ الأمومةَ بداخِلها ، وسيكونُ طفلُها منعّماً بدقاتِ قلبها الذي يعزفُ له أشجىٰ الألحان ، فقد صارت أمّاً ، وصارتِ الجنَّةُ تحتَ أقدام الأمّهات ، لنستمعْ إلىٰ هذه المناجاةِ للجنين منَ الشّاعرة المصريّة البورسعيديّة وفاء وجدي[1] ، حيث تقول تنادي وتُناجي جنينها :

تَسَـــرَّبْ إلـــى قطـــراتِ دَمـــي نَشْـــوَهْ
تعَـــرْبـــدُ فيهـــا صفـــاءً وروعَـــهْ
فحـــسُّ الأُمـــومـــةِ فـــي دَاخلـــي
يشـــعُّ انبهـــاراً ونـــواراً وسكْـــرا
تَقَلَّـــبْ حَنُـــونـــاً لِتُسْكِـــرَ قَلبـــي
فقـــد صـــارَ يعـــزفُ أشهـــىٰ الأَغَـــانـــي
تنـامُ عليهـا وتصحـو عليهـا رقيـقُ الأمـانـي
فـــدقَّـــاتُ قَلبـــي غنـــاءً لقلبِـــك
يفيـــضُ ولـــوعـــاً وشـــوقـــاً وشِعْـــرا
صَغيـــري وأنـــتِ هنـــا نبـــضُ قَلْبـــي
وبَعْـــضُ دَمـــي وانتفَـــاضـــةُ حبّـــي
أَتـــدري وقـــد ســـارَ ينمـــو مَعَـــك
شعـــورُ الأُمـــومـــةِ يـــومـــاً فيـــومـــا

---

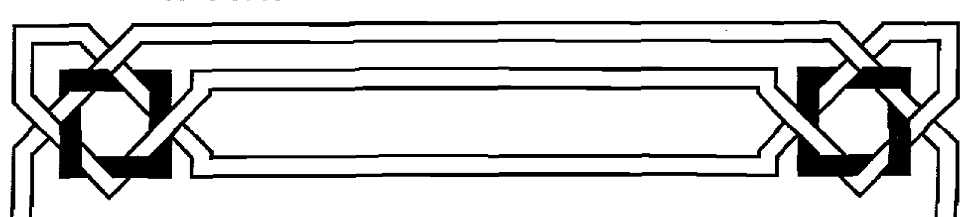
(١) وفاء وجدي شاعرةٌ من شواعر مصرَ المعاصرات ، وُلدتْ في مدينةِ بور سعيد ، ودرستِ الفنونَ المسرحيّة ، حيثُ تخرَّجت عام (١٩٦٩ م) من المعهدِ العالي للفنون المسرحية؛ أَلّفَتْ وفاء وجدي مسرحيةً شعريةً عنوانها: «نيسان والأبواب السّبعة» ، وطُبعت هذه المسرحية في عام (١٩٨٤ م) ، كما أنّ لها عدداً من الدّواوين الشّعرية منها: الحبُّ في زماننا ، رسائل حميمة إلى الله ، ماذا تعني الغربة. ولها ديوان اسمه «حرث الأرض» نالت عليه جائزة الدّولة التقديرية للشّعر ، ونَفَسُها إسلامي.

فيمـــــلأُ صـــــدري قـــويّـــاً شفيفـــا
فيـــا سَعْـــدُ قلبِـــي لأنّـــي أُنْثـــىٰ
وأفـــاضَ الإلـــهُ عليهَـــا العَطـــايـــا
وأطلـــقَ جنَّـــاتِـــه تحـــتَ أقـــدامِهـــا
فصَـــارتْ حنـــانـــاً وشـــوقـــاً وأُمّـــا[1]

* * *

(١) الحبُّ في زمانِنا (ص ٥٠ و٥١) لوفاء وجدي.



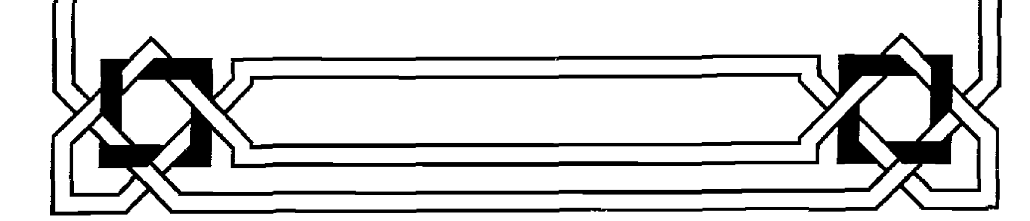


الباب الثالث

الطفل والحياة الاجتماعية

الفصل الأول: الطفل وأدب الحياة الاجتماعية عند الشعراء

الفصل الثاني: الطفل وأدب الحياة الاجتماعية عند الشاعرات



الفصل الأول
الطِّفْلُ وأدبُ الحياةِ الاجتماعيّةِ عند الشُّعَراء

* لعلَّ أدبَ الطُّفولةِ من أوضحِ الآدابِ في الشِّعر الاجتماعيِّ والأُسريّ ، حيث تبرزُ صورُ الطّفولةِ فيهِ واضحةَ المعالم ، وذلك لما فيه منْ مشاعِرَ إنسانيّةٍ صادقةٍ تحملُ آمالَ المجتمعِ وآلامه ، لأنَّ الأدباء والشُّعراءَ يرسمون الصُّورَ الصَّادقةَ لأماني الطُّفولة وأحلامها ، ويقفون عند مواطنِ الخيرِ والجمالِ في كلِّ ما يحيطُ بالطِّفل منَ الطَّبيعةِ ، أو الكونِ ، أو الحياةِ ، ويرسمونَ للطّفولة طريقَ السَّعادة ، ويدعونها إلى تجنّبِ طريقِ كلّ شرّ وبؤسٍ وشقاءٍ ، فجاءت صورُ الأدباء دليلاً واضحاً وحيّاً على واقعٍ اجتماعيّ قَاسٍ علىٰ الطُّفولةِ والأطفالِ إلى حدّ حملَ كثيراً من الأدباءِ والشُّعراء على اجترارِ الألمِ لما شاهدوه من مناظرَ حيّةٍ لأطفالٍ مشرّدين هائمين على وجوهِهم ، لا طعامَ ولا كِساء ولا مأوىٰ[1] .

* ولذلك تنادىٰ الأدباءُ والشُّعراء في مَطْلعِ القرن العشرين إلى إيجاد جمعيات لرعايةِ الطِّفل ، لما شاهدوه من مآسٍ وويلاتٍ تدمّر هذه الثّروة البشريّة البريئة ، وكان في صوتِ «حافظ إبراهيم» قطراتٌ منداةٌ بالعطف[2] ، إذْ إنَّ هؤلاء الأطفالَ البائسين تشرفُ عليهم نسوةٌ من ذواتِ

---

(١) انظر: الطفولة في الشعر العربي والعالمي (ص ٣٤) بتصرف يسير.
(٢) من ذلك قصيدته: «رعاية الأطفال» وعدد أبياتها (٥٢ بيتاً) انظر ديوان حافظ (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩).

البرِّ والفضل ، ويؤكِّد حافظُ إبراهيمُ مبشّراً الطِّفل بألاّ يخافَ ولا يحزن ولا يخشىٰ عوادي الأيّام ، فهؤلاء الأوانسُ ربّات الحِجال سَيَكُنَّ له نِعم الأنيس والرّفيق ، ويقول:

أيّها الطّفلُ لا تخفْ عَنَتَ الدّهرِ ولا تخشَ عادياتِ الليالي
قيَّضَ اللهُ للضَّعيف نفوساً تعشقُ البرَّ من ذواتِ الحِجال
راعني من نفوسِكنَّ جمالٌ يتجلّىٰ في هالةٍ من جلال[1]

* ويدعو حافظ إبراهيم المجتمعاتِ كلَّها في مشرِقها ومغربها ـ وخصوصاً في أرضهِ أرض النّيل ـ إلى مساعدةِ الطِّفل ، والحنو على الأطفالِ المحرومين ، وإنقاذهم من بؤسِ الحرمان ، وحرمانِ البؤس ، وشقاءِ الأيّام وأيّام الشَّقاء ، ثم ينادي بصوتهِ الجهوري إلى إقامة جمعياتِ خيريّة ترعى الطّفولة ، وتأخذُ بيدها إلى شواطىء الأمان والنَّعيم فيقول:

أنقذِوا الطِّفلَ إنَّ في شقوةِ الطِّفلِ شقاء لنا على كلِّ حالِ
إنْ يعشْ بائساً ولم يطْوِه البؤسُ يعشْ نكبةً علىٰ الأجيالِ
أيِّدوا كلَّ مَجْمعٍ قامَ للبِرّ بجاهٍ يظلّه أو بمالِ
كلّ يتيمٍ كادَتْ بهِ البأْساءُ لولا رعايةُ الأطفالِ[2]

* وأما «معروفُ الرّصافي» فيرسمُ صوراً لموتِ الأطفال ، ويرى أنَّ موتَهم خسارةٌ لا تعوض ، فربّما يكون فيهم مفكّرون وعقلاء ونوابغَ ، لذا فرعايتهم رعاية لأملِ الأمّةِ ، فيقول من قصيدة عنوانها: «دار تربية الطِّفل» ومطلعها:

أيّ قدسٍ يضمّ هذا البناءُ حَسَدت أرضَه عليه السَّماءُ

ومنها:

ربّ طفلٍ أودَتْ به قلّة الدّرّ على أنَّ أمَّه ثَديَاءُ

(١) ديوان حافظ إبراهيم (ص ٣١٠).
(٢) انظر: ديوان حافظ إبراهيم (ص ٣١١).

أمُّـه مـن أبيـهِ آمَـتْ فـأمسـتْ ينهـكُ البـؤسُ جسمَهـا والشَّقـاءُ

ومنها:

هكـذَا كـانـتِ المـواليـدُ تحيـا ولهـا منـن حيـاتِهـا إفْنَـاءُ

ومنَ اللؤمِ أنْ ترىٰ عندنا الأطفـ الَ تفنـى لأنَّهـم فقـراءُ

علَّ مَنْ لو يعيشُ منهم لأضحىٰ فيـه للنّـاس مـأمـلٌ ورجـاءُ

رُبَّ مَـنْ مـاتَ منهـم مـاتَ معـه شـرفٌ بـاذخٌ لنـا وعـلاءُ

ليـسَ مـوتُ الأطفـالِ هينـاً فقـ ـدْ ينْبـغُ منهـم نـوابـغٌ أذكيـاءُ

ولعـلَّ الطّفـلَ الـذي مـاتَ منهـم مـاتَ عقْـل بمـوتـهِ ودَهَـاءُ[1]

* وللرّصافي صورٌ رائعةٌ يزدانُ بها أدبُ الطِّفل الاجتماعي ، فقد كانتْ عينهُ عين رسَّام ، وريشتهُ ساحرة تأسر الألباب ، وكلماتهُ تجتذبُ القلوبَ ؛ ومن روائعهِ الخوالد صورةُ الأرملة المرضع[2] التي تحملُ طفلَها ، وصورةُ اليتيم في العيد[1] ، وغير ذلك ممّا أتحفتْ به قريتُه أدبَ الطِّفل زاداً في هذا المجال .

* ويمكننا الآن أنْ ننتقلَ إلى جانب أدبي آخر منَ الحياةِ الاجتماعية التي تحدَّثت عن الطِّفل ، حيث نجدُ عند أدباءِ الشُّعراء ، وشعراءِ الأدبِ مشاهدَ رائعةً تمثِّل علاقاتِهم الحميمة بالطِّفل .

* ولعلَّ كثيراً منَ الأدباءِ قد أبدعوا في هذا المجال الإنسانيّ الأليفِ ، فنجدُ «مصطفى صادق الرّافعي» ـ رحمه الله ـ يحفلُ ويحتفلُ بابنتهِ الأولى «وهيبة» ، وقد بلغت عاماً من عمرها ، فيقولُ هامِساً مُداعباً إيّاها :

يـا عـروسَ الشّعـر أهـلاً ثـمَّ أهـلاً بـالنجيبَـة

يـومَ ميـلادكِ عيـدُ القلـ ـبِ يـا بنتـي الحبيبـة

---

(١) ديوان الرَّصافي (ص ١٦٨).

(٢) راجع ديوان الرّصافي (ص ٢١٧) و(ص ٧٤) واقرأ فيه هاتين القصيدتَيْن الجميلتين.

قلـــتُ فـــي تـــاريخـــه زَيّنـــتِ بيتـــي يـــا وهيبـــة

* ونعيشُ هذه اللحظات مع «أحمد شوقي» ، وهو يجعلُ لابنتهِ «أمينة» سجلاًّ حافلاً بأدبِ الطُّفولة ، إذ يخصُّها بستٍّ قصائدَ من ديوانهِ[1] ، وفي ثاني هذه القصَائد يقول حين اكتملت ابنتهُ حولاً ، فيصفُها في هذا العُمر ، ويرسمُ جمالَها في عشرة أبيات منها:

أَمينَتـــي فـــي عـــامِهـــا الأوّ لِ مثـــــلُ المَلَـــــكِ
صَـــالحـــةٌ للحـــبّ مـــنْ كـــــلٍّ وللتَّبـــــرُّكِ
كـــم خفـــقَ القلـــبُ لهـــا عنـــدَ البُكَـــا والضَّحِـــكِ
وكـــم رعَتْهـــا العيـــنُ فـــي السُّـ ـكـــون والتّحـــرّكِ
إنْ مشـــتْ فخـــاطـــري يسبقُهـــا كـــالممســـكِ
ألحظُهـــا كـــأنَّهـــا مـــنْ بصـــري فـــي شَـــرَكِ[2]

* ولما بلغتِ ابنتهُ عامَها الثّاني ، وكانت طفلة «لاهية» نظمَ قصيدة قوامها (١٣ بيتاً) نختارُ منها:

أمينـــةُ يـــا بنتـــي الغـــاليَـــة أهنيـــك بـــالسَّنـــةِ الثَّـــانيـــة
أتـــدريـــنَ مـــا مـــرَّ مـــنْ حـــادثٍ ومـــا كـــانَ فـــي السَّنـــة المـــاضيَـــة
وكم سهرتْ في رضاكِ الجفون وأنـــتِ علـــى غَضَـــبٍ غـــافيَـــة
وكـــم خَلَـــتْ من أبيـــكِ الجيـــوب وليســـتْ جيـــوبُـــك بـــالخـــاليَـــة
وكـــم قـــد شَكـــا المـــرّ مـــن عيشـــهِ وأنـــتِ وحلـــواكِ فـــي نـــاحيَـــة
ويضحـــكُ إنْ جئْتِـــه تضحكيـــن ويبكـــي إذا جئْتِـــه بـــاكيَـــة[3]

* ولشـــوقـــي ـ رحمـــه الله ـ مســـاحـــاتٌ واسعـــةٌ مـــع أولادهِ البنَـــات

---

(١) انظر: الشوقيات (٤/ ٩٧ ـ ١٠٥).
(٢) الشوقيات (٤/ ٩٨).
(٣) الشوقيات (٤/ ٩٩).

والذّكُور[1] ، أضفتْ على الأدبِ الاجتماعيّ الطّفوليّ صُوراً جميلةً فتّانةً.

* ولنا في شاعرِ الشّباب «أحمد رامي» مُثلٌ حلوةٌ في أدبِ الطِّفلِ الاجتماعيّ والأُسريّ ، فهذا الشّاعر الرّقيقُ ، ذو الكلماتِ المِغْناج ، والألفاظِ السّواحرِ ، والمعاني الكَواحِل ، يجدُ في حفيدتهِ الحُلوة رانية كلَّ سلوةٍ في حياته ، فهي عندهُ أمل الدّنيا ، ودنيا الأمل ، حينما يبثُّها لحنَ الغَزَلِ الأبويّ الرّقيق ، بل لحنَ الجدّ للحفيدِ ، وأي لحنٍ أعذب من هذا اللحن الشَّجي النّدي الآسر! ترىٰ ماذا قال أحمد رامي في رانية؟ :

أنــــا أحـــــبُّ رانيـــــة قـــرّة عينــــي الغَـــاليـــة
إذا رأيـــــتُ وجهَهـــــا نسيــــتُ كـــلَّ مـــا بيـــة
أَشتـــــاقُ أنْ أضمّهـــــا وهــــي علــــي حـــانيـــة
للهِ مــــا أجملهــــا حيــــن تكــــونُ راضيـــة
وَمَـــاأرقّ خطـــوهـــا رائحــــةً وغـــاديـــة

* وليعذرنا القارىءُ الكريمُ لو أطلْنا في هذا الفصلِ ، فإنَّ عذرنَا في ذلك أنَّ هذا المجالَ واسعٌ ، وقد طرقَه أدباءُ وشعراءُ الوطنِ العربيّ رجالاً ونساءً ، وحلّقوا فيه ، ورسموا صُورَهُ الحلوةَ على الشِّفاهِ والقلوبِ والأوراقِ لأكبادِنا التي تمشي على الأرض.

* وقد شاركَ شاعرُ الفلاسفةِ وفيلسوفُ شعراءِ العَصْرِ الحديثِ «جميل صدقي الزّهاوي» في أدبِ الطُّفولة الاجتماعيّ والأسريّ ، ورسمَ لنا صورةَ ابنتهِ التي يشبّهها بالزّهرة ، والسِّراج في ليلةِ الأَحْزان ، بل وبالحلمِ ، وبأشياءَ أخرى جميلة نقرؤُها في قوله :

ابنَتي زَهـرتـي فيَـا ربـيّ احفـظْ زَهْــرتـــي مــن كــوارثِ الــزّمـانِ
يـا بنتـي أنـتِ سَلْـوتـي ورجَـائـي وسِـــراجــي فـــي لَيلــةِ الأَحْــزَانِ
حلمي أنتِ في مَنامي وذِكْري حينَ أدنو منْ يقظتي في لسَاني

---

(1) انظر : مثلاً قصائده في ابنه علي في الشوقيات (٤/ ٩٤ و٩٥ و٩٦ و١٠٦ و١٠٧).

* وكان شاعرُ الفيحاءِ «أنور العطَّار» ـ رحمه الله ـ ذا بيانٍ ساحرٍ في أدبِ الطُّفولة في هذا المجال الاجتماعي اللطيف ، فها هو ذا يُناغي طفلتَه الصَّغيرة ، ذات الصَّوت الشَّادي الذي يشبِهُ صوتَ العصفورةِ اللاهيةِ في عشّها ، وهذه الطّفلةُ الأثيرةُ تذكّره بأمِّه ، فلذلك أحبَّها :

بُـنَـيَّتـي عصفـورةٌ شَـاديـة   تلعـبُ فـي عـشِ الصَّبـا لاهيَـة
بُنَيَّتـي لحـنٌ رقيـقٌ سَـرتْ   فـي مهجتـي أفـراحُـه صـافيَـة
إذا تطلّعْـتُ إلـى وجْهِهـا   رأيـتُ أمّـي مـرّةً ثـانيَـة

* وعندما يُرْزَقُ الشَّاعر «نزار قبَّاني» بابنتهِ زينب ، يرى العالَم كلَّه قد تحوّلَ إلى جمالٍ في جمال ، فكلُّ الأشياءِ في العالم حلوةٌ حتى القطط السُّود عندما تموءُ ، فإنَّ مواءها أحلى!! يقول نزار لابنتهِ زينب مخاطباً إياها :

حينَ أحببْتُكِ
صارتْ ضحكةُ الأطفالِ في العالم أحلىٰ
ومذاقُ الخبزِ أحلىٰ
وسقوطُ الثّلج أحلىٰ
ومواءُ القططِ السَّوداء في الشَّارع أحلىٰ .

* ومن أجلِ ضحكةِ الأطفال يدعو «بدوي الجَبَل» ـ شاعر القوافي ـ ربَّه أنْ يصونَ هذه الضّحكةَ ؛ لنستمعْ إلى دعائِه :

وياربِّ مِنْ أجلِ الطُّفولةِ وحدَها   أفضْ بركاتِ السِّلْمِ شرقاً ومغربا
وصُنْ ضحكةَ الأطفالِ يا ربّ إنَّها   إذا غرّدتْ في ظامىءِ الرّملِ اعشبا

* ولكنْ ما ذا يصنعُ الآباءُ إذا مَرِضَ أطفالهنَّ؟!

* إنَّ في أدبِ الشُّعراء وهمساتِ الأدباءِ ما يجعلُ الأدبَ الأسريَّ الاجتماعيَّ غنيّاً بهذا المجالِ ، ولعلَّ من أجملِ صورِ هذا الأدبِ ما نلمسُه من شاعرِ يرىٰ وحيدتَه مريضةً ، وهي سلواه في كلّ شدّة ورخَاء ، والتي

يرىٰ أنَّ شفاءَها شفاءَه ، وحياتَها حياتَه ، إنَّه أحدُ شعراءِ العصرِ الحديثِ «السَّيد عبد المحسنِ الكاظميّ» المتوفىٰ في القاهرةِ سنة (١٩٣٥ م) ، والذي حظيَ من زمانِه بابنته الأديبةِ الأريبة «رباب» ، فقد مرضتْ مرضاً شديداً وهي طفلةٌ في شهرِها الثَّامن ، فكتبَ إلى صديقِهِ الدّكتور محمد لبيب طبيب الأطفال بضعة أبياتٍ من مهجتهِ يدعوه إلى عيادةِ ابنتهِ رباب ، وعلاجها ، تُرَى ما الأحاسيسُ والمعاني التي خطَّها الشَّاعرُ بِيَراعهِ لصديقه ، وأفرغَ من روحهِ على الورقِ ، ليأتي الطَّبيب ، ولينقذَ طفلتَه الوحيدة من براثنِ المرض؟!:

محمَّدُ لا أدعوكَ إلاَّ لذي ضَنى ... شفائي به دونَ الورىٰ وهنَائي
وغيرُ كثيرٍ لو نظرتَ لمهْجَتي ... قليلاً وأسعفتَ الجشَا بدواءِ
نداءُ ربابٍ داءُ قلبي ومهجتي ... وإنَّ شفَاهَا لو علمتَ شِفائي
ثماني شهورٍ قد خَلَتْ سائلاً لها ... ثمانينَ عاماً تنتهي بصَفاء
رجوتُ بقاهَا في الأنام وإنَّما ... بقاءُ ربابٍ في الأنام بقائي
عسَانا نرىٰ منها غداً خيرَ واعظٍ ... لخيرِ رجالٍ أو لخيرِ نساءِ[1]

* ويتابعُ الكاظميُّ هذه الهمساتِ الدَّافئاتِ في أنغامِ أُخَر جميلاتٍ يظهرُ فيها رقَّة الطِّفلةِ رباب ، ويعيذُها منَ المرضِ فيقول:

أعيذُ رباباً أنْ يُسَاوِرها الضَّنى ... وأنْ تشتكي مما طويتُ به طيّا
ولولا ربابٌ ما تركتُ هوىَ الرُّبا ... ولا عفتُ سُعدى الغانيات ولا ريَّا
ولا هجرتْ عيني كَراها ولا لَوتْ ... ضُلوعي بُرَحَاءَ الجوىٰ والأسىٰ لِيَا[2]

* لا شكَ في أنَّ هذه العواطفِ التي سكبَها هذا الأبُ قد انسكبتْ أيضاً في قلوبنا ، لندركَ أنَّ حبَّ الطِّفْلِ لا يعدله حبّ.

* * *

(١) ديوان الكاظمي ، المجموعة الثانية (ص ١٤٢).
(٢) المرجع السابق (ص ١٤٣).



الفصل الثّاني
الطفْلُ وأدبُ الحياةِ الاجتماعيّة عند الشّاعرات

* لعلَّ الذي دفَعني إلىٰ وضْعِ هذا الفَصْل ، ما وجدتُه من مادّةٍ ثرةٍ لطيفةٍ في أدبِ النِّساء الاجتماعيّ الذي يخصُّ الطِّفلَ ، وما للنّساء الأديباتِ ـ في عَصْرنا الحاضر ـ من آثارٍ حِسَانٍ في هذا المجال ، فلقد خلّدت كثيرٌ منهنَّ ذكرياتهنَّ عند طفولتهنّ في أعمالهنّ ودواوينهنَّ ، ولما عدتُ إلى بعضِ إنتاجهنَّ الأدبي في أدبِ الطِّفل الاجتماعيّ والأسريّ ، ألفيتُ أنَّه جديرٌ بالتَّسجيلِ بين دفتي هذا السِّفْر الذي أرجو اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ ينفعَ به الكبار والصِّغار والنّاشئة ، وكلَّ الفئاتِ في عالمنا الرَّحْبِ من الشَّرق والغرب ، كما ألفيتُ ضرورةَ إبرازِ هذا الجانب اللطيفِ من الجنسِ اللطيفِ ، لئلا يبقىٰ في طيّاتِ النّسيان أو زوايا الإهمالِ ، لأنَّه ـ والحقُّ يُقال ـ قد حلَّقَتْ فيه الشَّاعراتُ عالياً في رسمٍ وتصويرِ المشاعرِ الإنسانيّة بأصواتٍ نسائيةٍ دافئةٍ للطّفل ، وربما رسمنْه لأطفالهنَّ وأطفالِ المجتمعاتِ الإنسانيّة ، حيث عبّرنَ عن حبِّهنَّ للأطفال ، ورسمنَ ذكريات الطّفولة بريشةٍ فنيّة تلوَّنَتْ فيها الذّكرياتُ ، وأصداءُ الطُّفولة ، وأحلامُها بينَ الأمسِ والغدِ.

* ولعلَّ خير مَنْ يمثّلُ هذا الاتّجاهَ اللطيفَ أميرة الشِّعر النّسويّ «نازك صادق الملائكة» المولودة في الرُّبعِ الأوَّلِ من القرنِ العشرينِ حوالي سنة (١٩٢٣ م) بينَ أبوينْ شاعرين يعرفان ما للكلمةِ من وقْعٍ في النُّفوسِ والأرواحِ والأبدان.

* وتبدو نازك في بدايةِ حياتها طفلةً أخذتْ منَ الحياةِ بنصيب ، حيثُ تعلَّمت ، ومرَّتْ أيّامُ الطُّفولةِ الحلوةِ مرور النَّسيم في حياتِها ، ممّا جعلَها تحتفظُ بذكرياتها الجميلةِ ، وسذاجتها العذبة لمّا غدَتْ من ذواتِ السِّوارِ وذواتِ ربّات الحِجال ، إذ تبدي الحنينَ إلى الأمْسِ الذَّاهب ، أمس الطُّفولة الممزوجِ بذكريات المجالسِ الحلوةِ ، فوقَ التَّلِّ الحلو الذي تأوي إليه ، أو شرودُهَا بين عبيرِ الشَّذا وأنداء الظِّلال:

أعبـرُ العمـرَ كلَّـه نحـو أَمْسـي ويعـودُ الشُّعـور بـي للتَّـلال
مَجلسٌ فوق تلّي الحلو وحدي أو شـرودي بيـن الشَّـذا والظِّـلال

* وتحفظُ نازكُ من ذكرياتِ أيّامها العذبةِ الحلوةِ المغناجِ ، طفلة اصطفتها لتكونَ صديقةً لها ، وآثرتْها من بين أطفالِ مدرستها بحبِّها ووفائِها ولهوها ولعبِها وخيالها ، وحتّى ذكرياتها فوقَ الرِّمال التي تحلّي نقاء الرمال:

ومعـي الطِّفلـةُ الصِّـديقـةُ نَبْنـي فوقَ وجْهِ الرِّمال عرشَ الخَيال
عمـرُنـا قصَّـةٌ ولحـنٌ نغنّيـ ـهِ وقلبـانِ فـي نَقَـاءِ الـرِّمـال

* وأصداءُ الطُّفولةِ تحكي علىٰ لسانِ نازك أشياءَ جميلة ، فهي لا تعرفُ عن الطِّفلةِ صديقتِها شيئاً الآن ، وتتساءلُ هل تذكرُ تلك الصَّديقةُ أيّامَ الطُّفولة وحلمنا المفقود؟ أمْ تُراها نسيتْ ذلك ونسيتني أنا الأخرىٰ؟ فإذا كانَ ذلك قد حَدثَ منك ، فإنّني لن أنسىٰ مدارجَ الطُّفولة ومهادَ الصّبا:

أيـنَ أصبحـتِ يـا رفيقـةَ أَمْسـي ما الذي قد شهدتِ فوقَ الوجود
أتـرىٰ تـذكـريـنَ مثْلـيَ أيّـا مَ صِبـانَـا وحلمنَـا المفقـود
أمْ ترىٰ قد نسيتني ونسيتِ الأمـ ـس فـي فـرحـةِ الشَّبـاب الـرّغيـد
أبـداً لسـتُ أنسـىٰ وإنْ كنـ ـتُ تهـاويـتُ فـي الـزَّمـانِ البعيـد

* ولعلَّ ذكريات الطُّفولة عند نازك الملائكة من أجملِ ما قدّمته الهمساتُ النّسائيّة لأدبِ الطِّفل في عصرِنا الحاضر ، ففي قصيدتها

«ذكريات الطُّفولة» تذكرُ طفولتَها ، وتتمنّى لو تظلُّ طفلةً ، وأماني عذاب ذابَتْ مع تقادمِ الأيّام . . . لنستمعْ إلى دفءِ الكلماتِ ، وعبيرِ الهمساتِ النّازكيّة التي تقطرُ دفئاً وحناناً ورقّة حيثُ تقول :

لم يزلْ مجلسي علىٰ تلّيَ الرّمـ ـلي يُصْغي إلى أناشيد أَمْسي
لم أزلْ طفلةً سوى أنّني قد زدتُ جَهْلاً بِكُنْهِ عمري ونفسي

* * *

ليتني لم أزلْ كما كنْتُ قلباً ليسَ فيه إلا السَّنَا والنَّقاء
كلّ يومٍ أبني حياتي أحلا ماً وأنسىٰ إذا أتاني المسَاء

* * *

ذهبَ الأَمْسُ لم أعدْ طفلةً تر قبُ عشّ العُصفورِ كلَّ صبَاح
لم أعدْ أبْصِرُ الحياةَ كما كا نت رحيقاً يذوبُ في أقداحي

* * *

لم أعدْ في الشِّتاء أرنو إلى الأمْـ ـطَار من مهدي الجميلِ الصَّغير
لم أعدْ أعشقُ الحمامةَ أنْ غنَّـ ـتْ وألهو على ضفاف الغَدير

* * *

ذهبَ الأمسُ والطُّفولةُ واعتضـ ـتُ بحسّي الرهيف عن لهوِ أمسي
كلُّ ما في الوجودِ يؤلمُني الآ نَ وهذي الحياةُ تجرحُ نفسي

* * *

قد تجلَّتْ لي الحقيقةُ طيفاً غيهبياً في مقلتيهِ جُنون
وتلاشىٰ حُلْمُ الطُّفولةِ في الما ضي ولم يبقَ فيه إلاّ الحنين[1]

* ومنَ النَّفحاتِ الباسماتِ في أدبِ الشَّاعرة نازك ، هذه الأغنيةُ الحلوةُ لطفْلِها ، والتي تزيدُ من رصيدِ أدبِ الطِّفل النِّسائي في همساتهنَّ ، ولن أدعَ

---

(١) انظر: ديوان نازك الملائكة (١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٨) مختارات من قصيدتها «ذكريات الطفولة» ، وهي من ديوانها : «أغنية للإنسان» .

البهجةَ تذهبُ ببهاءِ الكلمات ، فاقرأْ معي هذه الأغنية المغناج لنازك بعنوان : «أغنية لطفْلي» :

مَـامـا مَـامـا مَـامـا مَـامـا بـرّاقُ الحلـو اللثّغـةِ ينـوي النَّـومـا
والنَّـومُ وراءَ الـرّبـوةِ هيّـأ حُلمـا والحُلْـمُ لـه أجنحـةٌ تـرقـىٰ النَّجمـا
والنَّجـمُ لـه شفَـة ويحـبُّ اللثمـا واللثّم سيوقظُ طفلي . . . مَاما مَاما

* * *

بَـابـا بَـابـا بَـابـا بَـابـا برّاقُ الغَافي السَّاهي يسرقُ قَلْبا
والقلبُ سَيُمْرِعُ ينبتُ ورداً رطْبا والوردُ يرشُّ المهد أريجاً عَذْبا
وأريجُ الوردِ لعوبٌ يهوىٰ الوثبا والوثبُ سيوقظُ طفْلي . . . بابا بابا

* * *

دَادا دَادا دَادا دَادا دَادا الحقـلُ مشـوقٌ للخضْـرةِ لا يَهْـدا
والخضرةُ خاويةٌ لا تملكُ وَرْدا والوردُ إلىٰ الحمرةِ مرتعشٌ وجْدَا
والحمرةُ عند صَغيري ثغراً خدّا وسيُضْحي الوردُ صغيري . . دادا دادا[1]

* ولا يخلو الإطراءُ الجميلُ للطفولةِ من رسْمِ الأماني للمستقبل الواعد ، وهذا ما رسمتْه نازك عندما أهدَتْ عذْبَ كلماتِها وهمسَ ألفاظِها إلى طفلةٍ تُدعىٰ «دالية» فقالت :

داليـــــةٌ عـــــذبـــــةٌ غضَّـــــة فــي هُــدْبهــا نَجمــةٌ مُشْــرِقــه
سُمْـــرتُهـــا عَسَــلٌ ســائـــلٌ الحســنُ فــي خــدِّهــا رِقْــرِقَــه
لعلَّهـــا فـــي غـــدٍ نجمـــةٌ تـــزيـــحُ أحـــزانَنـــا المُطبقَـــه
وتــرجــعُ القــدسَ للنَّــازحيــن وتمســـحُ الأدمـــعَ المُحـــرقَـــه

* وكانت نازكُ تعيشُ مع آلامِ الطِّفْل ، ومع مأساةِ الأطفالِ ، ومع دموعهم ، فترسمُ ألواناً جميلةً من نبضِ كلماتها على الأوراقِ تجسِّدُ فيه

(١) ديوانها (٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٤) ؛ و«ماما» تقرأ هكذا «مَمّا» كما ينطقها الطفل العراقي ؛ وذلك تجانس القوافي التالية ؛ وكذلك : «بابا» و«دادا» .

مشاعرها تجاهَ الأطفالِ ، ولعلَّ قصيدتَها «مأساة الأطفال» تشهدُ بذلك ، ونختارُ منها هذه المقطعات الرّائعات :

ودمــوعُ الأطفــالِ تجــرحُ لكــنْ ليـــسَ منهـــا بـــدّ فيـــاللشَّقـــاءِ
هــؤلاءِ الــذيــن قــد مُنِحُــوا الحـــسَّ ومـــا يملكــونَ غيــرَ البُكــاءِ

* * *

فَـإذا مـا بكـوا فـأدمـعُ خُـرسٍ ربّمـا كـانَ خلفَهـا ألـفُ معنـى
ربّمـا كـان خلفهـا الألـمُ القـا تِـلُ أو رغبـةٌ مـع الـرّيـح تفنـىٰ

* * *

ربّمـا ربّمـا ومـا ينفـعُ الظَّـنُّ ونـوحُ الأطفـالِ مـلءُ الحيـاة
وُلـدُوا صـارخيـنَ بيـن يـدِ الأقـ ـدارِ فليصـرخـوا ليـومِ الممـات

* * *

* وتنادي نازك الأطفال بأن يتركوا البكاء والتفجع ، فما يزالون في بداية العمر ، فتقول:

يا جموعَ الأطفالِ يا مرهفي الحِسِّ كفـــاكـــم تفجّعـــاً وبكـــاء
لـم تـزالـوا فـي أوّلِ العُمْـر المرِّ ولأيـــاً ستعـــرفـــون الشَّقـــاء

* * *

لـم تـزالـوا بـراعمـاً لـم تُفَتِّحْـ ـهـا الليـالـي علـى ظـلامِ الحيـاة
فاضحكُوا الآنَ قبلما يزأرُ الهو لُ وتستنســر الهمــوم العــواتــي

* * *

امرحُـوا الآن فـي ظـلالِ أَبٍ يشـ ـقـى وأمٍّ جنَـتْ عليهـا الحيـاة
فغـداً تحملـونَ أنتـم همـومَ الـ ـعيـشِ إذ ذاك تسفـر المـأسـاة

* * *

شيّدوا فـي الـرّمـالِ أبـراجَ أحـلا مِكـم وابسمـوا للَهْـوِ الطُّفـولـة

كلُّ طفلٍ غدا فتىً ضائع الأحـ ـلامِ تحتَ المقادرِ المجهولة[1]

* ولم تكنِ الشَّاعرةُ نازك الملائكة وحدَها في الميدانِ تطلبُ الطَّعنَ والنِّزالَ ، ولكنَّا وجدنا مَنْ يشاركهُا في هذا الميدانِ من بناتِ جنْسها من الكَواعِبِ والأوانِسِ والشَّواعر اللائي أدلينَ دلوهنَّ في هذا المضْمَار ، وتحدثن عن الطفولةِ في أُسَرهِنّ ، وأثرينَ الأدبَ بعواطفَ جميلةٍ ، كعواطفِ الأمومةِ التي تبرزُ واضحةَ التَّعبير الجميل من عواطف الأمومةِ نحو الأطفال ، ذلك الذي نقرؤه في الشّعر النّسوي الزَّاهر عند شاعرة تُدعى: «لَميْعة عبّاس عمارة» المولودة عام (١٩٢٩ م) فتقولُ مخاطبَةً أطفالَها :

بنيَّ صدى حُلمي في الشّروق ... وصورةُ وهْمِ جَلاه الوجودْ
أعزُّ وأنضرُ ممّا حلمتُ ... وأغزرُ عطراً وأحلىٰ خدودْ
بأسمرهم شَهْدُ روحي مُذاب ... وأبيَضُهم منْ صفاءِ الوعودْ

* * *

لضحكاتِهم رنّةٌ في الشُّعور ... وقفزاتهم مرحُ الطَّائِرِ
وأيْديهم كلفيفِ الحرير ... تمرُّ على حسِّيَ الخادرِ
لِكُلّ سناهُ لكلّ شذاهُ ... كأوتارِ قيثارةِ الشّاعرِ

---

(١) انظر: ديوان نازك الملائكة (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٨) باختصار.

وفي قصيدةٍ أخرىٰ تصوِّر نازك مأساة طفلةٍ نائمةٍ في الشَّارع في ليلٍ بهيمٍ ، والبرقُ يكشف جسمَها ، والريحُ تلسعُها ، وطفولتها تنطقُ عن صغر سنّها ، فهي ظمأىٰ للنّوم ، وقد أنهكها البردُ والجوعُ والحمىٰ ، فتقولُ من قصيدة عنوانها: «النّائمة في الشّارع»:

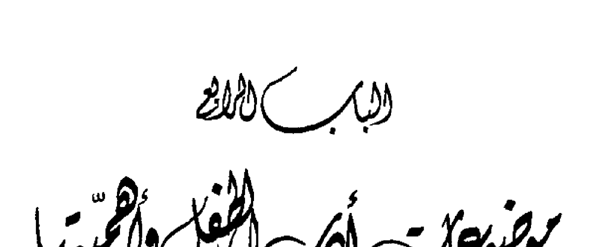
وتظلُّ الطّفلةُ راعشةً حتّى الفجر ... حتى يخبو الإعصارُ ولا أحدٌ يدري
فأيّام طفولتها مرّتْ في الأحزان ... تشريدٌ جوعٌ أعوامٌ منْ حِرمان
إحدىٰ عشرة كانتْ حزناً لا ينطفىء ... والطّفلةُ جوعٌ أزلي تعبٌ ظمأ
ولمن تشكو لا أحد يُنصتُ أو يعنىٰ ... البشريةُ لفظٌ لا يسكنُه معنى
هذا الظُّلمُ المتوحِّشُ باسْمِ المدنيّة ... باسمِ الإحساسِ فواخجل الإنسانية

(ديوانها ٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٢).

* إنَّ الطِّفلَ في حياتهِ الأسريّةِ له ألحانٌ عذبةٌ في أصواتِ شواعرِ العصرِ الحديث ، فهو نغمةٌ حلوةٌ يوقظُها الفجرُ ولألاءُ الصَّباح ، وهو سرورهنَّ عندما تزدانُ في الرّوضِ الأقاحي ، وهو نايهنَّ وزهْرُ راحِهِنَّ ، وهو عبيرُ زهرهنَّ الفوّاح بين أنغامهنَّ وأحلامهنَّ المِراح .

* لقد سحرتهُنَّ ليونةُ الطُّفولةِ وجمالُ الأطفالِ ، إذ الطفولةُ عندهنَّ زهرةٌ أنعشتْ بأريجها المعطّر وجدانهنَّ ، وآنستْ بنضارتها قلوبهنَّ ، فهنّ يرتوينَ من شهدِها عذبَ الفراتِ ، ويستقبلنَ الإلهامَ من براءتِها وصفائِها .

* * *



الفصل الأول : بناء أدب الطفل وأهميـة تنوّعه

الفصل الثاني : الطفل والأدبُ الديـنيّ والحماسيّ

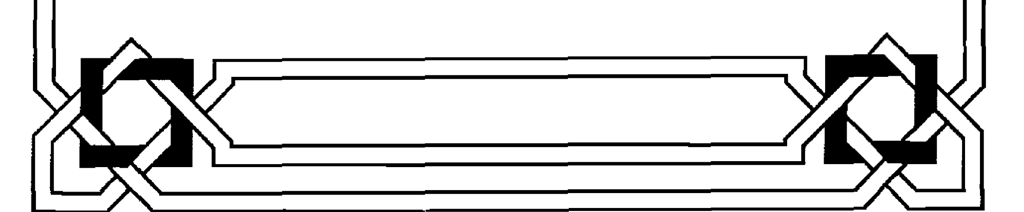
الفصل الثالث : الطفـل وأدبُ الحكاـيـة

الفصل الرابع : الطفـل وأدبُ التعلّم والتعليم

الفصل الخامس : الطفـل وأدبُ الحوار

الفصل السادس : الطفل وأدبُ الألغـاز والأحاجي

الفصل السابع : الطّفل وأدب التـلفزيون



الفصل الأوّل
بناءُ أدبِ الطِّفْل وَأهميّةُ تنوّعهِ

* اهتمّتِ الأممُ بأدبِ الطِّفل على مرِّ الأزمانِ منذ أنْ وُجِدَتِ البشريةُ على ظهرِ الأرض ، ولعلَّ الاهتمامَ بذلك قد بدأَ متدرّجاً حسبَ مراحلِ الحضَارةِ الإنسانيّةِ ، وربما بدأتْ نواةُ أدبِ الطِّفل تعتمدُ علىٰ القَصَصِ والحكاياتِ التي تنتقلُ من جيلٍ إلى جيلٍ مشافَهةً لعدمِ وجود الورقِ والكتابةِ ، إلى أنْ أخذَ أدبُ الطِّفلِ أشكالاً نراها واضحةَ الأبعاد في عصرِنا الحاضرِ ، واحتلَّ السَّاحة في معظمِ نواحي منابتِ الثَّقافات من كتبٍ وإعلام وبرامجَ متنوّعةٍ في الإذاعةِ والتّلفزيون ، وانتشارِ مجلاّت الأَطْفال وما شابَه ذلك ، وأضحىٰ لأدبِ الطِّفل شخصيّةٌ متميزةٌ بين الآدابِ العربيّةِ والعالميّة .

* ويؤكّد كثيرٌ من التَّربويّين المتخصِّصين في مجالاتِ إعداد الطِّفل نفسيّاً وتربويّاً في أنَّ أدبَ الطِّفلِ قد بات ضرورةً لا بدّ منها لطفلِ اليوم ، حيثُ إنّه يساعدُ الأسرةَ في سلاسةِ التَّربيةِ ، وفي البناءِ الحضَاري ، فأدبُ الطِّفلِ المدروس يقدّم ألواناً تربويّةً وسلوكيّةً من خلالِ طرحِ أشكال متنوّعة ، فهو يقدّم ـ مثلاً ـ توجيهات أخلاقيّة وسلوكيّة للطِّفْل ، ويقدّم معلوماتٍ مفيدةً ومعارفَ توسّعُ آفاقَ الطِّفل وتربطه بماضيهِ وحاضِره ، ويُسهمُ كذلك في بناءِ جوانب شخصيّة الطِّفل منَ النَّواحي الاجتماعيّة والنّفسيّة والعقليّة .

* ولعلَّ أدبَ الطِّفْلِ الهادف يعينُ الطِّفلَ في مراحلِ تعليمه الأولىٰ علىٰ القراءة ، وعلىٰ الكتابة ، وعلىٰ التَّعبير السَّليم ، والتَّعلُّم الصَّحيح ، لأنَّ حالات حبّ الاستطلاع ، والميلِ إلى المعرفةِ والتَّعلُّم تبدأُ بالنّمو مع الطِّفلِ الذي يحاولُ تعرّف جوانب ما يحيطُ به من كلِّ شيء ، حيث يبدأُ بالسُّؤالِ عن الموجودات ، ثم يعبّرُ عنها كما سمعَها ثم يبدأُ بالإقبالِ على المعرفةِ والتَّحصيل.

* ومن المعروفِ أنَّ الطِّفل يتأثَّرُ في مرحلةِ نموّه بمؤثراتِ بيئتهِ الاجتماعيّة ، فيقبل ما يتناسبُ مع نموه ، ويرفضُ ما يخالفُ مقدرتَه وإدراكَه اللغوي ، لذا فإنّه يجبُ مراعاة مراحل النّمو ، وتقديم الوجباتِ الأدبيةِ التي تتناسَب مع مرحلةِ نموه وقدراته.

* ومنَ الطّبيعي أنْ نجدَ أنَّ الأطفالَ يختلفون في ميولهم ورغباتِهم ، ودوافِعهم من مكانٍ لآخرِ ، ومن مرحلةِ نموٍّ إلى مرحلةٍ أخرى، فيجبُ الانتباهُ إلى هذا لينشأَ الطِّفلُ وهو يعي الأمورَ بشكلٍ صحيح ، لأنَّ الطِّفل في بدايته يتأثّر بما وبمن حولَه ، ويودُّ معرفةَ ذلك بوسائِله ، ويمكن تقوية شخصيَّته وإعدادها بشكلٍ سليم إذا عَرفَ المربُّون ذلك، وخصوصاً الأبوَيْن، فكلّ ما يقدّمانه للطِّفل يظلُّ أساساً في تربيته، ويستطيعان أنْ يقدّما أدباً للطِّفل يركّزُ على القيمِ الأخلاقيّةِ، والنَّواحي السُّلوكيّة المفيدة الهادفة.

* ولا شكَّ في أنَّ التَّنويعَ في أدبِ الأطفالِ يساعدُ على تنميةِ ميولهم ، والأخذِ بأيديهم إلىٰ مداركِ الجَمال ، ومدارجِ السُّلوك المستقيم ، والتَّربيةِ الصَّحيحة.

* ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينكرَ أنَّ في التَّنويع الأدبيّ للطّفلِ فوائدَ عظيمة ، تجعلُ الطّفل ذا خَيالٍ واسعٍ وتفكيرٍ متوازن ، فعندما نقدّمُ له وجبةً من الأدب الدِّيني ، فإنّنا نغرسُ فيه القيمَ التي أكّدَ عليها القُرآن الكريم ، وعضدته السُّنَّة المطّهرة ، وعندما نُعلّمه شيئاً من النَّظم

التَّعليمي ، فإنّنا نبني بداخله بناء خيِّراً مزوّداً بالمعرفةِ والعِلْم والحضَارة والعلاقاتِ الصَّحيحةِ بالوالدين وبالأسرةِ وما شابَه ذلك ، وإذا ما أهديناه بعضَ الآدابِ التي تُعنى بفنّ أدبِ القصّة ، فإنّنا نهديه قِيماً رائعةً توضِّحُ له الخيرَ منَ الشَّرِّ ، وهكذا دواليك.

* وإذا ما قلّبْنا صفحاتِ التَّاريخ ، وجدنا أنَّ التّنويعَ في أدبِ الطِّفلِ له جذورٌ ثابتةٌ عند الأمم الخاليةِ الغابرةِ ، فاليونانيون مثلاً كانوا يعنون بتعليمِ الأطفالِ الأدبَ والقراءةَ والكتابةَ والرّياضةَ البدنيّة ، وكذلك الدَّولةَ الرُّومانية التي ورثتْ حضارةَ اليونان وثقافتَها.

* وفي مطلع النّورِ وظهورِ شَمْس الرِّسالة المحمديّة ، ظهرَ اهتمامُ المسلمين بهذا الجانبِ ، حيث اهتمّوا بالمعرفةِ وتعليمِ الأطفال القراءة والكتابة؛ ففي غزاةِ بَدْرٍ كان يجبُ على كلّ أَسيرٍ مشركٍ أنْ يعلِّم عشرةَ أطفالٍ من أبناءِ المسلمين أصولَ القراءةِ والكتابةِ ، وتطوّرَ تعليمُ الأطفالِ فيما بعد بقليل إلى تعلُّم السِّباحةِ والرّمايةِ وركوبِ الخيل ، وروايةِ أدبِ العرب وأشعارهم وكريمِ خلالهم وجميل محامدهم.

* ولذلك تنبَّه كثيرٌ منَ المهتمّين الآن بأدبِ الطِّفْل بتنويع عرض شتّى ألوانِ المعرفة وفي مقدمتها: الموضوعات الدّينية والتّعليميّة والاجتماعيّة والوطنيّة والقَصصيّة والمسرحيّة وما شابهَ ذلك؛ وأخذَ الشُّعراءُ المهتمّون بأدبِ الأطفالِ يتبارون في هذا الميدانِ الذي انجلىٰ عن أجملِ الآدابِ التي تخدمُ الطِّفل ، والتي جاءتْ في قوالبَ متنوعةٍ ما بين شِعْرٍ قَصصي ، ومناغاةٍ ، وتعليمٍ ، ومَثَل ، وغير ذلك.

* ولكنَّ هناك حقيقة يجبُ أنْ نقولَها ، وأرجو أنْ تُؤْخَذَ بعينِ الاعتبار لأنَّها منَ الواقع الذي يخصُّ الطِّفل ، كلّ طفلٍ على هذه الأرض: إنَّ الطِّفلَ يريدُ شَيئاً ، والمربّون والشُّعراء والمجتمعُ يريدون له شيئاً آخر ، وفي النِّهايةِ ينتصرُ هؤلاءِ جميعُهم علىٰ الطِّفل ، ويقدّمون له وجباتٍ ثقافيةً ينبغي أنْ يتعلَّمها.

* يجبُ علينا ألاَّ نُغْفِلَ نفسيّةَ الطِّفل ومراحلَ نموّه ، وبيئته الاجتماعيّة والثَّقافية ، كما يجبُ علينا احترام ميول الطِّفل ونزعاته عندما نقدّم له المناهجَ التّربويّة والأدبيّةَ المتنوّعة ، فقد يرغبُ في بعضها ، وقد يرفضُ بعضَها ، ويمكن لنا في هذه الحالِ أنْ نعلِّمَه عن طريق هوايته بالتَّشويق المثير ، واجتذابه إلى حياضِ المعرفة بالإثارةِ والتَّساؤل والتَّرغيب ، أو ما يتوافقُ مع نفسيته.

* فنحن نقدِّمُ المعرفة إلىٰ الطِّفل ، كما نقدّم إليه الدّواء ، والأطفالُ بشكلٍ عام ينفرون منَ الدَّواء ولا يحبّونه ، ولا يدركون نفْعَه في شفائِهم ، وقد يرفضون تناولَه بالبكاءِ والصَّخب والعِناد ، وهناك تلجأُ الأسرةُ إلىٰ الوسيلةِ النَّاجعة في تقديمِ الدَّواء وإقناع الطِّفل به ، فتخلطه بشيءٍ من الحلوىٰ ، أو تَعِدُ الطفل بشيءٍ يحبّه ، أو ربّما تغني له الأمّ مقْطَعاً ليسترخي ويتقبّلَ الدَّواء.

* ولذا عندما عزمتُ علىٰ كتابةِ هذا البابِ وهذه الفصول ، تردَّدتُ كثيراً في بادىء الأمْر للأسبابِ السَّابقةِ التي ذكرت ، ثم آثرتُ أنْ أعرضَ بعضاً منَ المواضيع الأدبيّة[1] التي عُنِي بها الشُّعراءُ والمربّون في مجالاتٍ مختلفة قد تفيدُ أطفالنَا الأعزّاء ، وتكون مفتاحاً لكلّ مسؤولٍ عن طفلٍ من أبٍ أو أمّ أو مُربٍّ أو معلّمٍ ، وعسىٰ أنْ يكونَ في ذلك بعض الفائدةِ ، وبالتَّالي نكونُ قد حقَّقنا شيئاً من رغباتِ الأطفالِ في ميدانِ الأدب في عددٍ من الألوانِ النَّافعة متعدّدة الأغراض.

---

(١) من المؤكّد أنّه كلّما ارتفعنا بمستوىٰ أدبِ الطّفل ، وأصبحَ في متناولِهم ، اقتربنا منَ الطّريقِ الصَّحيحِ نحو طفولةٍ سوية ، لأنَّ أدبَ الأطفالِ يشكّل وجدانَ الطّفل ، وينمّي عواطفه ، ويساعده على ضبطِ انفعالاتِه ، ويُسْهِم في نمو لغته ، وإمداده بالمعلومات المفيدةِ النّافعة. كما أنّه يجبُ علينا أنْ نقدّم له التّلوين المعرفي على شكل نشيد ، أو قصّة شعرية ، أو حكمة ، كيما نربّي عنده عملية التَّذوق الأدبي.

* وفي الفصول[1] التَّوالي نتحدَّث عن بعض الموضوعاتِ والألوانِ الأدبيّةِ التي تساهِمُ في شدّ أزْرِ الطِّفل في مختلفِ المجالات. وها نحنُ مرسلو العقولَ فيها بإذن الله.

* * *

(١) رجعنا في بناء هذه الفصول إلى عدد كبير من المصادر والمراجع ومن أهمها كتاب: الطفولة في الشعر العربي والعالمي، وغير ذلك كثير من الدواوين والمجلات.

الفصل الثّاني
الطِّفْل والأدبُ الدِّيْنيّ والحماسيّ

* أدبُ الأطفالِ الدِّينيّ والحماسيّ هو الذي يركّزُ علىٰ تعليم الطّفلِ العقيدة الإسلاميّة ، وتوضيح الجوانب التي تبيّنُ قدرةَ الخالقِ عزَّ وجلَّ ، وتحثُّ الطِّفلَ على الإيمانِ الصَّادق والتّمثُّل بهِ ، والعمل بمقتضاه.

* ولهذا الأدب بضعةُ أغراضٍ منها: التَّركيزُ على التَّوحيدِ ، وإظهارُ قضيّةٍ من قضايا الدِّين ، أو بيانٌ عظمةِ الخالقِ ، أو بيانُ أثرِ الإيمان على السُّلوك والقِيم الإنسانية ، من مثلِ الصِّدق ، والأمانة ، والتّعاون؛ ومن الأغراضِ المهمّة أيضاً إظهار موقفٍ من مواقفِ السِّيرة النَّبوية الشَّريفةِ أو الصَّحابة الكرام.

* وقد برزَ الجانبُ الدِّيني في شعْرِ الطُّفولةِ بشكلٍ واضحٍ في العَصْر الحديثِ ، فقد توجَّه الأدباءُ إلىٰ إيقاظِ الجانبِ الوجدانيّ الرّوحيّ عندَ الأطفالِ نحو خالِقهم ، ونحو والديْهم ، وعلاقاتِهم مع الآخرين.

* ومن أمثلةِ ذلك ما نظَمه الشَّاعر «يحيىٰ حاج يحيىٰ» في إحدىٰ منظوماتِه للطّفلِ تحت عنوان: «اللهُ خالقُ النُّجوم» ، وفيها بيانُ عظمةِ الخالقِ وعددِ مخلوقاته فيقول:

هـذا النَّجـمُ مَـنْ عـلاّه ... اللهُ تعـالـىٰ مـولاه
قـد زيَّنـه بـالأضْـواء ... فغـدا مصْبَـاح الظُّلمـاء
ودليلاً يهدي الحيرانا

* ومن الأناشيدِ الأدبيّةِ الهادفةِ التي تربطُ الطِّفلَ بخالقهِ هذا الدُّعاء الممزوج بالمُناجاة ، والذي يتحدَّثُ عن اللهِ الرَّحيمِ الغافرِ المبدعِ الذي أنزلَ القرآنَ وهدىٰ كلَّ مخلوقٍ إلى حياتِه:

رحمـــــاكَ يـــــا ربّـــــي رحمـــــاكَ يـــــا ربـــــيّ
يــــا غـــافـــرَ الـــذَّنْـــب يــــا قـــابـــلَ التَّـــوب
خــــالـــقَ الإنســـــان يــــا مبـــدعَ الأكـــــوان
يــــا مُنــــزِلَ القُـــرآن ريحـــــانـــــةَ القَلْـــــب
يــــا هـــــادي الطَّيـــــرِ لمنـــــابـــتِ الخيـــــر
اجعـــــلْ خطـــىٰ سَيـــري دومـــــاً علـــى الـــدَّرب

* ومن الأناشيدِ الجميلةِ أيضاً في هذا المضْمار هذه الأهزوجة:

يــــا إلهـــي يـــا إلهـــي يــــا مجيـــبَ الـــدَّعـــوات
إنّنــــي طفـــلٌ مجـــدٌّ ومـــؤدٍّ واجبـــاتـــي
اجعـــلَ اليـــومَ سعيـــداً وكثيـــرَ البـــركَـــات
وأعنّـــي فـــي دُروســـي وأعنّـــي فـــي حيـــاتـــي
واحمنـــي واحْـــمِ بـــلادي مـــن شـــرورِ الحـــادثـــاتِ
واملأ الـــدُّنيـــا ســـلامـــاً شـــاغـــلاً كـــلَّ الجهـــات
يـــا إلهـــي يـــا إلهـــي يـــا مجيـــبَ الـــدَّعـــوات

* وقد حفلت كتبُ الأطفالِ بكثيرٍ منَ الآدابِ الدِّينيّةِ والحماسيّةِ الموجّهةِ للطِّفل ، وإثارةِ عواطفة تجاهَ أبويه وطاعتهما ، وتبيان ما عاناه الأبُ من مشقّةٍ ، والأمُّ من آلامٍ في سبيلِ تحقيقِ سعادةِ طفلهما ، ومن هذه الآدابِ الحلوةِ الهادفةِ أنشودة عنوانها «طاعةُ الله والولدَيْن» وفيها خطابٌ مباشرٌ للطِّفلِ ، ترىٰ ما الأشياء التي اشتملتْ عليها هذه الأنشودة الحلوة؟ حسَناً لنستمع:

أطـــعِ الإلـــهَ كمـــا أَمَـــرْ وامـــلأْ فـــؤادَكَ بـــالحَـــذرْ

الـــدِّيـــنُ حـــقٌّ واجـــبٌ نـــورُ البصيـــرةِ والبَصـــرْ
حـــافـــظْ عليـــهِ فـــإنَّـــه نِعْـــمَ السَّعـــادةُ تُـــدَّخَـــرْ
وأطـــعْ أبـــاكَ فـــإنَّـــه ربَّـــاكَ مـــن عَهْـــد الصِّغَـــرْ
واخضـــعْ لأمِّـــك أَرْضِهـــا فعقـــوقُهـــا إحـــدىٰ الكُبَـــرْ
حملَتْـــكَ تسعـــةَ أشهـــرٍ بيـــن التَّـــألُّـــم والضَّجَـــرْ
فـــإذا مـــرضـــتَ فـــإنَّهـــا تبكـــي بـــدمـــعٍ كـــالمَطَـــرْ
فـــأطِعْهُمـــا وقِّـــرهُمـــا كيـــلا تعـــذَّب فـــي سَقَـــرْ

* وهذا الشَّاعر السُّوري «مصطفىٰ عِكْرمة» يعطي من أنفاسِه الأدبيّةِ اللطيفةِ أناشيد مندّاة برحيقِ الإيمانِ لأطفالِ المسلمين ، من هذه الأناشيدِ الحُلوة أنشودة بعنوان «أنا في الدِّين إنْسان» حيثُ يوجِّه نظرَ الطِّفل إلى الإيمانِ والقرآنِ ، وإلى تراثهِ التَّليد ، وأجدادِه الذين صانوا الحقَّ ، وهو فرعٌ منْ تلك الدَّوحة الباسقةِ فيقول:

أنـــا فـــي الـــدِّيـــن إنســـانُ لـــهُ الأكـــوانُ أوطـــانُ
ولـــي فـــي النَّـــاس مُعْتَقَـــدٌ يميّـــزُنـــي وإيمـــانُ
لأسمـــىٰ العيـــشِ ينقلُنـــي بـــأسنـــىٰ الفكْـــر قُـــرآنُ
ويجمعُنـــي بـــأجـــدادٍ لهـــم فـــي الـــدَّهْـــر سُلطـــانُ
لِمَجْـــدِ الـــدِّيـــن قـــد ضحّـــوا ومـــا ذلُّـــوا ولا هـــانُـــوا
وصَـــانـــوا الحـــقَّ فـــي الـــدُّنيـــا وأصـــلُ الحـــقِّ قـــد كـــانُـــوا
إليْهـــم ينْتَهـــي نَسبـــي وتتلـــو الجـــذْرَ أغْصـــانُ

* ومن همساتِ مصطفى عكرمة الأدبيّة للأطفالِ ، هذه الأنشودةُ الخفيفةُ الحُلوة ، التي تلفتُ أذْهانَ الأطفالِ إلى قدرةِ الله عزَّ وجلَّ ، من خلالِ إرشادِ الأطفالِ إلى بعضِ المشاهدِ من حولهم تشتركُ فيها حواسُّهم ومشاعرهم وعقولُهم ، وفي أهزوجتِه «ما أعظم الله» يتبيَّنُ لنا مصداق ما قُلناه:

الليلُ والنَّهـار والبـرُّ والبحـار جميعُهـا تُشيـر لقـدرةِ الإلـه
الشَّمسُ والهواء والطَّيرُ في الفضاء جميعُهـا تُشيـر لقـدرة الإلـه

وهـذه الميـاه تجـدِّدُ الحيـاة   مـن خيـرِهِ الكثيـر وفضْلِهِ الكبيـر
وكُـلّ مـا تـراه يعيشُ فـي هُـداه   مـا أعظـمَ الإلـه وأكـرمَ الإلـه!

* إنَّ أدبَ الطِّفل الدِّيني والحماسي جميلٌ إذا ما خاطبَ عقليّةَ الطّفلِ مباشرةً، فهذا الشّاعر «معروف الرّصافي» الذي كان كالهزّارِ الغرّيدِ، يلجأُ إلى صورٍ حسيّةٍ جميلةٍ، يلفتُ فيها نظرَ الطِّفلِ بشكلٍ مباشرٍ إلى اللهِ تعالى، وعرّفَ الأطفالَ في العالَم كلِّه مقدرةَ الله منْ خلالِ رسْمِه بالكلماتِ الحلوةِ للشَّجرة، ولما تحمله من فوائدَ كثيرةٍ، ثمَّ إنَّه بعد ذلك يعرِّفُ الطِّفلَ علىٰ الموجوداتِ الحسيّةِ منْ حولهِ كالشَّمسِ، والليلِ، والجبلِ، والقمرِ، والغيوم، والمطرِ، والرّياضِ النَّضرةِ، والفراشةِ الجميلةِ، ثم يعمدُ بعدها إلى النَّفْسِ البشريةِ، ويلفتُ عقْل ونظرَ الأطفالِ كيما يفكّر في نعمةِ البصرِ، وقوّة التّفكير، وكلّ هذه الأشياء يرصفُها هذا الرّصفَ المؤثِّر الآسر في منظومتهِ الشَّهيرة «الله» مخاطباً الطِّفل، مؤكّداً على لفظِ «انظرْ» كيما يحرّكَ كوامنَ التّفكيرِ والتّأمُّل عند الطِّفل، وليلفتَ نظره لما حوله بهذه الكلمةِ البسيطةِ المعبّرة «انظُرْ» ولنستمعْ إليه حيثُ يقول:

انظـرْ لتلـكَ الشَّجـره   ذاتِ الغُصـونِ النضـره
كيـفَ نَمـتْ مـنْ بـذرةٍ   وكيـفَ صَـارتْ شَجَـرَه
فـانظـرْ وقُـلْ مَـنْ ذا الـذي   يخـرجُ منْهـا الثَّمـره
وانظـرْ إلـىٰ الشَّمـس التـي   جـذْوتهـا مُسْتَعـره
فيهـا ضيـاءٌ وبهـا   حـرارةٌ منْتَشـره
مَـنِ الـذي كـوَّنَهـا   فـي الجـوّ مثْـل الشَّـرره
وانظـرْ إلـىٰ الليـلِ فَمَـنْ   أوْجَـدَ فيـه قَمَـره
وزانَـه بـأَنْجُـمٍ   كـالـدُّرر المنتشـره
والطّـود مَـنْ طـوَّده   والبَحْـر مَـنْ ذا سَجَـره
والـرّيـحُ مَـنْ أرسلَهـا   والمـاءُ مَـنْ ذا فجَّـره
وانظـرْ إلـى الغيـمِ فَمَـنْ   أنـزلَ منـه مَطَـره

فصيَّـــــر الأرضَ بــــهِ بعـــد اغْبِـــرارٍ خَضِـــره
وانظـــرْ إلـىٰ الـرَّوض فمَـنْ نـــوَّع فيـــهِ زَهَـــره
وانظـــرْ بـــهِ فـــراشــةً صـــاعـــدةً منحـــدرَه
جنـــاحُهـــا يشبـــهُ فـــي خطـــوطـــهِ المُستَطـــره
ديبـــاجـــةً مـــوشيـــةً تنشـــرُهـــا كـــالحبـــره
فـانظـرْ وقُـلْ مَـنْ ذا الـذي أوجـــدَ هـــذي الحشـــره
وانظـــر إلـــىٰ المـــرءِ وقُـــلْ مَـــنْ شـــقَّ فيـــهِ بَصَـــره
مـــنْ ذا الـــذي جهَّـــزَه بقـــــوةٍ مفتكـــــره
ذاكَ هـــو اللهُ الـــذي ويـــلٌ لمـــن قَـــدْ كفَـــرَه
ذو حكمـــةٍ بـــالغـــةٍ وقـــدرةٍ مُقْتَـــدره

* ومن الأناشيد الحماسيّةِ التي تربطُ الطِّفلَ بفرسانِ الصَّحابةِ وأبطالِ المسلمين أنشودة للدكتور «أحمد حقي الحلي» عن خالد بنِ الوليد حيث يقول:

يـــا بطـــلاً ليعـــربِ ومَـــنْ سَمَـــا للشُّهـــبِ
روحـــك فينـــا لـــم تـــزل يـــا خـــالـــداً لـــم تَغِـــبِ
يـــا قـــائـــداً أفعـــالُـــه بـــاتـــتْ حـــديـــثَ العَجـــبِ
فـــي الحـــربِ كنْـــتَ دائمـــاً منتصـــراً لـــم تَغـــبِ
قـــد كنـــتَ سيفـــاً قـــاطعـــاً ولـلـــرّدى لـــم تَهـــبِ
بـــكَ البـــلادُ افتخـــرتْ وأنـــتَ فخـــرُ العَـــربِ

* ولشاعرِ الطِّفولة مصطفى عكرمة حماسيّات أدبيّة جميلة تُذكي روحَ الطِّفل، ومنها ما جاءَ في ديوانِه «فتىٰ الإسلام» حيثُ يثني علىٰ أطفالِ المسلمين وفتيانِهم فيقول:

فتـــى الإســـلام يـــا أمـــلاً بـــهِ الأيَّـــامُ تبتســـمُ
ويـــا حلمـــاً تَمنَّتْـــه بـــلادٌ ضحكهـــا أَلَـــمُ
فتـــى الإســـلامِ يـــا نـــوراً تغيـــبُ إذا بـــدا الظُّلَـــمُ

أرىٰ الأكـــوانِ فـــي شـــوقٍ إليـــكَ وأنـــتَ شـــوقهـــمُ
وحـــاجتُهـــا إلـــى قِيَـــمٍ وتُـــرجـــىٰ عنـــدكَ القيـــمُ

* وهذا البابُ واسعٌ لا يُحْصَرُ في فَصْلٍ من فصولِ هذا الكتاب ، ولكنْ فيما أوردناه كفاية.

* * *

الفصل الثَّالث
الطِّفْلُ وأدبُ الحكاية

* إذا أردنا أنْ نوجزَ معاني أدبِ الحكايةِ في عبارةٍ مبسّطةٍ لقلنا: إنَّ أدبَ الحكايةِ أقصرُ طريقٍ للدُّخولِ لقلبِ الطِّفل، ذلك أنَّ الحكايةَ أو الأقصوصةَ نثريّة كانت أمْ شعريّة هي فنٌّ أدبيٌّ رفيعٌ ولطيفٌ بآن واحد.

* ولعلَّ أدبَ الحكايةِ قد اتَّخذَ شكْلاً رائعاً في العَصْر الحديثِ حينما وجدتِ الطّفولةُ طريقاً سهلاً إلى مكنوناته، فأخذتْ منَ الحكاية عبرتها وخيالها وحكمتها، كما أخذت من النَّظمِ رقّته وجماله وعذوبةَ موسيقاه.

* ولعلَّ منْ أجملِ الحكاياتِ في هذا المجالِ، ما نظمه «أحمد شوقي» للطِّفل، إذْ أدركَ أنَّ أدبَ الحكايةِ من أقوىٰ الأساليبِ التي يَعْرِفُ بها الطِّفل الحياةَ على طبيعتها، بالإضافةِ إلى أنَّ أدبَ الحكايةِ من أرقِّ وسائل غرسِ القيم الأخلاقيّةِ والتّعليميّةِ في الطِّفل عن طريق التَّسليةِ، وبه يكتشفُ مواطن الخطأ والصّواب في المجتمعِ، ويرشدُهُ إلى حقيقةِ ما في الحياةِ من خيرٍ أو شرّ.

* وكان أحمد شوقي قد خصَّ جزءاً كبيراً من أشعارهِ لأدبِ الحكاية، وفي الجزء الرّابع من الشَّوقيّاتِ مساحةٌ واسعةٌ لأدبِ

الحكايات[1] ، حيث بدأها بحكايةٍ عنوانها: «أنتَ وأنا» ، وانتهت بحكاية عنوانها «الثَّعلب وأمُّ الذئب». ومن الحكاياتِ الجميلةِ حكاية بعنوان: «الشَّاة والغُراب» تحيك قصَّة شاةٍ فَقَدَتْ ابنها ، ومرَّ بها غرابٌ ، وأخذَ يهذي بالكلام ، فجاءَ مَنْ أخبرَ الشَّاة بأنَّ الذَّئبَ افترسَ ابنها ، فقالت حكمةً مشهورةً: إنَّ وجْهَ الغرابِ مشؤومٌ ، فتعالوا الآن نقرأ هذه الحكاية الحلوة حتى نتعرَّف أخبار الشَّاة والغُراب:

مـــرَّ الغـــرابُ بشـــاةٍ ... قـــد غـــابَ عنهـــا الفَطيـــم
تقـــولُ والـــدَّمـــعُ جـــارٍ ... والقلـــبُ منهـــا كليـــمُ
يـــا ليـــتَ شِعْـــري يـــا بُنـــي ... وواحـــدي هـــلْ تـــدومُ
فقـــال يـــا أمّ سعـــدٍ ... هـــذا عـــذابٌ أليـــمُ
لكـــلّ يـــوم خطـــوبٌ ... تكفـــي وشغُـــل عظيـــمُ
وبينَمـــا هـــو يَهْـــذي ... أتـــىٰ النَّعـــي الـــذَّميـــمُ
يقـــولُ خلّفْـــتُ سعـــداً ... والعظـــمُ منـــه رميـــمُ
رأىٰ مـــنَ الـــذِّئـــب مـــا قَـــدْ ... رأىٰ أبـــوهُ الكـــريـــمُ
فقـــال ذو البَيـــن لـــلأ ... مّ حيـــنَ ولَّـــت تهيـــمُ
ألـــمْ أقـــلْ لـــكِ تـــوّاً ... لكـــلّ يـــوم همـــومُ
قـــالـــتْ صـــدقـــتَ ولكـــنْ ... هـــذا الكـــلامُ قـــديـــمُ
فـــإنَّ قـــومـــي قـــالـــوا ... وجْـــهُ الغـــرابِ مَشْـــؤومُ[2]

* وهذه حكايةٌ أخرىٰ بعنوان «سُليمان والطّاووس» تحكي قصَّة الطَّاووسِ المغرورِ ، وحكمة سُليمان الذي أدركَ غرورَ الطَّاووسِ وكبرياءَه ، وصلفَه وزهوَه فقال حكمةً له مشهورة ، سنعرفُها فيما يلي:

سمعـــتُ بـــأنَّ طـــاووســـاً ... أتـــىٰ يـــومـــاً سُليمـــانـــا
يجـــرِّرُ دونَ وفـــدِ الطَّيـــ ... ـــر أذيـــالاً وأَرْدَانـــا

(١) انظر الشوقيات (٤/ ١١٩ ـ ١٦٨).
(٢) الشوقيات (٤/ ١٤١).

ويظهـــرُ ريشَـــه طـــوراً ويخفـــي الـــرِّيـــشَ أحيـــانـــا
فقـــالَ لـــديَّ مســـألـــةٌ أطـــنَّ أوانَهـــا آنـــا
وهـــا قَـــدْ جئـــتُ أعـــرضُهـــا علـــىٰ أعتـــابِ مـــولانـــا
أَلَـــمْ أصبـــحْ ببـــابكـــم لجمـــعِ الطَّيـــر سُلطـــانـــا
فحســـنُ الصَّـــوتِ قـــد أمســـىٰ نصيبـــي منْـــه حِـــرمـــانـــا
فمـــا تيمْـــتُ أفئـــدةً ولا أسكـــرتُ آذانـــا
وهـــذه الطَّيـــرُ أحقـــرُهـــا يـــزيـــدُ الصَّـــبَّ أشجـــانـــا
وتهتـــزُّ الملـــوكُ لـــه إذا مـــاهـــزَّ عيـــدانـــا
فقـــال لـــه سُليمـــان لقـــد كـــانَ الـــذي كـــانـــا
تعـــالـــتْ حكمـــةُ البـــاري وجـــلَّ صنيعـــهُ شَـــانـــا
فلـــو أصبحـــتَ ذا صـــوتٍ لمـــا كلَّمْـــتَ إنســـانـــا[1]

* وهذه حكايةٌ أخرىٰ على شكلِ حوارٍ يدورُ بينَ نعجتَيْن: إحداهُما سمينةٌ، والأخرى هزيلةٌ عظامُها بادية، تُرىٰ عن أيّ شيءٍ تمخّضَ حديثُهما؟!

كـــانَ لبعـــضِ النَّـــاس نعجتـــان وكـــانَتـــا فـــي الغَيـــطِ تَـــرعيَـــان
إحـــداهمـــا سمينـــةٌ والثَّـــانيـــة عظـــامُهـــا مـــن الهُـــزَال بـــاديـــة
فكانتِ الأولىٰ تباهي بالسِّمَنْ وقـــولهـــم بـــأنَّهـــا ذاتُ الثَّمـــنْ
وتـــدّعـــي أنَّ لهـــا مقـــدارا وأنّهـــا تستـــوقـــفُ الأَبْصـــارا
فتصبـــرُ الأخـــتُ علـــى الإذلالِ حـــاملـــةً مـــرارةَ الإدلالِ
حتـــى أتـــىٰ الجـــزَّارُ ذاتَ يـــوم وقلَّـــبَ النَّعجـــة دونَ القـــوم
فقـــالَ للمـــالـــكِ أشتـــريهـــا ونَقَـــدَ الكيـــسَ النَّفيـــسَ فيهـــا
فـــانطلقـــتْ مـــن فـــورِهـــا لأختِهـــا وهـــي تشـــكُّ فـــي صـــلاحِ بختِهـــا
تقـــولُ يـــا أختـــاهُ خبّـــرينـــي هـــلْ تعـــرفيـــنَ حـــامـــل السِّكّيـــن
قالتْ دعيني وهزالي والزَّمنْ وكلّمـــي الجـــزَّارَ يـــا ذاتَ الثَّمـــن

---

(١) الشوقيات (٤/ ٥٤ و١٥٥).

لكلِّ حالٍ حلوها ومرّها ... ما أدَّبَ النَّعجةَ إلا صبرُها[1]

* ومن أجملِ الحكاياتِ اللطيفةِ تلك الأنشودة التي تحكي قصّة «الطِّفل والنَّهر» ، وما دارَ بينهما من حوارٍ مُمتع ، يُظْهِرُ براءةَ الطُّفولة وعبثَها اللاهي ، فتعالوا ـ أحبّائي الأعزاء ـ نستمعُ إلى همساتِ الطِّفل الذي يحملُ زورقاً من ورقٍ ويقولُ:

أيّها النَّهرُ لا تَسِرْ ... وانتظرني لأتبَعَك
أنا أخبرتُ والدي ... أنّني ذاهبٌ مَعَك
فانتَظرني لأتبعَك

أنا أحضرتُ مركَبي ... هو يا نهرُ منْ وَرق
ادْنُ يا نَهْرُ إنَّني ... لستُ أخشىٰ منَ الغَرق
فانتظرني لأتبعَك

فجرىٰ النَّهُر مسرعاً ... ومضىٰ ثمَّ لم يَعُدْ
صرخَ الطِّفلُ قائلاً ... بعدما المركبُ ابتعد
ليتَني ليتَني معَك

* هذا وأدبُ الحكايةِ من آكدِ الآدابِ وأوثقها ، إذ هو يأسرُ قلوبَ الأطفالِ عندما نسمعُهم بعضَ فنونهِ ، وكثيراً ما يتمنّى الأطفالُ بأنْ لا تنتهي تلك الحكاية ليستمرَّ معها في المُتعةِ والجمالِ ، فما أحرانا أنْ نعزِّز هذا الجانب ونعمل على تنميته!! . . .

* * *

(١) الشوقيات (٤/١٥٨).

الفصل الرَّابع
الطِّفْلُ وأدبُ التَّعلُّم والتَّعليم

* نلاحظُ في مرحلةِ الطّفولةِ أنَّ خيالَ الطفلِ قد يكون حادّاً ، إلا أنّه محدودٌ ومرتبطٌ في بيئتِهِ وواقعهِ ، ويمكنُ أنْ يتخيَّل مثلاً لعبته كائناً حيّاً يتحدّث إليها ، ويلعبُ معها ، وهذا الخيالُ له دورٌ في نموّ الطِّفل؛ ومهمّة أدبِ الطّفل أنْ يستغلَّ هذا النَّوع من الخيالِ ، ويستفيدَ منه في التَّعليمِ والعِظة ، وتقويةِ الجانب اللغويّ والمعرفيّ أيضاً ، إذ هو يساعدُ في نموّ إدراكه وقدراتهِ العقليّة ، ويزيدُ من حصيلتهِ اللغوية والمعرفيةِ.

* والطِّفْلُ في مرحلةِ الطُّفولةِ المبكِّرة يفهمُ ألفاظاً وجُملاً وعباراتٍ أكثر منِ الحصيلةِ اللغويةِ ، ويبدأُ في نموّه اللغويّ من هنا ، حيثُ يتعلّمُ ما يحيطُ به منْ أفعالٍ وأسماءَ وصفاتٍ ، ثم تظهرُ لديه القدرةُ على التّفكير والتَّعبير والنّطق ، وبالتّالي يمكن أنْ نغرسَ فيه الأهدافَ التَّربويةَ المفيدةَ من خلالِ الآدابِ الفاضلةِ التي نغرسُها فيه ، وتحملُ طابعَ التَّعليم أو الموعظةِ ، أو التَّضحيةِ.

* وقد حرصَ الأدباءُ والشُّعراء في عالمنا العربيّ أنْ يبنوا للطِّفل صُروحاً منَ الخيرِ مزوَّدةً بألوانِ المعرفةِ العلميّةِ والتّعلميّةِ والنَّظريّةِ في شتّى الحقولِ والميادين ، وانطلاقاً من حبِّهم للطِّفل ، وإيمانهم بأنَّه ركنٌ مهمٌّ منْ أركانِ حضارةِ الأُمّة ، وعملوا على تغذيةِ فكْرِ الطِّفْل بشتّى ألوانِ المعرفةِ ، بأسلوبٍ لطيفٍ بسيط ، يدخل قلوبَ الأطفالِ ، ويعزّزُ كيانَهم ، ويثري معارفَهم.

* من ذلك أنْ يعرفَ الطّفْلُ ـ مثلاً ـ فصول السَّنة ، كما فعلَ الشَّاعر «كمال رشيد» في هذه الأهزوجةِ بعنوان «الفصول الأربعة»:

أمْطِري يا سَماء أجْزلي في العَطاء
أبرقي أَرْعدي جاءَ فَصْل الشّتاء
وابتسمْ يا شَجر وائْتِنا بالثَّمَر
جاءَ فَصْلُ الرَّبيع ببديع الصُّوَر
جاء صيفُنا أشرقَتْ شمسُنا
أخصَبتْ أرضُنا بكنوزِ الجنَىٰ
بينَ بردٍ وحرّ وسقوطَ الزَّهر
جاء فصلُ الخريف وتعرّى الشّجر

* وهذا «حافظُ إبراهيم» ينظمُ نشيداً تعليميّاً للطِّفْلِ يظهرُ فيه اهتمام الطِّفل بالدَّرْسِ ، وربطه بالعِلْم والفَلاَحِ والنَّجاح ، كما يربطُه بخالقهِ العظيم فيقول:

نحنُ أطفالٌ صغَار في نشَاطٍ كالكبار
شُغْلُنا طول النَّهار بسرورٍ واجتهاد
نَعْتَني وقْتَ الدُّروس بنظامٍ وجُلوس
ونقوّي في النُّفوس كلّ جدّ ورشَاد
نحنُ بالعِلْم المُنير نطلبُ العيشَ النَّضير
فَلَهُ فَضْلٌ كبير وبهِ ترقىٰ البِلاد
إنّنا نبغي الفَلاح في غدوٍّ ورواح
نَسْأَلُ اللهَ النَّجاح إنّه هادي العباد

* إنَّ أدبَ الطِّفلِ التَّعليميّ قد احتوىٰ مضموناً يهدفُ إلى إعطاءِ الطِّفل بعضَ الحقائقِ ، ولوناً من ألوان المعرفةِ الجديدة ، وذلك بتصوير هذه الحقائق والمعارفِ ، وتحويلها إلى لوحاتٍ فنيّةٍ شعريةٍ تعليميّةٍ مفيدةٍ للطِّفل المبتدىء في أوّلِ مراحلِ التَّعليم ، كتعليم الطِّفل الأبجدية ، وبعضِ الكلمات من مثْل:

أنا الأَلف ، أنا الألف
إذا ما اصطفَّت الأحرف
أجيءُ بهمزتي وأقف
أمام الكُلّ
أنا الأوّل
أنا الأَجْمل
أنا الألف ، أنا الألف
وفي يوم منَ الأيّام ، كنْتُ أسيرُ في الغابة
أنا الألف (أَ) أقْبل الأَرنب
أنا الألف (أُ) أُمُّه نامَتْ وجاءَ الذِّئب
أنا الألف (إ) إنّني غاضِب
أصيرُ عَصَا
وأهوي فوقَ رأْس الذّئب
فرَّ الذِّئب ، فر الذئب ، فرَّ الذّئب[1]

* ويتغنّى «أحمدُ رامي» بالطُّفولة ، والدَّعوة إلى تعليمِ الطِّفلِ ، حيث يخاطبه بكلماتٍ تحملُ العاطفةَ الأبويّةَ الصَّادقةَ المعبّرة ، فيقولُ في هذه الدَّاليةِ الجميلةِ:

أيُّها الطَّالبُ الطَّموحُ إلىٰ المجـ ـــدِ تقــدَّمْ دنيــاكَ دارُ الجِهــادِ
قفْ أمامَ الكتابِ واقرأْ كلامَ اللـ ـــهِ يهـدي إلــى صــلاحِ العبـادِ

(١) منَ الجدير بالذكْر أنَّ الشّاعر سُليمان العيسى قد بدأ ديوانَه المشهور: «غنّوا يا أطفال» بنشيد عنوانه: «حروفنا الجميلة» ، حيثُ أشارَ إلىٰ الحروفِ الثَّمانية والعشرين وقال: في هذا النّشيد تتعلّمون يا أطفال حروفَنا العربيّة الجميلة (الألف باء) بالتّرتيب وهي ثمانيةٌ وعشرون حرفاً تبدأ بالألف ، وتنتهي بالياء ، ثمّ بدأ ذلك بقــولــه: ألــفٌ بــاءٌ تــاءٌ ثــاءٌ هيــــا نقــــرأ يــــا هيفــــاء
ألـــفٌ أبنــــي بــــاءٌ بلــــدي بيـــدي بيــدي أبْنـــي بلـــدي
إلخ...

واستغلَّ الحديثَ ينطقُ بالـ ـحقِّ ويدعُو إلىٰ كريمِ الودادِ
وتمعَّنْ فيما أفاضَ أولو الأ لبابِ من حكمةٍ ومن إرشادِ
قد عقدْنا عليكَ كلَّ الأماني منذ نادىٰ البشيرُ بالميلادِ

* وعلىٰ لسانِ الطِّفل المتفوّقِ المجتهدِ، يشدو «كامل كيلاني» على لسانِ الطِّفل، هذه الأهزوجةِ التي يفاخرُ فيها بجدِّهِ وحبّهِ للعِلْمِ والتَّعلُّم فيقول:

أنَا لا زلْتُ تلميذاً صَغيراً ولكنّي علىٰ صغَري مجدُّ
أسيرُ إلى العُلا سيراً حثيثاً وأنشطُ نحو غايتها وأعْدو
وما يُغْنِي الفتىٰ طولٌ وعرضٌ إذا لم يغْنِه فَهْمٌ ورشْدُ

* ويرنو الطِّفلُ بعينيه وعقْله الصَّغير إلىٰ منظرٍ معبّرٍ جميل، فهو يتمنّىٰ أنْ يكبرَ كي يتعلَّمَ القراءةَ كما تعلَّمها أبوه وأمّه، وعن هذه المعاني الحلوةِ قدّم كامل كيلاني هذا فقال:

كمْ من حديثٍ معجبٍ شَائقٍ تتلوه أمّي أو أبي منْ كتابِ
هذا عجيبٌ فمتىٰ أغتدي مثلهما أقرأُ بينَ الصِّحابِ

* ويقدم «مصطفى عكرمة» لوحةً تعليميّةً أدبيّةً جميلةً للطِّفلِ، الذي ينمو يوماً بعد يوم، والفرحةُ تغمرُ نَفْسَه الصَّغيرة وهو يتعلَّمُ القراءةَ ليكونَ مثل عظماءِ أمّته وعلمائِها فيقول على لسانِ طفلٍ يقرأُ، ويدعو الأطفال إلى القراءة:

أقرأُ أقرأُ كلَّ صَباح
أقرأُ أقرأُ كلَّ مسَاء
أقرأُ حتّى ألقىٰ نجَاح
وأبي سوفَ يُسَرُّ كثيرا
وأنا سوفَ أريدُ سُرورا
وغداً حينَ أصيرُ كبيرا
أنفعُ كلَّ النَّاس كثيرا

حينَ أُعَدُّ منَ العُلَماء
فاقرأْ مثلي تصبحْ منهم
ما أعْظَمهم ما أنْفَعهم
وغداً سوفَ ترانا منْهم

* ويشاركُ الشَّاعر «معشوق حمزة» في هذا المجالِ التّعليميّ الرّحب ، فيربطُ الطِّفلَ بأهميّةِ الكتابِ والمدرسةِ ، ومن روائعهِ العذبةِ ، هذه الكلمات الحلوة علىٰ لسانِ طفلٍ يحبُّ الكتابَ ، ويفتخرُ به :

إنّني أهوىٰ كِتَابي
إنَّه خيرُ الصِّحابِ
فهو فخرٌ في صِبَاي
وهو عزٌّ في شَبابي
إنّني أهوىٰ كتَابي
كلُّ ما فيهِ جَميل
ليسَ لي عنْه بَديل
فيه أسماءُ بلادي
وأغانٍ وهَديل
إنّني أهوىٰ كتابي
أنا عاهدتُ كِتابي
إنَّه خيرُ صحابي
سوف يبقىٰ لي رفيقَا
في ذهَابي وإيابي
إنَّني أهوىٰ كِتَابي

* وينمو الطِّفلُ ، وتنمو معه أحلامُه ومعارفُه ، ويزدادُ معرفةً وعلْماً ، وتكثرُ كتبُه وقصصهُ الجميلة التي أحبَّها ، فيؤسسُ مكتبةً صغيرةً ، وها هو ذا الشَّاعر «سُليمان العيسىٰ» يشاركُ في هذا المجالِ التَّعليميّ المهمّ الجميلِ ، فيقول علىٰ لسان طفْل يغنّي لمكتبتهِ الصَّغيرة :

أقمـــتُ بنَـــاءَهـــا بِيَـــدي   جعلـــتُ رفـــوفَهـــا خَشَبـــا
ورحـــتُ أضـــمُّ فيهـــا الفَـــنَّ   والتَّـــاريـــخَ والأدَبـــا
رفـــاقـــي أصبحـــوا أبـــداً   بجنْبـــي أقصـــدُ الكُتبَـــا
أحـــادثُهـــم نعيـــشُ معـــاً   كنـــوزي فـــأنتشـــي طَـــربـــا
وهـــذا عـــالِـــمٌ لمسَـــتْ   يـــداهُ السِّـــرَّ والحُجبَـــا
أحـــبُّ كنـــوزَ مكتبتـــي   ولـــو صغُـــرتْ ولا عَجَبـــا
عـــن المخطـــوطـــةِ الأولـــىٰ   سلُـــو أجـــداديَ العَـــربـــا

* وشارك «مصطفىٰ صادق الرّافعي» ـ رحمه الله ـ في أدبِ الطِّفل التَّعليمي ، فَلَهُ مقطوعة تحملُ فكرةَ طفلٍ يتحدَّثُ عن نفسهِ منذ رضاعه إلى أنْ غدا في المدرسةِ ، ثمَّ تتطورُ أحلامُه ليغدو من الرّجال العِظام :

كنـتُ فـي حجـرِ والـدي رضيعـاً   همّتي في الرّضاع أو في المنامِ
ثـمَّ لمـا شبَبْـتُ أنطقنـي اللهُ   مفيـضُ الجميـلِ والإنعـامِ
ثـمَّ ميّـزتُ كـلَّ شـيءٍ أراهُ   وعـرفـتُ الضّيـا ولـونَ الظَّـلامِ
ورأىٰ اللهُ أنْ يقـدِّرَ لـي   الخيـرَ وأحظـىٰ بـأوفـرِ الأقْسـامِ
فـأتـىٰ بـي إلـى المـدارسِ أهلـي   وجعلـتُ العلـومَ فيهـا مَـرامـي
دفتـري صـاحبـي وعِلْمـي رفيقـي   وكتـابـي فـي كـلِّ فـنٍّ إمـامـي
راجيـاً أنْ أكـونَ بـالعِلْـم يـومـاً   فـي بـلادي مـنَ الـرِّجـال العظـامِ

* وقد أثارَ «أحمد شوقي» ـ رحمه الله ـ وجدانَ الطِّفل بأنفاسهِ الجميلةِ لهم ، ومن أزاهرِ بستانه للأطفالِ نقتطفُ هذه الزَّهرةَ الورديّةَ العبقةَ بأنغام الطُّفولةِ الممزوجةِ بالتَّعليم والموعظةِ ، حيث يعرضُ مشهداً اجتماعيّاً تعليميّاً فيه توجيهٌ لطيفٌ للآباءِ والأمّهات وتذكيرٌ لهم منْ خلالِ أنشودةٍ تعليميّةٍ جميلةٍ راقصةٍ بعنوان «الجدّة» ، وقد نظمها أحمد شوقي علىٰ لسان طفلةٍ تذكرُ رأفةَ جدّتها وحلمها فتقول :

لـــي جـــدّةٌ تـــرأفُ بـــي   أحنـــىٰ علـــيَّ مـــنْ أبـــي
وكـــلُّ شـــيءٍ ســـرَّنـــي   تـــذهـــبُ فيـــهِ مـــذْهَبـــي

إنْ غضـــــبَ الأهْـــــلُ عـ ـلــيَّ مــرَّةً لــم تَغْضـــبِ
مشــىٰ أبــي يــومــاً إلــيَّ مشيـــــــةَ المـــــــؤدِّبِ
غضبــانَ قــد هــدَّدَ بــالضَّـ ـــربِ وإنْ لـــم يَضْـــرِبِ
فلـــم أجـــدْ لـــي منْـــه غيــرَ جــدَّتــي مــنْ مهــربِ
فجعلتنـــــي خلْفَهـــــا أنجـــو بهـــا وأخْتَبـــي
ويـــحٌ لــــه ويــــحٌ لهـ ـــذا الــولــدِ المعـــذَّبِ
أَلَــمْ تكــنْ تصنــعُ مـا يصنــعُ إذْ أنــتَ صبــي(١)

* ومن لطائفِ التَّوجيهات التَّعليميّة للطِّفل هذه الصُّورة التي صوَّر فيها الشَّاعر «عبد الكريم الحيدري» طفلاً قد تسلَّل في غفلةٍ إلى عشٍّ عصفورةٍ جميلة ، وأفسده ، وعبثَ به ، وإذا بالعصفورة تتألَّمُ وتخاطبُ الطِّفْلَ بهذهِ الأنشودة التي تعبّرَ عمّا في النَّفس من حزنٍ وألَمٍ وبراءةٍ وصدقٍ ، وتدعوه إلى عدمِ العبثِ بشيءٍ ، وأنْ يتعلَّمَ الرّفقَ بالعصَافير وبكلِّ شيء :

أمـــانـــاً أيُّهـــا الطِّفـــل ودَعْ مـــا يفعـــلُ النَّـــذْلُ
أخي لا تمشِ كالوحشِ
تمـدُ الكـفَّ للبـطـشِ
بـأفــراخٍ وبـالـعــشِّ
فعيشــي لـــكَ لا يحلُــو فـــرفقـــاً أيُّهـــا الطِّفْـــلُ

* وهذا البابُ واسعٌ طويلٌ لو أردنا الاستفاضَة فيه ، إلا أنّنا اكتفينا بذكْرِ بعض الأمثلة اللطيفةِ في مختلفِ الاتجاهاتِ التَّعليميّة والأدبيّة ، ليزدانَ بها الكتاب ، وليكونَ ذلك سميراً للأحباب .

* * *

---

(١) الشَّوقيات (٤/١٨٩).

الفصل الخامس
الطِّفْلُ وأدَبُ الحِوار

* يبرز أدب الحوار في عمل الأدباء والشعراء ليكون وسيلة من وسائل تعليم الطفل، وإثارة العواطف والأحاسيس لدى الأطفال، ويقصد بالحوار: الألفاظ والجمل والعبارات التي تحمل الأفكار، وتدور علىٰ ألسنة الشخصيات، وقد يكون الحوار شعراً أو نثراً أو مزيجاً منهما مع مراعاة المستوىٰ اللغوي والعقلي للطفل بحيث تكون ألفاظ الحوار مما يفهمه الطفل، ويوقظ وعيه كي يعرفَ بعضَ الأمورِ المهمّة في حياتِه، كمعرفةِ دولِ الوطنِ العربيِّ مثلاً، كما صنعَ الشَّاعر المشهور «عبد الكريم الكرمي» «أبو سلمى»، إذ طرقَ هذا المجالَ الحواريَّ الأدبيَّ الجميلَ بشكلٍ مسرحيٍّ لطيفٍ، وقدَّم وجبةً أدبيةً حلوةً للطِّفل، بدأَ فيها برحلةٍ شائقةٍ جابَ فيها دولَ الوطنِ العربيّ من مشرقِهِ إلى مغربِهِ، وجعلَ كلَّ دولةٍ أو عاصمةٍ تتحدَّثُ عن نفسِها مع ذكْرِ بعضِ مزاياها البارزةِ في التَّاريخ والحضَارة الإنسانيّة، فكانَ ممّا قاله علىٰ لسانِ سوريةَ الحبيبة قلبِ العُروبة ومجدِ البطولات:

أنَا الفجرُ منيرُ الكونِ ... قلبُ العُربِ سُوريه
وتاريخي بُطولاتٌ ... وأَمْجادٌ وحريّه

* وقال علىٰ لسانِ العراقِ الأبيّ والمُحبِّ الوفيّ:

أنا العراقُ الأبيّ ... الفارسُ العربي

تــــاريـــــخُ بغـــــدادَ يــــروي أنّـــــي المحـــــبُّ الـــــوفـــــي

* وعلىٰ لسانِ الأردنِّ المجاهِدِ قال:

أنـــــا الشَّبـــــابُ الصَّـــــاعـــــدُ الأردنُ المجـــــــــــاهـــــــــدُ
أنــــــا الـــــــذي يقـــــولُ إنَّ العُـــــربَ شعـــــبٌ واحـــــدُ

* وأمّا لبنانُ الجميلُ فيشدو علىٰ لسانهِ بهذه الكلماتِ التي تروي الغليل:

النَّسيـــــمُ العـــــذبُ والمـــــاءُ الـــــذي يشفـــــي الغَليـــــل
كـــــلُّ مـــــا يفتـــــنُ عنـــــدي أنـــــا لبنـــــانُ الجميـــــل

* وعلىٰ لسانِ مصرَ العربيّة الأبيّة هِبة النَّيل يشدو قائلاً ومترنماً:

أنـــــا والنّيـــــلُ كِـــــلانـــــا رمـــــزُ عـــــزٍّ وحَميّـــــة
سَـــــائـــــلِ الأجيـــــالَ عنَّـــــا أنـــــا مصـــــرُ العَـــــربيّـــــة

* والسُّودانُ العربيُّ ذو المنبع العذب يشدو علىٰ لسانه:

أنـــــا السُّـــــودانُ يـــــا صحـــــبُ وعنـــــدي المنبـــــعُ العَـــــذْبُ
تـــــرابـــــي كلُّـــــه ذهَـــــبُ وأهلـــــي كلُّهـــــم عَـــــربُ

* وعلىٰ لسانِ الحجاز الذي علَّم النَّاس الهدىٰ يقول:

أنـــــا الحجـــــازُ لـــــي وطَـــــن مـــــا أرخـــــصَ الـــــرُّوحَ ثمـــــن
قـــــد علَّـــــم النَّـــــاس الهُـــــدىٰ وكيـــــفَ تحصيـــــن الـــــوطـــــن

* وتبرزُ اليمنُ العربيةُ الحرّةُ علىٰ طولِ الزَّمن ليقول علىٰ لسانها:

أنصِتـــوا لـــي أنـــا سمـــراءُ اليمـــن حـــرّة عشْـــتُ علـــىٰ طـــولِ الـــزَّمـــن
أنـــا أسقـــي قهـــوتـــي كـــلَّ فتـــىٰ عـــربـــيّ هـــامَ فـــي حـــبِّ الـــوطـــن

* ويقولُ علىٰ لسانِ ليبيا التي تاهَتْ بها إفريقية:

أنَـــــا التـــــي تـــــاهَـــــتْ بهـــــا علـــــىٰ المـــــدىٰ إفـــــريقيـــــة
فهـــــلْ عـــــرفْتُـــــم مَـــــنْ أنـــــا أنـــــــــا فتـــــــاةُ ليبيـــــــا

* وتأتي تونسُ الخضراءُ ذاتُ المجدِ والفخارِ ، ليشدو علىٰ لسانِها قائلاً:

تــونــسُ الخضْـــراء داري　　دارُ عـــــزّ وفخـــــار
فــي ظــلالِ المجـدِ نحيــا　　مـــن صغـــارٍ وكبـــار

* وأمّا الجزائرُ ذاتُ الأحرارِ والحرائرِ ، فإنّها تقول :

إنّــي هــوىٰ كــلّ ثــائــر　　أنـــا ربـــوعُ الجـــزائـــر
وللعـــروبـــةِ يحيـــا　　أحـــرارُهـــا والحـــرائِـــر

* وتفخرُ مراكش العربيّةُ التي ما تزالُ في سمائِها أعلام جيش أُميّة ، فيقولُ علىٰ لسانها :

أنـــا بـــلادُ الحميّـــة　　مـــراكـــشُ العـــربيـــة
ولـــم تـــزلْ فـــي سمـــائـــي　　أعـــلامُ جيـــشِ أميّـــة

* وأمّا فلسطينُ السَّليبة فإنّه تنادي قومَها ليخلّصوها :

أيـــنَ يـــا قـــومـــي بـــلادي　　إنّهـــا عنـــد الأعـــادي
ليـــسَ للعُـــربِ حيـــاةٌ　　وفلسطيـــنُ تنـــادي

* ونجدُ أدبَ الحوارِ المُشْبَع بالقيمِ التَّربويةِ واضحَ المعالمِ عند الشَّاعر «مصطفىٰ عكرمة»الذي يركِّزُ علىٰ تنميةِ الرُّوح الأخلاقيّةِ عند الأطفال ، من خلال طفلٍ يديرُ حواراً بينَه وبين نفسه ، وهو يتغنّى بحبِّ بلاده العربيّة الجميلةِ ، ويطلبُ من الله أنْ يحفظَها من كلّ العوادي فيقول :

كــلُّ بــلادِ العــربِ بــلادي　　تسكـــنُ رغـــمَ البُعْـــدِ فـــؤادي
ولها سوفَ أكونُ الفادي
مـــن بغـــدادَ إلـــى تطـــوانِ　　مـــنْ جيبـــوتـــي إلـــى السُّـــودانِ
كلّ بَنِيْها همْ إخواني
فـــي الصُّـــومـــالِ وفـــي البحـــرَيْـــن　　فـــي مـــوريتـــانيـــا واليمنَيْـــن
لي أهلٌ أغلىٰ منْ عيني
لـــي فـــي تـــونـــسَ فـــي لبنـــانـــا　　لـــي أهلـــون وفـــي عمَّـــانـــا
أنّىٰ سِرْتُ أجِدْ إخوانا

وأرىٰ قلبـي يجـدُ البُشـرىٰ فـإمـاراتِ العـربِ ومصْـرا
وهي بحبّ فؤادي أحرىٰ
بجـزائِـرنـا أو فـي ليبيـا قَطَـر مَسْقَـط أو سُـوريـة
روحي فيها أبداً تحيا
وفلسطيـنٌ أرضُ العـربِ منبـتُ جـدّي يبقـىٰ لأبـي
رغمَ الباغي والمغتصبِ
وسعـوديتُنـا لـي أصْـلُ وكُـويتـي لـيْ فيهـا أهـلُ
أهوىٰ الكلَّ فأهلي الكّلُ
وحّـدَ كـلَّ بـلادي حبّـي وهـواهـا يسكـنُ فـي قلبـي
يا ربّي احفظْها يا ربّي

* ولقد انتشرَ هذا النَّوعُ منَ الأدبِ في الآونةِ الأخيرةِ انتشاراً واسعاً ، ووجدَ الأدباءُ والشُّعراء فيه مَيْداناً خصباً لشعرِهم ومشاعرهم ، فراحوا يتحفونَ أدبَ الطِّفلِ بشتّى ألوانِ المعرفةِ الهادفةِ ، وقد وجدنا أنَّ كثيراً من الكتُبِ المدرسيّةِ في المراحلِ الابتدائيةِ في الوطنِ العربي قد أولتْ هذا الجانبَ اهتماماً طيّباً ، واختار واضعو كتبِ الأناشيد والمحفوظاتِ مجموعاتٍ جميلةً تزيدُ من ثقافةِ الطِّفل ، وتنمّي عنده المعرفةَ من خلالِ روحِ الحوارِ الجميلِ ، وقد يكونُ بينَ طفلٍ وعُصفور ، أو بينَ طفلةٍ وأبيها ، كهذه الأنشودة الحواريّة التي تبدأُ بوصفٍ جميل للطَّبيعة ، ثمّ حوارٌ رائعٌ بينَ الطِّفلة «مَها» وأبيها ، ثمّ تنتهي بحكمةٍ جميلة مفادُها أهميّة التّعليم وقتَ الصِّغر والتّأديب في مراحلِ الطّفولةِ الأولىٰ ، ولا ينفعُ الإصلاحُ في عَهْد الكبر:

بيـنَ الحـديقـةِ والنّهـر وجمـالِ ألـوانِ الـزَّهَـر
والطيـرُ يشـدو بـالغِنـا ءِ العـذْبِ فـي شتّـىٰ الصُّـور
سـارتْ مهَـا مسـرورةً مـع والـدٍ حـانٍ أبـرّ
فـرأتْ هنـالِـكَ نخلـةً معـوجّـةً بيـنَ الشَّجـر
فتنـاولـتْ حبْـلاً وقـا لـتْ يـا أبـي هيّـا انتظِـر

حتـــى نُقَـــوِّم عـــودَهـــا   لتكـــونَ أجْمـــلَ فـــي النَّظـــر
فـــأجـــابَ والـــدُهـــا لقـــد   كبـــرتْ وطـــالَ بهـــا العُمُـــر
ومـــنَ العسيـــرِ صـــلاحُهـــا   فـــاتَ الأوانُ ولا مفَـــرّ
قـــد ينفـــعُ الإصـــلاحُ والتَّهـــذ   يـــبُ فـــي عَهْـــد الصِّغـــر
والنَّـــشء إنْ أهملتَـــهُ   طفـــلاً تعثَّـــر فـــي الكِبَـــر

* وقد نجدُ نوعاً جميلاً من أنواعِ الحوارِ الهادفِ الذي يجري بينَ الأطفالِ في مجالسِ أسمارِهم ، فهَذه لوحةٌ جميلةٌ بعنوان «سَمرُ البراعم» للدكتور «محمّد صيام» إذ أنصتَ مرّةً إلى أحاديثِهم العِذاب ، وراقَه حوارُهم البريءُ في تطلّعاتهم إلىٰ المستقبل ، وحلمِ كلٍّ واحدٍ منهم ، فرسَمَ تلكم اللوحةَ الرَّائعة بهذه الكَلمات :

جلـــسَ البـــراعـــمُ يسمـــرون   ويخططـــون ويـــرسُمـــون
وجلســـتُ أنصـــتُ فـــالحـــديـ   ـــثُ مـــنَ البـــراعـــمِ ذو شجـــون
هـــذا يقـــولُ أنـــا ســـأصبـ   ـحُ عـــالمـــاً فـــالعِلْـــمُ نـــور
مشـــتِ الحضـــارةُ تستـ   ـضـــيءُ بـــه علـــى مـــرِّ العصـــور
ويقـــولُ ثـــانٍ إنَّـــه   سيصيـــرُ أستـــاذاً جليـــلا
يـــرســـي الفضيلـــةَ فـــي نفـــو   سِ شبـــابنـــا جيـــلاً فجيـــلا
ويقـــولُ آخـــرُ إنَّـــه   يهـــوىٰ المحـــاكـــمَ والقضـــاء
ولـــذا سيصبـــحُ قـــاضيـــاً   يقضـــي بمـــا قضـــتِ السَّمـــاء
فيقـــولُ أشجعُهـــم وفـــي   نبـــراتِـــه مثـــلُ الـــزَّئيـــر
أنـــا ســـوفَ أصبـــحُ ضـــابطـــاً   أحمـــي البـــلادَ مـــنَ المُغيـــر

* وأدبُ الحوارِ والتَّمثيل هذا يزيدُ من الثَّروةِ اللغويةِ لدىٰ الطّفل ، ويساعدُه علىٰ النُّطق السَّليم ، وتنميةِ مهاراتِ الاستماع ، فكلٌّ واحد يسمعُ ما يقولهُ الآخر ، ويحفظُ أيضاً ، وبالتَّالي تتوسّعُ مداركهُ العقليّة ، وينمو خياله ، فهو أمنياتٌ يطرحها كلّ طفل من خيالهِ ، وبهذا يرتبطُ الطِّفل بتراث أمّته ويعرفُ أخبارها وآدابَها ، وينمو عنده التَّذوّق الأدبيّ من خلالِ الإيقاعاتِ الجميلةِ لبعض التَّعبيرات ، ويزولُ عنده الخَجل

حيث يردِّدُ مع زملائهِ أمنياته ، وتنغرسُ فيه كلّ الفضائل وتهذيب الأخلاق ، بالإضافةِ إلى حبِّ القراءة ، ثم نستطيعُ بعد هذا كلّه أنْ نكتشفَ المواهب عند الطِّفل ، ونساعدَه على تنميتها .

* * *

الفصل السَّادس
الطِّفل وأدبُ الألغاز والأحاجي

* من الآدابِ الجميلةِ التي تزيدُ في رصيدِ أدبِ الطِّفل: أدبُ الألغازِ والأحاجي والنَّوادر ، لأنَّ الأحاجي تتوفَّرُ فيها عناصرُ الإيجازِ ، ويسرُ التَّعبير ، وسهولةُ اللغة ، ولها مغزى يهدفُ إلى إعْمالِ ذهن الطِّفل ، وإدخالِ السُّرور علىٰ نفسهِ ، وغرسِ القيمِ الفاضلةِ فيه ، وهذا هو الهدفُ الذي صيغَتْ من أجلهِ الأحاجي والألغاز.

* واللغزُ عبارةٌ عن قولٍ منَ النَّثر أو الشِّعر ، يَرِدُ فيه استعمال بعضِ الألفاظِ ، أو التّراكيب استعمالاً خفي المعنىٰ بعيدَ الدّلالة ، مما يتطلَّبُ إعمالَ الفِكْر ، وقدح الذّهن للوصولِ إلى المعنىٰ الخفي ، والدّلالة البعيدة ، وقد يدورُ اللغزُ حولَ اسمِ نبيّ ، أو سورة ، أو غزوة ، أو صحابي ، أو ربما يدورُ حول جمادٍ ، أو فاكهةٍ ، أو حيوانٍ ، أو مسألةٍ ، أو ما شابهَ ذلك.

* وفي تاريخنا الأدبي وتراثِنا التَّليد نماذجُ كثيرةٌ معروفةٌ لدىٰ أهلِ الأدب ، وتزخرُ بها كتبُ المصادرِ وبعضُ دواوين الشُّعراء علىٰ اختلافِ ألوانها وأشكالها؛ ومن الكتبِ التي أولتْ هذا الجانبَ عنايةً كبيرةً كتاب «المُستطرف» وغيره.

* بيد أنّني آثرتُ أنْ أعرضَ بعضَ الأحاجي والألغاز المفيدة التي نظمَها الشّاعر الغزِّيّ: «سُليمان غزال» ، حيث اجتهدَ في هذا الميدانِ الجميل ، ونظمَ كثيراً من الألغازِ الهادفةِ ، وكانت متنوّعة ، إذ اختارَ

مواقفَ من القُرآن الكريمِ وقصَصِ الأنبياء ، ومن السَّيرةِ النبويّة العطرة ، وبعض سِير الصَّحابةِ ، والغزوات ، والمعارفِ المفيدة ، فجاءت هذه الأحاجي والألغاز خفيفةَ الظِّلّ علىٰ قلوبِ الأطفال.

* وقد اطّلعتُ علىٰ هذهِ الألغاز التي تزيدُ عن الثّلاثين ، فاخترتُ بعضَها ، وهذَّبْتُ منها ما يصلحُ للطّفل ، وتصرفْتُ في بعضها بما يعودُ بالنَّفع علىٰ الأحبابِ الصِّغار.

* ومن الألغازِ المفيدةِ والجميلةِ ، والتي تتحدَّثُ عن أنبياءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، اخترتُ هذه الأحاجي ، ومنها هذه التي تتحدَّثُ عن نبيّ اللهِ إبراهيم وابنهِ إسماعيل ـ عليهما السّلام ـ:

ونَبِيّانِ في القُرآن ... أحدُهُما منْ صُلْب الثّاني
رفعَا بيتَ اللهِ تعالىٰ ... وامْتَثلا أمْرَ الرّحمنِ
ابنٌ عُرِّضَ للسِّكّيْن ... وأبٌ أُدْخِلَ في النِّيرانِ
فمنَ الوالدُ ومَنْ الابنُ ... مَنْ يخبرُنا فهو الفَطِنُ؟

* وعن نبيِّ اللهِ سُليمان ـ عليه السَّلام ـ نستمعُ إلىٰ هذه الأحجيةِ الجميلةِ في هذه المزدوجة:

مَلِكٌ ونبيٌّ في آنِ ... يعرفُ في لغةِ الحيوانِ
أضْحَكهُ ما قالَتْ حَشَرة ... خافَتْ منه وكانت حَذِرة
قرَّبَ في مجلسهِ طَيْرا ... سبَّبَ للكُفَّار الخَيْرا
مَنْ هذا الواردُ في الذِّكْرِ ... فأفيدوا يا أهلَ الفكْرِ؟

* ونقرأُ هذه الأهزوجة والأحجية عن نبيّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ بما يتوافقُ مع القُرآن الكريم:

ونبيٌّ ينطقُ في المَهْد ... قولَ الحكمةِ وبهِ يَهدي
خلقَ الطَّيرَ بإذنِ الله ... وشفىٰ الأعمىٰ باسْمِ اللهِ
أنزلَ مائدةً بدعاءِ ... معجزةً من فوقِ سَماء
مَنْ هو ذلك يا أطْفال ... يا أحبابي يا أَبطال؟

* وعن خاتمِ الأنبياءِ والمُرسَلين سيّدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ نقرأُ هذه الأحجية المزدوجةِ السَّاحرة:

وَرعىٰ في الصِّغَر الأغناما   وهدىٰ في الكبَرِ الأَقْواما
قالوا كاهِن قالوا ساحِر   وأخيراً قد قالوا شَاعِر
أصحابُ العَقْل اتَّبعوه   وبأنفسِهم قد مَنَعُوه
جاءَ النَّاسَ بختْمِ الكُتُب   مَنْ هو ذَا يا أهلَ الأَدبِ؟

* وعن نبيّ الله يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ نقرأُ ما ورد عنه فيما قصَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أحسنِ القصص:

ونبيٌّ أُلقِيَ في الجبِّ   حَسَداً إذ فُضِّلَ بالحبِّ
والحُسَّادُ أتوا باكِين   واتَّهموا ذِئْباً بِعَرِيْن
لكنَّ الباري نجّاه   وأعزَّ حماهُ وأعْلاه
حتّى صارَ أمينَ المال   مَنْ هوَ هذا يا أَطْفال؟

* ونقرأُ هذه الأحاجي التي تتحدَّثُ عن معارفَ وعلوم في القرآنِ الكريم، ومن خلالها نستثيرُ ذهنَ الطِّفل، ونجعله يردّدُ الآياتِ الكريمةَ التي تحدَّثَتْ عن ذلك، فاسمعوا هذا اللغز في الرُّوح الأمين جبريل ـ عليه السَّلام ـ:

مَلَكٌ يأْتي بالتَّنزيل   يحملُه دَوماً لِرَسُول
هو عندَ الرّحمنِ مَكِين   ثمَّ مُطاع ثمَّ أمين
حِيناً كانَ يُسَمَّى الرُّوحَا   جاءَ بما قَدْ أحْيَا الرُّوحَا
مَنْ ذاكَ الملَك المفْضَال   هاتوا الاسمَ يا أطْفَال

* وأمّا ليلةُ القَدْرِ فلها قَدْرٌ في هذه الأحاجي والألغاز، حيث نقرأُ:

وعبادتُنا اللهَ سنين   نحوَ ثلاثٍ وثمانين
الأفضلُ من ذلك ليلهْ   شرَّفَها اللهُ بفضيلهْ
فيها تمَّ نزولُ الذِّكْرِ   وسلامٌ هي حتّىٰ الفَجْر
ما اسمُ الليلةِ يا أطْفال   قولُوا وأجيبوا في الحالِ؟

* ترىٰ ماذا خبّأَتْ لنا هذه الألغاز الجميلة عن أصحاب الكهف؟!
حسَناً لنقرأ ذلك:

شبَّــانٌ فــرّوا بــالــدِّيــن واختبــؤوا فــي الكهــفِ سنيــن
صَـاحَبَهـم فـي الـرِّحلـة كلْـبُ ثـمَّ أتــاهــم نــومٌ عَجَــبُ
وأفــاقُــوا فــي جيــلٍ آخــر والظَّــالــمُ قــد مــاتَ الآخــر
مَـنْ هـم مَـنْ فـروا بـالـدّيـن يــا أطفــالــي المستمعيــن؟

وعن سدّ مأرب وسيلِ العرمِ نقرأُ هذه الأحجية ، كما تحدَّث عنها القُرآن الكريم؛ حيثُ نحدِّث الطِّفل عن قصّة هذا السّدّ ، وعن قوم سبأ وعن الجنَّتَيْن اللتين حبَاهما الله لهم عن يمينٍ وشمال ، ثم نذكرُ لهم كيف كفروا بأنعمِ الله وأعرضوا عنه فبدّلهم الله ذلك الخَير ، وأرسلَ عليهم سيلاً دمّر كلَّ أرضهم ثمّ نقرأُ علىٰ الطِّفل هذا اللغز:

سَــدٌّ كــانَ بــأرضِ اليمــن قِــدمــاً فــي أعمــاقِ الــزَّمــن
حقَّــقَ للسّكّــان الخيــرا لكنَّهـــــمُ ازدادوا بَطَــــرا
فــانهــارَ السَّــدُّ مــنَ السَّيــل وأُصيبــوا بشــديــدِ الــويــل
مـا اسـمُ السَّيلِ ومـا اسـمُ السَّـدّ أفتــونــا يــا أهــل الجِــدّ؟!

* ونحكي للطِّفل قصَّة قارون الذي كانَ من قومِ موسىٰ فبغىٰ عليهم ، ثم نقرأُ له هذا اللغز:

قــد أوتــيَ داراً وكنــوزاً فبغــىٰ واستعلــىٰ فــي الحــالِ
مــدَّعيــاً أنَّ مهــارتَــه سبــبٌ فــي جَمْــعِ الأَمْــوالِ
فــأتــاهُ الــرَّدُّ مــنَ البــاري خَسْفــاً بــالجســمِ وبــالــدَّارِ
مَــنْ ذلكــمُ فــي الأخبــارِ ردُّوا يــا أهــلَ الأفكــارِ؟

* والحجُّ جاءتْ صورتهُ في هذا اللغز الجميل:

مــؤتمــرٌ لبَنــي الإســلام منْعَقــدٌ دَوْراً فــي العَــام
وســواسيــةٌ فيــه النّــاس مــا ميّــزهــم فيــه لِبــاس
القــدرةُ فيــه مطلــوبــهْ والنَّفَقــة فيــه مــرغــوبــهْ

والـــذُّنـــبُ فيـــه مغفـــورُ أَتُــرىٰ مــا الــرُّكْــنُ المــذكــور؟

* وفي مجالِ تراجمِ الصَّحابة وذكْرِ أعلامِهم كانت هناك أحاجٍ وألغازٌ جميلةٌ موشاةٌ برقائقِ الكلماتِ الهامساتِ والمعاني السَّاحرات، فاسمعْ إلى ما نظمناه في سيرةِ وترجمة سيّدنا بلال رضي الله عنه:

عَبْــدٌ حَبشِــيْ آمـــنَ سِـــرّا فَسَقــــاهُ سيّـــدهُ المُـــرّا
قـــالَ كفـــرتَ بمـــا نعتقِـــدُ ردَّ مجيبـــاً أَحَـــدٌ أَحَـــدُ
ففـــدَاه الصِّـــديـــق وقـــالَ أعتقتُـــــكَ للهِ تعـــالـــىٰ
صـــارَ كـــريمـــاً عنـــد الهـــادي مَـــنْ هـــو يـــا نَســـلَ الأجْـــواد؟

* وعن عمرو بن أم مكتوم الأعمىٰ نسمع ما جادت به القريحة:

كـــانَ رســـولُ اللهِ يسمـــع زعمـــاءَ الكُفَّـــار ويقْنِـــع
إذْ أقبـــلَ أعمـــىٰ يســـأَلُـــه عـــن أمْـــرٍ أمســـىٰ يشْغلُـــه
عَبـــسَ وتـــولّـــى مـــا اهتَمّـــا وتلهّـــىٰ أنْ جـــاءَ الأعمـــىٰ
فمـــن الأعمـــىٰ يـــا أطفـــال قـــولُـــوا وأجيبـــوا فـــي الحَـــال؟

* وأمّا أبو عُبيدة بنُ الجرَّاح أمينُ الأُمّة، فقد كان له مساحةٌ وافيةٌ في هذه الأحجيات ومنها:

رجُـــلٌ مـــنْ جنـــدِ الإيمـــانِ أمعـــنَ فـــي قَهْـــر الـــرُّومـــان
صـــاحـــبُ رأيٍ وأخـــو همّـــة معـــروفٌ بـــأميـــن الأُمَّـــة
فـــي معـــركـــةٍ قتـــلَ أبـــاه إذْ كـــانَ عـــدوّاً لله
مَـــنْ هـــو مـــن فُـــرسانِ الصَّحْـــبِ قـــولُـــوا يـــا أطفـــالَ العَـــربِ

* وتندَّتِ القريحةُ بهذه المزدوجة عن فاروقِ الإسلام والوزير الثَّاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ عندما دعا رسولَ الله ﷺ بأنْ يعزَّ به الإسلام:

أعـــزَّ اللهـــمَّ الإســـلام بكـــريـــمٍ بقُـــريـــش هُمَـــام
فـــأجـــابَ الـــرّحمـــنُ دُعَـــاه إذْ بـــالـــرّجـــل يـــريـــدُ لِقَـــاه
وهنـــالـــك يشهـــدُ بـــالصِّـــدق ويصيـــرُ نَصيـــراً للحـــقّ

نَشـــر العَـــدْل بكـــلِّ مَكَـــان مَـــنْ هـــو ذلـــك يـــا فِتْيـــان؟

* وسبحتِ الخواطرُ في أجواء السِّيرةِ النَّبوية ، فإذا بها تقفُ وقْفة الإعجابِ عند غزوات النَّبي ﷺ ، وعندها رحنا نسكبُ أعذبَ الألحان في قوالب هذه الأحاجي ، لتكون زاداً لأكبادنا التي تمشي على الأرضِ ، وممّا جادت به القريحةُ عن غزاةِ بدر هذه المزدوجة الرّقيقة العذبة :

هـــيَ مـــوقعـــةٌ واســـمُ مكـــان سَحَقَـــتْ زعمـــاءَ الطُّغيـــان
بضـــعُ مئـــاتٍ هـــزمُـــوا ألفـــا نَسفُـــوا جيـــشَ البـــاطـــلِ نَسْفـــا
كـــانـــتْ فـــي الغـــزواتِ الأولـــىٰ جعلَـــتْ جنْـــدَ الشِّـــرك فُلـــولا
مـــا اســـمُ غـــزاةٍ فـــي الإســـلام تُـــدعـــى قَمَـــراً عنْـــدَ تَمـــام؟

* وعن موقعةِ الخندق ، نسمعُ هذه الأحجية :

مَـــوقعـــةٌ جمعَـــتْ فجّـــارا ضـــربُـــوا حـــولَ الحـــقِّ حصـــارا
نُصِـــرَ الحـــقُّ بغيـــرِ قتـــال والكفَّـــار دُهُـــوا بِـــرِمَـــال
والحيلـــةُ فـــنٌّ فـــي الحـــربِ تـــوقـــعُ فـــي الأعـــداءِ الكـــربِ
مـــا اســـمُ المـــوقعـــةِ المشهـــورة قـــولـــوُا وضعُـــونـــا فـــي الصُّـــورة؟

* ومثل هذا كثيرٌ ، وقد أوردنا ما يبلُّ الغُلَّة منه ، وهناك شعراء كثيرون قد أبدعوا في هذا المجالِ ، تكفّلت كتبُ الأدبِ والمصادرِ بذكرِ كثير من إنتاجِهم ، وآمُلُ أنْ أكونَ قد حقّقتُ غرضاً مفيداً في هذا الفصل الطّريف في أدبِ الطِّفل.

* * *



الفَصْل السابع
الطّفْلُ وأَدَبُ التّلِفزيون

* هذا فصلٌ منْ فصولِ الكتابِ المهمّة التي ينبغي أنْ ننتبهَ إليهِ ، لأنَّ التّلفزيونَ وأجهزةَ الإعلامِ المختلفةِ قد أصبحتْ ضرورةً في حياةِ الإنسانِ بعامّة ، وحياة الطّفل خاصَّة ، فلا يكادُ يخلو منها بيتٌ أو مكانٌ منَ الأمكنةِ العامّة ، حتى في الطّائرات والسُّفن والحافلاتِ ، وذلك لما اشتملتْ عليهِ هذه الأجهزةِ من جاذبيّةٍ وتقنيةٍ متطوّرة .

* وجهازُ التّلفزيون من أكثرِ هذه الوسائل الإعلاميّة انتشاراً في البيوتِ ، وله تأثيرٌ شديدٌ على النّاس ، إذ تعلَّقتْ به أفئدةُ الكبارِ وعقولُهم قبلَ الأطفالِ ، وأصبحَ يمثّلُ عند كثيرٍ منَ النّاس ضرورةً عصريةً لا غنىٰ عنها ، كما يعتبرُهُ بعضُهم لوناً منَ الأدبِ الحديثِ المُعَاصر الذي ينقلُ جميعَ ألوانِ الثّقافاتِ العالميّة .

* ولكنْ هل يستطيعُ المربّي أو الأبُ أو ربُّ الأسرة أنْ يسخِّرَ جهاز التّلفزيون لخدمةِ أدبِ الطّفل؟ وهل جهاز التلفزيون يخدمُ أدبَ الطّفْلِ حقيقةً؟ !

* وللإجابةَ عن هذا السُّؤالِ ، لا بدَّ أنْ ندركَ بأنَّ وسائلَ الإعلامِ غازٍ قويٌّ ومثيرٌ معاً ، وقد غدا ممّا لا يُستغنى عنه في حياةِ الفردِ في المجتمع ، وقد أظهرتِ الدّراساتُ الإعلاميّةُ المعاصرةُ أنَّ تأثيرَ وسائلِ الإعلامِ عمليةٌ مستمرّة ، وأنّ عمليّةَ التّأثيرِ يخضعُ لظروفِ المستقبلِ ، وأنَّ غالبَ التّأثيرِ

لا يظهرُ إلا بعد فتراتٍ طويلة وأزمان مُتلاحقةٍ.

* وبعد أنْ أصبح التّلفزيون منتشراً هذا الانتشار الواسعَ ، ويستأثر بالاهتمامِ العريض ، لا يمكن أنْ يظلَّ تأثيرُهُ حياديّاً ، وقد صار جُزءاً منَ الحضارةِ المُعاصرة ، وعنصُراً من عناصرِ تشكيلِ الآراءِ والاتّجاهات والسُّلوك.

* وقد انبثقَتْ بعضُ المشكلاتِ البرّاقة ظاهراً ، المظلمةَ داخلاً بسببِ هذا الجهازِ الأنيقِ المُثير. وهذه المُشكلات يشعرُ بها المربُّون والآباءُ وغيرهم ، ولهذا فقد فرضتْ ألمانية حظْراً على جميع إعلاناتِ التّلفزيون قبل السَّاعةِ الثَّامنة بتوقيتها ، وذلك من أجلِ حمايةِ الأطفال من أنْ يصبحوا من ضحايا المُجتمع الاستهلاكي.

* إن هذا الجهازَ المثيرَ في الكبارِ والأطفالِ على حدٍّ سواء يحتاجُ إلى تأنٍّ في استخدامِهِ ، لأنّنا لا نملكُ المادّةَ التي تُعرَضُ على شاشَتِهِ الصَّغيرةِ من مختلفِ القنوات ، ولا شكَّ في أنَّ ما يعرض مُختَلِفَ الألوانِ والأشكالِ والمشاربِ والطُّعوم ، وفيهِ ما فيهِ من خيرٍ وشرّ ، وحامضٍ وحُلوٍ ، وأدبٍ وفجور ، وأمْنٍ وخَطَر ، وما شابهَ ذلك. ومن خلالِ هذا الفَصْل نطّلعُ على بعضِ الجوانبِ التي إثمُها أكبرُ من نفعِها في هذا الجهازِ اللطيفِ الخطيرِ ، والنَّاعم الخشن ، فهو عند التَّقلُّب في أنيابهِ العَطبُ ، ولا يستطيعُ المربّي أنْ يضبطَ الأمورَ كما ينبغي منْ أجلِ الطّفل ، لأنَّ الآثارَ الضَّارة لهذا الجهازِ ، وشغفَ الأطفالِ به ، يجب أنْ تُحاصَرَ ، وأنْ تُدرسَ دراسةً واقعيّةً ، لننجوَ من خطرهِ قَدْرَ الإمكان ، ونخفّفَ الأخطارَ الكامنةَ فيه والتي تضرُّ الطّفلَ أوّلاً وآخراً ، كما تضرُّ المربّي آخر الأَمْرِ؛ وفي السُّطور التّاليات سنتحدَّثُ عن بعضِ الأشياء التي يؤثّر فيها التّلفزيون على الطّفل أدبيّاً وأخلاقياً وسلوكيّاً.

أولاً: التّلفزيون أَدَاةٌ مُثيرةٌ:

* للتّلفزيون تأثيرُهُ الإيجابيُّ في التَّعليمِ ، والتّوجيهِ ، والتّثقيفِ ، وما شابَه ذلك ، وهذه الأمورُ تؤثّرُ على الطّفلِ والكبيرِ.

* كما أنَّ للتّلفزيون تأثيرُه السَّلبيّ وخطرهُ في أشياءَ كثيرةٍ ، وخصوصاً الأشياء التّجارية التي يهمُّ أصحابها الرّواج بغَضِّ النَّظر عن آثارِها.

* ولما كان التّلفزيون من أهمِّ وسائلِ الاتّصال الجماهيريّةِ ، وأكثرُهَا تأثيراً على الإنسانِ ، فإنّه يقفُ من خلالِ شاشتهِ المحدودةِ ليكونَ أهمَّ جهازٍ إعلامي في العصرِ الحاضرِ يمكنُه التّأثيرُ في مختلفِ فئاتِ النّاس ، لأنَّه يجمعُ بينَ الصَّوتِ والصُّورةِ والحَدَثِ ، وهذا بالطّبعِ يقرّبُ الإدراكَ عند جميعِ طبقاتِ النَّاس على اختلافِ ثقافاتِهم وحياتِهم وحضارتهم.

* والتّلفزيون كما يعرفُ جميعُ النَّاس أداةٌ إعلاميةٌ مثيرةٌ ، شُغِفَتْ به طبقاتُ وفئاتُ النّاس ، وهامَ بهِ الأطفالُ حبّاً ، وشُغِفُوا به شغَفاً شديداً ، لما فيه من الإثارةِ والجذبِ وتحريكِ الذّهنِ ، كما فيه إمكانيةٌ فائقةٌ على إشغالِ وقْتِ الفراغ ، وجذْبِ انتباهِ الطّفلِ إلى برامجِه ، بالإضافةِ إلى سُهولةِ استخدامِه وتناوُلِه.

* ويشكّلُ استعمالُ التلفزيون واستخدامُه تبدّلاتٍ عميقةً في السُّلوكِ الاجتماعيّ ، ومنَ الواجبِ معرفتُها ، والسَّيطرةُ عليها ، لأنَّ التّلفزيونَ يمثّلُ التَّعبيرَ السَّمعيَّ البصريَّ الذي له الأهميةُ الكبرى في التّأثير الإيجابي أو السّلبي على النّاس ، لذا فعلى المربّي أنْ يأخذَ بعينِ الاعتبارِ هذه الظّاهرة الثّقافية والدّعوة للعمل بها.

* ومنَ الواضحِ أنَّ جهازَ التّلفزيون قد غزا البيوت في العالمَ ، وفي بلادنا الإسلاميّة قد أصبحَ رُوحَ حياةِ كلّ بيتٍ ، وأصبحَ ضرورةً عصريةً مُلحّةً لا بدّ منها ، وظاهرةً لا يُستطاعُ الاستغناءُ عنها ، ومنَ العجيبِ أنَّ

هذه الشّاشةَ السّاحرةَ المِغْنَاجَ قد استولَتْ بفتنَةِ طلعَتها على قلوبِ الكبار قبلَ الصّغار ، وغدا معظمُ النّاس يتابعُ برامجَه طوالَ الإرسالِ على مدار السّاعة دونَ تخطيطٍ أو تنظيمٍ للأوقاتِ ، أو حتّى دون نظام مبرمج لمشاهدته ، فقد أصبحَ زمنُ جلوس الأطفال أمامَه أطولَ من أيّ زمنٍ يمكنُ أنْ يقضيه الأطفالُ في نشاطٍ منفردٍ آخر ، حيث أصبحَ الطّفلُ يقضي قرابةَ أربعِ ساعاتٍ في مشاهدتِه يوميّاً ، وهو يرىٰ مَا هَبَّ ودبَّ ، وقد لا ينتبهُ المربّي لطبيعةِ البرامجِ التي يشاهدُهَا الطّفْلُ ، ومدى صلاحيتها بالنّسبة إلى عمرِه ، وقدرتِهِ العقليّة ، ناهيك بالأضرارِ الجسميّة والجسيْمَة التي تترتَّبُ من كثرةِ الجلوس أمامَ التّلفزيون ، والتّعرّض للأشعةِ المنبعثةِ من شاشتِهِ.

* وكما أشرنا آنفاً إلىٰ أنَّ التّلفزيونَ أداةٌ أو جهازٌ يحملُ كلَّ ألوانِ الإثارةِ وجذْبِ الاهتمام ، لذا فقد نرىٰ أنَّ كثيراً منَ الأطفالِ يُصابون بالإدمانِ علىٰ مشاهدةِ جهازِ التّلفزيونِ العجيبِ بالنِّسبة له ، فلا يكادُ أحدهم يفلتُ من مخالبِهِ ، وكما نعلمُ أنَّ هؤلاء الأطفال في حاجةٍ ماسّةٍ ودائمةٍ إلى الرّعايةِ والعلاجِ ، لأنَّ معظمَ هؤلاء المدمنين على المشاهدة هم منْ قليلي الذّكاء ، وممن لا يحسنون إنشاء علاقاتٍ مع أقرانِهم ، لذا فإنّهم يجدون في هذا الجهازِ الأمَّ الرّؤومَ التي يأْوونَ إلى صدرِها آناء الليلِ وأطرافَ النَّهار وحين يُظهِرون.

* نعم إنَّ التّلفزيونَ أصبحَ منْ أخطرِ وأهمّ أقنيةِ الاتّصال الجماهيريّ في هذه الأيّام ، إذ يندرُ أنْ نَجِدَ بيتاً في أيّ جُزْءٍ من أجزاءِ العالم ، غَنيِّهِ وفقيرِهِ ، يخلو من جهازِ تلفزيون ، ومنَ الملاحَظِ أنَّ شركاتِ الإنتاج لهذا الجهاز تتفنَّنُ في إخراجهِ بثوبٍ وقالَبٍ مُغْرٍ مثيرٍ وبتقنيةٍ عاليةٍ ، وراحةٍ للمُشَاهد؛ ولعلَّ أبلغَ وصْفٍ يوضِّحُ مدى التّأثير الذي يتركُه جهازُ التّلفزيون ، ما جاءَ في الموسوعةِ الأمريكيّة عام ١٩٨٠ م ، حيث وصَفَتْ جهازَ التّلفزيون : بأنَّه أصبحَ عينَ الإنسانِ وأذنَه في العصرِ الحديث.

* إنَّ الخصائصَ الفنيّة والتَّقنيَّةَ والتّجاريّةَ التي يتمتَّعُ بها التّلفزيون ، مكّـنَـتْـهُ منْ تفاعلهِ الاجتماعيّ مع جمهورِ المشاهدين بكفاءةٍ عالية ، لم تتوافرْ لأيّ وسيلةٍ أخرى في تاريخِ وسائلِ الإعلامِ المختلفَةِ في العصرِ الحاضرِ ، وفي جميعِ أنحاء العالمِ.

ثـانـيـاً: الـتّلفزيـون بـينَ الإيـجابِ والـسَّـلْبِ:

* ممّا يثيرُ في النَّفس الحزنَ ، أنْ نَجِدَ أنَّ واقعَ ما يعرضُه التّلفزيون لا يُسْتَغلُّ في تنميةِ أدبِ الطّفل ، بل ولا سلوكِ الكبيرِ؛ وبنظْرةٍ سريعةٍ إلىٰ أغلبِ وسائلِ الإعلام ـ وخاصّةً التّلفزيون وبعضَ المجلاّت ـ يتبيّنُ أنَّ جُزءاً من اهتمامِها ينصبُّ على أخبار الفنِّ والفنّانين ، أو متابعةِ أحداثِ الموضَةِ العالميّة ، أو لقاءٍ مع نَجْم كما يسمّونَه ، أو ما شابَه ذلك من الصَّرعاتِ المُلفتَةِ للنَّظر ، وذلك لجميع فِئات النَّاس صغيرهم وكبيرهم.

* ومن الواضح في الملامح العامّة لبرامجِ التّلفزيون أنّها تنقسمُ إلى قسمَيْن ، أو نَوعَيْن بارزَيْن:

١ ـ برامجُ معدّةٌ للكِبار وتخصُّهم وحدهم.

٢ ـ برامجُ تخصُّ الصِّغار ومعدَّةٌ لأجْلِهم.

* ولكنْ هل الأطفالُ يكتفونَ بما أُعِدَّ لهم من برامجَ؟

* في الواقعِ إنَّ الأطفالَ يشاركون الكبار في جميعِ برامِجهم ، وذلك نظراً للفوضىٰ وعدم تنظيمِ الأسرة لأوقاتها ، بالإضافةِ إلى أنَّ البرامجَ التي تستدعي انتباهَ الأطفالَ هي البرامجُ المعدّةُ للكبار ، كما أنَّ كثيراً من الكبارِ يشاركونَ الصّغار في مشاهدةِ برامجِهم بشَغَفٍ واهتمامٍ قد يفوقُ اهتمامَ الأطفالِ وشغفهم.

* إنَّ البرامجَ المعدّةَ للكبارِ لها المساحةُ الزّمانية الكُبرىٰ في التّلفزيون ، وتتضمنُ البرامجُ سَيْلاً منَ المسلسلاتِ المتشابهة ، والمسرحيّات ،

والرّياضة ، والمُسَابقات وما شابهَ ذلك ، بَيْدَ أنَّ البرامجَ التربويّة أو الدّينية فنصيبُها محدودٌ وقليلٌ ، والمسلسلاتُ الدّينية التي تعرضُ فيها بعضُ المخالفات الشرعية التي لا تخفىٰ على ذوي البَصائر ، كما أنَّه يوجدُ تشويهٌ لبعض الشَّخصيّات المرموقةِ الوضيئةِ في التَّاريخ ، وقد يكونُ التّشويهُ أحياناً غيرَ مقصود ، وأستطيعُ أنْ أضربَ لك مثَلاً عن ذلك ، وهو أنَّ بعضَ الممثّلين يؤدّي ويمثّلُ شخصيةً بارزةً في تاريخنا الإسلاميّ من مثلِ: عمر بن عبد العزيز ، أو هارون الرّشيد ، أو بعض الأئمّة الأربعة ، وترىٰ هذا الممثّل مُبدعاً في أداءِ دَوره وتمثيلِ الشّخصيّة المطلوبة منه ، وفي الوقت ذاته تنظرُ لهذا الممثّل في قناةٍ أخرىٰ فتراهُ يؤدّي دَوْراً غيرَ أخلاقيّ ، أو تراهُ على شاطىءِ البحرِ مع ممثّلة وقد طارَ منهما الحياءُ ، ثمّ تعودُ إلى القناةِ أو المحطّة التي تعرضُ له دوراً لإحدى الشَّخصيّات الشَّهيرة تَجِدُ العكس ، وعندها تضطربُ الصّورةُ الحقيقيّة في ذهنِ المُشَاهد الكبير ، فكيفَ الطّفل؟ ولو سألَ الطّفْل مُربّيه ـ وهو يشاهدُ منْظَراً خلاعيّاً للممثّل ـ هل هذا هو عمرُ بنُ عبد العزيز ، أو أحمد بنُ حنبلَ؟ فكيف يجيبُه المربّي؟! وكيف يوفّقُ بين هاتَيْن الصُّورتَيْن المتضادتَيْن؟! إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ . . وغريبٌ . . وقِسْ على ذلك الممثّلات اللواتي يؤدّين دورَ بعض نسائنا الفُضْليات في تاريخنا الوضيءِ ، ثم تؤدّي دوراً غير أخلاقي ولا مُتّزن ، فكيف تفهمُ الطّفْلةُ القدوة الصّحيحة؟! وأتركُ بقيّة الحكايةِ للقارىءِ يفهمُها كيفَ يشاء .

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ مشاهدة الأطفالِ لمثْلِ هذه الأشياء وهذه المسلسلاتِ تجعلُهم لا يعرفونَ الحقيقةَ معرفةً صحيحةً ، بل إنَّ الموازينَ تضطربُ عندهم ، ولا يمكنُ أن تَثْبُتَ الصُّورةُ الصَّحيحةُ في أذهانِهم لعظماء التَّاريخ أو النّساءِ الفاضلاتِ في التَّاريخ الإسلاميّ الوضيء .

* وأمّا البرامجُ المعدّةُ للأطفَالِ والتي تخصِّصُ لها محطّاتُ التّلفزيون

أوقاتاً محددةً ، فإنّها تضمُّ ألواناً مِنْ برامجِ التّسليةِ والتّرفيهِ ، وشغْلِ الفراغ ، وذلك دون النّظر إلى مضمونِ هذه البرامج وهدفها ، علماً بأنَّ الأطفالَ يشكّلونَ نسبةً كبيرةً من المجتمع ، فيجبُ توعيتُهم ، ونشْرُ الثَّقافةِ بينهم ، وإرشادُهم إلى المعرفةِ السَّليمة.

* ولكنّه منَ الملاحَظِ أنَّ المساحةَ الكبرى لبرامجِ الأطفالِ تعنى بالصُّورِ المتحرّكةِ ، أو ما يسمّى بأفلام الكرتون ، وهذه الأفلامُ تُعْرَضُ كلّ يومٍ في أوقاتٍ محدّدة؛ وممّا لا شكَّ أنَّ هذه الأفلام مدروسةٌ دراسةً وافيةً وهادفةً ، حيث فيها جمالُ الألوانِ الذي يجْذِبُ الطّفلَ ، ودقّة الرّسمِ والتّصويرِ وصفاءُ الصُّورة ، إلى جانب اختيارِ القَصصِ المُثيرةِ ، واستخدام الموسيقا الجذّابة ، وجميعُ هذه الأشياءِ تجذبُ الكبارَ فَضْلاً عن الأطفالِ ، ومنَ الملاحَظِ أنَّ معظمَ أفلامِ الكرتون مِنْ إنتاجِ أجنبي ، وأنَّ معظمَ أحداثها تعتمدُ على إثارةِ المُشَاهِدِ ، لأنَّ فكرتَها الصّراعُ والحربُ والمنافسةُ ، وغالباً ما تكون بينَ قطّةٍ وفأْرة أو بين مركبةٍ فضائية وأخرى ، أو بين طائرٍ وإنسان ، أو كلْبٍ ومجموعةِ حيوانات. . ونجدُ بعض هذه الأفلامَ الكرتونيةَ خاليةً من عنصر الخيرِ ، وعنصرِ الفضيلة ، كما أنّها قد تشوّشُ أذهانَ الأطفال ، وتولّدُ في نفوسِهم حبَّ الشَّرِّ والعُدوان.

* وعلىٰ المُربّي الحصيفِ أنْ يُدركَ أنَّ لهذهِ الأفلامِ الكرتونيةِ أثرَهَا البالغَ في نفسِ الطّفل ، وأنَّ تأثيرهَا في نفسهِ سريعٌ جدّاً ، فإنْ كانَ تأثيرُها في جانبِ الخيرِ ظهرَ ذلك في تصرّفاتِه ، وإن كان تأثيرُها في جانبِ الشّرّ ، فإنَّ التّأثيرَ شرّيرٌ وسيِّءٌ ، وقد دلتِ الأبحاثُ على أنَّ التّلفزيون يستطيعُ أنْ يؤّثرَ في سلوكِ الأطفالِ الاجتماعي واتّجاهاتِهم ، كما أنَّ أفلامَ الكرتون من أكثرِ الأفلامِ عُنْفاً[1].

(١) انظر: كتاب الأسرة المسلمة لأحمد خليل جمعة ويوسف علي بديوي (ص ٣٤٠ ـ ٣٤٥) وكتاب مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٩٠ و٤٩١) مع الجمع والتصرف.

ثالثاً: التّلفزيون والعَلاَقاتُ الاجتماعيّةُ:

* هل للتّلفزيون أثَرٌ على العلاقاتِ الاجتماعيّة بين النَّاس؟! وهل له تأثيرٌ على الحياةِ اليوميّة للطِّفْلِ والكبير؟!

* ممّا لا شكَّ فيه أنَّ للتّلفزيون بعضَ الآثارِ الاجتماعيّةِ السّلبيةِ على الطّفل وعلى الكبير؛ وعلى الأسرةِ والمجتمع.

* ولكي تتوضَّحَ الصُّورةُ أكثرَ علينا أنْ نتذكَّرَ بأنَّ الرَّوابطَ الأُسَريّةَ بين أفرادِ الأسرةِ الواحدةِ، وأُسَرِهم الكبيرة، من مُميّزاتِ المجتمعِ المُسلمِ، حيث إنَّ منَ القيَمِ المرعيّةِ بين المسلمين: صِلَةُ الرّحم بين ذوي القُربى، كما أنَّ منَ العاداتِ الجميلةِ والكريمةِ بينَ المسلمين التّزاورَ فيما بينهم، لتفقُّدِ أحوالِ الجيران، والأصدقاءِ، والمعارفِ، والتي لا يمكنُ أنْ تُعْرَفُ إلاّ بالزّيارات المُتبادلة، وما يحصلُ من هذه الزّيارات - إذا حَسُنَتِ النّيّات وكانت خالصةً لله - من خيرٍ كثيرٍ، وتأليفٍ للقُلُوب من مثل: عيادةِ المرضى ومواساتهم، وإصلاحِ ذات بَيْن، وتعليمِ جاهلٍ، ونُصْحِ غافِلٍ، وبناءِ مودَّةٍ، وهذه الأمورُ الاجتماعيّةُ لا يمثّلُها إلا حديثُ سيّدِنا رسولِ الله ﷺ فيما جاءَ في الصَّحيح وغيرِه: «مَنْ نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدّنيا نَفَّسَ اللهُ عنْه كربةً من كُربِ يومِ القيامة، ومَنْ يسَّرَ على معْسرٍ يسَّرَ اللهُ عليهِ في الدّنيا والآخرة، ومَنْ سَتَرَ مسلماً ستَرهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرة، واللهُ في عونِ العَبْدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أخيهِ»[1].

* إنَّ الزّياراتِ بين المسلمين، تحقّقُ ما جاء في الحديثِ الشَّريف، ويكونُ كلّ واحد منهم في عونِ أخيه، ولا شكَّ في أنَّ المتغيّراتِ التي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٢)، ومسلم برقم (١٦٣١)، وأبو داود برقم (٣٨٨٠)، والترمذي برقم (١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٢٥١).

أثّرت علىٰ المجتمعاتِ المُعاصرةِ ، قد أثّرت على هذه الرّوابط بسبب تباعُدِ الأحياءِ ، وتباعدِ أطراف المُدن ، ناهيكَ بالمسؤوليّات التي أغرقتِ الأوقات ، وكادتْ تقضي عليها.

* ومن المؤكّدِ والملموسِ لدىٰ النّاس جميعاً أنَّ التّلفزيون هو أحدُ هذه العوامل التي أثّرتْ على الوقتِ بشكلٍ عام ، ووقتِ قضاءِ الفراغِ بشكْلٍ خاص ، وهو وقتُ الزّيارات ، وهذا الأمْرُ يدركُه مَنْ يلاحظُ العلاقات الاجتماعيّة ، حيث إنَّ معرفةَ أحوالِ النَّاس ، يتمُّ أكثرُهَا بالتّزاور بينهم ، ولكنْ إذا سيطرَ التّلفزيون وهيمنَ على أوقاتِ النَّاس ، فإنَّ ذلك بدايةَ دمارِ وخرَابِ العلاقات الاجتماعيّة ، وبالتّالي يزدادُ المجتمعُ تفكُّكاً.

* ومن أبرزِ آثار التّلفزيون على المُجتمعات تخريبُ الوقتِ ، وإضاعتُه واضطرابُ أعمالِ النَّاس ، بسببِ سَهرِهم الطّويل أمامَ شاشتِه الصَّغيرة ، وبالتّالي يضيعُ الوقتُ المفيدُ في النَّوم غيرِ المفيد ، ويضعفُ التّحصيلُ الدّراسي للأطفالِ ، ومنْ ثَمَّ يشعرُ المُربّي بِضَعْفِ تحصيلِ الطَّالب العِلميّ من جراءِ السَّهرِ الفوضوي ، والشَّغف بالتّلفزيون ، والاهتمام بالبرامجِ غيرِ المفيدة التي تشدُّه إلى أنْ يتأخّرَ في السَّهَرِ ، ويخالفَ الشَّرعَ الحنيفَ الذي يرغّبُ في التّبكيرِ وبَدْءِ العملِ في مطْلَعِ الفجر وعندَ الإبكار ، فقد جاءَ في السُّنَن أنَّ رسولَ الله ﷺ دعا لِمَنْ يخرجُ إلى عمله باكراً ، فقال: «اللهمّ باركْ لأُمّتي في بكُورِها»[1]. وهذا التّبكيرُ في الأعمالِ لا يستطيعُ المجتمعُ تحقيقَه إلا منْ خلالِ التّنسيقِ بينه وبين مواعيد النّوم المبكّرة.

رابعاً: مِنْ أضْرَارِ التّلفزيون:

* إذا لم يُستخدمِ التّلفزيون استخداماً سَليماً ، وخصوصاً من أجلِ

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٦) ، والترمذي برقم (١٢١٢) ، وابن ماجه برقم (٢٢٣٦).

مصلحةِ الطّفل ، فإنَّ استخدامه دون قيدٍ سينجمُ عنه خطرٌ عظيم وضررٌ عام.

* وهناك كثيرٌ منَ الدّراساتِ والأبحاثِ والمقالاتِ التي تنتشرُ في كلّ مكَانٍ ، والتي تملأُ صدورَ الصُّحُف والمجلاّت ، تبيّنُ مدىٰ الأخطارِ التي يتركُها هذا الجهاز على النَّاشئةِ ويمكنُ أنْ تُوجَزَ في النّقاطِ الآتيةِ بعضُ الأضرارِ التي تنشأُ عن التّلفزيون:

أ ـ يفسدُ التّلفزيون تربيةَ الطِّفْل التي يتعبُ فيها المربّي والأسرةُ زمناً طويلاً ، وذلك بما يقدُّمُه من قُدْواتٍ لها تأثيرُها السِّحْري في نَفْس الطّفل.

ب ـ إعطاءُ الطفلِ صورةً مضطربةً وغيرَ حقيقيةٍ عن الأطفالِ أو البالغين ، وتسهيلُ تنفيذِ عمليّات القَتْل ، والسَّطو ، والاعتداء على الحُقوق ، وما شابَهَ ذلك ، من فسادٍ وإغراءٍ بالجريمة.

ج ـ يتأثّرُ الطّفلُ بما يسمعُ من عباراتٍ غيرِ تربويّة ، ناهيك بأنَّ مَلَكَةَ الفُصْحى تتلاشىٰ عنده ، لأنَّ المسلسلاتِ تُصاغُ بلغةٍ عاميّةٍ سقيمة ، كما أنَّ التلفزيون يؤخِّرُ موعدَ نومِ الطّفل في المساءِ ، ويزيدُ النّزعة السَّلبيّةَ عنده ، وخصوصاً الأحلام المُفزِعَة والكوابيس ، وكم منْ طفلٍ قامَ يصرخُ ويصيحُ لأنَّه رأى في منامِهِ شيئاً مُرعباً ، أو حَيواناً يريدُ أنْ يفترسَه.

د ـ لأفلامِ الكرتون جوانبُ سيئةٌ ، وآثارٌ وَخيْمَةٌ على تربيةِ الطّفلِ ، وخصوصاً في إبرازِ جانبِ العُنْف ، والعبَثِ بالمعتقداتِ والعقَائدِ ، واحتقارِ بعضِ النَّاس.

هـ ـ ومنَ الأضرارِ النَّاجمةِ عنِ التلفزيون أنَّه يعطّلُ أفرادَ الأسرةِ الواحدةِ عن تبادُلِ الأحاديثِ فيما بينهم ، بل ربّما تتعطّل بسببهِ الهواياتُ ، ويُقضىٰ علىٰ القِراءةِ والمُطالعَةِ بألوانِها ، وهذه الأمورُ لا تبشِّرُ بخير.

و ـ تَعلُّقُ الأطفالِ بالدِّعايةِ المصوغَةِ في قالَبٍ غنائيّ مُثيرٍ وجميل ، وذلك بطريقةٍ تخالِفُ بعضَ المفاهيم الأدبيّة والأخلاقيّة للمجتمعِ

الإسلاميّ ، لأنَّ الإعلاناتِ هذه لها أثرٌ عظيمٌ علىٰ الأسرة بعامّة ، والطّفل خاصّة. وقد قال أحدُ علماء الطِّبّ النّفسي للأطفالِ حولَ القيودِ المُقترحة على إعلاناتِ التّلفزيون في أمريكا: «إنَّ الأطفالَ الصِّغارَ ، قد يصبحوا متشكّكين في والديْهِم ، ومدرّسيهم ، أو أي شخصيّة أخرى تنتقصُ من أهميّة منتجاتٍ غذائيةٍ مغلقةٍ ، أو لعبة أطفالٍ سيئة الصّنع ، يجري الإعلانُ عنها بِدَهَاء». وأضافَ: «إنَّ الشّعورَ بعدمِ الثّقة ، ينشأُ عندما تصمتُ شخصيّاتٌ لها سلطةٌ شرعيةٌ ، مثل الأَبَويْن ، أو تفقد حجيّتها إذا ما استخدمتْ أساليبَها الضّعيفة للإقناعِ في مواجهةِ الإعلاناتِ التّلفزيونية لدى الأطفال»[١].

ز ـ إنَّ أفلامَ العنفِ تؤثّر في مَسْلكِ الأطفالِ ، وتؤدّي آخر الأمْرِ إلى انقيادِهم للعنفِ بسهولةٍ ، لسهولةِ تقليدها.

خامساً: التّلفزيون وحيَاةُ الطِّفْل الاجتماعيّة:

* ممّا لا شكَّ فيه أن كثيراً من الآباء يشعرونَ بضيقٍ عميقٍ منَ التّلفزيونِ وتأثيراتهِ في أطفالِهم ، لذا طفقَ المربّون والآباءُ يطالبونَ المسؤولينَ بتلبيةِ الحاجاتِ النّوعية للأطفالِ على الأقلّ ساعتين نهاراً أو مساءً[٢].

والحقيقةُ إنَّ حاجاتِ الأطفالِ الصّغار تختلفُ عمّا يريدُهُ لهم المربّون أو الآباء ، إذ إنَّ نموَّ الأطفالِ يتطلَّبُ فرصاً ملائمةً لتحقيقِ علاقاتٍ أسريّة أساسيّة ، وهذه العلاقاتُ يجبُ على المربّين إتاحتَها لَهُم ، لأنَّ الاهتمامَ بالتلفزيون يقلّصُ هذه العلاقاتِ ، ويجعلُها ضامرةً لا رُوحَ فيها ولا حياة.

* ومنَ الطّبيعي في الحياة أنَّ الطّفْلَ يحتاجُ إلى اكتسابِ مهاراتِ الاتّصال الأساسيّة من مثلِ تَعلُّمِ القراءة والكتابة ، والتّعبير عن الذّات بشيءٍ

---

(١) الأسرة المسلمة في العالم المعاصر (ص ٣٣٧ و٣٣٨).

(٢) انظر: الأطفال والإدمان التلفزيوني (ص ١٩) بتصرف ـ عالم المعرفة رقم (٢٤٧).

من الحريةِ والمرونةِ حتى يؤدّي وظيفتَه كمخلوقٍ اجتماعي ، بيد أنَّ الانصراف إلى التّلفزيون لا يعزّزُ النّموّ اللفظي لأنَّها لا تتطلّب أيّ مشاركةٍ لفظيةٍ من جانبِ الطّفل ، بل تتطلَّبُ الاستقبال السَّلبي وحده.

* إنَّ الطّفلَ يحتاجُ منَ المربّي أنْ يكتشفَ نواحي القوّة والضَّعف الخاصّة من أجلِ تحقيقِ رغبتهِ كراشدٍ في العملِ واللعب على حدّ سواء ، بيد أنَّ المشاهدةَ التلفزيونيّة لا تفضي إلىٰ اكتشافاتٍ كهذه ، وهي تحدُّ من اندماجهِ في تلك الأنشطةِ الواقعيّةِ التي قد تتيحُ لقدراته فرصةً حقيقيّةً للاختبار.

* ويمكننا أنْ نقولَ بأنَّ تلبيةَ حاجةِ الطّفل إلى التَّنبُّهِ العقلي تتحقّقُ بصورةٍ أفضل ، وإلى أبعد حدّ حين يمكنُه تعلّم الأداء اليدوي ، واللمْس ، والفعل ، وليس مجرّد المشاهدةِ السّلبية. ولا بدَّ من تنميةِ بعض المهاراتِ الأُسريّة عنده حتى يصبحَ الطّفلُ نفسُه أباً ناجحاً ذاتَ يوم ، وهذه المهاراتُ إنّما هي ثمرةُ مشاركتِه الحالية في الحياةِ الأُسريةِ ، وتجاربه اليوميّة كفردٍ في الأسرة.

* وتشيرُ الدّلائل كلُّها إلى أَنَّ للتّلفزيون تأثيراً مدمّراً في الحياةِ الأسريةِ ، يقلِّصُ من ثرائها ، وتنوّعها ، وحركتها. ولقد أعجبتْنِي عبَارةٌ عن أثَرِ التّلفزيون في الأطفالِ وفي النّاس ، حيث وُصِفَ الذين يُدمنون مشاهدةَ التّلفزيون بعبارة: «موتىٰ التّلفزيون الأحياء».

* وهؤلاءِ الموتى الأحياءُ كثيرون في المجتمعِ العربيّ والغربيّ ، وها هي سيّدةٌ تصفُ غرامَ طفْلِها وهُيامَه في التّلفزيون فتقول ما مفاده: حينما يعودُ طفلي إلى البيتِ من المدرسةِ ، يجلسُ أمامَ جهازِ التّلفزيون ، ومعه جميع حاجيّاته ، وبعد ذلك يشاهدُ التّلفزيون في غيابٍ حقيقي عن الوعي ، ومنْ شبهِ المستحيل لفْتَ انتباهِهِ ، ولو أنّني تركتُه على هذا النّحو ، فسيواصلُ المشاهدةَ لساعات ، لكنّه ـ وإنْ لم يَبْدُ متيّقظاً تماماً ـ

لا يشبهُ مَنْ غابَ في النّوم ، لأنَّ ذلك لا يمنعُه عن الذَّهاب للنَّوم في وقت الرّقاد. . ابني ذو السّنوات الخمس تتملّكهُ غشيةٌ حين يشاهدُ التّلفزيون ، فهو ينغَلِقُ ، وتستغرقهُ المشاهدةُ تماماً فتنسيهِ أيّ شيءٍ آخر ، إنّه لا يسمعُني إطلاقاً إذا تحدثتُ إليه أثناءَ المشاهدة ، ويتعيّنُ عليَّ لكي ألفتَ انتباهه أنْ أغلقَ الجهازَ وعندئذ يتغيّر موقفُه فجأةً ، وهو أيضاً لا يردُّ على الهاتفِ حين يشاهدُ التّلفزيون حتى لو كان يرنُّ عالياً بجوارِه ، إنَّه ببساطةٍ لا يسمعه[1].

* إذاً فالتّلفزيون في هذهِ النّاحية مخدّرٌ خبيثٌ ، يوقعُ الطّفلَ في شَرَكهِ أوّلاً ، ثمَّ الكِبَار ، وقد وصفَ أحدُ نقّاد التّلفزيون هذه النّاحية واندهاش الأطفالِ وتخديرهم أمامَ جهازِ التلفزيون فقال: إنَّ السَّاعاتِ التي يقضيها الأطفالُ أمام التّلفزيون هي باعترافِ الجميع مخدّرٌ خبيثٌ لكلٍّ من الوالدَيْن ، فحين ينتشرُ الأطفالُ الصّغار رابضين على أرضيةِ الحجرةِ أمامَ الجهاز ، يبدو نوعٌ غريبٌ من السّكونِ وإن كانَ رائعاً قريبَ المنال[2].

* إنَّ التلفـزيـون لا يصلـحُ طبـاعَ الأطفـالِ ، ولا يعلّمهـم السُّلـوكَ الاجتماعيَ المُناسب ، فهم عقبَ المشاهدةِ مباشرةً متذمّرون ونزِقُون ، نعم إنّهم بعد المشاهدة غاضبونَ ومخدَّرون أيضاً ، وفي اللحظةِ التي يُغْلَقُ فيها التّلفزيون ، يتصاعدُ بسرعةٍ غضبُهم ، ويثيرون الضَّجيج حول أمورٍ تافهة ، ويهوي سلوكهم بصورةٍ عموديّةٍ ، وتتبدّلُ أخلاقُهم بصورةٍ فوريّة وعكسيّة وغالباً ما تكون غير واعية ، وتعبّر عن عدمِ الرّضا لإغلاقِ التّلفزيون ، أو لانتهاء الإرسال.

* ومنَ المؤكّد أنَّ الأطفالَ يعمدونَ إلى إساءةِ السُّلوك لتحقيقِ بعض الغاياتِ المرغوبة أحياناً ، ونيلِ مبتغاهم ، وإرغام آبائهم على الخضوع

---

(١) انظر: الأطفال والإدمان التلفزيوني (ص ٢٦) باختصار وتصرّف.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٤) ، وانظر: سيكولوجية السعادة (ص ٩٦ ـ ٩٩).

لإرادتهم ، ولعلَّ هذا السُّلوك لا يعيه الطِّفل ، لكنّه يفتعلُه لمتابعةِ مشاهدة التّلفزيون بشكلٍ يشبهُ المداومة والعشْق والإدمان ، حتّى إنَّ كثيراً منَ المربّين قد لاحظَ هذا ، وأدركَ مدىٰ خطورة الإدمانِ المرئي للطِّفل ، وسنستمعُ إلى عددٍ منَ الأمّهات اللواتي لاحظْنَ على أطفالهنَّ حالاتٍ غريبةً من هذه المشكلة ، تروي إحدى الأمَّهات ملاحظتَها الآتية وتقول: طفلي ذو السّنوات العَشْر مدمنٌ للتّلفزيون ، ويحاول أنْ يصلَ إلى حلّ وسط بأي ثمن فيقول لي: إذا تركْتني أشاهدُ التّلفزيون عشْر دقائق أخرى فقط ، فلَنْ أشاهده إطلاقاً غداً ، إنَّ الموضوعَ محزنٌ ويشعرني بالخوف .

وهذه أمٌّ تصفُ سلوك ابنِها ذي الأعوام الثَّمانية حين حُرِمَ من التّلفزيون فتقول: لقد حدثَ أنْ كان جهازُ التّلفزيون خارجَ البيتِ لنحو أسبوعَيْن ، وصلَ طفْلي إلى حدٍّ شعرتُ معه بأنّه إذا لم يشاهدْ شيئاً ما ، فإنّه سيشرعُ بالفعل في تسلُّقِ الجدران ، كان متملْمِلاً وعصبيّاً ، وكثيرَ الحركةِ ، ولم يكنْ يعرفُ كيفَ يتصرَّفُ ، وصارتْ حالُه تزدادُ سوءاً يوماً إثْرَ يوم ، حتى ذهبْتُ به إلى منزلِ صديقتي فشاهد مسلسلَ الرّسوم المتحّركةِ فَخَفَّتْ حدّةُ شراسَتِه .

وتروي إحدى الأمّهاتِ هيامَ طفلها الصَّغيرَ بالتّلفزيون فتقول: ابني ذو السَّنواتِ الأربع يحبُّ التّلفزيون ويهيمُ به ، وسيواصلُ المشاهدة طولَ السّاعات الأربع والعشرين إذا سمحنا له بذلك!! . .

* إنَّ ما نقرؤه من قَصصٍ عن إدمانِ الطّفلِ لمشاهدة التّلفزيون ، وشغفه الشّديد به يؤثّر بلا شكّ على حياته الاجتماعيّة وعلى علاقاته في المستقبل ، فلن يكونَ ناجحاً في علاقاتهِ نجاحاً صحيحاً لأنّه يتلقّى دائماً من التّلفزيون أشياءَ لا تهمُّه في حياتهِ اليوميّةِ من مثل أفلام الكرتون ، أو المسلسلات العاطفيّة أو الفكاهيّة أو ما شابه ذلك .

* ولا تتوقّفُ ظاهرةُ الإدمانِ التّلفزيوني وشَغفُ الأطفالِ به عند تشويشِ

الحياةِ الاجتماعيّة عندهم ، بل يتعدّى ذلك إلى الحياةِ الثقافيةِ التي ترتبطُ ارتباطاً مباشراً بالحياةِ ، وإذا كان من المفترضِ على المربّي أنْ يسعىٰ في تنميةِ مهاراتِ القراءة لدىٰ الأطفال ، فإنَّ حُبَّ الأطفالِ للتّلفزيون يحولُ دونَ ذلك ، وبتعبير أدقّ: يخفّفُ ذلك ويقفُ شبْه حائلٍ بين حبّ القراءةِ والمطالعةِ وتعلُّم الكتابة وبينَ مشاهدةِ التّلفزيون ، ولعلّي لا أكون مُبالغاً لو قلتُ: إنَّ الحياةَ الطُّفوليّة مع التلفزيون تنجبُ جيلاً كسولاً في القراءة والمطالعة ، ولكنَّ المصيبةَ الأدهىٰ والأمرَّ أنْ تُولِّدَ تلكم الحياةُ مع التّلفزيون العداوةَ والبغضاءَ للمطالعةَ والقراءة والتّعلّم ، وتجعلُ الطّفلَ في معْزلٍ عن الثّقافةِ والمعرفة.

* وقد بدأ المربّون في السّنواتِ الأخيرة يلاحظونَ انصرافَ الأطفالِ عن الكتُب والمطالعةِ ، كما يلاحظون ذلك التّرابط الكبيرَ بين الأطفالِ والتلفزيون ، مما يجعلُ بعضَ الأطفالِ يقلّدون الأصوات أو الحركات التي يشاهدونَها على هذهِ الشّاشة التي سرقتِ الأطفالَ من أُسَرِهم ومجتمعِهم.

* وثمّةَ ملاحظات أُخَر يُدلي بها المربّون عن أَثَـرِ التّلفزيون على المدرسة ، فكلما زادت مشاهدة الأطفال للتلفزيون ، انخفضَ تحصيلُهم الدّراسي ، ومنَ الطَّريف أنّه أُجريتْ دراساتٌ مفادها أنَّ الأطفالَ الذين سُمِحَ لهم بمشاهدةِ التّلفزيون يومياً لساعاتٍ كثيرة ، حصلُوا على درجاتٍ قليلة في الموادّ الدّراسيّة ، بينما حصلَ الأطفالُ الذين كانت مشاهدتُهم محدودة على درجاتٍ أعلى.

ومن الطَّرائفِ أيضاً في هذا المجال ، ما أدلىٰ به مدرسٌ بإحدى مدارس الأطفالِ حيث قال: أستطيعُ التّمييزَ بين الأطفالِ الذين تُوجدُ في بيوتهم تلفزيونات ، وأولئك الذين لا يمتلكونها ، لأنَّ هؤلاء الأخيرين أكثرُ تقبُّـلاً للأفكارِ والمعلومات في الصَّباح.

* وهناك دراساتٌ تشيرُ إلى أنَّ هناكَ بعضُ السِّرّ في سببِ هبوطِ

الاختبارات في السَّنوات الأخيرةِ ، وهذا السِّرُّ يكمنُ في مداومةِ الأطفالِ - ولو كبروا - على متابعةِ برامجِ التّلفزيون بشغَفٍ ، ودون النَّظر إلى أهمية الامتحاناتِ وأداءِ الاختبارات المدرسيّة؛ بل إنَّ الواجباتِ المنزليَّة التي يعطيها المدرسُ للأطفالِ أصبحتْ ثقيلةَ الوطأةِ عليهم ، بل قضيّة خاسرة ، وأصبحَ بعضُ المدرّسين يجدُ صعوبة في تكليفِ الأطفالِ بواجباتٍ مدرسيّة يقومُون بكتابتها في المنزل.

* وهناك أشياءُ أخرى يطولُ بنا المقامُ لو أنّنا تناولناها؛ وجميعُها تتركُ آثاراً مضطربةً في سلوكِ الطّفل وفي حياتِهِ الاجتماعيّةِ ، وتؤثّر على نجابتهِ وذكائِهِ وتحصيلِهِ العلميّ ، ناهيك بتمييع الوقتِ عنده ، وازدراء القيمِ لديه ، وتمسّكه بما لا ينفعُ ، لأنَّه استسقىٰ عاداتٍ وتقاليدَ ليستْ في مجتمعِه ولا نشأ عليها ، وبالتّالي لن يستفيدَ منه مجتمعُه إذا استمرَّ في عشقِ جهازِ التلفزيون؛ ترىٰ هل هناك حلّ لهذه المشاكل؟

سادساً: هَلْ تُحَلّ مشكلَةُ التّلفزيون نهائيّاً؟

* في الفقراتِ السَّابقات قرأنا ما للتّلفزيون من آثارٍ متنوّعةٍ على الأطفالِ بعامّة ، والكبارِ وجميع فئاتِ المجتمع ، ورأينا خطورةَ هذا الجهاز السَّاحر الفاتن في وضعِه الحالي ، حيثُ أجمعَ المربّون من المسلمين وغيرِهم على أنَّ للتّلفزيون أضراراً خطيرةً على الأطفالِ ، وعلى المجتمعِ ، بَيْدَ أنَّ بعضَ المربّين وبعضَ الآباء - ممّنْ نظَروا إلى التّلفزيون بحُسْنِ النِّيَّةِ - يرىٰ وجودَ بعضِ الفوائدِ التي يمكنُ أنْ يجتنيْها الطّفلُ ، من مثل: اتّساعِ أفقِ الطّفل ومعارفه ، والحصولِ على معلوماتٍ جديدة ، والاستفادةِ من بعضِ الأمور التّربويّة والعلميّة وبعضِ التّجارب. وهذا الكلامُ فيه شيء من رُوح الحقيقةِ ، بيد أنّ كثرةَ الباطلِ تذهبُ ببهاءِ الحقّ ، وبما يُظَنُّ به الخير؛ ومنَ المعروفِ من مقاصدِ الشَّريعةِ عند الأصوليّين: أنَّ درءَ المفسدةِ أولى من جَلْبِ المَصْلَحةِ ، كما أنَّ هذه المعلومات والمعارف التي يتلقّفها الطفلُ من

بعضِ برامجِ التّلفزيون المتناثرةِ كتناثرِ أوراقِ الخريف لا تزيدُ في معلوماتِ الطّفل الذّكي ذي الأفق الواسع والملاحظةِ الجيدة ، إذ يمكنُه أنْ يتعلّمَها من مصادرَ أخرىٰ متفرقةٍ(١).

* والكلامُ الفَيْصَلُ المنطقيُّ في هذا الجهاز يمكنُ أنْ يتلخّصَ في نقطتَيْن اثنتين ، إذ هو ذو حدَّين وهما :

١ ـ نقطةٌ وحدُّ خيرٍ ، إذا استُعْمِلَ في الخيرِ نَفَعَ وأفَادَ .

٢ ـ نقطةٌ وحدُّ شرّ ، إذا استُعْمِل في الشّر أفْسَدَ وأباد .

* فهل يُستعْمَلُ هذا الجهاز في الخير؟! وهل تُعَدُّ البرامجُ لنشْرِ الخير؟!

* إنَّ التلفزيون إذا أُحْسِنَ استخدامُه للطّفل كان رائعاً ، وذلك في إبرازِ الفضائلِ الخُلقيّة ، أو إبرازِ بعضِ الآداب المهمّة المفيدة للطّفل من مثل : الأمانةِ ، الصّدقِ ، الإيثارِ ، التّضحية ، وما شابه ذلك ، من خلالِ مواقفَ أو قصص هادفةٍ تحملُ في أرْدَانِها كلَّ هاتيكم الخِلال الحِسَان .

* وقد دلَّتْ بعضُ الدّراساتِ المعاصرةِ على أنّ التّلفزيون قادرٌ على تعليمِ الأطفال السُّلوك الاجتماعي الذي يقدّره الآباءُ ، فإذا شاهدَ الأطفالُ برنامجاً يعالجُ مفهومَ الأمانةِ مثلاً ، فإنّهم يتأثّرون بهذا المفهوم أكثر من الأطفالِ الذين لم يشاهدوه ، وهذا يشيرُ إلى الفائدةِ التي تُجْتَنىٰ منَ التلفزيون بهذا المجال .

* ويشير بعضُ الأخصائيين التّربويين إلى أنَّ هذا الجهاز العجيبَ لو أُحْسِنَ استخدامُه وتوجيهُه إلى الأطفالِ ، فإنّه يُثري فيهم القيم ، والعادات الحسنة ، والمَشاعر الطّيبة ، والسّلوك المستقيم ، لأنَّ آلافاً كثيرةً منَ النَّاسِ بما فيهم الأطفالُ يشاهدونه ويتأثّرون بما يعرضُه من برامجَ .

* كما أنَّ هذا الجهازَ السّحري الجميلَ يمكنُه أنْ يعرّفَ الطّفلَ بطبيعةِ

---

(١) انظر كتاب : مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٩٦) بتصرف واختصار.

حَياةِ النَّاسِ في العَالَم ، وحياةِ المُسلمين ومشاكِلهم وجوانبِ الخير في حياتهم ، فتنمو في نفسه الصّغيرة جوانب الخير والحبّ لهم على بُعْدِ أوطانِهم وأرضهم.

* إنّنا نفترضُ هذه الأمور افتراضَ المحبّ لحبّاتِ القُلوب ، ولكنْ هل منْ مُستجيب؟! وهل من مُجيب؟!

* إنَّ كثيراً منَ الآباءِ والمربّين قد بدؤوا يلمسون الخطرَ الأكْبرَ على أولادِهم من التّلفزيون ، ومن هذا الجهازِ الذي أسرَ نفوسَهم وقلوبَهم دون حربٍ أو عنفٍ أو قتال ، وإنّما فتنَهم بسحرِ ما يعرضه من مشهيات ومرغّبات ، وقد قام كثيرٌ من الآباءِ بالاستغناءِ عن هذا الجهازِ ، فإذا بالحربِ الدّاخليّة تنبعثُ من زوجِهِ وأولادِه ضدّه ، وقد ذكرَ بعضُهم أنَّ زوجتَه قد تركَتِ البيتَ وقالت: لا أرجعُ إلى البيت حتى يرجعَ التّلفزيون لأني أشْغِل به الأولاد!!

وأضافتْ هذه الثّائرة قائلة للزّوج الحصيف: إنَّ الأولادَ قد تعوّدوا على مشاهدِة التّلفزيون معظم ساعاتِ اليوم وخصوصاً في الفترةِ المسائية ، وهم ينْشَغلون به عنّي ، إنّه يخفّفُ كثيراً منَ العَنَاء.

* ومن المصيبةِ في الحياةِ أنْ تكونَ الزوجةُ مِعْواناً للباطلِ على زوجها ، وكثيراً ما نسمعُ أو نقرأُ أو يُحكىٰ أمامنا أنَّ الزَّوجةَ قد استعانَتْ بأولادِها على زوجِها وجعلَتْه صِفْراً على الشّمال ، وخصوصاً إذا أرادَ زَرْعَ فضيلةٍ ، أو تغيّير عادةٍ غير مستحسنة ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أوردَ صورةً واضحةً عن هذه الشّريحة الموجودة في المجتمع وعن الزّوجة والأولاد الذين نصبوا العداءَ للأب ، فقال عزَّ وجلَّ في محكم الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤ ـ ١٥]؛ فالزَّوجاتُ والأولادُ يمكنُ أنْ يكونُوا منَ

المصائبِ على الآباء والمُربّين ، لأنّهم قد يدفعونَهم على ارتكابِ المعاصي والمحرّمات ومخالفة الأوامر الإلهيّة ، ولهذا فقد حذَّر اللهُ عزَّ وجلَّ منَ الانصياعِ لأهوائِهم وشهواتِهم. وقد قرأْنا في القسْم الأوّلِ من هذه الموسوعةِ قصَّة نبيّ الله إسماعيلَ مع أبيهِ إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ كيف أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد ابتلى إبراهيم ورفعَ منزلتهِ بإخلاصِ قلْبهِ لله ، وكيف أعرضَ عن وساوسِ الشَّيطان ، وعلى المربّي أنْ يتمثّلَ هذه المواقف وأشباهها ويقتدي بها في حياتِهِ.

سابعاً: هَلْ يمْكِنُ التَّخلّي عَنِ التّلفزيون نهَائيّاً؟

* هذا سؤالٌ تصعُبُ الإجابةُ عنْه مباشرةً ، لأنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى هدوءٍ وتروٍّ وزَمَنٍ ، ولأن التلفزيون قد تخلل وتغلغل في النفوس والبيوت وكل مكان.

* وفي البدايةِ يقفُ المربّونَ وأربابُ الأُسَر حائرين ، فنجدُ بعضَ الآباءِ والمربّين الواعين يملؤونَ وقْتَ فراغِ أطفالِهم بأشياءَ مفيدةٍ ، كنتيجةٍ مباشرةٍ لمنافسةِ هذا الجهازِ ، ويساورُ الخوفُ الآباءَ والمربّين من أنّهم إذا لمْ يفعلُوا شيئاً فإنَّ الأطفالَ سيتحوّلون ثانيةً إلىٰ الجهازِ السّحري الجذّاب ، وبالتّالي فهم يستهلكون كمّاً هائلاً من النَّشاط لتحويلِ وحَرْفِ اهتمامِ أطفالِهم عن جهازِ التّلفزيون ، ومنَ المؤسفِ أنَّ هؤلاء الآباء حينما يفترُ نشاطُهم ، أو تشغَلُهم واجباتٌ أخرىٰ عن أطفالِهم ، يلجؤون إلى صَدْرِ التلفزيون وحضْنِهِ في يأسٍ يكشفُ عن خسارةِ موقعِهم في الصِّراع مع هذا المُصارعِ الآليّ الجذّابِ الأخّاذ السَّاحر.

* لنستمعْ إلى ما يعانيهِ الآباءُ والمربّون والأمّهاتُ في هذا المِضْمار ، وما يبذلُون من جهْدٍ في سبيلِ الاستغناءِ عن سحْرِ التّلفزيون الذي يلقفُ كُلّ اهتماماتِ وهواياتِ حبّاتِ القُلوب ، فهذه أمٌّ لثلاثةِ أطفال صغار تقولُ ما مفاده: إنَّ الشَّيءَ الذي ألاحظُه أنّني أنفقتُ كثيراً من وقْتي ، وشيئاً من

طاقَتي وقُدراتي الذّهنية كي أتحاشىٰ التّلفزيون ، ولقد كانَ لِزاماً عليَّ أنْ أواصلَ التّفكيرَ في أشياءَ أقومُ بها لكي أبعدَ الأطفالَ عن مشاهدةِ التّلفزيون ، إنَّ ميلَهم الطبيعي هو مشاهدةُ التّلفزيون حيثُ لا يكونُ لديهم نشاطٌ محدّد ، وليس في وسْعِي منعهم من ذلك إذا لم أبذلْ بعضَ الجهْد[1] .

* وتقولُ أمٌّ لطفلَيْن: لَسْتُ أريدُ التّلفزيون جليساً للأطفالِ في السَّاعة الثَّالثةِ والنّصف حين يعودُ الأطفالُ منْ مدرستهم؛ ولذلك فإنّي لا أريدهما أنْ يشاهِدا التّلفزيون عندئذٍ فأنا أحتاجُ إليهِ بين السَّاعةِ الخامِسَة والسَّابعة في أثناء إعداد العشَاء ، وهذا هو الوقتُ الذي أريدهما أنْ يشاهِدا فيه ، وهما يشَاهدان التّلفزيون بالفعلِ في ذلك الوقت ، ومنَ المؤكّد أنَّ ذلك يجعل الحياة أسهلَ كثيراً بالنَّسبة لي ، والمشكلةُ أنّهما يريدان أنْ يشَاهِدا في السَّاعةِ الثَّالثةِ والنَّصف أيضاً ، وإنْ لم أخترعْ لهما شيئاً رائعاً يفعلانه ، فلنْ يرغَبا حتى في اللعب ، وهما يزعجانني ويضايقانني لكي أتركهما يشاهدان[1] .

* وهذه امرأةٌ أخرىٰ تذكرُ تجرِبتَها في تقليصِ مشاهدةِ التّلفزيون فتقولُ ما مفادُه: أنا أقضي نهايةَ الأسبوعِ في التّجوالِ بالسَّيارة مع الأطفالِ بينَ الأماكنِ لمجرّد الحيلولة بينهم وبينَ التّلفزيون ، ومرّةً تجوّلْتُ معهم منْ مدينةٍ لأخرىٰ في نزهةٍ بالسّيارة لثماني سَاعات لكي أبتعدَ بالأطفالِ عن جهازِ التّلفزيون[2] .

* وهذه أمٌّ أخرىٰ لا تشاهدُ التّلفزيون ، وتعملُ جاهدةً على التّقليل منْ أهميّتهِ ، بل لإلغائِهِ إنْ تمكَّنَتْ من ذلك ، لكي يقلعَ الطّفلُ عن هذا الجهازِ المجنون الذي سَلَبَ إرادةَ الطّفل ، فَلْنُصْغِ إلىٰ هذه القصّة الهادفَةِ التي

---

(١) انظر: الأطفال والإدمان التلفزيوني (ص ١٨٦ و١٨٧) بتصرف.

(٢) المرجع السابق عينه (ص ١٨٧) بشيء من التصرف والاختصار.

ترويها لنا فتقولُ: منذُ أسابيع قليلةٍ ذهبتُ إلى المستشفى لزيارةِ طفْلٍ صغير كُسِرَتْ ذراعُه ، وهو وَلَدٌ في السَّادسةِ من عمره ، أحبُّه حقيقةً ، وكان هناك جهاز تلفزيون عند نهايةِ سريرِهِ ، وجهاز التّحكُّم في متناولِ يدِهِ ، وقد كانت أمُّهُ أبلغتني أنَّه ينتظرُ زيارتي له بفارغ الصّبر ، ويسألها عني ، ومع هذا وذاك كُلّه فقد سيطرَ ذلك الجهازُ الخبيثُ على الزّيارةِ بأسْرِها ، ومن الطريفِ أنّني وصلتُ ومعي كتابان قَصصيّان رائعان ، وشرعتُ في قراءةِ إحدىٰ القَصص له ، لكنّه كان على وشكِ تشغيل التّلفزيون ، وقد فعلَ ذلك مِراراً لمجرّدِ أنْ يرىٰ ما يعرضه الجهازُ ، ورحتُ أواصلُ قراءةَ القَصصِ ، وإلقاءَ النُّكَات ، ولعبةَ الكلمات والمربَّعات ، لأنّني كنتُ مصمّمةً على الفوزِ على ذلك الجهاز اللعين ، وكان يتعيّن عليَّ أنْ أفعلَ المستحيل لأنتصرَ ، ولكنّه لم يكنِ انتصاراً كاملاً ، ولكنّي حققتُ شيئاً منَ الفوز(١) .

* وبالطبع ، يملأُ الأطفالُ في كثيرٍ من الأُسَر وقتَ فراغِهم بأنفسِهم عن طريقِ تشغيلِ التّلفزيون ، غير أنَّ المنافسة التي ينهمكُ فيها الآباء ضدّ التّلفزيون ، تؤدّي فعليّاً إلى إزالةِ وقْتِ الفَراغِ من حياةِ أطفالِهم ، فإذا تيسَّر جهازُ التلفزيون أو جانبٌ منَ النشاط المُنافسِ دائماً ، فلن يتوفّر للطّفلِ خلال اليوم بطُولِهِ وقتٌ حرٌّ من فِعْل أيّ شيء .

* إنَّ الأبَ الذي يريدُ أنْ يسيطرَ على حياةِ هذا الجهاز ، يبدأُ منْ نقطةِ البدايةِ ، فإذا كانَ قد تزوَّجَ حديثاً ، فليسَ من الضّروري أنْ يكونَ جهاز التّلفزيون من مستلزماتِ فرشِ المنزل ، وذلك حفاظاً على نفسِهِ أوّلاً ، ثم أهلِهِ وأطفالِهِ المُنْتَظرين ، ولكنْ إذا جيءَ بالتّلفزيون رغماً عنه ، فعليه أنْ يَجِدَ طريقةً في التَّخلُّص منه قبل أنْ يكبرَ الأطفالُ ، ويتعلّقُوا به ، ومن ثمّ يصعُبُ عليه وقتَها اتّخاذ القرار بإلغائِهِ أو التّخلّي عنه .

---

(١) المرجع السابق نفسه ، بتصرف .

* وإذا ما حدَثَ أنْ ظلَّ هذا الجهازُ من ثوابتِ البيتِ ، ثمَّ جاء قرارُ الأبِ أو المربّي بالتّخلّي عنه ـ بعد أنْ تعلَّق الأطفالُ به ، وشُغِفُوا بحبّه ـ فهاهنا الحكمةُ مطلوبةٌ ، وعلى الأبِ أنْ يحسنَ الأسلوبَ أو الطّريقةَ في إلغاءِ هذا الجهاز ، إذ إنَّ الاستعجالَ في الإلغاءِ دون تهيئةِ الأطفال لذلك ، ربما سبَّبَ اضطراباً لهم ، وشعوراً بالحرمانِ ، فهم لا يدركون كيفَ يُباحُ لهم المشاهدة بالأمْسِ القريب ، ثم يُحرّمُ عليهم اليومَ فجأةً ، لذا فإنّه لا بدّ من التّدرّجِ[1] .

* وأسلوبُ التّدرُّجِ الرّاجحِ في حلِّ هذه المُشْكِلة ، يخطوهُ الأبُ بثباتٍ ودِرَايةٍ وهدوءٍ ، لأنّه أدرىٰ النّاس بتحديدِ مراحلهِ الزّمنية ، وخطواتِهِ التّطبيقيّة ، فهو أعرفُ النّاس بأطفالِهِ ، ومدى تعلُّقهم بالتّلفزيون؛ ولعلَّ أنجحَ خطوةٍ يخطوها اللجوء إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بإخلاصِ نيّةٍ وصفاءِ قلبٍ ، وطلبٍ منْه أنَّ يلهمَه التّبرُّؤَ منْ مخاطرِ هذا الجهازِ الذي يَسْتَلِبُ حبّاتِ القُلوبِ على عَمْد ، ثمّ يمكنُه بعد ذلك أنْ يضعَ برنامجاً للتّخلّي عن التّلفزيون فيبدأ مثلاً بالتّقليل من مشاهدتِهِ مع أطفالِهِ ، وإذا صادفَ وشاهدَه ، فإنّه يتحيّنُ البرامجَ النّافعةَ ، كالنّدوات أو الأفلامِ العلميّة أو الأدبيةِ؛ ويُظْهِرُ الأبُ التّذمُّرَ والتّأفّفَ من بعضِ البرامجِ التّلفزيونية السّيئة ، ويعلِّقُ عليها ، ويبيّنُ مخالفتَها وانحرافاتِها عن جادّة الصّواب ، ويحاولُ أنْ يغلِقَ الجهاز ، فإذا تعوّدَ الأطفالُ على هذا ، فيكونُ المربّي قد نجحَ نجاحاً كبيراً في خطّته المرسومة ، وحمى الأطفالَ من الخَطرِ الذي يضمرُهُ التّلفزيون ، وتكنُّه البرامجُ. ثم يأخذُ المربّي بخطوةٍ أخرىٰ فيعملُ علىٰ تزهيدِ الأطفالِ في معظمِ البرامجِ ، ومنها البرامجُ المخصّصة لهم ، وقد يجدُ في هذا بعضَ الصُّعوبة لتعلُّقِ الأطفالِ ببرامجِ الأطفال؛ ولصعوبة إقناعِهم بفسادِها وضررِهَا ، ولكنْ لا بدَّ منَ الصَّبرِ ، والملاطفةِ معهمَ ،

---

(١) مسؤولية الأب المسلم (ص ٥٠٤) بتصرف واختصار.

واستبدالِ المشاهدةِ التّلفزيونية بالوسائل المشروعَة التي تفيدُ الأطفال ، كأنْ يستخدمَ جهاز الفيديو في عرضِ عملٍ مفيدٍ ، ومعلوماتٍ قيّمة ، وما شابَهَ ذلك ، ولا مانعَ من استخدامِ ألعاب الكمبيوتر الهادفةِ المشوّقة التي تساعدُ على تنميةِ المَهارات المتنوّعة الذّهنية منها واليدوية والحركيّة ، فيستطيعُ مثلاً أنْ يستخدمَ المسابقاتِ التّاريخيّةَ الهادفةَ والمعلوماتِ المهمّةَ العامّة ، والسّيرةَ النّبويّة ، وعلومَ القُرآن ، وبرامجَ تعليمِ اللغة العربيّة والتّدريبَ على إجادة الفُصحى ، وبرامجَ التّدريب على الرّياضيات والحسَاب والفيزياء ، وغيرَ ذلك منَ الأشياءِ الهادفةِ المفيدة ذات الإعْدَادِ الجيّد ، والفائدةِ المرجوةِ ، وبهذه الطّريقةِ التّربويةِ الهادفةِ يكونُ الأبُ أو المربّي قد حفظَ الأطفالَ من خَطَرِ التّلفزيون بتزهيدهم في برامجِه ، وإعطائِهم البديلَ النّافع الذي يشْغَلُ وقتَ فراغِهم ، وينفعُهم بمعلوماتٍ جديدة ، وعندها يستطيعُ الأبُ أنْ يصارحَ الأطفالَ بالتّخلّي عن التّلفزيون ، والحياةِ دونَه تحت عنوان : «حياةٌ لا تلْفزيونيّة» . .

* نعم يمكنُ أنْ يرفعَ المربّي الحصيفُ شعارَ : لا تلفزيون ، لا تلفزيون ، لا تلفزيون أبداً ، وقد جرَّبتْ بعضُ الأسرِ الحياةَ دونَ تلفزيون ، وقرّروا العيشَ دونَ هذا الجهاز الذي حوّلَ بعضَهم إلى صَعَاليك ؛ فصَعَاليكُ التّلفزيون عندما كثُروا وقطعُوا الأوقاتِ وقتلُوا الفَراغ بالفَراغِ ، ضجّتْ منهمُ الحياةُ المدَنيّة ، فثَابَ بعضُهم إلى رشدِهِ وامتنعَ عن التّلفزيون ، وخصُوصاً بعضُ حَديْثي الزَّواج ، وقد أدلى بعضُهم قائلاً : لقدْ رأيْنَا كمتزوجينَ جُدُد أنَّه ليس هناك حاجةٌ حقيقيةٌ إلى جهازِ تلفزيون ، وبعد إعادةِ نَظَرٍ عدّة مرّات بينَ فترةٍ وأخرى ما يزالُ لدينا الشُّعور نفسُه وهو أنَّ التّلفزيون ليس مُهِمّاً لنَا .

* ومنَ المستحسنِ في حياةِ الهُدوء وتحتَ شعارِ «أحبُّ أنْ أعيشَ حياةً لا تلفزيونية» أنَّ كثيراً من المتزوّجين حديثاً قد تحاشُوا تملّكَ التّلفزيون عند إنشاءِ صرحِ الزّوجيّة خيفةً منْ أنْ يعجزُوا في المستقبلِ عنِ السَّيطَرة

عليه؛ وقد وصَفَه أحدهم بالعدوّ فقال: لماذا أُحضرُ العدوَّ إلى منزلي؟!

* ومنَ الجميلِ في الحياةِ «لا تلفزيونية» أنَّ كثيراً منْ أكابرِ الأُسَرِ الذين لم يمتلكوا قطّ جهازَ تلفزيون في بيوتِهم قد أعربُوا عن حُبِّهم للحياةِ الهادئةِ وأنّهم لا يرغبُون في شراءِ هذا الجهازِ الثّرثار الفُضولي بإرادتِهم. . وكذلك كانَ رأيُ أطفالِهم، يقولُ طفلٌ في سنّ الثّامنةِ: نحنُ لا نملكُ جهازَ تلفزيون، لأن لدى أسرتنا أشياء أخرى نفعلُها، وعندنا منَ التّسليةِ ما هو أكثر.

* بينما نجدُ طفْلاً في العاشرةِ ينعىٰ على الأطفالِ ـ الذين يشاهدونَ التّلفزيون ـ طريقَتَهم وحياتَهم فيقول: كثيرٌ منَ الأطفالِ الذين أعرفُهم يشاهدونَ التّلفزيون طوالَ الوقتِ، وهو أمرٌ مُحْزِنٌ.

* وتشيرُ إحدىٰ الأمّهاتِ إلى أنَّ الأطفالَ يشعرون بالفخرِ لعدمِ وجودِ تلفزيون عندهم، ويطيبُ لهم أنْ يقولوا إنّنا لا نمتلك هذا الجهاز.

* إنَّ الأسرَ التي لم تمتلكْ أيّ جهاز تلفزيون تتميّزُ بمزيدٍ من الودّ، وبمزيدٍ منَ الأحاديثِ الأسريّة التي يدورُ معظمُها في أثناءِ وجباتِ الطّعام، إذ يبدو أنَّ أفرادَها يقضُون وقتاً أطولَ وهم يأكلونَ معاً مقارنةً بالأسرِ الأخرى.

* وغالباً ما تحاولُ الأسرُ التي جعلَتْ شعارها: «حياة لا تلفزيونية» أنْ تستبدلَ وقْتَ المشاهدةِ بألعابٍ وأنشطةٍ أُسريةٍ، وقد صرَّحَت إحدىٰ الأمّهات عن قضاءِ وقتِ الفَراغ في أسْرتها، وخصوصاً عندما يأتي المَساءُ، ونجومُ الليل تنتثرُ في الفَضَاء، فتقولُ: نقضي حياةً لا تلفزيونية ببساطةٍ، فكلٌّ واحدٍ منْ أفرادِ البيت يقرأُ بنفسهِ على انفرادٍ، وفي الصَّيفِ يظلُّ الأولادُ يلعبونَ خارجَ البيتِ حتى موعدِ النّوم. وتضيفُ أمٌّ أخرى وتقول: لا أظنُّ أنَّ الأطفالَ الذين يُخَدّرُهم التّلفزيون ينامونَ فعلاً في أثناءِ المشَاهدة، إنّهم فقط يجلسونَ أمامَه غائبين عنِ الوعي. لذا أتوكأُ علىٰ

قراءةِ القَصص للأطفالِ ليستعيضوا بها عن التّلفزيون.

* ومنَ المطربِ أنَّ كثيراً منَ الأُسَر قد بدأتْ تقتنعُ بعدم شراءِ جهازِ التّلفزيون، لأنّهم أَلِفَوا الحياةَ رغيدةً بغيابهِ عن بيتهم، بل إنَّ أَطفالَهم كانُوا أكثرَ ثقافةً من غيرِهم، وقد عبَّر بعضُ المربّين عن هذا الأمْرِ ودافعَ بشدّة عن رأيهِ في التّلفزيونِ، وأعربَ عن ابتهاجِهِ بحياتهِ الأسريةِ دون التّلفزيون فقال: لقد اتّهمنا بعضُ النّاس مرّات كثيرة بأنّنا نَحرِمُ أطفالنا ثقافيّاً، ويدهشُك ما قد تراهُ لدىٰ كثيرٍ منَ النّاس من انفعال ومن غضبٍ حينما تعبّرُ عن فكرةِ عدمِ استحسانَك للتّلفزيون، إنَّ ذلكَ أسوأ من التّهجّم على الأمومةِ، ولكنّا نصطحبُ أطفالنَا إلى الأماكنِ التي تزيدُ من ثقافتِهم، ونحن مسرورون بنمو أطفالنا عقليّا وجسديّاً فهم نَشطونَ ومتحمّسون إلىٰ الاستطلاع، وهم يحبّون القراءةَ، ويحققُون نتائجَ طيّبة في المدرسةِ. ثم أوصىٰ آخرَ الأمْر قائلاً: اطردُوا هذا الغريب منْ بيوتِكم، وأخرجوه من حياتكم، وانجوا بحياتِكم منه.

* وبعد، فهل يمكنُ التّخلي عن التّلفزيون؟! هذا ما نرجُوه لكي تتحّققَ الحياةُ السَّعيدةُ للأطفالِ.

* إنَّ مهمةَ المربّي في هذا المجالِ تحتاجُ إلى المتابعةِ والمثابرةِ، وكثرةِ التّوجيه والبيان وتحيُّنِ الفُرص المناسبة لذلك، بالإضافةِ إلى التّحلّي بالصَّبرِ، والتّلطّفِ مع الصِّغار لتحقيقِ ما نصبو إليه، وأنْ يجعلَ النّبيّ ﷺ قدوةً في تربيةِ الأطفالِ والصّبرِ على هنَاتِهم، ومتابعتهم مرّة بعد مرّة حتّى ينصاعُوا للأمْرِ، وينفّذُوه برغبةٍ ومحبّةٍ؛ وقد حدّثنا سيّدُنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ عن هذا المضْمَار ـ كما جاءَ في السُّنن ـ فقالَ: كانَ رسولُ الله ﷺ منْ أحْسَنِ النَّاس خُلُقاً، فأرسَلني يوماً لحاجةٍ، فقلتُ: واللهِ لا أذهبُ؛ وفي نفسي أنْ أذهبَ لِمَا أمَرني به نبيُّ الله ﷺ؛ فخرجتُ حتى أمرَّ على الصِّبيانِ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ قابضٌ بقَفَايَ من

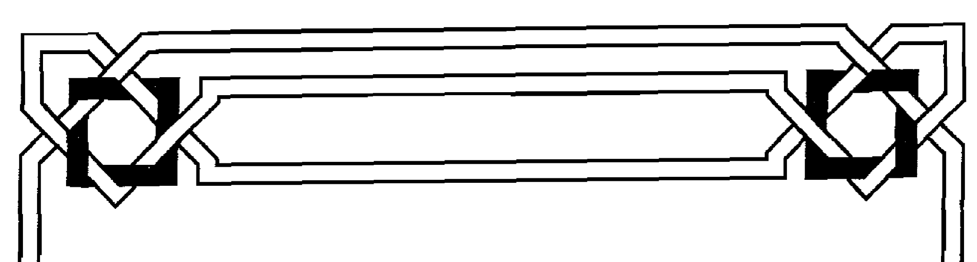
ورائي ، فنظرتُ إليهِ وهو يضحكُ ، فقال: «يا أُنيسُ اذهبْ حيثُ أمرتُك» . قلتُ: نعم أنا أذهبُ يا رسولَ الله[1] .

* ويستفيدُ المربّي منْ هذا الحديثِ النّبويّ الشَّريف الصَّبرَ والاقتداءَ برسولِ اللهِ ﷺ في متابعةِ الأطفالِ ، ومعاملتَهم بشيءٍ من الودّ الهامِس والملاطفةِ والإحسانِ كي ينفّذُوا ما يريدُه الآباءُ والمربّون .

* وبعد ، فعلىٰ المربّي أنْ يطلبَ منَ اللهِ العونَ في تربيةِ الأطفالِ على النّهجِ الصَّحيح ، وأنْ يلحَّ في الدَّعاء إذ «الدعاءُ سلاحُ المؤمنِ ، وعمادُ الدّين ، ونورُ السَّموات والأرضِ»[2] .

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٤٧٧٣) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك .



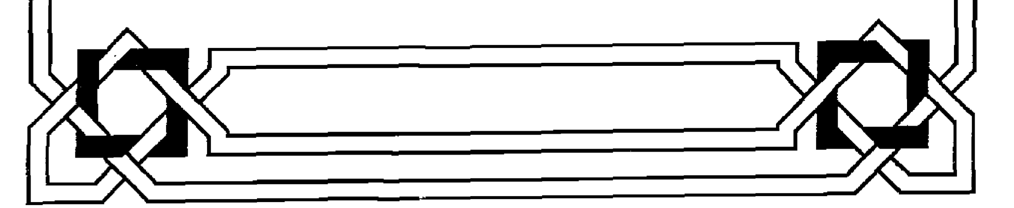
الباب الخامس

قطوف أدبية للطفل

الفصل الأول، أناشيد وقصائد للطفل والطفولة

الفصل الثاني، وصايا ونصائح للطفل

الفصل الثالث، قصص وخواطر عن الطفل والطفولة



الفصل الأول
أناشيدُ وقَصائدُ للطِّفْل والطُّفولة

* هذه بعضُ الأهازيج الحلوةِ تخيّرتُها من بين مئات بل آلاف الأناشيدِ والقصائدِ ، لتكونَ زاداً للطِّفل ، وتكونَ نوراً يضيءُ الدَّربَ أمامَ البراعمِ البريئة.

* وتصلحُ هذه المختاراتُ اللطيفةُ للحفْظِ والمذاكرةِ ، حيث تنشّطُ أذهانَ الأطفالِ ، وتزيدُ من ثروتهم اللغوية ، وحصيلتِهم الدّينية المفيدةِ المناسبة ، وهي مختلفةُ المشارب ، ولكنّها تجتمعُ تحتَ ظلالِ الفضائل ، إذ ينظمُها خيطُ الخُلق الكريمِ ، والعاداتِ الطّيّبة ، والتّصرّفات اللائقةِ بالطِّفل.

* من ذلك أنّنا نحكي للطِّفل قصّة الحبيبِ المصطفىٰ سيّدنا ونبيّنا محمّد ﷺ بأسلوبٍ شائقٍ لطيفٍ ، ونلوِّنُ في الصَّوتِ بشكلٍ مُحبّبٍ ، ليستوعب الطِّفلُ السِّيرةَ المحمّديّة بما يتناسبُ مع سِنِّه ، والآن سنعيشُ سوياً مع أنداءِ هذه الأهزوجةِ العذبةِ التي تروي قصّة النّبيّ ﷺ في هذا الأسلوبِ السَّهل ، ويُنْصح بأنْ يردِّدَها الطّفلُ أو مربّيه حتى يحفظها ، أو نردِّد له مقطعاً مقطعاً حتى يحفظها ، فإلىٰ الأهزوجة: «محمّد رسول الله ﷺ»:

صَـــاحــــبُ القُـــــرآن	خـــــاتَـــــم الـــــرُّســـــل
شَفيـــــــــعُ الأنَـــــــام	وهـــــــــادي السّبـــــــل
وُلــــــد فـــــي قُـــريـــش	بمكـــــــةَ المكــــــرمـــــة

مِنْ بني هاشِم وجدُّه عبد المطلب
أبوه عبدُ اللهِ وأُمُّه آمنه
وفي عامِ الفيل كانَ مَولدُه
ماتَ أبوه وكانَ جنينا
وماتتْ أمُّه وكانَ يتيما
ربّاه جدُّه بَعْد أُمِّه
أدَّبه ربُّه في بيتِ عمّه
واشتغلَ بالتِّجارة واشتهرَ بالكرم
وكانَ صادقاً أميناً وكان راعي غنم
وفي الغارِ البعيد واسمُه غار حِراء
يفكِّر في الإله وينظرُ في الفَضَاء
وزاره جبريل سفير الأنبياء
وقالَ له اقرأ اللهُ في السَّماء
وحَاربَ الأصناما وسفَّه الأحلاما
ودعَا للإسلام والخيرِ والسَّلام
فحارَبَه الكفّار وأجمعوا بقتله
فهاجرَ للمدينةِ محمّد وصحبه

* ويمكنُ للمربّي أنْ يذكِّرَ الطِّفل أو يسمعَه نشيدَ «طلع البدرُ علينا» ومن ثمّ يكملُ له بقيّة الأُهزوجة:

وآخىٰ في المدينة وأصْلَح الخِصَام
ونادىٰ في الرِّجال اطْردُوا اللئام
فأصبحَ الجميع في عزّ وسلام
بالخيرِ والمحبَّة أنشودة الإسلام

* ومن اللطيفِ في الهمساتِ الأدبيةِ المندّاة برقائقِ الكلماتِ الجميلةِ، هذه الأنشودة الحُلوة ذات الظِّلِّ الجميل الخفيفِ الرّفيقِ، والتي تتحدَّثُ عن مهمّةِ الأنبياءِ والرّسل، كما تحكي بعض صفاتِهم

وأهدافهم ومعجزاتِهم وأزمانهم ، فتعالوا إلى أهزوجةِ «الأنبياء والرّسل» :

الأَنْبيـــاءُ كلُّهـــم نحبُّهـــم نجلُّهـــم
والـــرّســـلُ دامَ فَضْلُهـــم فـــي الأرضِ يبقـــىٰ ظلّهـــم
نِـــداؤُهـــم مـــوحَّـــدُ وآمنـــوا ووَحَّـــدُوا
وأصْلَحُـــوا وأرشـــدوا وربَّهـــم يـــدلُّهـــم
أزمـــانُهـــم تفـــاوتَـــتْ آيـــاتُهـــم تبـــايَنَـــتْ
أهـــدافُهـــم تـــوحَّـــدَت وللهُـــدَىٰ سبيلُهـــم
بـــالمعجـــزاتِ أُنْـــزِلُـــوا بـــالبيِّنـــاتِ أُرسلُـــوا
وحـــرَّمُـــوا وحلّلـــوا والـــوحـــيُ مُـــرشـــدٌ لهـــم
هـــم الهـــداةُ للعبـــاد وقـــدوةٌ إلـــى الـــرّشـــاد
وفـــي ميـــاديـــنِ الجهـــاد عطـــاؤُهـــم وبـــذلُهـــم

* وعن محبّةِ القُرآنِ العظيمِ الذي فيه سعادة الدَّارَيْن ، لنسمعُ حبّاتِ القلوب هذه القصيدةَ الهادفةَ المفيدة :

هـــا نحـــنُ تلَـــوْنـــا القُـــرآنـــا وأقمْنَـــا تلـــكَ الأركـــانـــا
بـــالحـــقِّ ازدَدْنـــا إيمـــانـــا وعَبْـــدنـــا اللهَ الـــرّحمـــانـــا
فـــي الآي رشـــادٌ وضيـــاءُ وهـــدىً وســـدادٌ وشفـــاء
لا يبقـــىٰ فـــي جَسَـــدٍ داءُ لـــو حَفِـــظَ المـــرءُ القُـــرآنـــا
أنـــزلَـــه اللهُ علـــىٰ الهـــادي فَمَحـــا آثـــارَ الإفْسَـــاد
وتحـــدَّىٰ ظُلْـــمَ الإلحـــادِ بـــالحـــقَّ أزالَ الأوثـــانـــا
قـــد أعجـــزَ كـــلَّ الفُصَحـــاء وتحـــدّىٰ كـــلَّ البُلغَـــاء
وتحـــدَّىٰ الجِـــنَّ فَمـــا اسْطـــاعُـــوا والعجـــزُ لـــديهـــم قـــد بَـــانـــا

* ولكي نغرسَ حبَّ الفضيلةِ في نفوسِ الأطفالِ الغضّة ، نسمعُهم من مثلِ هذا النَّشيد :

رأيـــتُ الجَمـــالَ جمـــالَ الفَعَـــال
وأنَّ القبيـــحَ قبيـــحُ الخِصَـــال

وخيـــرُ الفَضـــائـــل صــــــدقٌ يُقَــــال
وشـــرَّ الـــرَّذائِـــل كـــــذبُ المقَــــال

* ومن الأناشيدِ العذبةِ نشيد «الله ربّي»:

إنْ ســـألتـــمْ عـــن إلهـــي هـــو رحمـــنٌ رحيـــم
أو ســـألتـــمْ عـــن نبيِّـــي فهـــوَ إنســـانٌ عظيـــم
أو ســـألتـــمْ عـــن كتـــابـــي فهـــو قُـــرآنٌ كـــريـــم
أو ســـألتـــمْ عـــن عـــدوّي فهـــو شيطـــانٌ رجيـــم

* وللصَّلاةِ مساحاتٌ واسعاتٌ في أزاهرِ الأناشيدِ العطرةِ التي تحدَّثَتْ عن هذا المجالِ الرئيسيّ في الإسلام، فقد بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خَمْس منها الصَّلاة، ومن خلال القطوفِ الأدبيةِ الدَّانيةِ، نقرأُ علىٰ مسمعِ الطِّفل بعضَ الأناشيدِ الخفيفةِ المحبّبة التي ترغِّبُ في الصَّلاة، ومنهاَ هذه الأهزوجة العبقة بعنوان «قومُوا صلُّوا»:

قـــومُـــوا صلُّـــوا للـــــرّحمٰـــــن
ربٌّ فَـــــــرْدٌ عـــالـــي الشَّـــان
مـــا للنَّـــاسِ ربٌّ ثَـــــان
هـــو خـــالِقُنـــا يـــا إخـــوان
هـــو يكـــرِمُنـــا بـــالإحْسَـــان
هـــو يشملنـــا بـــالغُفْـــران
مـــا للنَّـــاس ربٌّ ثَـــــان
هـــو يحفظُنـــا بـــالإيْمَـــان
هـــو يهـــدينـــا بـــالقُـــرآن
قـــد علَّمنـــا خيـــرَ بيَـــان
غَيْـــــرَ الله كُـــــلٌّ فَـــــان

* ويمكن أنْ نلفتَ نظرَ الطِّفْلِ إلىٰ مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بشتّى ألوانِها وأشكالِها من خلالِ هذه الأهزوجةِ الفاتنة:

فـــي مَطْلـــعِ الفَجْـــر   النُّـــورُ يـــأتينـــا
مـــن بَعْـــد مـــا نِمْنـــا   اللهُ يُحيينـــا
والـــدِّيـــك يُسمِعُنـــا   صـــوتـــاً يُحيِّينـــا
فـــي كـــلِّ مئْـــذَنـــةٍ   داعٍ ينـــادينـــا
هيـــا إلـــىٰ الخيـــرِ   قـــومُـــوا مصلِّينـــا
ولتشكـــروا المـــولـــىٰ   فـــاللهُ بـــارينـــا
هيـــا إلـــىٰ الـــزَّهْـــرِ   شمُّـــوا الـــرَّيـــاحينـــا

* وأمّا نشيدُ «الشَّمس» فَلَهُ طعْمٌ خاص:

يـــا شَمـــسُ مـــا أَحْـــلاكِ   الله قَـــدْ أَنْشَـــاكِ
فـــي كـــلِّ يـــوم زرعُنـــا   يَخضَـــرُّ إذْ يلقـــاكِ
والنّـــاسُ فـــي أوطَـــانِهـــم   يَحْيَـــوْنَ مـــنْ أَضْـــوَاكِ
والطَّيـــرُ فـــي أعشـــاشِهـــا   تُسَـــرُّ مـــنْ مَـــرْآكِ
فَلْتَطْلُعـــي فـــإنّنـــي   وإخـــوتـــي نَهْـــواكِ
ولتسمعيـــنَ قـــائِـــلاً   سبحـــانَ مَـــنْ أَجْـــراكِ

* ولنشيد «الله ربنا» وقعٌ خاص بنفْسِ الطِّفل ، إذا استطاعَ المربّي أنْ يصلَ من خلالهِ إلىٰ الهدفِ المنشودِ ، من تحريكِ كوامنِ التّفكيرِ في قدرةِ اللهِ ، والإجابةِ عن ذلك بأبسطِ الكلمات ، إذ إنَّ هذا النشيدَ يحملُ التّساؤل ، والإجابةَ ، فلنسمع إلى هذا النّشيد اللطيف:

مَـــنْ أنـــزلَ الأَمْطـــارا   وفجَّـــرَ الأنهـــارا
وأنْبـــتَ الأَزْهـــارا   اللهُ ربُّنـــا
مَـــنْ زيَّـــنَ السَّمـــاء   بـــالنَّجـــم والضِّيـــاء
ويـــرفـــعُ الـــدُّعـــاء   اللهُ ربّنـــا
مَـــنْ علَّـــم العُصْفـــورا   فـــي الجـــوِّ أنْ يطيـــرا
يسبِّـــحُ القَـــديـــرا   اللهُ ربُّنـــا
مَـــنْ أنطـــقَ اللّســـانـــا   وأسمـــعَ الآذانـــا
وعَلَّـــم الإنســـانَ   اللهُ ربُّنـــا

* والأطفالُ جميعاً يدعون بهذا الدُّعاء الهامِس:

نحـــنُ أطفـــالٌ صغَـــار   مثْـــلُ أزهـــارِ الـــرَّبيـــع
عنـــدمـــا يبـــدو نَهـــار   نســـألُ الله السَّميـــــع
حفْـــظَ آبـــاءٍ كـــرامٍ   فـــي حِمـــاهُـــم لَـــنْ نَضيـــع
ربَّنـــا احفـــظْ أمّهـــاتٍ   هُـــنَّ كـــالحصـــنِ المنيـــع
سَـــاهـــراتٍ بـــالليـــالـــي   حَـــافظـــاتٍ للـــرّضيـــع
واجعـــلِ الأشجـــارَ تعطـــي   كُـــلَّ خيـــرٍ للجَميـــع
وامْـــلأ الـــدُّنيـــا سـلامـــاً   واحفـــظ الكـــونَ البـــديـــع
حقّـــقِ الآمـــالَ فينـــا   يـــا مجيـــبُ يـــا سَميـــع

* ومن أدعيةِ الطِّفل المحبَّبة هذا الدُّعاء بعنوان: «يا إلهي»:

يا إلهي

امنـــحِ العُصفـــورَ ريشـــاً   وكـــذا الينْبـــوع مـــاء
وامنـــحِ الحمْـــلان صـــوفـــاً   والفَضَـــا طـــلَّ السمـــاء

يا إلهي

وارْزُقِ المسكيـــنَ قُـــوتـــاً   وامنـــحِ المـــرضـــىٰ الشِّفـــاء
واجْعَـــلِ المـــأســـورَ حـــرّاً   يتَّجـــهْ حيـــثُ يشَـــاء

يا إلهي

وامْنَـــح الأيتـــامَ مـــأوىٰ   وذوي اليـــأسِ الـــرّجـــاء
أنـــتَ وهّـــابٌ كـــريـــمٌ   أنـــتَ ينبـــوعُ السَّنـــاء

يا إلهي

* ومنَ الأناشيدِ التي تغذّي عقْلَ الطِّفل هذا النَّشيدُ الجميلُ بعنوان «الله الهادي»:

مَـــنْ علَّـــم العصفـــورَ أنْ   يبنـــيَ عشّـــاً فـــي الشَّجـــر
محصّنـــاً شيّـــده   بغيـــرِ مـــاءٍ أو حَجـــر
مَـــنْ علَّـــم النَّحلـــة أنَّ   الـــزَّهْـــر أصـــلٌ للعَســـل

تظـــلُّ طـــولَ يـــومهـــا تجمعُـــــهُ بـــــلا مَلَـــــل
مَــــنْ علَّـــم البلبـــلَ أنْ يتلـــــوَ أصـــــواتَ الهَنَـــــا
يـــرطـــبُ كـــلَّ ســـامـــعٍ بكـــــلِّ لحـــــنٍ وغِنَـــــا
اللهُ قـــــــد علَّمَهـــــــاً ذاكَ وأعْطَـــاهـــا الهُـــدىٰ
وهـــو لكـــلِّ مُـــرشـــدٌ لكـــلّ خيـــرٍ أيَّـــدا

* وهذا نشيد يخصُّ البناتِ الصَّغيراتِ بعنوان «ابنة الإسلام» ، وفيه وقفاتٌ تربوية جميلةٌ ، فلنسمعه :

يــا بنــةَ الإســلام قُــومــي فــي حمــىٰ ربِّ السَّمــاء
ولــه صلِّــي وصُــومــي فــي خشــوعٍ وصَفَــاء
املِئــي قلبَــك نــوراً مــن هــدىٰ الــدِّيــنِ القــويــم
واجعلــي النَّفْــسَ طهــوراً بتُــقَــىٰ اللهِ العظيــم
يــا بنــةَ الإســلام قُــومــي فــي حمــى ربِّ السَّمــاء
عــامِلــي النَّــاسَ بِلِيْــنٍ وأطيعــي والــديْــك
واشكــري فــي كــلِّ حيــن نِعَــمَ اللهِ عَلَيْــك
يــا بنــةَ الإســلام قــومــي فــي حِمــى ربِّ السَّمــاء
أنــتِ فــي فَجْــر حيــاتِــك للعُــلا تستقبليــن
فــاتَّبعــي فــي خطــواتِــك أُمّهــات المــؤمنيــن
يــا بنــةَ الإســلامِ قــومــي فــي حمــىٰ ربِّ السَّمــاء

* ومن الأناشيدِ المطربةِ تلكم التي تتحدَّثُ عن طاعةِ الوالدين وعن فضلِهما ، وتحثُّ علىٰ محبّتهما ، وطلبِ مرضاتهما ، وإليكم هذه الأنشودةُ العذبةُ التي اقتطفناها منْ أزاهرِ الأدبِ الموجَّه للطِّفلِ والطُّفولة ، وهي بعنوان «محبَّة الوالدين» :

مـــا رضـــاءُ الله إلاَّ فـــي رضـــاءِ الـــوالـــدَيْـــن
مَـــا جمـــالُ الكـــونِ إلاّ بِحَنـــانِ الأبـــوَيْـــن
أَبَـــوَا الإنســـانِ بعْـــدَ اللهِ أولـــىٰ بـــالمحبَّـــة

كـــلُّ مَـــنْ يغضـــبُ أمَّـــاً   أو أبـــاً يغضـــبُ ربَّـــه

* وهذه «أنشودةُ الصَّباح» أمامَ الوالدَيْن:

مَـــولايَ يـــاذا الجُـــود   يـــا مبـــدعَ الـــوجـــود
ارْزُقْ أبـــي السَّـــلامـــة   فـــي السَّيـــر والإقـــامـــة
وأجـــــزِلِ العطيَّـــــة   لأُمِّـــــيَ التَّقيَّـــــة
ومَـــنْ لـــه فـــي الأدبِ   علـــيَّ فَضْـــلٌ كـــأبَـــي
وانشـــرْ علـــىٰ الأنـــام   بشَـــارةَ الإســـلام

* وتعالوا نقرأ جميعاً هذه الأهزوجة النَّشوىٰ الرّائعة التي تتحدَّث عن فَضْل الأم وتضحيتها في سبيل سعادة طفلها:

أحَـــبُّ النَّـــاسِ لـــي أُمِّـــي   ومَـــنْ بـــالـــرُّوحِ تفـــديـنـــي
فكـــمْ مـــنْ ليلـــةٍ قـــامَـــتْ   علـــىٰ مَهْـــدي تغطِّينـــي
بصـــوتٍ نـــاعـــمٍ عـــذْبٍ   وإنشـــادٍ تغنِّينـــي
تخـــافُ علـــيَّ مـــن بـــردٍ   ومـــن حـــرٍّ فتحميْنـــي
بـــروحـــي ســـوفَ أفـــديهـــا   كمـــا بـــالـــرُّوح تفـــديـنـــي
وأسعـــىٰ فـــي هَنَـــاءِتِهـــا   كمـــا تسعـــىٰ لتُـــرضينـــي

* وما أعذبَ كلمة «أمّي» وما أنداها وأعطرها!! بل ما أحلاها! فقد جمعتِ الخيرَ كلّه واللّغة كلّها ، فالألفُ أوّل حروفِ الأبجديّة ، والياءُ آخرها ، والميم للمحبّة ، وما أكبر فَضْل الأُمّ على طفلِها خصوصاً تلك التي تعرفُ حدودَها وواجباتِها وما لها وما عليها ، وتلك التي تنشرُ السَّعادة في جو بيتها ليكونَ مقيْلاً جميلاً ظليلاً لزوجها وطفلِها ، فهذه الأمُّ التي تستحقُّ كلّ شيء ، وتستحقُّ التَّضحية ، أمّا التي تحيا من أجلِ أنْ تُحيي النّكدَ والتَّنغيص على طفلِها وزوجها ، فإنّا نسألُ اللهَ أنْ يهديَها ويصلحَها ، ويجعلَها من اللواتي يصلح أنْ نشدوَ أمامهنَّ بهذهِ المُناجاة:

مناجاة «يا أمي»

يـــا أُمِّـــي أنـــتِ سَقيتنـــي   لَبـــنَ التَّـــوحيـــدِ مـــع الفِطْـــرَه

وغرستِ حنانِكِ في قَلبِي من أوَّلِ رشْفي للقَطْرَه
ونفحتِ أريجَكِ إيماناً كالوردِ إذا أهدىٰ عِطْره
مَنْ مثلُك يا أمّي قَدْراً أقدامُك تاجٌ للغُرّه
أقدامُكِ تاجٌ للغُرَّه

مَنْ غيرُكِ يا أمّي يَقِظٌ في الليلِ إذا هجمَ الكَربُ
مَنْ غيرُكِ يا أمّي قَلِقٌ مَنْ دائي إنْ عجِزَ الطّبُّ
لو صحَّ سُجودي يا أمّي في حُبّكِ ما امتنعَ القَلْبُ
في حبّكِ ما امتنعَ القَلْبُ

في حُبّكِ أفنيتُ حياتي لكنّي لستُ أُكافيكِ
يا أمّي إنْ عجزَ لساني عنْ شكرِك ربّي يجزيكِ
لو كانَ البِرُّ بأنْ تطئي خدَّيَّ فيا حظّي فيكِ
خدَّيَّ فيا حظي فيكِ

في حقِّك آياتٌ تُتلىٰ مرَّ الأيّام ووُصِّيْنا
لا يقدرُ أحدٌ إيفاءً لحقوقِك مَهْما أدَّينا
لكنَّ فؤادَكِ إحساناً كم يرضىٰ عنّا وعلَينا
كم يرضىٰ عنّا وعلينا

* إنَّ الرحلةَ مع الأمِّ رحلةٌ شائقةٌ مفيدةٌ أنّى اتّجهنا ، وأنّى ذهبْنَا ، لذا فإنَّ برَّهَا واجبٌ علىٰ الطِّفلِ ، ويجبُ علىٰ المُربي أنْ يغرسَ في نفسِ الطِّفل برَّ الوالدَيْن وخُصوصاً الأمُّ التي أوصىٰ رسولُ الله ﷺ بها فقال: «إنَّ اللهَ يوصيكم بأُمّهاتكم ، إنَّ الله يوصيكم بأمّهاتِكم ، إنَّ الله يوصيكم بأُمّهاتكم ، إنَّ الله يوصيكم بآبائِكم»[1] ، ولذا فإنَّ قَلْبَ الأمّ ليس له مثيل ، إذاً فلنسمعْ هذه القصيدة الشَّهيرة بعنوان: «قَلب الأم» ؛ وهي من القصائدِ الهادفةِ إذا أحسنَ المربيّ تعليمَها للطّفل واستغلَّ العِبْرةَ والعِظات بها ، وهي من تأليف الشاعر الشيخ إبراهيم المنذر:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وانظر صحيح الجامع برقم (١٢٤٩).

أغْرىٰ امرؤٌ يوماً غُلاماً جَاهِلاً بنقـودِه كيمَـا ينـالَ بـهِ الـوَطَـرْ
قـالَ ائتِنـي بفُـؤادِ أُمّـك يـا فتـىٰ ولَكَ الجَواهِرُ وَالدَّراهِمُ وَالدُّرَرْ
فمضَىٰ وأَغمدَ خنْجَراً في صَدْرِها وَالقَلْبُ أخرجَهُ وعَادَ عَلىٰ الأثَرْ
لكنّـه مـنْ فَـرطِ دهْشَتـه هَـوىٰ فتدحْرجَ القَلْبُ المقُطَّع إذْ عَثَرْ
نَـادَاهُ قَلْـبُ الأُمِّ وهـو مُعفَّـرٌ وَلدي حَبيْبي هَلْ أصَابَك منْ ضَررْ
فكَأنَّ هذا الصَّوتَ رغْم حُنوِّهِ غضَبُ السَّماءِ علىٰ الغُلام قَدِ انْهَمَر
فـارتـدَّ نَحوَ القَلْب يغْسِلُه بِمـا فاضَتْ بهِ عيناهُ مِنْ دَمْعِ العِبَرْ
وَدَرىٰ فَظيـعَ خيـانـةٍ لـم يـأْتِهـا وَلَـدٌ سـواهُ منـذُ تـاريـخِ البَشَـرْ
واسْتـلَّ خنجـرَه ليطْعَـنَ نَفْسَـه طَعْنـاً ليبقـىٰ عبـرةً لمـنِ اعْتَبَـرْ
ويقولُ يا قلبُ انتقمْ منّي ولا تغْفِـرْ فـإنَّ جـريمَتـي لا تُغْتَفَـرْ
نـاداهُ قَلْـبُ الأمّ كُـفَّ يـداً ولاَ تذبحْ فؤادي مَرّتَيْن علىٰ الأثَرْ

* وهذه القصيدةُ منَ القصائدِ المشهورةِ علىٰ الألسنةِ ، ومن خلالِ معانيها التي نشرحُها للطِّفلِ ، نعرفُ مكانةِ الأمّ وقَدْرها وإنْ كانتْ رمزيّةً .

* وهذه قصيدةٌ في غايةِ الجمالِ ، يظْهرُ فيها قلبُ الأُمّ العظيم الذي يسعُ كلّ مشاكلِ الأطفالِ في عبثِهم وجدّهم وكِبَرهم وصِغَرهم ، وهي بعنوان «إلى أمّي» للشّاعر المفنّ «راضي صدُّوق» وقد قدّمَ لها بهذه الكلمات : «كانتْ ـ أمّي ـ تنهضُ في ظلامِ الليلِ لتقبعَ في ركنٍ منعزلٍ تبكي ولدَيْها اللذين طواهما الموتُ في الرّبيع» فإلىٰ الأمّ وإلى الهمسَات «الصَّدُّوقيّةِ» الآسرةِ العبقةِ نستروحُ منها ريحانَ هذه الكلمات السَّاحراتِ التي تدلفُ إلىٰ القلب دون استئذان :

حنَـــانَـــك يـــا أُمُّ لا تعتَبِـــي فَمـا أنَـا بـالجَـاحـدِ المُـذْنـبِ
حَنـانَك يـا بسمتي فـي الحيـاةِ وأُغْـــرودةَ الأمَـــلِ الطِّيِّـــبِ
فمـا زلْـتُ طفْلـك آوي إليـكِ إلىٰ الدِّفءِ في صَدرك الأرحبِ
خشعـتُ لـذكـراكِ فـي ذلّـةٍ خشـوعَ الظَّـلام إلـىٰ الكـوكـبِ
وطـأطـأْتُ هَـامـي لأنّـي امـرؤٌ يُـــروِّعُـــهُ العُنْفُـــوانُ الأبـــي

وقدَّستُ فيكِ الحنانَ السَّخيَّ ومعســـولَ منْهلِــكِ الأعــذَبِ
فــلا تَجـزعــي إنّنــي لَــمْ أزلْ فتَـاكِ الــذي عنـك لـم يـرغـبِ
وشبْـلاكِ يــا أُمُّ فــي خــاطـري وفــي خــافقــيَّ وفــي غيهــبِ
شعـاعُهمـا فـي ضميرِ الـوجـود وذكْــراهمــا بَعْــدُ لـم يغْــرُبِ
طَـوىٰ اللهُ عُمَـريْهمـا فــي يـد طَوتْ سَاكِنَ الخُلـدِ في يثربِ
حَنــانَـك فــالكـونُ داجٍ أسـيٌّ وقـد بلـغَ السَّيـل هـامَ الـزُّبَـيِّ
فكيــفَ أذوبُ مـعَ المُتـرفيــنَ ودمَعــك يــا أُمُّ لــمْ ينْضَــبِ
حنــانَـك مـا أنـتِ إلا مَـلاكٌ هـوىٰ العَـرشُ فيه فلـم يغضَبِ
نَـأيْـتِ ومـا زلـت فـي خـاطري تجوسينَ في الموضع المُعْشِبِ
لكم أجدبَ الدَّهْرُ في حادثٍ وليــسَ حنَــانـكِ بــالمجـدبِ
وكنْـتِ تـذوبيـنَ ذوب الشُّمـوع لكيمـــا يُحقَّـــقَ لــي مطْلبــي
وكـم رحتُ ألهـو هنـا وهنـاك حواليكَ في روضِكِ المخُصِبِ
إذا مـا انطلقـتُ وكلّـي رجـاء مـع الفجـرِ أختـالُ فـي مـوكبي
أراكَ تنـوحيـنَ نـوحَ الثّكـالىٰ علـى أخـوةٍ فـي الثَّـرى غُيَّـبِ
وتبكيـنَ ظلـمَ الـزَّمـانِ الجحـود وقـومُـكِ لا هُـونَ فـي الملعـبِ
فيــا أُمُّ هــذا شَبــابــي إليــكِ ليفـديـكَ مـن كـلّ جـانٍ غَبـي
وروحُـكِ لا تـرشفيهـا الـدّمـوعَ تَــدفَّـقُ مــن جفنِـك الأهــدبِ
فحسبُـك أنّــي نــذرتُ فـؤادي إليــكِ فَقِــرِّي ولا تنــدبــي
وحسبـك أنّـي نشرتُ شعـاعَـكِ فـي مشـرقِ الأرضِ والمغـرب[1]

* وللأبِ أيضاً نصيبٌ يرضيهِ، كما أرضينا الأمّ من قبلُ، فتعالوا نتفيأُ بظلالِ فضْلِ الأبِ من خلالِ طفلٍ يقول:

كــمْ مــنْ يَـدٍ لَـكَ يـا أبـي عنــدي وكــمْ لــكَ مِــنْ أَثَـر
أنــتَ الـــذي ربّيتَنـــي ورعيتَنـــي منـــذُ الصِّغـــر
علّمتَنـــي هـــذَّبتنـــي نـــوَّرْتَ قَلبـــي والبَصَـــر

---

(١) ديوان: أمطار الحزن والدم (ص ٢٧ ـ ٣٠) بتصرف وانتقاء واختصار.

هــي يــا أبــي دَيْــنٌ علــ ـــيَّ أردُّهــا عنْــد الكِبَــر

* وننتقلُ إلى مجالٍ آخر في اقتطافِ جنى ريحان الأدبِ في مجالِ الطّفل والطُّفولة ، ونقرأُ هذا النَّشيدَ العذبَ بعنوان «نشيد الحفَّاظ لكتابِ الله» :

أُستــاذُنــا حَــقٌّ لــه التّكــريــمُ والبــرُّ والطَّــاعَــةُ والتَّعظيــمُ
كم بذَلَ المجهودَ في تَفْهيمي قــامَ بحــقِّ اللهِ فــي تَعْليمــي
أدَّبَنــي هــذَّبنــي ربَّــانــي أرضعني حبَّ النّبي العَدنَـاني
فيا رفـاقي فـابـذلُوا المجهـودا كــي تحفظُــوا قــرآنَنـا المجيـدا
قــالَ النّبــيُّ أدِّبــوا أولادكــمْ علــىٰ قَــراءةِ كتــابِ ربّكــمْ
فــإنَّــه مَــنْ يحفْــظ القُــرآنــا يظلّــه فــي ظلِّــهِ مَــولاَنــا

* ويمكن أنْ نحكيَ للطِّفل قصَّة صحابي أو عالِم ومن ثمَّ نشيرُ إلى جوانبِ الطُّفولة المشرقةِ في حياته ، ونسمعه نشيداً يحكي حياتَه ، كهذا النَّشيد الجميل الذي يروي جانباً من طفولةِ سَهْلِ التُّستريّ أحدِ زهّاد القرن الثّالثِ الهجريّ ، وهذه القصّة نظمَها أحد الفُضلاء[1] ، وهي مفيدةٌ جدّاً إذا استطاعَ المربّي أنْ يوصلَ مغزَاها إلىٰ الطّفل :

كــانَ فيمــن كــانَ طفــلُ واسمُــه المحبــوبُ سَهْــلُ
كــانَ شهمــاً وذكيّــاً زانَــه فَهْــمٌ وعقْــلُ
يتغنَّــىٰ بــدعــاءٍ كُلَّمــا غنَّــاهُ يحلُــو
فينَــادي يــا إلهــاً ليــسَ يخفــىٰ عنْــه فعْــلُ
شَــاهــدي أنــتَ بجَهْــري ورقيبــي حيــنَ أخلُــو
كُــلُّ مــوجــودٍ أراهُ فعلــىٰ اللهِ يَــدُلُّ
دخــلَ الكُتَّــابَ سَهْــلٌ يحفــظُ الآيَ ويتْلُــو
فَبَــدا طفْــلاً نجيبــاً حيــنَ لــم يسبقْــهِ طفْــلُ
ولَــدَىٰ الشَّيــخ المُــربّــي كــانَ للطَّــالــب نَيــلُ

(١) القصّة من نظم الشّيخ الطّبيب محمود أبو الهدى الحُسيني الحلبيّ.

نَــمَّ أشخــاصٌ وقــالــوا ليــسَ عنــد الشَّيــخ عــدلُ
فهــو قــد قــرَّب سَهْــلاً وســـواه كـــانَ يسلـــو
جَمَــعَ الأستـــاذُ جمعـــاً فـــالكَـــلامُ اليـــومَ فَصْـــلُ
قـــالَ أبْنـــائـــي لكـــلٍّ منكـــمُ طيـــرُ ونصْـــلُ
فـــاذهبـــوا عنّـــا وفـــي مـــا بينكـــم فَلْيَـــكُ عَـــدْلُ
فـــاذْبحـــوا الأطيـــارَ واخْشَـــوا أنْ يُـــرىٰ ذاك المحـــلُّ
وأتـــىٰ الأطفـــالُ كـــلٌّ فـــي يـــديـــهِ الطَّيـــر حمـــلُ
مَـــنْ تـــرىٰ أخَّـــرَ سَهْـــلاً كـــانَ فـــي الأفـــواه سُـــؤْلُ
بَعْـــد وقـــتٍ جـــاءَ سهـــلُ مطـــرقـــاً يعلُـــوهُ ذُلُّ
قـــالَ لـــم أرَ مكـــانـــاً يتـــوارىٰ فيـــه سَهْـــلُ
إنّمـــا اللهُ يَـــرانـــي حيثمـــا كنْـــتُ أحـــلُّ
ضمَّـــه الشَّيـــخُ ونـــادىٰ إنَّ سهـــلاً لا يضـــلُّ
عـــرفَ اللهَ فـــأضحـــىٰ صـــالحـــاً يسمـــو ويعلُـــو

* ولكي نعزِّزَ أدبَ الطفلِ ، ونربطَه بالكِتاب وبالمطالعةِ الهادفةِ المفيدة ، نقرأُ عليه هذه الأنشودة الجميلة بعنوان «يا كتابي» ، ونشرحُ من خلالها فوائدَ الكتاب :

يـــا كِتَـــابـــي يـــا كِتـــابـــي أنْـــتَ مِـــنْ خَيـــرِ الصِّحـــابِ
فيـــكَ تصـــويـــرٌ جَميـــلٌ وَبَيـــانٌ لِلصَّـــوابِ
فيـــكَ شـــرحٌ للمعَـــانـــي فيـــكَ تَـــوضيـــحُ الصِّعـــاب
إنَّ دربـــي صـــارَ سَهْـــلاً بعـــدَ فَهمـــي للْكِتَـــاب
أنـــتَ لـــي دومـــاً رفيـــقٌ كـــلّ صبْـــحٍ ومَسَـــاء
أنـــتَ لـــي دومـــاً صـــديـــقٌ فيـــك تحقيـــقُ الـــرَّجـــاء

* ومن القصائدِ المفعمةِ بالودّ والهمساتِ والقُبلات للطّفلِ والطّفولةِ ، هذه القصيدةِ الجميلة لمصطفى صادق الرّافعي التي أنشدَها في ابنتهِ «وهيبة» ، فقد وُلدتْ ابنتُه سنة (١٩٠٥ م) ، ولمّا بلغتْ سنتَين من

عمرِها ، جلسَ يُناغيها ويلاعبُها ، وقبّلَها فوجدتْ أَلماً منْ ذلك ، فقال هذه القصيدة الرّاقصة :

طِفلَتِــي فــي العُمــر مــرَّتْ مــن سنيهــا بــاثنَتَيْــن
ليستــا فيمــا غَــدَتْ تعــقِــلُ إلاّ ضحكتَيْــن
جئتُهــا يــومــاً فــألقيــتُ عليهــا قُبْلتَيْــن
وأمــالــتْ عنقــاً آلمتُــه مــن غمــزتَيْــن
فمضَــتْ غضبــىٰ وقــالــتْ (بــاي يــا بــابــا بــاي يــا بــابــا)

* * *

أعتــابــاً يــا بنتــي أمْ ذاك مــن غيــظِ الحبيبــة
بــدأتْ دنيــاكِ منــذ اليــوم والــدُّنيــا عجيبــة
وغــريــبٌ منــكِ أنْ تــرْوي معــانيهــا الغــريبــة
نجمــةٌ أبعــد مــا تلــقــىٰ إذا لاحــتْ قــريبــة
مثلهــا حبُّــك للبــابــا ومعنــىٰ (بــاي يــا بــابــا)

* * *

نغمــةٌ كــالبلبــل استعــلــىٰ علــى الــوردِ فغنّــى
أتمنّــى أنْ تعيــدي مثلَهــا إذ أتمنّــى
قــد غــدا يــذهــبُ فــي الــدُّنــيــا العنَــا لفظَــك عنّــا
وأرىٰ الشِّعْــرَ فنــونــاً صــرتِ لــي منهــنَّ فنّــا
حكمــة مــا مثلهــا الحكــمــة عنــد (بــاي يــا بــابــا)

* * *

لــو أتتْنــي كــلّ بشْــرى مــلءَ أنحــاءِ البــلاد
أو أتــانــي السَّعــد يــومــاً هــاتفــاً بــاسمــي يُنــادي
أو سعــىٰ بــالمــدحِ والتّمــجيــدِ لــي كــلّ العبــاد
أو شــدا فــي كــلِّ أرضٍ بقــريضــي كــلّ شــادي
لــم يكــن أحلــىٰ بسمعــي كــلّ ذا مِــنْ (بــاي يــا بــابــا)

* وهذه قصيدةٌ أخرىٰ لمحمّد الجيّار عن الطُّفولة وعن الطّفل بعنوان: أعْطِني يا ربّ طفلاً:

في منزلي لكَ يا صغيري يا رجاءَ العُمْر حُجْرَه
ولَكَمْ نثرْتُ على سريركَ أُمنياتي ألفَ زَهْره
مَنْ أنتَ أينَ تكونُ كيفَ أراكَ تحتَ الشَّمس مرّه
لِمَ لا تطلُّ علىٰ خريفي كي أرىٰ في الفَجْر فَجْره

* * *

إنّيْ زرعتُ مشَاتلي بيديكَ كي تخضلَّ نُضْره
يا طفلُ يا مَنْ عشتُ عُمْرَ تعاستي أشتاقُ عُمره
ومددتُ كفَّ مَدامعي لأذودَ عن عينيْك عَبْره
هل أنتَ حلْم الكائناتِ تعيشُ أمْ سرّ المجرّه
أمْ أنتَ بذرةُ زارعٍ أعمىٰ تموتُ بقلبِ حُفْره
يأتي الرّبيعُ مبكّراً ويدوسُها فتئِنّ حسره

* * *

في ليلةٍ شتويةٍ قد جئتني وجهاً مُطلّاً
أيقظتَ أُمّك ربّما ألقاكَ تحت الظِّل ظلّاً
فلمحتُ وجهكَ في الضّباب همستَ للميلادِ أهْلا
أسرِعْ وكُنْ عمري الجديدَ غداً ربيعُ العُمر يبلىٰ
والفجرُ يُولد متعب العَيْنَيْن والأنسامُ تُبلىٰ
أنا كَمْ صحوتُ على صدىٰ الآهاتِ منْ أعماق ثكْلىٰ
يا كَمْ حسبتُ أنينَها ملأَ الوجودَ الرّحبَ ثُكْلا
حتّى الدّموع لها صلاةٌ أعطني يا ربِّ طفْلا
فأقولُ لا لا تحزني ولتبسمي للطِّفل جذْلىٰ
أصغِي هنا في قلبك الباكي نشيدٌ منْه أحلىٰ

* وكانَ للشّاعر «عدنان مَردم بك» ولدان: محمّد قُتيبة، ووضّاح،

وكانا صغيرَيْن في مدرسةٍ ابتدائيّة ، فكان ينتظرهما علىٰ الرصيفِ عندما يخرجان منْ مدرستِهما ، ويعودُ معهما إلى البيتِ ، وقد رسمَ ذلك في قصيدةٍ جميلة نقتطفُ منها:

أجْري ونارُ الشَّوق في صَدْري ... تَفْري وتبري حيثُما أجْري
كم وقْفَةٍ لي قمتُ مرتقباً ... فيها بنيَّ بمقلةِ النِّسر
أَجدُ الدَّقائِقَ حينَ أرقبُهم ... دونَ الرَّصيف تطولُ كالدَّهْر
ويظلُّ قَلبي من وسَاوسهِ ... حَيرانَ من حذَرٍ ومن ذُعر
وتخالني لما بَسطتُ يداً ... للقائِهم نَشْوان من سُكْر
ويَكادُ قَلبي حينَ أبصرُهم ... يتعثّرون وراءَهم يجري
أَطفلُنا في كلِّ منعرج ... شبهَ الفراشِ بحافَتَي نَهر
لا ليلهم بالشَّكِّ منعقدٌ ... أطباقُه ويجيشُ عن فكْرِ
ونهارهُم طهرٌ صحائِفهُ ... وأديمُه يخضلُّ منْ طُهر
يتدافعون وليس من حَسَدٍ ... يتدافعونَ وليسَ من شرّ
كانوا الملائكَ من وداعتهم ... وضميرهم أنقىٰ من القَطْر
لم تلتهبْ كَبِدٌ لهم بلظىً ... للحقدِ في عَلَنٍ وفي سرّ[1]

* ولعدنان مردم بك همساتٌ أخرى في ابنهِ وفي الطُّفولةِ العذبةِ ، وله قصيدةٌ سُباعية جميلةٌ اخترتُ لها عنوان: «أنتَ نِعم الذُّخر»:

يجاذِبُني إليكَ هوىً ... عنيفٌ ملءُ أَضْلاعي
ويثْنِيني الحنانُ عليـ ... ـكَ في صحوٍ وتِهْجَاعي
إذا ناديتَني لبَّىٰ ... فؤادي صيحةَ الدَّاعي
وفاضتْ مقْلتي وجرَتْ ... بدمعٍ غيرِ خدَّاع
وإنْ هَوَّمْتَ في الظَّلماء ... من دلَجٍ وإسْراع
تلفَّتَ خافقي يرعا ... كَ في لهفةٍ مرتاع

(١) انظر ديوانه: نفحات شامية (ص ١٢٢ ـ ١٢٤) بتصرف.

فمـــا أعنـــفَ أَشْـــواقـــي   ومـــا أعمـــقَ أوجـــاعِـــي

❊ ❊ ❊

دلفْـــتُ إليـــكَ حيـــنَ هتفـ   ـتَ فـي جُنـحِ الـدُّجى عَجِـلا
أصيـــخُ بمسْمَعـــي حـــذراً   عليـــكَ وأنثنـــي وَجِـــلا
وهـــلْ فـــي بـــثِّ مـــا أُخفـــي   هنـــاتٍ تبعـــثُ الخَجـــلا
وبـــي مـــنْ غمـــزةِ الأشْـــو   اقِ نـــارٌ تـــورثُ العِلَـــلا
إذا أمْسَكـــتُ عـــن بـــثٍّ   لأدفـــعَ لـــومَ مَـــنْ عـــذَلا
جـــرىٰ منهـــلُّ غـــربِ الـــدَّمـ   ـــع مـــن جفنـــيَّ منْفَتِـــلا
ونـــمَّ الـــدَّمـــعُ بـــالأَمْـــر الـ   ـــذي أخفَتْـــه أضْـــلاعـــي

❊ ❊ ❊

أخـــــذتُ بحيطـــــةٍ أدنيـ   ـكَ مـــن جَـذْب إلـىٰ صـدري
فخلـــتُ الكـــوَن بيـــن يـــدي   يميـــسُ بحلّـــةِ الفجـــر
ورحـــتُ وليـــس بـــي سُكْـــر   أميـــلُ كشَـــارب الخمـــرِ
بنـــيَّ وأنـــتَ نعـــمَ الـــذُّخـ   ـر فـي الـدُّنيـا علـىٰ الـدَّهـر
أكـــانَ وأنـــتَ منّـــي الشَّطْـ   ـــر فـــي وجـــديَ مـــا يُـــزْري
وهـــل مـــن ريبـــةٍ أنْ حـــنَّ   شَطْـــر القَلْـــب للشَّطْـــرِ
ومـــا ذنبـــي إليـــكَ وقـــدْ   عقـــدتُ عليـــكَ أطمـــاعِـــي

❊ ومن أنداءِ شعرِ الطُّفولة العَطِر، وأنفاسهِ الزُّهْر، ما جادتْ به القريحةُ عندما وُلد ابني «نور الدِّين» وكان قد وُلدَ في شَهر آذار فقلتُ:

قد جَاءَ نُورُ الدِّينِ بالتّرحَاب   أهـلاً بمَقْـدَم أجْمَـلِ الأَحْبَـابِ
فـي شَهـرِ آذارِ الجَميـلِ أَتَيْتَنَـا   وَالخيـرُ وافَـانَـا بغيـرِ حِسَـابِ

❊ ثمّ إنّي توجَّهتُ إلىٰ عزَّ وجلَّ، ودعوتُ بدعاءِ سيّدنا زكريا عليه السَّلام: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، وأرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلنا جميعاً من المرضيّين المقبولين.

❊ ومن روائعِ أدبِ الطِّفل والطِّفولة ما نظمه الشَّاعر بدوي الجبل وهو

في «فيينا» في (٣١ آب) عام (١٩٦٣ م) ، حيثُ صاغَ قصيدةً عنوانها «البلبلُ الغريب» أهداهَا إلى حفيدهِ محمّد ، وهي بائيةٌ جميلةٌ تزيدُ أبياتُها عن مئة وعشرة أبيات مطلعُها : «سَلي الجمرَ هل غالىٰ وجُنَّ وعذَّبا. . . » ومنها هذه الأبياتِ الرّاقصَات المُداعبات للوجدان :

وسيْماً مِنَ الأطفالِ لولاهُ لم أخَفْ ... عَلىٰ الشّيب أنْ أنأىٰ وأنْ أتَغَرّبا

تودُّ النُّجومُ الزُّهْرُ لو أنَّها دمىً ... ليختارَ منها المُتْرفَاتِ ويلعبَا

وعندي كنوزٌ منْ حنَانٍ ورحْمةٍ ... نعيمي أنْ يُغرىٰ بهنَّ وينْهَبَا

يجورُ وبعضُ الجورِ حلْوٌ محبَّبٌ ... ولم أرَ لولا الطّفْلُ ظلماً محبّبا

ويغضبُ أحياناً ويرضىٰ وحسْبُنا ... من الصَّفْو أنْ يرضىٰ علينا ويغْضَبا

وإنْ نالَه سقْمٌ تمنيتُ أنَّني ... فداءٌ له كنْتُ السَّقيمَ المعذَّبا

يزفُّ لنا الأعيادَ عِيْداً إذا خَطَا ... وَعيْداً إذا ناغىٰ وعِيْداً إذا حبَا

كزُغبِ القَطا لو أنَّه راحَ صادياً ... سكبْتُ له عيني وقلبي ليشْرَبا

وَألثمُ في داجٍ من الخطبِ ثَغْره ... فَأقْطِفُ منه كَوكَباً ثمَّ كَوكبا

وَأسْدِلُ أجْفَاني غِطَاءً يظلُّه ... ويا ليتها كانَتْ أحنَّ وأحدَبَا

وحمَّلني أنْ أقبلَ الضَّيم صابراً ... وأرغبَ تخْنَاناً عليهِ وأرْهَبَا

ويا ربّ منْ أجْلِ الطُّفولةِ وحدَها ... أفِضْ بركاتِ السِّلْم شرقاً ومغْرِبا

وصُنْ ضحكةَ الأطفالِ يا رب إنّها ... إذا غرَّدَتْ في موحشِ الرّمل أعْشَبا

ويا ربّ حبِّبْ كلَّ طفْلٍ فلا يَرىٰ ... وإنْ لجَّ في الإعناتِ وجهاً مقطّبا

وهيىءْ له في كلِّ قَلْبٍ صبابةً ... وفي كُلّ لقْيا مرحباً ثمَّ مرحبَا[1]

* ولأحمد رامي أنغامٌ طفوليّة تستحقُّ التَّسجيل في هذهِ القطوفِ الطّيِّبة ، لتكونَ لبنةً من لَبِنَاتِ أدبِ الطّفل والطّفولية ، حيث يتغنّى هذا الشَّاعر الغنائي بابنه بكلمات تطربُ الأسماعَ ، وتمتعُ القُلوب ، وتجلو

---

(١) ديوان بدوي الجبل (ص ١٥٨ ـ ١٦٩) بانتقاء واختصار.

النُّفوس ، بما سكبَ من ألحانهِ وأنغامهِ في هذا القَالب الشِّعري اللطيف في أبياتِه «يا بُنيّ» :

يــا بُنــيّ مــا أُحَيْلــى يــا بنــيّ ... أنـــتَ ظـــلٌّ مَـــدَّه اللهُ علـــيّ
نعمــةُ العمــرِ وتــذكــارُ الصِّبــا ... والأمــانــيُّ التــي عــزَّتْ لــديّ
لســتُ أنســاكَ جنينــاً خــافيــاً ... فــي ضميــرِ الغيــبِ أدعــوكَ إلــيّ
أتمنّـــــاكَ لعينــــــي قـــــرّةً ... حيــنَ ألقــاكَ وليــداً فــي يــديّ
أرقُــبُ اليــومَ الــذي تبسِــمُ لــي ... وتــرىٰ آيَ الــرِّضَــا فــي مُقْلَتــيّ
فــأُنــاجيــكَ بــألحــانِ الهــوىٰ ... ســابقــاتٍ خــاطِــري فــي شَفتــيّ
كَلمـــات هـــي لا معنـــىٰ لهـــا ... غيــرَ أنْ تسمــعَ منّــي أيَّ شَــيّ
فتُـــراعينـــي ولا تقـــوىٰ علـــىٰ ... غــضِّ أجفَــانِــك عنّــي يــا بُنَــيّ

* وهذا الفصلُ يطولُ بنا جدّاً لو رُحْنا نختارُ من قصائدِ الطِّفل والطّفولة ، ولكنّنا اكتفينا بإلقاءِ الضَّوء على بعضِ الصُّور الجميلةِ في أدبِ الأناشيدِ والقصائد للطّفل والطّفولة كيما تكونَ زاداً للصَّغير والكبيرِ ، وعسىٰ أنْ يجدَ فيها المربّي بغيتَه ، ويجعلَها في برنامجِ المائدةِ الثّقافيّةِ التي يغذّي بها الطّفل دائماً ، لأنّني كنتُ وأنا أضعُ هذه المادّةَ وأجمعُها أطلبُ أوّلاً مرضاةَ الله عزّ وجلّ ، ثمّ ما ينفعُ أحبابنا الأعزاء الأطفال الذين هم أملُ المستقبل .

* * *

الفصلُ الثّاني
وَصايا ونَصائِحُ للطِّفْلِ

* أدبُ الوصايا في الأدبِ الطُّفولي أدبٌ ثـرٌّ وغنيٌّ وجميلٌ ، وفي أرْدانِ أدبنا العربيّ الإسلاميّ كثيرٌ من الفواكهِ الطَّيِّبة ، التي تصقلُ النَّفوسَ ، وتندّي الأرواحَ ، ولا نكادُ نمرُّ بشخصيّةٍ شهيرةٍ إلا نجدُها قد خلَّفَت تُراثاً كريماً في أدبِ الوصيّة للطِّفل تحملُ كلَّ معاني الفضيلةِ والمكارم .

* وقد تتبَّعْتُ الوصايا والنَّصائِح للطِّفْلِ في أدبنا الطّويلِ العريضِ ، فألفيتُني أقفُ في رياضٍ متنوعّةِ الأزاهيرِ ، جنيّةِ الثِّمار ، كثيرةِ العُيون ، جميلةِ المنظر والمخبرِ ، فاخترتُ منها ما يزيدُ كتابَنا بهاءً وسناءً ودلالاً وفائدةً ـ بإذن الله ـ ، وذلك لينتظمَ هذا العِقْدُ الأدبيُّ الجميلُ الذي نزيّن بهِ جيْدَ الكتاب ؛ وقَبْل هذا كلّه نزيّنُ به عقولَنا وعقولَ الأحبابِ الصِّغار .

* ومن الوصايا النّافعةِ للطِّفل وصيةٌ حطّانَ بنِ المُعلى لابنه ، وهي وصيةٌ طويلةٌ جامعةٌ ، تحدَّثَ فيها عمّا يُصْلِحُ ابنَه في الدُّنيا والآخرة ، ونقتطفُ من هذه الوصيّةِ هذه الفقْرات الكاشِفَات :

* يا بنيَّ ، عليكَ بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ وطاعتهِ ، وتجنَّبْ محارمَه باتّباع سنَّته ، ومعاملته حتى يصحَّ عيشُك ، وتقرَّ عينُك ، فإنَّه لا تخفىٰ على اللهِ خافية ، وإنّي قد رسمتُ لكَ رسْماً ، ووسمتُ لك وسْماً ، إنْ أنتَ حفظتَه ووعيتَه وعملتَ به ، مُلئتْ بك أعْيُنُ المُلوك ، فأطعْ أباكَ واقتصرْ علىٰ وصيّته . . . .

* إيّاك وهذرِ الكلام ، وكثرةِ الضّحك والمُزاح ، فإنَّ ذلك يُذْهبُ البهاء ، ويوقعُ الشَّحناء. . . .

* وكُنْ في جميعِ أمورِك أوسطَها ، فإنَّ خيرَ الأمورِ أوسطُها ، وأقللِ الكلامَ ، وأفشِ السَّلامَ. . . . . . .

* تشبَّهْ بأهلِ الفضْل تكنْ منهم ، وإيّاك وإخوانَ السُّوء ، فإنّهم يخونون مَنْ رافقَهم؛ . . . . والإخوانُ اثنان: محافظٌ عليك عند البلاء ، وصديقٌ لك في الرَّخاء[1] .

* ومنَ الوصايا الجميلةِ النَّافعةِ الجامعةِ في أدبِ الطِّفل والنَّشء ، وصيّة عبد الملك بن صالح العبّاسي لولده حينما أدركتْه الوفاةُ ، وهي من أجملِ الوصايا للطِّفل ، حيث جمعَ له فيها كلّ ما يُصْلِحه وينفعُه ويجعلُه من السَّعداء ، ومن كلامهِ في هذه الوصيّة:

* يا بنيّ ، احلمْ ، فإنَّ مَنْ حلمَ سَاد ، ومن تفهَّم ازداد ، والْقَ أهلَ الخير ، فإنَّ لقاءهم عمارةُ القُلوب. . . ولا تغرنَّك صحّةُ النَّفس ، وسلامةُ الأَمْس ، فمدّةُ العُمْرِ قصيرةٌ ، وصحّةُ النَّفس مستحيلة ، ومَنْ أطاعَ هواه ، باعَ ديْنَه بدنياه ، ونصرةُ الحقّ شَرفٌ ، ونصرةُ الباطل سَرف .

* وإيّاك وفضول الكلام ، فإنَّه يظهِرُ من عيبكَ ما بطنَ ، ويحرِّكُ منْ عدوّك ما سَكَن. . . . وكلُّ امرىءٍ يُعْرَفُ بقولهِ ، ويُوصفُ بفعلهِ. . . وكُنْ صموتاً وصدوقاً ، فالصَّمتُ حرزٌ ، والصِّدقُ عزٌّ ، وما عزَّ مَنْ ذلّ جيرانه ، ولا سَعِدَ مَنْ حُرم إخوانه. . . . وإذا صَنَعْت المعروف فاسْتُره ، وإذا اصْطُنِعَ إليك فانْشُره. . . . . ولا تُجبِ الجاهلَ على قولهِ ، ولا تعاتبهُ علىٰ فعله ، فإنَّك إنْ أجبْتَه عنه أو أعتبته عليه أسقطَ ما بقيَ من الحشمةِ ، وقطعَ ما اتَّصلَ من النِّعمة ، فبالغَ في الجفَاء ، وأعرضَ في الإخفاء. . . ويجبُ

---

(١) عن كتاب: كلمات مضيئة إلى ولدي (ص ٣٥ ـ ٤٠) باختصار وتصرف.

على العاقلِ أنْ يخاطبَ الجاهل كمخاطبةِ الطَّبيب المريضَ ، وإيّاك والباطل فإنه يحطّ قَدْرَك ، ويضعفُ أمْرَك . . . .

وعليكَ بلطفِ المقالِ ، وكرَمِ الفِعال ، وحسنِ الخدمة ، وشكرِ النِّعْمة ، وتَرْك الغِيْبة ، ومجانبة الرِّيبة. وشرُّ المالِ مالٌ لا يُنْفَق منه ، وشرُّ الإخوانِ مَنْ لا يُنتفع به ، وإذا أسأتَ فاعتذرْ ، وإذا قدرتَ فاغتفِرْ. . . وإنَّ ذا الأَصْل لا تُبْطرهُ منزلةٌ أصابَها ، ولا شرفٌ نالَه وإنْ عَظُم ، والسَّخيفُ يُبْطره إجلال منزلتهِ كالحشيشِ تحرّكُه أدنىٰ الرّياح ، وكريمُ الأصل يترفَّعُ عن سوءِ الخلق. . . ومَنْ جادَ بمالهِ جَلَّ ، ومن جادَ بعرضهِ ذلّ ، وأفضلُ المعروفِ إغاثةُ الملهوف. . . وقلّة الكلامِ تُورثُ السَّلامة ، وقلّةُ السُّؤال تورثُ الكرامة.

* ولا تجالسِ السُّفهاء تكُنْ قاضياً علىٰ نفسِكَ بالسَّفاهة ، راضياً بالذّلّة والمهانة ، فإنَّ مَنْ جلسَ مجالسَهم ورضيَ مذاهبهم ، عُدَّ منهم ونُسِبَ إليهم.

* يا بنيّ ، إنّما القلوبُ مزارعُ ، فازرعْ بها الكلمةَ الطَّيِّبةَ ، فإنّها إذا لم تنبتْ كلّها ، نبتَ بعضُها. . . . . . .

* واعلم أنَّ المرءَ يُكرمُ بعقله وأدبه ، لا بماله ونَسبه ، والفضلُ في علمهِ وحكمتهِ ، لا في وفْرِه ونهمتِه. . . . ومن خَبُثَ أصله خَبُثَ فِعْلُه. . . . وإيّاكَ والغضب فإنَّه يقلّلُ الهِمم ويقوّي الخَصْم ، فإذا حاججتَ فلا تغضبْ ، فإنَّ الغضبَ يضعفُ قوَّتَك ويقطعُ حجَّتك ، وجُرحُ اللسان لا يبرأُ ، وجمرةُ المحبّةِ لا تُطفأ ، ونارُ الحقْدِ لا تخْمد ، وعينُ العدوّ لا تَرقُد.

* وسبعةٌ لا تشاورهم: جاهلٌ ، وعدوٌّ ، وحسود ، ومراءٍ ، وجبانٌ ، وبخيلٌ ، وذو هوىً. . .

* وإذا وجدتَ حاجتَك في السُّوقِ فلا تطلبْها من عدوِّك ولا صديقك ،

واقبل عذرَ من اعتذرَ إليك ولو كانَ كاذباً؛ . . . . من أُعجب برأيهِ ضلَّ ، ومن استغنىٰ بعقله ذلّ ، ومَنْ خالَط الأنذالَ احتُقر ، ومن دخلِ مداخلَ السُّوء اتُّهم . . . والوحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوء ، والسَّعيدُ من وُعظَ بغيرهِ ، والتمسِ الجارَ قبل شراءِ الدّار ، والرفيق قبل الطَّريق . . . .

* وهي وصيةٌ أجادَ بها عبدُ الملك بن صالح وجاءَ في ختامها: وقد شرحتُ لكَ الوصيَّة ، ومحضتُ لكَ النَّصيحة ، فاعملْ بها ترشدْ ، وبالله التّوفيق(١) .

* ومنَ الوصايا الجميلةِ في عالَم الوصايا للطِّفل والابن ، وصيّةُ ابن سُعَيد المغربيّ واسمه عليُّ بنُ موسىٰ ، وهو صاحب كتاب «المُغْرِب في حُلَى المَغْرب» ، ووصيّةُ ابن سُعيد منَ الوصايا المتميزة إذ جمعتْ سلاسةَ النَّظْم إلىٰ سهولةِ النَّثر ، وقد جمعَ لابنهِ في وصيّته تجارِبَه وخبرته في الحياةِ ، وأرشده إلىٰ ما يصلحُه في دنياه وآخرته ، ومن بدائعِ وصيّته هذه الفرائدُ الحلوةُ حيث قالَ له منْ أبياتٍ منها:

كم منْ صديقٍ مظْهرٌ نُصْحَه	وفكرهُ وقْفٌ علىٰ عثْرتك
إيّاك أنْ تقربه إنَّه	عونٌ معَ الدَّهر علىٰ كُربتك
والشَّرّ مهما اسطعْتَ لا تأْتِه	فإنّه حوزٌ علىٰ مُهجتك

* ثمّ قال له: يا بنيّ الذي لا ناصحَ له مثلي ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدّمتُ لك في هذا النَّظم ما إن أخطرتَه بخاطرِك في كلّ أوان رجوتُ لك حُسْنَ العاقبة إنْ شاءَ الله تعالى .

* إنَّ حُسنَ الخلقِ أكرمُ نزيل ، والأدبُ أرحبُ منزل ، والعاقلُ مَنْ جعَل عقْله معياراً ، وكان كالمرآةِ يلقى كلَّ وجْهٍ بمثاله ، وفي أمثالِ العامّة: «من سبقَك بيومٍ فقد سبقك بعقل» . . . . . وإن رأيتَ من له عَقْل ومروءةٌ

(١) عن كتاب: كلمات مضيئة إلى ولدي (ص ٥٩ ـ ٦٨) بتصرف واختصار.

وتجرِبةٌ فاستفد منه ولا تضيّع قولَه ولا فعْلَه ، . . . . ولا يحملك الحياءُ على السُّكوت عمّا يضرّك ألا تبينه ، فإنَّ الكلامَ سلاحُ السِّلم ، وبالأنين يُعْرف ألمُ الجُرح . . . . .

* ثمّ إنَّ ابنَ سَعيد يستمرُّ في وصيتهِ الجميلةِ إلى نهايةِ المطافِ حيث يقول: ولا تُزِلْ هذَيْن البيتَيْن من فكرك:

لِـــنْ إذا مــا نِلْـــتَ عـــزّاً ... فـــأخـــو العـــزّ يليْـــن

فـــإذا نـــابَـــكَ دَهْـــرٌ ... فكمـــا كنْـــتَ يكُـــون[1]

* تلكم بعضُ الوصايا النّافعة للأطفالِ الذّكُور ، ترىٰ هل هناكَ وصايا للبنَات؟ وهل خصَّ أصحابُ العقولِ والأقلامِ الأطفالَ البناتِ بشيءٍ منْ وصاياهم؟! هذا ما ستكشفُه لنا السُّطور التّاليات . . .

* نقرأُ في تاريخنا العربيّ المجيدِ تلكم الوصيُّة «الأُماميّة» التي نفَحتْها أمامةُ بنتُ الحارث الشّيبانيّة ابنتهَا ، وهيَ من أجَلِّ الوصايا النّافعات ، ولو تمثّلتْها كلُّ فتاة ، لما كانتْ هناك مشَاكلُ في الحياةِ؛ ولتلاشتِ الخلافاتُ الزَّوجيَّةُ وضَعُفَ أمرُهَا ، وحلّ مكانها السّعادة والوئام .

* وهذه الوصيةُ المُزجاةُ في كلماتِها ، الكثيرةُ في معانيها ، من أرفعِ الآدابِ الاجتماعيّةِ ، وقد حفلتْ بها كتُبُ المصادرِ على اختلافِ مشاربها ، وقد أحببتُ أن أثبتَها في هذهِ الموسوعةِ المباركة لما فيها من محاسنَ تفيدُ جميعَ النِّساء في مختلفِ أطوارهنّ وأعمارهنّ .

* أوصتْ أمامةُ ابنتَها قُبيل زواجها فقالتْ: أي بُنيّة! إنَّ الوصيَّةَ لو تُركتْ لفضلِ أدبٍ ، لتَركْتُ ذلك لك ، لكنَّها تذكرةٌ للعاقل ، وتوعيةٌ للغافِل ، ولو أنَّ امرأةً استغنتْ عن الزَّوج لِغنىٰ أبويها ، وشدّة حاجتها

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٦٩ ـ ٧٣) بتصرف .

إليهِ ، كنْتِ أغنىٰ النَّاس عنه ، ولكنَّ النِّساءَ للرِّجال خُلقْنَ ، ولهنّ خُلِقَ الرِّجال.

* أي بُنيّة! إنّكِ فارقتِ الجوَّ الذي منه خرجتِ ، وخلَّفتِ العشَّ الذي فيه درجتِ ، إلىٰ وكْرٍ لم تعرفيهِ ، وقرينٍ لم تألْفيهِ ، فأصبحَ بملكه عليكِ رقيباً ومليكاً ، فكُوني له أمَةً يكنْ لكِ عبداً وشيكاً.

* يا بُنيّة ، احملي عنّي عشْر خصَال تكنْ لكِ ذُخْراً ، واحفظيها له تكن لكِ ذكْراً.

* أمّا الأولىٰ والثَّانية: فالصُّحبةُ بالقناعةِ ، والمعاشرةُ بحسنِ السَّمْع والطَّاعة.

* وأمّا الثَّالثةُ والرَّابعةُ: فالتَّعهُّدُ لمواضعِ عينَيه ، والتَّفـقُّدُ لموقعِ أنْفهِ ، فلا تقعْ عينُه منكِ على قبيح ، ولا يشَمُّ منك إلاّ أطيبَ ريح ، والكحلُ أحسنُ الحُسْن ، والماءُ أطيبُ الطِّيب المفقود.

* وأمّا الخامسةُ والسَّادسةُ: فالتَّعهُّدُ لوقتِ طعامهِ ، والهدوءُ عندَ منامهِ ، فإنَّ حرارةَ الجوعِ ملهبةٌ ، وتنغيصُ النَّوم مغْضَبة.

* وأمّا السَّابعةُ والثَّامنةُ: فالاحتراسُ ببيتهِ ومالهِ ، والإرعاءُ على نفسهِ وحشمِه وعيالهِ ، وملاكُ الأمْر في المالِ حُسْنُ التَّقدير ، والإرعاءُ علىٰ العيالِ والحشم جميلُ حسَن التَّدبير.

* وأمّا التَّاسعةُ والعاشرةُ: فلا تعصي له أمراً ، ولا تفشي له سرّاً ، فإنّك إنْ خالفتِ أمرهَ أَوْغَرتِ صَدْره ، وإنْ أفشيتِ سرّه لم تأمني غَدْرَه ، ثمّ اتّقي مع ذلك الفرحَ بين يديه إنْ كان تَرحاً ، والكآبةَ عنده إنْ كان فرحاً ، فإنَّ الخصلةَ الأولى من التقصير ، والثّانيةُ من التّكدير ، وكوني أشدَّ ما تكونين له موافقةً ، يكُن أطولَ ما تكونين له مرافقةً ، واعلمي أنَّك لا تَصِلينَ إلى ما تحبّين حتى تُؤْثري رضاهُ علىٰ رضاك ، وهواهُ على هواكِ

فيما أحببتِ وكرهتِ ، والله يخير لك[1] .

* ومنْ رياضِ الوصايا وحدائقِها الغنّاء ، نجني ريحانَ وصيةٍ جميلةٍ للبنت ، وها نحنُ أولاءِ نستمعُ إلىٰ الأديبِ الشّاعر «علي الجارم» المتوفىٰ عام (١٩٤٩ م) ، وهو يهدي هذه النّصيحةَ اللطيفةَ لابنتهِ ، ترىٰ ماذا خبّأَتْ لنا النّصيحةُ «الجارميّة» بين جوانِحها؟! حسَناً . . لنستمعْ إلىٰ ما نظَمه علي الجارم في هذهِ القصيدةِ اللاميّة الجميلة :

يا بنتي إنْ أردتِ آيةَ حُسْنٍ ... وجَمالاً يزينُ جسْماً وعقْلا
فانْبذي عادةَ التَّبرُّج نبذاً ... فجمالُ النُّفوسِ أسْمىٰ وأعلىٰ
يصنَعُ الصّانعونَ وَرْداً ولكنْ ... وردةُ الرَّوض لا تُضَارَعُ شَكْلا
صِبْغَةَ اللهِ صبْغَةَ تبهرُ النَّفْـ ... ـسَ تعالىٰ الإلهُ عزَّ وجلّا
ثمّ كُوني كالشَّمسِ تسطعُ للنَّا ... سِ سواء مَنْ عَزَّ منهم وذلّا
فامنحي المُثرياتِ ليناً ولطفاً ... وامنحي البائساتِ برّا وفضْلا
زينةُ الوجْهِ أنْ ترىٰ العينُ فيه ... شرفاً يَسْحَرُ العيونَ ونُبلا
واجعلي شيمةَ الحياءِ خماراً ... فهو بالغادةِ الكريمةِ أولىٰ
ليس للبنْتِ في السَّعادة حظٌّ ... إنْ تنادىٰ الحياءُ عنها وولّى
والبسي من عفافِ نفسك ثوباً ... كلّ ثوبٍ سواهُ يفنىٰ ويبلىٰ
وإذا ما رأيتِ بؤساً فجودي ... بدموعِ الإحسانِ يهطُلْنَ هطْلا
فدموعُ الإحسانِ أنْضَر في الـ ... ـخَدّ وأبهىٰ منَ اللآلي وأَغْلى
وانظري في الضَّمير إنْ شئتِ مِرْ ... آةً ففيهِ تبدو النُّفوس وتُجلى
ذاك نُصحي إلىٰ فتاتي وسُؤْلي ... وابنتي لا تردُّ للأبِ سؤلا[2]

* ويطالعُنا الدّكتور أحمد زكي بهذهِ الوصيّة الرّقيقة إلىٰ ابنتهِ ، ترىٰ ماذا

---

(١) محاضرات الأدباء (٢/ ٢١٢) ومجمع الأمثال (٢/ ١٩٢) مع الجمع والتصرف. وانظر: بلوغ الأرب (٢/ ١٩) ، وقصص العرب (٢/ ٧٨ و٧٩) وغيرها كثير جداً.
(٢) انظر: ديوان علي الجارم؛ وانظر كتابنا «الحياء» من سلسلة آداب إسلامية.

خبّأَت لنا وصيّته في أكمامِها؟! يقولُ أحمد زكي موجّهاً وصيَّته لكُلِّ البنَاتِ النَّاطقات بالضَّاد:

* أي بُنيّتي، وكلّ فتاةٍ تشربُ من ماءِ النّيل، أو منْ ماءِ دجلةَ والفُرات، أو تنطقُ حيثما كانت بالضّاد، إنّما هي ابنتي.

* أريدُ أنْ أوصيكِ، ولستُ أدري كيف أوصيكِ، ولا كمْ أوصيكِ، فقد تكاثرتِ الوصَايا وتنوَّعَت، فلستُ أدري ما آخذُ منها وما أدع.

* أنتِ يا فتاتي إنسانٌ، والإنسانُ له وصايا، بحكْمِ أنّه إنسان، في كلّ زمان.

* وأنتِ يا فتاتي تعيشينَ في هذا الزَّمانِ، ومنَ الوصايا ما توزَّع علىٰ الأزمنةِ، فكان لكلِّ زمانٍ لون، فكانتِ الوصايا ألواناً.

* ووصيّةٌ تُلقىٰ لك يا فتاتي قد لا تُلقىٰ إلى الفتىٰ، فأنتما كثيراً ما تتوحَّدُ بينكما الشّؤون، ولكنَّ كثيراً أيضاً ما تختلفُ بينكما الشُّؤون، وهذه الشُّؤون المختلفة ستظلُّ هكذا مختلفة ما جرىٰ الزَّمان....

* فيا فتَاتي.... أوصيكِ بالصِّدقِ، وأوصيكِ باللسان العفّ، أوصيكِ بالعَدْل، وأوصيكِ بالكرمِ؛ فالكرمُ فوق العَدْل،... وأوصيكِ بالتّرفُّع عن أشياءَ جرى النَّاس عليها، وجرىٰ الطَّبْعُ علىٰ اعتبارِها بالرّفيعة... وفي الطَّبع الإنسانيّ أصولٌ كالجبال وكالرّمال لا تتغيّر، ولكنْ في الإنسان وعْيٌ، والوعيُ ينامُ ويستيقظُ، فاستفيدي من العِلْم والفِكْر والوعي.... ولكن احذري العلمَ أنْ يسوقَك ويسوقَ النَّاس إلى ضلالةٍ... إنَّ العلمَ قوّةٌ.... والعلمُ له حدود يُعْمل فيها؛ ولكن منَ النَّاس مَنْ يريده أنْ يخرجَ عن هذه الحدود، فيعملُ في كلِّ الحقول، وعندئذ لا يكونُ إلا فَشَلٌ وإلاّ إخفاق[1]...

---

(١) عن كتاب: كلمات مضيئة إلى ولدي (ص ٩٦ ـ ٩٨) بتصرف واختصار.

* هـذا وبابُ الوَصايـا والنَّصائـح طويـلٌ وجميـلٌ ، وفيـه خلاصـةُ وتجاربُ الآباءِ والأمّهات والمربّين ، ويحتـاجُ إليهِ كلُّ طفْـلٍ وكلُّ ابنٍ في هذهِ الحيَاة.

* * *



الفصلُ الثّالثُ
قصَصٌ وخواطرُ عنِ الطِّفْل والطُّفُولَة

* هذا فصلٌ يمكنُ أنْ يُؤَلّفَ عنه كتابٌ كبيرٌ ، إذ أدبُنا العربيُّ القديمُ والحديثُ فيه ثمارٌ ناضجةٌ في كثيرٍ من القَصَص والخواطرِ عن الطّفلِ وعن الطُّفولة ، ويمكنُ للقارىءِ أن يرجعَ إليها ، فيقطف منها ما يشاءُ ، ويغذّي عقله بما يناسب .

* وفي أدبنا العربيّ الحديثِ قصصٌ جميلة عنِ الطِّفل وعن الطُّفولةِ ، تحملُ كثيراً من المشاعرِ الطّيِّبَةِ ، وهذه قصّةٌ وخاطرةٌ بعنوان «ابنتي» لمحمّد سعيد العُريان المتوفىٰ عام (١٩٦٤ م) ، ترىٰ ماذا خبّأَ لنا محمد سعيد العُريان بين ثنايا خاطرتهِ عن ابنته؟! هذا ما ستكشفُه سطور قصّته :

ابـنـتـي

مرحباً يا عزيزتي الصغيرة .

ها أنتِ ذي يا بنتي أمامَ عيني حقيقةً أراها وكنتِ حلماً من أحلامي .

وهأنذا ألقاكِ بعد صبْرٍ صابرٍ وجهدٍ جاهدٍ وطولِ تشّوقٍ وارتقاب .

ما لك مغمضةَ العينين كأنما لا تجدينَ في دنياكِ الجديدةِ ما يُغري على اليقظةِ والنّظر؟

وما لك صامتةً أبداً فما تفتحين فمَكِ إلا للبكاءِ كأنما تشعرين بالغربةِ في هذا العالم الجديد؟!!

وما لهذه اليدين والرّجلين دائباتٍ على الحركةِ أبداً كأنّما تحاولينَ الفكاكَ من قيدٍ غيرِ منظور؟!

أين كنتِ يا بنتي؟ ومن أين جئتِ؟ وإلى أين المسير؟

أهذا يومُ ميلادكِ يا بنتي أم هو أوّلُ الطريقُ في مرحلةٍ بين مرحلتَيْنِ من عالَمٍ مجهول؟

حدثيني حديثك عن دنياكِ التي كانت ، ودنياكِ التي تكون ، فأنتِ أقرب عهداً يا بنية إلى ما كان ، وأصفى نفساً إلى تصوّر ما يكون .

هأنذا أرى شفتيكِ تختلجان وأنتِ نائمة كأنّما تهمسين بسرٍّ في أُذُن ، وتَبْسُمين أحياناً بَسَماتٍ غامضةً كأنّما تستمعين إلى نجوىٰ صامتة في دنيا الأحلامِ .

وتعبسين أحياناً باكيةً بلا صوتٍ ولا دموع .

حدّثيني ماذا ترين يا بُنية في منامكِ وماذا تسمعين؟

من ذا يسامرك يا بنتي في أحلامكِ وما عرفتِ شيئاً بعد في دنيانا تؤلّفين من أشتاته أقاصيص في أحلام!!

ليتني أعرف ماذا كنتِ أمس؟ وماذا أنت اليوم؟ وماذا تكونين ونكون في غد!

أطوارٌ ثلاثة في تاريخ البشريّة ليس في أيدينا من العِلْم بها ، إلا اليوم الذي نعيش فيه ، أما أمس فقبل أن نكون ، وأما غد فبعد أنْ نصير . . !

حياةٌ بين حياتَين ليس لنا من العِلْم بأولاها إلا بطن الأم ، وليس لنا من العلْم بالأخرىٰ إلا بطن الأرض .

ابنتي طفلةٌ في المهد لم تتجاوزْ من العمرِ في تاريخ البشرية إلا أيّاماً

معدودة ولكنها إلى ذلك كبيرةٌ كبيرة في نفسي وفي أوهامي ، إنها لم تُولدْ إلاّ أمسِ ولكنها كانت في رحلةٍ ثم آبت . إنها كبيرةٌ كبيرةٌ لأنها كانت تعيشُ في أَحلامي منذُ سنوات وسنوات . منذ أيقنتُ أنني يجبُ أن أكونَ أباً !

هل كنت تسمعين نجوايَ يا بُنيتي من وراءِ حدود المجهول ، وقد جلستُ ذاتَ مساءٍ أهتفُ باسمك في دنيا الأماني متسائلاً : أين أنتِ يا بنتي؟ أين أنتَ يا ولدي؟ أين أنتِ يا زوجي التي لم أرَها ولم أعرفْها بعد؟ أين أنتم يا أحبّائي؟

. . . طفلةٌ هي على حساب الزّمن إن كانت سن الحي تُعدُّ بالسّنين والأيام ، فكم تكون سنّها على الحقيقةِ منذ كانت أمنيةً تتراءى لي في اليقظةِ وطيفاً يلم بي في الأحلام؟

صورة إنسان في بضعةِ أرطال من لحمٍ ملفّفة في طيّاتِ الفراشِ ، ولكنّها معي أينما كنتُ ، أطوف بها ما أطوفُ في دنيا عريضةٍ من الأماني والوهام!

خرساءُ ما لها بيانٌ بعد ، فإذا التقتْ عيناها بعيني فإنَّ بينها وبين نفسي حديثاً أفصَحُ من حديثِ كلّ ذي شَفَة ولسان!

طفلةٌ هي إذا نظرتُ إليها في فراشها هادئةً مستسلمةً ، لا تقدرُ على الحركةِ ، فإذا أغمضتُ عيني وسبحتُ فيما أسبحُ مَنْ آمالي فهي غيرُ من هي : صبيةٌ تدرجُ أو فتاة تخطرُ ، أو عروسٌ في جلوةِ العرس إلى ذراع عروس . . . !

تعالي يا بنتي أضمُّك إلى صدري إنّني أنا أبوكِ أتراكِ تعرفين؟!!

هاتان عيناك السَّاجيتان تنظران إليّ نظراتٍ ليستْ من مثلِ ما تنظرين إلى أخي وابن عمي ، بربّك مَنْ علّمك؟

انظري إليّ يا بنتي وأطيلي النَّظر ، إنَّ في عينيك سرّاً يلهمني ما لم تلهمْني مشاهدُ الدنيا جميعاً منذ كنتُ إلى يوم عرفتكِ!

حدثيني حديثكَ الصَّامت يا عزيزتي ، لعلي أستشفُّ من وراء حديثكِ سرّ المجهول. ما أنتِ؟ وأين أنتِ؟ وما كان ماضيكِ؟ وكيف تأمُلين أن يكون غدك . . . أأنتِ هنا أم أنتِ هناك؟

. . . شمسٌ تشرقُ وتغيبُ، وليلٌ يطبقُ وينجلي، ورياحٌ تعصف وتهدأُ، وإنسان يعيشُ ويضحكُ ، ومعدة تمتلىءُ وتفرغ ، وقلبٌ صافٍ صفاءَ الحقّ أو عابس عبوسَ الضّلال ، وعيون فيها بريقُ الشّهوات أو فيها دموعُ الألم ، ووجوه عليها نقاب. . . هذه هي دنيانا أيتها الصّغيرة فما هي دنياك؟

أتراك تعرفين يا عزيزتي الصّغيرة؟ . . ما أرىٰ صمتكِ الطويلَ يا بنتي إلاّ حذراً ورُقْبةً حتى تعرفي ما أنتِ في دنياك الجديدة. . !

ترى من أدّبكِ هذا الأدب يا بنيتي؟

سائحٌ جوّال رمتْ به الأقدارُ إلى وادٍ غير واديه ، ودنيا غير دنياه ، وعيش لم يعثرْ على مثله فيما استدبرَ من حياة ماذا يقول وكيف يتحدّث . . أهكذا أنت في صمتكِ يا عزيزتي؟

هذه أمُّك يا صغيرتي لم تحمل ولم تلد قبلُ. علميها الأمومةَ يا صغيرتي إنها لم تكنْ تعرف . . . !

هاهي ذي حانيةٌ عليكِ صابرةٌ على ما تعاني من أوجاعِ الأمومةِ الأولىٰ وإنَّ في عينيها لبريقاً لم أرَ مثلَه فيما رأيتُ من عينيها قبل!

مغتبطة سعيدة أنْ تضمَّك إلى صدرِها في حنانٍ ورقّة وأنّ بها من الألم ما يذهلُ كلَّ ذاتِ ولد!

هاتان شفتاك الصَّغيرتان تبحثان عن شيء هنا. . مَنْ علمك أيتها الصّغيرة أنَّ هنا أودعَ الله ما أودع لك شبعاً ورياً؟

ورأيتك تلقمين ثديها مغمضةَ العينين تناول الخبيرِ الفَطِن ، فأحسنتِ الرّضاعةَ ، وما تحسن أمّك أنْ ترضع!

يا عجباً ! الطّفلُ الصّغير يعلِّمُ أمَّه الأمومَة قبل أنْ تتعلَّم هي أنْ تكون أماً!

في كلِ مرأىٰ عينٍ منك يا صغيرتي درسٌ يهديني ويلهمُني!

هل أنتِ سعيدة بدنياك الصّغيرة؟ هل تتألمين لشيء ، هل تؤملين في شيءٍ ؟ هل وجدتِ الحياة كما علّمَك ربُّكِ العظيم!!

من لي بأن أسمع جوابَ ما سألت. . ولكن لا؛ لا؛ حسبي الذي أرى أنك أنتِ أنتِ. . . . .

لأنّك لا تجيبين إنّك أنتِ أنتِ ، حسبي من العلم ما تلهمني نفسي ، إن ذلك أعمق أثراً في جناني من كل بيان!

هذا جسمُك ينمو كلَّ يوم شيئاً فشيئاً ، وهذه حركاتُك تقوىٰ وتشتدُّ ، وهذا صراخُك يتنوّع وتختلفُ أنغامُه ، وغداً إن شاء الله سيكون لكِ غد؛ ستكبرين يا صغيرة حتى تبلغي ما تبلغين ، وكم يلذّ لي أن أتمثّلك في خاطري صبيةً وفتاةً وسيّدة كما آمل أن تكوني ، ولكن شيئاً واحداً هو أغلى ذلك آمُل أن يظلّ معكِ صبيةً وفتاةً وسيدةً ، هو قلبُ الطفلةِ وابتسامةُ الطفلة ونظرةُ الطفلة و. . . وصمتُ الطفلة حين تضج الحياة من حولك وتصطخبُ ، ويلتمس كل سؤال جوابه. . . !

ولكن آه. . . إن حكمةَ المقادير لتأبىٰ. . . . !

هكذا كنا جميعاً ، وهكذا صرنا وكانت لنا حياة أين منها الحياة التي نعيشُ اليوم!

عيشي لي يا بنتي واسلمي ، وكوني ما تكونين ، فأنتِ أولُ من أَبَوْتُ ، وأنت أولُ مَنْ علّمني معنى الحياة. . . !

. . . لماذا تبكين يا بُنية؟ هأنذا على مقربةٍ منك ، تُملينَ عليَّ وأكتبُ ،

تعالي بين ذراعي إنهما على ما أنهما لألينُ مسّاً على جنبيكِ من هذا الفراشِ الوثير!

. . . تبكين لأني منصرفٌ عنك منذ ساعات إلى أوراقي أكتبُ؟ مَنْ علمك هذه الغيرة يا بُنية؟ إن فيك لطباع الأنثى وإن لم تكونيها بعد!

ابتسمي لأبيك أيتها الصغيرة! لا تبكي! إنّني أنا أبوك ، لقد تعلمتُ منذ السّاعة ما أنا ، وعرفتُ ما عليّ من واجب ، إنني لك منذ الآن لا يصرفني شأنٌ من شؤونِ الحياة عن هذا الواجبِ إلا أن يكون سعياً إلى ما يصلح من شأنك. . .

تعالي تعالي علميني ، إنّني أنا والدُك ولكنك أنتِ ولدتني يوم وُلدت ، لأنك أنشأتني خلقاً آخر من يومئذ. . .

تعالي قبلي أباك!. . لا تعرفين؟ هذه قبلتي على جبينك يا صغيرة تذكرينني بها إلى ميعادٍ وإنها لدينٌ إلى أجلٍ ، لا بد أن أقتضيه يوماً من شفتيك![1]

* وهذه خواطرُ جميلة مندّاة برحيقِ الأمومةِ للدكتورة نعمات أحمد فؤاد بعنوان «إلى ولدي» فلنعشْ مع المشاعرِ الرّقيقة ، والهمساتِ الدّافئة ، في هذه الخاطرة الجميلة:

ملأتَ حياتي مع أختيك يا بُني. . أصبحَ لعُمري معنى ، ولسعيي هدف. قد يزعجُ غيري كرّ الأيام ومرّ الليالي ، ولكني أفرحُ بسَيرِ الزّمن لأنّه ينميك: فكلُّ يوم ينقضي ينقصُ من عمري أنا ، ولكنه يمدّ لك في النّماء والتفتُّح. فما أهنأ قلبي. . ليت عمري كله يُضاف إلى سِنكَ. لتعيشه أنتَ لي ولك يا حبيبي الصَّغير.

لن أنسى ما حييتُ ذلك اليوم قبل ولادتك الذي عادتْ فيه أختُك

---

(١) عن كتاب «كلمات مضيئة إلى ولدي» (ص ١٦١ ـ ١٦٦) بتصرف واختصار.

«حنان» من المدرسةِ تبكي في ألم أكبر من طفولتها . . وجُنَّ قلبي وحنوتُ عليها أسألها ، فإذا بدموعها تروي قصة . . لقد كتبت المُدرّسة فيما تكتبُ من أسئلة :

ـ كم أختاً لك؟

ـ كم أخاً لك؟

ـ وماذا في هذا يا صغيرتي؟

ـ لقد أجابَ الفصل كلّه عن السؤالِ الثَّاني إلا أنا . . لم أعرفْ كيف تكون الإجابة؟ .

ـ أجيبي : ليس لي إخوة .

فعادت تبكي من جديد . وهي تقولُ في سذاجةٍ حبيبة :

ـ ولكن المدرّسة لا تصدّقني . . كلُّ البنات لهن أخ . . . ! ! !

وبكيتُ أنا . . وأحسستُ إحساسَ المذنب من غير ذنب . إنّكَ وحدكَ يا ربي تهبُ مَنْ تشاء الإناث . وتهبُ مَنْ تشاء الذكور . . ولكن ابنتي لغفلتها من طفولة ، تتطلعُ إليّ وما درت أنّي لا أملكُ لنفسي شيئاً . . من دونك حاشاك . . ورفعتُ وجهي إليك في ضراعة صامتة . . لم أقلْ شيئاً لأني في حضرةِ مَنْ يعلم السّرّ والنّجوى . . وفهمتَ عني ، واستجبتَ لي ، ووهبتني من لدنك صبياً . . .

وضجّ البيتُ كلّه من الفرح ، ولجَّ في الدعاء ، وإذ زال عني رهقُ الوضْع نظرتُ إلى طفلتي . . فإذا بحنان يهزُّ كيانها الصَّغير ، وتزغردُ عيناها في فرحةٍ راقصة :

ـ أحقاً صار لنا شقيق؟

أما «فينان» ، فقد التزمتِ الصَّمتَ . . وما أقلّ ما تلتزمه هذه الشّعلةُ الحيّةُ من ذكاءٍ ومرحٍ وحيوية . . كانت تديُر عينيها في المكان . وكأنها تقيسُ

مظاهرَ الفرح والتبريك التي أحاطت بالمولد والوليد.. فأحست بذكاءِ الفطرة وذكاءِ العقل معاً ما ينتظرهُ من حفاوة وتدليل. وعبثاً حاولنا إخراجَها من أوهامِها تلك الليلة، وإن استغرقتها بعد هذا دنياها الخاصة اللاعبة اللاهية، ولكنَّ العلاقة بينهما حددتها هذه البداية إلى حدّ كبير... فهي تحنو عليه بقدر، وتداعبه في افتعالٍ يضحك، ولها في هذا البابِ طرائف تروىٰ، حين تسكبُ عليه حنانَ الحب والحنان دفاقاً..

وكأنها أمٌّ صغيرة، حبيبتي الصغيرة.

بُني.. ما لي لا أملُّ النَّظر إليك كأنك أوّلُ عهدي بالبنين.. ونسيت أمومتي الولهىٰ أنها استقبلت قبلك «حنان» و«فينان» وكم أغنتني طفولتهما بمعانٍ وأحاسيس، ولكنْ بك يا بني تمّتْ نعمتهما عليّ.. فكن لهما، كالأمل فيك، خيرَ أخ... خيرَ صديق، فمن أجل هذا ترجو الأخوات الشقيق، ولمثل هذا ترجو الوالدات البنين.

ما لي لا أملُّ النظر إليك، كأني ولا عَمل لي إلا قراءة وجهكَ حين تصحو وحين تغفو، حتى لكأني أرى رموشَك وهي تنبتُ، وحاجبيكَ حين يكثفان يوماً بعد يوم.. لا أملّ تقبيلَ رقبتك وعطر الطّفولة كامنٌ فيها.. وكلما قبلتها وعبقت من شذاها رددت بغير حروف، قول تلك الأعرابية التي كانت ترقّص ابنها وتقول:

يـا حبّـذا ريـحُ الـولَـد ريـحُ الخُـزَامـى فـي البَلَـد

لقد ذكَّرها ابنُها بالخزامى.. حين أنسيتني كلَّ الزُّهور.. كل العطور، ليس مثلك شيء يا صغيري الحبيب...

أبنـيَّ، مـا أُحيلـى «يـا بنـيّ» أنـتَ ظـلٌّ مـدَّه اللهُ علـيّ
نعمـةُ العمـرِ وتـذكـارُ الصّبـا والأمـانـيُّ التـي عـزّت لـديّ
لسـتُ أنسـاكَ جنينـاً خـافيـاً فـي ضميـر الغيـب أدعـوك إلـيّ
أتمنّـاك لعينـي قـرّة حيـن ألقـاكَ وليـداً فـي يـديّ
أرقـبُ اليـومَ الـذي تبسـمُ لـي وتـرى آي الـرّضـا فـي مقلتـيّ

فأناجيكَ بألحانِ الهوى سابقات خاطري في شفتيّ
كلمات هي لا معنى لها غير أن تسمعَ مني أي شيّ
فتراعيني ولا تقوىٰ على غضّ أجفانك عنّي يا بُنيّ

كلُّ ما فيك يحلو ويسرّ.

كلُّ حركاتك ترفُّ عليها في عيني مخايل الذّكاء ، فلفتات رأسك أمارة انتباه ويقظة. . ونظراتُ عينك في اتجاه الصّوت علامة إدراك لمصدره ، خفقاتُ قدميك الصّغيرتين حيث تعبثان باللفائفِ البيض دليل حيوية. . سجلٌّ حافل بالتفسيرات سجلك وسجلي معك يا بني. . .

كم مرّة تحسستُ كفيك وقدميك. . كم مرة شممتُ عطْر طفولتك كما يُستروحُ مجهود الشّذا ويستاف العبير. كم مرة أدنيتُ وجهي من وجهك ، ووصلتُ خدي بخدك ، ونثرتُ على رأسك ورقبتك وجبينك المنور قبلاتٍ داعيةً بلغة يفهمُها عنك وعني ، ربي وربُّك. . . يا حبيبي الصغير. . . ما لي غدوت أتعللُ بك عن كلّ شاغلٍ سواك ، ولكنك كثيراً ما تنامُ ، وتلوحُ الفرصة لعمل الكثير في اطمئنان ، ولكنّي أتحوّلُ عن مهدِك. . فالإنسانُ لا يترك المتعة مختاراً ، وأنتَ متعةُ الروح يا قرة العين والقلب. وتمرّ الساعاتُ عليّ في جوارِكَ لا أحسُّ بها ، مستغرقة فيك نشوى ، وقد أنتبهُ لحظةً على صوتٍ في داخلي يقول: فيم عذرك الآن؟ قومي إلى بعضِ شأنك. فأتجاهلُ الصّوتَ والصّدى وأعود إليك وأفتح عيني عليك تعبُّ لي من عينيك وشفتيك ويديك. . كلك. . كلك يا حبيبي الصغير.

لقد أحاطتْ بك القُلوب. . منذ مجرّد سريان في الحشا يخفق له قلبي ويضيءُ له روحي. . منذ ذلك اليوم كثرتِ التكهنات والرّؤى والأحلام وكنتُ أرتاحُ للرّؤى والأحلام. . ويتشبث أملي بالرّموز والدّلالات وأستنطقُ «فينان» الخبر ، وأسألها عن نوع المولود أنثى أم ذكر. إنَّ صفاء الفطرة في الطفولة يكشفُ عنها الحجب كما يقولون. . نسيتُ كل ما تعلمته

في الليالي الطّويلة من منطقٍ وعلوم.. وغدوتُ لعبةً في يدِ الخرافات والأوهامِ من شوقي إليك.. من طولِ حنيني..

لقد ضمّك قلبي قبلَ أن يحتويك ذراعي وتلثمك عيني، فماذا رأيتَ فيه؟... هل استطعت أن تحيط بحناني وحبي؟ وهل عرفتَ مدى لهفتي وشوقي؟... أحسبُ هذا فوق استطاعتك يا حبيبي الصغير.. إنَّ القلبَ أكبرُ من اللغة، أكبر من الشّعرِ والشّعراءِ، أكبر من الفنّ والفنانين فما بالك أنت يا طفلي الصغير...

هل كنتَ تدري، وأنتَ تمرحُ في حشاي، أي سعادة كنتَ تضفيها بجولاتك هذه؟ ليس في الدنيا ضيف يعمق حبّه كلما أكثر من الطرْق والتّنبيه مثلك..

وجاءت ساعة المولد.. وكربني من الألم ما يكربُ الوالدات.. وتضّرعتْ عيونٌ، وصلّتْ قلوبٌ، وتعلّقت أنفاسٌ، وكنتُ في آلامي لا تفوتني معاني النّظرات والخفقات، فيعلو خوفي وأغيبُ في صلاةٍ صامتةٍ ألا يخيب كل هذه الآمال المعلّقة، فإذا اشتدّ الألم عدتُ إلى دنياي التي انحصرتْ ساعتئذ في الطّبيبِ والأهل، أمّا الطبيبُ فكان يخلط جدّه بالمرح، وأما الأهلُ فقد كانوا يمرون بتجربةٍ قاسية حتى إذ أعلن الطبيبُ قربَ مقدمكَ تجاوبتِ الأصواتُ حولي في هتفةٍ واحدةٍ «يا ربّ»! وانهلتْ دموعي تغسلُ وجهي وقلقي، تمسحُ خوفي ورهقي، ووجدتني في إيمانٍ عميق كالقديسين والأبرار، أقولُ بصوت باكٍ: يا ربّ.. قلتها كما لم يقلها أحدٌ من الملتفين حولي، على صدق حبّهم وإشفاقهم، قلت: يا ربّ بكل آلام عمري... بكل آمال قلبي.. كأنك وحدكَ عوضٌ عن الآلام.. كفَاءٌ لكلِّ الآمال.. قلتُها وهدأتُ هدأةً اهتبلها الطبيبُ فرصةً سانحة، فأعمل حقنة في جسمي، واستسلمتُ لأوامره المتتابعة من فرط إعياء، أو من عزاء كأني موعودةٌ من الله الذي دعوته باستجابة الرجاء، ثم بدَّدَ هذا الهدوء

المسكوب رجة ضجّ لها كياني كله حين اندفعتَ أنتَ إلى النور معلناً مولد حياة ، وبشرى ميلاد ، ونعيم قلب ، وأمل أسرة ، وصاح طبيبي في صوتِ المنقذ «ولَد» فهللت عيون وتهللتْ وجوه. . ورفّت ابتسامات وصعدت دعواتٌ. ثلاثة حروف من نور ، كان لها فعل السّحر في البيت المنتظر ، والصبر المرتقب ، والرجاء المشبوب.

وأضاءت أيّامي بك يا بني ، وانجلى عني الألم وعدتُ إلى ما كنت فيه من زحامِ عملي ومشاغل دنياي ، ولكنّي في كل الحالات تلفني الضّجاتِ أو تستغرِقني الهدءآت ترنُّ في أذني هتفة الطبيب في ذلك اليوم الحبيب «ولَد» فأنتشي من جديد ، وترفُّ على وجهي من تلقائها ابتسامة سعيدة ترتسمُ على أثرها ابتسامات وإن كانت لا تدري السرّ ولم تسمعِ الهتفةَ «ولَد».

كنتَ أنت يا بني «الولد» وأصبحتَ أنتَ السند. . رأى فيك والدك امتداداً لعمرهِ ، وفرعاً لأصلهِ ، ورسماً من رسمهِ. . ورأيت فيك عزّ أمومتي ، وتحقيقَ أمنيتي ، ونورَ أيامي ، ومصداقَ أحلامي ، ورضا لعمري ، والشوق والمنىٰ. . ورأتْ فيك أختاك شقيقاً ، وكبرا في عين نفسيهما. . لم تعودا أقل من البنات اللائي لهن شقيق. . هكذا كانت تقول حنان التي تعلق عليك آمالاً كباراً. وتكِلُ إليك حمايتها من العوادي ، وعزتها على الأيام ، وهي التي تكبرك ببضع سنين!! وأقول لها وقد راعني تفكيرها على هذا النحو:

ـ وكيف وهو ما زال في المهد صبياً؟

فتقول:

ـ ولكنه سيكبرُ ويحميني.

عمّ تصدر صغيرتي يا إلهي؟. . . عن قوة تفكير ، أم عن وراثات ، أم أن فرط رقتها أنطقتها بما تقول تنشد السلامة والأمان ، إنها تترقب ذلك

اليوم الذي يصحبها فيه أخوها إلى المدرسة ليرد عنها كما تقول عبث الصبيان وشقاوه الأولاد التي لا قبل لها وصويحباتها بها. . . وهكذا تقول. . . وهكذا يا ولدي تنظر إليك طفلاً كأنك طراز آخر من الأطفال، فما بالك إذا بلغت مبلغ الرجال؟ أي أمل يناط بك؟ أي رجاء يعقد عليك؟ أي خير ينتظر منك؟ أي سر يتمثل لنا فيك، فكن. . كما رجوناك غلاماً زكياً ثم رجلاً أبياً وابناً حفيًّا. . .

يا أمل السنين. . . ويا أعز البنين[١].

* وهذه قصة جميلة ترويها امرأة مغربية أنقذها الله من براثن المرض، وشبح الموت، بعد أن عرفت نور الإيمان، ترى ماذا سنسمع من المغربية ليلى الحلو؟!

* منذ تسع سنوات أصبتُ بمرضِ السّرطان، وجميعهم يعرفُ أنَّ هذا المرضَ مخيفٌ جدّاً، ونحن في المغربِ لا نسمّيه السّرطان، وإنّما نسميه (الغول) أو (المرض الخبيث).

* ولما شعرتُ ببراثنِ المرضِ تنهشُ جسمي وكان إيماني باللهِ ضعيفاً، وكنتُ غافلةً عن اللهِ، وكنتُ أظنُّ أنَّ جمالَ الإنسانِ يبقى كما هو، وأنَّ شبابَه وصحَّته كذلك، وما كنتُ أحسبُ أنّي سأُصابُ بمرضٍ خطيرٍ كالسَّرطان، فلمّا أصبتُ به وفكّرتُ في الهروبِ، ولكنْ إلى أين؟! ومرضي معي أينما كنتُ، فكّرتُ في الانتحارِ، ولكنّي كنت أحبُّ زوجي وأولادي، وما فكّرتُ أنَّ اللهَ سيعاقبني إذا انتحرتُ، لأني كنتُ غافلةً عن ذكْرِ الله كما أسلفت.

* وأرادَ اللهُ أنْ يهديَني بهذا المرضِ، وأن يهديَ بي كثيراً من النّاس فبدأتِ الأمورُ تتطور.

---

(١) المرجع السابق بتصرف يسير.

* لما أُصبتُ بهذا المرضِ رحلتُ إلى بلجيكا ، وزرتُ عدداً من الأطبّاء هناك ، فقالوا لزوجي: لا بدّ من إزالة الثَّدي. . وبعد ذلك تستعمل أدويةً حادّةً تُسقط الشّعرَ وتزيلُ الرموشَ والحاجبَيْن ، وتعطي لحيةً على الوجهِ ، كما تسقطُ الأظافرُ والأسنان ، فرفضتُ ، وقلت: إنّي أفضّلُ أن أموتَ كما خلقني الله. وطلبتُ من الأطباءِ أن يكتُبوا لي علاجاً خفيفاً ، ففعلوا.

* فرجعتُ إلى المغربِ ، واستعملتُ الدّواء فلم يؤثّر عليَّ ففرحتُ بذلك ، وقلتُ في نفسي: لعلَّ الأطباءَ قد غلطوا وأنا لم أُصَبْ بمرضِ السّرطان.

* ولكن بعد ستة أشهر تقريباً ، بدأت أشعرُ بنقص في الوزنِ ، وأحسّ بالآلامِ ، فنصحني طبيبي في المغرب أن أتوجّه إلى بلجيكا ، فتوجهتُ إلى هناك.

* وهناك ، كانتِ المصيبةُ ، فقد قال الأطباء لزوجي: إنَّ المرضَ قد عمَّ ، وأصيبتِ الرّئتان ، وأنّهم الآن ليس لديهم دواء لهذه الحالةِ. ثمّ قالوا لزوجي: من الأحسنِ أن تأخذَ زوجَتَك إلى بلدها حتى تموتَ هناك.

* فجِعَ زوجي بما سمعَ ، وبدلاً من الذّهاب إلى المغرب ذهبنا إلى فرنسا حيثُ ظنّنا أننا سنجدُ العلاجَ هناك ، ولكنّا لم نجدْ شيئاً ، وأخيراً حرصنا على أن نستعينَ بأحد الناس لأدخلَ المستشفى وأقطعَ ثديَيَ وأستعملَ العلاجَ الحادّ.

* لكنَّ زوجي تذكّر شيئاً كنّا قد نسيناهُ ، وغفلْنا عنه طوالَ حياتِنا ، لقد ألهمَ الله زوجي أنْ نقومَ بزيارةٍ إلى بيتِ اللهِ الحرام ، لنقفَ بين يديهِ سبحانه ونسألَه أنْ يكشفَ ما بنا من ضرٍّ ، وذلك ما فعلنا.

* انطلقنا من باريس ونحن نهلّلُ ونكبّرُ ، وسررتُ لأنّني سأدخلُ بيتَ اللهِ الحرام ، وأرىٰ الكعبةَ المشرفةَ ، واستوهبنا مُصحفاً ، وتوجّهنا إلى مكّةَ المكرمةِ.

* وصلنا بيتَ اللهِ الحرام ، فلما دخلنا ورأيتُ الكعبةَ بكيتُ كثيراً وندمتُ على ما فرطتُ في جنب الله ، وقلت: يا ربّ.. لقد استعصىٰ علاجي على الأطبّاء ، وقد أُغلِقتْ في وجهي جميعُ الأبوابِ ، وليس لي إلا بابكَ فلا تغلقْه في وجهي ، ثم طفتُ حولَ بيتِ اللهِ ، وكنتُ أسألُ اللهَ بألّا يخيّبني ، وألا يخذلني ، وإن تحيّر الأطبّاء في أمري.

* ورحتُ أطوفُ على العلماءِ الذينَ كانوا هناك ، وأسألُهُم أن يدلّوني على كتب وأدعية حتى أستفيدَ منها ، فنصحوني كثيراً بتلاوةِ كتابِ الله وشربِ ماءِ زمزم ، كما نصحوني بالإكثارِ من ذكرِ الله ، والصلاةِ على رسوله ﷺ.

* وبعد مدة شعرتُ براحةٍ نفسيةٍ واطمئنان في بيت اللهِ الحرام ، فطلبتُ من زوجي أن يسمحَ لي بالبقاءِ في الحرمِ ، وعدمِ الرجوعِ إلى الفندقِ ، فأذن لي.

* وفي الحرم كان بجواري بعضُ الأخواتِ المسلماتِ من بلادٍ مختلفةٍ كنّ يرينني أبكي كثيراً ، فسألنني عن سبب بكائي فقلتُ: لأني جئتُ إلى بيتِ الله ، وما كنتُ أظنُّ أني سأحبُّه هذا الحبّ ولأنّي مصابةٌ بالسَّرطان.

* فلازمنني ولم يكنَّ يفارقنني. فأخبرتهنّ أنني معتكفةٌ في بيتِ الله ، فأخبرنَ أزواجهنّ ومكثنَ معي ، فكنّا لا ننامُ كثيراً ، ولا نأكل من الطعام إلا القليل ، ولكنّا كنا نشربُ كثيراً من ماء زمزم ، والنبي ﷺ ، يقول: «ماء زمزم لما شرب له».

* وكنا نطوفُ دون انقطاعٍ ، حيثُ نصلّي ركعتين ثمّ نعاودُ الطوافَ ، ونشربُ من ماء زمزم ونكثرُ من تلاوةِ القرآن ، وهكذا كنّا في الليلِ والنهار لا ننامُ إلا قليلاً.

* وعندما جئتُ إلى بيتِ الله كنتُ هزيلةً ، وكان في نصفي الأعلى كثير

من الأورام التي تؤكد أن السَّرطان قد عمّ جسمي الأعلى ، فكنّ ينصحنني أنْ أغسلَ نصفي الأعلى بماءِ زمزم ، ولكنّي كنتُ أخافُ أنْ ألمسَ تلك الأورامَ ، فأتذكر ذلك المرضَ فيشغلني ذلك عن ذكرِ الله وعبادِته ، فغسلته دون أن ألمسَ جسدي.

* وفي اليومِ الخامسِ ألحَّ عليَّ رفيقاتي أنْ أمسحَ جسدي بشيءٍ من ماءِ زمزم فرفَضتُ في بدايةِ الأمر ، لكنّي أحسستُ بقوةٍ تدفعُني إلى أنْ آخذَ شيئاً من ماءِ زمزمَ وأمسحَ بيدي على جسدي ، فخفتُ في المرّةِ الأولى ، ثمّ أحسستُ بهذهِ القوة مرةً ثانية ، فتردّدتُ وفي المرةِ الثالثةِ أخذتُ الماء ومسحت به على جسدي وثديي الذي كان مملوءاً كله دماً وصديداً ، وحدث ما لم يكن في الحسبان ، كل الأورام ذهبت ولم أجدْ شيئاً في جسدي ، ولم أشعر بالألم أو الوجع.

* فدهشتُ أول الأمرِ ، ثم أدخلتُ يدي في قميصي لأبحثَ عما في جسدي فلمْ أَجدْ شيئاً من تلك الأورامِ ، فارتعشتُ ، ولكنْ تذكّرتُ أنَّ اللهَ على كلّ شيءٍ قديرٍ ، فطلبتُ من إحدى رفيقاتي أن تلمسَ جسدي ، وأن تبحثَ عن هذه الأورام ، فصحنَ كلهنَّ دون شعور: اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر.

* فانطلقتُ لأخبرَ زوجي ، ودخلتُ الفندق ، فلما وقفتُ أمامه ، قلتُ: انظر إلى رحمة الله؛ وأخبرتُه بما حدثَ فلم يصدقْ ذلك ، وأخذَ يبكي ويصيحُ بصوتٍ عالٍ ويقولُ: هل علمتِ أنّ الأطبّـاءَ أقسموا على موتكِ بعد ثلاثةِ أسابيع فقط؟ فقلتُ له: إنَّ الآجالَ بيدِ الله عزَّ وجلّ ولا يعلم الغيبَ إلا الله.

* ومكثنا في بيتِ اللهِ أسبوعاً كاملاً ، فكنتُ أحمدُ اللهَ وأشكرهُ على نعمهِ التي لا تُحصى، ثم زُرنا المسجدَ النّبويَّ بالمدينةِ المنورةِ ورجعنا إلى فرنسا.

* وهناك ، حارَ الأطباءُ في أمري ودهشوا وصاروا يسألونني هل أنت

فلانة؟! فأقول لهم: نعم وزوجي فلان ، وقد رجعتُ إلى ربّي ، وما عدتُ أخافُ من شيءٍ إلا منَ اللهِ عزَّ وجل ، فالقضاءُ قضاءُ الله ، والأمرُ أمرهُ.

* فقالوا لي: إنَّ حالتك غريبةٌ جدّاً وإنَّ الأورام قد زالتْ ، فلا بدّ من إعادةِ الفحص.

وأعادوا فحصي مرةً ثانية ، فلم يجدوا شيئاً ، وكنتُ من قبلُ لا أستطيعُ التّنفّسَ من تلك الأورامِ ، ولكنْ عندما وصلتُ بيتَ اللهِ الحرام وطلبتُ الشفاءَ من اللهِ ذهبَ ذلك عني.

* بعد ذلك كنت أبحثُ عن سيرةِ النبيّ ﷺ ، وعن سيرةِ أصحابِه رضي الله عنهم وأبكي كثيراً ، كنت أبكي ندماً على ما فاتني من حُبّ الله ورسوله ، وعلى تلك الأيام التي قضيتها بعيدة عن الله عزّ وجلّ»[1].

* * *

وهذه قصصٌ جميلةٌ للشّيخِ أبي الحسن النّدوي نختمُ بها هذه الموسوعةَ اللطيفةَ ، وقد اخترتُها من كتابِه «قصص من التّاريخ الإسلامي للأطفال» وتصرّفْتُ فيها بعض التّصرّفِ لتوافقَ هدفَ كتابِنا وغايتَه. وقد وضعتُ لها عناوينَ مناسبة.

١ ـ جئتكم من عند خير الناس

* في مكة المكرمة وُلِد رسولُ اللهِ ﷺ وكان أهلُها يعبدون الأصنام ، ويعيشون حياةً جاهلية، لا يرضاها اللهُ عز وجل فيها الظلم والجهل ، فبعثَ اللهُ رسولَه، وهو في سِنِّ الأربعين ، وأنزل عليه الوحي ، وأَمره بالدّعوةِ إلى التّوحيد ، والدِّين الخالص ، فعاداه أهلُ مكة وتنكروا لدعوته وحاربوه.

---

(١) القصةُ مقتبسةٌ وملخّصةٌ عن شريطِ مسجّلٍ بصوتها ، وقد طبعت هذه القصة في كتب شتى.

* وأُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرجَ ومعه صاحبُه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ من مكة مستخفيْن ، واقتفىٰ المشركون أثرهما ، وصلا في طريقهما إلى غارِ ثور ـ وهو على جبل بين مكّة والمدينة ـ ودخلا الغار .

* وبعثَ اللهُ العنكبوتَ فنسجتْ ما بينَ الغارِ والشجّرةِ التي كانت على وجْهِ الغار ، وسترتْ رسولَ اللهِ ﷺ وأبا بكر ، وأمر اللهُ حمامتَيْن ، فأقبلتا حتى حطّتا بين العنكبوت وبين الشجرةِ .

* ووصلَ الباحثون من المشركين إلى فم الغار ، ولم يَبْقَ بينهم وبينَ معرفتِهم؛ إلا أنْ ينظرَ أحدُهم إلى تحتَ قدميه ، ولكنّ اللهَ حالَ بينهم وبين ذلك ، فاختلَطَ عليهم الأمرُ ، ورأوا على بابِ الغار نسجَ العنكبوتِ ، وكيفَ يدخلُ أحدٌ الغارَ ، ولا يقطعُ نسجَ العنكبوتِ ، ويبقى على حاله؟!

* وبينما هما في الغار ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال: يا رسولَ الله! لو أنَّ أحدَهم رفع قدمه رآنا ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما» وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] واختلط الأمر على المشركين ، وانصرفوا خائبين .

* وأقام رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ ، وبدأت دعوةُ الإسلام تنتشرُ ، والناسُ يدخلون في دِيْن الله ، وبقيْت عداوةُ قريش والمشركين على حالِها ، وبدؤوا يحاربون الإسلامَ والمسلمين ، إلى أنْ أذن الله للمسلمين في قتالهم .

* وخرج رسولُ الله ﷺ في غزوة ، هل تعرفونَ ما هي الغزوة؟

* الغزوةُ ما خرجَ فيها رسولُ الله ﷺ في جندٍ من المسلمين للجهادِ في سبيلِ الله . . .

* نعم ، خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في غزوةٍ ، ورجعَ عنها في الظَّهيرة ، وكانتْ أيّام الصَّيفِ ، فأرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يستريحَ .

* فنزل رسولُ الله ﷺ تحت شجرة ، وعلّق بها سيفَه ، وتفرّقَ الناسُ ، وناموا ، ونامَ رسولُ الله ﷺ تحتَ الشجرة .

* وجاءَ رجلٌ من المشركين وسيفُ رسولِ الله ﷺ معلّقٌ بالشّجرة ، وهو في غمدِه .

* فأخذَ المشركُ السيفَ ، وسَلَّهُ منْ غمدِهِ ، واستيقظَ رسولُ الله ﷺ من نومه . .

* فقال المشرك والسَّيفُ مسلولٌ في يديه ـ لرسول الله ﷺ : تخافني؟

* قال رسولُ الله ﷺ : «لا» !

* قال المشرك : مَنْ يمنعُك منّي؟ .

* فقال رسولُ الله ﷺ : «الله» ! .

* فسقط السيفُ من يدِ المشركِ ، فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ السّيفَ .

* وقال للمشرك : «مَنْ يمنعُك منّي»؟

* فقال المشرك : كُنْ خيرَ آخذٍ! .

* فقال رسولُ الله ﷺ : «أتشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله»؟ .

* قال المشركُ : لا! ولكنّي أعاهدُك على ألاَّ أقاتلكَ ، ولا أكونَ مع قومٍ يقاتلونَك .

* فخلَّىٰ رسولُ الله ﷺ سبيلَه .

* فأتى المشركُ أصحابَه ، فقال : جئتكم مِنْ عند خيرِ الناس .

* وهكذا لاحظْنا العفوَ النّبوي والرحمةَ المحمديّة ، فما أجْملَ العفو ! وأكْرمَ الرحمة ! .

* * *

٢ ـ سخاءُ المسلمين وإيثارُهم

* هاجر النبيُّ ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وسكنوا بجوار أهلها.

* هاجروا إلى المدينة، وتركوا بيوتَهم، وأموالَهم، وإخوانَهم؛ وراءَهم في مكةَ، فسمَّاهم اللهُ ورسوله: «المهاجرين».

* واستقبلهم المسلمونَ في المدينة، وفرِحُوا بهم، وقالوا: «أهلاً وسهلاً ومرحباً».

* وأنزلوهم في دِيارِهم، وحكَّموهم في أموالِهم وأملاكِهم، فسمّاهم اللهُ ورسوله: «الأنصار».

* قال المهاجرون: باركَ اللهُ لكم في أموالِكم، وأملاكِكم، فلا حاجةَ لنا فيها، ولكنْ دلّونا على السوقِ لنعملَ ونتاجر ونكتسب.

* وهكذا فعلُوا، ذهبوا إلى السُّوقِ يبيعونَ ويشترون، وأغناهمُ اللهُ سريعاً.

* أصبحت مدينةُ رسولِ الله ﷺ مدينةَ الإسلام، الوحيدة في العالم. وكانت هذه المدينةُ مهجرَ المسلمينَ في العالمَ، إذا أسلمَ أحدٌ، وآذاه قومه هاجرَ إلى المدينة، وأمنَ مَكْرهم.

* وكانت المدينةُ مدرسةَ الإسلامِ، فإذا أسلم أحدٌ وَجَبَ عليه أن يتعلَّم الدّين، ويتعلَّمَ الحلالَ والحرامَ، ويتعلَّمَ أحكام الإسلام.

* ووجبَ عليه أن يتعلَّم القرآنَ والفرائضَ، ويتعلَّمَ كيف يُصلِّي ويصوم.

* وكيف يمكنُ للمسلم أنْ يصلّيَ ويصومَ، ويعبدَ الله بغيرِ العلْمِ، وكيف يمكنُه أن يعيشَ بغيرِ العلْم؟!

* كانتِ المدينةُ مدرسةَ الإسلامِ، فلا بُدَّ أن يتوجَّهَ إليها.

* فكان المسلمونَ يتوجَّهون إلىٰ المدينةِ من كل ناحية من نواحي العرب ، منهم مَنْ يفرُّ بدينهِ منَ الفتنِ ، ومنهم من يريدُ أن يتعلمَ الدِّين.

* وكان هؤلاء ضيوف الإسلام.

* وكان هؤلاء يأتونَ إلى رسولِ الله ﷺ ، وكان الرسولُ ﷺ يفرحُ بهم ، ويقول لهم: «أهلاً وسهلاً ومرحباً».

* وكان هؤلاء ضيوف اللهِ ورسوله ، وضيوف الإسلام.

* وكان رسولُ الله ﷺ يريدُ أن يكرمَهم ويطعمَهم؛ لأنّهم ضيوفُ الله ورسوله ، وضيوفُ الإسلام.

* ولكنْ كانَ رسولُ الله ﷺ زاهداً في الدنيا ، يأكلُ مرّة ، ويجوع أخرى ، يأكلُ فيشكرُ ، ويجوعُ فيصبر.

* وكان رسولُ الله ﷺ ، قد لا تُوقَدُ في بيتهِ نارٌ ، ولا يُطبخُ طعامٌ ، وما كان رسولُ اللهِ ﷺ يحبُّ أن يجوعَ ضيوفه ، وهم ضيوفُ اللهِ ، ورسولِه ، وضيوفُ الإسلام.

* وقد قال ﷺ: «مَنْ كَان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفَه».

* كان المسلمون في المدينة أسرةً واحدة ، وكانت المدينةُ كأنّها بيتٌ واحدٌ.

* فإذا جاءَ ضيوفٌ قسمهَم النبيُّ ﷺ على المسلمين ، فذهبُوا بهم إلى بيوتهم وأضافُوهم.

* وكان في الأنصارِ رجلٌ يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبّه رسولُ الله ، هذا الأنصاري هو أبو طلحة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ.

* وكان لأبي طلحة بستانٌ ، فيه ماء عذب وظل وشجر.

* وكان رسولُ الله ﷺ يذهبُ إليهِ في بعضِ الأيّامِ ، ويجلسُ في بستانه ، ويشربُ الماء البارد.

وذهبَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم إلى بستانِ أبي طلحةَ ، ومعهُ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وجاء أبو طلحة ففرحَ بهما ، وذهبَ يذبحُ لهما شاةً.

* فقال له رسولُ الله ﷺ: «لا تذبحْ ذاتَ ولد وذاتَ لبن» وذبحَ لهما أبو طلحة شاةً ، وطبخها ، فأكلا ، وشربا ، وحمدا الله ، ودعا رسولُ اللهِ ﷺ لأبي طلحة.

* وجاءَ ضيوفٌ مرّةً إلى رسول الله ﷺ ، فقسمَهم على المسلمين.

* وأخذ كلٌّ واحدٍ نصيبَه منَ الضُّيوف ، وأخذ أبو طلحةَ نصيبَه منهم.

* وسارَ أبو طلحة بضيوفه ، وهو لا يعلمُ هل يجدُ لضيوفِه طعاماً في بيته.

* ولا يدري أبو طلحة هل أكلَ الأطفالُ طعامَهم ، وناموا ، أمْ ينتظرون الطعام؟.

* لم يفكِّر أبو طلحة في ذلك ، ولم يمنعْه شيءٌ.

* وقطعَ أبو طلحة الطريقَ في فرحٍ وسرور ، والضيوفُ وراءه.

* وقرعَ أبو طلحةَ البابَ وسلَّم على أهلِ البيت: السلام عليكم ، أأدخلَ؟.

* وإذا صوت من الدار: وعليك السلام ، ادخل.

* ودخل أبو طلحة ، وقال في صوت المبشّر: معي ضيوفُ رسول اللهِ ﷺ.

* قالت زوجته في صوت المستبشر: مرحباً بضيوف رسول الله ﷺ.

* قال أبو طلحة: وما في البيت من الطعام؟ .

* قالت في غير جزعٍ ولا خوف: طعام الأطفال فقط.

* ومـاذا يفعـلُ أبـو طلحـة والطعـام لا يكفـي أهـل البيـت، فكيـف بالضيوف؟!.

* فكَّر أبو طلحة، واهتدى إلى حيلةٍ لطيفةٍ.

* عزم أبو طلحة على أن يجوعَ هذه الليلة، ويطعم ضيوفه وكذلك زوجته.

* وماذا عليهما لو جاعا ليلة من الليالي، وأطعما ضيوفهما؟! إنهما لا يموتان إذا جاعا ليلة!.

* وعَزَما على أن يؤثرا الضيوفَ على أنفسهما.

* وعزَما على أن يسكِّنا الأطفال، فينامون، ويأكل الضيوف.

* ولكن كيف يأكلُ الضيوف والمضيف لا يأكل؟!

* فكَّرَ أبو طلحة في ذلك، ووجدَ إلى ذلك سبيلاً.

* قال لزوجته: إذا جلسنا نأكلُ، اذهبي إلى السّراج، كأنّك تريدين أنْ تصلحيه، وأطفئيه.

* وهكذا كانَ، جلسَ الضيوفَ ليأكلوا، وجلسَ أبو طلحة ليأكلَ.

* وذهبتْ زوجته إلى السّراج، كأنها تريدُ أن تصلحه وأطفأته.

* انطفأَ السّراجُ، وبدأ الضيوفَ يأكلونَ في الظَّلام.

* وكان أبو طلحة يمدُّ يدَه إلى الصَّحفةِ، ويرفعها، ولا يتناولُ شيئاً. وهو يريهم أنه يأكل، ولا يشك الضيوف في أكله، وأكل الضيوفُ مطمئنين، وشبعوا وظنّوا أنَّ أبا طلحة شبعَ أيضاً.

* ولكن أبا طلحة لم يرفعْ لقمةً إلى فيه ، وكان الظلامُ عوناً لأبي طلحة.

* وقامَ الضُّيوفُ ، وغسلوا أيديهم ، وحمدوا الله ، ودعوا لمضيفهم بالبركة.

* وباتَ الضيوفُ شباعاً ، وباتَ أبو طلحة جائعاً؛ ولكنه كان أكبر سروراً ، وأكثر شكراً لله في هذه الليلةِ منه في الليالي السّابقة.

* وفي اليوم التالي حضر أبو طلحة مجلسَ الرّسول ﷺ على عادته؛ وظنَّ أنَّ قصّةَ الليل كانتْ سرّاً لا يعلمه إلا هو وزوجته.

* ولكنَّ اللهَ يعلمُ السرَّ وأخفى ، وقد أنزل اللهُ في ذلك آية كريمة فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

* وسألَ الرسولُ ﷺ عن القصّة ، وأخبره أبو طلحة بخبرِهِ.

* وسُرّ النبيُّ ﷺ بهذا الإيثارِ ، وبهذا الكرمِ ، ورضي عن أبي طلحة.

* وبقيت القصةُ خالدةً في الدنيا تحكي سخاءَ المسلمين وتروي للنّاس كرمَهم وجودهم.

* * *

٣ ـ بطولة الأطفال المسلمين

* عندما أراد رسولُ الله ﷺ أن يخرج إلى بدر ليقاتلَ المشركين ، خرجَ غلامٌ اسمه عُمير بن أبي وقّاص ، عمرُه ستّة عشر ربيعاً.

* كان عُميرٌ يخافُ ألاَّ يقبلَه النبيُّ ﷺ؛ لأنّه صغيرٌ ، فكانَ يجتهدُ ألاَّ يراه أحدٌ ، وكان يتوارى وراء النّاس.

* ولكنْ رآه أخوهُ الأكبرُ سعد بن أبي وقّاص ، فقالَ له: ما لكَ يا أخي؟ لأي شيء تتوارىٰ وتختبىء؟!

* فقال عمير: أخافُ أنْ يردَّني رسولُ الله ﷺ، وأنا أحبُّ الخروج، لعلَّ الله يرزقني الشهادة.

* وكانَ كما خافَ عُمير، فلمّا نظرَ إليه رسول الله ﷺ رأىٰ أنّه صغيرٌ، والحربُ ليستْ من شغلِ الأطفالِ والغِلمانِ.

* ولكنَّ عُميراً ما أحبَّ أنْ ينصرفَ، ويقعدَ في البيتِ، أو يلعبَ مع أصدقائِه في المدينة، فهو يريدُ الشهادةَ في سبيلِ الله!

* غير أن عميراً لا يعصي رسولَ الله ﷺ، ولا يريدُ إلا رضا الله، ورضا رسوله ﷺ.

* كان عميرٌ في حيرةٍ وحزنٍ شديد، فهو لمْ يبلغْ سِنَّ القِتَالِ، ولكنّه يحنُّ إلىٰ الشّهادة، وإلى الموتِ في سبيلِ الله، ويحنُّ إلى الجنّة، ويراها غيرَ بعيدة، ولكن كيفَ يصلُ إليها، وهو لمْ يبلغْ سِنَّ القتال؟!

* كلُّ ذلك ثقُلَ على عمير، وكان قلبُه صغيراً، فبكىٰ، ولمّا بكى عُمير رقَّ لـه قلبُ رسولُ الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ رقيقاً رفيقاً فأجازه.

* لا تسألوا يا أحبائي الأطفال عن فَرَحِ عُمير وسرورِه لما أجازه النبيُّ ﷺ، فكأنه وجَدَ ريحَ الجنة.

* وخرجَ عُمير مع أخيه ومع المسلمين، وكلّهم كبارٌ أقوياء، وكان كما أرادَ، فقد قُتِلَ شهيداً في الغزوةِ، وسبقَ كثيراً من الشّبان والرجال.

* رضي الله عن عمير، وأرضاه.

* ولما خرجَ رسول الله ﷺ إلى أُحُدٍ لقتال قريش، خرجَ معه من المدينة غلمانٌ يحبُّونَ الجهادَ في سبيلِ الله، وكانوا صغاراً، لم يتجاوزوا

الخامسةَ عشرة من عمرِهم ، فردَّهم رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم صغار ، لم يبلغوا سِنَّ القتال .

* وكان بين هؤلاءِ الغلمان ولدٌ ، اسمه رافعُ بنُ خديج ، وهو دُونَ الخامسة عشرة ، وكان يتطاولُ من شِدَّة الشوقِ؛ ليظنَّ الناسُ أنّه كبيرٌ ، قد بلغَ سِنَّ القتال .

* ولكنَّ رسول الله ﷺ ردَّه؛ لأنه عرفَ أنَّه صغيرٌ ، وأنّه يتطاولُ ، فشفعَ له أبوه ، وقال: يا رسولَ الله! إنَّ ابني رافعاً رَامٍ ، فأذن رسولُ الله ﷺ .

* ففرحَ رافعٌ كثيراً لمّا أذنَ له رسول الله ﷺ ، وخرجَ مع المجاهدين .

* وكان ولد آخر اسمه سمرةُ بن جندب في سِنِّ رافع ، فعُرِضَ على رسول الله ﷺ بعد رافع ، فردَّه رسولُ الله ﷺ لصغرِه أيضاً ، فقال سمرةُ: لقد أجزتَ رافعاً وَرَدَدْتَنِي ، ولو صارعتُه لصرعته .

* فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ سمرةَ ورافعاً بالمصارعةِ ، فصرعَ سمرةُ رافعاً كما قال ، واستحقَّ أنْ يسمحَ له بالدّخول في صفِّ المجاهدين .

* فأجازَ رسول الله ﷺ سمرة للخروجِ ، فخرجَ سمرة ، وقاتل يوم أُحُد في سبيل الله .

* رضي الله عن رافع وسمرة ، وعن أطفال الصحابة الشجعان وعن جميع الصحابة ، وحشرنا في معيتهم .

* * *

٤ ـ فُزْتُ وربِّ الكَعبةِ

* بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ نفراً من أصحابهِ على طلبِ بعضِ النّاس؛

ليدعوَهُم إلى الإسلام ، وكانوا سبعينَ رجلاً من خيارِ المسلمين ، وكان في هذه السّرية حرامُ بنُ مِلْحَانَ ، قتلَه أحدُ المشركين ، وهو جبّار بن سلمىٰ ، وكان من المستبعد أن يسلمَ ، ولكنه أسلمَ قريباً ، فاستغربَ الناس وسألوه عن سببِ إسلامهِ ، فقال ما معناه:

* إن قصّةَ إسلامي عجيبة فقد واجهتُ رجلاً من المسلمين اسمه حرام بن ملْحان ، طعنتُه برمحٍ بين كتفيهِ ، ونظرتُ إلى سنان الرّمح حين خرجَ من صدرهِ ، فسمعتُه يقولُ: «فزتُ وربِّ الكعبة».

* فقلتُ: ما معنى هذا والرجل يموت؟!

* والإنسانُ لا يكذبُ عند الموتِ ، وإذا كان يكذبُ في بعضِ الأحيانِ ، فعندَ الموتِ لا يكذبُ.

* وكان لجبار بن سلمى حقٌّ في أنْ يستغربَ ويقول في نفسه: طعنتُ رجلاً برمحٍ ، ودخل الرمحُ من جانب وخرج من جانب ، وخرَّ صريعاً ، ويلفظُ نَفَسَه الأخير ، ثم يقول: «فزتُ وربِّ الكعبة». فما هذا الفوز؟!

* وسألتُ بعضَ المسلمين عن قولهِ ، فقالوا: للشَّهادة ، إنّه كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر ، ويعرفُ ما يفوزُ به الشهيدُ من السَّعادةِ ورضا الله ونعماء الجنة ، كأنه يراها بعينيه ، فقال: «فزتُ وربِّ الكعبة».

* قلتُ: فازَ لعمر الله.

* وعرفَ جبارُ بنُ سلمى أنَّ وراءَ هذا العالَم عالماً آخر ، وأنَّ وراء هذهِ اللذاتِ والمسرَّاتِ التي ينعمُ بها ، لذاتٌ ومسرّاتٌ ألذّ منها ، وأعظم منها ، وأوسع منها ، وهي اللذاتُ والمسرّاتُ التي لا تنقضي ، والحياةُ التي لا تنتهي ، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

* ويقول:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

* وهكذا كانت كلمةٌ بسيطةٌ خرجتْ من قلبٍ مؤمنٍ، ونطقَ بها لسانٌ مؤمن، سبباً لإيمانِ كافرٍ لا يؤمنُ باللهِ ورسوله واليومِ الآخر، يؤمنُ بدينِ قتيله، وبدينٍ كان يُعاديه ويحاربه، وربَّ كلمةٍ مؤمنةٍ مخلصة، صنعتِ العجائب، وهزمتِ الجيوش، وفتحتِ البلاد، ومن تلك الكلمات الخالدات:

فزت وربِّ الكعبة

اللهم اجعلنا من الفائزين.

* * *

٥ ـ ما عندَ اللهِ خيرٌ

* كان سيّدُنا أبو بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ يأخذُ من بيتِ المال ـ وهو خليفةُ المسلمين وحاكمُ دولةٍ واسعةِ الأطرافِ، تشملُ الجزيرةَ العربيّة، وتتوغّلُ في بلادِ الشام غزواً وفتحاً ـ ما يكفي لقوتِهِ، وقوتِ أسرته الصغيرة، وكان تاجراً قبل أنْ يتولّى الخلافةَ، وشغلتْه الخلافةُ عن التّجارة، فاضطرّ إلى أنْ يأخذ من بيتِ المال ما يعوله، لأنه لا يجدُ وقتاً للتكسّبِ والارتزاق، وذلك في صالحِ المسلمين، والانشغالِ بمهمّات الخلافة، وإدارة البلادِ.

* وكان الذي يأخذه من بيتِ المال يكفي لإقامةِ صُلْبه وصُلْب عيالهِ من طعام؛ من خبز وإدام، وكانت الأسرةُ أحسنَ حالاً، وأنعمَ بالاً حين كان أبو بكر يرتزقُ بالتّجارة.

* وكان لأبي بكر أولادٌ صغارٌ يعتمدون على ما يقيمُ صُلْبهم ، ويسدُّ رمقهم من طعامٍ بسيط متشابه ، لا يجدون ما يشبعُ رغبتَهم من حلوى وفاكهة؛ كمَنَ كان في سِنِّهم من أبناء أُسَر المدينة الذين أغناهم الله ، ووسَّع لهم في الرّزق ، وكانت لآبائهم حدائقُ ، وتجاراتٌ ، ومزارع.

* شعرتْ بذلكَ الأمُّ الحنون ، وأرادتْ أن تحلِّي يوماً أفواهَ الأبناءِ الصغارِ ، وتتسلى بالحلوى ، وهي بشرٌ من البشر ، فطلبت من زوجها أن يسمحَ لها بذلك يوماً من الأيام ، ويزيدَ في راتبها من بيتِ المال ، فقال: إنَّ بيتَ مالِ المسلمين لا يتسعُ لإشباعِ الرغبات ، والتنوّعِ في المطاعمِ والمشاربِ.

* فقالت: لو أبقيتَ من نفقتنا عدّة أيام ، وبقيتْ لنا بقية ، هل هنالك مانعُ من أن نشتريَ بها حلوى؟.

* قال: لا بأسَ بذلك ، فادّخرت زوجُ أبي بكر الصِّدِّيق من نفقتها من عدّة أيّام ما يصلحُ لأن يُشترى به حلوى ، وقدَّمتِ الدّريهمات إلى أبي بكر ، وقالت: هاكَ دريهمات ، تستطيعُ أن تشتريَ بها لنا حلوى.

* ولم يكنْ من شأنِ الصّديق إلا أنه ردَّ الدُّريهمات إلى بيتِ المال ، وقال لمن يلي أمره:

* قد تحقّقَ لدينا أنَّ أسرتَنا تستطيعُ أنْ تعيشَ ، بأقل ممّا تتقاضى من بيتِ المال منَ الدّريهمات ، فأسقطْ من نفقتنا كلَّ يوم بقدْرِ هذه الدّريهمات ، فإنّها كانت زائدةً على حاجاتنا ، وليس بيتُ مالِ المسلمين لأسرةِ الخليفة تتوسّع به في المطاعم.

* وهكذا كان ، فنقصَ من راتبِ كلِّ يوم بقَدْر هذه الدرّيهمات ، وكان من حظِّ الأسرة السعيدة الصالحة الغرم بدلَ الغنْم ، ولم تستطعْ أن تحققَ رغبتها فيما اشتهتْه منْ حلوى ، بل اضطرت إلى أن تقتنعَ براتب أقلّ مما

كانت تناله كلَّ يومٍ من بيت المال ، ورضيت السّيدةُ زوجُ الصِّدِّيق بما فعله زوجُها العظيم ، ولم تعتبره غرماً وخسارة ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾ [النور: ٢٦].

* وضربَ سيدّنا أبو بكر مثالاً لمن يلي أمْرَ المسلمين ، ويفضِّلُ الزّهدَ والقَناعة على التوسُّع في المطاعمِ والمشَاربِ ، وقضاء حاجاتِ النّفس ، ويرجِّحُ الآخرة على الدنيا ، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ ﴾ [القصص: ٦٠].

* فرضي الله عن أبي بكر ، وعن الخلفاء الراشدين المهديين.

* وجعلنا في زمرتهم يوم الدين.

* * *

* وبعد ـ أحبّائي ـ فقد أوشكتِ الرّحلَةُ على الانتهاءِ ، وأتركُكُم في رعايةِ اللهِ وحفْظِهِ ، وآمُلُ أنْ أكونَ قد حقّقتُ شيئاً في هذا الكتابِ ، وآمُلُ أنْ ينتفعَ به الكبارُ والصِّغار ، وأن يخصَّني مَنِ استفادَ منه بدعوةٍ خالصةٍ في ظهْرِ الغيب . . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

فهرس المصادر والمراجع[1]

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الصَّحيحان: [البُخاري ومسلم].
٣ ـ السُّننُ الأربعة.
٤ ـ المسَانيد.
٥ ـ كتُبُ عُلُوم القُرآن.
٦ ـ كتُبُ الفقه.
٧ ـ الآدابُ الشَّرعيَّةُ: لابن مفْلح المقدسيّ ـ حقَّقه شُعَيب الأرناؤوط وعمر القيَّام ـ مؤسَّسُة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
٨ ـ أحكامُ القُرآن: لابن العربيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ دون تاريخ.
٩ ـ إحياءُ عُلومِ الدِّين: لأبي حامد الغَزالي ـ طبَعَاتٌ مختلفة.
١٠ ـ أدبُ الدُّنَيا والدين: للماوردي ـ تحقيق ياسين السَّواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م وطبعات أخرى.

---

(١) عُدنا في هذا الكتاب إلى مئاتٍ من المصادرِ والمراجع المتنوّعة في عالَم المعرفةِ، كما عُدنا إلى كثيرٍ من كتبِ التَّربيةِ العربيةِ والمُترجَمة، كما عُدنا إلى عددٍ كبير من المجلات المتخصصة في الطّفل، وإلى مقالاتٍ منثورةٍ عن الطّفل في ثنايا الكتُب والدّوريات، بيد أنَّ جُلَّ اعتمادنا كان على القرآن الكريم والسُّنة وعلومهما، والاستفادة منْ أحكامهما؛ واستنباط بعض الفوائد منهما، والتي سيجدُها القارىء الكريم منثورةً بين ثنايا الكتاب، والله نسأل التوفيْق.

١١ ـ أدبُ المرأة في الجزيرة والخليج العربي ـ لليلى محمد صالح ـ دار السلاسل ـ الكويت ـ ط ١ ـ ١٤٠٧ هـ.
١٢ـ أساسُ البلاغةِ: للزَّمخشريّ: دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
١٣ ـ أسبابُ النُّزول: للواحديّ ـ تحقيق كَمال بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
١٤ ـ الاستبْصَارُ في نَسَبِ الصَّحابة منَ الأنصار: لابن قدامة المقدسيّ ـ تحقيق علي نُوَيْهض ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥ ـ الاستيعابُ ـ بهامش الإصابةِ ـ لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّينيّ ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة ط ١ ـ ١٤١١ هـ ـ وطبعة دارِ الكِتاب العربي المصوَّرة ببيروت.
١٦ ـ أسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابة: لابنِ الأثير ـ دار الفكر ـ طبعة مصوَّرة عن طبعةِ دار الشَّعْب المحقّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.
١٧ ـ الإصابةُ في تمييزِ الصَّحابة: لابن حجر العَسْقلاني ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.
١٨ ـ الأعلامُ: للزّركليّ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٤ م ـ وطبعة مصورة في عشرة أجزاء دون تاريخ.
١٩ ـ أعلامُ النِّساء: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسَّسة الرِّسَالة ـ بيروت ـ ط ٩ ـ ١٩٨٩ م.
٢٠ ـ إغاثةُ اللهفانِ منْ مصايدِ الشَّيطان: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق محمّد حامد الفقي ـ دار الجيل للطّباعة ـ مصر ـ دون تاريخ.
٢١ ـ الأغاني: للأصفهاني ـ تحقيق عَددٍ من الأساتذة ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م، وطبعة مصوَّرة عن دار الكتبِ المصريّة.
٢٢ ـ إليكَ يا ولدي: د. سُعاد الصَّباح ـ منشورات دار السَّلاسل ـ الكويت ـ ١٩٨٥ م.
٢٣ ـ أنباءُ نجباءِ الأبناء: لمحمّد بن ظفر ـ مصْر ـ دون تاريخ.

٢٤ ـ أنسابُ الأشرافِ: للبلاذري ـ تحقيق عَددٍ من الأفاضل ـ وطبعة دار الفكر.
٢٥ ـ أنوارُ التّنزيل وأسرار التّأويل: للبيضاويّ ـ مؤسّسة شعبان للنّشر والتّوزيع ـ بيروت ـ دون تاريخ. وطبعات أخر».
٢٦ ـ الأوائلُ: لأبي هلال العَسْكري ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٧ هـ.
٢٧ ـ البحرُ المحيطُ (تفسير): لأبي حيّان الأندلسي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
٢٨ ـ البدايةُ والنّهايةُ ـ لابن كثير ـ دار الفكْر ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
٢٩ ـ البصائِرُ والذّخائر: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٣٠ ـ بلاغاتُ النّساء: لابن طيفور الخراسانيّ ـ صحّحه وشرَحه أحمد الألفي ـ مطبعة مدرسة والدة عبّاس الأوّل ـ القاهرة ـ ١٩٠٨ م. وطبعة أخرى بمكتبةِ السُّندس ـ الكويت ـ ١٩٩٣ م.
٣١ ـ بلوغُ الأَربِ: للآلوسيّ ـ تحقيق محمّد بهجة الأثري ـ مصر ط ٢ ـ ١٩٢٤ م.
٣٢ ـ بهجةُ المجالسِ وأنسُ المجالس: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمد مُرسي الخولي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٣ ـ البيانُ والتّبيين: لأبي عُثمانَ الجاحظ ـ تحقيق عبد السّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
٣٤ ـ تاريخُ الإسلامِ ووفيَاتُ المشَاهير والأعلام: للذّهبيّ ـ تحقيق د. عمر عبد السّلام تدمريّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٣٥ ـ تاريخُ مدينة دمشق (تراجم النّساء): لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ دون تاريخ.

٣٦ ـ تاريخُ مكَّة: لأبي الوليد الأزرقيّ ـ المكتبةُ التِّجارية ـ مكّة المكرّمة ـ ط ١ ـ١٤١٦ هـ. وطبعات أخرى.
٣٧ ـ تحفةُ المودود: لابن قيِّم الجوزية ـ عدة طبعَات مختلفة.
٣٨ ـ التَّراتيبُ الإدارية: لعبد الحيّ الكتّاني ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت.
٣٩ ـ تفسيرُ الطّبريّ (جامع البَيان في تفسير القُرآن): للطّبري ـ دار الفِكْر ـ دمشق ـ ١٩٨٤ م.
٤٠ ـ تفسيرُ القرآنِ العظيم: لابنِ كثير ـ دارُ ابنِ كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م. وطبعةُ دار المعرفةِ في بيروت.
٤١ ـ تفسيرُ القرطبيّ (الجامع لأحكام القُرآن): للقرطبي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٤٢ ـ التَّفسيرُ الكبير (أو مفاتيحُ الغيب): للرّازي ـ دار الكُتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م. وطبعات أخرى.
٤٣ ـ تنبيهُ الغَافلين: لأبي الليث السَّمرقنديّ ـ تحقيق يوسُف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ١٩٩٣ م.
٤٤ ـ تهذيبُ الأسماءِ واللغات: للنَّووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م. وطبعة مصوّرة بدار الكتب العلمية ببيروت.
٤٥ ـ ثقافَةُ الأطفالِ: د. هادي نعمان الهيتي ـ سلسلة عالَم المعرفة ـ الكُويت ـ رقم (١٢٣).
٤٦ ـ ثمارُ القلوبِ في المضافِ والمنسوب: للثَّعالبيّ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دارُ نهضةِ مصر ـ ١٩٦٥ م. وطبعةُ دار البشائر بدمشق بتحقيق إبراهيم صالح.
٤٧ ـ جامعُ العُلوم والحِكم: لابن رجَب الحنبلي ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ـ مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٩١ م.

٤٨ ـ الجليسُ الصَّالحُ الكافي: للمعافىٰ بن زكريا النَّهروانيّ ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ود. إحسان عبّاس ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٤٩ ـ الحبُّ في زمانِنا: لوفاء وَجْدي ـ مطابعُ الهيئةِ المصريّةِ للكتاب ـ عام ١٩٨٠ م.
٥٠ ـ الحقائِقُ الطِّبيّةُ في الإسلام: د. عبد الرَّزَّاق الكيلاني ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٥١ ـ حليةُ الأولياء: لأبي نُعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٥٢ ـ حياةُ الصَّحابة: للكاندهلوي ـ تحقيق نايف العبّاس ورفيقه ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٦ م.
٥٣ ـ الدَّاء والدَّواءُ: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق يوسُف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٩ م ـ وطبعاتٌ أخرى متنوعة.
٥٤ ـ دراساتٌ في أناشيدِ الأطفال وأغانيهم: لعبد الفتَّاح أبو معال ـ دار البشير ـ عمَّان ـ الأردن ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
٥٥ ـ دَرُّ السَّحابةِ في مناقبِ القَرابةِ والصَّحابة: لمحمد بن علي الشّوكاني ـ تحقيق حسن العمري ـ دار الفكْر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.
٥٦ ـ الدرُّ المنثور في التَّفسير المأثور: للسّيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ ـ ، وطبعة أخرى مصورة ببيروت.
٥٧ ـ دلائلُ النُّبوّة: للبيهقيّ ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٥٨ ـ ديوانُ أبي تمام: بشرح الخطيب التَّبريزيّ ـ تحقيق محمد عبده عزّام ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٤ م.
٥٩ ـ ديوانُ ابنِ الرُّومي: تحقيق د. حسين نصَّار ـ دار الكتب المصريّة ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م.

٦٠ ـ ديوانُ جرير: بشرحِ محمّد بن حبيب ـ تحقيق د. نعمانُ محمد أمين طه ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.

٦١ ـ ديوانُ حافظ إبراهيم: ضبطَه وصحَّحه وشرحَه ورتَّبه: أحمد أمين وأحمد الزَّين وإبراهيم الأبياري ـ دار الجيل بيروت ـ طبعة مصوّرة عن طبعة مصر عام ١٩٣٧ م.

٦٢ ـ ديوانُ عبد المحسن الكاظميّ: المجموعةُ الثَّانية ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م.

٦٣ ـ ديوانُ معروف الرّصافي: منشورات مكتبة دار الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ دون تاريخ.

٦٤ ـ ديوانُ نازك الملائكة: دار العَودة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.

٦٥ ـ رحلة ابن جبير: لابن جبير الكناني الأندلسي ـ دار المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ.

٦٦ ـ الرَّوضُ الأُنُف ـ بهامش السِّيرة النّبوية ـ: للسُّهيلي ـ تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد ـ مكتبة الكليّات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١ م.

٦٧ ـ روضةُ المحبّين ونزهةُ المشتاقين: لابن قيّم الجوزية ـ بيروت ـ ١٩٦٧ م. وطبعات أخرى.

٦٨ ـ زهرُ الآداب وثَمر الألباب: للحصري القيرواني ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ م.

٦٩ ـ سُبُل الهدىٰ والرَّشاد في سيرةِ خير العباد: للصَّالحيّ ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وعدد من العلماء ـ لجنة إحياءِ التراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م.

٧٠ ـ سَرْحُ العُيون: لابن نباتة ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ منشورات المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٤٠٦ هـ.

٧١ ـ سِيَر أعلام النّبلاء: للذّهبيّ ـ تحقيق جماعة منَ العلماء والأفاضل مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.

٧٢ ـ السِّيرةُ الحلبيّة: لعلي بن برهان الدِّين الحلبيّ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٤ م.
٧٣ ـ السّيرة النّبويةُ: لابنِ هشام ـ تحقيق السّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.
٧٤ ـ السّيرةُ النَّبويةُ: لأحمد زيني دُحْلان ـ الأهلية للنَّشر والتّوزيع ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.
٧٥ ـ شاعراتُ العرب: جمعُ وتحقيق عبد البديع صقْر ـ المكتبُ الإسلاميّ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.
٧٦ ـ شذراتُ الذَّهب: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ومراجعة وإشراف عبد القادر الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م، وطبعة مصورة ببيروت.
٧٧ ـ شرحُ المعلّقات العَشْر وأخبار شعرائها: اعتنى بجمعه وتصحيحه أحمد بن الأمين الشَّنقيطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٨ ـ شرحُ مقامات الحريري: للشَّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م؛ طبعة مصورة.
٧٩ ـ الشّفا: للقاضي عياض ـ تحقيق محمّد أمين قرة علي ورفاقه ـ مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦ م.
٨٠ ـ شفاءُ الغَرام بأخبار البلد الحرام: للفاسي ـ تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٨١ ـ الشَّوقيّاتُ: لأحمد شوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ١١ ـ ١٤٠٦ هـ. وطبعة دار صادر.
٨٢ ـ الصُّورةُ الفنيَّة في الشِّعر الإسلاميّ عند المرأةِ العربيّةِ في العَصْر الحديث: د. صالح الخضيري ـ مكتبة التَّوبة ـ الرِّياض.
٨٣ ـ صيدُ الخاطِر وبآخرهِ لفتةُ الكَبِد في نصيحةِ الولد: لابن الجوزي ـ تحقيق يوسُف علي بديوي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

٨٤ ـ الطِّبُّ النَّبوي: للبغدادي ـ تحقيق يوسُف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٨٥ ـ الطَّبقاتُ الكُبرىٰ: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عبَّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٨٦ ـ الطِّفْلُ في الشَّريعة الإسلامية: د. محمد بن أحمد الصَّالح ـ مطبعة نهضة مصْرَ ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو رقم طبعة.
٨٧ ـ الأطفالُ: لأحمد خليل جمعة ـ سلسلة مفاهيم إسلامية.
٨٨ ـ الأطفالُ في التُّراثِ (حكايات ونوادر): د. عبد الرزاق حسين ـ دار النَّفائِس ـ عمّان ـ الأردن ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.
٨٩ ـ الطُّفولةُ في الشِّعرِ العربيّ والعالميّ: د. أحمد علي كنعان ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٥ م.
٩٠ ـ العِقْدُ الفريد: لابن عبد ربّه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التّأليف والتّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢ م.
٩١ ـ عيونُ الأَثَرِ في فنونِ المغازي والسِّيَر: لابن سيِّد النّاس ـ دارُ الآفاقِ الجديدة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٢ م.
٩٢ ـ عيونُ الأخبارِ: لابن قُتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.
٩٣ ـ غُرَرُ التِّبيان في مَنْ لم يُسم في القُرآن: لابن جماعة الحموي ـ تحقيق د. عبد الجواد خَلف ـ دار قُتيبة ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٩٤ ـ غوامضُ الأسماءِ المبهمةِ الواقعة في متونِ الأحاديثِ المسندة: لابن بشْكوال ـ تحقيق د. عزّ الدِّين علي السَّيِّد ومحمد كمال الدّين عزّ الدّين ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
٩٥ ـ الغيثُ المسجم في شرح لاميّة العجَم: لصلاح الدِّين الصَّفدي ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٠ م.
٩٦ ـ فتحُ الباري: لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محبّ الدِّين الخطيب ـ المكتبة السَّلفيّة ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٤٠٨ هـ.

٩٧ ـ الفتحُ الرَّبَّاني: لأحمد عبد الرحمن البنّا ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٩٨ ـ فتحُ القدير: لمحمّد بن علي الشَّوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٩ ـ الفرجُ بعد الشِّدَّة: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
١٠٠ ـ فقهُ اللغةِ وسرُّ العربية: للثَّعالبي ـ تحقيق مصطفى السَّقَّا ـ القاهِرة ـ ١٣٥٧ هـ. وطبعات أخرى.
١٠١ ـ قَصَصُ الأنبياء: لابن كثير ـ تحقيق يوسُف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
١٠٢ ـ قَصصُ العَرب: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
١٠٣ ـ قطوفُ الرَّيحان من زَهْر الأفنان: للسَّلاوي ـ دار روضة الصَّغير ـ الرياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
١٠٤ ـ الكاملُ في التّاريخ: لابن الأثير الجزريّ ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٠٥ ـ الكاملُ في اللغةِ والأدبِ: لأبي العبّاس المبرّد ـ تحقيق محمّد أحمد الدّالي ـ مؤسّسةُ الرِّسالةِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
١٠٦ ـ كتابُ أَلف بَـاء: للبلوي ـ مصوّرة عالَم الكتُب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٠٧ ـ كلماتٌ مضيئةٌ إلى ولدي: لأديب محمّد إدريس ـ الرِّياض ـ ١٤١٥ هـ.
١٠٨ ـ كنزُ العمّال: لعلاءِ الدِّين الهندي ـ بعنايةِ حيّاني والسَّقا ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٨٥ م.
١٠٩ ـ لسانُ العَرب: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

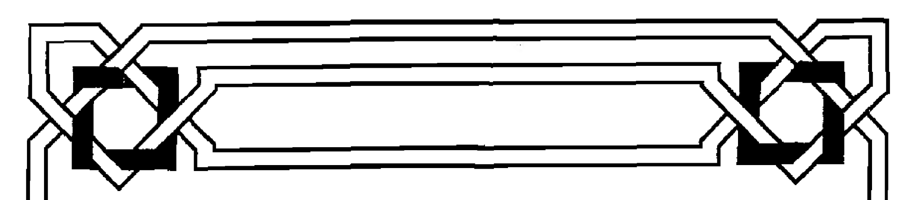
١١٠ ـ مجمعُ الأَمْثال: للميدانيّ ـ تحقيق محمّد محيي الدِّين عبد الحميد ـ مطبعة السُنَّة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م.
١١١ ـ مجمعُ الزَّوائد: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١١٢ ـ مجملُ اللغة: لابن فارس ـ حقّقه شهاب الدِّين أبو عمرو ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
١١٣ ـ المحاسنُ والمساوىء: للبيهقيّ ـ حقَّقه محمد سُويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م ـ وطبعة دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.
١١٤ ـ محاضراتُ الأدباءِ ومحاوراتُ الشُّعراء والبلغاء: للرّاغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١١٥ ـ مختارُ الصِّحاح: للرّازي ـ طبعات مختلفة متعددة.
١١٦ ـ مختصرُ تاريخِ مدينة دمشق لابن عساكر: لابنِ منظور ـ تحقيق عددٍ من الأساتذةِ ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
١١٧ ـ المدهشُ: لابن الجَوزي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١١٨ ـ المستدركُ على الصَّحيحين: للحاكم النِّيسابوريّ ـ مكتب المطبوعات الإسلاميّة ـ حلب ـ وطبعةُ بيروت.
١١٩ ـ المستطرفُ في كلِّ فنٍّ مستظرف: للأبشيهيّ ـ مصوّرة دار الفكر عن طبعةِ مصر ١٢٧٧ هـ. وطبعة دار صادر المحقّقة في بيروت بتحقيق إبراهيم صالح.
١٢٠ ـ المصباحُ المنيرُ: للفيومي ـ طبعةٌ مصوّرة ـ دون تاريخ أو اسم دار نشر.
١٢١ ـ المعارفُ: لابن قُتيبة ـ تحقيق د. ثروت عُكَاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ م.
١٢٢ ـ معجمُ البُلدان: لياقوت الحمويّ ـ دار إحياء التُّراث العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٢٣ ـ المعجمُ الوسيط: أخرجَه د. إبراهيم مصطفىٰ ورفاقه ـ تركيا.
١٢٤ ـ المغَازي: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٢٥ ـ المُغني: لابن قدامة ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م.
١٢٦ ـ المواهبُ اللدنيّة: للقسطلاني ـ تحقيق صالح الشَّامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
١٢٧ ـ نساء منَ التَّاريخ: لأحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.
١٢٨ ـ نساءٌ منْ عَصْر التَّابعين: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٩ م.
١٢٩ ـ نساءٌ منْ عَصْر النُّبوة: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ٢٠٠٠ م.
١٣٠ ـ نفحاتٌ شاميّة: لعدنان مردَم بك ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٩ م.
١٣١ ـ نهاية الأربِ: للنَّويري ـ طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتُب ـ مصر ـ دون تاريخ.
١٣٢ ـ الوفَا بأحوالِ المصطفى: لابنِ الجوزي ـ تحقيق مصطفى عطا ـ دار الكتبِ العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ.
١٣٣ ـ وفاءُ الوفا: للسَّمهودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٤ م.
١٣٤ ـ وفيات الأعيان: لابن خَلّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

ومصادرُ ومراجعُ أخرى كثيرةٌ جدّاً منثورةٌ في ثنايا الكتاب.
والحمد لله رب العالمين الذي تتم بنعمته الصالحات.

فهرس الموضوعات

* * *



- بإذن الله -

سيصدرُ قريباً

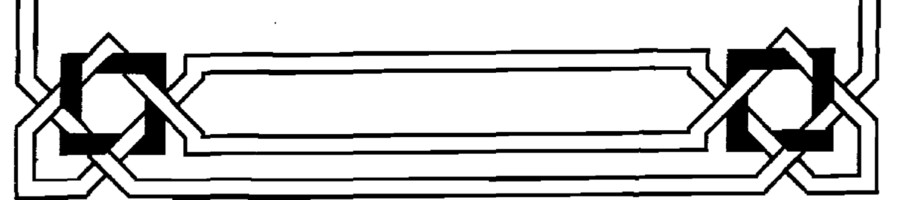
للمؤلّف الأستاذ أحمد خليل جمعة

كتاب

فُرسَان منَ التَّاريخ

وبذيله

فارسات من التاريخ





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com